غي برفيليي

# النخبة الجزائرية الفرانكوفونية

1962-1880

دار القصبة للنشر




# النخبة الجزائرية الفرانكوفونية

# 1962- 1880

غي برفيليي

# النخبة الجزائرية الفرانكوفونية

## 1962 -1880

ترجمة : م. حاج مسعود

أ. بكلي

ع. بلعربيي




دار القصبة للنشر

فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

العنوان الأصلي للكتاب

**LES ÉTUDIANTS ALGÉRIENS**
**DE L'UNIVERSITÉ FRANÇAISE**
**(1880 - 1962)**





تدمك : 0 – 696 – 64 – 9961 – 978
الإيداع القانوني 3709 – 2007

# تقديم

دخلت الجزائر في مجنٍّ الحركة الاستعمارية، خلال القرن التاسع عشر، وأُقحمت في نسق الحداثة إقحاما؛ ولقد كان ذلك التحوُّل شديدَ الوطأة على أُناس أُرغموا عليه إرغاما؛ ونجم عن تسارع الأحداث، وما اكتنفها من ظروف الهيمنة، انهدامُ البنية الثقافية وانحسارُ فضاء الثقافة الإسلامية وتراجعُ اللغة العربية أمام انتشار الثقافة الفرنسية.

إنَّ الصدمات النفسية التي أعقبت تلك الرجَّة ما تزالُ حيَّةً في النفوس إلى الوقت الراهن؛ فكأنَّما الماضي لا يزال حاضرا؛ وهذا لا يعني أنَّ ثمة تخوُّفًا من عودة محتملة للاستعمار بل يعني أنَّ فريقا من الجزائريين قد اختلطت عليهم المفاهيمُ الثقافية والقيم الاجتماعية. لقد كان وقع الانهيار شديدا على الناس إلى درجة أنَّهم، الآن، يعانون صعوبات جمة في استحضار ماضيهم أو النظر إليه نظرة موضوعية. لا تزال رحى الخلاف والتصادم تدور بينهم بسبب الذكريات الأليمة وما ينجرُّ عنها من شقاق اجتماعي وقطيعة سياسية حول سبل الاستمرار في الوجود. استُقبلت عمليةُ "الفرنسة"، آنذاك، بتهليل مبالغ فيه وبمديح وإطراء لآثارها الحاصلة؛ ويمكن القول، بدايةً، بأنَّ الاختلال الاجتماعي الذي ترك بصماته على شعبين تعايشا في

فضاء مشترك، ولكنهما كانا منفصلين عن بعضهما، لم يكن ليساعد على اندماج طائفة من الجزائريين الذين استفادوا من مزايا التعليم الفرنسي؛ باستثناء بعض الحالات القليلة التي لا ينبغي اعتمادُها حجة ولا تعميمها على سواد الشعب الجزائري؛ ويمكن القول، ثانيا، بأنَّ إشعاع أقطاب الحداثة، المتمركزة أساسا في مناطق تواجد المستوطنين، كان إشعاعا خافتا في بقية المناطق؛ وبالتالي فإن الانفتاح على الأفكار الجديدة لم يُلغِ الثقافة الإسلامية ولم يقتلعها من جذورها. الواقع أنَّ الحراك الثقافي والفكري لم يكن صراعا مريرا بين الثقافتين بقدر ما كان عملية لقاح وتهجين أفرزت تركيبات جديدة.

ساهم العديد من الدراسات المنجزة خارج الوطن، منذ سنوات، في تشكيل نظرة جديدة لنشأة النخبة المثقفة الناطقة باللغة الفرنسية والواقع أنَّ تلك الدراسات جاءت مناقضة تماما لأسطورة تأسيس جزائر الاستعمار. تندرج الدراسة المنجزةُ من طرف السيد Guy Pervillé في هذا المنظور لأنَّها ترمي إلى مراجعة فترة تاريخية تغلب عليها الاعتبارات الإيديولوجية؛ وهذا ما يدعو إلى تقدير أهمية البحث الوافي الذي أنجزه الباحث بواسطة التقصي الميداني لاستحضار الظاهرة الاجتماعية وإبراز أوجهها العديدة بعد أن أطلَعنا على مصادر معلوماته ونبَّهنا، بكل تواضع، إلى أنَّه لم يُحط بالموضوع من شتى جوانبه.

إنَّ الظرفية الاجتماعية والسياسة التي برزت فيها النُّخبة المثقفة الجديدة، في غياب مجتمع مدني متطور، تُنير أمامنا سُبلَ إدراك الحقائق لاعتبارات عديدة: فانفصالُ تلك النُّخبة عن الجماعة التي أنجبتها لم يسمح لها بتشكيل قوة خاصة بها بل فرض عليها الانضواء ضمن مجموعة من الحركات الثقافية والسياسية التي لم تكن تعكس الواقع الاجتماعي الحقيقي لتلك النخبة بالرغم من أنَّها أتاحت فرصةً فذَّة لخوض تجربة ثورية شعبية.

تميَّز الطلاب الجزائريون "المفرنسون" بثلاث صفات بارزة هي كالآتي:

أ) اعتناقُهم مبادئ الديمقراطية بالوصاية: فهم يعتقدون أن تحديث الأساليب الاقتصادية وتطوير سلوك الأفراد شروطٌ ضرورية لتحقيق الديمقراطية؛ بل ذهبوا في هذا الصدد إلى الاعتقاد بأن الديمقراطية لن تتأتّى إلاّ بخضوع الشعب إلى الوصاية خلال فترة زمنية معيَّنة.

ب) إيمانُهم بفضائل الفكر العلمي واقتناعُهم الرّاسخ بأنّ على عاتقهم رسالةً لا مناص لهم من تأديتها.

ج) تناوُلهم مفهوم الحداثة والعمل السياسي تناولا تطغى عليه مقاربة ميكانيكية؛ فكانوا يطمحون إلى إنجاز مشروع مجتمع عصري بالتركيز على الآليات التقنية دون غيرها. إنَّهم، بهذه الصفة، يتجاهلون الحركية الاجتماعية التي تقوم على مبادئ أخرى غير تلك المتحكمة في التغييرات الاقتصادية؛ فتراهم يغضون الطرف عن تحديد نمط المجتمع المُرتقب ونوع الرقابة الشعبية التي ينبغي ممارستُها؛ وإلى جانب تقديس الاعتبارات التقنية كانوا يتصورون أنّ العمل السياسي من مهام الدولة وحدها وأنها هي المسئولة عن إحداث التغيير الاجتماعي؛ وفي هذه المقاربة تختفي العلاقة بين النضال السياسي والحراك الاجتماعي. كلُّ هذه الاعتبارات مطابقة لأماني Guy Pervillé فهو يدعو قُرَّاءَه إلى مواصلة البحث والتنقيب في الموضوع.

بوسعنا أيضا إكمال المونوغرافيا التي صاغها المؤلف وذلك بالعمل على تقييم سُلَّم العلاقات التي ربطت بين المعرَّبين والمفرنسين وما تضمنته من امتدادات سياسية؛ ويتجلى ذلك التباين اللغوي، أيضا، على الصعيد العقائدي والأخلاقي والفكري: ففيه يتبلورُ التأثيرُ الحاسم على الثقافة السياسية وعلى اتجاهات الرأي المتشبِّع إما بالتقاليد الإسلامية أو بالتصورات المثالية للدولة – الأمة. وفي ميدان الواقع تفعل الانتماءاتُ

الإيديولوجية والمصالحُ الاجتماعية فعلَها في تغيير الفواصل بين الطرفين؛ والحال أنَّ الحدود اللغوية تظلُّ، على الدوام، حاضرة وفعّالة لأنها بمثابة حاجز يحول دون تصدُّع الكتلتين الثقافيين ويمنع انصهارهما في مجموعة أشمل لا يمكن أن تكون لغتها غيرُ اللغة العربية.

بعد صدور كتاب Guy Pervillé أضاف السيد علي هارون معطيات جديدة إلى تاريخ الحركة الطلابية.[1] ولم يتم الكشفُ بعد عن الملفات المتعلقة بنتائج الإضراب الطلابي، في ماي 1956، وعواقبه؛ وأشكال الرقابة التي كانت تمارسها فدرالية فرنسا على الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين؛ وممارسات لجنة المِنح والاتصال؛ ووسطاء السلطة الفرنسية... ولا غرو أنَّ نشر تلك الملفات سوف يقدم خدمةً جليلة لمن يرغب في إنجاز مزيد من الأبحاث حول الجزائر.

محمد حربي

باريس 15 ماي 1997.

1. الولاية السابعة، Seuil Paris، 1986.

# توطئة

هذا الكتاب بمثابة تكملة لبحث طويل توقَّف إنجازُه ثم تواصل عدّة مرّات.

لقد شرعتُ في إنجاز هذا البحث، في سنة 1970، استجابةً لاهتمام خاص بحرب الجزائر؛ وكان يبدو لي، آنئذ، أنَّ أحسن سبيل إلى فهم تلك الحرب هي القيام بتحقيق حول مساهمة الطلاب الجزائريين ذوي التكوين الثقافي الفرنسي فيها باعتبار أنّهم يمثلون، بفضل ثقافتهم الفرنسية، شريحة اجتماعية يستطيع الطالبُ الفرنسي محاورتَها بسهولة ويُسر. ولقد أثبتت التجربةُ سلامةَ هذا المنحى؛ كما دفعني منطق البحث في هذا الموضوع إلى تقصّي أسباب حرب الجزائر ودوافعها من خلال دراسة تطوُّر السكان المسلمين الجزائريين في عهد السيطرة الفرنسية.

وفي نفس الوقت؛ لم تعد "النخبة المثقفة المفرنسة"، الوسيطة بين شعبها وبين فرنسا، مجرَّدَ موضوع يُثير الفضولَ ويُغري بإنجاز بحثٍ وإنما أضحت تلك النُّخبةُ مركزَ اهتمام حقيقي بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى.

هكذا ارتأيتُ توسيعَ الإطار الزمني لهذا البحث فلجأتُ إلى تأخير تاريخ بدايته إلى غاية سنة 1908 وهي السنة التي اشتهرت بقيام أولى مظاهرات حركة الشباب الجزائري وخلالها لاحت المؤشراتُ الأولى عن وجود طلبة

مسلمين في جامعة الجزائر. إنَّ ندرة المصادر التاريخية، عن المرحلة السابقة لذلك التاريخ، صعَّبت مهمةَ تقصي الأحداث والرجوع إلى بدايات ظهور أوائل الطلبة الجزائريين في الجامعة الفرنسية قبل سنة 1880.

وبالفعل طرحت ندرةُ المصادر مشكلا أساسيا دفعني إلى الاعتماد، في البداية، على المصادر الشفوية: فأجريتُ مقابلات مع ما يربو عن ستين شخصا ممن كانوا فاعلين في الأحداث أو كانوا شهودا عليها ولا يزالون على قيد الحياة؛ وكان أغلب أولئك من قدماء الطلبة الجزائريين. فلا يسعني، في هذه المناسبة، إلا إسداء جزيل الشكر لهم على حسن استقبالهم لي وعلى المعلومات الثرية التي زوَّدوني بها؛ ولقد اعتمدت، أيضا، على شتى المصادر، من الكتب والدوريات، المتوفرة في المكتبات؛ وأجهدت نفسي على قراءة كلِّ الكتب المنشورة باللغة الفرنسية وتلك التي ألَّفها مسلمون جزائريون؛ واطلعتُ أيضا على الصحف الإسلامية التي صدرت باللغة الفرنسية. ثم نقَّبتُ في محتويات الأرشيف العمومي الفرنسي، المُرخَّص إلى غاية سنة 1939، وذلك حسب ما سمحت حالة الجرد التي يوجد عليها و الترتيبات والإجراءات المعقَّدة السائدة في هذا المجال.

تختلف كمية المعلومات، من حقبة لأخرى، اختلافا بيِّنًا؛ حيث بلغت أقصى وفرتها في الفترة الممتدة بين سنتي 1919 و1939 وذلك بفضل تضافر المصادر وتوفُّر حصيلتها؛ أما البحث عن الأصول، فيما قبل ذلك التاريخ، ففيه نقصٌ واختلالٌ كبير في المعطيات (بسبب قلَّة عدد الطلبة المسلمين، في تلك الفترة، ولندرة من ظلَّ منهم على قيد الحياة)... وينطبق نفس القول على الفترة التي أعقبت سنة 1939 وذلك بسبب غلق الأرشيف العمومي وبسبب ما لحق مصنفات الجرائد من بعثرة بسبب الحروب من 1939 إلى 1945 ومن 1954 إلى 1962 وكذلك بسبب تكتُّم المُستَجوَبين المتناسب طردا مع حداثة المعلومات التي أدلوها ومع أهميتها السياسية.

إنني واعٍ تمام الوعي، في نهاية هذا العمل الطويل، بأنَّ صبري قد نفد قبل استنفاذ الموضوع؛ وبأنني، رغم الجهود التي بذلتُها، لم أتكمن من الإحاطة بجميع المعلومات ولا من تأويلها؛ ولكنني متيقنٌ بأنني قدَّمتُ، على الأقل، مساهمةً جديدة ومفيدة لتاريخ الجزائر وتاريخ فرنسا؛ فأرجو من القارئ موافاتي ببعض الأخطاء التي سيعثر عليها أو الهفوات التي سيلاحظها: وسوف يبلغُ الكتاب هدفَه إذا تمكَّن من إلهام البعض ودفع البعض إلى المضي بالتحقيق إلى أبعد مدى.

# مقدمة

"بالسيف والمحراث... وبالفكر"

إن تاريخ الطلبة والمثقفين المسلمين الجزائريين ممن تلقوا تكوينا فرنسيا، خلال القرن السابق لاستقلال بلادهم، تاريخُ "احتلال معنوي" حقق، في أول أمره، نجاحا منقطع النظير قبل أن يتحوّل إلى فشل مفارق. لا ينبغي أن يُفهم من عبارة "احتلال معنوي" نشوء علاقات صداقة بين شعبين متمتعين كليهما بالحرية وإنما الأمرُ لا يعدو عن كونه عملية استيلاء تمّت بفعل القوة وأدّت إلى انضواء المغلوبين تحت لواء جنسية الغالب.

كانت فرنسا في أشدّ الحاجة إلى ذلك لتتمكن من بسط يدها على الجزائر التي ظل سكانها يرفضون، بإصرار، تلك السلطةَ المفروضة عليهم عنوةً وراحوا يقاومون تلك الأساليبَ العنيفة التي يحلو للبعض تجاهلُها. ولمّا تَبيَّنَ أن بقاء المنطقة تحت سيطرة الجيش، بصورة دائمة، أمرٌ مستحيل؛ لجأت فرنسا إلى حلٍّ فعال، على المدى القصير، وهو إحلالُ أكبرِ عدد من المستوطنين في البلد بغرض التصدي لانتفاضات الأهالي وتمرّدهم إلى أن يحين اليوم الذي يرضخون فيه للاحتلال الأجنبي كواقع لا رجعة فيه. بيدَ أنّ السكان لم يذعنوا لحتمية الانقراض بل لقد تكاثروا بوتيرة أسرع من تزايد أعداد الوافدين؛ فمن الطبيعي، إذن، أن يشكّلوا أغلبية سكانية ساحقة في

بلدهم؛ ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحدّ بل ازداد الفارق العددي اتساعا بمرور الزمن. ذلك هو السبب الذي جعل فكرة إدماجِ الشعب المغلوبِ أفضلَ وسيلة لضمان ديمومة "كيان الجزائر الفرنسية".

ولقد اتضح أن إدماج الجزائر في فرنسا سوف يكون عمليةً شاقة وطويلة النَّفَس وأنّ إدماج الأهالي ثقافيا، مع الغالبين الفرنسيين، يجب أن يكون شرطًا سابقا لمنحهم حقوقا مدنية بل سيكون الإدماج معيارًا لاستحقاقهم تلك الحقوق. كانت تلك السياسة، المتشككة، تعتقد أنها تتوخى الحذر حين تجنح إلى التمييز بين طائفتين من الأهالي هما: طائفة "النُّخبة"، المتفاوتة "التطور"، وطائفة العوام الذين ظلوا على "همجيتهم"؛ ولم يسعف الوقتُ تلكَ السياسة سوى تحقيق بعض الانتصارات الجزئية: فالجزائر لم تتحول، في يوم من الأيام، إلى أرض فرنسية في نظر أغلبية سكانها. إنّ العدد الأكبر من الأهالي، الفلاحين والرعاة، كانوا يعيشون ضمن أُطرهم القبلية التي تقرّر الاحتفاظ بها كما هي، على ما يبدو، وظلوا بسبب ذلك أجانب عن الثقافة الفرنسية تماما. بيدَ أنّ طائفةً من الفلاحين الذين اجتُثوا من جذورهم، بفعل سياسة الاستيطان وما انجرّ عنها من آثار اقتصادية، تأثّروا بنمط معيشة الفرنسيين القاطنين في قرى الاستيطان وفي ضواحي المدن الكبرى وفي الثكنات أو في مصانع فرنسا ذاتها؛ وأضحت تلك الجموعُ، الكادحة والمستغَلة، تستعمل بعض مفردات اللغة الفرنسية في طيات حديثها ولكنها لم تكن تُحسن القراءة ولا الكتابة. كانت تلك الجماهير، في بعض الأحيان، تحشر في لهجتها العربية والبربرية الدارجة بعضَ الألفاظ والجمل المقتبسة من اللغة الفرنسية، وتلك أمثلةٌ حيّة عن "التحوُّل الاتصالي"، في نظر الجغرافي Emile Félix Gautier.

أما على مستوى اجتماعي أعلى فكانت توجد طبقةٌ أكثرَ حُظوةً وهي المتمثلة في فئة المستفيدين من مزايا التعليم الابتدائي؛ وكان عددُ أفرادها

كبيرا في المدن، على وجه الخصوص، أو في بعض القرى ذات الكثافة الاستيطانية العالية؛ وكان التعليم الابتدائي، الممنوح لعدد محدود من الأهالي، امتيازًا استثنائيا جعلهم صنفا من "النُّخبة" في الأوساط الاجتماعية التي ينتمون إليها.

والحال أنَّ مجموعةً أقلَّ عددًا كانت أولى باستحقاق تلك التسمية وهي النُّخب "الوسيطة" المُشَكَّلةُ، قصدًا، من طرف السلطات الفرنسية لتأطير جموع الأهالي ولتبليغهم أوامرها: إنهم ضباطُ فرق الأهالي، الذين جُنِّدوا فور الاحتلال، وكذلك قدماءُ تلاميذ "المدارس" (العربية) الرسمية الثلاث، التي تأسَّست رسميا سنة 1850، وكان منهم القضاةُ وعلماء الدين ومُدرِّسو اللغة العربية. ثم يأتي المعلمون ضمن "التعليم الخاص بالأهالي": أي أولئك الذين تلقوا تكوينهم في مدارس ترشيح المعلمين في مدينة الجزائر منذ سنة 1865 ثم بوزريعة منذ سنة 1887؛ وأخيرا يأتي سلك أعوان الصحة الذي تم إنشاؤه سنة 1906؛ ولقد ساهمت تلك "النُّخب"، المبرمجة وفق مهام مضبوطة، في تكريس الهيمنة الاستعمارية من منطلق تفويض ضمني ليس إلاّ.

تتميز النُّخب العليا المُتكونة من قدماء الطلبة، خريجي الجامعات الفرنسية، عن تلك "النُّخب" الوسيطة؛ فالمنتمون إلى النُّخب العليا كانوا فئة "مثقفة" تولي اهتماما خاصا بكبريات المشاكل ولقد تلقوا نفس التكوين الذي تلقاه موظفو القطاع الإداري أو الاقتصادي في فرنسا. ألا يحقُّ لهم أن يطمحوا إلى مناصب أعلى في سُلَّم المسئوليات لتسيير شؤون بلدهم؟ فمن سنة 1908 إلى غاية سنة 1962 كان شغلُهم الدائم هو المطالبةُ بالمزيد من المسؤوليات في أشكال وصيغ سياسية متنوعة؛ وبما أنَّ مطالبَهم لم تكن تروم تحقيق مآرب شخصية فلقد كان تظلُّمُهم المستمر مصدرَ خوف وقلق لدى المستوطنين. كانت ترقية الأهالي "المتطورين" أمرًا مرغوبا فيه، من الناحية المبدئية، بشرط أن لا تتزعزع "الهيمنةُ الفرنسية" من جرَّاء ذلك: فالنُّخبة لن

يُؤتمن جانبُها ولن تحقّق هويتها الفرنسية التامة إلا إذا انفصلت عن الشعب "المُتخلّف" الذي أنجبَها؛ ولكنها، في تلك الحالة، لن تخدم هدف الاندماج إذا فقدت مصداقيتها في نظر مجتمعها الأصلي. تلك هي المفارقة التي خلطلت حبال السياسية الفرنسية. أما الطلبة المسلمون الذين رفضوا شراء ترقيتهم، مقابل التنكُّر لذويهم، فلقد ظلوا مدة طويلة يبحثون عن حلٍّ لمعضلتهم: كيف يحققون النجاح بدون خيانة ذويهم...

– "اسمع يا هذا: أعتقدُ أنك من طينة مغايرة للآخرين. أنت لا تشبههم. أظنُّ أنَّهم يخيفونك. أنت رجلٌ معتدل. بديهي أنَّ الجنسية الفرنسية سوف تليق بك لياقة بذلة لم تُحسن حياكتها لكن "البرنوس" سوف يليق بك أكثر"

– لستُ شاكيا ولا مضطربا بسبب الانتماء المزدوج: أنتم تقولون لي "قدّم لنفسك خدمةً... حدّد هويتَك؛ فأنت لستَ عربيًا تماما ولا فرنسيا تماما"... وأنا أفهم من ذلك قولكم "يجب عليك خيانة نفسك إن رُمت الالتحاق بصفوفنا" إنَّني أعرف تمام المعرفة أين أضع نفسي.

– ولكنك، يا سعيد، لستَ كالآخرين؛ فمعك يمكن التحاورُ؛ ويمكن أن نستضيفك عندنا؛ ويمكننا تجاذب أطراف الحديث عن René Char وعن Beethoven.؛ أنت لستَ مثل الآخرين. نحن نخاطبك بصيغة الجمع تقديرًا لشخصك؛ فلا نُكشّر وجوهنا تقززًا من رؤيتك ولا نُضمر مشاعر الخوف منك؛ بل؛ معك يمكن أن نتفاهم.

– هذا خطأ! أنا مثل الآخرين؛ وشهادة الباكلوريا لا تُضيف لي شيئا ولا تُنقص مني شيئا. أنا كالآخرين في شارع Les Cordeliers؛ وفي ساحة Saint-Michel؛ وفي جبال Les Vosges أو في Saint-Etienne. أنا مثل الآخرين مع الآخرين. أفهمُ مغزى رغيف خبزهم وبندقيتهم. وأُنادي أمي "آمّا" كما ينادون أمهاتهم؛ وأُقبّل أولادي كما يُقبّلون أولادهم؛ وأخاف التفتيش

كما يخافون. أنا مثل الآخرين. كل شيء يربطني بهم وكل شيء يؤكد هويتي فيهم. لن أكون، على حقيقتي، إلا معهم. إنَّ الشجرة اختارت غابتها والنغمة اختارت سيمفونيتها. لا يمكن أن يفهمني ولا يمكن أن أفهم...غير أهلي.

مراد بوربون قمم الشجيرات الشائكة، 1962

## القسم الأول

# نشأة الحركة الطلابية وتطورها
# إلى غاية سنة 1954

"هؤلاء الشباب الذين لا تكنّ لهم الجامعة، إلى اليوم، سوى بعض التعاطف المشوب بمشاعر التعالي؛ ليسوا مجرد أطفال منتمين إلى عائلاتهم؛ ولكنهم أبناء الشعب الجزائري برمته. إنهم يضحّون بحياتهم وبكل ما أوتوا من ذكاء وحذق في سبيله".

فرحات عباس 1927

إنّ الطلبة المسلمين الجزائريين، في الجامعة الفرنسية، نتاجُ نظام تربوي غريب عن شعبهم ومسخّر لخدمة أهداف متباينة عن أهدافه؛ والحال أنّ تزايد عددهم دليل واضح على مدى تكيُّف بعض فئات المجتمع الجزائري مع النظام المفروض من طرف الغالبين. وبالمقابل؛ أفرز ذلك النظام نتائج سياسيةً تمثلت في مراجعة المواقف إزاء النظام الاستعماري وإزاء مشروعية السيادة الفرنسية ذاتها؛ وذلك مصداقا لما لقّنهم أساتذتهم من قيم ومبادئ. لكن الطلبة المسلمين الجزائريين لم يحيدوا، إلى غاية سنة 1954، عن الإطار الذي كان مفروضا عليهم.

الفصل الأول

# الدراسة الإحصائية

لم يُضبط العددُ الحقيقي للطلبة الجزائريين أبدا: فمجموعة الإحصائيات الوحيدة الصالحة للاستعمال هي المُدرجة في "Exposé" وفي Annuaires التي نشرتها الحكومة العامة في الجزائر.[1] ولكنها لا تأخذ في حسبانها عددَ الطلبة المسلمين المسجلين في جامعات فرنسا؛ لأن أولئك لم يتم إحصاؤهم بمعزل عن بقية الطلبة الفرنسيين من ذوي الأصول الجزائرية. وليس ثمة، على ما يبدو، أية دراسات وافية عن عددهم وتوزيعهم قبل سنة 1959.[2]

## أ- مراحل التمدرس

يمكن القول، بناء على ما يُستخلص من الإحصائيات المتوفرة، أنَّ عدد الطلبة المسلمين الجزائريين كان ضئيلا ولكنه أخذ يتزايد بسرعة في أواخر الفترة التاريخية التي هي موضوع دراستنا.

1. عرض عن الوضعية العامة في الجزائر من (1881 إلى 1960): الإحصائيات العامة في الجزائر (1894-1924) ثم دليل الإحصائيات في الجزائر (1925-1961).

2. انظر: الطالب المسلم الجزائري ومساره التعليمي والمهني، المكتب الجامعي للإحصائيات، 1960، والجزائر 1960، الكتابة العامة للشؤون الجزائرية.

في سنة 1954 كان الطلبة الجزائريون أقليةً لا تكاد تذكر بالنسبة لنظرائهم الأوروبيين في كل جامعات فرنسا (بما فيها جامعة الجزائر) وكان الجزائريون، بصفة أخص، أقلية في الأوساط الاجتماعية التي ينتمون إليها. يبدو أنَّ مجموع تعدادهم بلغ حوالي 1200، من بينهم 600 في جامعة الجزائر،[3] وكانت هذه الأخيرة تضم حينذاك نسبة 11% من الطلبة المسلمين في حين يمثل المسلمون 89,9 % من مجموع سكان الجزائر.[4]

## 1- أسباب التأخُر

ربما بدا هذا الأمر مثيرا للحيرة؛ ذلك لأنَّ السلطات الاستعمارية حاولت، منذ الشهور الأولى للاحتلال، إيجاد السبل التي تتيح نشر فضائل التعليم بين صفوف "البرابرة" من سكان مدينة الجزائر؛ وبعد عدة سنوات حصلت لديها معرفة أحسن بشئون البلد وتوصلت إلى نتيجة قد يستغربها أكثر من واحد، حتى اليوم، فلقد كتب الجنرال Daumas يقول: "كان التعليم الابتدائي (قبل الاحتلال) أكثر انتشارا في الجزائر وذلك عكس الاعتقاد السائد آنذاك؛ ولقد أثبتت معرفتنا للسكان الأصليين، في المقاطعات الثلاث، أن نسبة الذكور الذين يُحسنون القراءة والكتابة كانت مساوية، على الأقل، لتلك التي تذكرها الإحصائيات عن نسبة المتعلمين في أرياف فرنسا" (أي حوالي 40 %). كان العديد من المدارس والزوايا يُسدي تعليما في المستوى الثانوي، والعالي أحيانا، وكان الطلبة المتفوقون يتوجهون إلى مدن فاس وتونس والقاهرة لاستكمال تحصيلهم العلمي هناك. وبعد مرور قرن أصبح التعليم معمَّما لدى الفرنسيين في حين عمَّت الأميةُ صفوفَ السكان المسلمين فصارت تشمل 90 % من الكبار، في سنة 1948، و86,3 % إلى غاية

3. حسب ما أورده Rober Malan في "Espoir d'instruction" الجزائر وشبابها: الأمانة الاجتماعية، الجزائر، 1957.

4. "جامعة الجزائر" في: Consciences Maghrébines 1955.

سنة 1954. أمَّا الضربة القاضية التي أوهنت انتشار التعليم فتمثلت في غلق المدارس وهجرة المُدرِّسين ومصادرة أملاك الأوقاف التي كانت تُموِّل، بفضل عائداتها، هؤلاء وأولئك بعد العشريتين الأوليين اللتين أعقبتا الاحتلال. كتب Tocqueville عن ذلك ما يأتي: "لقد بسطنا أيدينا على العائدات (التي كانت تدرُّها المؤسسات الخيرية المتكفلة بالصدقات وبالتعليم العمومي) وتركنا المدارس عرضة للاندثار وألغينا "المحاضر" فانطفأت الأنوار حولنا. لقد جعلنا السكان المسلمين أكثر جهلا وتوحشًا مما كانوا عليه قبل أن يتعرفوا علينا". بيدَ أنَّ ذلك الأمر كان يغبط أناسا آخرين: فبعض الضباط كانوا "يعلنون جهرا أنَّه عندما تتحول المدارس القرآنية إلى هباء ويعود العرب إلى جاهلية القرون الأولى فحينئذ يتهيَّأُ لنا تعليمهم شيئا ما".[5]

الواقع أنّ المدلول الكمي للأرقام يزيد الأمور إبهاما لأنه لا يعبِّر عن التعارض الحاصل بين نظامي التعليم هذين؛ فكلاهما يحمل قيما ثقافية خاصة بمجتمعه والمجتمعان غريبان تماما عن بعضهما. كانت المدرسة الفرنسية تسعى إلى تبليغ قيم مُتجددة باستمرار، وإن لم تكن قيمُ عصر التنوير موضوع اتفاق الجميع، فرجال الدين كانوا يُقرُّون بفضائل الثقافة الدنيوية؛ والواقع أنَّ الحضارة الأوروبية، المسيحية والعقلانية، كانت حضارة امتياز وهي الوحيدة المؤهلة لتلك التسمية أما ما عداها فلا يعني شيئا سوى "الهمجية" وخصوصا عند "البرابرة". كان التعليم التقليدي يعتمد على تلقين مضامين الوحي الإلهي باللغة المقدسة، أي اللغة العربية الكلاسيكية، ولقد

5. انظر: Marcel Emerit "العالة الثقافية والمعنوية للجزائر سنة 1830. مجلة: Revue d'histoire moderne et con-temporaine. جويلية – سبتمبر 1954. Charles Robert AGERON: تاريخ الجزائر المعاصرة؟ Que sais-je ( P.U.F 1964) الجزائريون المسلمون وفرنسا: 1871-1919 1979 Yvonne Turin. PUF الصراع الثقافي في الجزائر المستعمرة. Maspero 1971.

أدى ذلك النمط التعليمي البالي إلى تقليص مجالات إعمال الفكر ومن ثمَّة إلى تعتيم رونق الحضارة العربية الإسلامية التي أيقظت العالم المسيحي من سُباته؛ فليس ثمة علمٌ يستحق الذكر سوى تدريسُ القرآن والمواد المساعدة على فهمه وشرحه وتطبيقه وأما ما عدا ذلك فزوائد عديمة القيمة. إنَّ (الرواما) "les Roumis" كانوا ذوي إعاقة كبيرة فيما يتعلّق بالأمور الدينية؛ وإنَّهم، نتيجة لذلك، مثارٌ للشفقة ولم يكونوا مثالا للاحتذاء. لم تسمح هذه الظرفية بقيام مناظرة فكرية ثرية بين الثقافتين بل كانت "المواجهة الثقافية" تندرج في منطق الصدام الشمولي؛ ذلك أنَّ "الاحتلال المعنوي"، عن طريق المدرسة الفرنسية، كان يهدف في آن واحد إلى إضفاء الشرعية على الاحتلال المادي وتكريس نتائجه السياسية. كان Duc d'Aumale يقول: "إن لفتح مدرسة في مجتمع الأهالي مفعولا يعادل قوة فيلق عسكري في عملية بسط الأمن في البلد" ولهذا السبب بالذات استمات المهزومون العُزَّلُ في المقاومة حتى بعد تجريدهم من السلاح "فرفضوا التمدرس".[6]

بهذا الاعتبار يمكن تفسير الفشل، شبه التام، الذي مُنيت به الجهود المبذولة طيلة خمسين سنة وكذا فشل المحاولات المتنوعة والمتكررة والرامية كلها إلى جرِّ الأهالي لقبول التمدرس. كان النجاح الظاهري للمدارس" العربية-الفرنسية"، في عهد الإمبراطورية الثانية، نوعًا من الخضوع المذلِّ أمام التعسف الإداري والإغراء المادي. ومن هنا فقد أُفرغت المدارس من روادها فور الإعلان عن انهزام القوات الفرنسية، سنة 1870، وبنفس الكيفية تراجع التوجه إلى المدارس أثناء الحرب ما بين سنتي 1914 و 1918: "لم تكن هناك سلطة طيلة المدة التي كانت فرنسا أثناءها مشغولة بالحرب" فنجاح المدرسة، إذن، كان مرتبطا بقوة وسمعة المنتصرين؛ ولقد استغرق الأهالي وقتا طويلا قبل أن يقتنعوا بأن الاحتلال الفرنسي سوف

6. أنظر: Ageron و Turin.

يبقى طويلا؛ فظلوا مُعرضين عن الدروس، غير المجدية، التي يُسديها من كانت السيادة بأيديهم بصفة مؤقتة. بعد فشل آخر الانتفاضات الشعبية الكبرى، في سنة 1871، صار الخضوع للاحتلال أمرا واقعا وحمل معه "استسلاما سلبيا" جعل التدريس أمرا ممكنا: "أنتم الأسياد؛ فإن ارتأيتُم أن نُرسل أولادنا إلى مدارسكم فسوف نفعل". هكذا دخل المجتمع المسلم في عهد جديد من التغيير غير الواعي، في بداية الأمر، ثمَّ بسبب الهيمنة الفرنسية أو كردٍّ فعل ضدها فيما بعد. ومهما اكتسى التعليم الفرنسي من أشكال اندماجية إلاّ أنَّ الموقف الرافض للمدرسة الفرنسية تراجع ثم كاد يختفي بصورة شبه كلية بعد الحرب العالمية الأولى.[7] بعد انقضاء مائة سنة، من الاحتلال، صار الرأي العام المسلم يطالب بفتح مزيد من المدارس؛ ولكن ما أن تخلى الشعب عن مقاطعة التمدرس حتى اصطدم تطبيقُ سياسة التعليم بمعارضة وعرقلة من طرف المستفيدين من مزايا الاحتلال.

من المفارقات التاريخية أنَّ انتصار المبادئ والقيم الجمهورية في فرنسا؛ بعد سنة 1870؛ تزامن مع ظهور سلطة أوليغارشية في الجزائر هيمن عليها أعيان المستوطنة والجماعات الضاغطة التابعة لهم في باريس. كان امتلاك بطاقة الناخب بمثابة "وسام شرف ونبالة" يُميِّز تلك الفئة الإقطاعية الجديدة عن بقية جموع الأهالي المقهورين. ولقد تعمَّد النظام السياسي الجديد إهمالَ النظام التعليمي الذي انبثق بصعوبة عن الإمبراطورية الثانية متمثّلا في مدارس اللغة العربية والمدارس الابتدائية والمدارس المتوسطة العربية–الفرنسية؛ فانخفض عدد المدارس من 36 إلى 16 مدرسة في الفترة ما بين 1870 و 1882 وأُغلقت المدارس المتوسطة. فكيف يُفرض التعليم على أناس يرفضونه أساسا؟

---

7. Fanny Colonna، معلمون جزائريون، 1883-1939 Presse de la FNSP 1975، : صفحة 36-37
معلمون في الجزائر يتذكرون Toulouse, Privat.، 1981 و : C.R. Ageron تاريخ الجزائر المعاصرة.
et CR AGERON Histoire de l’Algérie Contemporaine, (Privat 1981op. cit.)

انبعث التعليم، سنة 1883، على يد Jules Ferry الذي طبَّق في الجزائر ترتيبات التشريع المدرسي الفرنسي الجديد؛ ولقد أثار ذلك الإجراء "سخطا عارما" حسب ما ورد في كتاباته: "فوجئت البلديات الفرنسية بقرار إجبارية بناء المدارس لصالح الجموع ذات الأسمال البالية وكانت تلك البلديات تعتبر نفسها في حاجة ماسّة إلى شق شبكة الطرق لتأمين النقل والمواصلات عبر أنحاء المستعمرة" رفضت البلديات الامتثال "لخوض تلك التجربة المُكلِّفة والخطيرة"[8]. تُبرز العبارة السابقة، بوضوح، ما كان المعارضون يدّعونه من مبررات اقتصادية وسياسية مصدرُها المنطق النفعي والفظُّ الذي يميِّز المستوطنين؛ ذلك أنّ الاقتصاد الجزائري كان بحاجة إلى عمال يدويين فقط. ولذلك أكَّد المؤتمر الاستعماري، في سنة 1908، المطالبة بإلغاء التعليم الابتدائي بالنسبة للأهالي وتعويضه بتكوين مهني زراعي؛ وحدث نفس الأمر سنة 1931 حين ساءل Vagnon، باسمهم، الحاكمَ العام Carde، قائلا: "إذا كانت نية فرنسا هي تكثيف تعليم الأهالي في الجزائر فما هو مصير مزارعنا وأين نجد اليد العاملة الزراعية؟ "بالفعل؛ إن التعليم سوف يتيح للشخص الرازح تحت نير الاستغلال فرصةَ الطموح لتحسين ظروفه المعيشية وربما يمدُّه بوسيلة الانتفاض ضدها؛ وهذا خطر لا يهدِّد مصالحَ المستوطنين، فحسب، بل مستقبلَ المستوطنة بأسرها: "إذا تعمَّم التعليم: فإن الأهالي سوف يُطالبون بالإجماع قائلين: "الجزائر عربية!" ظلَّ ذلك الموقف ثابتا واستمر مطروحا إلى غاية انتهاء الفترة الاستعمارية. اعترف الحاكم العام Tirman، سنة 1886، بأن "عدوانية الأهالي تُقاس بمدى مبلغهم من العلم".

بعد نصف قرن من ذلك عقد Emile Félix Gautier مقارنة بين الشباب المسلمين خريجي المدرسة الفرنسية، الذين تطلق عليهم تسمية "الهجين الثقافي"، وبين الخلاسيين الذين كانوا يتزعَّمون ثورات العبيد في

---

8 AGERON, op. cit.,

مستعمراتنا القديمة. في سنة 1949 أكّد الحاكم العام Naegelen "أنّ المدرسة هي المكان الذي يتم فيه بناء المستقبل الفرنسي- الجزائري رغم نُذر الشؤم الذين يقولون لي بأنّ إصراري على تخريج حمَلة الشهادات يعني إعداد وتكوين الإطارات والفِرق لصالح الحركة الوطنية."[9] أما رئيس بلدية القليعة فقد أوعز، في نوفمبر 1954، أسباب "التمرد" إلى "أولئك الذين منحتهم فرنسا فرصة التعليم وأولئك الذين لا يزالون يستفيدون يوميا من التعليم. وهنا أقول لمجلس النواب الجزائري إنّ برنامجه الرامي إلى نشر التعليم أفقيا بإرسال المعلمين إلى أعماق الغابات لتعليم الصبية، رعاةِ الغنم الذين ينفخون في الناي، فأقول أنّي لأولئك الصبية أن يحفظوا أشعار La Fontaine؟ إنني أؤكد بأن ذلك جنون محض. أعِدُّوا برنامجا تعليميا مُعتدلا ولكن لا تُوسّعوا مداه".[10]

## 2- بعض الأرقام

كانت المدرسة الفرنسية في الجزائر ضحية الإجماع الرهيب "الذي تضافر فيه" رفضُ التمدرس" من طرف الأهالي "وظلامية التجهيل" التي أرادها المستعمرون فلم تتطور حالة المدرسة إلا بوتيرة ضعيفة.

لم يبق، في سنة 1880، في المدارس العربية-الفرنسية سوى 1.150 تلميذا مسلما أو 3.172 تلميذا، إذا احتسبنا معهم عدد تلاميذ المدارس الفرنسية البحتة. لم يمتثل الناظر Jeanmaire، المُكلفُ بتطبيق قوانين Ferry Jules التعليمية، الصادرة سنة 1884، بتطبيقها إلاّ بعد سنة 1890 حين قام بتسجيل 10.000 تلميذ أي نسبة 1,9 % من مجموع الأطفال الذين بلغوا سنّ التمدرس؛ وعند مغادرته، في سنة 1908، كان العدد حوالي 33.400 (4,3 %).

9. ناجيلان " مهمة بالجزائر Flammarion 1962. P. 119

10. ذكره إيف كوربير في كتابه( Les fils de la toussaint, PP 411-412) Fayard 168.

كانت نسبة التمدرس كما يلي: نسبة 5 % سنة 1914 ( أي 47.200 تلميذ) ونسبة 6 % سنة 1930 ( أي 68.000 تلميذ ) ونسبة 8,8 % سنة 1944 (أي 110.000 تلميذ) ونسبة 14,60 % سنتي 1953 .- 1954 . (أي 302.000 تلميذ) ونسبة 15,4 % في العام الموالي (أي 307.000 تلميذ ). إنَّ النمو الديموغرافي السريع ينفي توقعات المخطط الذي أُعدَّ في سنة 1944 وكان يرمي إلى تعميم التعليم. فالتعليم ظل امتيازا نادرا بحيث كان الراشدون الذين يحسنون القراءة والكتابة يمثلون نسبة 13,7 % (ثلاثة أرباع منهم باللغة الفرنسية).[11]

شُرع في إرسال أبناء الأعيان إلى مؤسسات التعليم الثانوي في فرنسا إثر الاحتلال مباشرة أما التحاق أبناء بقية المسلمين بالتعليم الثانوي فقد عرف تطورًا متأخرًا في الجزائر. في سنة 1870 استقبلت مؤسسات التعليم المتوسط العربي – الفرنسي، في مدينتي الجزائر وقسنطينة، 271 تلميذا من أبناء الأهالي؛ ولكن بعد إلغاء تلك المؤسسات لم تستقبل مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط الفرنسية عددا مماثلا؛ فلقد نافستها، مدة طويلة، كلٌّ من المدارس الرسمية الثلاثة (المزدوجة اللغة) ومدرسةُ تكوين المعلمين. انخفض عدد الدارسين في المؤسسات الثانوية الفرنسية، في سنة 1889، إلى 81 طالبا ثم إلى 69 طالبا، في سنة 1893، قبل أن يستقر في حدود 85 طالبا قبل سنة 1900. أخذ عدد الطلاب، بعد ذلك التاريخ، في الارتفاع إلى أن بلغ 125 طالبا في سنة 1905 ثم 180 طالبا في سنة 1910 و386 طالبا في سنة 1914. لم تتوج أكاديمية الجزائر، إلى غاية ذلك التاريخ، سوى 67 فائزا في شهادة الباكلوريا من السكان المسلمين وذلك منذ سنة 1880 وكان من بينهم 29 قبل سنة 1910. ثم أخذت وتيرة عدد التلاميذ تتسارع فبلغت 1.358 تلميذا في سنة 1940 و 1.800 تلميذ في سنة 1945 – 1946 و 4.192 تلميذا

---

11. مدرسون بالجزائر AGERON MALAN op. cit.

في سنة 1951- .1952[12] بلغ العدد السنوي للحاصلين على الباكلوريا 100 طالب قبل سنة 1945 وتراوح عددهم بين 300 و 350 طالبا في فترة 1954.

لم يلتحق بالتعليم العالي، في تلك الظروف، عدد يذكر من الطلبة المسلمين ولم يحدث ذلك سوى في تاريخ متأخر. كانت حصيلة تخريج الطلبة الأهالي، منذ تأسيس المدارس العليا الثلاثة في مدينة الجزائر (1879) إلى تاريخ ترقيتها إلى جامعة (1909)، رديئة جدا: تحصّل 19 طالبا على شهادة في اللغة العربية و02 في اللغة البربرية وتحصّل 06 على شهادة ليسانس في الحقوق وتخرّج صيدليٌ واحد وقابلةٌ واحدة من الدرجة الثانية وتحصّل 11 طالبا على شهادة في (مواد الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ) ولم يحصل أحد على شهادة ليسانس في العلوم ولا في الآداب. إنّ الأرقام التالية خير دليل على قلّة عددهم : 6 طلبة مسجلون في المدارس العليا بمدينة الجزائر، سنة 1884، وأقلٌ من 50 طالبا، سنة 1907-1908، كان أغلبهم من خريجي المدارس المزدوجة أو المدارس العليا لتكوين المعلمين غير الحاصلين على شهادة الباكلوريا. هذا بالرغم من أنّ البعض، من ذوي الامتياز، قد تمكنوا، في عهد الإمبراطورية الثانية، من متابعة الدراسات العليا في فرنسا بدءًا بالمدرسة العسكرية Saint-Cyr,Saumur أو المدرسة البيطرية Alfort ثم في كليات Montpellier وباريس. أسفر إنشاء مدارس تكوين المدرسين في مدينة الجزائر، بدون شك، على استقرار النواة الأساسية للطلبة المسلمين في الجزائر.

لكن ذلك لم يثن عزم الطموحين منهم عن الهجرة نحو فرنسا. وبالفعل: فإن متابعة الدراسات العليا، إلى غاية نيل شهادة دكتوراه الدولة، لم تكن مُتيسّرة في مدينة الجزائر إلا بعد أن تحولت معاهدُها إلى جامعة. بلغ

12 AGERON op. cit

مجموع النخبة الحاملة لشهادة الدراسات العليا من الأهالي، في سنة 1910، 25[13] طبيبا ومحاميا وأستاذا و ضابطا.

إنّ نجاح هذا العدد من أبناء المجتمع المسلم، بالرغم من ضآلته، كان بمثابة إنجاز خارق. لقد اندهش Jules Ferry حين التقى، سنة 1891، بأحد الأهالي عضوًا في المجلس البلدي لمدينة قسنطينة؛ وكان في هيئة أنيقة مرتديا بذلة عصرية إنه الدكتور مرسلي (المولود سنة 1856 والذي فتح عيادته منذ سنة 1885). لم يكن الدكتور مرسلي هو الوحيد ولا أولّ تلك الفئة المثقفة ولم تكن تُطلق عليهم بعد تسميةُ "الجزائريين الشباب".[14] إن هذه الحالات الخاصة لا تسمح باعتبار نصف القرن الأول من التواجد الفرنسي بالجزائر فشلا ثقافيا مطلقا.

بدأت ظاهرةُ الغربة تزول عن الطالب المسلم في أوساط الدارسين بصفة تدريجية؛ ففي سنة 1916 كان عددُ الطلبة المسلمين، في جامعة الجزائر، 61 طالبا لكن عددهم ظل متذبذبا إلى غاية سنة 1929؛ ليستقر في حدود 100 طالب في الفترة الممتدة من سنة 1929 إلى 1939. ثم ارتفع العددُ أثناء الحرب العالمية الثانية من 147 طالبا، سنة 1940–1941، إلى 360 طالبا، سنة 1945– 1946، ثمّ انخفض إلى 227 طالبا، في السنة الموالية، وارتفع إلى 386 طالبا، في سنة 1950–1951، ومنذ ذلك التاريخ تسارعت وتيرة ارتفاع عدد الطلبة: من 442 طالبا، في سنة 1951–1952، إلى 572 طالبا، سنة 1952–1953، إلى 513 طالبا سنة، 1953-1954، إلى 589 طالبا، سنة 1954– 1955، ومردُّ بعض هذا التذبذب الحادّ إلى هجرة الطلاب نحو فرنسا التي شرع

---

13 AGERON op. cit.

14. إسماعيل هامت، "المسلمين الفرنسيين في شمال إفريقيا"، منشورات أرمون كولان 1906، قدم أمثلة عديدة لمسلمين قد تلقوا تدريسا ثانويا أو جامعيا فرنسيا. (ص. 190-221) نذكر على سبيل المثال، أساتذة العربية : بلقاسم بن سديره،(مولود سنة 1845) و محجوب بن خلفات، (1853).

فيها، كما سبق ذكره، قبل سنة 1909؛ ثم انطلقت من جديد، ابتداء من سنة 1919 وبالخصوص سنة 1930، ثم تضاعفت بكثرة ابتداء من 1946. كان في باريس حوالي 30 طالبا، سنة 1928، و53 طالبا، سنة 1934-1935، ثم حوالي مئة، سنة 1945-1946، ثم 200 أو 250 طالبا، سنة 1954، وبعد الحرب العالمية الثانية حدثت هجرة حقيقية من مدينة الجزائر إلى باريس[15] غير أنها توقفت بعد سنة 1951-1952 حيث تناقص عدد الطلبة الجزائريين في باريس، فجأة،[16] بينما كان يرتفع بقوة في مدينة الجزائر. وكانت مدن Montpellier وToulouse أهمَّ مراكز استقطاب في الأقاليم الفرنسية (90 طالبا بالنسبة للأولى و 70 للثانية في سنة 1955) لكنها لم تكن الوحيدة بل إن مدنًا أخرى مثل Grenoble وLyon وBordeaux وNancy وRennes وStrasbourg وCaen وPoitiers، كانت تستقبل الطلبة أيضا بحيث استقر في الوطن الأم وقتها 206 طالبا، سنة 1949-1950، و 600 طالب في سنة 1954-1955.[17]

بلغ المجموعُ العام 100 طالب، حوالي سنة 1925، و200 طالب، سنة 1935، و500 طالب، في سنة 1945، و1.200 طالب في سنة 1954-1955.

مهما تكن مصداقية الأرقام التي بحوزتنا فإنها تدل بكيفية واضحة على أن الأعداد قليلة بالرغم من تسارع تزايدها الملحوظ؛ ذلك التسارع الذي سوف تؤثر فيه أحداث الفترة ما بين سنتي 1954- 1962 دون أن توقفه نهائيا.

15. ذكر ذلك الحاكم العام روجي ليونار (كان وقتها عاملا لعمالة باريس) في مذكراته (لم تنشر).

16. شهادة الآنسة بوبوفيتش، المساعدة الاجتماعية في مركز الخدمات الاجتماعية الجامعية لباريس.

17. أرقام رسمية ذكرها أجيرون بالنسبة لسنة 1949-50، ثم تقدير قام به روبير مالان بالنسبة 1954-55 نفس المراجع

## ب) نظام التعليم

### 1- إقصاءٌ بالجملة

تُساعدنا هذه الأرقام على تقييم المبررات الاستعمارية المعارضة لتعليم الأهالي؛ ومن الواضح أن نسبة التمدرس، في سنة 1954، لم تكن تمثل عدداً مُبالغا فيه بحيث أنَّ نسبة 85,4 %، من أطفال المسلمين، لم يكونوا مُسجَّلين في المدرسة الفرنسية.

لم يتم تجسيدُ شعار "الأمل في التعليم" المرتبط بوجود مدارس بأعداد كافية في عين المكان ذلك أنه لم يتحقق بكيفية متساوية بين شتى المناطق؛ ففي البداية كان تمركز المدارس، في بعض المناطق دون الأخرى، من قبيل محض الصدف: فمثلا كان عرش بني ينّي، في منطقة القبائل، سنة 1914 أوفرَ حظّا من حيث نسبة التمدرس بالنسبة لبقية مناطق الجزائر (مدرسة في كل قرية). بينما لم تكن مدينة كبيرة مثل Philippe Ville (سكيكدة) ترى أيَّة فائدة في بناء ولو مدرسة واحدة للأهالي! كان التمدرس، سنة 1954، يختلف من حيث الأهمية باختلاف كثافة السكان الأوروبيين والأهالي وباختلاف درجة تحضرهم وتجمعهم وحسب تبايُن المستوى المعيشي العام للسكان؛ ومن الأمور النادرة، حتى عند الأقلية التي حظيت بدخول المدارس، أن يحظى بعضهم بمتابعة مسار مدرسي وجامعي كامل؛ فلم يكن الجميع، تقريبا، يتطاولون في الأمل إلى أبعد من نهاية المرحلة الإلزامية (الدراسة الابتدائية) والحصول على "شهادة التعليم الابتدائي". كانت سياسة الإقصاء بالجملة مسلطة على أبناء الأهالي أكثر من الأطفال ذوي الأصول الفرنسية؛ ففي الطور الأول نجدُ عددَ التلاميذ المسلمين ضِعف عددِ التلاميذ الأوروبيين؛ وذلك يعني (في قراءة أخرى) أن ندرة التلاميذ المسلمين في المدارس تُعادل خمس مرات ندرة التلاميذ الأوروبيين. أما في الطور التكميلي فنجد تلميذا مسلما واحدا من بين 4 تلاميذ أوروبيين؛ وفي

مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط لا نجد سوى تلميذا مسلما1 من بين 6 تلاميذ. كانت نسبة النجاح في شهادة الباكلوريا تساوى نسبة 1 إلى 7؛ فكان من نتائج سياسة الإقصاء تلك فتورُ علاقات الصداقة التي كان من الممكن نسجُها بين أبناء الطائفتين فكانت الهوة الثقافية تزداد اتساعا سنة بعد سنة.

عندما بلغت هذه الصيرورة مداها كانت جامعة الجزائر تضمُّ، سنة 1954، نسبة 11,4% من الطلبة المسلمين بينما كان عددُ المسلمين يمثل نسبة 89,5 % من مجموع سكان الجزائر.

غير أن نسبة الطلبة المسلمين، في التعليم العالي، (1.200 مسلم من بين 8.000 طالب "جزائري" في مدينة الجزائر وفي فرنسا) كانت تعادل على الأقل نسبة الطلبة الناجحين في شهادة الباكلوريا: 1 من 7 أي 14%. فالإقصاءُ كان يتم قبل الدخول إلى الجامعة، أي في مُستهل النظام التربوي، وكذا في أثناء مراحل التمدرس؛ ومع ذلك فإن الطالب المسلم كان أكثر عزلة في وسطه الاجتماعي من الطالب الأوروبي حيث نجد طالبا واحدا من بين 15.342 من المسلمين؛ في حين كانت النسبة عند فرنسيي الجزائر 1 من بين 227 وفي فرنسا 1 من 300.

ومما ضاعف حدّة عزلة الطالب المسلم هو اختلال التوازن بين عدد التلاميذ الذكور والإناث في صفوف المتمدرسين: ففي سنة 1954 تم تعداد تلميذة واحدة من بين 4 تلاميذ مسلمين؛ وكذا تلميذة واحدة من 6 أو 7 في التعليم الثانوي وحوالي تلميذة واحدة من بين 20 طالبا في الجامعة (51 من بين 602 في مدينة الجزائر سنة 1954–1955 وقرابة عشرة من 200 في باريس سنة 1955–1956). كانت أوائل الإناث الحاصلات على شهادات، من بين بنات الأهالي، يمارسن مهنة معلمات (من بنات أو زوجات معلمين):[18] ثم

18. Cf. HAMET p. 202, op.cit,

قابلات، قبل سنة 1914، ويبدو أن أولّ طالبة مسلمة، في جامعة الجزائر، هي الآنسة حورية عامر (منذ 1927) لكن دليل الإحصائيات في الجزائر لم يخصّص لهن حيّزًا إلا ابتداء من سنة 1936-1937؛ والظاهر أنّ مردّ هذه الوضعية، على وجه الخصوص، هو الذهنية المحافظة التي كانت تميّز المجتمع المسلم؛ تلك الذهنية التي ازدادت تطرُّفا كردّ فعلٍ دفاعي.

## 2- الانتقاء الصارم

مما تجدر مُلاحظتُه أنّ ظاهرة تعليم الأهالي كانت بعيدة كل البعد عن إنتاج مثقفين فاشلين بالجملة اللهم إلا إذا أردنا إطلاق ذلك على الحاصلين على شهادة التعليم الابتدائي! ولذلك ينبغي عدمُ الخلط بين الوظيفتين اللتين كان يؤديهما النظام التربوي: تهدف إحدى تلك الوظيفتين إلى الانتقاء الاجتماعي في حين تهدف الأخرى إلى تحقيق الاندماج؛ أما الأقلية الباقية التي أفلتت من حواجز الإقصاء المتتالية فكانت تشكّل نُخبةً مُصرَّة على الاستفادة من ثمار جهودها؛ غير أن التعليم الإجباري لم يكن يرمي إلى تحقيق مقاصد طموحة بل كان يوفّر لجميع الأطفال، حتى سنّ الرابعة عشر، تكوينًا قاعديا يمكّنهم من تلقّي المعارف والقيم الضرورية لجعلهم أعضاء واعين وصالحين في المجتمع؛ فالمدرسة الجمهورية، التي أقامها Jules Ferry، كانت تُشيع القيم الوطنية والمدنية التي تُمكّنُ الطبقات الشعبية العريضة من تأسيس الجمهورية الديمقراطية. ينبغي للشعبي البسيط أن يحسن القراءة والكتابة والحساب لكي لا يكون سجين الجهل الذي يسعى الأقوياء إلى فرضه بل ينبغي أن يكون مواطنا عليما بحقوقه وبكيفية الدفاع عنها وعن المصلحة العامة.[19]

ذلك الأمر الواقع جعل أنصار نظرية "التركيب الطبقي للأجناس" يهابون من تعليم الأهالي ويرومون إبقاءهم في حالة من التخلف الفكري المطلق.

19. Fanny COLONNA op.cit ، كان ينتقد تلك النظرة المثالية.

فالمدرسة العمومية كانت بمثابة "أداة للتجديد المعنوي" مُخصَّصة لمجتمع الأهالي عموما؛ لأنَّها تُتيحُ لأولادهم فُرص الترقية الاجتماعية والخروج من دائرة التهميش. كانت دروس الأخلاق تتناول القوانين العامة المتحكمة في العمل والتضامن أي تلك القوانين التي تعتبر "كلَّ عمل نزيه شرفًا". كانت أغلبية التلاميذ القدماء تستمر في مزاولة نشاطاتها العائلية دون البحث عن مواصلة الدراسة بعد اجتياز مرحلة التعليم الإجباري.

كان يُمارَس نوع من التمييز الاجتماعي شبه المؤسس، في التعليم الفرنسي، إلى غاية تبنِّي الإصلاحات في عهد الجمهورية الخامسة.[20] كان "أولاد العائلات" يزاولون التعليم في كل مراحل الدراسة: من الأقسام الصغرى إلى الباكلوريا وتلك "علامة تُميِّز الطبقة البرجوازية"؛ أما أبناء الأوساط المتواضعة، الذين لم يبلغوا مستوى الشهادة الابتدائية، فيتمُّ توجيهُهم نحو "التعليم ذي المدى القصير" في "المدارس الابتدائية العليا" أو إلى الدروس التكميلية للحصول على شهادة "الأهلية الابتدائية" أو "العليا". لم تكن مؤسسات التعليم الثانوي محظورة على المتفوقين من أبناء الفقراء وذلك بفضل التعليم المجاني الذي تأسس سنة 1930 وبفضل المنح الدراسية؛ لكن الالتحاق بالسنة السادسة، المشروط بالنجاح في الامتحان، كان يمثل بالنسبة إليهم اغترابا ومغامرة وسط أجواء غير مألوفة لديهم. يختلف التعليم الثانوي، من حيث غاياته وأهدافه، عن التعليم الابتدائي؛ فهو يمكِّن الدارسين من الحصول على ثقافة عامة تُحضِّرهم لتقلُّد وظائف التأطير وقيادة المجتمع. لهذا السبب كانت ظاهرة تضاعف عدد الثانويين وعدد الحاصلين على الباكلوريا، قبيل سنة 1914، مدعاة للحيرة والتخوُّف لدى "أعداء العرب".

20. أنطوان بروست، التدريس في فرنسا 1800-1967، (أرمون كولان 1968). نذكر بانه وقبل سنة 1959، فإن الثانويات والمتوسطات كانت مؤسسات متماثلة، لا يفرق بينها سوى وضعها القانوني، فالثانويات تابعة للدولة، والمتوسطات للبلدية أو للعمالة. إنشاء متوسطات الدراسات الثانوية يعود إلى سنة 1963.

نتيجة لذلك فإن المفوَّضين في المجالس المالية قد خصصوا رُبع المِنح التعليمية للمستوى الابتدائي العالي وطالبوا الحكومة العامة "بأن تُلقي في روع الأهالي مفهومَ التعليم الابتدائي العالي"؛ وذلك ما حصل بالفعل وهو ضد رغبة المعنيين. كان الطلبة المسلمون، إلى غاية سنة 1945، يشتكون من كونهم عرضة لذلك التوجيه الذي كان بمثابة مضيعة للوقت؛ فالتعليم الابتدائي لم يكن يحضِّرُ للتعليم الثانوي بل كان يمثل فرعا منفصلا إلى غاية نهاية الدروس. أما الطلبة الأكثر طموحا من بين المتخرجين من المدرسة الابتدائية العليا، والحاصلين على شهادات، فبإمكانهم تجريب حظهم بالمشاركة في امتحان الدخول إلى مدرسة تكوين المعلمين؛ وفي حالة النجاح يعود التلميذ من جديد إلى المدرسة الابتدائية ولكن بصفته معلما.

كان التلميذ الجزائري عرضة للتمييز الاجتماعي؛ وكان التعليم الابتدائي العمومي في الجزائر، من سنة 1892 إلى سنة 1948، منقسما إلى فئتين هما: التعليم من الفئة "أ" وهو الذي يتطابق تماما مع التعليم في فرنسا؛ والتعليم من الفئة "ب" وكان مخصصا للأهالي. كانت الشهادات الابتدائية متمايزةً والمدرّسون كذلك؛ فانطلاقا من مدرسة تكوين المعلمين يتم تقسيمهم إلى إطار من فئة "أ" أو إطار من فئة "ب".

لم يكن التعليم من الفئة "أ" محظورا على الأهالي: ففي سنة 1944 كان عدد المسلمين الذين يزاولون التعليم في تلك الفئة 40.000 من مجموع 160.000 تلميذ وبلغ عددهم في الفئة "ب" 90.000 من مجموع 92.000 تلميذ؛ ولتجنُّب انتقادات "أعداء العرب" تمَّ تدعيم برامج هذا الأخير بنشاطات تطبيقية تفسح المجال واسعا أمام التعليم الفلاحي والأشغال اليدوية والمهارات التطبيقية. كما تمَّ تكييف مضمون الكتاب المدرسي ليتلاءم مع الوسط الجزائري؛ وضبطت منهجيةُ تعليم اللغة الفرنسية، بالخصوص، لأنها لغة تعليم بقية المواد. تتجلى أهمية "دروس المحادثة" بإضافة عام كامل في

فترة التمدرس زيادة عن الفترة المُقرَّرة في التعليم من الفئة "أ"؛ ولم تكن الشهادات المحصل عليها في نهاية كلا الفئتين من التعليم مختلفة من حيث المستوى ولكن من حيث البرامج. إنَّ هذا الجُهد المبذول من أجل تكييف التعليم في الفئة "ب" لا يخلو من جوانب إيجابية.[21] تمَّ التخلي عن مواصلة تلك الجهود بعد انصهار نمطي التعليم ابتداء من 5 مارس 1948. أوكلت مهمة تنفيذ هذا القرار إلى الحاكم العام Marcel Edmond Nagelen، وزير التربية الوطنية السابق، وكان يرمي إلى تقليص حدة التمييز العِرقي في الجزائر بعد أن ناهضه المسلمون بإلحاح. وبالفعل؛ فإن التعليم من الفئة "ب" لم يكن يفتح آفاقا تذكر سوى في مجالات المدارس الابتدائية العليا ومدارس تكوين المعلمين أو المدارس العربية؛ أما مسار الامتياز فهو ذلك الذي كان ينطلق من التعليم في فئة "أ" إلى الجامعة مرورا بالتعليم الثانوي والمتوسط ولم يكن المسلمون الجزائريون ليرضوا بحرمانهم منه.

## ج) المهمة الإدماجية للمدرسة الفرنسية

كان ردُّ فعل المسلمين بهذه الكيفية أمرا حديثا مقارنة بموقفهم التقليدي الرافض "لمدارس الشيطان" ذلك التعليم الذي كانوا يعتبرونه "شراكًا منصوبة لهم للإيقاع بدينهم وبوطنيتهم"؛ والواقع أنَّ الدين لم يكن مُستهدفا بصورة مباشرة؛ فلقد لعبت مدارس الأبرشيات المسيحية دورا معتبرا عندما تبنَّى مستوى التعليم العمومي بين سنوات 1870 و 1883 (في منطقة القبائل بالخصوص) لكن ذلك الحماس لنشر الدعوة لم يكن يحظى بالتشجيع الرسمي لاعتبارات أمنية.

أما الأفكار العصرية التي كانت تنشرها المدرسة اللائيكية فكانت تلغِّم، بدون شك، ميادين الأحكام المُسبَقة الدينية ولم تكن الأخلاق اللائيكية في

21. حسب وبير مالان.

الحقيقة سوى أخلاق دينية في ثوب دنيوي وكانت برامج سنة 1898 تسند مرجعيتها إلى الإرادة الإلهية.

## 1- مكانة اللغة العربية في التعليم الفرنسي.

كانت الهوية الوطنية، للجزائريين المسلمين، مهدّدة بالفعل بسبب إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية. في سنة 1830 كان ثلاثة أرباع سكان الجزائر يتحدثون بلهجات مختلفة عن لغة القرآن وكانت البقية تتحدث باللهجات البربرية؛ لكن لغة الدراسة والكتابة كانت اللغة العربية "الفصحى" ولقد تسبّب الاحتلال الفرنسي في تدهورها. يبدو أن التدريس الفرنسي؛ في البداية؛ كان يشجع الازدواجية الثقافية "فرنسية – عربية" لكن؛ بعد سقوط الإمبراطورية الثانية تمثّل التوجه نحو الإدماج في تخفيض توقيت تدريس اللغة العربية بشكل محسوس. هكذا فقدت اللغة العربية وظيفتها كأداة توصيل ثقافي فتحوّلت إلى مجرد لغة تدرس. "الجزائر كانت هي فرنسا" وكان على كل الفرنسيين أن يعرفوا لغتهم. والنتيجة المنطقية هي أن اللغة العربية قد اعتُبرت لغة أجنبية في الجزائر (قرار مجلس الدولة سنة 1935 وقرار Chautemps سنة 1938). وفي سنة 1947 كان القانون الخاص بالجزائر يؤكد بأنه ما دامت اللغة العربية تعتبر إحدى لغات الاتحاد الفرنسي فإن تدريسها يجب أن "ينظم في كل المستويات". هذا لم يكن يعني أن تدريسها كان إجباريا: "ففي شهر مارس من سنة 1954 قدم مفتشو التعليم الابتدائي لائحة تعتبر لهجة التعامل لغة دارجة واللغة الفصحى لغة ميتة والعربية العصرية لغة أجنبية وخلصوا إلى ضرورة إبطال تعليم تلك اللغة في هذا البلد نظرا لكون التعريب شكلا من أشكال القمع".

كان التدريس الفرنسي؛ إلى حدود سنة 1949؛ يدرج الثقافة العربية كاختصاص هامشي يتمثل في المدارس الثلاثة التي أسست سنة 1850 حيث

كان تدريسها المزدوج اللغة يهدف إلى تخريج قضاة مكلفين بتنفيذ ما تبقى من الشريعة في المنظومة القانونية للأهالي الجزائريين وكذا علماء الدين الإسلامي ومعلمي اللغة العربية الملقبين بلقب "مدرس".

انحصر مجال تدريس اللغة العربية بصورة صارمة في حدود حاجة الإدارة الفرنسية إليه. فكيف نعجب إذن إذا وجدنا أن جزائر 1954 لا تحتوي من المعربين على عدد يفوق عدد المتخصصين في اللغة الإغريقية بفرنسا؟[22] في سنة 1956 قام Robert Malan، أحد قدماء الأساتذة في مدرسة تلمسان، بحوصلة تدريس العربية في المدرسة الفرنسية جاء فيها ما يلي: في المستوى الابتدائي يقوم 151 مدرسا (من جملة 11561 معلما) بتقديم دروس اختيارية، لمدة ساعتين في الأسبوع، لعدد من التلاميذ يبلغ 45.000" . .نظرا لسوء إدراج ذلك التعليم في البرنامج فإنه لم يكن يترك سوى أثرا ضئيلا في أذهان الأطفال فينبغي أن تدرس اللغة العربية إجباريا لكل التلاميذ وفي كل المدارس وبكيفية مغايرة لتلك المهزلة. حلّت أربع ثانويات فرنسية-عربية ( اثنتان في مدينة الجزائر واحدة للذكور وأخرى للإناث والأخريات في تلمسان و قسنطينة) محل المدارس (العربية) الرسمية التي أسست في عهد Marcel Edmond Nagelen؛ وكانت تؤهل للدخول إلى معهد الدراسات الإسلامية العليا(القسم الأعلى لمدرسة الجزائر سابقا) المؤسس سنة 1946 بجامعة الجزائر. كان هذا الفرع يحضّر رجالا أكفاء متفتحين على الحياة العصرية مع ارتباطهم الوثيق بأفضل ما لديهم من تقاليد. هذا الواقع يعتبر استثناء محمودا لأن كل المؤسسات الثانوية تقريبا لم تكن تقدم سوى دروسا هزيلة لأقلية من التلاميذ. من المفارقات المثيرة أن لغة أغلبية السكان في هذا البلد لا تدرّس إلا كما تدرّس لغة غريبة عنهم. وعلى العموم فإن لغة هذا البلد لا تشغل أي حيز في منظومة التعليم الرسمي إلى درجة أن

22. فيليب مارسيه، "التعايش اللغوي"، التعايش في الجزائر" الأمانة الاجتماعية لمدينة الجزائر، 1956.

الكثيرين من الطلبة «الأهالي» لا يحسنون النطق السليم ولا الكتابة الصحيحة بلغة أمهاتهم".

## 2- اللغة العربية في التعليم الحر.

عندما نتمعّن في رد الفعل التالي؛ وهو صادر عن أستاذ فرنسي؛ يمكننا حينئذ فهم موقف المعنيين بالأمر مباشرة. "يلاحظ الكثير باستغراب كيف أنّ المنظومة التربوية تجبر الجزائريين على الهجرة إلى بلدان المشرق أو إلى الجامعات الإسلامية في شمال إفريقيا عندما يرغبون في مزاولة دراستهم بلغتهم الأم" وبالفعل فإن المجتمع المسلم لم يكن ليقف موقفا سلبيا وهو يشاهد تقاليده تنهار.

حاولت بعض المبادرات الخاصة إبقاء الثقافة العربية حية فبذلت بعض الجهود لاستدراك ما أخلّت به الدولة الفرنسية (التي تعتبر عدوة للإسلام بفعل الاحتلال). دأبت "المحاضر" جاهدة من أجل الحفاظ على الآداب العربية، رغم تقلّص عددها نتيجة مصادرة أموال الأوقاف، كما سعت المدارس إلى تدريس بعض المواد باللغة العربية بدل الاقتصار على تحفيظ القرآن وكانت السلطات الفرنسية ترخّص وتساعد المدارس التي تخصّص في جدول عملها الأسبوعي خمس ساعات لتدريس اللغة الفرنسية. غير أنها كانت تناوئ جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة 1931 لنشر الروح الوطنية والنضال ضد المشروع الإدماجي. كانت تلك الجمعية تنشّط منظومة تربوية متكاملة تتألف من مدارس ابتدائية وفي الطور الأول من التعليم الثانوي (معهد بن باديس بقسنطينة) وكانت تخصّص منحا دراسية لمن يلتحق بجامعات الزيتونة والقرويين والأزهر. كان عدد التلاميذ المعربين والطلبة المهاجرين المصرّح به محل جدل من حيث مدى واقعيته ومقارنته بالأعداد التي تزاول الدراسة في المدارس الفرنسية. فبينما أعلنت الجمعية

في شهر ماي سنة 1955 عن توفرها على 193 مدرسة تضمّ 35.150 طالبا و511 مدرّسا؛ صرّح مصدر آخر؛ من نفس الجهة؛ بأنها كانت في سنة 1951 تتوفر على عدد 7.000 تلميذ أمّا عدد الطلبة الجزائريين الملتحقين بالزيتونة فبلغ 1.000 طالب وبلغ في جامعة القرويين 120 طالبا وفي الأزهر 150 وكان طلبة آخرون متواجدين في سوريا والعراق والكويت.[23]

في شهر مارس سنة 1954 نشرت مجلة "الشباب المسلم"؛ الناطقة باسم شباب جمعية العلماء؛ قائمة اسمية "لطلبتنا في الشرق" كان عددهم الإجمالي 58 طالبا. ومهما كان عددهم الحقيقي فإن ظروفهم المعيشية كانت صعبة وكان محتوى التعليم الذي يتلقونه ذي مضامين تقليدية على العموم فكان أدنى مستوى من التعليم الممنوح في الجامعات الفرنسية بالرغم من جهود التحديث المبذولة مؤخرا. هذه الحال ليست مبررا لاحتقار أولئك الطلبة الشرقيين لأن بعضهم لعب دورا هاما في الثقافة وفي السياسة الجزائرية.[24]

لكن الأمر البديهي هو أن المحيط الفكري الذي تمّت تنشئتهم فيه كان أضعف مستوى بالنسبة لمحيط إخوانهم الذين نالوا حظا؛ قليلا أو كثيرا؛ من الفرنسة. لاحظ زهير فارس وهو صاحب مذكرة في العلوم السياسية حول النشاط النقابي الطلابي الجزائري ذلك الفارق فقال: "من المعلوم أنه، عقب انتهاء الدراسة، فإن المثقفين باللغة الفرنسية هم وحدهم الذين سوف يتم توظيفهم والواقع أن المثقفين باللغة العربية قد نالوا قسطهم من المغامرة ولكنهم لم يعانوا من نفس الصدمات الارتدادية التي عاناها زملاؤهم. ذلك أن الجميع لم يعش؛ بنفس الوطأة؛ مشاكل إعادة الهيكلة الفكرية وتحديد

23. روبير آرون، أصول الحرب الجزائرية منشورات فايار 1962 ص، 297، انظر أيضا مالان. نفس المرجع.

24. نذكر مثلا: علي الهمامي، عبد الحميد بن هدوقة، بلقاسم زدور، والعقيد بومدين.

المفاهيم واسترجاع الشخصية. نفترض هنا بأن المثقفين باللغة العربية وجدوا ضمن جماعاتهم وفي شخصيتهم توازنا أو على الأقل تواصلا وثيقا أكثر مع الثقافة العربية الإسلامية بينما ظل زملاؤهم يبحثون عنها دون انقطاع."[25]

ظهرت إذن نخبتان جزائريتان لم تكونا تتفاهمان فيما بينهما. بل يمكن القول إنها ثلاث نخب إذا صنّفنا قدماء طلبة المدارس والثانويات الفرنسية المسلمة بمعزل عن الطائفتين الأوليين أعني أولئك الذين كانوا يتمتعون بتزاوج حقيقي بين الثقافتين. بكى علماء الدين أسفا على العهود الماضية حين كانت الجزائر جزءا من الفضاء الثقافي العربي الإسلامي وطالبوا بتدريس اللغة العربية (في انتظار تعريب التعليم) وكانوا واعين بالخطر المحدق والمتمثل في تمرد الشبيبة الجزائرية إلى درجة أنهم بعثوا أولادهم إلى المدارس الفرنسية. بالمقابل؛ وُجد من بين الطلبة المكونين باللغة الفرنسية من ندم على انقطاعه عن ثقافة أجداده وتأثر لتدني مستوى اللغة العربية. لكن بالرغم من ذلك النزوع الذي يفترض فيه تقليص الهوّة بين النُّخب إلاّ أنّ افتراقهم ظل أمرا واقعا كما ظلت اللغة الفرنسية مهيمنة على التعليم.

تدلّ إحصائيات سنة 1954 على أنّ نسبة 13,7 % من الجزائريين الراشدين كانوا يحسنون القراءة والكتابة وأنّ 55% منهم كانوا يحسنون ذلك باللغة الفرنسية و25 % بالعربية و20 % باللغتين. هكذا كان 4/3 المثقفين الجزائريين ذوي ثقافة فرنسية كليّة أو جزئية. لا يمكننا أن نعالج في هذا الكتاب سوى المواضيع المرتبطة بالمفرنسين لأنهم الوحيدين الذين تمكننا من التواصل معهم.

---

25. المواضيع، النظريات السياسية، والنشاط النقابي للطلبة الجزائريين من سنة 1955 إلى سنة 1962. باريس، كلية الحقوق، 1966. ص. 35.

اكتسبت تسمية "طالب جامعي" صيتا كبيرا في الجزائر المستعمرة لأن عدد الذين كانوا يتمتعون بتلك الصّفة كان ضئيلا. لا يوجد طالب في مرحلة التعليم الثانوي لم ينتسب إلى ذلك اللقب ممنيا نفسه باستحقاق تلك المرتبة يوما ما. لكن الطلبة الطامحين إلى نيل التسمية؛ أو أولئك النادمين على عدم الظفر بها كانوا، بدون شك، أكثر عددا من الذين تحصّلوا عليها بالفعل وهؤلاء كانوا على وعي تام بكونهم أقلية محظوظة.

## الفصل الثاني

# الدراسة السوسيولوجية

لئن قيل إنّ السبب في دخول تلك الأقلية من الطلبة المسلمين، إلى الجامعات الفرنسية، يعود إلى تراجع الأهالي عن موقفهم الرّافض للتمدرس فذلك طرح خاطئ. هل الإقبال على التمدرس، إذن، دليلٌ على أنّ المجتمع المسلم صار واعيا بأنّ تحقيق أي مكسب لن يتأتى إلاّ بامتلاك أدوات الغالب ومنها التعليم ؟

ذلك افتراضٌ صحيح، في نهاية الأمر وليس في بدايته، فلقد ارتج جدارُ رفض التعليم الفرنسي بفعل نزوع الأفراد إلى مراعاة مصالحهم الخاصة؛ ولذا يمكن اعتبارُ تلك النهاية ظاهرةً اجتماعية محضة وليست حدثا سياسيًا.

كانت الانتفاضة الكبرى، سنة 1871، بمثابة آخر ردود الأفعال الجماعية من طرف الأهالي ضد الاحتلال والاستعمار؛ و لم تعد الوقائع، بعد ذلك التاريخ، ذات بُعد "وطنيٌ" بل صارت الانتفاضات تُعتبر مجردً "زوابع تثيرها بعضُ القبائل" من حين لآخر أو "زوابع يثيرها بعض الأفراد"؛ وكان المارشال Lyautey يسميها زوابع عائلية. كان ذلك زمن الشعار القائل: "كل واحد يدبّر أمره بمفرده والربُّ يرعى الجميع" فمن جهة كان مجتمع الأهالي في غالبيته

فقيرا ومنهوك القوى؛ ومن جهة أخرى كان الوجهاء يحاولون إنقاذ الوضعية الاجتماعية لعائلاتهم بتسخير أنفسهم لخدمة الإدارة الاستعمارية. كانت هذه الفئة، المتمثلة في "خدَّام فرنسا المخلصين" تضمُّ تشكيلةً كاملة ومتنوعة من الأثرياء وكان عددُ الذين يشغلون منصب "القايد" أكبرَ من عدد الذين يحملون لقب "باش أغا" وكان الكثيرُ منهم ينتمي، أصلا، إلى الفئات ذات الأصول الاجتماعية المتواضعة والتي يعود فضل ترقيتها حسب الإرادة الحسنة للسلطة الغالبة؛ أما البعض الآخر فكان من بقايا العائلات الكبيرة التي ذاقت الهوان وهكذا قلبت السياسةُ الفرنسية في الجزائر، عن قصد أو بصورة اعتباطية، تركيبة مجتمع الأهالي رأسا على عقب.

كانت المؤسسةُ الجامعية عاملا من بين العوامل المؤثرة في تلك التحوُّلات الاجتماعية وذلك بسبب نوعية الفئات المنتسبة إليها وبسبب الغايات التي غدت مفتوحة أمامها وبالنظر إلى المصير الذي كانت تعده لطلابها؛ فمن هي تلك الفئات السعيدة المحظوظة يا ترى؟ وأيُّ نوع من النُّخب، "الجزائرية"، كانت الجامعة تصنعها؟ وكيف كانت ظروف تلك الفترة الانتقالية "ووضعية الطلاب" أثناءها؟

يجيب المعنيون على تلك الأسئلة إجابات شفافة وواضحة:

1) كان الطالب الجزائري ينتمي إلى أصول متواضعة.

2) بعد حصوله على الشهادة يطمح في أن يحيا حياة برجوازية.

3) أما أثناء الدراسة فيظل فقيرا.

### أ) الأصول الاجتماعية للطلبة

إذا أخذنا بعين الاعتبار جميع العراقيل التي صادفت شباب الأهالي أثناء سعيهم إلى اكتساب الثقافة الفرنسية يمكننا الجزم بأنَّ الأثرياء والمدعومين

من طرف الإدارة كانوا وحدهم قادرين على الالتحاق بالجامعة. والواقع أنّ هذه الفرضية تبدو معقولة جدا بحيث لم يكن في وُسع "الخمّاس" أو الأجير اليومي أو المستضعف القاطن في البيوت القصديرية إرسالُ أولادهم إلى الجامعة! ومع ذلك فإن الطلبة الجزائريين مُجمعون على تأكيد ما ذهب إليه فرحات عباس، منذ سنة 1927، حين كتب يقول: "معظمُنا ناسٌ فقراء جئنا من "الدواوير" من عائلات بسيطة للحصول على شهادة البكلوريا ولم نكن ندري كيف السبيل إليها".[1]

هيا نتعرف، فيما يلي، على الظروف المادية للطلبة خلال مرحلة دراستهم ونطّلع على ظروفهم الثقافية ونستشف الحوافز الاجتماعية التي كانت تدفعهم إلى الانتساب للجامعة.

## 1- الظروف المادية والثقافية التي اكتنفت الدراسة

لم يكن الطلبة الجزائريون بالضرورة ورثة قوم من ذوي الثروات الكبيرة لأنّ التعليم العالي الفرنسي لم يكن مخصّصا لأولاد الأغنياء دون غيرهم. فالألفين أو الثلاثة آلاف عائلة جزائرية التي كانت تبعث أبناءها إلى مؤسسات المرحلة الثانوية سنة 1954 أملا في دفعهم إلى الحصول على شهادة البكلوريا كانت؛ دون شك؛ شبيهة بالعائلات الأوروبية التي لجأت إلى نفس المؤسسات. إنّ مزاولة مسار دراسي كامل يستلزم قسطا أدنى من اليُسر المالي أو الحصول على منحة دراسية. كان ذلك المال اليسير شكلا متميزا من أشكال الثراء وسط البؤس العام المميز لفئة الأهالي؛ وكان توزيع المنح الدراسية مرهونا بالفوز في الامتحان ولم تكن تُمنح إلاّ للمرشحين المؤهلين من أبناء العائلات الفقيرة؛ ولكن قرارا بتاريخ 1886 قد سمح بمنحها، من غير اجتياز الامتحان، "كامتياز للعائلات التي أسدت خدماتها

1 - المثقف المسلم في الجزائر": الشاب الجزائري، مجموعة مقالات نشرت سنة 1931؛ ص. 50

من طرف الإدارة كانوا وحدهم قادرين على الالتحاق بالجامعة. والواقع أنّ هذه الفرضية تبدو معقولة جدا بحيث لم يكن في وُسع "الخمّاس" أو الأجير اليومي أو المستضعف القاطن في البيوت القصديرية إرسالُ أولادهم إلى الجامعة! ومع ذلك فإن الطلبة الجزائريين مُجمعون على تأكيد ما ذهب إليه فرحات عباس، منذ سنة 1927، حين كتب يقول: "معظمُنا ناسٌ فقراء جئنا من "الدواوير" من عائلات بسيطة للحصول على شهادة البكلوريا ولم نكن ندري كيف السبيل إليها"[1].

هيا نتعرف، فيما يلي، على الظروف المادية للطلبة خلال مرحلة دراستهم ونطّلع على ظروفهم الثقافية ونستشف الحوافز الاجتماعية التي كانت تدفعهم إلى الانتساب للجامعة.

## 1- الظروف المادية والثقافية التي اكتنفت الدراسة

لم يكن الطلبة الجزائريون بالضرورة ورثة قوم من ذوي الثروات الكبيرة لأنّ *التعليم العالي الفرنسي لم يكن مخصّصا لأولاد الأغنياء دون غيرهم*. فالألفين أو الثلاثة آلاف عائلة جزائرية التي كانت تبعث أبناءها إلى مؤسسات المرحلة الثانوية سنة 1954 أملا في دفعهم إلى الحصول على شهادة البكلوريا كانت؛ دون شك؛ شبيهة بالعائلات الأوروبية التي لجأت إلى نفس المؤسسات. إنّ مزاولة مسار دراسي كامل يستلزم قسطا أدنى من اليُسر المالي أو الحصول على منحة دراسية. كان ذلك المال اليسير شكلا متميزا من أشكال الثراء وسط البؤس العام المميز لفئة الأهالي؛ وكان توزيع المنح الدراسية مرهونا بالفوز في الامتحان ولم تكن تُمنح إلاّ للمرشحين المؤهلين من أبناء العائلات الفقيرة؛ ولكن قرارا بتاريخ 1886 قد سمح بمنحها، من غير اجتياز الامتحان، "كامتياز للعائلات التي أسدت خدماتها

1 - "المثقف المسلم في الجزائر": الشاب الجزائري، مجموعة مقالات نشرت سنة 1931؛ ص. 50

لفرنسا". كانت الإدارة تستغل تلك الفرصة لتجازي "خدّامها المخلصين" من بين الباش آغوات والآغاوات والقياد والعساكر وأعوان القضاء ورجال الدين والتراجمة والمعلمين وأعوان الصحة؛ ولقد رفعت حصة القروض المخصصة لمنح الدراسة الثانوية، ضمن ميزانية الأهالي، بكيفية محسوسة من سنة 1904 إلى سنة 1914. وكانت الغاية من ذلك في عهد الحاكم العام Jonnart (1903-1911) هي تدعيم مكانة "البرجوازية المحافظة"؛ أما في عهد خلفه Lutaud (1911-1918) فكان الهدف هو تكوين ضباط كتائب القناصة. واصلت نخبة من الأهالي حملاتها المطالبة بتوزيع المنح الدراسية بطريقة أقلّ جورا وتعسفا؛ وفي سنة 1919 طالبت جريدة "الإقدام"، الناطقة باسم "الشباب الجزائريين"، بربط توزيع المنح المخصّصة للدراسات الثانوية والعليا حسب استحقاق كل طالب مهما كانت أصوله الاجتماعية وبوضع حدٍّ للانحرافات السابقة، التي كانت تخصّص تلك المنح لطائفة محدودة من ذوي الامتياز، لكي يسود الشعور بالعدل والقسطاس (...)"[2]. في سنة 1927 لاحظ فرحات عباس، وكان ابن قايد، ما يلي: "إنّ التعليم الثانوي، الذي هو المنطلق إلى التعليم العالي، لا تحظى به سوى أقلية من ذوي الثراء أو من حصلوا على منح الحكومة العامة. كان المستفيدون من تلك المنح، وهم أبناء القياد عموما، لا يحملون سوى طموحا واحدا هو أن يصبحوا بدورهم قيادا ونتيجة لذلك فإنهم لا يستفيدون، أو يستفيدون بكيفية سيئة، من الامتيازات الممنوحة لهم".[3] بعد مُضي عشرين سنة ندّد عبد القادر سفير بالمنح الهزيلة المخصصة للتعليم العالي وبصعوبة إجراءات الحصول عليها وقلّة المستفيدين منها (تمت تلبية أقل من 30 ٪ من الطلبات عوضا عن 90٪ كما قال الناظر) حتى وإن لم تعد المنح حكرا على أبناء "الخيام الكبيرة" فإن

2. الإقدام رقم 33، 20 نوفمبر 1919.

3. Abbas. Op. cit. p. 31

الاستفادة منها ظلت رهينة بنتائج تحقيقات شرطة الاستخبارات العامة؛[4] فعلى الأقل لم يعد الأمر قضية تمييز عرقي؛ وفي سنة 1949 خصصت ميزانيةُ الجزائر قرابةَ 4/1 عدد منح التعليم الثانوي (4 ملايين فرنكا من بين 22 مليونا) لأولاد المسلمين الذي كانوا يشكلون 6/1 العدد العام للطلبة، سنة 1954، وقرابة – المنح المخصصة للتعليم العالي (700.000 فرنكا من بين 2.700.000) في حين لم يتجاوز عددُ الحائزين على البكلوريا وكذا الطلبةُ المسلمون نسبةَ 14٪ من المجموع.[5] لكن المنح الجزائرية (الصادرة من الحكومة العامة أو من المجالس العامة للعمالات الثلاث) كانت أقلّ أهمية من التي ترد من فرنسا. لقد تراوحت نسبة المستفيدين من المنح الجزائرية (من جملة طلبة مدينة الجزائر) بين 6 و 7٪، سنة 1954، مقابل 18 ٪ في فرنسا؛[6] وكانت قيمتها الإجمالية أقلّ من ذلك بكثير وهذه مسألةٌ تحتاج إلى دراسة أكثر عمقا.

يبدو أنّ العامل الاجتماعي- الثقافي، على نقيض واقع الحال في فرنسا، لم يدعّم عملية الانتقاء القائمة على مؤشّر الثروة؛ فطلبة الأجيال الأولى، على الأقل، قد اكتشفوا ثقافة غريبة عن وسطهم العائلي ولم تكن العائلات الكبيرة المحافظة تتوفر على "إرث" ثقافي يمكن استغلاله مباشرة في المدرسة الفرنسية. إنّ "الورثة" الحقيقيين المستفيدين بنوع من الدّعم الثقافي، خارج مجال الدراسة، هم أبناءُ المعلمين؛ وهؤلاء لم يكونوا ضمن ذوي الامتياز المالي؛ وهناك من كان أكثر أو اقلّ غنًى منهم ولكنه واجه عقبات

4. Egalité 6 février 1947

5. "الجمهورية الجزائرية" (185)، 8 جويلية 1949. أجرون "تاريخ الجزائر" (ج 2. ص 257) حيث يقدر نسبة الطلبة المسلمين بـ 76,9 % من مجموع الطلبة "الجزائريين" سنة 1949-50.

6. "جامعة الجزائر" ضمائر مغاربية. 1955. حسب أجرون، فإن نسبة المنح المقدمة للطلبة المسلمين لا تتجاوز 20 % بعد 1945.

كأداء تحدَّث عنها فرحات عباس كالتالي: "كُنا مدعوين لاكتساب المعارف بلغة ليست لغة طفولتنا ؛ واللغةُ الفرنسية لم تدخل الديار المسلمة فمن البديهي أن نواجه صعوبات لم يكن يعانيها رفقاؤنا الفرنسيون. حاولت مدرسة الأهالي، بكل ما أوتيت من حيلة، معالجة هذه الوضعية ولكنها عجزت ولم تتوصل إلى نتيجة. عندما يكون الطفل خارج القسم الدراسي فإنه يتكلم بلغته وكذلك الأمر عندما يكون في ملعب المدرسة أو في الشارع أو في منزله وما لم يتمكن من الحصول على أوليات اللغة الفرنسية فإن دراسة أية مادة أخرى سوف لن تؤتي ثمارها بالنسبة إليه. أضف إلى تلك الصعوبات حالة الجهل المتفشية بين الآباء والأمهات؛ فالمساعدة والتوجيه الذي ينعم به الأطفال الفرنسيون في ديارهم منعدم هنا؛ وليس للتلميذ الجزائري سندٌ غير المعلم".[7]

إنَّ الانتشار التدريجي للغة الفرنسية، كلغة ثانية في مدن وقرى المستعمرات، قد ذلَّل، بدون شك، كثيرا من الصعوبات؛ كما ساعد تعاقبُ الأجيال، سليلة العائلة الواحدة، على المدرسة الفرنسية ساعد على تخطِّي العقبات التي كانت تواجه سلفَها؛ وهكذا تشكَّل رصيدٌ من الاستيعاب الثقافي استفاد منه أطفال العائلات التي بادرت مبكرا إلى إرسال أطفالها إلى المدارس فليس ثمة علاقة بديهية بين مستوى الثروة والثقافة الفرنسية.

## 2- الدوافع الاجتماعية لمزاولة الدراسة

توحي الأرقام، السابق ذكرها، بأنَّ الطلبة المسلمين كانوا، عموما، أقلَّ حظوة من نظرائهم الأوروبيين؛ فمن المفروض، إذن، أن يكونوا أكثرَ طموحا منهم لأنَّهم لم يجدوا المكانة اللائقة بهم في المجتمع الكولونيالي الجزائري؛ وينبغي التميزُ هنا بين الطلبة الأغنياء "المترفين" وبين أولئك الذين زاولوا

7.Abbas. Op. cit. p.

الدراسة بهدف الحصول على امتياز ما؛ فلقد ضمنت الفئة الأولى مستقبلَها بينما حاولت الفئة الثانية إرساءَ وضعها الاجتماعي على أساس ما تناله بفضل شهاداتها الدراسية؛ وهذا تمييزٌ صحيح أيضا داخل المجتمع المسلم.

وُجدت في ذلك المجتمع نُخب عريقة يمكن نعتها "بالأرستقراطية" لأنَّ أفرادها يفتخرون بشرف أنسابهم؛ كما يمكن، أيضا، نعتُها بأنَّها إقطاعية نظرًا لتسلُّطها المفرط على عامة الأهالي. كانت تلك العائلات، المعروفة باسم "الخيام الكبيرة"، متواجدةً في الأرياف التي تعرَّضت، بصورة محدودة، لاستيطان المعمرين وحيث ظلَّت الأطرُ التقليدية، فيما يبدو، على ما كانت عليه في السابق؛ ويمكن أن نميِّز فيها، بوضوح متفاوت، بين "الأجواد"، أي شرفاء السيف، الذين كانت مهمتهم خلال العهد التركي هي الحراسة والحفاظ على الأمن بين القبائل أو إخماد حركات التمرد والعصيان وبين "المرابطين" الذين كان أجدادهم يتمتعون بنوع من التقديس جعلهم يتوارثون "البركة" وبين الشيوخ النّافذين الذين كانوا على رأس التحالفات القبلية الكبرى. يمكن مقارنةُ هذه العائلات القروية الكبيرة بالعائلات الحضرية المتواجدة في تلمسان وقسنطينة أو الجزائر وهي التي كانت، منذ قرون، تحتكر الوظائف الدينية والقضائية السامية. بعضُ تلك العائلات قاوم الاحتلال الفرنسي وبعضُها الآخرُ تعاملَ معه لكن القاسم المشترك بينها كلها هو أنَّها رأت من الأجدى الاحتفاظ بالمرتبة الاجتماعية المتوارثة ولو بنوع من التحالف الحذر مع المحتلين وهؤلاء من جهتهم فضلوا استغلال نفوذ أولئك بغرض التحكُّم في جموع الأهالي. بالرغم من أنَّ الفرصة قد سنحت لهذه "الأرستقراطية" كي تُرسل أبناءها إلى المدارس إلاّ أنَّها لم تكن ترى في ذلك مصلحةً تُذكر لأنَّها لم تكن مدينة للتعليم الفرنسي بشيء مما يتعلق بشرف انتسابها إلى سلالة مرموقة ومن جهة أخرى فإن من يخضع للاحتلال الأجنبي، كأمر واقع، يكون في حاجة نفسية إلى إرضاء ضميره ولو بإظهار

مقاومة مبدئية على الأقل.[8] في سنة 1914 قدَّم الشريف بن حبيلس، وهو سليل إحدى العائلات القسنطينية الكبيرة، وصفًا قاسيا بخصوص "أولاد البلاد" أي تلك الأرستقراطية التي تجرَّد منها[9] والتي ظلت سجينة كبريائها وكسلها.

أما في الريف فكان كبار القياد والأغاوات والباش آغاوات يضعون ثقتهم التامة في الامتيازات منحتها الإدارة لهم؛ وذلك ما جعلهم، في كثير من الأحيان، لا يكترثون بتعليم أبنائهم. كتب الكولونيل Schoen قبل سنة 1954 قائلا: يبدو أنَّ في إحدى العائلات (لنسميها عائلة س)...لا يوجد من بين أبنائها من أكملَ دراسته الثانوية بينما نجدُ أحد أبناء خادمها تخرَّج طبيبا".[10]

أثارَ الإصلاحُ الثوري الذي أعلن عنه الحاكم العام Naegelen، والذي مفادُه أنَّ توظيف القياد سوف يخضع للمسابقة، أثار زوبعةً من الاحتجاجات والسخط في صفوف رؤساء العائلات الكبيرة وساندهم في ذلك كبارُ المعمرين.

- "هل يُعقل أن يرضخ ولدي لأوامر ابن ماسح الأحذية؟"

- "بلى! إذا تعلَّم ابنُ ماسح الأحذية القراءةَ والكتابة والحساب وإذا فاز في المسابقة التي خسرها ولدُكم بسبب عجزه عن مواجهة الامتحانات البسيطة".[11]

إن "القوم الجُدد" المتعطشون للارتقاء في السلم الاجتماعي، على عكس أولئك الذين يمثلون الماضي، كانوا يعتقدون أنَّ تعليم أبنائهم أفضلُ وسيلة تُمكِّنهم من تحسين وضعية العائلة.

8. Marthe et Edmond Gouvion" كتاب شرفاء المغرب الكبير" الجزائر 1920.

9. شريف بن حبيلس الجزائر الفرنسية من منظور أحد «الأهالي». الجزائر 1914، ص 80-104.

10. ذكره Robert Aron في كتابه، أصول الحرب الجزائرية فايار 1962، ص 293-294

11. NAEGELEN op. cit. p. 133,

تواجدت في المجتمع المسلم الجزائري نُخبتان: الأولى ذاتُ أصول عريقة وأما الثانيةُ فأصولُها شعبية؛ وكانت هذه الأخيرة تعدل الأولى من حيث الثروة. يمكن اعتبارُ تلك النخبة الجديدة طبقةً "برجوازية" لأنَّ صيتها ارتبط بتطور وضعها الاقتصادي. تنقسمُ تلك البرجوازية إلى قسمين هما: "البرجوازية الكبيرة" المتشكلةُ من المقاولين والتجار الذين ما فتئت تجارتهم تزدهر وتتوسع ومن مالكي العمارات أو الأراضي (ويسمون أحيانا "المعمرين المسلمين") ومن بعض الصناعيين. كان هؤلاء الأعيانُ الأثرياء أعضاءً في غُرف التجارة والفلاحة والصناعة. إنَّهم يدفعون دوما أبنائهم إلى مزاولة الدراسة في التخصُّصات القانونية أو العلمية؛ ولكنَّ عددهم ظلَّ محدودا، إلى غاية سنة 1954، وهناك طبقةٌ أكثر عددا وهي المتمثلة في "البرجوازية الصغيرة" المتكونة من الإداريين "النُّخب الوسيطة" ومن الضباط وصف الضباط ومن صغار القياد وأعوان القضاء ورجال الدين ومعلمي اللغة العربية، وتراجمة البلديات المزدوجة أو المحاكم والمعلمين وأعوان السلك الصحي. لقد ساهموا في تكوين أغلبية الطلبة المسلمين بفضل المنح التي تحصلوا عليها لفائدة أولادهم. يُباشر هؤلاء الطلبة، فور تخرجهم، مسارا مهنيا في قطاع الإدارة أو التعليم وتُسند لهم مسئوليات أعلى من تلك التي تقلَّدها آباؤهم أو يتوجهون إلى المهن الحرة كمحامين أو موثقين أو ممثلين قضائيين أو منفذين قضائيين أو أطباء أو صيادلة أو جراحي أسنان. هؤلاء العمال الأهالي الذين يكسبون عيشهم بكيفية جيدة ويتمتعون بنوع من السمعة الحسنة في صفوف المجتمع يشكلون فئة وسطى بين "البرجوازية الكبيرة والصغيرة"؛ وكان جميع هؤلاء القوم الجدد يبعثون أبنائهم إلى مؤسسات المرحلة الثانوية وإلى الجامعة ليتخرجوا، بدورهم، من تلك المؤسسات ولقد مكنتهم مِهَنُهم الحديثة من حُسن تقدير منافع الثقافة الفرنسية لكلٍّ من رام النجاح في الجزائر الفرنسية. هذه الفئة من

"الوصوليين" التي لم تكن تنتسب إلى سلالة مرموقة والتي كانت أكثر انفتاحا على العالم العصري، بالمقارنة إلى الأرستقراطية البالية، هي نتاج النفوذ الفرنسي".[12] لم تكن تلك "البرجوازية" (كما كانت عليه البرجوازية الأوروبية) تمثل "الطبقة المسيِّرة" في الجزائر المستعمرة؛ وكانت تلك الطبقة تُسمَّى، أحيانا، "الطبقة الوسيطة" إشارة إلى موقعها الوسط بين طبقة الأهالي البائسة وبين فئة الأسياد الأجانب المُنغلقة على نفسها والمُدعَّمة من طرف حلفائهما "الإقطاعيين".[13] لم تكن تلك الفئة البرجوازيةُ ثريةً بكيفية متجانسة؛ إلاّ أنَّ نعتَها "بالبرجوازية" هي العبارةُ الأنسب للدلالة على الأصول الاجتماعية للطلبة المسلمين الجزائريين؛ فهي تشمل قطاعا عريضا من الثروات المتفاوتة "كبيرة" و"متوسطة" ثم "صغيرة".

الحالُ أنَّه بقدر ما كان مدلول العبارة واسعا بقدر ما افتقد إلى الدقة في "مفهومه" فما هي النوعية الأكثر تمثيلا؟

أشار السيد أحمد ينال، وهو مفكرٌ شيوعي، في دراسة له عنوانُها: "دراسة تحليلية للحركة الطلابية الجزائرية في نوفمبر 1954" (لم تنشر) أنَّ الطلبة الجزائريين هم، على العموم، "أبناءُ الطبقة البرجوازية والبرجوازية الوطنية" و يؤكد "القادير"، من جهته، في مجلة "الشاب الجزائري" (مارس 1953) ما يلي: "ما زلنا نقول ونؤكد بأنَّ الطالب الجزائري برجوازيٌّ صغير". ذلك، إذن، هو الشعورُ العام السائد ولكن بالرغم من "التصحيح" الذي ألحق بعبارة "برجوازي" لتدقيق مدلولها فإنَّ نصيبا من الاستهجان يظل عالقا بها ولذلك يصرُّ الكاتب على رفضها قائلا: "أما فيما يتعلق بالطلبة المسلمين، في هذه الجامعة، فكلهم تقريبا من أصول شعبية ما عدا بعض أبناء "الخيام

---

12. أمثلة عديدة، من بينها إسماعيل هامت، ولدى Brochier Jeanne et André ، السجل الذهبي للجزائر، الجزائر 1937.

13. "Georges Hardy التاريخ الاجتماعي للاستعمار الفرنسي" باريس 1953.

الكبيرة"؛ وهذا ما يدعونا إلى القول بأنَّهم ليسوا برجوازيين بأي حال من الأحوال، على الأقل، أثناء مرحلة الدراسة".

يُجمع رأيُ المعنيين بالأمر على تأكيد الأصول الشعبية للطلبة الجزائريين؛ فطلبة باريس، مثلا، كانوا يعتبرون أنفسهم الفئة الأكثر فقرًا، بالمقارنة إلى باقي الطلبة القادمين من وراء البحر، ولا نعرف أيَّ واحدٍ، من قدماء الطلبة، يُقرُّ بأصوله "البرجوازية". الواقع أنَّ التناقض بين مفهوم "الشعب" ومفهوم "البرجوازية الصغيرة" لا يحمل الحدَّة التقليدية التي قد نتصورها؛ فهذه العبارة "الشعبوية" لم تكن تُستعمل للدلالة على "واقع طبقي" بل كانت تعني "الوعيَ الطبقي" الذي يمكن أن يتأخر حصولُه حسب تبلور الوضع الاجتماعي الذي لم يستقر بعد.

إنَّ فرحات عباس، باعتباره إبنا لأحد القياد، يدَّعي بحق أنَّه ينتمي إلى الفلاحين الفقراء لأن عائلته تم إفقارها بسبب حجز ممتلكاتها، بعد انتفاضة 1871، فكان أبوه مجبرا على الاشتغال كعامل فلاحي قبل أن يتميَّز في نظر المعمر الذي كان يُشغِّله ليُعيَّن في منصب "قايد". بالفعل فإن منصب القايد، حينئذ، لم يكن وظيفة متوارثة وكثيرٌ ممن لم يكن يتمتع بثروة أو بجاه قد تحسَّنت أوضاعه بفضل تلك الوظيفة؛ ولم يكن من النادر أيضا أن يكون لطالب أو لمتخرج من الجامعة أخٌ أو ابن عم ينتمي إلى فئة العمال أو الفلاحين. إنَّ الشخص الذي يصبح "برجوازيا صغيرا"، بفضل ترقيته الاجتماعية، يمكن له أن يدعي بأنَّه "ابنُ الشعب"، بعد أن نجا من براثن البؤس، فهو لم يتعوَّد بعدُ على نمط حياته الحديثة الممتازة: "في وسط الرخاء النسبي، حيث تدور مجريات حياته الجديدة، لم يكن بوسعه نسيانُ الجحيم الذي أفلت منه، هو، بينما لا يزال أقاربُه يصطلون بناره"[14]

14. Abbas. Op. cit. p. 90

إنَّ إنجاز تحقيقات اجتماعية أصدقُ تعبيرًا من الانطباعات الذاتية وهو الكفيلُ بحسم المناقشات في هذا الصدد. أنجزت المصالح الإدارية، سنة 1950-1951، تحقيقات أظهرت أنَّ نسبة 75 % من الطلبة المسلمين، في مدينة الجزائر، ينحدرون من أوساط اجتماعية متواضعة (أبناءُ صغار المستثمرين أو الأئمة أو المدرسين أو المعلمين أو التجار الصغار أو مستخدَمي المكاتب الخ) تُمثِّل نسبةُ 17 % منهم أبناءَ العائلات الثرية الحضرية أو القروية وينتمي 8 % منهم إلى عائلات ذات أوضاع حسنة أو برجوازية متوسطة (أساتذة أو محامون أو أطباء)؛[15] وأنجزَت جمعيةُ الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين، سنة 1954-1955، سبرًا للآراء شمل مائة من الطلبة المسلمين، في جامعة الجزائر،[16] بيّن أنَّ الأوضاع المهنية لعائلاتهم كانت كالتالي: "يمثل الحرفيون والتجار الصغار نسبة 35 ٪؛ والموظفون 12 ٪؛ والمستثمرون الزراعيون 11 ٪؛ والمستخدمون 9 ٪؛ وأصحاب المهن الحرة 8 ٪؛ والعمال 8 ٪؛ والمالكون 7 ٪؛ والذين ليست لهم مهنة 8 ٪.

يصعُبُ تأويلُ هذا السَّبر وفق التصنيف الذي قام به المعهد INSEE حيث ميَّز بين ثلاثة أصناف من المداخيل: (كبيرة؛ ومتوسطة؛ وصغيرة) لكنَّ دلالة النسب المئوية التي تمثل العائلات البسيطة واضحةٌ للعيان بحيث تُمثل نسبة 66 ٪ إذا لم نقصر العدَّ على الوسط العُمَّالي فقط أما "البرجوازيون"، الحقيقيون، فلا يمثلون سوى نسبة 23 ٪ (لا يصحُّ اعتبارُ "المستثمرين الزراعيين" كتلةً واحدة ولا إدراجُهم ضمن هذا النوع أو ذاك). صحيح أنَّ جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين يمكن أن تكون قد حصرت اختيار عيِّناتها على المنخرطين في صفوفها ومن المعروف عنهم أنَّهم يُمثِّلون الفئة

15. ذكرها Ageron، تاريخ الجزائر... ج. 2 ص. 537 ونفس الدراسة، تبرز تمثيلا أكثر لأبناء القبائل، (من القبائل الكبرى بالخصوص) وهذا يفسره التمدرس المبكر والكثيف نسبيا في تلك المنطقة.

16. جامعة الجزائر. المقال المذكور، وكذا ما يربط الطلاب المسلمين. رقم 4.

الأكثر فقرا في صفوف الطلبة المسلمين في مدينة الجزائر.

مهما كانت القيمة العلمية للمعطيات السابق ذكرُها إلاّ أنها تبقى قاصرة عن حسم النقاش في موضوع يُعتبرُ من خصوصيات علم الاجتماع؛ فمن الجائز أن يكون انتماءُ كل الطلبة الجزائريين إلى أوساط "محظوظة نوعا ما"[17]؛ وذلك بالرغم من بعض التفاوت، حسب الحالات، ويبدو أنَّ أولئك الذين يرفضون أن ينعتوا "بالبرجوازية" لا يُعبِّرون، في الواقع، عن رفضهم للتصنيف الاجتماعي المهني الذي تحمله العبارة وإنَّما ينفرون من الأوصاف المستهجنة العالقة بتلك العبارة كالأنانية والروح المادية الفردية المتنافية مع روح التضامن الاجتماعي.

## ب) المصير المهني والاجتماعي لحملة الشهادات الجامعية

إنَّ الطالب المسلم، بفعل ارتباطه العاطفي بوسطه العائلي، يظلُّ مشدودا إلى الوراء؛ ولكنه مدفوعٌ في نفس الوقت إلى الأمام بفعل قوّتين اثنتين هما: والده وطموحُه الشخصي؛ وتلك وضعيتان لا تتلاءمان، دائما، لأنَّ اختيار المهنة، عموما، تحدِّدُه فُرصُ العمل المتوفرة أكثر من الميول الحقيقية المعنيين بالأمر. "لا يرمي الأهليُ، من وراء طلبه العلم، سوى إلى تحقيق أهداف عملية ولا يهتم بشيء آخر؛ فالجانبُ المادي وحده هو المهم بالنسبة إليه. أما التعليم، الذي لا يحقق شيئا لحامله، فمتاعٌ زائد وزينة غير نافعة. إنَّ بذل الجهد لتحقيق "مُتعة اكتساب الثقافة" مَضيعةٌ للوقت في نظر الطبقة البرجوازية بالرغم ما قد يُفترضُ من أنَّ وضع الامتياز الذي تتمتع به تلك الطبقة لا يحملها على ربط التعليم باعتبارات الربح ومن المفروض أيضا أن

17 WILLIAM B. QUANDT Revolusion and political leadership. Algeria. The MIT press/ 1968.

يصدُق ذلك أكثر عند الأهالي الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة."[18] ذلك ما لاحظه شريف بن حبيلس، سنة 1913، وهذا بالرغم من أنّ ذهنية الأبناء كانت أقلّ نفعية من ذهنية الآباء حسب وجهة نظر فرحات عباس حين يقول: "ومع ذلك فإنّ ما نبحث عنه لدى أسيادنا أساسا ليس هو ممارسةُ مهنة ما بقدر ما هو البحثُ عن أفضلِ طريقةٍ للإحساس والتفكير."[19]

الواقع أنّ الضروريات المادية تفرض نفسها رغم كل شيء ولكنها لا تحولُ دون الطموح إلى مراتب أعلى: مثل النجاح في الحياة المهنية أو القيام بدور اجتماعي مفيد أو الوصول إلى تقلُّد ما أمكن من المسؤوليات. ونظرا لكونهم قد استفادوا بنفس التكوين الذي حظيت به النخبة المسيرة للأمة الفرنسية فمن حق الطلبة المسلمين أن يأملوا في تبوء المكانة المناسبة لتكوينهم.

كثيرٌ من ذوي الفكر السليم، مثل الحاكم العام Maurice Viollette،[20] أو المُعلم الأهلي سعيد فاسي، خريج كلية الحقوق بالجزائر،[21] قد طالبوا بأن تُمنح النُخبة المثقفة فُرصًا أوسع لتقلُّد الوظائف العليا. ذلك أنّ إدماج أبناء الرَّعية في صفوف الأوساط المُسيِّرة من شأنه المساهمة في تجاوز المواجهة التقليدية بين المنتصر والمهزوم كما أنّ نشر ثقافة الأمة المنتصرة في الأوساط "الهمجية"، المغلوبة والخاضعة، سوف يكشفُ عن أسرارِ قُوَّتها ويحقق بذلك تحويلا للسلطة من شأنه أن يهوِّن وضعية عدم المساواة بين السّادة والأتباع إلى حين زوالها.

لاحت لنخبة الأهالي مهمَّةٌ مُغرية ومُذكية للحماس "حين يستوعب الطلبة المسلمون(...) أسرار الثقافة الفرنسية يصير باستطاعتهم إزالةُ سوء

18. BENHABYLES op. cit. p. 24-25.

19 ABBAS op. cit. p. 101.

20. L'Algrie vivra-t-elle? Paris 1931. p. 419-24.

21. L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalite algérienne,Toulouse1932. p 1-3.

التفاهم بين الطائفتين وتبديدُ مشاعر العداوة الكامنة (...) عندما يحين اليوم الذي يتواجد في جميع فروع النشاطات العليا، بفرنسا، حوالي ألفٍ من الشبان والشابات من أبناء الأهالي ويتبوءون مكانة في صفوف القيادات العلمية والأدبية والقانونية والفنية والمهنية والإدارية... حينئذ يصير من الضروري الاقتناعُ بأنَّ الأزمنة الجديدة قد آن أوانُها وأنَّ الجزائر صارت فرنسيةً بحق وأنَّ جميعَ فرنسيي الجزائر متساوون في الحقوق وفي الواجبات". هذا ما كتبه الحاكم العام السابق Viollette للطلبة المسلمين في مدينة الجزائر.[22] ولكن الواقع كشف عن زيف ذلك الأمل المنشود: فالمتخرجون الأهالي وجدوا أبوابَ مراكز المسؤولية موصدةً أمامهم ولم يكن لترقيتهم معنى سوى بصفة شخصية لكل واحد منهم؛ وتسبَّبت بعض الترقيات الفردية في بروز أشخاص أحرار من بين صفوف المجتمع الذي ما يزال استعباديا؛ وذلك هو المدلول الاجتماعي لتوجُّه أغلبيتهم نحو خيار "المهن الحرة" دون الوظائف.

## 1- توجيهُ المسار الدراسي للمتخرِّجين توجيها غير وظيفي.

شكّلت مسألةُ توجيه الطلبة المسلمين موضوعَ انتقادات عديدة ومتفاوتة التأسيس. وُجِّهت أولى تلك الانتقادات إلى الانجذاب المبالغ فيه نحو المواد الدراسية ذات الطبيعة "الجدلية" على حساب الاختصاصات العلمية التطبيقية.

صحيحٌ أنَّ إحصائيات جامعة الجزائر كشفت، بشكل دائم تقريبا، عن توجُّه أغلبية الطلبة المسلمين نحو فروع الآداب والحقوق؛ كما كشفت حصيلةُ الشهادات المسلَّمة للطلبة الأهالي في المدارس العليا، في الفترة من 1880 إلى 1909 (ثم في الكليات من سنة 1910 إلى 1915)، عن سيطرة مطلقة

22. التلميذ (5-6)، مارس-أفريل 1932، ص. 1-3.

للدراسات الأدبية (أزيدُ من ثلثي الحاصلين على الشهادات) ثم تليها الدراساتُ القانونية ثم العلميةُ وأخيرًا الدراساتُ الطبية. لكنَّ مردَّ ذلك أساسا هو طبيعةُ شهادة "الأهلية العربية" الممنوحة لخريجي المدارس العربية أو للموظفين (الأئمة والقضاة أو تراجمة الإدارة الفرنسية) أما طلبةُ الآداب الذين يتقدمون للحصول على شهادة باللغة العربية فكانوا أقلَّ عددا.

يُتيحُ إحصاءٌ للطلبة أُنجز ابتداء من سنة 1915، حسب توزيعهم بين شتى الكليات، بملاحظات مماثلة: فبصفة عامة تحتل الآدابُ المرتبةَ الأولى، من سنة 1915 إلى سنة 1939، ويحتل اختصاصُ الحقوق المرتبةَ الثانية، في نفس الفترة، قبل أن يُنافس، ابتداء من سنة 1950، اختصاصَ الآداب على المرتبة الأولى. أما الدراساتُ الطبية (الطب العام والصيدلة وطب الأسنان) فقد حلّت في المرتبة الثالثة بدل العلوم، سنة 1937-1938، ثم في المرتبة الثانية بدل الحقوق، سنة 1938- 1939، وأخيرا احتلت المرتبةَ الأولى بدل الآداب، سنة 1940-1941، ونظرًا لظروف الحرب فإن الدراسات الطبية قد استقطبت أغلبية الطلبة المسلمين في مدينة الجزائر، من سنة 1941 إلى سنة 1944، محتفظةً بأغلبية نسبية إلى غاية 1947-1948 قبل أن تنزل إلى المرتبة الخامسة، منذ سنة 1950، ثم تذبذبت العلوم بين المرتبة الثالثة والرابعة، منذ سنة 1951، ومع ذلك نلاحظ أنَّ قسما كبيرا من طلبة العلوم امتهنوا الطب والصيدلة بعد أن استهلوا دراساتهم بالحصول على شهادات (الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا) في كلية العلوم. تقهقرت الفروعُ الطبية العلمية، نسبيا، في جامعة الجزائر ابتداء من سنة 1945 إلى سنة 1955 ومع ذلك فقد ظلّت محتفظة بأزيد من ثلث الطلبة المسلمين.[23]

قد تتغيَّرُ أهميةُ هذه الملاحظة لو يتمُّ التعرُّفُ، بصورة أفضل، على كيف كانت الحالُ بخصوص توجيه الطلبة المسلمين في فرنسا؛ فيبدو أنَّ الطلبة

23. MALAN op. cit.

المسلمين، في فروع الطب والعلوم، كان عددهم كبيرا كحالهم في الآداب والقانون سنة 1934–1935.[24] وكانوا أكثرَ عددًا في سنة 1949– 1950.[25] بيدَ أنَّ الاتجاه العام لا يدع مجالا للشك؛ وبالرغم من أنَّ هذا التوجيه المؤسِف يطالُ معظمَ الطلبة، في الجامعات الفرنسية، فقد يحلو للبعض أن يوعزوا ذلك السلوك إلى العامل الوراثي لدى المسلمين؛ ذلك أنَّ العالم الإسلامي قد تخلى عن الفضول العلمي، منذ نهاية العصر الوسيط، مما جعله ينقطع كلية عن التبادل أو المساهمة في تطويرها مع العالم الأوروبي. كانت الموادُ العلمية، إذن، ظاهرةٌ جديدة تماما بالنسبة للطلبة الأهالي؛ وأما تكوينُهم في المدارس وفي مدارس تكوين المعلمين وفي مؤسسات المرحلة الثانوية والمتوسطات فكان يُعدُّهم للتوجه أكثر نحو دراسة الآداب والعلوم القانونية. ففي سنة 1909 توِّجت أكاديمية الجزائر، بشهادة البكلوريا، 8 طلاب فقط في فرع الرياضيات، من بين 29 من الطلبة المسلمين، وفي سنة 1914 نجح 15 طالبا من جملة 67 ناجحا في نفس الشهادة؛ والواقع أنَّ وقع المفاجأة أكبرُ عندما نلمسُ الانجذاب، المُبكِّر لبعضهم، نحو مهن العلوم الطبية ثم الدراسات العلمية الخالصة. لقد تخرَّج الكثير من "ضباط السلك الصحي"، قبل سنة 1880، وبعض الدكاترة في الطب، قبل سنة 1885، وطالبٌ واحد متعدد التقنيات، منذ سنة 1887، ومؤهلٌ مهني واحد في الفيزياء، سنة 1919، كما لاحظ فرحات عباس بكل اعتزاز، في سنة 1927، ما يلي: "في الكلية (الجزائر) من جملة 50 طالبا أحصينا ثمانية زملاء تحصلوا على شهادات عليا في الرياضيات العامة والفيزياء العامة (...) هؤلاء الطلبة يحضرون حاليا كفاءتهم المهنية في باريس."[26] غير أن التعليم كان المهنة الوحيدة تقريبا بالنسبة لذوي التوجه العلمي "الخالص".

---

24. حصيلة أحمد بومنجل، في الدفاع 1-3. 1935.
25. تقرير الآنسة آ المساعدة الاجتماعية في مركز الخدمات الاجتماعية للطلبة ، ذكر في العرض الذي قمت به في المدرسة الحربية، 1961-4-27
26. Abbas op. cit. p 117-118.

بعد أن تأكد تأهيلُ الطلبة المسلمين للتحصيل في فروع العلوم ظهرت ملامة أخرى مفادها: أنَّ "الترفُّعَ عن ممارسة العمل اليدوي كان من جملة العيوب التي تُميِّزُ الأفرادَ المتطورين في صفوف الأهالي". وحتى الحاكم العام Naegelen ردَّدَ بعضَ تلك الأفكار بقوله: "إنَّ المسلمين، والعرب منهم بالأخص، لا يُحبُّون العملَ اليدوي فالذين يتمكنون من مزاولة العلوم هم أكثرُ رغبةً في التخرج كمحامين أو أطباء أو صيادلة أو موثِّقين من رغبتهم في التخرج كمهندسين؛ وبما أنَّهم، في الأصل، رعاةٌ ومحاربون فإنَّهم يفضلّون التفكير والتحدُّث والصراع السياسي؛ أما خدمةُ الأرض أو المواد الخام فتبدو لهم عملا منحطا."[27]

الواقع أنَّ في الإمكان تعميمُ مثل ذلك القول على الطبقات الغنية في شتى المجتمعات المتطورة وذلك بمقتضى فكرة تقسيم العمل الذي يكرس الأفضلية لمهام التصورِ على مهام التنفيذ؛ وتنمُّ هذه "الملامةُ" عن رغبة (قد تكون واعية أم لا) في أن يقتصر الأهالي على أداء المهام والوظائف الثانوية". وعلى نقيض ذلك فقد تم التنديد بالتوجيه غير المنتج للطلبة المسلمين؛ ذلك أنَّ الطلبة الأهالي الحاصلين على الشهادات كانوا، حتى سنة 1954، ينشطون في قطاع "الخدمات" وكان القليلُ منهم يساهم في الإنتاج المادي بصفتهم مهندسين أو تقنيين سامين أما وظائفُ التصور ومهامُ الإدارة التي تخص الأشياء المادية فيتم تنفيذُها من طرف أناس آخرين وهي التي كانت تعتبر من الوظائف "النبيلة" ومع ذلك فليس ثمة من يفسر الإعراض عن المهام اليدوية بالترفّع عنها أو بازدرائها. كان توجيه الطلبة المسلمين يتم حسب الظروف التي تكتنف ممارسة الوظائف التي يستطيعون مزاولتها.

كانت نخبة قليلة من الأهالي، قبل سنة 1914، تتشكل أساسا من محامين وأطباء وأساتذة وضباط (حصل 25 منهم على الشهادة في نهاية العشرية الأولى للقرن العشرين) وكانت تلك النُّخبة. قبل سنة 1939، تَعدُّ على الأقل

---

27 NAEGELEN op. cit. p. 117-118

200 عضوا، من بينهم 41 طبيبا و22 صيدليا و9 أطباء أسنان و70 محاميا و10 أساتذة في التعليم الثانوي و3 مهندسين، حسب بيان حزب الشعب الجزائري؛ ومن بين 1.000 طالب ممن حصلوا على الشهادة، سنة 1954، كان أغلبهم يمارسون المهن "الحرة": 354 محاميا وضابطا قضائيا (مساعد وموثق ومنفذ وكاتب ضبط)؛ 165 طبيبا وصيدليا وطبيب أسنان؛ وأما عددُ الموظفين، خارج الوظائف الدنيا، فلم يكن يتجاوز 350 شخصا، من بينهم 185 أستاذا في التعليم الثانوي وحوالي مائة ضابط، ولم يبلغ عددُ الموظفين، كمهندسين وأصحاب تقنيات رفيعة المستوى، 30 موظفا.[28] يُبيِّنُ هذا التوجيه الرديء إلى أي حدٍّ كانت نُخبةُ المسلمين الجزائريين متروكةً على هامش السلطة في الجزائر الفرنسية.

الواقع أنَّ نُخبةَ المسلمين غيرُ ملومة على ذلك الخيار، دون أخذ ظروفها السياسية والاجتماعية بعين الاعتبار، وهي ظروفٌ كانت تحدُّ حريتهم إلى أبعد حدٍّ. لم يكن مسموحا للأهالي غير المتجنسين، في الفترة من سنة 1866 إلى سنة 1919، سوى بممارسة عددٍ محدود من الوظائف العمومية وكانوا، في الفترة من سنة 1919 إلى 1944، مُبعدين عن تولِّي "وظائف السيادة" باعتبارها حكرا على حاملي الجنسية دون غيرهم؛[29] ولم يكن، نتيجة لذلك، في إمكانهم الترشُّحُ لخوض بعض المسابقات وخصوصا منها ما تعلَّق بالالتحاق ببعض المدارس العليا كالمدرسة العليا المتعددة التقنيات أو Saint Cyr.[30] لقد ظلَّت حظوة المسلمين، في ذلك، قليلةً حتى بعد صدور

28. AGERON' et ARON Tentative de bilan. Que sais-je? p. 86 op. cit. p. 296.

29. قرارات 21 أفريل 1866 و 26 مارس 1919.

30 Alger étudiants/ 82, 18 fév. 1928 p. 16 Errachid (6) 5 juin 1945 Réalités algériennes Alger 1950. p. 76

ومع ذلك، فإن القرار الصادر بتاريخ 9-02-1939، قد سمح لذوي "صفة «الأهالي»" بإمكانية الترشح كأعداد إضافية في المسابقات الخاصة بمدارس الضباط، صف الضباط، والطلبة الضباط.

أمرية 7 مارس 1944 التي قررت مساواة جميع سكان الجزائر فيما يتعلق بالحق في تولي الوظائف العمومية وذلك تحت تأثير جملة من العوامل الاجتماعية والثقافية الخاصة. أما هيئة أرباب العمل "الجزائريين" (المتشكلة كلية من الفرنسيين) فكانت لها مُطلق السيادة فيما يتعلق باختيار الأجراء.

من اليسير، في ظلّ تلك الظروف، إدراك السبب الذي دفع الأهالي الحاصلين على الشهادات إلى اختيار المهن الحرّة المستقلة عن الإدارة وعن أرباب العمل الفرنسي كما ولماذا لم يتحمسوا لتقلُّد الوظائف العمومية و كيف تجافوا عن المهن التقنية.

كانت المهنُ المتعلقة بقطاع العدالة من أكثر الوظائف الحرة استمالة للطلبة الأهالي وذلك بالرغم من العراقيل الواجب عليهم اجتيازُها قبل متابعة مسار مهني في قطاع العدالة الفرنسية. كانت المدارس الرسمية الثلاث تقوم بتعليم القانون الإسلامي، الذي ظل الأهالي خاضعين له في مجال الأحوال الشخصية (الزواج والميراث أساسا)؛ ولكن فُرص تولي الوظائف في أسلاك العدالة المكلفة بالتنفيذ ( القاضي- الموثق والعدل وكاتب الضبط والوكيل) كانت في تقلص مستمر بسبب انحسار مجالات تنفيذها أمام اتساع رقعة العدالة الفرنسية؛ فليس عجيبا، إذن، أن جلب القانون الفرنسي اهتمام الطلبة الأهالي وخصوصا طلبة القسم الأعلى في مدرسة الجزائر؛ لولا أنّ أغلبيتهم كانت تواجهها عقبة الحصول على شهادة بكلوريا التعليم الثانوي من أجل التمتع بحق الحصول على شهادة الليسانس. كان في مستطاع المدرسيين، إلى غاية سنة 1909، الحصولُ على الإعفاء من تقديم شهادة البكلوريا بسهولة ولكن ذلك الامتياز أُلغي إثر مظاهرات الطلبة الفرنسيين ضد ما سموه "التعسف".[31]

31. AGERON. Thèse. p. 941

والواقع أنّ انحسار فُرص التوظيف كانت تهدد حتى حملة كلّ الشهادات المطلوبة لأنّ تولي مهام القضاء كان من فئة "وظائف السيادة" المُخصَّصة قبل 1919 إلى غاية 1944) لمن لهم صفة المواطنة فقط؛ كما أنّ التوظيف في المكاتب الوزارية (الموثِّق والوسيط والمنفذ وكاتب الضبط) كاد يكون مستحيلا نظرا لتداولها بين الذين كانوا يحتكرون مزاولتها إما بتوارثها أو بيعها.[32] ولقد ظلت وظيفة المحاماة أيضا، ولمدة طويلة، ممنوعة عن الأهالي الذين لم يتجنسوا وذلك بناء على إرادة مجلس سلك المحامين الذي كان يرفض الاعتراف بهم مهما كان مستواهم أو مهارتهم؛ فلم يتمكن أيٌّ منهم من تسجيل نفسه في الجزائر، قبل سنة 1909، واستلزم الأمر دعاوى كثيرة في الاستئناف جرى آخرها في باريس سنة 1936- 1937 قبل الاعتراف بحق الأهالي الحاصلين على الشهادات الضرورية في ممارسة تلك المهنة دون اشتراط التجنُّس.[33] كان من نتائج سقوط آخر العقبات القانونية، منذ سنة 1944، أن أقبل الطلبة المسلمون بكثرة على التوظيف في قطاع العدالة.

كانت فُرص التوظيف في القطاع الطبي والصيدلاني متاحة للمتخرجين من الطلبة المسلمين دون أي عراقيل تعسفية تحول دون مزاولتها؛ والواقع أنّ الطابع التطبيقي والعملي، لتلك الوظائف، هو الذي أبعد عنها خطر الإقصاء السياسي – القانوني؛ ومع ذلك فقد استقطبت اهتمام نسبة أقل من الطلبة الأهالي. إنّ أهمّ أسباب ذلك هي طول مدة الدراسة وضرورة المكوث فترة طويلة في فرنسا لإتمام الدراسة؛ بحيث كانت شهادة الدكتوراه في الطب تكلف أكثر مما تكلّفه شهادة المحاماة؛ وزيادة على ذلك فإن تكاليف إنشاء المصحات والصيدليات كانت مرتفعة جدا إن لم ينخرط طالبوها ضمن

---

32. منشور ساطور : "مؤتمر الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا في الجزائر، التليمذ" و"التقرير الذي تقدمت به لجنة الحاصلين على الشهادات بالجامعات الفرنسية"، لوزارة الداخلية، أفريل 1935، أرشيف ما وراء البحر.

33. AGERON Thèse. p. 343 et 941. Cf. La voix indigène. (46) 24 avril 1930 et la Défense (139) 5 mars 1937

وظيفة "أطباء المستعمرات". لكن ممارسة الطب كمهنة حرّة كان هو المهنة الأكثر تفضيلا.

كانت جميع المهن الحرة تدرُّ على ممارسيها أرباحا يُغبطون عليها فكانت لهم مصدر رزق وربح أكيد. كان الزبائن موجودين بوفرة وهم من الأهالي الذين يفضلون طلب العلاج على أيديهم؛ وفضلا عن ذلك فإنَّ هذه المهنة تضفي عليهم هالة تقدير وإعجاب شبيهة بالهالة التي تحيط بشخص الأعيان كما أنَّها تمكنهم من العمل لحسابهم الخاص دون الارتباط ب"معلّم" أو بمصلحة إدارية.

قد يكون تأثير الوظيفة العمومية، الضعيف نسبيا، على الطلبة المتخرجين الأهالي مدعاة للاستغراب خصوصا وأنَّ أغلبيتهم من أبناء الموظفين. في سنة 1913 كان الشريف بن حبيلس يندد بما أسماه: "الحرج الاجتماعي والمتمثل في ذهنية التوظيف"؛ فحسب قوله: يرغب رب الأسرة في إلحاق أحد أبنائه بالمصالح الإدارية لكي يكون سنداً له بفضل معرفته لغة "الرومي" واطلاعه على قوانينه ومن شأن ذلك أن يجنبه المتاعب كما أنَّ التمتع بقسم من السلطة، ولو بالوكالة، يمكّن من التنعُّم بمشاعر الاستعلاء على جموع الأهالي. إنَّ "الانتساب إلى مصالح الإدارة والتمتع ببعض مزايا السلطة، مهما كانت قيمتها، وفرضها على بني العمومة أمرٌ لا يخلو من متعة وذلك ما دفع إخواننا نحو المدارس الفرنسية".[34] كما يُبرز هذا التحليل نوعية الروابط التي تشدُّ المؤسسة التعليمية بالنظام السائد حسب ما صرح به الحاكم العام Jonnart سنة 1910 حين قال: "تمثِّل المدرسة، في فرنسا، حجر الزاوية بالنسبة للنظام الجمهوري؛ أما هنا فهي ركيزةٌ من ركائز سيطرتنا" لأنها تُلقي في روع المهزومين فكرةً مثالية عن الأمة المنتصرة وتخلق في نفوسهم الرغبة في خدمتها.

---

34 BENABYLES op. cit. p. 24-25.

سوف يكتشف أولئك المحظوظون الذين التحقوا بدواليب الإدارة، مهما طال الزمن أو قصر، أنَّهم ظلُّوا رعايا كما كانوا من قبل وأنهم مجرَّد أدوات بين يدي سلطة لا حظَّ لهم في الوصول إليها؛ وبالفعل فإنهم، من سنة 1866 إلى 1919، لم يشغلوا سوى عدد محدود من الوظائف مكَّنهم من ممارسة نفوذهم على بني عمومتهم دون غيرهم. وابتداء من سنة 1919 صار يحقُّ لهم الطموحُ إلى نفس الوظائف التي يتمتع بها الفرنسيون باستثناء "وظائف السيادة" المخصصة للحاصلين على صفة "المواطنة" وحيث أنَّ تكوينهم كان يهدف، أساسا، إلى تمكينهم من أداء مهام مُحدَّدة في الوظائف الدنيا فلم يخوضوا المسابقات الإدارية التي قد تفتح لهم سبل الترقية في السلَّم الإداري؛ والواقع أنَّهم سيتقاضون أجورا أقلَّ من التي يتقاضاها نظراؤهم الفرنسيون وسوف يحظون بتقدير أدنى حتى ولو فازوا في المسابقات وشغلوا وظائف مماثلة؛ ولم يُستثن من ذلك الواقع حتى الضباط الذين أبلوا بلاء حسنا في المعارك فأولئك أيضا ذاقوا مرارة التمييز المُهين.[35] ومن جهة أخرى طالب المعلمون، بصفتهم من ركائز تأسيس السلطة الفرنسية طيلة سنوات، بنيل "حقوق مشتركة" وبالمساواة التامة مع نظرائهم وكان الأطباء أيضا يشتكون من تفاهة الوظائف التي كانت تخصص لهم.

تلك هي الأسباب التي جعلت الأعضاء الأكثر نشاطا في تلك "النُّخب الوسيطة" يجتهدون لرفع مستواهم الثقافي ولمضاعفة حظوظ ترقيتهم في دواليب الإدارة وخارج أُطرها. هناك من المعلمين الطموحين، أمثال سعيد فاسي، أو من خريجي مدرسة المعلمين، أمثال أحمد بومنجل، من كان يتابع دروسا في الكلية وكان شغلُهم الشَّاغلُ هو الحصول على إعفاء من الشهادات أو السماح لهم بالترشح بصفة حرة لامتحان البكلوريا. ذلك الامتحان

35 Loi du 14 octobre 1919, citée par AGERON, Thèse p. 1212. Cf. Abdelkader Rahmani, l°affaire des officiers algériens. Le seuil, 1959.

الضروري لمتابعة دراسة جامعية كاملة. لقد اصطدم طلبة القسم الأعلى من مدرسة الجزائر بنفس الصعوبة غير أنهم كانوا يتمتعون بفرصة التوجه إلى باريس والتسجيل في مدرسة اللغات الشرقية للحصول على الشهادات ثم معادلتها. توصَّل أحد هؤلاء التلاميذ، المدعو محمد الحاج صدوق، سنة 1949 إلى تحويل تلك المدارس إلى مؤسسات للتعليم الثانوي، الفرنسي – الإسلامي، لتُحضِّر تلاميذها لنيل شهادة البكلوريا. أما الجزائريون الذين كانت آفاق الترقي مسدودة في وجوههم فكانوا يعلِّقون الآمال في ذريتهم من بعدهم. ذلك هو السر في فتور حماس الأبناء لنيل وظائف لا تفي سوى بالحاجات المادية. كانت أغلبية المتخرجين الذين يدخلون سلك الوظيفة العمومية تختار ممارسة التعليم الثانوي باعتباره أهمَّ مهنة لحملة الشهادات الأدبية (بل وحتى العلمية).

كان تدريسُ اللغة العربية مقصورا أساسا على المعلمين المسلمين ولكن ذلك لم يكن اختصاصَهم الوحيد؛ فلقد جعلتهم مهنةُ "الأستاذية" في مرتبة واحدة مع نظرائهم الفرنسيين داخل مؤسسات المرحلة الثانوية والمتوسطات وحيث أن هذه المهنة ظلت محظورة على الأهالي، مدة طويلة، فإن السماح بمزاولتها صار بمثابة ترقية اجتماعية فضلا عن كونها مصدر استرزاق. لكن القليل النادر منهم وصلَ إلى شغل كرسي التدريس في الجامعة باستثناء كرسي اللغة العربية أو اللغة الأمازيغية اللذين تولاَّهما الأستاذان بن شنب وبوليفا.

كان عدد "موظفي الإدارة"، قبل سنة 1944، أقلَّ بكثير من عدد موظفي التعليم. في سنة 1951 أحصى مصدر رسمي[36] حوالي مائة ضابط وما بين 20 إلى 25 موظفا وإطارا ساميا و6 من رجال العدالة. فإذا استثنينا العسكر فإن البقية لا يمثلون سوى فئة قليلة جدا.

36 Perspectives, donnée fondamentales du problème algérien, 11-2-1956. Cité par ARON, op. cit. p 256

نفس الأسماء كان يدلى بها شريف مشري (إبن آغا) وهو أول واحد من الأهالي يتقلَّد منصب نائب عامل العمالة، منذ سنة 1934، ثم عُيِّن سنة 1947 كاتبا عاما لدى رئاسة الجمهورية مساعدا للرئيس Vincent Auriol ومكلفا بالإتحاد الفرنسي؛ ثم مكث فترة طويلة كمجرَّد عربون على حسن النوايا وقضى معظم حياته المهنية تقريبا في فرنسا. أما صالح بوعكوير، خريج المدرسة العليا المتعددة التقنيات ومدير التجارة والصناعة والطاقة لدى الحكومة العامة من سنة 1944 إلى سنة 1961، فكان يمثل أول مسلم تقلَّد وظيفة عمومية بالجزائر. كان تعيينُه، على ما يبدو، يُمثِّل أول تجسيد للوعود التي تضمنتها أمرية 07 مارس 1944.[37]

هل تلك بداية عهد جديد؟ لقد حدث عكس ذلك تماما؛ وذلك أنَّ المساواة بين المصالح الإدارية الجزائرية والمصالح الإدارية في الوطن الأم وكذا تطبيق القواعد العامة للوظيفة العمومية قد انجر عنه نقص عدد الأهالي المستخدمين في الإدارة "الجزائرية"[38] لأن المساواة القانونية في حق المشاركة في المسابقات لم تقض على عدم المساواة الفعلية في ظروف تحضير المرشحين.

كان ذلك التفاوت في حظوظ النجاح باديا للعيان في مرحلة التسجيل فيرا: فمهما كانت قيمة الطلبة المسلمين فإنهم لا يستفيدون من أي امتياز بل كثيرا ما كانوا يتعرضون للإقصاء بسبب تجاوزهم السن القانونية. تساءل فرحات عباس، سنة 1927، قائلا: "وهل فكَّرنا، لحظة واحدة، في السنِّ الحقيقية التي يبدأ فيها الأهلي دراسته؟ تتراوح هذه السن بين 8 سنوات و 12 سنة وهي السن التي يتقدم فيها الفرنسي الصغير لاجتياز امتحان

37. مشكل النخب الجزائرية، "الجمهورية الجزائرية" (273) 28 سبتمبر 1951. (التي تورد حالتين أخريين ... بوظيفة كبيرة كلف بها كل من محمد الحاج صدوق، وسعد الدين بن اشنب).

38. Cf. ARON op. cit. p. 241.

نفس الأسماء كان يدلى بها شريف مشري (إبن آغا) وهو أول واحد من الأهالي يتقلَّد منصب نائب عامل العمالة، منذ سنة 1934، ثم عُيِّن سنة 1947 كاتبا عاما لدى رئاسة الجمهورية مساعدا للرئيس Vincent Auriol ومكلفا بالإتحاد الفرنسي؛ ثم مكث فترة طويلة كمجرِّد عريون على حسن النوايا وقضى معظم حياته المهنية تقريبا في فرنسا. أما صالح بوعكوير، خريج المدرسة العليا المتعددة التقنيات ومدير التجارة والصناعة والطاقة لدى الحكومة العامة من سنة 1944 إلى سنة 1961، فكان يمثل أول مسلم تقلَّد وظيفة عمومية بالجزائر. كان تعيينُه، على ما يبدو، يُمثِّل أول تجسيد للوعود التي تضمنتها أمرية 07 مارس 1944.[37]

هل تلك بداية عهد جديد؟ لقد حدث عكس ذلك تماما؛ وذلك أنَّ المساواة بين المصالح الإدارية الجزائرية والمصالح الإدارية في الوطن الأم وكذا تطبيق القواعد العامة للوظيفة العمومية قد انجر عنه نقص عدد الأهالي المستخدمين في الإدارة "الجزائرية"[38] لأن المساواة القانونية في حق المشاركة في المسابقات لم تقض على عدم المساواة الفعلية في ظروف تحضير المرشحين.

كان ذلك التفاوت في حظوظ النجاح باديا للعيان في مرحلة التسجيل فورا: فمهما كانت قيمة الطلبة المسلمين فإنهم لا يستفيدون من أي امتياز بل كثيرا ما كانوا يتعرضون للإقصاء بسبب تجاوزهم السن القانونية. تساءل فرحات عباس، سنة 1927، قائلا: "وهل فكَّرنا، لحظة واحدة، في السنّ الحقيقية التي يبدأ فيها الأهلي دراسته؟ تتراوح هذه السن بين 8 سنوات و 12 سنة وهي السن التي يتقدم فيها الفرنسي الصغير لاجتياز امتحان

37. مشكل النخب الجزائرية، "الجمهورية الجزائرية" (273) 28 سبتمبر 1951. (التي تورد حالتين أخريين لتعيينات مؤقتة كبيرة كلف بها كل من محمد الحاج صدوق، وسعد الدين بن اشنب).

38. Cf. ARON op. cit. p. 241.

الشهادة الابتدائية".[39] ذلك أنَّ الأولياء كانوا يفضلون توجيه أبنائهم إلى المدارس القرآنية أو لرعاية الماعز: "عندما بلغتُ سن الثانية عشر كُنت أسير حافي القدمين وسط الدوار ولا تطرقُ سمعي ولو كلمةٌ واحدة باللغة الفرنسية مثلما كان حال الرعاة عندنا".[40] يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضا التأخر المدرسي الذي تفرضه ضرورة التعليم المسبق للغة الفرنسية فمدة التعليم في الفئة "ب" كانت أطول بسنة من نظيرتها في الفئة "أ" وكان أطفال المسلمين في هذه الفئة مُجبرين، في كثير من الأحيان، على تكرار السنة لنفس السبب. ومن أسباب التأخر الدراسي الأخرى تلك الناجمةُ عن أخطاء التوجيه. يقول الطلبة إنهم مدفوعون بكثرة نحو "الدراسات الابتدائية العليا" وبقلة نحو "الدراسات الثانوية"؛ وزيادة على ذلك "فمن النادر أن نجد الطلبة الذين زاولوا دراسة ثانوية عادية يشرعون فورا في الدراسات العليا؛ بل كان عليهم أن يتوقفوا عن الدراسة، إما قبل امتحان شهادة البكلوريا أو بعده، للاشتغال كمعلمين أو مراقبين في الأقسام الداخلية بمؤسسات التعليم المتوسط في المدن الصغيرة وذلك بغرض مساعدة العائلة ولتحضير لوازم ونفقات السفر إلى باريس."[41] لم يمر جميعُ الطلبة الجامعيين عبر مرحلة التعليم الثانوي فقد انتقل بعضهم مباشرة من الفرع الابتدائي إلى مستوى متقدم نسبيا ومرَّ بعضهم الآخر من إحدى المدارس الرسمية. فمثلا كان أحمد بومنجل يعمل معلما قبل مجيئه إلى باريس، سنة 1931، لمزاولة الدراسات القانونية؛ وكان المعلمون الحاملون إجازة "عطلة غير مدفوعة الأجر" يشكلون الأغلبية في صفوف الطلبة الجزائريين المُسجلين في تلك الكلية. وهذا مثلا: مالك بن نبي بعد أن تخرج سنة 1925 من مدرسة

---

39. Abbas op. cit. p. 50.

40 . نفس المصدر

41. عرض الآنسة أ في المدرسة الحربية 27-4-61.

قسنطينة، وهو في سنّ العشرين، يبحث طويلا عن الوجهة التي يسلكها؛ ولقد بقي حتى سن 25 بدون مهنة ثمّ توجه إلى باريس لمزاولة دراسته[42]؛ فكيف نعجب إذن إذا فاق معدل سن الطلبة الجزائريين بسنة أو بسنتين (أحيانا 5 سنوات) معدل سن الطلبة الفرنسيين ؟!

في تلك الظروف يتضح لماذا كان الطلبة المسلمون يُقصون، في حالات كثيرة، من المشاركة في المسابقات وكيف كان يراودهم هاجسُ إنهاء الدروس في أقرب وقت ممكن ليتمكنوا من مزاولة عمل مربح. كان بعضهم يتقدم إلى مسابقات الانخراط في سلك الإدارة أو التعليم الثانوي التي تضمن لهم، في حالة الفوز، وظيفةً قارة، ولكن وظائف المدارس العليا كانت تستقطب أعدادا أقل لأنّها لا تؤدي مباشرة إلى الوظيفة (إلا نادرا) ولأنّ ظروف تكوينهم تحول دون ممارسة أي عمل خارجي (حرّ)؛ وبالإضافة إلى تلك العوامل المادية توجد عواملُ سيكولوجية مثل تخوُّف الطالب من الإقصاء باعتباره من الأهالي أو بسبب آرائه السياسية[43]أو بسبب تهيُّبه من تلك الأوساط.

مهما يكن الأمر فليس ثمة، في باريس، طالبٌ مسلم واحد حضّر نفسه للالتحاق بإحدى المدارس الكبرى بين السنتين الدراسيتين 1949-1950 و1950-1951.[44] كان الطلبة يفضلون اجتياز الامتحانات التي تتوج جهودهم بصدق بدل خوض غمار المسابقات ذات النتائج غير المضمونة؛ فكانوا يفضلون الدراسة في الكليات التي تؤهلهم للمهن الحرة ولوظيفة التعليم؛

42. مالك بن نبي: مذكرات شاهد على العصر: ج. I الجزائر 1965. بالعربية ج 2 بيروت 1975

43. محمد بجاوي، طالب في مدينة غرونوبل ومناضل في حزب أحباب البيان، الجزائر، قد تم إقصاؤه من المدرسة العليا للإدارة في سنة 1953، بقرار من وزير الداخلية. قارن "الجمهورية الجزائرية"، 53-9-25 وكذا "الطالب الجزائري" (1) I-11-53.

44. ملاحظات الآنسة P التي أكدتها المذكرات (غير منشور) للحاكم العام روجي ليونار، محافظ باريس

[illegible]

كانت تدرك أنّ المدّ المتصاعد من المتخرجين الأهالي يشكّل "منافسةً سخيفة" بل تهديدا "للهيمنة الفرنسية". فمنذ سنة 1913 كان شريف بن حبيلس يعلّق على ذلك بقوله: "إن بدا لجيرانهم أن ظل النخبة ثقيل (...) فإن اللوم لا ينبغي أن يوجه إليها؛ أليس من الأليق أن يُنسب ثقل الظل ذلك إلى الاعتبارات الاقتصادية؟ الواقع أنّ الشباب الجزائريين يطمحون إلى تشكيل قطب منافس جادٌ؛ وكثيرا ما يكون مردُّ سوء التفاهم أصلا إلى اختلاف المصالح ليس إلاّ".48

يمكن تفسير ندرة الأسواق أمام الصناعة الجزائرية بسبب ضعف تطوُّرها؛ فالجزائر الفرنسية كانت، بالفعل، بلدا زراعيا ومنجميا وكان تصنيعها أمنية المسئولين في الحكومة العامة، منذ سنة 1944، غير أنّ تحقيق ذلك الأمل ظلّ أمرا بعيد المنال نظرا لافتقارها إلى مصادر الطاقة (قبل اكتشاف البترول في الصحراء سنة 1958) ونظرا أيضا للمنافسة المفروضة عليها من طرف المنتجات الصناعية في الوطن الأم.

لكن قبل ذلك بسنوات ( أي منذ سنة 1914 ) فإن أول المهندسين الجزائريين المختصين في الفلاحة، واسمه قائد حمّود، لم يتمكن من العمل في قطاع الفلاحة الاستعمارية فاضطر إلى تحويل اختصاصه لممارسة القانون.

لم يكن التفسير الاقتصادي، إذن، ليرضي الطلبة الجزائريين الذين كانوا يوجهون أصابع الاتهام إلى العنصرية والأنانية الاجتماعية التي كانت من صفات الأوروبيين.

كانت مناصب المسؤولية قليلة جدا... لأنها كانت حكرا على السلالة الأقل عددا. لم يكن في الإمكان تغييرُ وضعية الانسداد تلك إلاّ بقرار

48 BENHABYLES op. cit.

سياسي. لقد اتضح، بعد سنة 1954، كيف أدت المنافسة الحادة بين خياري الاستقلال والإدماج (الذي فتح آفاق شغل جديدة للأهالي) إلى مراجعة سريعة لتوجيههم المهني.

تساءل André Fangeat، في مجلة الحياة الفكرية لشهر ماي 1955، قائلا: "كم من الطلبة الشباب الذي تخرجوا من مؤسساتنا الثانوية والعليا وجدوا أبواب الإدارة والبنوك والصناعة موصدة في وجوههم في كثير من الأحيان؟ فماذا بقى لهم، إذن، غير التوجه إلى المهن الحرة وإلى النشاط السياسي؟ "وليس ثمة خيار آخر فإما قبول قواعد اللعبة أو العمل على تغييرها.

## 2- ما المقصود بـ"المهن الحرة" ؟

كانت فئة المتخرجين الأهالي الأكثر طموحا، من 1908 إلى 1962، تعتقد أنّها عثرت علي ضالتها في العمل السياسي فهو الفرصة الوحيدة التي تتيح لها الارتقاء في "مناصب المسئوليات" السامية؛ وكانت "المهنُ الحرة"، في هذا الصدد، تقدّم أحسن المرشحين للعمل السياسي باعتبارهم مستقلين عن الإدارة فكان في الإمكان استغلال سمعتهم ونفوذهم في الأوساط الشعبية التي ينتمون لها من أجل الحصول على زبائن سياسيين؛ غير أن نشاطهم باء بالفشل: فمن جهة كانت الإدارة والحكومة الفرنسية قد أقصتهم باعتبارهم مصدر تشويش خطير؛ ومن جهة أخرى طغى عليهم بل تجاوزهم نشاطُ المناضلين المنبثقين من الأوساط الشعبية الأقل حظوة. فلم يبق لهم بعد ذلك، من خيار آخر، غير الانضمام إلى الحركة الثورية التي كانوا يحذرون منها أو الانزواءُ في البرج العاجي المتمثل في عدم الاهتمام بالقضايا السياسية.

يتضح، من هنا أيضا، لماذا انطوى العدد الأكبر من المتخرجين الأهالي على أنفسهم وانصرفوا لممارسة مهنتهم باعتبارها مصدر رزق وليس

بصفتها وظيفة اجتماعية. ذلك أنَّ "المهن الحرة" تُحررُ مزاوليها من ضغوط الإدارة ومن تسلط أرباب العمل الفرنسيين ولكنها لا تحرر المتخرجين الأهالي. هكذا تحوَّل حمَلَةُ الشهادات إلى فئة من "البرجوازيين" الأنانيين غير المبالين بمصير شعبهم فصاروا موضوع تنديد شديد من طرف جمعيات الطلبة والأحزاب الناشطة في الأوساط المسلمة.

ذلك مضمون التهمة التي وجّهتها لهم مجلة الجمهورية الجزائرية، بتاريخ 25 ماي، حين قالت بشأنهم : "إنَّ الفئة الأكثر أهمية من بين مثقفينا قد اختارت العيش بمعزل عن الأوساط الشعبية التي هي منها؛ وهذه أكبرُ شتيمة واستهانة بالبؤس الذي يعانيه مواطنونا. تلك فئةٌ تتقمَّص دور البرجوازية الكاذبة والمتقاعسة"؛ وكذلك ندَّد مالك بن نبي بذات السلوك قائلا: "ليس ثمة بين الأغنياء المسلمين من يهتمُّ بالتكوين الفكري لأبناء الشعب أو يساهم شخصيا وبصورة عفوية في دعم مشروع ذي مصلحة عمومية فيقوم بتخفيض استهلاكه اليومي"؛ [49] وفي نفس الفترة عبَّرت مجلة "الشاب الجزائري" في مارس 1953 عن استيائها لكون "الكثير من الطلبة المعادين للاستعمار، نظريا، أثناء فترة دراستهم الجامعية ثم يتحولون بعد التخرُّج إلى مجرد "أجهزة هضم"حسب التعبير المثير لأحمد بومنجل، هذا إن لم يرتموا على قدمي الإدارة لاستجداء المناصب".

عندما يتحصَّل الطالب الجزائري على الشهادة العلمية فإنه "يتبرجز" (أي أنه يتخذ عادات البرجوازية) وفي هذا التعبير استهجان عنيف لأولئك الطلاب. إنَّ الدخول في الحياة العملية سبب في حصول تغيُّرٍ في نمط الحياة فلا ينبغي التسرُّع في اتهامه بأنه سلوك خائن؛ ومهما كانت ظروف الطالب، المعيشية، فإنه لا يعدو عن كونه شخصا مثاليا بشكل أو بآخر وعند اتصاله بثقافة الكُتب فإنه يحلِّق حول العالم وذلك ما يترك فيه الانطباع بأنَّه أحاط

49 Vocation de l°Islam° Paris. P. 80.

بكنه جميع مشاكله. في مقاهي الطلبة يدور الحديث طويلا في الأجواء العليا للسياسة مما يحدث فيهم شعورا بالقوة يتناقض تماما مع واقعهم كطلبة؛ فالطالب، في واقع الأمر، متمهّن يتدرّب من أجل الانتقال إلى الحياة العملية؛ ويعتبر نفسه متطوعا في حقل الفكر وباحثا عن مكنون الثقافة؛ وبقدر ما كان التحليق عاليا يكون الهبوط عنيفا؛ وذلك لأنّ مرارة الشعور بالحاجة إلى مقايضة الوقت بالمال وإلى تسخير حياته من أجل كسب عيشه يثير فيه إحساسا بأنّه بَشرٌ مثل الآخرين مرتبط بالمادة وبالواقع المجتمعي. إنّ تحقيق النجاح يعني ضمان "مكان تحت الشمس" والحصول على الرفاهية التي تمكّن من تحقيق الرغبات. تلك هي الأهداف التي تستنفد معظم الجهود التي في مقدور الإنسان بذلُها ومن السهل أن يسخّر الإنسان حياتَه لخدمة الآخرين إذا لم تشغله الحاجة إلى بناء مستقبله الشخصي.

كيف يمكن للطالب الأهلي، الحاصل على الشهادة، أن يضحي بنفسه لخدمة قضية الشعب الذي أنجبه؟ إن دراسته التي استغرقت وقتا طويلا، بلغة أجنبية، قد كيّفت بناءه الفكري وفق نمط غريب عن كل التقاليد السائدة في وسطه الأصلي فكلُّ المكتسبات التي يحققها، ويعجز أهله عن تحقيقها، إنما هي حواجز تحول دون تفاهمهم المتبادل. إنّ الثقافة التي لا يمكن تقاسمها لا تكون موحِّدة بل تكون مفرِّقة. يشعر حامل الإجازة العلمية بأنّ وسطه الاجتماعي الأصلي لا يفهمه، إطلاقا، بل ينبذُه نبذًا فلا يمكن أن يشعر بالراحة التامة مع أولئك الذين يعجزون عن استيعاب أفكاره وطموحاته من جميع الأوجه وبالمقابل فإنه لا يستطيع تقبُّل كل القيم والتقاليد السائدة في وسطه الاجتماعي بل يرفض تقديسها من غير تمحيص ونقد. يمكن أن يحمل نفسه على الكلام من أجل الإقناع لكن ما الفائدة من مضاعفة فرص الصِّدام؟ نحن لا نحمل مجتمعَنا معنا حين نخوض المغامرات. يلوذ الطالب بالصمت حين يعجز عن صياغة العبارات الواضحة التي تُجلي ما يجري في

ذهنه من تغيير ولأنه يخشى الاصطدام بالآخرين؛ فكيف يتطاول الشباب على تعليم الكبار؟! يدور الاختلاف الكبير بصورة أساسية حول مبدأ السلطة، تلك الركيزة، التي تشدُّ أواصرَ المجتمعات مدّة آلاف السنين.

إنَّ الطالب الذي يُعمل فكره في كل شيء يُربك والديه اللذين يحاولان التمسك بما يريانه من الثوابت الأزلية وبما يعتبرانه مبادئ قارّة لا ينبغي مناقشتها. في حين تدفعه فردانيته إلى العيش وفق رؤاه الشخصية وإلى رفض السلوك الجبري الجماعي الذي يفرضه كل من المجتمع والعائلة والذي أناخ على كاهله مثل المركوب العاجز.[50]

لكنه يخطئ حين يعتقد أنَّه حقّق اكتفاءه الذاتي بنفسه؛ فالعائلة هي التي جعلت منه، عن وعي أو غير وعي، ذلك الشخص الآخر فلا ينبغي أن ينسى بأنه في حاجة إليها. فإذا لم تعد عائلته تستجيب لتلبية كل طلباته فسوف يجد في نفسه حاجة إلى البحث عن عائلة أخرى تُشعره بأنه بين أهله وذويه. غير أن الطالب المسلم لا يجد في العائلة الجديدة التي يختارها تلك الطمأنينة التي كان يبحث عنها بين أحضان عائلته الطبيعية وكيف يمكن له أن يجد نفسا مماثلة في مجتمع مؤسّس على عدم المساواة بين الجنسين؟ إنَّ التربية التقليدية تنشئ الأطفال على اعتقاد أولوية الرجولة على الأنوثة وتفرض على البنات القيام بدور حارسات العادات وذلك ما يُبقيهن في حالة تبعية دائمة.[51] في هذا الصدد يلاحظ Robert Malan أنَّ "المرأة تخلق الجو العائلي في وضعية الجهل وهي مستمسكة بجبروت ماضٍ لا يفهم إلا بشكل ضيِّق وأما المثقف الشاب فلا يجد الزوجة التي تفهم أفكاره". إنَّ اختلال التوازن بين الجنسين في مجال التعليم يمثل بالنسبة للطلبة المسلمين فخّاً مُحزنًا؛ فهو يجبرهم على خيارين، أحلاهما مرٌّ، فإما الرجوع إلى الوسط

50. في هذا الصدد، راجع شخصية ارزقي في كتابه "نعاس الرجل العدل" لمولود امعمري، (Plon 1954)

51.NFISSA ZERDOUMI Enfants d'hier, Maspero,1970.

العائلي أو الفرار نحو المجتمع المهيمن. لقد تزوّج عددٌ كبير من الطلبة المسلمين بنساء فرنسيات ومنهم شريف بن حبيلس وفرحات عباس وأحمد بومنجل غير أن حياة الزوجين لا تحقق الاكتفاء الذاتي بمفردها ذلك لأنّ نفس الصعوبات السابق ذكرها تهدِّد بعزلهما وتفريقهما حسب نزوعهما إلى الانضواء في أحد المجتمعين اللذين كانا يقتسمان الجزائر.[52] إنّ الطالب الأهلي المتخرِّج من المدرسة يجازفُ بقضاء حياته كلها منفردا معزولا بين عالمين، باعتباره إنسانا مشكوكا فيه من كل الجهات، فلا يجد مرفأ الأمان الذي يطمح إلى الإرساء فيه.

لا تنفرد الجزائر، الرازحة تحت الاستعمار، بهذه الوضعية وحدها فأي مجتمع يعيش حركية تسمح بارتقاء أبنائه الناجحين في الدراسة، خارج وسطهم الأصلي، يواجه نفس الصعوبات عندما يتعلق الأمر بالرجوع إلى أحضان العائلة لإنهم يجدون نفس القطيعة بين سعة الآفاق التي فتحتها الثقافة الجامعية وبين ضيق الدوائر التي احتضنت أولى خطواتهم في سنوات طفولتهم. يؤكِّد Augustin Berque، في مقال جميل خصّصه لأصدقائه المثقفين الجزائريين، على ضرورة التعاطف معهم لتفهُّم أوضاعهم فيقول: "ذلك هو تاريخُنا وهو أيضا تاريخُ المثقف الجزائري الخاضع لنفس الأنظمة المفروضة علينا (...) لا يمكننا تفهُّم نفسيته إذا لم نقارن حالته بحالتنا وبحالة الطلبة الموجودين في فرنسا أي أولئك الذين اقتلعتهم، من وسطهم الطبيعي، ثقافةٌ تميزت بالتجريد المفرط.[53]

52. في موضوع اختلاط الأزواج، هناك العديد من الشهادات (من خلال روايات): شريف بن احبيلس : "تخوم الأنفس" (لم ينشر) ر، و أ. زناتي: "بولنوار الشاب الجديد، الخ.

53. Les intellectuels algériens,Revue africaine, 1947, vol. 91. p. 123-151.

## ج) ظروف الحياة الطلابية والمنظمات الطلابية

تضافرت كل المعطيات لتعقيد عملية الاندماج الاجتماعي للمتخرجين الجزائريين؛ فلم يكن في حوزتهم إذن خيار سوى بين اثنين: إما أن يصيروا "برجوازيين" أو يكونوا مناضلين؛ ولكن إمكانية "التبرجز" تلك لم تكن متاحة "لأبناء الشعب" أثناء فترة الحياة الطلابية. ومن المعروف أنّ أغلبية الطلبة المسلمين فقراء في حاجة إلى مساعدة مادية وأنّ تظلُّمهم كان يشمل أحوالهم القانونية والمادية والمعنوية. ولقد شعروا بالحاجة إلى تنظيم أمورهم من أجل نيل مطالبهم. وحيث أنَّهم لم يتمكنوا من الانضواء في الحركة الطلابية الفرنسية فلقد تجمَّعوا في تنظيمات خاصة بهم، باعتبارهم أبناء الأهالي، في إطار شمال - إفريقي وكانت جماعتُهم الأصلية تساندهم في ذلك المسعى.

### 1- تظلُّمات الطلبة المسلمين

لم تكن الأسباب المثيرة لاستياء الطلبة المسلمين تنقطع طيلة حياتهم الطلابية وذلك في جميع النواحي سواء ما تعلَّق بالظروف القانونية للدارسة أو الصعوبات المادية أو العزلة المعنوية؛ غير أنّ تلك المواضيع كانت متفاوتة الأهمية حسب الزمن وحسب الأمكنة.

يمكن إرجاع العقبات القانونية، التي واجهت الطلبة المسلمين، إلى نوعين أساسيين متعارضين من حيث المبدأ وليس من حيث الغاية: فكانوا يصطدمون بتنظيمات تتجاهل مشاكلهم الخاصة أو يعانون من تمييز سياسي يستهدفهم بصفتهم رعايا أهالي.

يمثّل إلغاء الإعفاء من شهادة البكلوريا نموذجا جيّدا للنوع الأول من العقبات. ذلك أنه قبل سنة 1914 لم يكن أغلب المسجَّلين في كليات الجزائر حائزين على شهادة البكلوريا لأنّها غر مشترطة لمتابعة الدراسة في بعض

الاختصاصات والحصول على بعض الشهادات[54] ولكنها صارت إجبارية لمن أراد مزاولة دراسات جامعية كاملة. فإمكانية الإعفاء من الحصول على شهادة البكلوريا، التي كانت تُمنح بسهولة، قد أُلغيت في جامعة الجزائر منذ سنة 1909 قبل أن يتعمم إلغاؤها في جميع التراب الفرنسي سنة 1912. عندما تظاهر الطلبة ضد ما اعتبروه "خرقا مفضوحا للقوانين" كانوا ربما يعتقدون أنهم يدافعون عن حق المساواة في الامتحانات وفي قيمة الشهادات الجامعية ولكنهم في الواقع وضعوا حدا لترقية الطلاب الأهالي نظرا لسوء توجيههم. بعد "الحرب الكبرى" لم يعد الحائزون على شهادة البكلوريا قلّة وذلك ما خفّف حدّة المشكل ما عدا ما يتعلق بالمدرسيين وببعض المعلمين الراغبين في مواصلة دراساتهم.

كانت أعباء الخدمة العسكرية من بين الشكاوى المستحوذة على اهتمام الطلبة فبعد أن كانوا يستفيدون من "ميزة" الإعفاء منها، باعتبارهم رعايا لا يفرض عليهم واجب الخدمة العسكرية قبل 1912، صار يُشترط عليهم بعد ذلك الحصول على إعفاء منها أو التعويض إلى غاية 1917.[55] بعد الحرب خضع الطلبة المسلمون إلى نظام الإرجاء وإلى مدة خدمة أكثر صرامة من التي كانت تُطبّق على نظرائهم الفرنسيين.[56] ولقد تمّت تسوّية النقطة الأولى سنة 1926 بفضل السند الذي قدمه هؤلاء لمطالبهم ولكنهم واصلوا المطالبة

54. في الآداب، الأهلية في اللغات العربية، القبائلية؛ في القانون، الكفاءة، والشهادة الخاصة بالتشريع الجزائري، الشريعة والعادات المعمول بها في أوساط «الأهالي». في الطب : شهادة عون طبي.

55. Cf. AGERON, thèse, p. 1078 et 1139-166 ; Gilbert MEYNIER, l'Algérie révélée. Genève, Droz, 1981, p. 541-545, et note du Service des Affaires indigènes militaires, envoyés le 2 mars 1935, AOM, 3 H 71.

56. مدة الخدمة 3 سنوات عوضا عن سنتين. مدة الإرجاء ثلاث سنوات ونصف عوضا عن خمسة، ومحددة إلى في سن 24 عوضا عن 25 (مع إمكانية التماس الإرجاء، بعد قضاء سنة من الخدمة، من أجل مواصلة الدروس، إلى سن حدد بـ 26 سنة) راجع : فرحات عباس: " الخدمة العسكرية بالنسبة للأهالي الجزائريين" : في " الشاب الجزائري" ص. 11-25 ثم : "أمانينا لمؤتمر الوحدة الوطنية" "التلميذ" (4) فيفري 1932.

بالمساواة في مدة الخدمة وبإمكانية التكوين العسكري العالي وفي إطار الاحتياط وكذا تجنيد طلبة الطب والصيدلة في سلك المصالح الصحية وتقليدهم الرتبة المناسبة لكفاءتهم.[57] يتعلق الأمر هنا بتمييز مقنن كان مسلطا على الطلبة باعتبارهم أفرادًا من ضمن الشعب الجزائري الخاضع إلى غاية 1944 لقانون الاستثناء المعروف باسم "قانون الأهالي".

ينبغي تذكير القارئ بما سبق قوله عن التحديدات المفروضة في المزاولة الحرة لاختصاصهم المهني، أولاً، بمنعهم قانونيا من تقلُّد بعض الوظائف ومن المشاركة في بعض المسابقات ثم ابتداء من سنة 1944 عن طريق المساواة القانونية المزعومة التي كانت تُخفي، في الواقع، لا مساواة صارخة في ظروف الالتحاق بتلك المهن.

لم تكن الصعوبات المادية التي وجدها الطلبة المسلمون تكتسي طابعا مميزا؛ فلقد واجهتهم نفسُ المتاعب التي واجهت زملاءهم الفرنسيين؛ غير أنَّ وضعهم ازداد تعقيدا بفعل ما يُدعى "المعامل الخاص" الذي يعبِّر عن وضعيتهم الخاصة باعتبارهم أهالي. وكانت مشاكلُهم تزداد تعقيدا كلما اتسعت صفوفهم بمزيد من الطلبة القادمين من الأوساط الاجتماعية الأقلّ حظوة؛ ففي مدينة الجزائر لمسوا، منذ سنة 1919، ضرورة التكتّل في إطار ودادية تمدُّ لهم يد العون ولزملائهم المعوزين ثم الانتظام في صفوف جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بمساهمة أعيان جماعاتهم. ثمّ سعوا أيضا لدى السلطات الفرنسية للمطالبة بزيادة عدد المنح ورفع مبلغها. أما الطلبة الذين لم يكن لهم أقرباء يعيشون في مدينة الجزائر فكانوا يجدون صعوبة كبيرة في الحصول على المأوى والإطعام بتكلفة محتملة؛ والحال أنه، باستثناء التصرفات العنصرية لبعض ملاّك العمارات، فإنَّ وضعية الطلبة

57. قرار 7-9-1926، قد وحد نظام الإرجاء، غير أن مدة الخدمة ظلت أطول، ( 2 سنة عوضا عن 1 سنة) مثلا إمكانية التسريح بعد سنة، مشروطة بحسن السلوك (!)

المسلمين لم تكن تختلف كثيرا عن وضعية زملائهم الفرنسيين القادمين من داخل الوطن. كانت جامعة الجزائر تضم دائما نسبة كبيرة من الطلبة المعفيين من المواظبة على الدروس نظرا لنقص مرافق الإقامة. افتتح المطعم الجامعي لدار الطلبة سنة 1934 من طرف الجمعية العامة لطلاب الجزائر ولقد حدث ذلك في الوقت المناسب من أجل تخفيف العبء على الطلبة الفقراء بما فيهم الأهالي؛ فلم تكن الظروف المادية للطلبة المسلمين في مدينة الجزائر تتميز بفارق كبير مع ظروف زملائهم الفرنسيين على الأقل في تلك الفترة الزمنية.

مهما يكن فلا يمكن الجزم بمثل ذلك فيما يتعلق بالطلبة المسلمين الجزائريين المقيمين في فرنسا. كانت ظروف العيش طويلا في وسط غريب وبعيد تفرض عليهم تحمُّل نفقات ثقيلة جدا؛ ولا شك أنَّ الطلبة الذين عبروا البحر الأبيض المتوسط قبل سنة 1909 كانوا يتمتعون بسند قوي من لدن أُسرهم؛ ومع ذلك فإن أولئك المحظوظين قد التحقت بهم جموع متزايدة من الطلبة الفقراء الذين أجبرهم وضعهم المادي الضعيف على الاشتغال لكسب لقمة العيش موازاة مع مواصلة الدراسة نظرا لانعدام أي دعم من طرف الحكومة العامة.

تأسست بباريس، في سنة 1927، جمعيةٌ للتعاون والمطالبة بالحقوق ضمَّت بين صفوفها مختلف جمعيات الطلبة المسلمين القادمين من البلدان المغاربية الثلاث (جمعية الطلبة المسلمين الشمال - إفريقيين بفرنسا) ثم انفصل معظمُ الجزائريين عنها سنة 1930 فأسسوا جمعية طلابية خاصة بهم (جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين بفرنسا) فلقد توجّهوا إلى ذويهم ليكسبوا تضامنهم كما التمسوا رعاية السلطات الفرنسية وذلك وعيًا منهم بأنهم كانوا أكثر فقرا من غيرهم. بذل زملاؤهم، في مدينة الجزائر، كلَّ ما في وُسعهم لمساندتهم فسعوا للحصول على موافقة مؤتمرات الاتحاد

وطني لجمعيات طلبة فرنسا على أهم المطالب بخصوص المنح الدراسية والتعويضات وإنشاء دار للجزائر في الحي الجامعي بباريس.

غير أن النتائج كانت هزيلة رغم حصولهم، سنة 1931، على دار للطلبة تأسست لإيواء الطلبة القادمين من شمال إفريقيا. وفي سنة 1933 حصلوا على تخفيض سعر تذكرة السفر بين فرنسا والجزائر. ظلّ الطلبة الجزائريون في باريس يشتكون أكثر من أي وقت مضى (سنة 1935) من التدهور الخطير الذي آلت إليه ظروفُ معاشهم؛ فوجّه رئيسهم أحمد بومنجل إلى السلطات المسئولة رسائل مفتوحة يشرح فيها أوضاعهم المتردية: ف يبدو أن 27 طالبا مسلما جزائريا فقط، من بين 54، تمكنوا من إتمام الدراسة في مدينة الجزائر؛ وهكذا حقّ لبقية الطلبة أن يطالبوا بمزيد من الإعانة "عندما يغادر الطالبُ الأهلي الجزائر فإنه يصطدم بصعوبة التأقلم مع وضعه الجديد فهو، على العموم، فقيرٌ وغريبُه في وسط مغاير لما ألفه أشدُّ عليه من بقية الطلبة؛ وكان عليه أن يبذل جهودا مضنية ليتبوأ مكانة حسنة في جامعات فرنسا؛ ونظرا لانتمائه إلى الفئات الشعبية فقد حُكم عليه أن يحيا حياة ضنكا وبما أنه من أفراد الأُسر الكثيرة العدد فلم يكن يتوقع أية إعانة من طرف والديه. إنّه يعيش منفردا ومعزولا وهو مضطر إلى استجداء أموال المستعمرة." وبالفعل: "فمنذ سنوات قليلة مضت كان في مستطاعه أن يجد عملا بصفة مراقب أو مسئول في النظام الداخلي بإحدى المؤسّسات التعليمية أو القيام بدروس خاصة غير أنّ تزايد أعداد الطلاب واتساع الأزمة وتعمقُها في الأوساط الجامعية كانت تحاصر الطالب الجزائري وتدفعه إلى أوضاع يمكن وصفها بأنها كانت يائسة."[58]

وحيث أنّ الطلبة الجزائريين لم يجدوا سندا سوى في إطار التضامن الشمال - إفريقي فإنهم انضموا، في سنة 1937، إلى زملائهم التونسيين

58 راجع: "صوت الأهلي" (311) 19-2-35؛ "صوت الضعفاء" (154) مارس 1935؛ "الدفاع" (53) 1-3-35 (55) 15-3 (58) 5-4-1935.

الوطني لجمعيات طلبة فرنسا على أهم المطالب بخصوص المنح الدراسية والتعويضات وإنشاء دار للجزائر في الحي الجامعي بباريس.

غير أن النتائج كانت هزيلة رغم حصولهم، سنة 1931، على دار للطلبة تأسست لإيواء الطلبة القادمين من شمال إفريقيا. وفي سنة 1933 حصلوا على تخفيض سعر تذكرة السفر بين فرنسا والجزائر. ظلَّ الطلبة الجزائريون في باريس يشتكون أكثر من أي وقت مضى (سنة 1935) من التدهور الخطير الذي آلت إليه ظروفُ معاشهم؛ فوجَّه رئيسهم أحمد بومنجل إلى السلطات المسئولة رسائل مفتوحة يشرح فيها أوضاعهم المتردية: فـ يبدو أن 27 طالبا مسلما جزائريا فقط، من بين 54، تمكنوا من إتمام الدراسة في مدينة الجزائر؛ وهكذا حقَّ لبقية الطلبة أن يطالبوا بمزيد من الإعانة "عندما يغادر الطالبُ الأهلي الجزائر فإنه يصطدم بصعوبة التأقلم مع وضعه الجديد فهو، على العموم، فقيرٌ وغربتُه في وسط مغاير لما ألفه أشدُّ عليه من بقية الطلبة؛ وكان عليه أن يبذل جهودا مضنية ليتبوأ مكانة حسنة في جامعات فرنسا؛ ونظرا لانتمائه إلى الفئات الشعبية فقد حُكم عليه أن يحيا حياة ضنكا وبما أنه من أفراد الأُسر الكثيرة العدد فلم يكن يتوقع أية إعانة من طرف والديه. إنَّه يعيش منفردا ومعزولا وهو مضطر إلى استجداء أموال المستعمرة." وبالفعل: "فمنذ سنوات قليلة مضت كان في مستطاعه أن يجد عملا بصفة مراقب أو مسئول في النظام الداخلي بإحدى المؤسَّسات التعليمية أو القيام بدروس خاصة غير أنَّ تزايد أعداد الطلاب واتساع الأزمة وتعمقُها في الأوساط الجامعية كانت تحاصر الطالب الجزائري وتدفعه إلى أوضاع يمكن وصفها بأنها كانت يائسة."[58]

وحيث أنَّ الطلبة الجزائريين لم يجدوا سندا سوى في إطار التضامن الشمال - إفريقي فإنهم انضموا، في سنة 1937، إلى زملائهم التونسيين

58 راجع: "صوت الأهلي" (311) 19-2-35؛ "صوت الضعفاء" (154) مارس 1935؛ "الدفاع" (53) 1-3-35؛ (55) 15-3 (58) 5-4-1935.

والمغاربة في صفوف (جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين)؛ ولقد واجهوا معا محنة الحرب والاحتلال. كان أغلبهم قد تراجع إلى مدن الجنوب الفرنسي مثل: Montpellier وToulouse وBordeaux حيث كانوا يتوخون مستوى معيشة أسهل.[59] لم يبق من بين أولئك في العاصمة باريس سوى 43 طالبا سنة 1943. أما في الفترة التي سبقت الحرب فيمكن التمييز بين فئتين من الطلاب وهما: فئة الطلاب الفقراء الذين كانوا يعملون في أسواق الخضر أو يمتهنون غسل الأواني في المطاعم؛ وفئة الطلاب الأغنياء الذين يتلقون من ذويهم منحة شهرية. لكن بعد أن انقطعت العلاقات مع عائلاتهم، بسبب انقسام التراب الفرنسي إلى قسمين وبعد نزول الحلفاء في شمال إفريقيا، عاش الجميع ضائقة لم يسبق لها مثيل؛ فلقد اضطرّوا، حفاظا على رمق الحياة، أن يصطفّوا في الطوابير البشرية التي كانت تلتمس تذكرة الوجبات المجانية. كانت هيئة "الإسعاف الوطني" تقدم لهم قروضا شهرية ضئيلة لحفظ ماء الوجه ولكنها لم تكن كافية لتلبية جميع حاجاتهم. كان تضامن الجماعة الشمال – إفريقية معهم هو وحده الذي أنقذهم من الموت جوعا.[60]

بالرغم من أن الحرب لم تكن درامية على وضعية الطلبة المسلمين في مدينة الجزائر إلا أنّ آثارها كانت كبيرة جدا. لقد عانوا من ندرة المواد الغذائية وشتى المواد الضرورية الأخرى وعانوا من استيلاء الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة على عمارات السكن الجامعي (بما فيها دار الطلاب) وكذا بعض البيوت الخاصة ناهيك عن اضطراب المسار الدراسي بسبب حملة التجنيد (سنة 1939– 1940 وسنة 1942– 1945)؛ لقد نتج عن تراكم تلك العوامل المُحبطة أن تردت ظروفُ

59. لقد وجدوا إعانة في الدور المسيرة من طرف كتابة الدولة للبحرية وللمستعمرات. راجع: "طالب فرنسا ما وراء البحر، يوميات دور الإقامة" جويلية 1943 على ماي 1944؛ وكذا "تقرير محافظة بوش دي رون"، حول الطلبة الجزائريين لمرسيليا ، افريل 1941.

60. راجع "الرشيد" (6) 5-6-1943؛ (17) 17-5-1944؛ ثم "طالب دول المغرب" (1) ماي 1955.

المعيشة والعمل، بالنسبة لجميع الطلاب، ترديًا منقطع النظير وبصفة أخص منها ظروفُ الطلبة المسلمين فبلغ الوضعُ حدًّا لا يطاق خلال الموسم الجامعي في سنة 1945، إثر عودة الطلبة المجندين من جبهات القتال، مما أدّى إلى أزمة خانقة بسبب ضيق المحلات والمرافق عن استيعاب جموع الطلبة.

بمجرّد أن أعيد ربط الاتصال بفرنسا هاجرت إليها أعدادٌ معتبرة من الطلبة الذين فضّلوا التماس حظوظ أوفر في الوطن الأم؛ فلقد غادر الجزائر حوالي 62 طالبا في سنة 1944– 1945 و 135 طالبا سنة 1945– 1946 من بين الذين كانوا مسجلين للدراسة؛ بيد أنّ ذلك الرحيل لم يكن كافيا لتخفيف العبء عن الباقين الذين لم تتحسن أوضاعهم إلا تدريجيا. في بداية سنة 1947 رسم عبد القادر سفير لوحة قاتمة عن ظروف معيشة الطالب المسلم الجزائري: ففيما يتعلق بالإيواء كان هذا الأخير يعاني أشدّ الصعوبات في الحصول على مأوى وذلك لأن استمرار الأزمة أعطى مُلاك العمارات مطلق الحرية في فرض شروط الإيجار وفق أهوائهم؛ وكذلك كان الأمر بالنسبة للإطعام حيث لم يكن الطالب المسلم الجزائري يجد وجبات بأسعار معقولة. كان مطعم دار الطلبة ضيّقا وكانت أثمان الوجبات في مطاعم المسلمين مرتفعة وأسعار الكتب باهظة وتكاليف التسجيل مرتفعة فكان لتلك العوامل كلّها تأثيرٌ سلبي على ميزانية كل طالب؛ وكانت منح الحكومة العامة (ما بين 2.000 إلى 3.000 فرنك) هزيلة جدا؛ ومهما يكن فمن حصل عليها يعتبر نفسه محظوظا لأن معظم الطلبات كانت تمر بفترة انتظار لا تكاد تنتهي قبل أن تواجه في الأخير بالرفض.

مجمل القول: "من أراد الحصول على شهادة ليسانس أو دكتوراه فلا بد أن يكون لأبويه أموال قارون أو أن يكون مثل الرواقيين فيصبر برباطة جأش على معيشة الكلاب".[61]

---

61. "المساواة" (60) 16-1-1947 (61) 23-1 (63) 6-2 (67) 6-3 (68) 13-5 (69) 20-5- 1947.

بذل الطلبة المسلمون في مدينة الجزائر وسعهم من أجل تنظيم صفوفهم بغرض التضامن لتحسين أوضاعهم المادية ومنذ أن انقطعوا عن الجمعية العامة للطلبة توجهوا إلى "القدماء" من (البرجوازيين والأهالي) يدعونهم للتضامن معهم.

تأسَّست، في شهر جانفي 1947، بمدينة الجزائر جمعيةُ "أحباب الطالب" وكانت توزع منحا متواضعة (1.200 فرنك لمدة سبعة أشهر) وسطَّرت مشاريع لبناء دار للطلبة في الجزائر وباريس؛ وبالفعل تمَّ تدشين دار الجزائر في شهر جانفي 1948 في ساحة La Lyre.[62] ولئن تمكّن الطلبة، قبل أي شيء، من إيجاد مطعم بأسعار زهيدة فإنَّ السَّكن ظلّ بالنسبة إليهم مصدر قلق دائم. في سنة 1949 تحصل محمد الحاج صدوق (أحد مؤسسي "أحباب الطالب") من الحاكم العام Naegelen وعدًا بأن يضع تحت تصرفهم "دار المجروح المسلم" وهي فيلا كبيرة وقديمة توجد في شارع de la Robertsau Avenue ولم يكن ذلك الحلّ كافيا لأن 38 طالبا قد أسكنوها من طرف الإدارة في ديسمبر 1949 بإيجار يتراوح بين 1.100 و 1.500 فرنك شهريا (6.540 فرنك للتكفل التام إيواء وإطعاما) وكان على البقية منهم، باستثناء طلبة مدينة الجزائر، أن يوفروا لأنفسهم مسكنا بوسائلهم الخاصة ولم يكن في وسعهم أن يجدوا إيجارا يقلُّ عن 3.000 فرنك شهريا.[63] لم توافق إدارةُ تلك الدار على استقبال البنات الشابات فطالبن بالاستفادة من دار مماثلة وأخيرا وُضع حدٌّ لمشكل السكن بعد افتتاح المركز اللائيكي La clarté في شهر جانفي 1950 وتمَّ الانتهاء تدريجيا من تشييد الحي الجامعي في بن عكنون ابتداء من نوفمبر.[64]

62. نفس المصدر (112) 23-1-1948

63. الجزائر الجمهورية، 25-12-1949

64. "طلبة الجزائر"، (1) جوان 1950

ربما كان تحسُّن الأوضاع المادية للطلبة المسلمين، بجامعة الجزائر، عاملا في تراجع هجرة الطلبة نحو فرنسا أو على الأقل إلى باريس؛ ولقد أصبح ذلك الوضع ملحوظا منذ سنة 1951؛ وعلى عكس ما حصل في الجزائر فإن ظروف الحياة والعمل في فرنسا ظلت صعبة. ورد في تقرير حرّرهُ شخصٌ مجهول، في جويلية 1946، بخصوص أوضاع "الطلبة الشمال إفريقيين بباريس"،[65] يقول فيه: إنه يمكن التمييز بين فئتين اثنتين من الطلبة: أولها "الطلبة المستفيدون من المنح" وهؤلاء ينتمون بصفة عامة إلى العائلات الفقيرة وهم يشتكون من عدم كفاية المنح التي يتقاضونها مما أجبرهم على إسداء بعض الدروس الخصوصية أو البحث عن عمل مأجور أما ثانيهما فهم "الطلبة الذين لم يحصلوا على منح" وهم يشتكون بدورهم من اضطرارهم إلى إرهاق كاهل أسرهم أزيد من اللزوم. لقد راح الكلُّ ضحية غلاء المعيشة الذي ساد بعد الحرب وكان الجميع يشعرون بالحرمان وهم ينظرون إلى الطلاب الأجانب المستفيدين من منح أجزل ومما زادهم نكدًا أن بعض تلك المنح كانت على عاتق الحكومة الفرنسية".

شارك هؤلاء الجزائريون، البالغ عددهم قرابة مائة طالب سنة 1946، في جمعية "الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين" التي كانت تتولى تسيير دار الطلبة مجهّزة بمطعم تعاوني مدعّم من طرف السلطات العمومية وكان مقرُّه، ابتداء سنة 1943، في شارع Saint - Michel ولكنه أُهمل من طرف الحكومة العامة الجزائرية بينما واصل حكام محميتي تونس والمغرب تقديم الإعانة لطلبتهما. كان الطلبة الجزائريون على وعي تام بأنهم صاروا عبئا ثقيلا على عائلاتهم؛ ولقد دفعهم الشعور بالمهانة إلى تكوين لجنة للتعاون، ابتداء من سنة 1947، بمساهمة لجنة باريس "لأحباب الطالب"؛[66] وفي نوفمبر 1953 أسسوا اتحاد الطلبة الجزائريين في باريس لكي يقدموا بواسطته مطالبهم

---

65 CHEAM DOC. 192

66 "العدالة" (90)، 1947-8-15 و (108)، 1947-12-26.

إلى السلطات الفرنسية؛ كما تقدموا بمطالبهم، أيضا، إلى المركز الجهوي للخدمات الجامعية والمدرسية وكان مقرُّه في شارع Soufflot. بذلت المُساعِداتُ الاجتماعيات اللائي كن يعملن في ذلك المركز جهودا مخلصة ولكن بوسائل بسيطة لم يكن من شأنها أن تفي بحاجيات الطلبة القادمين من وراء البحر وقد لاحظت إحداهن، وهي مكلّفة بإعانة الطلبة الشمال إفريقيين، أنَّ الجزائريين هم الذين كانوا في حاجة ماسَّة إلى المساعدة وكانت أهمُّ شكاواهم تتعلق بالمنح وبالإيواء.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى كانت الشكاوى تندد بالإجراءات الإدارية المعقدة وبندرة الردود الإيجابية وبعدم كفاية الإعانة المقدمة. وحسب ما أورده أمقران ولد عودية، في نوفمبر 1950، "فإنَّ المنح كانت تُسلَّم من طرف الحكومة العامة والمجالس العامة (للعمالات الجزائرية الثلاثة) ونادرًا جدا ما تصدر من وزارة التربية الوطنية (...). تراوح مجموعُ المنح، التي صرفتها الحكومة العامة، ما بين 40.000 فرنك و90.000 فرنك (في السنة) وتراوح مجموع ما صرفته المجالس العامة بين 15.000 و40.000 فرنك. كان المستفيدون منها نادرين ندرة الديمقراطية في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط".[67] صار الطلبة الجزائريون، في ديسمبر 1952، يتقاضون منحا تُدعى "المنح الولائية" تصل إلى 60.000 فرنك في العام. كانت تلك المبالغ زهيدةً جدا لأن حاجة الطلبة تفوق ذلك بثلاثة أضعاف لكي تفي بتغطية مصاريف سنة كاملة. التمس الطلبة الجزائريون مساواة مبالغ منحهم بمبلغ منح زملائهم الفرنسيين[68]" وأخيرا قدَّم اتحاد الطلبة

67. "الطلبة المناهضون للاستعمار" (8) نوفمبر 1950. في سنة 1949-50، من بين 178 طالبا مسجلا في الخدمات الاجتماعية، 32 استفادوا من منحة (تقرير الآنسة آ وارد في عرضها بالمدرسة الحربية، 61-4-27)

68. نفس المصدر (15) ديسمبر 1952. ابتداء من سنة 1952-53 صار الطلبة الجزائريون يتقاضون منحا من فرنسا، ماعدا 15 منهم، حسب الآنسة P.

الجزائريين بباريس، في فيفري 1955، حصيلة كاملة للوضعية مع رزنامة مطالب.[69]

استفاد بعض الحاصلين على المنح، وما أقلَّهم، من منح سُلِّمت لهم في فرنسا (مبلغها 160.000 فرنك في السنة) واستفاد الباقي من منح "جزائرية" (تراوحت بين 10.000 و 90.000 فرنك في السنة) وذلك تمويلٌ هزيل مقارنة بحجم حاجيات الطلبة الجزائريين التي كانوا يقدرونها بحوالي 294.500 فرنك سنويا؛ ولكن لم يكن معدل مصادرهم، حسب ذات التحقيق، يتجاوز 102.000 فرنك في السنة (8.500 فرنك في الشهر).

كانت المصادر الوحيدة المحتملة، في غياب المنح أو تكملة لها، هي الإعاناتُ التي ترسلها العائلات وكذا أجور الأعمال الصغيرة التي كان الطلبة ينجزونها خلال العُطل وحتى في أثناء السنة الدراسية. إنَّ الشعور بالأنفة والحرص على عدم تكليف ذويهم مزيدا من المتاعب كان يدفع العديد من الطلبة الجزائريين إلى البحث عن عمل رغم صعوبة إيجاده.[70] وحين يعثرون على عمل فغالبا ما يكون إنجازُه على حساب دراستهم أو وضعيتهم الصحية ونادرا ما كانوا يتمتعون بعطلة حقيقية نظرا لنقص الوقت أو المال. وكثيرا ما كانوا يقضون سنوات عديدة غرباء عن ذويهم بسبب عجزهم عن دفع تكاليف السفر الباهظة (المنح لا تدفع سوى لعشرة شهور في السنة).[71] كان الطالب الجزائري مضطرا للاقتصاد في كل شيء حتى في الضروريات وكان مُجبرًا أحيانا على توقيف الدراسة بسبب انعدام الموارد أو لأسباب صحية.

69. الجمهورية الجزائرية، (54) 1955-2-24("ميثاق المطالب الخاص باتحاد الطلبة الجزائريين بباريس").

70. من بين 100 طالب جزائري في باريس، 27 كانوا يشتغلون، حسب تحقيق اتحاد الطلبة الجزائريين في باريس.

71. تخفيض ثمن التذاكر قد شكل مطلبا دائما لجمعيات الطلبة المسلمين في فرنسا: جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا (راجع الدورية السنوية 1928-29؛ جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين بفرنسا (راجع الإقدام: (43). 21-8-1933)، الطالب المناهض للاستعمار (15) وكذا ميثاق المطالب لاتحاد الطلاب الجزائريين بباريس.

إذا كانت نفقات الغذاء والصحة قد انخفضت، لحسن الحظ، بعد اللجوء إلى المطاعم الجامعية وإلى صندوق الضمان الاجتماعي للطلبة (الذي تم إنشاؤه سنة 1948) فإن تسهيلات السكن ظلت غير كافية تماما. إنَّ الجزائريين، كباقي الطلبة القادمين من وراء البحر، لا يمكنهم الاعتماد على ضيافة الأقارب أو أهل البلد إلا كإجراء مؤقت ومع ذلك فقد أُجبروا على طلبها مرارا عندما تنعدم الحلول الأفضل وعلى عكس القادمين من بلدان أجنبية أو من مناطق الاتحاد الفرنسي الأخرى "فإن الطالب الجزائري حين وصوله باريس لم يكن يجد مركز استقبال ولا فندقا ولا دارا مخصصة للجزائريين: فالطلبة الجزائريون، من بين كل الطلبة القادمين من المستعمرات، همُ الفئة التي لم تكن تحظى بتكفل عقلاني "ونظرا لهذا الخلل فإن الكثير منهم الآن يسكنون مثنى وثُلاث في حجرات لا تتسع سوى لإيواء طالب واحد."[72]

إنّهم لا يستفيدون من جناح خاص في الحي الجامعي ولا بفنادق مخصّصة لهم وذلك باعتبارهم، من وجهة نظر القانون، فرنسيين مثل بقية الفرنسيين فكانوا موزعين بين مختلف الأجنحة ومختلف الدور الجماعية ولا يحظون بأية أولوية في الحصول على الغرف. كانت أغلبيتهم مجبرة على السكن في الفندق أو لدى الخواص بإيجار لا يتناسب مع إمكانياتهم.[73] وبالرغم من ذلك فلقد كان عليهم أن يعتبروا أنفسهم سعداء إذا وجدوا مسكنا ولم يتم رفضهم من طرف المؤجر.

72. الطالب المناهض للاستعمار (15).

73. حسب التحقيق الذي قام به اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس، ففي شهر فيفري سنة 1955، من بين 100 طالب جزائري، 10 يسكون الحي الجامعي لشارع جوردان، 22 في دور جماعية للطلبة، (معظمهم في الإقامة الجامعية جان زاي في أنطوني) و 68 في غرف بالفنادق او عند خواص (راجع مقال غوتييه والتر، "مناخات" 7-4-1955

لم ينقطع الطلبة الجزائريون، في باريس، عن العيش في ظروف شاقة؛ ولم تجد شكاواهم المتكررة آذانا صاغية. لقد تجمعوا ضمن اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس من سنة 1953 إلى سنة 1955 محاولين مرة أخرى "افتكاك مستوى المعيشة المحترم الذي هو حق لهم" ولقد حدَّد "ميثاق مطالبهم" أهدافا آنية وأهدافا أخرى بعيدة المدى لأن "الطلبة الجزائريين سئموا تكاليف البؤس"؛ وتلك الأهداف هي:

1. تقاضي أجرة مسبقة أو منحة معممة على جميع الطلبة.
2. تخصيص جناح للجزائر داخل الحي الجامعي.
3. الاستفادة من تذكرة سفر سنوية ومجانية.
4. ضمان منصب شغل في الجزائر.

بما أنَّ الطالب المسلم الجزائري بباريس مستمرٌّ في معاناة الظروف المعيشية الضنك التي تُماثل، من حيث الصعوبة، تلك المعيشة التي يجدها في الجزائر فلماذا الإصرار على عبور البحر الأبيض المتوسط؟ إنَّ السبب الرئيسي لتلك الهجرة مُتمثل في استحالة الحصول على بعض الشهادات في المدارس العليا وكذا في جامعة الجزائر ولقد أخذ يزول تدريجيا مع تطور قائمة الاختصاصات المتوفرة؛ وحتى لو لم ينتف ذلك السبب، بصفة نهائية، فإن حصول الوعي والنضج الفكري لدى الطلاب جعل الطموح يستولي شيئا فشيئا على اهتمامات الطلبة.

إنَّ الأماني التي عبَّر عنها الطلبة المسلمون في مؤتمر الاتحاد الوطني لجمعيات طلبة فرنسا، سنة 1929، وضعت في مقدمة الاهتمامات حاجتهم الأكيدة إلى استيعاب ثقافي مكثَّف لا يمكن تحققه إلاَّ في الوطن الأم. فلقد كان المؤتمرون "يعتبرون الثقافة الفرنسية تراثا مشتركا لكل طلبة شمال إفريقيا، من أوروبيين ومسلمين، فمن المهم بالنسبة لهؤلاء الذين ينتمون إلى جنس مغاير، والذين نشئوا وفق عادات وتقاليد مختلفة، أن تتوفر لهم أكثرُ

الفرص الممكنة من أجل أن ينهلوا من منابع تلك الثقافة وأن يتمرَّسوا على واقع الحياة في فرنسا بعد أن تعرَّفوا على فكرها؛ فحبَّذا لو تُيسِّر الحكومة العامة ظروفَ إقامة الطلبة المسلمين الجزائريين، في جامعات فرنسا، وتبرمج مشروع إنشاء جناح جزائري في الحي الجامعي بباريس.[74]

وردت تلك الأماني مرارا في مؤتمرات الاتحاد الوطني، إلى غاية مؤتمر سنة 1935، وكان هذا الأخير يعتبر أنَّ الطالب الجزائري المنتمي إلى الأوساط الشعبية لا يملك الإمكانيات المادية الكافية وأنَّ "وضعيته الهشَّة لم تسترع بعد اهتمام الحكومة" فطالب الحكومة العامة بالعمل على تسهيل إقامة الطلبة المسلمين في جامعات فرنسا بتقديم المنح والإعانات وبناء المزيد من أحياء الإقامة للطلاب الشمال إفريقيين.[75]

لم تتطور مطالب الطلبة المسلمين قط خلال ست سنوات بل وجدوا آذان الحكومة الفرنسية غير صاغية وكانوا على يقين بأن مردَّ ذلك إلى سوء نية السلطات الاستعمارية في الجزائر؛ لقد كانت هذه الأخيرة تتوجس خيفة من هجرة الطلاب إلى فرنسا لأنها قد تتسبَّب في خروج شباب الأهالي عن رقابتها فيصيروا عرضة لمختلف التأثيرات ومن جملتها التيارات السياسية "المشبوهة". كتب أحمد بومنجل رسالة إلى الحاكم العام، سنة 1935، يقول فيها:[76] "لا ينبغي مؤاخذتنا على مجيئنا "لنتفرنس" في باريس ولا خوف على جامعة الجزائر أن تفرغ من طلابها؛ وهكذا تضاعف الطموح للتعرف على "فرنسا الحقيقية" بفعل نزوع الطلبة إلى الفرار من الجزائر الخاضعة للنظام

---

74. ذكر فرحات عباس. "التلميذ" (4) فيفري 1932، أن مشروع إنشاء دار لإفريقيا الشمالية قد قدم في شهر ماي 1931، من طرف أندريه هونورا، مدير الحي.

75. "الصحافة الحرة" 5-5-1935 ص. 5. الحي الشمال إفريقي لم يبن أبدا، رغم أن الحكومة العامة قد ساهمت بخمسة ملايين. (نفس المصدر) لكن تونس والمغرب قد بنوا جناحهم بالحي الجامعي لباريس قبل 1954 بقليل.

76. "الدفاع" (53) 1-3-1935.

الاستعماري"؛ فالثقافة الفرنسية الحقيقية أي تلك المقترنة بمبادئ الحرية كان ينظر إليها من حيث كونها نقيضَ الذهنية الاستعمارية المهيمنة والعنصرية.

صاغ إبراهيم بن عبد الله (وهو طالب جزائري في باريس آنذاك) فحوى تلك التناقض في عبارات واضحة حيث قال في سنة 1935: "لا مناص من الاعتراف بأنّ الطالب المسلم محتقرٌ في مدينة الجزائر من طرف زميله الفرنسي الذي يعتبره في مرتبة أحط منه؛ وبالرغم من كل الصعوبات التي وضعتها الإدارة لإيقاف تلك الهجرة فإنّ الرحيل إلى فرنسا صار الآن أمرًا واقعا لا مندوحة عنه. هنا تتوفر فرص العمل بكثرة وهنا الحياة أسهل والذهنية أحسن وليس ثمة أحكام مسبقة مؤسسة على الفوارق بين الأجناس أو الديانات. إنّ الطالب المسلم الجزائري يعيش على قدم المساواة مع زميله الفرنسي".[77] هذه الحجج صارت ترد باستمرار في كل تقرير. كما نصّت خلاصة مطالب "الطلبة الشمال إفريقيين في العاصمة (باريس)، سنة 1946، على أنّ "هؤلاء وأولئك قد اختاروا باريس وفضّلوا المكوث فيها بدل مدينة الجزائر؛ فعلاوة على براعة الطلبة في التعرُّف على مشاهير الأساتذة فإنهم يتصورون أنّ في مستطاعهم الاطلاع على حقيقة فرنسا التي لا تدين بالنظرة العصبية ولا بالأفكار المُسبقة التي يحملها فرنسيو شمال إفريقيا".[78] وفي شهر أفريل 1955 تساءلت نشرة "طلاب المغرب"، الناطقة باسمهم، قائلة: "ما الذي يجذب الطلاب نحو فرنسا؟" إنهم بحاجة إلى إكمال تحصيلهم العلمي في أجواء فرنسية محضة ومن الضروري بالنسبة إليهم أن ينهلوا من ينابيع الثقافة ليتعرفوا على وجه فرنسا الحقيقي بعد أن تعرَّفوا على فكرها. إنّ غرضهم قبل كل شيء هو الإفلاتُ من شراك الإدارة الاستعمارية".

---

77 نفس المصدر رقم 51، 1935-2-15.

78 CHEAM ,doc. 192.

ما فتئت هجرة الطلبة، ومغادرتهم المحيط الذي كان ينبذهم، تتأكّد كعامل أساسي حلّ محل الإغراء الذي كانت تمثله الآفاق المجهولة فالطلبة المسلمون قد رسموا لوحة قاتمة عن المعاناة التي كانت قدَرَهم في بلدانهم.

كان الطالب المسلم يشعر بالمعاناة من عنصرية المجتمع المسيطر وفي علاقاته مع السكان الأوروبيين خصوصا حين يبحث عن غرفة يأوي إليها. كانت فئة المؤجرين معروفة بروحها العنصرية في مدنية الجزائر حيث يتواجد شعبان اثنان في الشوارع من غير أن يتجاوروا داخل العمارات؛ ولقد أشار فرحات عباس إلى ذلك الواقع منذ سنة 1927 حين قال: "في مدينة الجزائر (...) لا يجد الطالب الجزائري مأوى إلا بصعوبة؛ ولولا وجود بعض العائلات، وهي نفس العائلات دائما، لفُرض علينا دفعُ أسعار إيجار فاحشة في بعض الفنادق. من يا ترى يرضى بتأجير غرفة لمن كانوا يُسمُّون (من قبيل الاحتقار والازدراء) Les bicots؟[79] كانت إدارة الجامعة، خلال موسم الدخول الجامعي، سنة 1944–1945، تحجز الغرف لإيواء الطلبة ذوي الأصل الفرنسي ولم تكن تجرؤ على حمل المؤجرين الخواص على إيواء الطلبة المسلمين بل كانت تفضِّل تكديسهم ثُلاث ورُباع في غرفة واحدة في فندق Le globe الخاص بالأهالي والموجود في حي Belcourt. ندَّدت جمعية الطلبة المسلمين، في اجتماع بتاريخ 17 ديسمبر، بالذهنية العنصرية للسكان الأوروبيين واحتجَّت ضد الحشر العنصري المفروض على الطلاب المسلمين وأدانت سلوك المؤسسة الرسمية الذي ينمُّ عن ذهنية رجعية وخارجة عن القانون. كان ذلك السلوك المخزي متناقضا تماما مع التصريحات الرسمية (...)[80] وبعد عشر سنوات من صدور أمرية مارس 1944 تجلَّت "نفسُ الذهنية الرجعية" بصورة مفضوحة

---

79 ABBAS op. cit. p. 199

80. Egalité. 22-12-1944 (15) رسالة الأمين العام للحكومة العامة للجزائر، إلى عامل عمالة وهران، حول هذه اللائحة. 5-1-53.-1-3 AOM Oran 1945.

"فمن جملة 258 غرفة للإيجار، المعروضة على لجنة الخدمات المدرسية والجامعية بمدينة الجزائر في تلك السنة (1954-1955)، فإنّ 255 غرفة كانت رهينة الشرط التالي: هنا لا يُقبل المسلمون".[81]

من الطبيعي أن تُوَجَّه الانتقادات والإدانة إلى المصالح الإدارية التابعة للحكومة العامة، التي كانت غالبية مستخدميها من المستوطنين، فكان كلُّ ما تنجزه، أو ترفض إنجازَه، من أعمال يُؤوَّل على أنَّه تصرُّفٌ ناجم عن الذهنية الاستعمارية. أكَّد أمقران ولد عودية، في سنة 1950، ذلك حين قال: "لا داعي إلى التذكير بأشكال التمييز السياسي والعنصري الكامن وراء إجراءات توزيع المِنح الدراسية" ثم قال: "إن جامعة الجزائر تختلق شتى العقبات للحيلولة ضد إرسال الطلبة الجزائريين إلى جامعات فرنسا وهدفُها هو منعهم من أن يُطلعوا الفرنسيين في فرنسا على نظام القمع الفظيع المهيمن على بلدهم".[82] الحقيقة أنَّ الحكومة العامة كانت قلقة من التطور السياسي الذي مسَّ الطلبة الشباب وكانت تفضّل أن يتابعوا دراستهم في الجزائر لتبقيهم تحت رقابتها.[83]

تأسَّست جامعة الجزائر، سنة 1909، بغرض تنشيط عملية "استصلاح" شمال إفريقيا ولتسليط أنوار الثقافة الفرنسية على سكانها؛ وبالتالي كانت الجامعة، بمقتضى وظيفتها، أداةً من أدوات استعمار تلك البلدان. ولقد اشتهرت تلك الجامعة، في نظر الطلبة المسلمين، بكونها قلعةً من قلاع الاستعمار "الجزائري" وهنا أيضا سادت الروح العنصرية وتجلت آثارها في صرامة الممتحنين التي كانت تتفاوت حسب انتساب المرشحين في مدينة

81. Consciences maghrebines (4) (art. cit.).

82. "الطالب المناهض للاستعمار" (8) نوفمبر 1950.

83. في مذكراته (لم تنشر)، لم يخف روجي ليونار، (الحاكم العام للجزائر، 1951-1955) حيرته إزاء تطور الشبيبة المسلمة.

الجزائر. روى Gautier Walter في صحيفة بعنوان: Climats (7-4-1955) "أنّ الطلبة الجزائريين كانوا ضحايا الأحكام المسبقة والعنصرية حتى في الامتحانات مما حفَّزهم على تفضيل الانتقال إلى باريس حيث المعاملة أكثر إنصافا" ونلمس المعاملة العنصرية أيضا في تسامح المصالح الإدارية مع بعض مؤجري الغرف الذين يرفضون تأجيرها للطلبة أبناء الأهالي كانت تلك المصالح تغض الطرف أيضا عن الشروط المجحفة المفروضة على المسلمين لصدِّهم عن السكن في الإحياء الجامعية أو قبول عدد محدود منهم في الحي الجامعي الجديد في حي بن عكنون حيث المساحة الواسعة ومرافق الراحة متوفرة بينما يُكدَّس معظمُهم في دار بشارع Robertsau داخل مراقد في أجنحة ضيِّقة. غير أن السلطات كانت تنفي تلك النوايا المنسوبة إليها وتدعي أنَّ حرصَها على تحقيق نوع من الاندماج بين الفئات الطلابية هو الذي دفعها إلى تخصيص حصة محددة من الطلبة المسلمين في بن عكنون وحصة محددة من الأوروبيين في شارع Robertsau.[84] احتجَّ المعنيون بالأمر، من كلا الطرفين، ضدَّ تلك المعاشرة المفروضة بصورة إجبارية في المطاعم فكانوا يفضِّلون الانتظار في الصفوف بدل الدخول لتناول الوجبات مع طلبة من أصول مغايرة؛ فلئن وُجد ثمة نزوعٌ إلى التمييز العرقي فإن ذلك ليس من فعل الإدارة وإنما كان يصدر من غرائز عفوية مودعة لدى الطائفتين.

كان ذلك النزوع إلى التمييز واقعا فعليا معاشا، على الأقل منذ سنة 1945، فقد ندّدت صحيفة Alger estudiantin، في جانفي 1948، بانعدام الروح الجماعية الحقيقية التي توحِّد جميع طلبة مدينة الجزائر فقالت: "إنَّ التشتت

84. في حي بن عكنون، مثل الطلبة المسلمون الثلث، في شهر نوفمبر 1950( (بحسب "وقائع جزائرية". جوان 1953). في نوفمبر 1952، لم يكن عددهم يتجاوز 20% (حسب الطالب الجزائري .1.) أقل من ذلك في ديسمبر 1953. (نفس المصدر .2.) في دار شارع روبيرتسو، مثل الأوروبيون 9 من بين 47 مقيما (أنظر "الجزائر الجمهورية" 25 ديسمبر 1949) 6 من 56 في نوفمبر 1950 (حسب "وقائع جزائرية").

واللاّمبالاة والمواقف السلبية والأفكار الطائفية والتقسيمات المتعددة الأشكال، سواء منها العرقية أو الاجتماعية، حالت دون استتباب "حياة طلابية حقيقية" في ثاني جامعة بالاتحاد الفرنسي. ولقد ندّد أحد طلبتها المسلمين "بالأسباب القاهرة" التي كانت تدفع زملاءه إلى الرحيل نحو فرنسا: ويتعلق الأمر "بكل الأوضاع السائدة في الوسط الذي يعيشون فيه" "بالأجواء المشحونة التي تحيط بهم" المليئة بمشاعر الاستفزاز والعدوانية والاحتقار". "تلك ردودُ فعل طبيعية في هذا البلد ولكن من حقنا أن نأمل في أن لا يبقى في عقول الطلبة الذين يزاولون دراسات عليا فسحة لمثل ذلك السلوك": وفي سنة 1955 أصدرت صحيفة Consciences Maghrébines "حكما مماثلة على جامعة الجزائر حين قالت: "إنّ الطلبة المسلمين طرفٌ اجتماعي غير مندمج فيها بمعنى الكلمة فقد أُدرجوا في كلياتها وتم قبولهم كما يُقبل الوجعُ الذي لا مناص منه؛ ففي إمكانهم متابعة الدروس في كلياتها ومعاهدها ولكنهم معزولون عن الحياة الطلابية من طرف أساتذتهم، أحيانا، ومن طرف زملائهم غالبًا. لا تقوم الجامعة والحياة الجامعية بأية مبادرة لكسر الحواجز التي تقسم الجزائر بل تبلورُها وتدعمُها"؛[85] وهذا بالرغم من محاولات الانتفاض ضدّ تلك القطيعة ومن بينها التعاون بين الجمعية العامة للطلبة الجزائريين وجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا من سنة 1922 إلى 1942. تعطّلت تلك المبادرة مرتين بسبب سوء تفاهم حصل سنة 1931 وسنة 1936- 1938 ثم بعد الحرب العالمية؛ ومن بين تلك المبادرات أيضا النشاطاتُ التي تم تنظيمُها من طرف مصلحة حركات الشبيبة والتربية الشعبية تحت قيادة Charles Aguesse ومن طرف بعض الأساتذة ومن أشهرهم الأستاذ André Mandouze [86] . نشّط هذا الأخير، من سنة 1946

85 - مذكرات روجي ليونار تؤكد تماما حقيقة تلك اللوحة السوداء

86 - "طالب مدينة الجزائر" (1) ماي 1946، "الجزائر الطلابي" نوفمبر ديسمبر 1947 جانفي 1948، حتى 1950.

إلى 1955، بعض المخيمات الصيفية في جبال شنوة وتيكجدة سمحت لطلبة من أصول واتجاهات مختلفة بالتعارف والتقارب أكثر ولكن النتائج ظلت غير كافية.

ومن مفارقات الأمور أن يكون المشروع الذي وضعته جامعة الجزائر لتحقيق الإدماج هو المتسبب في فشل العملية؛ وذلك لأن الجامعة ظلت، إلى غاية سنة 1962، شبيهة بجامعات المدن الداخلية الفرنسية وكان الطلبة الأوروبيون يعيشون فيها وهم يتوهمون أنهم في إحدى المناطق الفرنسية وحيث أنهم يشكلون الأغلبية الساحقة فكانوا يعتقدون أنَّ من واجب الأقلية المسلمة السعي إلى التأقلم معهم بدون أن ينتبهوا إلى كون جامعة الجزائر تقدم صورة معكوسة عن الواقع الجزائري: تسعة أعشار السكان لا يقدمون إليها عُشرَ عدد الطلبة. كان معظم الطلبة الأوروبيين راضين بمعاشرة زملائهم المسلمين الذين يتصرفون كفرنسيين؛ ولقد أجهد بعضهم نفسه على السلوك كالفرنسيين إلى درجة أنَّه قطع الصلة بكل ما كان يفرق بينه وبين الفرنسيين. على هذا الأساس "تحقَّق التقاربُ في بعض الأحيان وتوفَّر نوعٌ من الزَّاد الثقافي المشترك الذي سمح بذلك اللقاء وكان من الممكن أن يكون الوضع مثمرا أكثر لولا أنه كان يُفرض على الطالب المسلم التخلي عن لغته وعن ثقافته وأحيانا حتى عن بعض شعائره الدينية".[87] هذا التقارب الأُحادي الجانب كان يفرض، على من يرغب فيه، الاغترابَ والتنصُّلَ من جذوره؛ أما الطلبة المسلمون الذين يرغبون في البقاء أوفياء لشخصيتهم الثقافية فكانوا منبوذين من طرف جموع زملائهم الفرنسيين في الجزائر.

إنَّ الرغبة في الاستيعاب الثقافي الحرّ هو الدافع إلى الهجرة نحو فرنسا لأنَّ جامعاتها، وخصوصا جامعات باريس، كانت مشهورة بتقديم الثقافة

87. ضمائر مناربية. المقال المذكور

الفرنسية دون قيد أو شرط للطلبة الراغبين في اكتسابها من كل الأجناس. يُجمع الملاحظون[88] على القول بأنّ الطلبة المسلمين الجزائريين، والشمال - إفريقيين، كانوا يشعرون بانجذاب خاص نحو تلك الثقافة التي تمثل، في نظرهم، أسمى أشكال الحضارة الأوروبية تطورًا وكانوا يعتبرونها عاملا لا غنى عنه للتحرُّر والرقيِّ. هذا الانجذاب القوي كان يُميِّز الجزائريين في الثلاثينيات حين كانوا يقدمون مطالبهم داخل الإطار الفرنسي ولم يتخلوا عن تلك عندما التحقوا (منذ سنة 1937) بجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين؛ وبالفعل كان هؤلاء يميِّزون بوضوح بين الاعتناق الحرِّ للقيم العالمية، الموجودة في الثقافة الفرنسية، وبين وفائهم لوطنهم ولشعبهم: فقد كان في استطاعتهم المزاوجة بين التنديد بالسياسة الاستعمارية الفرنسية كل يوم وبين التصدي بحماس لاستشراف آفاق فرنسا المثالية.

كان الطلبة يعيشون هذا الفارق الجوهري بوصفه تعارضا بين فرنسا "الاستعمارية"، المسيطرة على بلدان شمال إفريقيا، وبين فرنسا، بلد الحريات في الوطن الأم، مما دفع بواحد ممن عايشوا طلبة شمال إفريقيا في باريس، سنة 1946، إلى القول: "إنهم يمقتون فرنسيي شمال إفريقيا ونادرا ما يعاشرون الطلبة القادمين مثلهم من بلدان المغرب؛ وتراهم، بالعكس، يُظهرون المودّة لفرنسيين في فرنسا ويبادلون زملاءهم من باريس أو من مدن الداخل علاقات صداقة حميمة".[89] كانوا يضمرون الأمل، من خلال تلك الصداقات، لإيجاد فُرص الاتصال بعائلاتهم واكتشاف الحياة الفرنسية. ملخص القول أنّهم كانوا يرغبون في الخروج من عزلتهم بين الطلاب؛ ولكن آمالهم كانت تخيب في أكثر

---

[redacted] راجع موريس فيوليت، "هل ستعيش الجزائر؟" (1931) إديث دولامار "الرشيد" (6) 15-6-1943...

[redacted] CHEAM doc.192 راجع شهادة عمار نارون عن احمد فرنسيس، الذي كان يخالط طواعية في تونس طلبة فرنسيين من الجزائر: "أذكر عبارة لطالب من عمالة قسنطينة، شغوف بفرنسا بقدر ما هو عدو "للأرجل السوداء"، لقد أسر لي: "فرنسيس - لكنه معمر" (...) كلمة "معمر"، التي نطق بها بغضب، كانت تتضمن قدرا كبيرا من الكره". (فرحات عباس، أو دروب السيادة ص. )152.

الأحيان؛ فلقد وجدوا في مدن الداخل تلك الرتابة التي تميز المجتمعات الصغيرة المنطوية على نفسها ووجدوا في باريس لا مبالاة الجماعة التي تحجب عن الأفراد فرص الالتفات إلى بعضهم البعض؛ فكان الطالب الجزائري مهتما بفرنسا ولكن الفرنسيين لم يكونوا يُبالون بذلك.

لم تكن تلك العزلة ثقيلة الوطأة عليه في بداية الأمر؛ بل كان يجد بعض اللذة في وسط الجموع النكرة حيث لا أحد يعرفه أو يحاول أن يعرف من هو ومن أين أتي؛ ففي فرنسا لم يعد ذلك الأهلي التي يُقلق حضوره فرنسيي الجزائر؛ وكان تواجده داخل مدينة جامعية أمرًا عاديا لا يسترعي انتباه أحد وكان مظهره وهندامه هو الذي يوحي بأنه إما طالبٌ فرنسي أو طالب أجنبي في خضم الكثير من الأجانب. إنَّ الحياة في باريس، مدينة التعدد والاختلاط، هي التي تتيح له فرصا أوفر للتستر فهو يعطي لها الأولوية "لأنَّ المسلم الشمال الإفريقي ميّالٌ إلى "التيه" وسط الجموع الأكثر عددا هربا من النظرات العنصرية التي تلاحقه وستظل تلاحقه ما دام رازحا تحت الاستعمار".[90] أما هنا فيمكنه ممارسة الحياة السياسية في نظام ديموقراطي تعددي من غير أن يكون محلَّ رقابة خاصة من طرف الشرطة الكولونيالية لمدينة الجزائر.[91] وكان في مقدوره أيضا تعاطي شتى المهن الصغيرة من غير أن تتعرض كرامته للخدش من طرف الأعين التي تعرفه. كان الطالب الجزائري في فرنسا، وفي باريس بالخصوص، نكرة يعيش في الستر.

لكن ذلك السِّتر، الباريسي، ترك لديه، بعد مدة، شعوراً بالندم لأنَّه لم ينفذ إلى عمق الحياة الفرنسية بل ظلَّ على هامشها أجنبيا مثل بقية الأجانب. انظر مثلا كيف يحلِّل مالك بن نبي حياته، كطالب مكث في باريس فترةً طويلة نسبيا،

90. المغرب الطلابي، أفريل 1955.

91. خاصة منذ إلغاء، سنة 1945، الشرطة الشمال إفريقية لشارع لوكونت، التي حاولت في سنة 1934، استعمال "النادي الفكري المتوسطي" من أجل التجسس على الطلبة المسلمين.

فيقول عن ذلك الشعور بالحرمان: "عموما، إنَّ الطالب المسلم لم يكتشف أسرار أوروبا بل اكتفى بقراءتها؛ أي أنَّه أعطى الأولوية للتعلُّم بدل الفهم."[92]

في سنة 1946 ندَّد طلبة شمال إفريقيا بباريس، كعادتهم، بالنزعة الاستعمارية للسلطات الفرنسية واتهموها بالتقصير في حقهم قائلين: "كان يودُّنا، قبل كل شيء، أن تتكفَّل الهيئات الخاصة بنا: مثل دواوين المغرب وتونس والجزائر وتنظم لنا جولات إلى المتاحف وندوات حول المسائل الفنية وحول مختلف مظاهر التقنية الفرنسية. إنهم شغوفون جدا لمعرفة كل ما من شأنه المساهمة في بناء أمة كبيرة وقوية وقادرة على العيش بمحض إمكانياتها. وكان بودهم، أيضا، لو تمَّ تقديمهم جماعات للتعارف مع الشخصيات البارزة في عالم السياسة والثقافة؛ ذلك العالم الذي يمثل في نظرهم أهم شيء في فرنسا؛ وكان بودهم أن يتعرّفوا على الشعراء والفنانين الذين يقرؤون أو يشاهدون إبداعاتهم... مجمل القول أنهم كانوا يشتكون من عدم الاكتراث بهم ومن عجزهم عن أخذ فكرة شاملة وشافية عن حقيقة فرنسا".[93]

استجابة لتلك الرغبة في تعميق استيعابهم الثقافي ظهرت بعض المبادرات المحدودة ففي نوفمبر 1950 مثلا: تمَّ تنظيم تربص كان بمثابة مدخل إلى الحياة الجامعية الفرنسية جمع؛ لمدة عشرة أيام؛ حوالي ثلاثين طالب من شمال إفريقيا في المركز الثقافي العالمي Royaumont؛[94] كما بادر مركز الخدمات المدرسية والاجتماعية إلى دعم نشاطه العادي بغرض إعانة الطلبة، ماديا، وذلك ببرمجة "عمل ثقافي لصالح طلبة شمال إفريقيا" كما قامت أيضا جمعيات للطلبة المسلمين بدعوة شخصيات فرنسية من أمثال: François M[illegible] وLouis Massignon اللذين استُضيفا، سنة 1955، إلى رقم 115 شارع Saint-Michel بمناسبة عيد الفطر.

92. [illegible]ـنية الإسلام"، ص. 60-61.

93. CHEAM doc. 192.
94. CHEAM doc. 192.

لكن الأثر الإيجابي، لتلك الجهود الرامية إلى التقارب، تعكّر صفوُه ببعض التجارب المؤسفة التي كشفت للطالب المغاربي أن العنصرية لم تكن حكرا على فرنسيي شمال إفريقيا؛ فكم مرة خاب فيها أمله عقب بهدلة عاشها بعضهم عند البحث عن عمل! ومن ذلك مثلا: عُرضت في المكتب الجامعي، بساحة Saint-Michel، إعلاناتٌ حائطية لتشغيل الطلبة كُتب في أسفلها التنبيهُ التالي: "لا نقبل طلبة شمال- إفريقيا".[95] حتى ولو لم يتم إقصاؤهم مسبقا بتلك الطريقة "فقد أحسوا مرارا أن جميع الأسباب كانت تتضافر في اللحظات الأخيرة من أجل الاستغناء عنهم"؛[96] وكان الباحثُ عن سكن يواجه ذات المتاعب "غير أنّ العثور على السكن في باريس كان أيسر منالا عمّا كان عليه الأمر في الجزائر(...) ولكن ذلك التفاؤل الساذج سرعان ما تلاشى أمام الواقع اليومي. كتبت صحيفة "الطالب"، في أول نوفمبر 1953، تشكو قلة المؤجرين الذين يقبلون الطلبة القادمين من وراء البحر أولئك الذين أقلّ ما كان يقال بشأنهم أنّهم "غير مرغوب فيهم؛ أما بالنسبة للعروض فثمة قائمتان: إحداهما خاصة بالفرنسيين المقيمين في فرنسا تتراوح الأسعار فيها بين 3.000 و 6.000 فرنك. والأخرى للأجانب ولطلبة ما وراء البحر وتتراوح أسعارها من 6.000 إلى 15.000 فرنك" وبعد نوفمبر 1954 كان "الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين" قد دعا الفرنسيين للقيام بمراجعة ضمائرهم قائلا: "يُستخلص من الوثائق التي في حوزة الشبيبة الطلابية المسيحية؛ ومن الزيارات والرسائل التي تلقيناها أنّ كثيرا من مؤجري الشقق للطلاب يُبعدون، عن عمد، الطلبة القادمين من وراء البحر "إنّ أولئك الطلبة في حالة ثورة كامنة ولقد تيقّنوا بأنّ إدماجهم لا يعني سوى مطالبتهم بأداء "الواجبات" دون الحصول على "الحقوق" إلاّ نارا. سوف لن يمضي وقت طويل

95. "الجزائري في فرنسا" فيفري 1954.

96. عرض الآنسة P في المدرسة الوطنية للحصة العمومية، 7.11.1956.

قبل أن يجني جيلُنا ثمار أنانية آبائنا: تلك الأنانية التي استمرت تطبع حياتهم اليومية بالرغم من شتى الوعود الدستورية".[97]

استوعب الطلبة المسلمون الجزائريون الثقافة الفرنسية ولكن آمالهم في أن يتقبلهم الفرنسيون، بدون تردد، قد خابت؛ فاستخلصوا من ذلك أن لا وجود في الواقع "لفرنسا الحقيقية" التي كانوا يبحثون عنها؛ فهي مجرد مَثَل من بين المُثل العليا: وكانت الصعوبات التي واجهوها يوميا تذكّرهم بأنّهم لاجئون هاجروا بعيدا عن وطنهم الحقيقي. لقد أسّسوا تجمّعات لضمان التكاتف المادي والمعنوي بينهم كمنتسبين إلى وطن واحد ومع أولئك الذين يقاسمونهم نفس المتاعب أي بني عمومتهم من شمال إفريقيا وكذا جميع طلبة ما وراء البحر. بعد أن قارنوا تجاربهم مع تجارب أناس آخرين، قدموا من دول متميزة عن فرنسا، اكتشفوا أنّ صفة المواطنة التي يُفترض أنّهم يحملونها، كرعايا أتوا من العمالات الجزائرية التي تُعتبر امتدادا للوطن الأم، إن هي إلاّ مجرد تجريد قانوني تافه بل أدهي من ذلك أنّ تلك المواطنة الافتراضية كانت العقبةَ الحقيقية التي تحول دون تحسين مصيرهم.[98] لم يبق لهم سوى أن يدرجوا مطالبهم "المهنية" الخاصة في إطار عمل أشمل وهو الكفاح من أجل تحرير إفريقيا الشمالية كلّها ثم الجزائر. ذلك ما دفعهم إلى الانتظام في إطار مغاربي ثم جزائري بمعزل عن الحركة الطلابية الفرنسية.

## 2 - المنظمات الطلابية

كانت الحركة الطلابية الفرنسية تشتمل على ثلاثة أنماط من الجمعيات تتميز عن بعضها بشكل واضح في البداية؛ فالجمعيات العامة التي تأسّست

97 "لاموند" 20-11-1954. راجع أيضا " الجهد الجزائري"12-11-1952 والآنسة أ في العرض المذكور سابقا.

98 لقد أكدت الآنسة P عن صدق ذلك الرأي في عرضها المذكور.

في كل مدينة جامعية، ابتداء من سنة 1887، قد انضوت في تنظيم فدرالي موحد، منذ 1907، يُدعى "الاتحاد الوطني لجمعيات طلبة فرنسا" وقد تحوّل فيما بعد إلى ما يعرف باسم "الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا". كانت تلك الجمعيات، كلها، تهدف إلى جمع شمل الطلبة الفرنسيين دون تمييز في العقيدة أو الرأي وذلك حفاظا على تضامنهم ودفاعا عن مصالحهم المشتركة. وعلى عكس ذلك لم تكن الجمعيات الدينية أو السياسية تضم سوى قسم من الطلبة على أساس قناعاتهم الخاصة. لكن تلك الجمعيات كانت مؤسسة في نفس الإطار الوطني الفرنسي كما أن المبادئ اللائيكية واللاسياسية للجمعيات العامة كانت تسمح بتعدد الانتماءات؛ ولقد شغل المتدينون والسياسيون حيزا متزايدا في إدارة الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا ولم تتعرّض وحدتهم للانشقاق إلى غاية سنة 1955.

كان للطلبة المسلمين الجزائريين، مبدئيا، مكانتهم في تنظيمات الجمعيات العامة والاتحاد الوطني وقد أثّرت فيهم بشكل قوي؛ ولكنهم تجمعوا مع رفقائهم من المحميات المجاورة في إطار جمعية (الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في مدينة الجزائر منذ سنة 1919؛ وجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا بباريس سنة 1927). أضافت تلك الجمعيات إلى وظائفها الدينية شتى الوظائف التي تضمنتها الجمعيات العامة مع بقائهم في الإطار اللاسياسي. ثم اقتحموا، ابتداء من سنة 1930، حلبة المغامرة السياسية التي أدّت بهم إلى القطيعة مع الحركة الطلابية الفرنسية وهذا بهدف محاولة تشكيل اتحادات وطنية مستقلة (مغاربية، في البداية ثم جزائرية وتونسية ومغربية) تشمل في تنظيم واحد الأشكال الثلاثة التي ظلت متمايزة لدى الطلبة الفرنسيين.

كانت جمعيات الطلبة الفرنسيين والمسلمين الشمال-إفريقيين تشتمل إذن على جوانب متماثلة وجوانب متباينة أيضا. إنّ كل تلك التنظيمات، في

الأساس، عبارة عن جمعيات تعاون؛ فهي ترمي كلُّها إلى تحقيق أولوية الأهداف المتمثلة في تطوير أواصر التضامن والصداقة بين الطلبة بهدف تسهيل ظروف دراستهم وتقديم الإعانة المادية والمعنوية لكل من هو في حاجة إليها. هذا الهدف تمت صياغته بوضوح في القوانين الأساسية لجمعيات العامة للطلبة الجزائريين كما هو الحال في قوانين جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا.[99] وفي نفس المنظور أي تحسينُ ظروف المعيشة وتوفير العمل والترفيه لأعضائها تندرج مخطّطات ومنجزات جميع تلك الجمعيات مثل التجهيزات المادية والمساعدات المالية والنشاطات الثقافية.

كان الإنجاز المادي للجمعية العامة للطلبة الجزائريين أكثر تميزًا فقد أنشأ مقرَّه، سنة 1923، في شارع Isly وأنجز دارا للطلبة من سنة 1924 إلى 1932 في شارع Baudin ثم الحي الجامعي الذي تم تخطيطُه منذ 1928 وتحقق إنجازُه ما بين 1948 و1950 بفضل إعانة السلطة العمومية.[100] وبالمقارنة تبدو إنجازات الجمعية العامة للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا متواضعة جدا ومتأخرة عن ميعادها. لقد سعى رئيسها، فرحات عباس، منذ سنة 1928 إلى الحصول على محل وظلّ المشروع أكثر من أي وقت مضى ضمن جدول أعمال الجمعية سنة 1953- 1954.[101] تمّ تدشين مقر الطالب

---

99- قانون الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، قد ذكر في صحيفة الجزائر- الجامعة (4) جانفي 1955، طلبة إفريقيا الشمالية، في "الإقدام" (6) 12-4-1919، طلبة الشمال إفريقيين بفرنسا في الوحدة المغاربية، أبعاد وآفاق، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي 1972، ص.111

100- راجع: "العناوين" للجمعية العامة للطلبة الجزائريين، 24-1923؛ "طلبة الجزائر"، (6) 10-6-1923، في [illegible] 15-2-1935. "الجزائر الطلابي" 1948-1949-1950؛ "الجزائر الطلابي" 1950 و 1951.

101- راجع: "منبر «الأهالي» الجزائري"، (7)، 28-4-1928، "التلميذ" (3) جانفي 1932، و"رباط الطلبة المسلمين" (3) الثلاثي الثالث 1954، "الشاب المسلم" (28) 12-3-1954؛ "الجمهورية الجزائرية" (21) [illegible]-3-1954؛ "حرية" (560) 11-3-1954.

الأساس، عبارة عن جمعيات تعاون؛ فهي ترمي كلُّها إلى تحقيق أولوية الأهداف المتمثلة في تطوير أواصر التضامن والصداقة بين الطلبة بهدف تسهيل ظروف دراستهم وتقديم الإعانة المادية والمعنوية لكل من هو في حاجة إليها. هذا الهدف تمت صياغته بوضوح في القوانين الأساسية لجمعيات العامة للطلبة الجزائريين كما هو الحال في قوانين جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا.[99] وفي نفس المنظور أي تحسينُ ظروف المعيشة وتوفير العمل والترفيه لأعضائها تندرج مخطّطات ومنجزات جميع تلك الجمعيات مثل التجهيزات المادية والمساعدات المالية والنشاطات الثقافية.

كان الإنجاز المادي للجمعية العامة للطلبة الجزائريين أكثر تميزًا فقد أنشأ مقرَّه، سنة 1923، في شارع Isly وأنجز دارا للطلبة من سنة 1924 إلى 1934 في شارع Baudin ثم الحي الجامعي الذي تم تخطيطُه منذ 1928 وتحقق إنجازُه ما بين 1948 و1950 بفضل إعانة السلطة العمومية.[100] وبالمقارنة تبدو إنجازات الجمعية العامة للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا متواضعة جدا ومتأخرة عن ميعادها. لقد سعى رئيسها، فرحات عباس، منذ سنة 1928 إلى الحصول على محل وظلَّ المشروع أكثر من أي وقت مضى ضمن جدول أعمال الجمعية سنة 1953- 1954.[101] تمَّ تدشين مقر الطالب

---

99. قانون الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، قد ذكر في صحيفة الجزائر- الجامعة (4) جانفي 1955، طلبة أفريقيا الشمالية، في "الإقدام" (6) 12-4-1919. طلبة الشمال إفريقيين بفرنسا في الوحدة المغاربية. أبعاد وآفاق، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي 1972، ص.111

100. راجع: "العناوين" للجمعية العامة للطلبة الجزائريين، 24-1923؛ "طلبة الجزائر"، (6) 1923-6-10، (185) 15-2-1935. "الجزائر الطلابي" 1948-1949-1950؛ "الجزائر الطلابي" 1950 و 1951.

101. راجع: "منبر «الأهالي» الجزائري"، (7)، 1928-4-28، "التلميذ" (3) جانفي 1932، و" رباط الطلبة المسلمين" (3) الثلاثي الثالث 1954، "الشاب المسلم" (28) 12-3-1954؛ "الجمهورية الجزائرية" (21) 12-3-1954؛ "حرية" (560) 11-3-1954.

المسلم ومطعمه الكائنان في ساحة La Lyre، سنة 1948، ثم نادي الطالبات، سنة 1954، ولكن الجمعية العامة للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا كانت أقلَّ غنًى من الجمعية العامة للطلبة الجزائريين. زيادة على ذلك فإن انتمائها وتعاونها مع هذه الأخيرة قد مكَّن أعضاءها من الاستفادة لمدة طويلة بالنشاطات البناءة للجمعية العامة للطلبة الجزائريين ولم يجبروا على الاعتماد على أنفسهم إلا في تاريخ متأخر.

كان حالُ جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بباريس، عكس ذلك تماما، فلقد كانت معزولة في وسط أجنبي ولم تكن تنتظر أي شكل من أشكال الإعانة من الجمعية العامة لباريس ولذلك بادر مؤسسوها إلى ضبط رزنامة الإنجازات الضرورية لتسهيل إقامة الطلبة الشمال إفريقيين في فرنسا ومن بين ذلك: "إنشاء ناد ومكتبة ومطعم تعاوني" وكذلك "تأسيس دار للطلبة".[102] كان لهم الحظ في إنجاز قسم كبير من برنامجهم. بعد أن نصبت، بداية من 1933، في 16 نهج Rolin انتقلت الجمعية، سنة 1943، إلى المحلات التي لا تزال تشغلها حاليا في 115 شارع Saint-Michel مع مركزها الثقافي ومطعمها التعاوني (المدعم من طرف السلطات العمومية). لكن دار الطلبة لم تتجاوز أبدا مرحلة رسم المخططات لإنجاز جناح شمال - إفريقي في الحي الجامعي بشارع Jourdan.

زيادة على تلك التجهيزات الجماعية كانت جميع تلك الجمعيات تُسيِّر صندوقا للإغاثة مخصصا لتقديم الإعانات الفردية في شكل قروض شرفية أو منح للطلبة المحتاجين. وكانت غايتها، أيضا، هي تمكين أعضائها من فرص التسلية والتثقيف في جو من الصداقة والمرح؛ فكانت النشاطات الترفيهية والثقافية مناسبات لتقديم الطالب للجمهور لكي يكسب ودّه.

102. "الطالب المغاربي" (1) أفريل 1953، "الوحدة المغاربية" المصدر المذكور ص 111.

نظمت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، منذ السنوات الأولى لتأسيسها، سهرات راقصة وأمسيات خيرية وحفلات موسيقية وندوات ونزهات...[103]؛ كما سعت إلى إصدار جريدة. وتمكنت، بعد محاولات عديدة، من نشر سلسلة رائعة اسمها Alger-étudiant 1922 إلى 1939 وهي نشرة خاصة بالأعضاء وأدبية أيضا. لم تتمكن المنشورات التي أعقبتها بعد الحرب من بلوغ مستواها لا من حيث الانتظام ولا من حيث النوعية. لكن في إطار الجمعية العامة صدرت مبادرات من طرف بعض الأساتذة وبعض الطلبة حاولت إنعاش حياة ثقافية حقيقية في جامعة الجزائر مثل: المركز الثقافي ما بين الكليات والمجموعة الصوتية والشركة المسرحية ونادي السينما والندوات ونوادي المحادثات واللقاءات الأدبية "سيدي المدني" وتنظيم العطل على شاطئ البحر وفي الجبال.[104]

أولت ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، من جهتها، اهتماما كبيرا بالنشاطات الثقافية وكانت قوانينها الأساسية تضع في مقدمة أعمالها تنظيم "ندوات في المقر الاجتماعي لمناقشة المسائل المتعلقة بالطب والقانون والآداب؛ وكان ينشطها أعضاء الودادية وبعض الشخصيات من ذوي الكفاءات" المعروفة؛[105] ثم وسّعت هذا البرنامج ليشمل القضايا الاجتماعية ثم السياسية. صادفت الودادية، منذ سنواتها الأولى، استحسانَ الجمهور للحفلات التي كان يقدّم فيها الطلبةُ و بعضُ الفنانين أشعارا وأغاني موسيقى ومسرحيات باللغة العربية.[106] واصلت الجمعية نشاطها على ذلك المنوال فنشرت، سنة 1931، مجلةً مصوّرة عنوانها: "التلميذ" خصّصتها

103. أنظر "عناوين" للجمعية العامة للطلبة الجزائريين. 1923-24

104. أنظر "جامعة الجزائر" 1945؛ "طالب الجزائر" 1946، "الجزائر الطلابي" 1947-50، "طلبة الجزائر" 1951-51. "جامعة الجزائر" 1954-60

105. مقال 3 إنظر الإقدام رقم 6، 1919-4-12

106. محي الدين باش ترزي ("مذكرات" الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968.) قد أكد على أهمية دور ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين في تأسيس المسرح العربي الجزائري.

للتعريف بالجمعية "ولإعلام الجمهور المسلم الذي يساندها" باعتبارها "منبرا لطرح القضايا الأساسية المتعلقة بمصير البلاد في مجالات عديدة كالطب والصحة والقانون وعلم الاجتماع".[107] تبنّت كلٌّ من ودادية الطلبة الشمال- إفريقيين بفرنسا؛ وكذا ودادية الطلبة الجزائريين في باريس مثل بقية جمعيات الطلبة المسلمين، بفرنسا، نفس أنواع النشاط الثقافي.[108] ومن الواضح أنها كانت تستلهم نشاطاتها من بعض ما كانت تقدمه ودادية الطلبة الجزائريين وكذا باقي الجمعيات العامة الطلابية الفرنسية.

حين إمعان النظر في نشاطاتها يتبيَّن أنها أكثر جدية لأنَّ الطلبة المسلمين كانوا، على ما يبدو، يعزفون عن القيام بأشكال التهريج الطلابي الذي يكون، عادة، جزءا من الفولكلور الفرنسي. فهل مردٌّ ذلك السلوك إلى تعقُّل وحذر الطلبة الأهالي بالمقارنة مع تصرفات زملائهم؟ قد يكون هذا صحيحا ولكن يمكن أيضا تفسير ذلك التحفظ النسبي للجمعيات المسلمة ببعض الاعتبارات الدينية فهي حريصة على أن توفر لأعضائها إطارا حياتيا كاملا يستلهم نمطَه من المجتمع المسلم الذي لا يفصل الجوانب الروحانية عن الزمنية؛ ولذلك لم تقتصر اختصاصاتها على تلبية الحاجيات العامة المادية والثقافية لأعضائها بل امتدت أيضا إلى الجوانب الدينية في حياتهم. في هذا الصدد كانت الاحتفالات الجماعية بالأعياد الإسلامية أهم تلك التظاهرات العمومية.[109]

---

107. "التلميذ" رقم 2 ديمسبر 1931. ص 14.

108. "التلميذ" والنشريات الأخرى الخاصة بالطلبة المسلمين، لم تعمر طويلا؛ نذكر، النشرة السنوية لودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا؛ بعض الحرب، منبر الشباب بتولوز؛ في الجزائر الطالب المغربي، (1952) ثم رباط الطلبة المسلمين، 1953-1954؛ في باريس الطالب، (1953) ثم الطلبة المغاربيين (1955) في مونبولييه الطالب المسلم (1955)

109. أمثلة في "المساواة" (25) 2-3-1945 و (26) 9-3-1945. الجمهورية الجزائرية، (33) 11-6-1954 المغرب الطلابي، (1) افريل 1955 و (2) ماي جوان 1955.

غير أن التباين مع الجمعيات العامة الفرنسية كان أقلَّ شأنًا مما قد يتصوَّره البعضُ؛ فالإسلام ليس فقط عقيدةً فردية بل هو أيضا، بالنسبة لبعض "ممن وُلدوا مسلمين"، شعورٌ بالانتماء إلى شعب مؤمن. كانت جمعيات الطلبة الشمال- إفريقيين تتخذ الإسلام مرجعية لها لتأكيد انتماءها إلى مجتمعٍ مختلف عن المجتمعات التي يعيش فيها أمثالهم من الطلبة الفرنسيين. فحجم المشاريع التي بين أيديهم لا تسمح لهم بالعيش عالة على ما يدرُّه التضامن الطلابي دون الالتفات إلى العائلات وإلى القدماء وإلى الأعيان وإلى وسطهم الاجتماعي برمَّته. كانت أولى الأهداف التي ترمي إليها حملاتهم هي إقامة أواصر المودَّة الفعَّالة التي تربطهم بجمهورهم عن طريق المداخيل وجمع الأموال والتبرعات والاشتراكات...

كانت الجمعياتُ الطلابية تبذل وُسعها لتفنيد التصورات الباطلة التي بقرت في صدور بعض الناس فجعلتهم ينظرون إلى الطالب نظرة "الابن المدلل" الذي لا يشغل بالَهُ همٌّ ول يؤرقه احتياج. عملت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، في هذا الصدد، دون كلل.[110] صرَّحت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين بفرنسا، سنة 1933، قائلة: "ينبغي أن يُدرك السكانُ المسلمون أنَّ الطالب الأهلي الجزائري هو النموذج الحي للطالب المعوز؛ وحتى في حالة انتسابه إلى البرجوازية الزراعية فهو محرومٌ من الوسائل المالية ومجبرٌ، في بعض الأحيان، على خوض صراع مرير وشاق"..."فلا يعجبن أحدٌ إن وجد صحيفتنا تطلب من كل محبيها دعما معنويا ضروريا وكذا دعما ماليا لا يقل ضرورة".[111] يبدو أنَّ تكرار مثل تلك النداءات أقنع الناس؛ فلقد لاحظت صحيفة الجمهورية الجزائرية، سنة 1951،[112] ذلك بقولها: "الجميع مقتنعون

110 انظر الجزائر الطلابي (1) 4-11-1922: (114) نوفمبر 1930. (175) مارس 1934.

111 الإقدام (42)، 10-8-1933 انظر نداءات أخرى في "العدل" (37) 30-1-1936.

112 الجمهورية الجزائرية (258) 9-3-1951.

الآن بأنَّ الطالب المسلم الغني والابن المدلل مجرَّدُ أسطورة لا أساس لها من الصحة".

أولت جمعيات الطلبة المسلمين أهمية خاصة لتمتين علاقات التضامن مع الأوساط الاجتماعية التي تنتمي إليها؛ فمثلا برمجت ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية، منذ تأسيسها، تسجيل قوائم اسمية للأعضاء "المؤسِّسين" والأعضاء "المتبرعين"؛ وتكفلت لجنةٌ مالية، متكونة من أربعة شخصيات، بتوزيع المبالغ المصادق عليها كل سنة من طرف الجمعية العامة لصالح الطلبة المحرومين. وعملت ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا، في تونس، على تكوين جمعية "أصدقاء الطالب"[113] المعترف بها، سنة 1931، من طرف سلطات المحمية والتي يبدو أنها وجدت في الجزائر مرتعًا خصبا حيث تأسست جمعية مماثلة في قسنطينة ثم في تلمسان والجزائر. انضوت هذه الجمعيات الثلاث في فدرالية موحَّدة أصبحت لها لجنةٌ مركزية في الجزائر، في جانفي 1947، لتغطي أنشطتُها جميع مناطق الوطن وحتى فرنسا.[114]

إن تنظيم لجان المساندة تلك لم يكن يعبر فقط عن تضامن القدماء مع رفاقهم الشباب بل اكتسى التضامنُ معناه الحقيقي في التقاليد الإسلامية التي تمثل فيها الصدقات إحدى أركان الإيمان الخمس وكان الطالب الجزائري مثال للطالب المحتاج. إنَّ الإنفاقَ على المدارس والمعلمين و"الطلبة" عملٌ خيريٌ من الدرجة الأولى لأن العلم يرفع الإنسان ولأنه يُطلب "ولو بالصين". وبالرغم من أن الطلبة المسلمين، في الجامعة الفرنسية، يزاولون دراستهم في مؤسسة أجنبية فإن جماعة المؤمنين لا يمكن أن

113. "إفريقيا الفرنسية"، أوت وأكتوبر 1931. أنظر رسالة بيير بورد للمقيم العام بتونس، 30-4-1928

114. "العدل" (12) 1-12-1944(62) 30-1-1947، (66) 27-2-1947، (90) 15-8-1947 انظر ايضا ملف " جمعيات الطلبة المسلمين.

تجاهل مصيرهم، لأنَّ المعونة التي يتلقونها من ذويهم تفرض عليهم واجبا مقدسا هو العمل من أجل ترقية شعبهم بواسطة سلاح العلم الذي يمدُّهم به التعليمُ الفرنسي.

عملت ودادية الطلبة المسلمين الشمال- إفريقيين، منذ بداية عهدها، على نشر تلك الفكرة التي صاغها فرحات عباس في عبارات بليغة حين قال: "هؤلاء الشباب الذين لا توليهم الجامعة، الآن، سوى بعض التعاطف المتعالي ليسوا فلذة كبد أسرهم وعائلاتهم فحسب وإنما هم أبناءُ للشعب الجزائري: سوف يضحون من أجله ويخدمونه بكل ما أوتوا من مواهب".[115] هذا النداء يتبنَّى بدون كلل، جميع الذين توالوا على رئاسة جمعيات الطلبة كما تبنَّته بيانات اللجنة المركزية "لأحباب الطالب"..."سوف يُدركُ مواطنونا الشباب جيدا ما عليهم من واجبات تجاه شعبهم، باعتبارهم مدينين له بجزء من الأموال التي مكّنتهم من إتمام دارستهم، وسوف يبذلون، في المستقبل، جهودا أكبر من أجل تحريره؛ وإننا نتمنى أن يعي جميعُ الجزائريين ذلك".[116]

ربما صحَّ النظر، بنوع من الارتياب والشكّ، إلى تلك الوعود السخية التي كانت تحث الناس على مزيد من البذل والعطاء؟ إنَّ جمعيات الطلبة هي أولُ من ندّد بالسلوك الأناني لأغلبية الطلبة بعد تخرُّجهم من الجامعة فوصفتهم بكونهم "برجوازيين" غير مبالين بالمصير التعس لشعبهم. ندّدت نشرة ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، في سنة 1954، "بسوء نية المستفيدين" من قروض الشرف فقالت: "من النادر أن يسدّد بعضُهم قروضهم"... إنه لمن قبيل الحيطة إذن الحذر من الادعاء بجدوى "التضامن الإسلامي" مقارنة بأنانية

---

ذكره عمار نارون، "فرحات عباس"، أو "دروب السيادة" دونويل 1961. ص 40.

"الجزائر الجمهورية" 25-12-1949 أنظر: العرض الذي تقدم به "صابر" في الحفل الفني الذي نظمته ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، بتاريخ 5 مارس 1954 حول "وضعية الطالب المسلم، الصعوبات التي يعاني منها في حياته الجامعية، واجباته تجاه شعبه، وايضا الحقوق التي يتمتع بها لدى حكومته" ("الشاب المسلم" (28) 12-3-1954، و "رباط الطلبة المسلمين" (3) 1954).

"الفردانية البرجوازية" للشعب الفرنسي لأن الطموح المنبثق من النفس الأنانية يمكن أن يكشف في شخص واحد عن موقفين، متناقضين ظاهريا، وهما انتماء الطالب إلى الفئة الأولى وانتماؤه بعد التخرج إلى الفئة الثانية.

مهما يكن فإنَّ التضامن الجماعي لا يكفي وحده لوضع حد للصعوبات التي يعانيها الطالب المسلم لأنَّ حلَّها الحقيقي مرتبطٌ، في نهاية الأمر، بموقف السلطات الفرنسية؛ فبقدر ما كان الشعب ضعيف الإمكانيات ومرتبطا بتلك السلطات بقدر ما عجز الطالب عن تجاهلها. كانت الجمعيات الطلابية على اتصال بالسلطات العمومية بغية الحصول على معونتها لإنجاز نشاطاتها وكانت تراهن على تدخلها المباشر لصالح الطلبة بغرض تحسين ظروفهم المعيشية أو تعديل نظام دارستهم؛ فالدفاع عن مصالحهم كان يسلك مختلف دروب العمل: تبليغُ شكاواهم إلى السلطات والتماسُ "رعايتها السامية" واللجوءُ، في حالة الفشل، إلى وسائل الضغط. إذا كانت طرق الإقناع هي الأكثر فائدة وفعالية فإن الطلبة الفرنسيين لم يكونوا يترددون في التعبير عن سخطهم باللجوء إلى الإضرابات وإلى الخروج في المظاهرات عبر الشوارع.

توصَّل الاتحاد الوطني، قبل سنة 1945، سواء بأسلوب الإقناع أو الضغط، إلى الاستفادة من إنجازات هامة من لدن السلطات العمومية: تشييد الأحياء الجامعية كالحي الدولي بباريس وفتح مصحَّة Saint-Hilaire في Touvet وديوان الرياضة المدرسية والجامعية والمركز الوطني للخدمات الجامعية والمدرسية والمكتب الجامعي للإحصائيات الخ... وإثر مؤتمر Grenoble، المنعقد سنة 1946، والذي صادق على ميثاق "النقابية الطلابية"[117] تحصَّل الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا على إنشاء صندوق الضمان الاجتماعي للطلبة

117. حول تاريخ الإتحاد الوطني لطلبة فرنسا، أنظر فرانسوا بوريلا ومشال دو لا فورنيار، "النقابية الطلابية"، Le seuil، 1954؛ بيار غودي، "الطلبة" 1962 Julliard؛ الدراسة المجهولة "مصادر النقابية الطلابية منذ 1945"...

والتعاضدية الوطنية لطلبة فرنسا، في سنة 1948، ولكن النقابة لم تتمكن من فرض مطلبها المتمثل في الحصول على أجرة مسبقة للجميع رغم تنظيم العديد من "الأيام النضالية".

التزمت جمعيات الطلبة المسلمين، لمدة طويلة، موقفا أكثر تحفظا من نظيراتها من الجمعيات الفرنسية. كانت ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، عند نشأتها، مجرّد ودادية للتضامن الديني لا أكثر ثم تحوّلت، بفضل انضمامها إلى الحركة الطلابية الفرنسية من 1925 إلى 1935، إلى منظمة مطالبة وصارت تستفيد من النشاط العام للجمعية العامة وللاتحاد الوطني لطلبة فرنسا مع احتفاظها بتقديم تظلُّمات الطلبة المسلمين. أما جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا في باريس فقد استلهمت، في سنواتها الأولى، نشاطها من النشاط التعاضدي الذي كان يقوم به الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا؛ ولقد حذت الجمعيتان المغاربيتان ذلك النحو بدعوتهما، سنويا وابتداء من 1931، إلى عقد مؤتمر للطلبة المسلمين الشمال- إفريقيين وتقديم المطالب إلى السلطات الفرنسية. تلك نقطة انطلاق الحركة الطلابية المغاربية التي حاولت، إلى غاية سنة 1952، تنظيمَ نفسها وفق نمط الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا؛ كما استلهم الاتحاد الوطني الجزائري، الذي تأسَّس بين 1953 و 1955، نشاطه من التنظيم "النقابي الطلابي" الفرنسي.[118]

بيدَ أنَّ هذا الجُهد المنافس لم يلق استحسان الحركة الطلابية الفرنسية. كانت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، سنة 1931، تلوم الطلبة المسلمين على نزوعهم إلى "تشكيل عصابات طلابية على انفراد" وفي صورة تنظيمات منغلقة ومغامِرة في الميدان السياسي تحت غطاء النشاط الاجتماعي والثقافي. هذا بالرغم من أنَّ الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا قد وسَّع حقل

118. انظر: الميثاق المطالبي لاتحاد الطلبة الجزائريين بباريس، وكذا برنامج عمل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين.

نشاطه، منذ سنة 1946، من النشاط التعاضدي المُنافح عن مصالح الطلبة إلى "العمل النقابي الطلابي" المندرج في مجموع الحركة النقابية. لكن الطلبة المسلمين ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين طالبوا باستقلال بلادهم وهو مطلبٌ يُنافي الطابع اللاسياسي المُعلن في القانون التأسيسي للاتحاد العام لطلبة فرنسا.

الواقع أنَّ الحركة الطلابية الفرنسية لم تكن هي الأخرى ذات طابع لا سياسي لأنَّها أدرجت نشاطها في إطار الأمة الفرنسية؛ بل أكثر من ذلك لأنَّ ممثليها، في شمال إفريقيا، كانوا دوما يربطون نشاطهم بمشروع سياسي محدَّد بدقَّة ألا وهو السعي إلى إدماج الأهالي انطلاقا من النخبة. كان رئيس الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، قبل سنة 1909، يعتبر قضيةَ تحويل المدارس العليا، في مدينة الجزائر، إلى مؤسسة جامعية، كأحسن وسيلة لتقوية الإشعاع الفكري الفرنسي في المستعمرات.[119] لقد تمَّ احتلال الجزائر بحدِّ "السيف وبالمحراث"، حسب العبارة المفضلة عند Bugeaud، وسوف يتمُّ احتلالها فكريا كذلك.[120] إنَّ تحقيق تلك الغاية الكبيرة يبرر مبادرة التقارب مع الطلبة المسلمين التي نجحت الجمعيةُ العامة في القيام بها. كانت إدارتها عازمة على "ضم جهودها إلى جهود الحكومة في تطبيق سياسة الوحدة والإدماج التي سلكتها"[121] وكذا "إسداء الخدمات ليس فقط للطلبة وإنما للجزائر وللمستعمرات الفرنسية أيضا"؛ وبالفعل كانوا يعتقدون أنَّهم "بقطع النظر عن دورهم العادي، المتمثل في مد يد العون إلى الطلبة، مدعوون للتدخل بما يعود بالفائدة على الإنجاز الكبير المتمثل في

119. "الجزائر الطلابي" (17) 30-4-1905

120. "Ense, aratro, et spiritu" عبارة صرح بها المحامي ري عند تدشين مقر الجمعية العامة للطلبة الجزائريين " الجزائر الطلابي" (17) 24-11-.1923

121. خطاب رئيس الجمعية العامة أثناء تدشين مقرها (نفس المرجع).

# الفصل الثالث

## الدراسة السياسية

كان المثقفون المسلمون الجزائريون، المكونون باللغة الفرنسية، متضامنين مع بيئتهم الاجتماعية الأصلية وكانوا مهتمين، أيّما اهتمام، بمصيرها ومستقبلها؛ ولقد سخّروا زادهم المعرفي لخدمة مواطنيهم وطالبوا فرنسا بتحسين ظروفهم السياسية لأنّها مفتاح بقية القضايا الأخرى. لقد تبوّأ الطلبةُ المسلمون، منذ سنة 1908، طليعة حركة المطالب الأهلية ونشّطوها بكل حيوية إلى غاية سنة 1954، وما يليها، بالرغم من أنّهم لم يعودوا يسيطرون على قيادتها بعد سنة 1936.

كان النشاط السياسي، في بداية الأمر، من مهام الذين أنهوا دراستهم الجامعية؛ أما الطلبة فكانوا مُنصرفين إلى الدراسة وكانوا، مع ذلك، يتابعون بحماس كلّ الأنشطة السياسية لقدماء الطلبة. كانت جمعياتهم الوُدّية، التي تأسست منذ سنة 1919، متمسّكة بمبدأ عدم الخوض في السياسة وهو مبدأ كانت الجمعيات العامة للطلبة الفرنسيين توليه أهمية بالغة. في سنة 1931 تجاوزت ودادية الطلبة المسلمين الشمال-إفريقيين هذا الإطار التعاضدي الضيق ولكنها لم تخض غمار النضال السياسي، بصورة علنية، إلاّ في سنة 1943 حين انضمامها إلى "بيان الشعب الجزائري" الذي حرره كبير قدماء

الجمعية (فرحات عباس) بمساهمة رئيس الودادية في ذلك التاريخ وهو محمد الحاج جمّان.

انتعشت حركة "البيان" وزادت حيويتُها السياسية بفضل انضمام الطلاب إلى صفوفها؛ فتحولت إلى مدرسة حقيقية لتكوين إطارات الأحزاب الوطنية. غير أنّ الصراعات الحزبية أضعفتها وهلهلت انسجامها وتمثيليتها.

وتزامن تنامي الوعي السياسي مع حدوث ثورة حقيقية في الشعور الوطني للطلبة المسلمين: ففي ظرف سنوات قليلة، من 1936 إلى 1943، أقبلوا على استبدال وطنٍ بوطن وعلَمٍ بعلم؛ فبينما كانوا، إلى غاية سنة 1936، مُجمعين على عدم مناقشة شرعية السيادة الفرنسية في الجزائر فإنّ أغلبيتهم (على الأقل في أهمّ جمعياتهم) صارت تعلن انتسابها إلى الأمة الجزائرية بصريح العبارة؛ ولم يقم الطلبة، في هذا الشأن، سوى بمواكبة صحوة الوعي الوطني عند شعبهم.

## أ) المسألة السياسية الجزائرية.

### 1- أسطورة "فرنسا الأولى وفرنسا الأخرى"

لا ينبغي أن يحجب تقلُّبُ الرأي، الحاصل فجأة، ذلك الهدف الأصلي المُتمثّل في إعادة الاعتبار للشعب الجزائري المسلم: فالتغيير مسّ أسلوب العمل لبلوغ الهدف لا غير؛ بيدَ أنّ المُفارقة في هذا التطور أنّه جاء مُصدِّقًا لنبوءتين متناقضتين صدرتا عن مُنجِّمَين فرنسيَين أوليا اهتمامهما للنُّخبة التي أخذت تترعرع بين صفوف المسلمين المثقفين ثقافة فرنسية.

فمن جهة؛ كان فريقٌ من المتفائلين يثقون في العبقرية الفرنسية القادرة على تحقيق الإدماج بفضل ثقافتها التي تسبي الألباب؛ فكان هؤلاء يعتبرون أنّ من الأجدى تشجيعُ ظهور نُخبة عصرية في صفوف الأهالي لتكون واسطة

بين الشعبين. وبما أنَّ تلك النُّخبة كانت مُعجَبةً بالحضارة الفرنسية فإنها ستكون الدليل الهادي للجماهير الصامدة أمام إغراءات الفرنسة. تبنَّى هذا الرأيَ كثيرٌ من المفكرين في الوطن الأم وخصوصا أولئك الذين لم يكونوا يرون أيَّ تناقض بين مصالح فرنسا ومصالح الأهالي. ولقد تابع Jules Ferry، منذ سنة 1891، بارتياح ظاهرٍ بروزَ الطلائع الأولى من "حزب شُبَّاني" ممن تلقوا تعليما فرنسيا؛ ولقد أصبح أولئك الشباب، خلال العشرين سنة الموالية، يطلقون على أنفسهم اسم "الشبان الجزائريين" معارضة لاسم "العمائم القديمة" الذي كان يُطلق على الشيوخ المحافظين من ذوي التكوين العربي التقليدي. حاول Jules Cambon (الحاكم العام من سنة 1891 إلى سنة 1897) "اصطفاءَ نخبة جديدة من بين الأهالي وتشكيلَ شبه قيادة أركان، من مثقفين مسلمين، ليتخذها وسيطًا طبيعيا وضروريا بين الحكومة والسكان" وقد عقَّبت على ذلك صحيفة Le temps، سنة 1904، بقولها: "إنَّ وجود طبقة من الأهالي ميسورة الحال ماديا وذكية ومتعلمة لهي ضرورة مُلحَّة بالنسبة لنا إذا أردنا أن يسود بين الطائفتين تقاربٌ وتواجد جماعي يقبله الطرفان بسهولة". وفي سنة 1908 أقرَّ الحاكم Jonnart بما يلي: "إنَّ من مصلحتنا الملحة تشكيلُ نُخبة مثقفة تكون قادرةً على نشر مبادئنا وقيَمنا في العدالة والرقيِّ وتكون برجوازية محافظة ومتمسكة بارتباطها معنا ومنضوية تحت لوائنا لترعى ثمار التقدم الذي تحقق لفائدتها"[1]؛ وكان الحاكم السابق، Viollette، حتى سنة 1932 يعتبر فئة الطلبة المسلمين أفضلَ عامل من عوامل إرساء النفوذ الفرنسي في مجتمعاتهم الأصلية.

كان فريقُ المتشائمين، على نقيض الفريق السابق، يؤكد بإصرار رأيه القائل بأنَّ عدوانية الأهالي تُقاس بمدى مبلغهم من العلم وأنَّ السماح لهم

---

[1] AGERON، أطروحة، ص. 451، 520، 1032، 940.

بالوصول إلى مستوى التعليم العالي سوف يُسفِرُ عن تكوين قياديين، أشدَّ خطراً، لزعامة الانتفاضة المقبلة. إثر أولى مبادرات "الشباب الجزائري" ندَّد بعضُ فرنسيي الجزائر، من كبار السياسيين والموظفين والصحافيين والجامعيين المدعومين من طرف شخصيات في فرنسا، ندَدوا بتلك "النخبة الكاذبة" ذات الاستيعاب الثقافي الخاطئ وهي شرذمة من ناكري الجميل والمنافقين الذين لا يُخفي إخلاصُهم، المزعومُ، ولا تظاهرُهم بالولاء مبلغَ الكراهية التي يُضمرون لفرنسا. ومن أشهرهم الصحفيُّ André Servier. الذي أكدَّ، من غير دليل ولا برهان، أنَّ "الفكرة المُفضَّلة لدى الأهالي هي "الأمة العربية" أوردَ ذلك في كتاب يدَّعي أنَّه يميط اللثام عن "المخاطر المُحدقة والمتمثلة في نشوء القومية الإسلامية" وأنَّه كان يتابع انتقال عدوى تلك المخاطر من مصر إلى تونس ثم إلى الجزائر.[2] عبَّر الأبُ de Foucauld. سنة 1916، عن قناعة راسخة في "قيام حركة قومية شبيهة بتلك التي حدثت في تركيا" إذا لم يعتنق المسلمون الديانة المسيحية "وسوف تظهر، في المدن الكبرى، نخبة من المثقفين من بين أولئك الذين تعلَّموا في المدرسة الفرنسية ولكنهم لا يتحلون لا بالفكر ولا بالقيم الفرنسية. ستفقدُ تلك النخبة إيمانها بالإسلام ولكنها، مع ذلك، ستحافظ عليه كشعار يُتيح لها التأثير على الجماهير" وستظل تلك الجماهير جاهلة متمسكة بالعقيدة المحمدية وتضمر الحقد والكراهية للفرنسيين وعندما تحين الفرصة المواتية فإنها سوف تستعمل الإسلام كأداة لتحريك الجماهير الجاهلة نحو تأسيس إمبراطورية إفريقية مسلمة ومستقلة".[3] وفي سنة 1914، أيضا، كتب الجغرافي Emile Gautier قائلا: "يتحوَّل المسلمون المتخرجون من مدارسنا أعداءً ألدَّاء لنا وهذا أمرٌ طبيعي لأنَّ طائفة المُولَّدين في مستعمرات العبيد

2. مخاطر المستقبل، الوطنية الإسلامية في مصر، في تونس وفي الجزائر. قسنطينة 1913.

3. رسالة إلى René BAZIN .16-7-1916، تكرر ما ورد في رسالة 1912، إلى duc de FITZ JAMES.

...ما هم الذين كانوا يشكّلون خميرة حركات التمرُّد والعصيان". فإذا لم يكن ... إفريقيا الشمالية مُولَّدون، بالمفهوم العرقي، "فإنّ الحاصلين على شهادة ...وريا يُعتبرون فئةً مُولَّدة بالمفهوم الثقافي".[4]

...تكررت مثلُ هذه الاتهامات والتكهنات في الجزائر وفي فرنسا بلهجة ...ية، عموما،[5] وكانت معتدلة أحيانا قليلة؛[6] فألقت غُلالةً من الضبابية ...ك في صدق نوايا الشُّبان الجزائريين الذين كانوا يطالبون، إلى غاية سنة ...، بالمساواة في الحقوق في إطار السيادة الفرنسية.

...كنّ تقصي الأمور، من بداياتها، يدفع إلى القول بأنّ الشباب الجزائري لم ... يعيش الوطنية الجزائرية باعتبارها تُهمة باطلة بل صار يحملها ...بارها شارةَ فخرٍ؛ فليس من باب المجازفة، إذن، وصفُ موقف الطائفة ...ية أي "المتشائمين" في تلك الفترة التاريخية (في غياب نعوت أصدق ...فطنة والنَّباهة". غير أنّ المتهمين يرفضون، حتى يومنا هذا، ما كان ...ب إليهم من تمويه؛[7] فعلى الذين بادروا بالاتهام واجبُ تقديم البيِّنة على ...قولون؛ ويمكن، أيضا، اعتبارُ "نذيري الشؤم" قد تسبَّبوا في حدوث ما ...وا يخشونه لأنَّ عُدوانيتهم الدائمة هي التي أضعفت جذوة الصدق في ...سمة الفرنسية" لأولئك الجزائريين الشباب.

---

...الأخطار المحدقة بإفريقيا"، مجلة باريس، سبتمبر 1934، ص. 38-56.

...يد André SERVIER، لنذكر، فيما يخص الجزائر، كلا من : Louis BERTRAND "إفريقيا ...ية". Charles COLLOMB "التطور الشمال إفريقي"، Jules ROUANET، BEUSCHER ... الخ؛ فيما يخص فرنسا" Maurice AJAM " (المشاكل الجزائرية"، باريس 1913)، ...AULT- André FOU... (الجزائر ابنة فرنسا) الخ.

...نظر. Félix GAUTIER المقال المذكور. Augustin BERQUE Jean MENAUT MET-... J. DESP... في " إفريقيا الفرنسية".

...نظر عباس، "الشاب الجزائري" 1931، (نشر ثانية من طرف GARNIER 1981)، ليل الاستعمار، ... JULIARD "فحص لأسباب حرب" "الصبح" GARNIER 198...

ومن المُؤكّد، أيضا، أنّ المثقفين الأهالي كانوا يكرهون "أعداء العرب" الذين يصرّون على إبقائهم في وضع المذلة والمهانة حفاظا على امتيازاتهم المجحفة. وإنَّهم متيقنون تماما بكونهم يواجهون قوة تُضمر عداءً لا هوادة فيه تجاه مطالبهم المتطلعة إلى المساواة، تلك القوة التي تُسمَّى "الاستعمار" في مصطلحات السياسية الفرنسية ولم يحصل لهم، أبدا، أن اقترحوا الربط الآلي بين "الاستعمار" وفرنسا؛ ولذلك نجدهم يرفضون جناية الخلط التي اقترفها الاستعماريون، عمدا، لكي يلصقوا بهم تهمة معاداة فرنسا.

فمن هم، يا ترى، أولئك "الاستعماريون"؟ لقد أدرك الشباب الجزائري ضرورة الكفّ عن توجيه الاتهام إلى أولئك الذين يجهلون حيثيات الموضوع أو الذين يصدرون أحكامهم بدافع نية خبيثة؛ فالاستعماريون الجُناة، في نظر الشباب الجزائري، هم الذين يطلق عليهم اسم "الفرنسيين الجدد"؛ أي تلك الفئة التي تحصلت آليا على المواطنة، منذ سنة 1889، فجنت ثمار الاحتلال من غير أن تُقاسم الآخرين مخاطره؛ إنهم، بالتحديد، مجموعُ الفرنسيين من ذوي الأصول الأوروبية الذين استوطنوا الجزائر.

كان هؤلاء يسعون إلى التخلّص من الرقابة المركزية (الفرنسية) على الشؤون المحليّة التي يعتبرونها من اختصاصاتهم المطلقة وكانوا يسمون أنفسهم، بكل اعتزاز، "الجزائريين"؛ وهكذا سرت عدوى إحساسهم بالمواطنة إلى نخبة الأهالي. لكن الشباب الجزائري واجه نزوعهم إلى تحقيق حكم ذاتي بمطالبته صراحة أن يتحقق ارتباط أوثق مع "فرنسا الحقيقية" وكان ذلك، في تقديرهم، هو الملاذ الوحيد ضد الجور المقترف باسم فرنسا في هذه الضفة من البحر الأبيض المتوسط.[11] ردّ الجزائريون على ذلك الاستفزاز بربط مصالحهم الخاصة بمصالح فرنسا في الجزائر؛ ولهذا يصح

11. فائد قاسي، "الجزائر تحت الحكم الفرنسي، ضد الإقطاعية الجزائرية"، Toulouse: 1936. وكذا فرحات عباس: ليل الاستعمار. ص. 110-115.

القول، دون مخافة الوقوع في التناقض، إنّ "الهيمنة الفرنسية" هي تلك التي يفرضها الفرنسيون على الأهالي؛ وإنّ فرنسا كتلة واحدة فمن رفضها جملة فهو، إذن، يرفضها تفصيلا.

لكن المثقفين المسلمين تعلموا، من أساتذتهم الفرنسيين، حرية الفكر وإعمال النظر في الأمور؛ فهم يعترفون، طواعية، بما حققته فرنسا من إنجاز إيجابي غير أنّهم كانوا يأسفون على النقائص الموجودة؛ وبما أنّهم ينظرون إلى فرنسا نظرة مثالية فإنهم لا يحتملون رؤية من هبّ ودبّ يتّشحُ بوشاح العظمة. كانوا يحاربون، باسم القيم الفرنسية ذاتها، جورَ الأوضاع المفروضة على شعبهم؛ فما هو الذنب الذي ارتكبوه إذا كان النظام الاستعماري يكذّب، بتصرفاته اليومية، تلك المُثل التي نهلوها من التعليم الفرنسي؟ 12 .

كتب فرحات عباس، سنة 1927، يقول: "يبدو أنّ أقبح أشكال نكران الجميل هو إرسال أنّة وجع أو صرخة ألم؛ فبالنسبة إلينا، نحن الأهالي، لا مناص من القول إنّ كل شيء على أحسن ما يرام؛ وإنّ الجميع يعملون جاهدين لإسعادنا (...)" "إذا لم يبادر أحد من الأهالي إلى التغني بالإنجاز الذي حققه (الاستعمار) في بلده فإنه يُنعت، في التوّ، بالتعصب والشيوعية والثورية. ها نحن أولاء مجبرون على التزام الصمت أو العيش بأقنعة على وجوهنا" [13].

مهما يكن، فلا السكوت يكفي ولا المديح يبدّد التشكك الذي يبديه "أعداء العرب"؛ وفي هذا الصدد آخذ السيناتور Viollette نُظراءه في الجزائر قائلا: [14] "عندما يحتجّ هؤلاء المسلمون الشباب فإنكم تستاءون من احتجاجهم وعندما يُذعنون فإنكم تشككون في موقفهم وعندما يلوذون بالصمت فإنكم تتوجسون منهم خيفة".

---

12. انظر فرحات عباس "الشاب الجزائري" ص. 126-128؛ وعزيز كسوس، "الكشف عن حقيقة المرض الجزائري" 1935 Bne. ص. 2-4 و 67.

13. عباس. نفس المصدر. ص. 109 و 88؛ وفاسي نفس المصدر. ص. 78-79.

14. ذكره عمار نارون "فرحات عباس ودروب السيادة" ص. 59.

وقال فرحات عباس أيضا متسائلا: كلُّ المربين يجمعون على أن اتهام الطفل بتحمُّل مسئولية خطأ لم يرتكبه يمثّل، بالنسبة إليه، استفزازا يحثُّه على ارتكاب ذات الخطأ لئلا ينال العقاب بغير سبب"؛ ألا يُخشى ارتكابُ ما لا يمكن إصلاحه؟ إنَّ الظلم يُحدِث في النفس انقلابا سريعا وحاسما؛ فربما يُحوِّل الضَّربُ، بدون سبب، أفضلَ الناس إلى أشرار"[15]؟ وبالفعل فإن تراكم الشكوك والصدمات النفسية، التي لا مبرر لها، تؤدي في النهاية إلى تطبيع الطغيان والضيم وتبريره. صرَّح محمد بن رحال، قبل 1914، بأنَّه لا يعرف شيئا في الجزائر اسمه "الوطنية أو الوحدة الإسلامية؛ ولكن من المُحتمل الوصولُ إلى ذلك يوما ما"؛ فمن نتائج افتراءات أعداء العرب المتمثلة في التهويل بميلاد "نوع من الوطنية الإسلامية"، بين صفوف الطليعة الأهلية، أنَّها فعلت فعل "التنبؤات الصادقة": لقد صار الموضوع أمرا واقعا.

بالرغم من كل ذلك فإن المثقفين المسلمين، وحتى بعد اعتناقهم الاتجاه الوطني الجزائري، لم يقطعوا الأمل في تعامل أحسن محتمل مع فرنسا التي تعرفوا عليها في قراءاتهم المختلفة وكانوا، بكل سذاجة، يعتقدون أنَّ ذلك الأمل يتجسد في فرنسا الأم.

هل كان لزاما علينا أن نؤمن بوجود ثنائية فرنسية يفصل البحر الأبيض المتوسط بين طرفيها؟ فمن جهة نجد "فرنسا الاستعمارية الجائرة" ومن جهة أخرى نجد "الجمهورية الحرة" التي تُجسِّدُ فرنسا الحقيقية؟ مهما بلغت عبقرية هذه النظرية فإنها لم تصمد أمام اختبار "أحداث" 1954-1962. إنَّ هذين الموقفين المتعارضين اللذين واجها الشباب الجزائري يمثلان في الواقع جدلا حول تفسيرين مختلفين لسياسة واحدة شُرِع في تنفيذها في الجزائر منذ بداية عهد الاحتلال إلى غاية سنة 1944 على الأقل. تُسمى هذه

---

15. عباس. نفس المصدر، ص. 43.

السياسة، بحق أو بغير حق، باسم "سياسة الإدماج"؛[16] ولقد كان الاختلاف حول الوسائل وليس حول الهدف.

## 2- سياسة الإدماج الفرنسية

احتلت فرنسا الجزائر بغرض توسيع مساحتها الترابية ومضاعفة ثرواتها وعدد سكانها؛ وبعبارة مختصرة لقد فعلت ذلك من أجل تحقيق مناعتها. فبعد أن سُدَّت في وجهها جميعُ المنافذ، إثر معاهدات سنة 1815 في أوروبا لم يبق أمامها سبيلٌ للتوسع سوى التوجه إلى إفريقيا. كان عليها أن تبتلع وتهضم بلدا يختلف، طبيعيا وبشريا، عن مقاطعاتها الأوروبية القديمة. بدأ هذا الإدماج بالمجال الترابي فتمَّ إلحاقه بفرنسا، بموجب أمرية 22 جويلية 1834، ولقد ظلَّ ذلك الأمر مجرَّد إجراء شكلي طالما بقي السكان مُصرِّين على رفض السيطرة الفرنسية. ولضمان تكريس الاحتلال كان من اللاَّزم توطينُ أكبر عدد ممكن من الفرنسيين، أو من الأوروبيين، في الجزائر؛ ولتوطينهم كان من الضروري توفيرُ أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الخصبة لهم وذلك بعد "حشد" القبائل في قسم من أراضيهم ثم تأسيس الملكية الخاصة، حسب القانون الفرنسي، تسهيلا لعمليات البيع والشراء. كان المحامون المدافعون عن عملية الاستعمار أمثال: Warnier أو Paradol Prévost متيقنين بأنّ الفئة الأكثر تحضُّرا، سواء في الجزائر أو في غيرها سوف تفرض الفئة الأقلَّ تقدما أن تتراجع. ولكن، نظرا لكون السكان

---

16. انظر Bruno ETIENNE، "أوربيو الجزائر والاستقلال الجزائري"، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي، 1968، ص. 27-89؛ أيضا: Hubert GOURDON، "حول سياسية الإدماج"، في "المجلة الجزائرية للعلوم القانونية الاقتصادية والسياسية، م. 11(1) مارس، 1974. ص. 33-74.

17. BUGEAUD خطاب موجه إلى غرفة النواب، 15 جانفي 1840، وأيضا: "بالسيف وبالمحراث" مقدمة C.A JULIE ، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1948، ص. 69- 70.

الأصليين رفضوا الانقراض، مثلما حدث للهنود الحمر، وحيث أنَّ عددهم تضاعف، بوتيرة أسرع من تزايد السكان الجدد، فلقد كان من المتوقع أنَّهم سوف يظلون أغلبية عريضة في تعداد سكان بلدهم.[18]

لم يكن الاستيلاء على الأراضي والأملاك العقارية إجراءً كافيا بل كان إدماجُ السكان الأهالي هو الإجراء الكفيل بتحقيق ديمومة "الجزائر الفرنسية". لهذا السبب قال Jules Ferry: ليس لفرنسا سياسةٌ بديلة عن سياسة الإدماج.[19]

كان تطبيق تلك السياسة، على الأهالي، امتداداً لعملية الاستيلاء على المساحات الترابية وضمِّها إلى السلطة الفرنسية أي تحويل الأهالي، منذ سنة 1934، إلى مجرد رعايا لملك فرنسا دون أن يكتسبوا صفة المواطنة. فقد تمَّ تثبيت وضعهم القانوني بالقرار الصادر عن مجلس النواب بتاريخ 14 جويلية 1865 إلى غاية 1919 ( بل إلى غاية 1944 فيما يتعلق بمبادئه العامة).

يقضي البندُ الأول، من ذلك القرار، بما يلي: "إنَّ الأهلي المسلم فرنسيٌّ؛ غير أنَّه يبقى مُسيَّراً بمقتضى القانون الإسلامي(...) ويخول له، إن رغب في ذلك ترشيحَ نفسه للتمتع بحقوق المُواطن الفرنسي؛ وفي هذه الحالة سوف يخضع للقوانين المدنية والسياسية الجاري بها العمل في فرنسا". كان غرض المشرعين الثالث من إصدار ذلك القرار هو ضمان المساواة مع احترام الفروق.[20] ولكن تنفيذه جرى وفق منطق مخالف لذلك الغرض تماما.

يتطلب الحصول على الجنسية الفرنسية، بالنسبة للأهلي المسلم الجزائري، في الواقع ما يلي: إنَّ الأهلي، نظرا لكونه وُلد في قطعة ترابية

---

18. انظر: Paul LEROY BEAULIEU، "الجزائر وتونس" باريس، 1897، ص. 56-58.

19. ذكره Viollette، في المرجع المذكور. حول تطور فكر Jules Ferry، انظر AGERON "الجزائر الفرنسية من نابليون 3 إلى ديغول" سندباد. 1979، ص. 73-83.

20. انظر: AGERON، المرجع المذكور، ص. 18-36 والأطروحة، 37-47.

تابعة لفرنسا، مرتبطٌ بالسلطة الفرنسية ولا يحقُّ له أن يعتبر نفسه أجنبيا؛ ولكن رغم وقوعه تحت سلطة فرنسا فإنه لا يخضع لكافة تشريعاتها. الواقع أنّ الماريشال Bourmont قد التزم، يوم تسلُّمه وثيقة استسلام مدنية الجزائر بتاريخ 5 جويلية 1830، باحترام الدين واحترام قوانين وأعراف المسلمين.

احتفظ الأهالي بقوانينهم القرآنية (أو بالأعراف البربرية التي يقرُّها القرآن) وذلك، على الأقل، في مجال الأحوال الشخصية أي فيما يتعلق بالقانون المدني الخاص بقضايا الزواج والميراث. إنّ هذا التنازل، السخي في مظهره، لم يمنع فرنسا من فرض قوانينها في كل المجالات التي لها فيها مصلحة ما (مثل: القانون العقاري والقانون المالي وقانون العقوبات...). وأهم من ذلك أنها تحرم "المستفيدين" من كل الحقوق المترتبة عن المواطنة الفرنسية؛ ولقد ظلّ الرعايا المسلمون، منذ الاحتلال، خاضعين لنظام استثنائي تمّ تقنينه سنة 1881 تحت اسم "قانون الأهالي" وكان يحتوي تشريعات ردعية مسلطة عليهم؛ وكان هؤلاء مقصيين من كل وظائف السيادة ما عدا بعض الوظائف المتعلقة بإدارة شئون ذويهم؛ وكانوا محرومين من كل الحقوق المدنية ماعدا أقلية من الأعيان الذين كانوا يشغلون مناصب تمثيلية هزيلة في بعض المجالس المحلية. كان بوسعهم الحصول على كل حقوق المواطنة الفرنسية بشرط التخلي عن الاستفادة من القانون الخاص بالمسلمين؛ ولكن هذا الخيار لا يتأتى إلا بعد تقديم طلب شخصي وبعد صدور قرار لا رجعة فيه يمكن أن يتضمن رفضا تعسفيا. كان الحصول على صفة المواطنة الفرنسية يمثّل تشريفا شخصيا مثلما كان الأمر، قديما، بالنسبة للحصول على صفة المدني في روما.

إنّ المواطنة الفرنسية، بالنسبة للأهلي، حقٌ لم يكن من الممكن أن يتحقق إلا كضرب من الإسقاطات الخيالية؛ فلم يكن الأهالي، في الواقع، أفراداً منتمين إلى الأمة الفرنسية بل كانوا رعايا خاضعين لها؛ وربما يُقبل فيها

رد كمواطن كامل الحقوق إذا تنكّر لكل ما كان يميزه كمسلم. يمكن مقارنة
هذا الإجراء بطلب "التجنيس" الذي كان الرعايا الأجانب يلتمسون بموجبه
حق المواطنة الفرنسية. كان هذا المصطلح متداولا بكثرة وكان مؤداه التماس
الأهلي الجزائري الحصول على الجنسية الفرنسية.

إنّ تحوّل الأهلي إلى مواطن فرنسي لا يعني استبداله سيادة بأخرى وإنما
يعني بصفة جزئية، استبدال تشريع بتشريع آخر وتنكُّره للبقية الباقية من
التشريعات التي كانت سائدة قبل الاحتلال. كان الفرنسيون يعتبرون القانون
الخاص بالمسلمين ملجئا وملاذا لجنسية مغايرة لجنسيتهم لا يمكن أن تتوافق
معها وذلك لأنَّ الإسلام ليس مجرّد عقيدة دينية وإنما هو حياة جماعية
ممتدة في الزمن ترمي إلى تحقيق التمايز بينها وبين الكفار بقوانينها الخاصة.

فلا يصير الأهلي فرنسيًا إلاّ إذا تخلى عن صفته، كمُسلم، بالمعنى
السياسي والاجتماعي للكلمة؛ ويجب عليه الاختيار بين التبعية، في إطار
القانون الإسلامي، أو المواطنة في إطار القانون الفرنسي.

لم تكن السياسة الفرنسية متسامحة تجاه الأهالي الجزائريين إلا
ظاهريا: فلقد كانت تسترجع باليد اليُسرى ما تقدِّمه باليد اليمنى؛ والواقع
أن الشعور القوي بالتفوق الثقافي هو الذي أملى تلك السياسة؛ فالقوانين
والعادات التي تدّعي تلك القوانين أنَّها تحترمها، كانت في نفس الوقت
تندد بها وتعتبرها ضربا من ضروب "التوحش" الذي لا يليق بكرامة
المواطن الفرنسي؛ بل الأهلي المسلم ليس متوحشا فحسب وإنما هو في
نظرهم شخصٌ "متعصب" لأنَّه يرفض الإقرار بتفوُّق "الحضارة" التي حملها
المستعمر في أمتعته. فإذا كان من الضروري تجنُّب فرض تلك الحضارة عليه،
خشية دفعه إلى الثورة كآخر ملاذ، فإنَّ نفس الحذر قد فرض على الأمة
المستعمرة أن لا تقبل في صوفها سوى أفرادا اعترفوا بوحشيتهم وأعلنوا
صراحة عن تنكرهم لها.

إنَّ السكان المسلمين غير مؤهلين للاندماج بصفة جماعية؛ وسوف يتحقق اندماجُهم بوتيرة بطيئة جدا، قطرة بعد قطرة، وفي مدة قد تستغرق قرونا طويلة؛ وفي انتظار ذلك يجب أن يبقوا خاضعين للسيطرة الصارمة؛ لأنَّ التصرف معهم بليونة يعني الاستهتار بقيمة الجنسية الفرنسية ويعني أيضا القضاء على حتمية الإدماج.

تلك هي الإيديولوجية التي ألهمت منظّري الإطار القانوني الخاص بالمسلمين الجزائريين. لم يُغيِّر القانون، الصادر في 4 فيفري 1919، شيئا يذكر ماعدا بعض التخفيف في أساليب تطبيقه؛ أما ما تعلّق بمبادئه الأساسية (المتمثلة في الإبقاء على التمييز بين الرعايا والمواطنين وعدم الحصول على صفة المواطنة إلا بطلب شخصي مشروط بالتخلي عن الصفة القانونية كمسلم) فلم يتم تغييرها إلا بأمرية 7 مارس 1944.

هذا الخيار التعسفي جعل المثقفين الأهالي في وضع حرج وصعب. ذلك أنَّ عددا معتبرا من بين الذين استوعبوا الثقافة الجديدة، بعمق، أضحوا راغبين في الاندماج بشكل كلي مع أسيادهم الفرنسيين غير أنَّ الثمن كان باهظا جدا لأن الديانة الإسلامية في نظرهم ليست مجرَّد قناعة ذاتية مرتبطة بضمير الأفراد وإنما هي مجموعة قواعد تضبط الحياة العامة. فالإسلام لا يميِّز بين الحياة الروحية والحياة الزمنية كما هو الحال في الديانة المسيحية ("ما لله لله وما لقيصر لقيصر")؛ وينبغي على المؤمنين الانضواءُ داخل الجماعة "الأمة" ليس لضمان الحياة الأخروية، فحسب، وإنما لتحقيق الحياة الدنيوية التي قننتها التعاليم القرآنية؛ فلا يجوز لشخص ما أن يفصل بين الإيمان والشريعة من غير أن يُعتبر كافرا. صحيحٌ أنَّ المسلمين الجزائريين خضعوا للقوانين الفرنسية، في معظم الدوائر التي يعيشون فيها، ولكن الضرورة هي التي أرغمتهم على ذلك بعد أن استنفدوا كل أشكال المقاومة.

على نقيض هؤلاء فإن أولئك الذين رغبوا في الحصول على المواطنة الفرنسية لم يكن بوسعهم أن يفعلوا ذلك وهم راضون؛ بل كان الإحساس "بالخيانة" يحزُّ في نفوسهم وذلك لأنهم انسلخوا عن شعبهم وتركوه يعيش في وضعية قانونية دنيا؛ ومهما يكن فإنَّ هذا الأخير كان ينظر إليهم كخونة. كان "المتجنسون" مجبرين على قطع الصلة التي تربطهم بعائلاتهم وبمجتمعهم الأصلي من غير أن يتيقنوا بأنَّ في صفوف نظرائهم الجدد من "المواطنين" توجد أذرع مستعدة لاحتضانهم.[21]

ومع ذلك فإنَّ المثقفين، ذوي التكوين الجامعي، كانوا أكثر نزوعا إلى طلبة الجنسية الفرنسية من أية فئة أهلية أخرى؛[22] وكانت تحدوهم في ذلك إما القناعة الراسخة بتفوق الحضارة الأوروبية أو الرغبة في تحقيق ترقية شخصية أو لكلا السببين معا. كانوا مستاءين من كثرة الإجراءات المفروضة عليهم ومن تعقيدها ومن سوء نوايا المصالح الإدارية وتعسّفها في دراسة طلبات التجنيس. ولقد طالبوا بجعل التجنيس حقا من حقوق حاملي بعض الشهادات العلمية أو من حقوق المشتغلين في بعض الوظائف التي تثبت أنه مؤهل لها. حقّق قانون 4 فيفري 1919 أمنيتهم في تلك النقطة؛ غير أنّه لم يأت بجديد لتحسين الأمور بل ظلّ الإجراء الضروري قائما وهو أن يقدّم الراغبُ في التجنيس طلبه شخصيا وهو الأمر الذي يجعله لفترة معيّنة "لا ينتمي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء". لهذا السبب كان عدد الموافقين مبدئيا على طلب الجنسية مساويا تقريبا لعدد الذين تحصلوا عليها فعلا؛ والواقع أنّ أولئك لم يجرؤا على المجازفة بالقطيعة مع ذويهم بل كانوا يتمنون توفر صيغة أخرى للحصول على المواطنة "بعنف لطيف"[23] يعفيهم من تحمّل

---

21- "صوت الأهالي" (4)30-9-1930

22- أنظر HAMET المصدر المذكور، ص.212: "معظم الأفراد المذكورين أعلاه، قد انضمت إلى العائلة السياسية الفرنسية، عن طريق التجنيس."

23- علي محبوب، مشكل الإصلاحات الجزائرية: رأي أهلي"، استخبارات المستعمرات، (1) 1935 ص. 25-30

المسؤولية الشخصية في الموضوع أي حصولهم على الجنسية بصيغة مشابهة لما سنّه القانون الصادر سنة 1889 والمتعلّق بالتجنيس الفوري للأجانب الذين يولدون في الجزائر أو بإجراء شبيه بمرسوم Cremieux الذي منح الجنسية الفرنسة بصورة جماعية لليهود المُصنّفين ضمن فئة الأهالي الجزائريين إلى غاية سنة 1870.

يمكن القول، مع شريف بن حبيلس، إنّ أغلبية أولئك المثقفين كانت موافقة على مبدأ التجنيس أو، على الأقل، لم تكن تقاسم الطبقات الشعبية أحكامها المسبقة المعادية لكل من طلبه. ولكن لا يصحّ الاعتقاد بأنّ أغلبيتهم كانت تعتبر ذلك حلاً كافيا للمشكل السياسي المطروح على الأهالي. لم يكن الذين لم يجرءوا على التخلي عن وضعهم القانوني كمسلمين أقلّ رغبة في اكتساب نفس الحقوق المدنية التي للمواطن الفرنسي فكانوا يطالبون إذن "بتجنيس مختلط" للمثقفين بالفرنسية؛[24] و كان الكل، بما فيهم المتجنسون، يعتقد أن الأغلبية الجاهلة في حاجة إلى من يدافع عنها؛ وفي هذا الصدد كان بن رحّال، منذ 1891، يُكرّر هذه العبارة المناسبة للموضوع: "من لم يكن مُنضماً إلى إحدى الفئتين فلن يُدافع عنه أحد".

كان المواطنون الفرنسيون (وكلهم تقريبا من أصل أوروبي) يفرضون أولوية مصالحهم على المجالس المحلية حيث لا يحظى السكان الأهالي سوى بتمثيل صوري وكان نشاط منتخبيهم في باريس لا يوازيه أي تمثيل للأغلبية. وكان الشبان الجزائريون يطالبون برفع عدد ممثليهم في المجالس البلدية والمجالس العامة واللجان المالية ويطالبون أيضا بإدخال ممثلين عن الأهالي في البرلمان الفرنسي أو في مجلس منتخب محاذ له؛ كما طالبوا أيضا بتوسيع القاعدة الانتخابية الأهلية بكيفية تشمل أيضا النخبة

24. أنظر بن فكار علي، "التمثيل السياسي لمسلمي الجزائر" "مجلة العالم الإسلامي" م. 7، 1909 ص. 1-24.

الاقتصادية والمثقفة وبما يضمن استقلالية الناخبين. غير أنهم لم يطالبوا (قبل سنة 1936) بحق الانتخاب لجميع الأهالي، بدون اشتراط التأهيل، فمن المفروض أن النخبة هي التي تمثل العامة وتحافظ على مصالحها.

كان الشباب الجزائريون يطالبون بتسهيل عملية التجنيس بالنسبة لمن يطلبها ويطالبون أيضا "بحقّ الحصول على المواطنة مع الاحتفاظ بالقانون الخاص" بالنسبة للمسلمين. ويمكن أن تتم الاستفادة من هذه العملية (أي المواطنة) إما كاملة مع فئة المواطنين الفرنسيين وهذا بالنسبة للنخبة التي تثبت بشهاداتها العلمية أنها وصلت إلى المستوى الكافي من الاستيعاب الثقافي أو على الأقل في إطار قائمة انتخابية خاصة تسمح بتمثيل مصالح سكان الأهالي. هذه المطالب الصادرة عن رؤى مختلفة، ولكنها متكاملة، تنمّ كلها عن التشارك في عدم الرضا عن السياسة الرسمية المنتهجة في عملية الإدماج.

إنّ أكثر تلك المطالب تحديًا هو مطلب "الحصول على صفة المواطنة مع الاحتفاظ بالقانون الخاص" نظرا لكون نظرية الإدماج ترتكز أساسا على عدم التوافق بين الحالتين. لكن منذ سنة 1911 فإن استشارة بعض ذوي الاختصاص في القانون خلصت إلى أن ذلك لا يتعارض في شيء مع القواعد الأساسية للقانون الفرنسي؛[25] ومع ذلك فإنّ إصلاحات سنة 1919 لم تأخذ بعين الاعتبار وجهة النظر تلك رغم صحّة استنادها. وفي سنة 1931 طرح Maurice Viollette تلك التحليلات، من جديد، لكي يدعم مشروع القانون الذي طرحه لفائدة النخبة؛[26] فحسب رأيه إنّ سياسية الإدماج الفرنسية لا يمكن لها أن تقوم دون الوقوع في تناقض سافر على تكذيب المبادئ التي

25. مجلة "الأهالي"، جويلية-أوت 1991

26. مرعش "هل ستعيش الجزائر؟"

تؤسسها والتي تُقِرُّ بالجنسية الفرنسية للأهالي المسلمين. إنهم فرنسيون، وليس فقط بموجب القرار البرلماني الصادر سنة 1965، وإنما لكونهم يخضعون في أغلب ظروف حياتهم لقوانين فرنسية تجبرهم على أداء نفس الواجبات التي يؤديها ذوو الأصل الفرنسي؛ وبالخصوص في مجال الجباية والخدمة العسكرية الإجبارية منذ سنة 1912.

لم تكن الشريعة الإسلامية والأعراف البربرية سوى مجرّد تفريعات في مجال تطبيق قانون الأحوال الشخصية الذي صار يتقلص يوما بعد يوم. ولا يمكن لفرنسا أن تتخذ ذلك سندا لحرمان الأهالي من حقوقهم المدنية. ولقد تمّ إدراج خصوصية قانون الأحوال الشخصية في القانون الفرنسي الذي يمثل السلطة الوحيدة صاحبة السيادة في الجزائر. فإذا ظهر بأن قانون الأحوال الشخصية يتضمن بعض التدابير المتنافية مع القانون الطبيعي أو النظام العام فعلى فرنسا أن تتدارك الأمر من غير أن توجه اللوم في ذلك إلى رعاياها.

مهما كان الأمر، فإن المادة 7 من القانون المدني تقتضي، صراحة، بأن حق ممارسة الحقوق المدنية مستقلٌّ عن القانون المدني؛ وبموجب ذلك المبدأ فإنّ الأهالي المسلمين الموجودين في المراكز التجارية في الهند أو في السنغال كانوا فرنسيين مع الاحتفاظ بخصوصية قانون الأحوال الشخصية المتعلق بهم؛ وزيادة على ذلك فإنّ تدخُّل فرنسا أكثر من مرة في الندوات الدولية للتنديد بما يقع من تمييز في ممارسة الحقوق المدنية مؤسس على تلك المبررات. ما أكثر الحالات الملموسة التي تدعم هذا التحليل، ومع ذلك، فإن المحلل لم يستخلص منها سوى بعض النتائج المعتمدة جدا.

أمرَ القانون الصادر في 4 فيفري 1919 بإنشاء هيئة انتخابية خاصة تضمن انتخابا تمثيليا أكبر للأهالي في المجالس الجزائرية؛ ثم اقترح Maurice Viollette، زيادة على ذلك، في سنة 1931 أن يتمَّ إدراج الأفراد

المنتمين إلى النخب المثقفة والإدارية والاقتصادية والعسكرية في فئة المواطنين الفرنسيين من غير أن يشترط عليهم التخلي عن أحوالهم الشخصية؛ وبتلك الكيفية يكون الحاكم قد أنشأ فئة وسيطة بين المواطنين بموجب القانون المدني الفرنسي وبين الناخبين في الهيئة الانتخابية المسمى الجزائر. غير أن تلك الخطوة الخجولة التي يمثلها المشروع لم تتمكن من الصمود أمام معارضة منتخبي فرنسيي الجزائر الذين يضمرون عداوة قصوى حتى لمبدأ استفادة الأهالي من صفة المواطنة داخل القانون الخاص بهم. وأخيرا تمّ تنفيذ المشروع في صورة موسعة بموجب الأمر المؤرخ في 7 مارس 1944 والصادر بالجزائر من طرف الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية؛[27] فألغى هذا الأمر كلّ أشكال التمييز في معاملة الأهالي استنادا إلى القانون الخاص بهم ودعاهم إلى اعتناق المواطنة الفرنسية: غير أن الأشخاص الذين لم يحصلوا على الشهادات العلمية المذكورة في المادة الثالثة كانوا يصنّفون ضمن الفئة الانتخابية الثانية المخصصة للمسلمين ولقد رُفعت تمثيلية هؤلاء في المجالس المحلية لتبلغ خمسي (5/2) أعضائها. وبموجب الأمر الصادر في 17 أوت 1945 لقيت الفئتان الانتخابيتان تمثيلية برلمانية متساوية وهذا التساوي تم تطبيقه على المجلس الجزائري الذي أنشئ في إطار القانون الخاص بالجزائر بتاريخ 20 سبتمبر 1947. وبالرغم من أنّ العمل بمبدأ الفئتين الانتخابيتين قد عطّل تكريس حق المواطنة في إطار القانون الخاص فإن هذا الحق قد حلّ في آخر الأمر محلّ سياسة الإدماج القديمة مما أثار استنكارا قويا لدى ممثلي فرنسيي الجزائر.

وبالفعل فإن هؤلاء لم يكفوا عن التنديد بالسياسة الجديدة التي فتحها مشروع Viollette باعتبارها كُفرا خطير العواقب. يُعتبر الحصول على

27. Texte dans la RISIEP, n° cité. p. 72-74.

المواطنة باسم القانون، ولو تحققت بحذر ورويّة، سابقةً غير مقبولة؛ فهي النهاية الحاسمة لسياسة الإدماج لأنها تمنح الأهالي حق التمتّع بكل امتيازات المواطنة دون أن ترغمهم على تبني القانون المدني الفرنسي أي الحضارة الفرنسية. لقد آذنت هذه السياسة بأفول نجم "الهيمنة الفرنسية" بعد أجل معين وذلك بعد أن يصير المسلمون أغلبيةً في المجالس الجزائرية. وهل يمكن، بالفعل، أن يحظى "الفرنسيون المسلمون" باستحقاق هذه التسمية؟ لا يؤمن فرنسيو الجزائر بذلك فالذين جرت العادة على تسميتهم "العرب" سيبقون في نظرهم شعبا أجنبيا مهزوما وستظل الشكوك تحوم حول نزوعه إلى الأخذ بالثأر. وما دام الاستعمار قائمًا على الاحتلال بالقوة فإن مصالح الشعبين هي بالضرورة متعارضة. إنّ ذوي الفكر المتحرّر من بين الفرنسيين كانوا، في نظر فرنسيي الجزائر، يرتكبون خطئا فادحًا أوقتهم فيه تصوراتهم السياسية المثالية ودفعتهم إلى اعتبار الجنسية الفرنسية أمرا واقعا، بالنسبة للأهالي، في حين أنّ ذلك هدفٌ لا يمكن تحقيقه إلا على المدى البعيد جدا إن لم يكن مستحيلا تماما. إنّ التمتع بحقوق "المواطنة في إطار القانون الخاص" يفتح الطريق نحو الانفصال لأنّه يضع الجزائر بين أيدي أغلبية أهلية معادية للمشروع الاندماجي. كان نوابُ المستعمرة يعتبرون موقفهم الرافض سياسة واقعية لأنهم يرفضون فتح باب المدنية الفرنسية "للمتجنسين" الذين لم يتخلوا عن "جنسيتهم" الأجنبية فلا يمكن للمرء أن يكون فرنسيا ومسلما في آن واحد.

كانت السياسة الفرنسية تجاه الأهالي متناقضة تماما؛ ويتجلى ذلك في طرحها لمبدأ جنسيتهم الفرنسية ورفضها، في نفس الوقت، ترشيحهم لنيلها إلا باشتراط "تجنسهم".

إنّ الخلط بين مفهومي "الانتساب لشعب وبين الخضوع لسلطة الدولة" في تحديد معنى الجنسية يبين مقدار ذلك التناقض.

كان موقف السكان "الجزائريين" (الفرنسيين) أكثر معقولية رغم الإجحاف الذي يتضمنه تجاه الشباب الجزائريين؛ فلم يكونوا، إلى سنة 1936 على الأقل، واعيين بما يُسمى "ضرورة اختيار الانتماء إلى إحدى الجنسيتين"؛ فإذا استثنينا أقلية من الاندماجيين الملتزمين وأقلية أخرى من الوطنيين فإن الباقي كانوا مصرين على أن يعتبروا في آن واحد فرنسيين ومسلمين بكامل معنى الكلمة.

لم تستجب الحكومة الفرنسية لمطلبهم سوى في سنة 1944؛ غير أن تلك الاستجابة جاءت بعد فوات الأوان؛ فبعد أن يئسوا من ذلك، بسبب الفشل المتكرر الذي لقيته مطالبهم، استولت على الألباب فكرةُ الوطنية الجزائرية، التي ما فتئت تنتشر بين جموع الجزائريين، فتلاشى ما بقي من تحفُّظ لدى المثقفين المسلمين وانقسموا شيَعا. كانت الأغلبية (على الأقل الشباب منهم) تساند فرحات عباس في مطالبته بجمهورية جزائرية ثم تجاوزته ذلك المطلب حين انخرطت في صفوف حزب الشعب الجزائري بزعامة مصالي الحاج: فلم يكن الأمر الصادر سنة 1944 وكذا الإصلاحات التابعة له سوى استمرارٌ مموهٌ لنفس سياسة الإدماج التي أضحت تُفرّق بين النخبة والعامة بـ استبدال الشروط القانونية المعقّدة باشتراط الاستيعاب الثقافي. وحتى وإن لقيت السياسة الجديدة استحسانَ الفئة الأكثر تحفظا، في البرجوازية المسلمة، فإنّها لم تكن كافية لتفكيك لغم الصراع الحتمي بين القوميتين الفرنسية والجزائرية والتي أدّت إلى تفجير 1 نوفمبر 1954.

## ب) الدور السياسي للنخبة الحائزة على الشهادات.

بالرغم من تعارض الرهانات حول الدور السياسي المنوط بالأهالي، الحائزين على شهادات جامعية، فإنّ ذلك لم يحل دون اتفاقهم على الأقل حول نقطة واحدة: "من الأمور المسلّم بها أن النخبة المثقفة هي التي ستقود

شعبها إما في الاتجاه "الأحسن" أو في الاتجاه "الأسوأ". لكن إذا كانت النخبة مؤمنة، في وقت مضى، بقدرتها على لعب ذلك الدور فإنَّ الدفع القوي الذي عرفته الوطنية الجزائرية قد غمرها وأرغمها على الرضوخ لخيارٍ قاتل هو: إما المسايرة وإما الاستقالة.

## 1- دور حمَلَةِ الشهادات على رأس حركة "الشباب الجزائري" (1908-1930)

لم يكن من الممكن الحديث، قبل سنة 1908، عن ما يمكن تسمية تنظيمات سياسية في صفوف المسلمين الجزائريين بالرغم من أنَّ القرار الصادر عن مجلس الشيوخ، سنة 1865، قد اعترف لهم ببعض الحقوق المحتشمة التي ما فتئت أن تدهورت خلال العشرين سنة الأولى للجمهورية الثالثة. كان الأعيان، ذوو التكوين العربي أو الفرنسي، يضعون إمضاءاتهم أسفل الرسائل المطالبة وكانوا يدلون بإجابات صريحة على تحريات لجان التحقيق البرلمانية. مثل لجنة مجلس الشيوخ بقيادة Jules Ferry سنة 1891، كما حاول الحاكم 1897-1891) (Jules Cambon ثم الحاكم Charles Jonnart (1903-1911 ثم 1919–1919) استدراج النخبة الجديدة واستمالتها لتكون أهمَّ ركيزة من ركائز السيادة الفرنسية في الجزائر.

لم تبادر هذه النخبة بالمطالبة السياسية إلا في سنة 1908 وذلك حين ردَّت على مشروع Massimo، المتعلق بفرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الأهالي، أما "الشُبانُ الجزائريون" فقد وافقوا على المبدأ ولكنهم أوفدوا لجنتين إلى رئيس المجلس Georges Clemenceau (أكتوبر 1908) وإلى Poincaré (جوان 1912) لإقناعهما بضرورة العمل على أن تقبل الأهالي لذلك المشروع مقابل حصول النخبة على الحقوق السياسية والتحسين الملموس للأوضاع المعيشية للسكان.

تضمّن "بيان الشاب الجزائري"، في سنة 1912، مزيداً من المطالب ومن بينها: إلغاءُ قانون الأهالي وتخفيفُ عدم المساواة السائدة في مجال الجباية وفي الميزانية ونشرُ التعليم على أوسع نطاق؛ كما طالبوا في المجال السياسي بتمثيل المسلمين، بصورة جدية وكافية، في المجالس الجزائرية وفي البرلمان الفرنسي؛ وهكذا ادعى الشباب الجزائري، حينذاك، أنّهم كانوا لسان حال الشعب يعبّرون عن تظلُّماته ويترجمونها إلى مطالب يمكن أن تحظى بموفقة السلطات الفرنسية.

كان هؤلاء الوسطاء أقلية من الناس لا يتجاوز عددها ألفا من "المتطورين"، سنة 1908، وكان من بينهم أقل من مائة مناضل ناشط منهم 25 حاملا لشهادة التعليم العالي؛[28] غير أنّ مستواهم الثقافي والشهادات العلمية التي تحصلوا عليها جعلهم محاورين طبيعيين لدى الوزراء الفرنسيين. هكذا ترأّس الحركة، في مدينة الجزائر، المحامي عمر بوضربة (رئيس الوفد سنة 1908) والطبيب بلقاسم بن ثامي الذي قاد الوفد سنة 1912 مع آخرين من القطاع القسنطيني أمثال الأستاذ مختار حاج سعيد والدكتور موسى بن شنوف وكذا محمد بن رحال، وهو مثقف مزدوج اللغة، التحق بهم إلى باريس مع وفد من القطاع الوهراني والنقيب خالد، خريج Saint Cyr وهو حفيد الأمير عبد القادر، الذي جاء سنة 1913 ليدعم أركان الشبان الجزائريين؛ ونذكر أيضا الترجمان العسكري إسماعيل هامت ودكاترة القانون بن علي فكار وشريف بن حبيلس والمحامي الشاب طالب عبد السلام.

وكان في الصفوف الأمامية عددٌ معتبر من المتجنسين أمثال: الأستاذ بوضربة والدكتور بن ثامي؛ وبالفعل فإن ذوي الشهادات العليا كانوا يمثلون أعلى نسبة في تلك اللجان وهذا راجع إما لاقتناعهم بعدالة القضية أو للضرورة المهنية. زيادة على ذلك ونظرا لكون المنتخَبين الأهالي في المجالس البلدية قد

---

28. أطروحة AGERON ص. 1030-1055. وكذا "تاريخ" م. 2 ص. 235-241.

فقدوا، سنة 1884، حقهم في الترشح لمنصب شيخ البلدية؛ فإن المتجنسين كانوا يستفيدون من أصواتهم الانتخابية. كان المسلمون التقليديون (أو أصحاب "العمائم القديمة") يميلون إلى إدراج كل الشبان الجزائريين في زمرة ذوي الطموح السياسي بالرغم من الحذر الذي كان عدد كبير منهم يضمره تجاه أولئك "الخونة" الذين يدّعون تمثيلهم؛ وكان هذا أيضا رأي الناطقين باسم المستوطنين.

كان من الممكن أن ينظر إلى مشاركة الشبان الجزائريين في الحرب الكبرى كبرهان واضح على صدق وطنيتهم الفرنسية؛ غير أنّ أعداءهم اتخذوا ذلك ذريعة من لإثبات العكس؛ فإذا كان المتجنسون قد جُنِّدوا، كغيرهم من الفرنسيين، فإنّ الأهالي استفادوا من تسهيلات خاصة مُنحت لهم اتقاء عصيانهم أو تمرُّدهم. لم يكن يجند سوى قسم من المسجلين سنويا، وذلك إلى غاية سنة 1916، كما أنّ الإعفاء من التجنيد وكذا إمكانية التعويض المالي ظلّت سارية المفعول إلى غاية سنة1917. من المفروض أن يُعتبر ارتفاعُ عدد المتطوعين للتجنيد، في صفوف المثقفين، أحسنَ دليل على إخلاصهم لفرنسا ولكنهم، حسب تقرير الحاكم Lutaud، لم يكونوا يقدمون إلاّ نادرا؛ فلقد "انخرط منهم خمس وثلاثون عن طواعية"، حسب قوله، في 30 جوان 1916 ثم ارتفع الرقم إلى "أقل من مئة"، في نهاية سنة 1917، وهو رقم لا يستهان به نسبة إلى ما يقرب ألفًا من "المتطورين".[29] لكن، هل يتعلق الأمر بنفس الأشخاص؟ فالقادة الأكثر بروزا أمثال: الدكتور بن ثامي والنقيب خالد قد "أدُّوا واجبهم"، بالرغم من المواقف الدنيئة التي استهدفتهم، وانضم آخرون أمثال: الأستاذ حاج سعيد والدكتور موسى إلى احتجاجات السكان لمناهضة التسجيل في القوائم؛[30] ولكن، يبدو، أنّه لم

---

29. طروحة AGERON ص. 1188.، J. MEYNIER في المرجع المذكور ص. 630-631 يناقش ذلك الحكم، انطلاقا من عينة تتكون من 148 من الشباب الجزائريين.

30. MEYNIER المرجع المذكور ص. 578.

حياة سياسية في إطار جزائري محض. استغل الحائزون على الشهادات تلك الفرصة لانتزاع عدّة عهد انتخابية بعد أن كانت حكرا على مرشحي الإدارة (بني نعم نعم) غير أن حركة الشاب الجزائري، و هي في عزّ نشاطها سنة 1919، أُصيبت بخلخلة صفوفها بسبب الخلافات الإيديولوجية والنزاعات الشخصية. وبالفعل فإن النقيب خالد، وهو من بين أوائل الوطنيين الجزائريين، قد كتب إلى الرئيس Wilson، في شهر ماي سنة 1919، يطلب منه تمكين الشعب الجزائري من ممارسة حقه في تقرير مصيره تحت إشراف عصبة الأمم؛[32] ثمّ عاد بعد ذلك ليركز على خيار المطالبة بتمثيل برلماني متساو بين المسلمين والفرنسيين. تضاعفت انتصارات خالد الانتخابية مما جعله يحلم بإنشاء حزب كبير للمسلمين؛ ولكنه اصطدم بمعارضة القادة المتجنسين: بوضرية وبن ثامي وصوالح الذين أرغموه على الاستنجاد ب "التعصب الإسلامي" وبمساندة الشيوعيين ثم تحالفوا مع الإدارة لمحاربته فأُرغم على الهجرة سنة 1923. أخفق خالد في آخر محاولة لإسماع صوته بباريس، سنة 1924، ثم انسحب من العمل السياسي نهائيا.[33]

في تلك الأثناء تمكن الحاكم العام (Maurice Viollette (1925-1927)، وهو يكنُّ عداوة، لا هوادة فيها، ضد الاتجاهات القومية والشيوعية، تمكّن من كسب كل الشباب الجزائريين وجعلهم يأملون في حدوث تطور إيجابي للأمور داخل الإطار الفرنسي.

لكن فدرالية منتخبي الأهالي، التي تأسّست في سبتمبر 1927، لم تلبث أن تفككت؛ وكان المتسبب في ذلك هو الدكتور بن ثامي الذي اعتبر نفسه رئيسا

---

32. نص وجد في واشنطون من طرف Claude PAILLAT ونشر من طرف AGERON "مجلة التاريخ المغاربي" (19-20) جويلية 1980

33. انظر AGERON، "هل كان الأمير خالد أول الوطنيين الجزائريين؟" في "السياسة الاستعمارية في المغرب الكبير" المنشورات الجامعية 1973، ص. 249-268

لها لا يمكن الاستغناء عنه؛[34] ثم أعيد بعثها، سنة 1930، على شكل ثلاث فدراليات (ولائية) مستقلة عن السابقة. ونظرا للشلل الذي أصاب المنتخَبين، بسبب النزاعات العقيمة، فإنهم عجزوا عن الحصول على إصلاحات جديدة بمناسبة احتفالات الذكرى المئوية للجزائر الفرنسية؛ ولم يكن من نتائج ذلك العجز سوى مضاعفة ارتياب الشعب من أولئك السياسيين الذين يدّعون خدمته.

## 2- المد الوطني الجزائري غمر حملَة الشهادات (1931-1942)

كان مشروع القانون الذي تقدم به السيناتور Viollette، من سنة 1931 إلى 1935، يعبر عن مكنون الآمال لدى أغلبية الأهالي الحائزين على الشهادات والطامحين إلى تشكيل حلقة وسيطة بين فرنسا وبين شعبهم دون إرغامهم على الاختيار بين أحد الطرفين. شكّل الناخبون، في الفدراليات الثلاث، لجنة كبيرة وأوفدوها إلى باريس، في جوان 1933، لتلتمس من الحكومة تبنّي مشروع Viollette؛ ولكن بعد إصرار الحاكم العام Jules Carde على معارضة تلك المطلب لم تحظ اللجنة بالاستقبال من طرف الحكومة. كان الردّ على تلك الإهانة أن توالت الاستقالات مما أكد أن خيار تشكيل اللجان قد تجاوزته الأحداث.[35] لم يكن مشروع Viollette السببَ الوحيد في انقلاب الأوضاع؛ فالناخبون ومعهم مجموع صحف الشباب الجزائري قد انضمّوا إلى موقف جمعية العلماء، المتهمّة بالتوجه المتعصب والقومي، والتستّر خلف شعار حرية ممارسة الدين الإسلامي.

34. أنظر "الاتحاد" (3)، 15.8.1927، (11)، 16.12.1927، ثم "منبر الأهالي الجزائري" (1) 21.11.1927 و (10) أكتوبر 1928

35. أنظر أفريقيا الفرنسية، جويلية 1933، وسبتمبر 1934. ثم "صوت الأهالي" (205 إلى 211)، جوان جويلية 1933

في فيفري 1933 وماي 1934 تسبّبت التدابير القمعية ضدّ الخُطب غير المرخص بها في المساجد ثم ضد الصحافة الناطقة باللغة العربية؛ تسبّب ذلك في تجمعات عمومية ومظاهرات؛[36] فتحوّلت حركة المطالبة، في صفوف المسلمين، إلى حركة شعبية عارمة أفلت زمامها من يد الناخبين.

في تلك الأجواء المشحونة بالإثارة حدثت مذبحةٌ ضد اليهود في قسنطينة (5 أوت 1934) ثم تلتها أحداثٌ دامية أخرى. عزت السلطات أسباب انفجار الشّغب والعنف إلى حالة البؤس السائدة والتي زادتها الأزمة الاقتصادية تعقيدا كما عزتها أيضا إلى عمل أبواق الدعاية الخارجية.[37] قضت الزيارة التفقدية، التي قام بها وزير الداخلية Marcel Régnier، على آخر ما بقي من آمال لدى الشباب الجزائريين. ذلك أنّ اسم هذا الوزير أقترن بقرار ينص على تصعيد القمع ضدّ كل الاستفزازات "و ضد محاولات الإخلال بالنظام العام أو التظاهر ضد السيادة الفرنسية أو أية مقاومة سواء كانت إيجابية أو سلبية ضدّ تنفيذ القوانين والقرارات والتنظيمات أو أوامر السلطة العمومية". وفي سياق الرّد على مساءلة طرحها السيناتور Viollette تمّ التراجع عن تقديم أي مشروع قانون يتعلق بالإصلاحات السياسية "لقد بذلنا، منذ سنة 1919، أقصى ما يمكن بذله من مجهود في هذا الصدد: فلا ينبغي أن يُطلب منا المضيُ إلى أبعد من هذا لأن ذلك أمرٌ مستحيل".

أصيب الشباب الجزائري بخيبة أمل عميقة بسبب ذلك الرفض العنيف "للمواطنة في إطار القانون" فتباينت ردود الأفعال بصورة عكست حالة التفكّك التي أصابت صفوف أولئك الشباب فمثلا هاهو الأستاذ المتجنّس ر.

36. "الدفاع" 12 ماي 1934، "إفريقيا الفرنسية" جوان وسبتمبر 1934 (ونخص بالذكر: DESPARMET J. " المظاهرات في الجزائر" 1934-1935")

37. إفريقيا الفرنسية نفس المصدر، وAGERON " تحرش جماعي ضد اليهود في قسنطينة" (مجلة الغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط) (13--14)، 1973.

زناتي، بعد أن تيقن باستحالة ذلك المطلب، يدعو نظراءه إلى اختيار التجنُّس فرادى؛[38] وهذا فرحات عباس، الرئيس السابق لجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين (الذي تم انتخابه عضوا في مجلسي عمالة قسنطينة ومجلس بلدية سطيف وعضوا في اللجنة المالية لمدينة سطيف)، يقترح التخلي جماعيا عن "الأحوال الإسلامية" على غرار النهج الذي انتهجته تركيا؛[39] وهذا أيضا الدكتور بن جلول، رئيس فدرالية المنتخَبين المسلمين في عمالة قسنطينة، يفضِّل الرجوع إلى "مشروع Guernut، الرّامي إلى إنشاء تمثيلية برلمانية خاصة بالمسلمين، مع التأكيد على انتمائه شخصيا إلى زمرة المطالبين بالاندماج.[40]

تصدّى الشيخ بن باديس، رئيس جمعية العلماء، فلتفنيد آراء أولئك الذين يؤكدون أنهم فرنسيون مع احتفاظهم بصفة المتحدثين باسم شعبهم وذلك في "البيان الصريح" الصادر في شهر أفريل سنة 1936؛ وكان ابن باديس يعتبر أنّه يُعبِّر عن رأي الأغلبية مؤكِّدًا بأنَّ الأمَّة الجزائرية موجودة بتاريخها وبشخصيتها الثقافية المتميزة: "هذه الأمة الجزائرية المسلمة لا يمكن أن تكون فرنسا ولا ترغب في أن تكون فرنسا؛ بل هي أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا بلغتها وطبائعها وأصولها ودينها وهي لا تطالب بأي نوع من الإدماج".[41] لا تتضمَّنُ تلك التصريحات أدنى مطلب وطني كالذي يرومه حزب "نجم شمال إفريقيا" الذي تأسَّس في باريس، سنة 1926، وبالفعل فلقد

---

38. أنظر "صوت الأهالي"، (302)، (320)، 333) إلى (335)

39. نفس المصدر (317). أنظر "الدفاع" (362) 3 ماي 1935 وشارل أنظر جوليان "مسيرة شمال إفريقيا" منشورات Julliard ط. 3 1972، ص 112.

40. "صوت الأهالي" (295)، (299) و(317)

41. نص أورده علي مراد "الإصلاحيون المسلمون في الجزائر، من 1925 إلى 1940. نشر Mouton، ص. 398-399.

كان ابن باديس يُميِّزُ بين "الوطنية العرقية" التي تعبّر عن الهوية المعنوية للشعب الجزائري و"الوطنية السياسية" التي فرضتها فرنسا. غير أن الحركة المطلبية المسلمة فقدت وحدتها الإيديولوجية نهائيا.

لم تكن تلك الحركة موحَّدة الصف فيما يتعلّق بنوع التحالف الذي ينبغي إبرامه مع شتى القوى السياسية المتواجدة في الميدان؛ فبينما لم يعد الرأي العام الأهلي يثق في الأحزاب الفرنسية المتواجدة في السلطة، منذ سنة 1919، فإنّ البعض ومن بينهم الدكتور بن جلول كان أكثر ميلا إلى المعارضة المضادة للبرلمان "صلبان النار" وكان البعض الأخر، على نقيض ذلك، يأمل في انتصار التجمع الشعبي. أمّا الاتجاه الثالث، ومن بين ممثليه عبّاس وبن باديس، فكان يرفض اتخاذ أي موقف في النزاعات السياسية الفرنسية.

تبلورت الحاجة إلى حزب كبير يجمع صفوف المسلمين وخصوصا بعد الإخفاقات المتتالية في 1933 و1935؛ وكان من المفترض أن يتجاوز الجميع اختلافاتهم وأن يجتمع شمل جميع المناضلين المدافعين عن قضية الأهالي حول عريضة مطلبية مشتركة.

انعقد "مؤتمر المسلمين الجزائريين" بالجزائر، في 7 جوان سنة 1936، في خضم الحماس السياسي الذي أعقب انتصار الجبهة الشعبية (في فرنسا) تلك الجبهة التي كانت تبدو معادية للاستعمار؛ ولقد ضم المؤتمر كلاً من الناخبين والعلماء ومناضلي الأحزاب اليسارية (الاشتراكية والشيوعية) وكان "ميثاق مطالب المؤتمر" يمثل مبادرة توفيقية بين شتى وجهات النظر فطالب بمنح صفة المواطنة الكاملة لكل سكان الجزائر من غير التخلي عن قانون أحوالهم الشخصية مع ضمّ عمالات الجزائر مباشرة بفرنسا.[42]

42. أنظر C.A JULIEN "المرجع المذكور". AGERON "تاريخ..." ج. 2، ص. 437-440، وكذا "حول السنة السياسية الجزائرية، 1936" "مجلة التاريخ المغاربي" (15-16) 1979؛ ومحفوظ قداش "تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية" ج. 1 الجزائر، 1981 ص. 427-446.

كان ذلك الميثاق يعبِّر بصدق عن طموحات الشباب الجزائريين الذين يعتبرون أنفسهم فرنسيين-مسلمين بمعنى الكلمة؛ ولكنه لم يقترح أية جدولة زمنية لتحقيق تلك المطالب. اكتسى الميثاق طابعا ثوريا فظهر وكأنه قطيعة سياسية مع مشروع Viollette والواقع أنَّ تحقيق تلك المطالب، من غير التقيُّد بجدولة زمنية مضبوطة، سوف يضع الجزائر تحت سلطة الأغلبية المتمثلة في الأهالي وهي فئة فرنسية من حيث الحقوق (باعتبار "جنسيتها السياسية") ولكنها أجنبية في الواقع (باعتبار "جنسيتها العرقية"). فهل يمكن، في تلك الحالة، إقامة ارتباط مباشر مع فرنسا كضمان كاف لاستمرار السيادة الفرنسية ومواصلة سياسة الإدماج؟ لا يمكن لا لفرنسيي الجزائر ولا حكومة باريس المجازفة بخيار من ذلك النوع.43

اتخذت الحياة السياسية منعرجا جديدا، أكَّد تلك المخاوف، وتمثَّل في ظهور الخيار الوطني بصورة صريحة في ثنايا النقاش السياسي الجزائري. انضم الشيخ بن باديس، منذ جوان 1936، إلى خيار التحرير التدريجي للأمة الجزائرية، في إطار مُتفق عليه مع فرنسا، ذلك المطلب نادت به مجلة "صوت الشعب" وهي أولى ضحايا قرار Regnier من سنة 1933 إلى 1935. تدخَّل مصالي الحاج، رئيس نجم شمال إفريقيا، خلال تجمُّع كبير للحزب نظم في الجزائر في 2 أوت للتنديد بجميع أشكال الارتباط مع فرنسا باسم المثل الوطنية فقال: "لن نقبل أبدا أن يرتبط بلدُنا ببلد آخر رغم أنفه ولا ...، مهما كان السبب، المقامرة بالمستقبل وبالأمل في الحرية الوطنية للشعب الجزائري".44 لم تمض سوى أشهر قليلة حتى صار تنظيم نجم شمال إفريقيا يشمل كل أرجاء الوطن.

---

نظر تعاليق "صوت الأهالي" (375)، 376)، (379)، و(390).

نص أورده C. COLLOT، وJ.R HENRY، "الحركة الوطنية الجزائرية" ص. 82-85. قداش ... المذكور ص. 930-932 انظر أيضا "مذكرات مصالي الحاج" J.C LATTES، 1982. ص. 222- و Benjamin STORA، مصالي الحاج، الكرمة، 1982، ص. 146-148.

تمثّل ردّ حكومة Léon Blum على "ميثاق المطالب" في تبني مشروع Viollette الذي تجاوزته الأحداث فلم يعد يستجيب لمقتضيات تلك المرحلة. ومع هذا، وافق المؤتمر على ذلك كمرحلة أولى نحو تحقيق هدفه النهائي؛ غير أنَّ أغلبية المُنتخَبين عارضوه بشدَّة لأنَّهم اعتبروه أسلوبا من أساليب تكريس سلطة الأهالي. وبالرغم من النداء الثاني الذي وجَّهه مؤتمر المسلمين، المنعقد في جوان سنة 1937، فإن الحكومات المتعاقبة لم تجرؤ على اقتراح ذلك المشروع على البرلمان ولم تحاول تطبيقه بواسطة قرار؛ وفي سنة 1938 قرر Daladier إلغاءه تماما. في تلك الأثناء كان القمع مسلطا على مناضلي حزب نجم شمال إفريقيا الذي حُلَّ في جانفي 1937 ثم على الحزب الذي خلَفَه وهو حزب الشعب الجزائري.

لقد كرَّسَ القمعُ المُسلَّطُ على حزب الشعب، من جهة، وفشلُ المؤتمر، من جهة أخرى، الصبغة الشعبية لذلك الحزب فأحرز انتصارات انتخابية رائعة قبل أن يُحلَّ، بدوره، في سبتمبر 1939؛ وذلك لأنَّ نشاطه الدعائي، هو والعلماء، بعث الروح الوطنية في كل الأوساط، وبالخصوص لدى الشبيبة، بما في ذلك تلاميذ المدرسة الفرنسية.

في سنة 1939 فقد "الشباب الجزائري" كلَّ مصداقيته، في نظر الأجيال الصاعدة، بعد أن نفذ صبرُهم بسبب فشل المحاولات التي قاموا بها طيلة عشرين سنة فقد ضاعت منهم مقاليد قيادة الحركة المطلبية باسم الأهالي.

## 3- المسايرة أو الاستقالة: (1934-1954)

تسارعت وتيرة ذلك التطور السياسي بعد الحرب العالمية الثانية فبالرغم من ولاء الأعيان، المنتخبين وشيوخ الأهالي، فإنَّ المطالب الوطنية سرت في صفوف الأهالي؛ ولقد ساعد على ذلك كلٌّ من تأثير الدعاية الألمانية وهزيمة

فرنسا وسياسة حكومة Vichy؛[45] فبعد أن حرمت، هذه الأخيرةُ، اليهودَ الأهالي من حق المواطنة الفرنسية (الممنوحة لهم سنة 1870) تنكّرت لهم ونددت بشتى تدابير الإدماج التي أنجزتها الجمهورية الثالثة.

أما نزول القوات الأنجلو – أمريكية بالجزائر، في 8 نوفمبر 1942، فقد أوهن أواصر الود التي كانت تربط المنتصرين بالمهزومين. ومنذ ذلك التاريخ صار كل شيء ممكنا. بادر فرحات عباس، وعيا منه بفقدان مصداقية الحركة المطلبية في إطار الولاء، بادر إلى جمع كل المُنتَخَبين المسلمين حول "بيان الشعب الجزائري" الذي وافق عليه العلماء والقيادة السرية لحزب الشعب الجزائري؛[46] وأعلن نصُّ البيان عن فشل سياسة الإدماج مؤكّدًا أنَّ "الجزائري المسلم" لن يرضي من اليوم فصاعدا أن يكون شيئا آخر غير "مسلم جزائري". بيد أنَّ ذلك الإجماع الظاهري لم يصمد أمام الرفض الذي جوبه به الجنرال de Gaulle حين أعلن عن سياسة إدماجية جديدة تتجاوز مشروع Viollette؛ فبينما قبِل قسم من المنتَخَبين قرارَ 7 مارس 1944؛ فضَّل فرحات عباس تأسيس جمعية "أحباب البيان والحرية"، بمعية مصالي والشيخ الإبراهيمي (الذي خلف بن باديس)، وذلك "لتبسيط فكرة انبعاث أمة جزائرية وإقامة جمهورية ذات حكم ذاتي، في الجزائر، تكون مرتبطة في شكل فدرالي بالجمهورية الفرنسية ومعادية للاستعمار والإمبريالية". بالرغم من كون ذلك البرنامج أكثرَ اعتدالا من "البيان" فإنَّه لم يُوفَّق في ضم جميع حملَة الشهادات ولكنه جذب إلى صفوفه أغلبية الشبيبة الطلابية. كان حزب الشعب

45. انظر AGERON، "مساهمة في دراسة الأثر الذي أحدثته الدعاية الألمانية في بلدان المغرب، أثناء الحرب العالمية الثانية "مجلة تاريخ بلدان المغرب" (7-8)، 1977، ص. 16-32؛ وكذا " فرحات عباس والتطور السياسي للجزائر المسلمة أثناء الحرب العالمية الثانية" نفس المصدر (4) 1975 ص. 125-144؛ وتاريخ..." م. 2 ص. 547-78.

46. النص موجود عند C. COLLOT و J.R HENRY، (المرجع المذكور) ص. 155-165. انظر AGERON، المقال المذكور و"تاريخ..." م. 2، وكذا GULIEN، المرجع المذكور.

الجزائري، أثناء مرحلة العمل السري، يستعمل "أحباب البيان والحرية" كغطاء لسعيه نحو انتزاع الاستقلال التام عن طريق الانتفاضة؛ ولقد انفجرت هذه الأخيرة، في وقت سابق لأوانه، في 8 ماي 1945 بسطيف وكان من نتائجها تسليطُ أقسى أشكال القمع على الشعب وحلُّ "أحباب البيان والحرية".[47]

إثر ذلك عادت الحركة الوطنية إلى الظهور من جديد، سنة 1946، في شكل أحزاب متنافسة على كسب أصوات الناخبين من الدرجة الثانية ولكنها كانت تدّعي السّعي لتوحيد الصفوف ضد الاستعمار. أسّس فرحات عباس حزبَ "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" الذي كان يضم الكثير من حمَلَة الشهادات المتضامنين مع الرئيس السابق لجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين؛ وكان برنامجه، ذو النزعة الفدرالية، يدعو إلى تأسيس جمهورية جزائرية متمتعة بالحكم الذاتي ضمن الاتحاد الفرنسي وحيث تتعايش كل الجماعات. صادق العلماء على ذلك البرنامج بينما استلهم منه الحزب الشيوعي الجزائري برنامج نشاطه ومطالبه.

أما حزب الشعب الجزائري، الذي استعاد شرعية جديدة تحت اسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، فلم يتخلّ عن برنامجه المتركز حول المطالب الوطنية ولا عن مناهجه الثورية التي شملت كل أساليب الكفاح بما في ذلك التحضير للانتفاضة المسلحة بواسطة المنظمة الخاصة. كان هذا الحزب مزهوا بانضمام الشعب إلى صفوفه وكان ينعت كل منافسيه بأنهم إصلاحيين وخاصة منهم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حزب البرجوازيين وحملة الشهادات، وكان هذا الأخير يردُّ على النزعة "الديماغوجية المغامرة"

47. انظر محمد حربي أصول جبهة التحرير الوطني، أزمة حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديموقراطية. Christian Bourjois، 1975، وكذا جبهة التحرير، بين السراب والواقع، منشورات 1980 Jeune Afrique، Robert ARON أصول حرب الجزائر، JULIEN 1962: Fayard المرجع المذكور؛ AGERON "تاريخ..." ج.2

(الحزب انتصار الحريات الديموقراطية) بالبرهنة على روح المسؤولية التي يكن يتحلى بها.

كانت المنافسة الانتخابية في عهد حكومة Chataigneau (1944-1948 Yves) فرصة لإذكاء الجدل بين الأحزاب؛ غير أنّ التدخل في مسار الانتخابات، من طرف الحكام العامين الذين تلوه، وهم: (1948-1951 Naegelen) و(1951-1955 Léonard) دفعَ أطرافَ الحركة الوطنية إلى التكتل من جديد: وبينما تجذرت الأحزاب الإصلاحية، بعد أن يئست من الشرعية الاستعمارية، ظهر حزبُ انتصار الحريات الديمقراطية وكأنه يولي ظهره للأسلوب الثوري وخصوصا بعد أن نال منه القمعُ؛ فكان هذا الحزب، منذ 1936–1939، يستقطب أعدادا متزايدة من الطلبة والمتخرجين الجُدد الذين تبوأوا في هياكله مناصب قيادية ازدادت أهميتها بمرور الأيام. وفي سنة 1953 أوكل إليهم المؤتمر الثاني للحزب كامل الإشراف على قيادته؛ فوجّه الأمين العام الجديد، الصيدليُ "بن خدة"، نداءً إلى كل الأحزاب وكلّ المنظمات الوطنية لعقد مؤتمر وطني جزائري للتكفُّل بتحضير أرضية مطالب مشتركة؛ ولكن رئيسه، مصالي الحاج، اتّهم اللجنة المركزية بخيانة الطابع الشعبي والثوري للحزب بسبب ميلها إلى انتهاج أساليب "البرجوازية الوطنية" فتسبب ذلك في تمرُّد المناضلين في قاعدة الحزب. وبالرغم من تواجد المثقفين في كلا الطرفين فإنّ "المصاليين" أدانوا "المركزيين" باعتبارهم عُصبة من المثقفين "أدعياء البرجوازية" الذين استولوا على مناصب القيادة بدعوى كفاءتهم. في أثناء ذلك حاولت قوةٌ ثالثة التوفيق بين المواقف المتباينة اجتنابا لتفكك عرى الحزب، وحين فشلت مساعيها لجأت إلى الكفاح المُسلح، بتاريخ 1 نوفمبر 1954، كمحاولة لجمع الشمل من جديد في الميدان.[48]

48. محمد حربي المرجع المذكور

إنَّ تواجد المثقفين في شتى اتجاهات الحركة الوطنية لا يعني أنهم انضموا إليها جميعا؛ فالمُنتَخبون الذين كانت تُرعبهم حتمية المواجهة المرتسمة في الأفق مع فرنسا (أمثال: بن جلول وتامزالي وطالب عبد السلام وكذا الأوساط الاشتراكية والشيوعية) كانوا يتشبثون بالأمل في أن تنتصر سياسة الإدماج الجديدة التي وعد بها الجنرال de Gaulle بل ساهموا في صياغتها داخل لجنة الإصلاحات لصالح المسلمين؛[49] غير أنَّ آمالهم لم تلبث أن خابت بسرعة بعد حلِّ حزب "أحباب البيان والحرية"، سنة 1945، وكانوا يمثلون الفئة الثانية في أول مجلس تأسيسي ولكنهم لم يتمكنوا من اكتساب موافقته على مشروع الإدماج الذي تقدموا به في شكل صياغة جديدة لميثاق المطالب المطروحة، سنة 1936، وفور انعقاد المجلس التأسيسي الثاني، في جوان 1946، انسحب أحباب الدكتور بن جلول تاركين المجال للاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري الذي نجح في ضم الشيوعيين والاشتراكيين إلى أطروحاته. وفي أولى انتخابات تشريعية للجمهورية الرابعة، التي ناقشت القانون الإطار للجزائر سنة 1947، كان جميع الممثلين المسلمين ينتمون إما إلى الاتجاه الفدرالي أو إلى الاتجاه الوطني ورفضوا التصويت على النص الذي تقدمت به الحكومة. وبالرغم من كون المترشحين "المستقلين" تقدموا إلى الانتخابات ببرامج مضادة لأحزاب المعارضة فإنَّهم لم يتمكنوا من هزمها إلا بمساندة تامة من المصالح الإدارية بل وبالتزوير الانتخابي الذي قامت به هذه الأخيرة. لم يعد الشباب الجزائري، في نظر الشعب، يختلف كثيرا عن أولئك الذين يسميهم "بني وي وي". ولم يبق من خيار أمام من صار يتحاشى الترشح تحت الغطاء الرسمي سوى أن يطمح للحصول على الجنسية أو أن يعتزل السياسة وينعزل في برجه العاجي.

---

49. انظر AOM : 30X 1 إلى 4 وكذا المجلدين المطبوعين: 142، 2-1 و961 1-2.

لم يوفّق المتخرجون من الجامعة الفرنسية في إدارة التطور الذي عاشه شعبهم؛ فلقد أكانوا مرغمين إما على الالتحاق بصفوف الحركة الوطنية أو على مقاومتها والتضحية بسمعتهم أو الانسحاب من الميدان بكل بساطة؛ فالذين فضّلوا الخيار الأول نجحوا في الارتقاء إلى بعض المراتب في الساحة السياسية ولكنهم لم يتمكنوا من دفع الشكوك ومشاعر الحذر التي كان الوطنيون الأوائل، المنتمون إلى أوساط شعبية أقل حظوة، يضمرونها ضدهم.

## ج) تطور الحركة الطلابية سياسيًا

تعزّزت صفوف الحركة المطلبية المسلمة بالكثير من الإطارات الجامعية؛ وقد كانت الحركة الطلابية، منذ نشأتها، مدرسةً تدرّب فيها كثير من المناضلين وخطوا بين أحضانها أولى خطواتهم في الحياة العامة. هكذا نلاحظ أن أولى مكاتب جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين كانت حينئذ مجرّد تنظيمات ذات طابع وُدّيٍ انخرط فيها عددٌ كبير من أولئك الذين سعوا، بعد سنة 1930، لبعث حركة الشاب الجزائري أمثال: الدكاترة الخضري وجيلالي وبن ثامي وبومالي وبن سالم وسعدان وبشير عبد الوهاب والمحامين الذين نذكر منهم: مصطفاي والهادي وبن باحمد وأكلي زناتي وكذا الصحافيين أمثال: عزيز كسوس وعمار ناروم ونشير أخيرا إلى أشهرهم جميعا وهو الصيدلي فرحات عباس الذي ظل، لمدة طويلة، يؤدي دور الرجل الحكيم الموجه للخلف. ثمّ تطورت الحركة الطلابية، بعد ذلك، فاتخذت طابعا سياسيا ما فتئ يتبلور مع تبلور الحركة السياسية. ومع حلول سنة 1943 تحوّلت حركة الطلبة إلي ممارسة النشاط السياسي بالرغم من اقتصار ذلك الانضمام على الجمعيات الأهم وهي: جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وجمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين.

## 1- نشأة الحركة الطلابية (1908-1930).

إنَّ تأسيس حركة طلابية مسلمة مُتميِّزة عن أختها الكبرى، الحركة الطلابية الفرنسية، قد يبدو وكأنه تعبيرٌ عن رغبة انفصالية كامنة. ولكن سير الأحداث وتعاقبها يقدم لنا الأدلة الكافية على خطأ ذلك التأويل؛ والواقع أنّ حتمية الأمور هي التي أرغمت الطلبة المسلمين الجزائريين على تنظيم شؤونهم فيما بينهم.

إنّ نشأة جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وعلاقاتها الشديدة التنوع مع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين تقدم لنا أفضلَ الأدلة في ذلك الصدد. ذلك أنّه بعد مرور ثلاث سنوات فقط على تأسيس المدارس العليا أُنشئت "مؤسسة طلبة مدينة الجزائر" (1883) ثمّ أصبحت تسمى الجمعية العامة للطلبة الجزائريين وكانت من أوائل الجمعيات العامة في فرنسا. كانت تلك الجمعية، في بداية أمرها، تبدو وكأنما يُحرِّكُها فكرٌ متحرر من التعصُّب لا يُمانع في انضمام الطلبة الفرنسيين إلى صفوفها مهما كانت أصولهم الاجتماعية. وبالفعل نلاحظ أن أحد الأهالي، واسمه علي بوضرية (من أبناء إحدى العائلات المتجنّسة المعروفة)، كان منذ سنة 1889 عضوا في صفوف الوفد الذي مثَّل مدينة الجزائر في المؤتمر الطلابي العالمي في باريس بمناسبة المعرض الدولي.

لم تستمر الأمور على ذلك النحو طويلا ففي سنة 1893 طرأ تغيير في القانون الأساسي للجمعية أصبح يقضي بضرورة انتخاب الأعضاء الجدد أو توليهم فكان من نتائجه فسحُ المجال أمام الإقصاء العرقي ولقد استُغلّت تلك الترتيباتُ الجديدة لإبعاد الطلبة اليهود من عضوية الجمعية العامة. وبعد ذلك، أي في شهر جانفي سنة 1898، لبّى طلبة مدينة الجزائر نداءَ طالب الحقوق Max Régis [50] الداعي إلى تنظيم مظاهرة معادية لليهود انتهت

50. AGERON، اطروحة. ص. 595، وتاريخ ج. 2. ص. 63

بحراك جماعي. ولا نعرف كيف كان موقف الأقلية القليلة من الطلبة المسلمين أثناء هذه الصفحة المأساوية.[51]

يبدو أنهم عبّروا عن وجودهم إ سنة 1908 لأول مرة. عقدَ الاتحادُ الوطني لجمعيات طلبة فرنسا، الذي تأسّس سنة 1906، مؤتمرَه الثاني في مدينة الجزائر؛ وتضمّن جدول الأعمال بحث مسألتين اثنتين هما: تعليم الأهالي وتحويلُ المدارس العليا إلى جامعة. بخصوص النقطة الأولى عارض الطلبة المسلمون وجهة نظر الجمعية العامة للطلبة الجزائريين وتمكنوا من انتزاع موافقة الجمعية الأم على رأيهم: "قدَّم أحدُ طلبة الحقوق وهو "طالب عبد السلام" تقريرا يدعو إلى نشر التعليم بين بني عمومته المسلمين وتحصل على تأييد المؤتمرين رغم معارضة الطلبة الفرنسيين في الجزائر".[52] وبالفعل فقد ساهم هؤلاء في الهجمات المتتالية ضد تعليم الأهالي وطالبوا بأن يُخصّص لهم "تعليمٌ مهني لا غير"؛ وبعد سنة "تمكّن الطلبة الفرنسيون من الثأر لأنفسهم" وذلك بالتظاهر ضد الإعفاءات الممنوحة للأهالي غير الحائزين على شهادة البكلوريا للالتحاق بمدارس الحقوق والطب. ولقد ساندهم في ذلك الموقف عددٌ كبير من الأطباء ورجال القانون فتمكنوا من انتزاع قرارٍ يلغي إعفاء الأهالي من الحصول على شهادة البكلوريا كشرط للالتحاق بكلية الجزائر وهو تدبيرٌ تمَّ اتخاذُه قبل أن يتم تطبيقه في فرنسا. هذا التدبير، المُنصفُ ظاهريا، كان لفائدة الطلبة المسلمين أكثر من غيرهم لأنَّ أغلبهم كانوا "مدرسيين" ومعلمين لا يحملون الشهادة. للتذكير فإنَّ الأهالي غير المتجنسين، ومهما كانت الألقاب التي

---

51 - عنوين الجمعية العامة للطلبة الجزائريين".(1923-1924) لا تذكر في صفحاتها التاريخية ولو اسم سنوات 1896-1897 و1897-1898. فهي ترجع نشأة الجمعية العامة إلى سنة 1885، وتلك غلطة تمت تصحيحها صحيفة (22) Alger étudiants 2-2-1924

52 - AGERON، أطروحة. ص. 941، و ص. 1038-1039.

تحصلوا عليها، مقصيون من ممارسة وظيفة العدالة وذلك بدافع "الاحتياط"؛ فكان للأهالي دوافع كثيرةٌ للتشكّي من عدم تفهُّم "رفاقهم" الأوروبيين. ولهذا السبب يمكن القول بأنَّ الطلبة المسلمين، في مدينة الجزائر، كانوا واعين بأنَّهم مجموعة متضامنة ذات مصالح مشتركة لا تنفصل عن مصالح أهليهم ومتميّزة عن مصالح بقية الطلبة.

هل كان الطلبة المسلمون مقبولين من طرف الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؟ وهل كانوا يطلبون الانضمام إليها؟ نحن نجهل ذلك.[53] هل كانوا آنئذ منتظمين في حياة جمعوية؟ يمكن أن نلاحظ ما يشبه الانتظام الجمعوي بالنظر إلى جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية (تأسّست سنة 1919) والجمعيات الوديّة للتعاون والتربية الاجتماعية التي كانت تجمع الشباب الجزائريين؛[54] ومن أهمها، في مدينة الجزائر، الراشدية (تأسست سنة 1902) والتوفيقية (تأسست سنة 1908 وأعيد تنظيمها سنة 1911 وكانت تضم 7 طلبة من بين 12 عضوا في المجلس الإداري).

يمكن أن يكون الطلبة المسلمون الجزائريون قد وجدوا إذن نقط التفاهم بينهم خارج إطار الجمعية العامة للطلبة الجزائريين أي داخل تلك الجمعيات المخصّصة للنشاط الاجتماعي والثقافي الذي كان تنظيما طلابيا متميزا. ولكنهم كانوا ينشطون بصورة جماعية، بعد سنة 1914، حين وجّهوا برقية شكر للمدافع الكبير عن الأهالي، النائب في البرلمان Albin Rosette وذلك بمناسبة إعادة انتخابه.[55]

---

53. حسب J.MELIA " الإقدام" (19)، 1919-7-26، " قبل الحرب فإن الطلبة الأهالي كانوا مقبولين في الجمعية العامة حين يستوفون الشروط المطلوبة". لكن عبد القادر سفير (المساواة، (67)، 1947-3-6) أكد بأن القوانين الأساسية للجمعية العامة كانت تقصي المسلمين قبل 1914. ومع ذلك، يجب تحديد نوعية "المسلمين" (هل تشمل المتجنسين أو لا ؟).

54. AGERON، أطروحة، ص. 1033-1034 وميني، أطروحة ص. 217

55. "الإقدام" (194)، 1914-5-16.

لم يكن للحرب العالمية الأولى تأثير ماعدا مضاعفة حالة التوتر نظرا لكون الأهالي أقلّ عرضة للتجنيد من المواطنين الفرنسيين؛ فارتفع عددهم في جامعة الجزائر من 30 طالبا (سنة 1914-1915) إلى61 طالبا (سنة 1916-1917) وارتفعت نسبتهم في العدد الإجمالي للطلبة إلى 12,7 ٪.[56] طرحت ودادية الطلبة مسألة الإعفاء من البكلوريا، من جديد، حين شكّلت لجنةً للاحتجاج "ضد التعسّف" في فترة الحرب (سنة 1917) (تم التنديد به للمرة الأخيرة سنة 1923)[57].

بلغت سياسةُ إقصاء الطلبة المسلمين، من طرف الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، أوجَ عنفها خلال السنة الدراسية 1918-1919؛ إثر انتخاب مكتب جديد للجمعية بكيفية غير مشروعة من طرف طلبة جدد تم تسجيلهم من غير مراعاة لتدابير القوانين الأساسية. بادر هذا المكتب، في جانفي 1919، إلى إنشاء عضوية خاصة بالطلبة المسلمين سميت "الأعضاء المتخرطين" كان يُسمح لهم، بموجبها، دفعُ الاشتراكات؛ ولكن من غير امتلاك حق التصويت. تمثّل ردُّ الطلبة الأهالي على ذلك في إنشاء ودادية خاصة بهم هي ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، في 16 مارس 1919. تمادت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين في تنفيذ المنهج الذي رسمته؛ فأقصت حوالي ثلاثين طالبا من صفوفها، أغلبهم من قدماء المحاربين ومن الضبّاط أو حاملي الأوسمة، وذنبُهم حينذاك أنهم يهود.

أسّس المقصون اتحادا عاما لطلاب الجزائر كانت العضوية فيه مفتوحة للجميع؛ فتدخلت الحكومة العامة لوضع حد لتلك الفضائح. تأسست لجنةُ التحكيم بقيادة أمينها العام Pierre Bordes فدعت المنظمتين إلى الاتحاد بينهما من منطلق الضرورة الوطنية.

56. أطروحة MEYNIER، ص. 522.

57. الجزائر الطلابي (13) 21-4-1923

كان لزاما على الجمعية العامة تغيير التدابير الواردة في قانونها الأساسي؛ تلك التدابيرُ التي تخوّل لها الحق في حرمان بعض الطلاب من الانخراط؛ وتقرّر "أنّ الطلبة الأهالي يملكون حق الانتخاب والترشّح، كبقية الطلبة الفرنسيين" كما أكّدت القوانين الأساسية أنّ "أعضاء المكتب يجب أن يبلغوا سن الرُّشد وأن يكونوا مواطنين فرنسيين".[58]

كانت الأحكام التي أطلقت على الطلبة المسلمين في مدينة الجزائر، بعد سنة 1920، والتي وصفتهم بالوطنيين وبالشيوعيين باطلةً ولا أساس لها من الصحة؛[59] وعلى العكس تماما فإنّ الرئيسين الأولين لودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا: بلقاسم بن حبيلس ومهدي صالح، المتجنسين، كان لكليهما مسارٌ مهني رائع في مجال القضاء الفرنسي. وهناك مسيرون آخرون أمثال: الدكتور سعدان وبشير عبد الوهاب وفرحات عباس الذين أكّدوا كونهم في آن واحد فرنسيين ومسلمين بكلّ ما تحمل تلك الصفّة من دلالات. ولقد أثبتت بقية الوقائع التي عاشتها ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا صدقهم وإخلاصهم.

حدث في سنة 1921–1922 أن اندهش نائب رئيس الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، Armand Prat-Espouey، لعدو وجود طلبة مسلمين في صفوف الجمعية؛ فشكّل لجنةً للتحقيق ساءلت، في 22 جانفي 1922، رئيس الودادية عليوة مدني، ليُطلعها على سبب ذلك؛ فبعد أن عدلّت الجمعيةُ العامة المنعقدة في 15 فيفري النقاط التي كانت محل نزاع، في قانونها الأساسي

58. الإقدام، (6)، 12-4-1919، وكذا مقال J. MELIA في (17) 12-7-1919 و (19)، 26-7-1919. انظر سفير المقال المذكور.

59. أنظر "رسالة مدينة الجزائر" في صحيفة العمل الفرنسي، لتاريخ 17-1-1920، والذي تنسبه الإقدام (رقم 36، 5-3-1920) إلى بن ثامي وإلى صوالح؛ ثم حادثة مدينة "جاماب" والتي ضخمتها يومية L'Echo d'Alger في سبتمبر 1926، والتي فندها عباس في (الشاب الجزائري ص. 43).

صار "كلُّ الفرنسيين"، بما فيهم المواطنون أو غيرهم، يملكون حق الترشح لعضوية مكتب الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؛ وبعد 31 مارس سُجل انخراط 3 من الطلبة الأهالي.

بقيت مسألة العلاقات بين الجمعية العامة القديمة والودادية الحديثة عالقة. في سنة 1922 اجتهد الرئيسان Armand Prat-Espouey وعليوة مدني لإيجاد سبل انصهار المنظمتين في بوتقة واحدة ولكن جهودهما لم تفلح بسبب الخلاف حول عضوية "المدرسيين" المقبولين في صفوف الودادية بدون حصولهم على شهادة البكلوريا. وفي السنة الموالية سمح "تعديل عام في الودادية" بتجديد مبادرة Armand Prat-Espouey ونظيره بوهريد إدريس. ولقد سمحت الزيارة التي قام بها مكتب الاتحاد الوطني، في مارس 1924، والتي استُقبلت بحفاوة من طرف الجمعية العامة ومن طرف الودادية سمحت بالإسراع في إيجاد الحل؛ فبادر 38 طالبا مسلما، من بين 48، بتسجيل أنفسهم بصفة فردية لعضوية الجمعية العامة. وبعد أن دعوا إلى "تمتين علاقاتهم مع رفقائهم الفرنسيين" تم قبولهم جماعيا خلال المؤتمر الثالث للاتحاد الوطني المجتمع بباريس، في جويلية 1924، بشرط أن تنتسب الودادية إلى الجمعية العامة في مدينة الجزائر.

أبرم رئيسا المنظمتين، لسنة 1924-1925، وهما: Paul Saurin وحسين صديقي اتفاق الانضواء في 1 مارس 1925. وهكذا "تبدّد سوء التفاهم الذي كان من الممكن أن يؤدي إلى عواقب مؤسفة" والذي كان لفترة "سببا في انقسام الشبيبة المثقفة لهذا البلد والحال أنّ اتحاد الجميع كان ضروريا جدا لتكريس عظمة فرنسا".[60]

كانت ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، لمدة عشر سنوات (من سنة 1925 إلى سنة 1935)، فرعا من الجمعية العامة للطلبة الجزائريين وكان

60 Alger étudiant, (26) 29-3-1924 إلى (41) 28-3-1925

الطلبة المسلمون ينخرطون في الجمعية العامة إما بواسطة وداديتهم أو بصفة مباشرة إن رغبوا في ذلك. ولقد برهنت الجمعية العامة، من جهتها، عن حسن نواياها بالموافقة على عضوية الطلبة (غير الحائزين على شهادة البكلوريا) المتخرجين من القسم الأعلى لمدرسة الجزائر؛ بالرغم من أنّ ذلك التعايش السلمي الطويل لم يكن مثاليا بصورة مستمرّة؛ والواقع أنّ يتصفح صحيفة Alger étudiants الناطقة باسم الجمعية العامة للطلبة الجزائريين يتمكن من التمييزُ بين فترتين اثنتين.

تضاعفت مؤشرات التعاون النشيط في جو من الصداقة الصريحة والنية الحسنة المتبادلة خلال الخمس سنوات الأولى؛ فلقد ظهرت عدّةُ مقالات حرَّرها بعض الأهالي أمثال: عزيز كسوس وسعد الدين بن شنب، وكانت فيها أصداء عن الحياة الطلابية المسلمة وعن وداديتهم وشتى القضايا المتعلقة بمساهمتهم في الهيئات المسيرة للجمعية العامة وفي لجانها المختصة. عرضَ ممثلو الجمعية العامة للطلبة الجزائريين تظلمات نظرائهم الطلبة الأهالي، وخصوصا ما تعلّق بوضعيتهم تجاه الخدمة العسكرية، وقدَّموها إلى هيئات المؤتمر الوطني لطلبة فرنسا وإلى السلطات العمومية مباشرة؛ ولقد أثمرت مساعيهم المشتركة بالحصول على المساواة بين الطلبة كلِّهم في مسألة الإرجاء بموجب قرار صدر في 7 سبتمبر 1926؛ كما طالبوا (من سنة 1929 إلى 1935) بالمنح وبإنشاء جناح خاص في الحي الجامعي بباريس لتمكين الطلبة المسلمين من استكمال تكوينهم في فرنسا. استفاد هؤلاء من النشاط العام للجمعية فتحصلوا على حق استعمال مقرِّها المتواضع (اتخذوه، سنة 1929، مقرّا لوداديتهم) وانضموا للمشاركة في مشاريعها الرامية إلى إنشاء دار الطلبة (تم بناؤها من سنة 1929 إلى 1934) والحي الجامعي وأكدوا عن توافق المشاعر المتبادلة مع زملائهم الفرنسيين.

كان المؤتمر العاشر للاتحاد العام لطلبة فرنسا، المنعقد في الجزائر من 6 إلى 15 أفريل 1930، قد احتفل في جو من الحماس بروح الصداقة السائدة بين "طلبة الفرنسيين بقطع النظر عن أصولهم في الأرض الجزائرية. ترأس Paul Sa، وهو خليفة Prat-Espouey، الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات (192-1927) وترأس كذلك الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا منذ أفريل 1928؛ وعندما أُعيدَ انتخابُه، لعهدة ثالثة، بادر تحت تصفيقات الحاضرين بتعيين نائبين للرئيس وهما عضوان قياديان أحدهما Louis Bartibas، ممثلا الجمعية العامة، وثانيهما فرحات عباس، ممثلا للودادية. وفي أوت 1930 كان نفس الشخص، أي فرحات عباس، عضوا في الوفد الفرنسي الذي شارك في المؤتمر الثاني عشر "للاتحادية الدولية للطلبة"، والمنعقد في بروكسيل، برئاسة Paul Saurin نفسه.

غادر هذا الأخير رئاسة الاتحاد، أثناء مؤتمر أفريل 1931، بينما بقي فرحات عباس نائبا له وبلغت مسألة إدماج الطلبة المسلمين الجزائريين، في الحركة الطلابية الفرنسية، أوجها.[61]

سار الطلبة الجزائريون في فرنسا في نفس الاتجاه إلى غاية 1930 على . الواقع أنَّ بداياتهم في السنوات الأولى ليست معروفة بشكل جيد وسبب ذلك هو عددُهم المحدود جدا والذي لم يكن يسمح لهم بتنظيم أنفسهم بكيفية مستقلة؛ وإنَّ أقدم المعلومات، المتوفرة لدينا، هي المتعلقة بطلبة باريس الذين كانوا قبل سنة 1914 يرفضون، على ما يبدو، المشاركة في مؤتمر الطلاب العرب بدعوى أنهم يحملون الجنسية الفرنسية[62] ولكنهم حضروا. منذ سنة 1927، مع رفاقهم التونسيين والمغاربة في أشغال الجمعية

---

Alger étudiants، 12-5-1930؛ (114) نوفمبر 1930. أنظر "Robert VINCENT جزائر

لعــالين" الجزائر، 1959.

شهادة أدلى بها جمال مردام، ذكرها عمار نرون.

العامة لطلبة باريس. وعلى ما يبدو فإنَّ هذه الأخيرة لم تمكِّن الطلبة الشمال إفريقيين من ممارسة النشاط في إطار ملائم؛ ونظرا للمرامي السياسية التي كانت تدفع نشاطاتها في اتجاه "الحركة الفرنسية" فإنها لم تكن تمثل حقا الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا. ذلك هو سبب إقصائها من الاتحاد، سنة 1930، وظهور الحركة الانفصالية بين صفوفه، سنة 1932، قبل أن يتفكك شملها، سنة 1934.[63] أما بعد سنتي 1927–1928 فقد أسَّس الطلبة التونسيون مع رفاقهم الجزائريين والمغاربة جمعية خاصة بهم وهي جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا (باختصار: ج ط م ش إ). قامت لجنة مؤقتة، في أكتوبر 1927، بإعداد قوانينها الأساسية وتمّت المصادقة عليها من طرف الجمعية العامة في 15 ديسمبر وعلى القوانين الأساسية النهائية وكذا التنظيم الداخلي في 20 ماي 1928.[64]

لم تلبث السلطات الاستعمارية أن اتهمت تلك الجمعية بأنَّها فرع لحزب نجم شمال إفريقيا أو الحزب الشيوعي الذي يحتضن عضوية مؤسسيها الأساسيين الثلاثة وهم: التونسيان سالم الشاذلي وأحمد بن ميلاد والجزائري أحمد كسوس؛[65] ومع ذلك أو ربما بسبب ذلك؟ حدّدت لنفسها أهدافا اجتماعية للتضامن والتعاون. كتب رئيسها طاهر زاوش (1928–1929) في الصحيفة السنوية لـ"ج ط م ش إ" قائلا: شعارنا هو الاتحاد والتضامن والتعاون؛ وتلك المجالات هي حقل نشاطنا". وشرح الرئيس

---

63. (130) Alger étudiants 1932-4-14إلى (161) 6-5-1933 ثم أصول النشاط النقابي الطلابي منذ 1945 ص 15

64. الصحيفة السنوية 1928-1929 لاتحاد الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا، وكذا أحمد بن ميلاد. مقال في "تونس الجديدة" 23-2-1928 و "منبر الأهالي الجزائري" (7) 28-4-1928

65. AOM 14H41، طلبة مسلمون جزائريون في الخارج (رسالة P. BORDES إلى (الحاكم) المقيم العام بتونس) انظر : تقارير مصالح AINA لباريس حول ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين أرشيف محافظة شرطة ASS 867-6 ثم AOM وهران 5-1-53. نلاحظ بأن تسمية الرئيس الأول، سالم بن الشاذلي، قد تغيرت بكيفية غير مفهومة لتصبح: الشاذلي خير الله، ابتداء من 16-4- .1935

السابق، طاهر اصفر، أنَّ انتماء الطلبة الشمال إفريقيين إلى ثلاث دول متميزة لا يمنع تشكيل "تجمُّع تعاضدي موحَّد"؛ "ونظرا لرغبته في العيش خارج الميدان السياسي فإنَّه لا يعير كبير أهمية للفوارق السياسية". بذلك التصور كانت "ج ط م ش إ" تعارض تصرف الجمعية العامة (الباريسية) وتتبنى إيديولوجية الوحدة الوطنية. ولكنها كانت، خلافا لهذه الأخيرة، تضم نوعيةً محدودة من الطلبة ذات مواصفات ومقاييس دينية؛ وكانت تتبرأ من تهمة الانتماء الطائفي الموجهة إليها. الواقع أنَّه كان لتلك المقاييس مدلولٌ وطني مثلما تبينه قضية المتجنسين وهي الحجة والدليل الذي سوف يدحض (سنة 1930) شعارَ عدم الانتماء السياسي للجمعية.

صوَّتت الجمعية العامة ل "ج ط م ش إ" المجتمعة في 28 فيفري 1930، وبمبادرة من أمينها العام المغربي أحمد بلفريج، على إقصاء الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين الحاملين للجنسية الفرنسية. إنَّ سبب تلك التدابير، حسب صاحب المبادرة نفسه، ليست سياسية فليس من قبيل الإنصاف أن يستفيد بعض الطلبة من تسهيلات الجمعية وهم يتمتعون، في ذات الوقت، بالامتيازات الممنوحة لهم بموجب جنسيتهم الفرنسية؛ كما أنَّ "ج ط م ش إ"، هي قبل كل شيء، جمعيةٌ إسلامية والحال "أنَّ المتجنس يتجرَّد من إسلاميته بحكم تنازله عن قوانيننا. إنَّ ديننا ليس مجرد نطق بالشهادتين فحسب بل هو أيضا إيديولوجية مجتمعية؛ فلا يكفي إذن أن يحتفظ المتجنس بعقيدته لكي يبقى مسلما كاملا إذا تخلى، بمحض إرادته، عن القوانين الخاصة بالإسلام".[66] إنَّ تعريف الإسلام كظاهرة اجتماعية

---

66. بيان "ج. ط. م ش إ" ورد فعل سلطات المحمية في AOM 14H41. تعليق مساند "للشهاب" أفريل 1930. ذكره أحمد مراد المرجع المذكور ص. 194 تعليق مضاد Jean Pomier، ذكره الجزائر الطلابي (122). 15-4-1931 و Robert RANDAU وعبد القادر فكري: "رفقاء الحديقة" باريس 1933. ص. [illegible] إلى 139.

دينية قد فتح طريق الممارسة السياسية أمام "ج. ط. م. ش. إ." مع الأحزاب الوطنية الشمال إفريقية فشاركت إثر ذلك في مناهضة مؤتمر القربان المقدس في قرطاج وضد الظهير الخاص بالبربر (في المغرب).

رفض معظمُ الجزائريين ذلك القرار باعتبار أنَّ "التجنيس" ليس له، في الجزائر، نفس المفهوم المتداول في البلدان المجاورة ولأن جنسية الأهلي، الذي صار مواطنًا، لا تتضرر بتغيير قانون أحواله الشخصية؛ فأسسوا إذن تنظيما خاصا بهم هو: "جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين في فرنسا" (باختصار: ج. ط. م. ج. ف.) أو (ج. ط. م. ج.) حيث شغل المسيحيُ، عمَّار نروم، منصبَ نائب الرئيس ثم الرئيس في السنة الموالية.[67] أعلنت هذه المنظمة عن توجّهاتها، بكل وضوح، حين انتخبت Maurice Viollette رئيسا شرفيا لها. وفي أثناء ذلك دافع الطلبة الجزائريون عن حنفي لهمك الذي أثار غضب العلماء بسبب تأليفه كتابا معاديا للإسلام ومناديا بتحقيق الاندماج؛[68] وكان الطلبة يتعايشون مع زملائهم الفرنسيين، ذوي الأصل الجزائري، وانضموا إليهم في "جمعية فرنسية للطلبة الشمال إفريقيين" المفتوحة للجميع بدون تمييز عرقي أو ديني؛[69] كما وافقوا أيضا على المشاركة في إنشاء "النادي الفكري المتوسطي" من طرف بلدية باريس والموجه لاستقبال كل الطلبة القادمين من شمال إفريقيا.

كان الطلبة الجزائريون، في واقع الأمر، سواء في باريس أو في الجزائر مصرِّين على إبقاء حركتهم في إطار السلطة الفرنسية التي لا جدال فيها:

67. "صوت الأهالي (61)، 1930-7-31، (63) 1930-8-14(99) 1931-4-30

68. حسني لحمق "رسائل جزائرية" تقديم Maurice Viollette، باريس 1931 أنظر نقد الأمين لعموديه "الإقدام" (10) 15-9-1931، ثم رد عمار نرون، المسجل من طرف المثقفين الجزائريين في باريس، "صوب الأهالي" (125) 29-10-1931.

69. انظر " RANDAU و فكري : المرجع المذكور ص 139: الجزائر الطلابي، (148) 1933-1-14؛ ثم شهادات عمار نرون وJaques BERQUE .

ويمكن استشفافُ مدى الصدق أو التمويه في هذه العبارات التي تفوّه بها فرحات عباس قائلا: "لا تزال مشاعر الطلبة المسلمين، اليوم، كما كانت عليه بالأمس وستكون عليه غدا أي نفس المشاعر التي يحملها رفاقهم الفرنسيون. نحن نعتقد بأننا قد بينا وجهة أهدافنا المثالية وهي: العمل في نظام تحت إشراف فرنسا الكبيرة لنرفع مستوى مجتمعنا فلنترك قوانين التطور تعمل عملها".[70]

## 2- تسييس الحركة الطلابية (1931-1942)

أخذت الحركة الطلابية المسلمة الجزائرية، منذ سنة 1931، تبتعد عن نظيرتها الفرنسية وذلك بالتأكيد على ذاتيتها وبتوسيع مجال نشاطها؛ ولقد ظهرت أولى بوادر ذلك التطور في مدينة الجزائر.

فلقد وردت، بالفعل، في صحيفة Alger étudiants منذ 1931 مقالات معادية للجمعيات المؤسسة على أساس ديني؛ ولقد كتب مديرها، Malaterre P.، ما يلي: "لا يمكن أن نكون طلبة كاثوليكيين إلا إذا درسنا في الأديرة ولا يمكن أن نكون طلبة بروتستانتيين أو يهودا أو مسلمين".. وإذا لم يكن الطلبة المسلمون وحدهم المعنيين بهذا اللوم فلقد أُفرِد لهم خطاب خاص: "نحن طلبةٌ فرنسيون وإننا نحاول استيعاب الثقافة الفرنسية و يندرج تحت هذا النعت، طبعا، جميع المواطنين والرعايا الفرنسيين. وفي مستطاع هؤلاء أن يصبحوا إخوانًا لنا بصورة كاملة(...). إنّ أساتذتنا يتوجهون إليكم أيها الطلبة الأهالي وإنّ الجهود التي يبذلونها تُقرّبكم كل يوم أكثر من القضية العربية. ساعدوا أنفسكم بأنفسكم وسوف نساعدكم بدورنا، نحن أبناء فرنسا الكبيرة، (...).فأنتم إخوانٌ لنا بكل معنى الكلمة ولسنا بحاجة إلى معرفة ما إذا كنتم مسلمين أم لا؛ بل يكفينا أن نعلم أن ثقافتكم فرنسية".[71]

---

70. Alger étudiants (92) 10-2-1929.
71. Alger étudiants (119) 6-3-1931.

يقترح هذا الخطاب صراحة على قادة و. ط. م. إ. ش. أن يتطوّعوا بحلّ وداديتهم داخل الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؛ والحال أنّ أولئك القادة لم يكونوا منشغلين بذلك الأمر لأنهم بادروا، في ذلك الوقت بالذات، بتحويل الودادية إلى جمعية (أو هم في مرحلة تعديل قانونها الأساسي[72]) وذلك أمر يضع الودادية، من الناحية القانونية، في نفس المرتبة مع الجمعية العامة. أبدت صحيفة Alger étudiants لعدة سنوات اشمئزازا من استعمال تلك التسمية بدل "الودادية".

لم يفهم الطلبة الفرنسيون الأسباب الذي دفعت رفقاءهم المسلمين إلى رفض الانضمام إلى الجمعية العامة بعد أن أبدوا رغبة كبيرة في التقارب ولقد طرح هذا الموضوع، بوضوح أكثر، سنة 1931-1932 وبالتحديد بعد أن أنشأت الجمعية الجديدة مجلة "التلميذ"، الناطقة باسمها، فبعد فترة قصيرة من ترحيب المدير الجديد لصحيفة Alger étudiants، وهو السيد Brunel Jaques، "بتلك الجمعية الشابة" لم يلبث أن حاكمها محاكمة منتظمة وحسب زعمه فإن مجلّة "التلميذ" صارت تسئ إلى وحدة الجمعية العامة بسبب تبنّيها الصيغة التي تخلّت عنها Alger étudiants، عن طواعية، وأيضا بسبب استحواذها على قسم من الإشهار و بالأخص حين بدّدت الجهود بينما كان الطلبة كلهم يسعون لتحقيق هدف مشترك. والأخطر من كل ذلك هو المجازفة بإحياء بعض "الضغائن" وذلك بتشكيل "عصبة منعزلة" ودخول المغامرة السياسية خلافا لما تنص عليه تدابير القانون الأساسي للجمعية العامة للطلبة الجزائريين.

اقترح Jaques Brunel حلّ مجلة "التلميذ" ودمجَها في شكل "صفحات خاصة" في ثنايا صحيفة Alger étudiants فقال: "إن الفائدة المرجوّة هي

72. أنظر علي مراد، الكاتب العام ل و، ط، م، إ، ش، في "رباط الطالب المسلم" (3) الفصل 3 1954

73. Alger étudiants (124)24-12-1931 et (125) 7-1-1932

يدرك الجمهور بأنّ هناك غاية واحدة يصبو إليها الطلبة وأنّ الأجناس والديانات تذوب في حضن الجمعية العامة وبأنه لا يوجد بالنسبة إلينا ما يسمى الطالب المسلم أو الطالب المسيحي أو اليهودي أو المفكر الحرّ وإنما يوجد فقط فرنسيون". ويحمل نفسُ العدد كذلك مقالا بقلم Desportes يتحامل بشدة ضد من يسميهم "بعض المتعصبين وبعض الطائفيين" أي الطلبة الذي انفصلوا عنا كي يتجمعوا تحت تسميات عرقية أو ثقافية أو دينية".

بعد بضعة أسابيع نشرت Alger étudiants ردّا شديد اللهجة بلسان فرحات عباس،[74] الرئيس الشرفي لودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وصاحب قوانينها الأساسية الجديدة، استهلّه بنفي تهمة الممارسة السياسية قائلا: "مجلّة التلميذ ليست خارجة عن الميدان الطلابي حين تحاول إعلام الجمهور المسلم الذي يساندها". ثم قام بطرح واضح ورصين لأصل الموضوع فقال: "إنّ الغلطة التي ارتكبها الطلبة المسلمون لا تتمثل في إصدارهم صحيفة دورية وإنما تتمثل في تأسيس جمعيتهم أصلا"؛ ثم قام، بدقة وذكاء، باسترجاع الجانب المكتوم من ماضي الجمعية العامة متسائلا: "متى ولماذا أنشأ الطلبة المسلمون جمعيتهم الودادية؟ كان ذلك سنة 1918 في الوقت الذي أوصدت الجمعية العامة كل الأبواب في وجوههم؛ فبعد أن عوّلوا عن العائلة الكبيرة جمع الطلبة المسلمون أمرهم؛ وذلك حقٌّ من حقوقهم بل واجب من واجباتهم. "إنّ عودة الجمعية العامة إلى أوضاع أحسن لا يسمح لها أن تنافس أية جمعية أخرى حقها في الوجود "أضيف القول بأن الجمعية العامة صارت، منذ سنة 1924، بمثابة الدار الكبيرة المشتركة التي يجد فيها كلٌّ منا مكانه دون تمييز جنسي أو ديني. أوافق على هذا وأنا جد مسرور ولكن لا يحق لأي كان أن يؤاخذنا على العواطف التي لا نزال نكنّها تجاه الكوخ القديم الذي ضمّنا وقت الشدة ولا على العمل من أجل تثبيت

74. نفس المصدر، (130)، 1932-2-18.

أركانه". هكذا أكّد فرحات عباس، بأسلوب فصيح، مشروعية حق المسلمين في أن يحتفظوا بذاتيتهم.

عقب ذلك الجدل الأول اتضح أن الجمعية العامة كانت تضمر شكوكا مفادها أن الودادية ترمي إلى تحقيق هدف مغاير لهدفها والأمر الأدهى من ذلك هو كونها تسعى لتحقيق هدف سياسي في الوقت الذي تدّعي فيه ابتعادها عن السياسية وأنها بالتحديد. كان الاتهام خطيرا وهو بمثابة شتيمة في نظر الطلبة المسلمين.

لم تحدث القطيعة، رغم ذلك، فلقد تدخّل Paul Robert، رئيس الجمعية العامة، لحلّ الأزمة.[75] تضمّنت المدوّنة السنوية للجمعية، الصادرة في فيفري 1932، مقالات بقلم عباس وخلفه زاوش استعرضا فيها الحالة الراهنة للعلاقات بين الجمعيتين؛[76] ولكن عرى تلك العلاقات أصبحت، منذ ذلك التاريخ، واهنة بشكل ظاهر للعيان.

ما دامت مجلّة "التلميذ" موجود فإن صحيفة Alger étudiants لم تنشر سوى القليل النادر من الأخبار المتعلقة بنشاطات الودادية؛ بل صارت هذه الأخيرة تتصرف باعتبارها جمعية مستقلة أو، بعبارة أصحّ، صارت تنتمي إلى مجموعتين لا تقلّ إحداهما عن الأخرى أهمية في نظرها: فلقد احتفظت بعضويتها في الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، بفضل علاقتها مع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، ومن جهة أخرى كانت تنتمي إلى حركة ناشئة لطلبة شمال إفريقيا الذين صاروا، من سنة 1931 إلى 1935، يعقدون مؤتمرا سنويا (على غرار الاتحاد العام لطلبة فرنسا). وبهذا الانتماء الجديد تجاوزت الودادية الإطار الذي ظلّ حكرا، حتى ذلك الحين، للحركة الطلابية الفرنسية.

75. التلميذ (3) جانفي 1932.

76. عناوين الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، والصحيفة الجامعية الجزائرية، فيفري 1932. انظر أيضا Alger étudiants(126)، (129) و (131) (141-42) و 25-2-1932.

كانت تلك المؤتمرات تضم الطلبة المسلمين من البلدان المغاربية الثلاثة في الجامعات الفرنسية و أيضا في الجامعات العربية التقليدية في تونس وفاس وكانت تطرح قضايا التدريس والمسائل الثقافية الخاصة بأقطار شمال إفريقيا؛ وهكذا جرّ هذا الموضوع نفسه المؤتمرينَ إلى انتقاد سياسة السلطات الفرنسية في هذا الخصوص. وكانت تلك اللقاءات أشبه بالمهرجانات منها إلى المؤتمرات. ذلك أنّ القسط الكبير من النشاطات المدرجة في جدول الأعمال كان يتضمّن الاستماع لمقطوعات من الموسيقى الأندلسية وتلاوة القرآن وإلقاء الأشعار أو الخطب باللغة العربية الفصحى. ولم يكن الجانب السياسي فيها أقل حظوة بل على العكس...

انعقد أول مؤتمرفي تونس من 20 إلى 24 أوت 1931[77]، في قاعة الخلدونية، بمبادرة من "و. ط. م. ش. إ." ودُعيت لحضوره كلٌ من "و. ط. م. إ. ش" لمدينة الجزائر وتلاميذ جامع "الزيتونة" والمدرسة "الصادقية" في تونس وطلبة جامع القرويين في فاس. تضمّن جدول الأعمال دراسة وضعية التعليم العالي والمهني واللغة العربية وتعليم المرأة. ولقد تكفّلت "و. ط. م. إ. ش" بتنظيم المؤتمر الثاني في مدينة الجزائر، من 25 إلى 28 أوت 1932، في "نادي الترقي" (الذي تملكه جمعية العلماء) وعالج أربعة قضايا هي:

1) البحث عن وسائل نشر اللغة العربية في إفريقيا الشمالية.

2) تدريس تاريخ الجزائر الإسلامي.

3) تنظيم تدريس الطفل المسلم لكي يتمكن من مسايرة الدروس المتعلقة بالعلوم الأوروبية التي يتلقّاها في المؤسسة الفرنسية مع متابعة الدروس التي يقدمها أستاذ اللغة العربية وليرتوي بالثقافة الوطنية القديمة.

4) إيجاد فرص عمل للطلبة بعد تخرجهم.

---

77. أنظر "صوت البسطاء" سبتمبر 1931.

ترأس فرحات عباس أشغال المؤتمر بينما كان الشاعر الوطني مفدي زكريا يضفي عليها طابع الوحدة المغاربية في الإطار العربي.

أما المؤتمر الثالث؛ الذي كان من المفروض انعقاده في مدينة فاس، في سبتمبر 1933، فقد مُنع من الانعقاد في آخر لحظة. عاتب المؤتمر تصرّف السلطات الفرنسية عتابا مرًا وذلك بمناسبة اجتماعه في باريس في أواخر ديسمبر؛ وكان من بين المشاركين في ذلك المؤتمر وفد عن "إ. ط. م. إ. ش." (فرحات عباس وعبد الرحمن ياسين) ووفد عن الطلبة الجزائريين في باريس (من بينهم عمار نروم) وساند المؤتمرون فكرة الاستقلال التام للبلدان الثلاث الملتئمة في إطار أمّة شمال إفريقية على أساس الإسلام.[78] وانعقد المؤتمر الرابع بتونس، في سبتمبر 1934، بحضور المقيم العام Peyrouton حيث التزم خطابا معتدلا وحصر المناقشات في مجالات طلابية رغم مفدي زكرياء الذي عرض "الوصايا العشر" للوطنية المغاربية؛[79] ولكن المؤتمر الخامس المنعقد في تلمسان، من 5 إلى 10 سبتمبر 1935، فقد اضطر إلى مغادرة قاعة البلدية إثر مشادات بين أحد الخطباء ورئيس البلدية أثناء الجلسة الافتتاحية. وحين انتقل المؤتمرون إلى قاعة "السعادة"، التابعة لجمعية العلماء، صفقوا طويلا لكلمة الترحيب التي ألقاها مضيفُهم البشير الإبراهيمي.

---

78. أنظر صوت الأهالي (229)، 1933-10-12، الإقدام (50)، 1933-11-1، و (54)، 1933-12-15، "الأمة" المذكور في "صوت الشعب" (9) 25-1-1934، "صوت الأهالي" (246) 8-2-1934 و (255) 12-4-1934، Vendé miaire (الشهر الأول في السنة الجمهورية، من 21 سبتمبر إلى 22 أكتوبر) (1) جانفي 1934، ثم 857.5 APP série Ba Ass.

79. "الدفاع" (119)، 1936-9-25؛ أنظر أيضا رشيد إدريس "مكتب المغرب العربي في القاهرة". في "العلاقات بين المغرب والمشرق، بين التضامن السابق والواقع الجديد" منشورات المركز الوطني للبحث العلمي 1983.

تمت المصادقة على الأماني التالية:

1) أن تكون اللغة العربية لغة رسمية.

2) تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية وفي التعليم الثانوي وفي "مدارس" الجزائر وفي التعليم العالي من طرف أساتذة مسلمين وباللغة العربية الفصحى.

كما أوصى المؤتمر أيضا الحكومة الفرنسية "بتخصيص ساعات لتدريس تاريخ إفريقيا الشمالية في المدارس الابتدائية العمومية" "وإحلال اللغة العربية مكانة أهمَّ في المدارس الابتدائية، وجعلها مادة إجبارية، في امتحان الشهادة الابتدائية، في أقطار إفريقيا الشمالية". وطلب المؤتمر في خطاب موجّه لجمعيات المعلمين المسلمين "البقاء على اتصال فيما بينها وعقد لقاءات دورية لدراسة السبل الكفيلة بتوحيد أنماط التعليم وكذا الكتب المدرسية". عبَّر أحد الطلبة التونسيين عن الهدف الحقيقي للمؤتمر فأكّد بأن تلك التدابير المُقترحة لا ترمي إلى "تحقيق وحدة صورية... كلا وألف كلا! فنحن نسعى (...) لبعث وحدة عريقة سجّلها التاريخ (...) إنَّ هدفنا من وراء تطوير اللغة العربية هو إحياء الشعور الوطني. وغايتنا هي توحيد التربية في شمال إفريقيا: تربية سوف تبعث في نفوس الأهالي الشمال إفريقيين القناعةَ بوحدتهم الوطنية المبنية على ثقافة واحدة ودين واحد ومصالح مشتركة".[80]

أذكت تلك التظاهرات حذر الكولونياليين الذين كانوا يتتبعون ما يحدث من تطور فكري لدى الشباب الأهالي. وكان الجنرال Brrémond هو الشخصية الوحيدة التي وافقت على حضور أشغال المؤتمر الثالث؛ ولقد عبَّر عن فزعه من "تأجج مشاعر الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين"

---

"الدفاع" (78)، 1935-10-4؛ "إفريقيا الفرنسية" ديسمبر 1935 ص. 416-721، PIERSON، المرجع المذكور ثم "الوحدة المغاربية، أبعاد وآفاق" المرجع المذكور، ص.111

وسجّل حضورا غامرا للأفكار السياسية في ثنايا النقاش الذي يُفترَضُ أن لا تجد فيه مكانا لها. كما ميّز بين "المقترحات العادلة والمشروعة والقابلة التحقيق" وبين "المطالب أو النزعات السياسية التي سوف يؤدي تطوُّرها، حتما، إلى منازعات خطيرة" واندهش الجنرال، بالخصوص، من الحفاوة العامة التي استُقبل بها التصريح بمبدأ الاستقلال التام للأمة الشمال إفريقية تحت راية ثلاثية الألوان: الأخضر (تونس) الأبيض (الجزائر) الأحمر (المغرب) ثم أدلى بانطباعين أساسيين هما: "لم يعترف المؤتمرون بأي جميل عما أنجزته فرنسا من أعمال (...) بل آخذوها مؤاخذة شديدة اللهجة عن تراخيها في إنجاز ما كان منتظرا منها واستغرب لتأسي الحركة على مبدأ الإسلام وحده (...)[81].

أعربت صحيفة "إفريقيا الفرنسية" عن انطباعات مماثلة حيث أبدى المثقف المستعرب J.Desparmet حيرة كبيرة إزاء سير المؤتمرات التي تمّ تنظيمها في الجزائر ثم في تلمسان تحت إشراف "و. ط. م. إ. ش." وسجّل "التجاوزات اللفظية" التي انساق وراءها الخطباء فخلُص إلى عدم فعالية التعليم الفرنسي في تغيير الذهنيات قائلاص: "قدَّم لنا مؤتمرُ الجزائر برهانا جديدا (...) على أن التعليم الذي نمنحه لأولادنا لا يقتل فيهم، أبدا، تلك الروح التي توارثوها أبا عن جد؛ بل بعث فيهم حيوية جديدة". أضاف نفس الكاتب، بعد مضي ثلاث سنوات، قائلا: "عندما يصغون إلى حدسهم فإنهم يصمُّون آذانهم فلا يستمعون إلى الفكر العقلاني الذي علّمناهم إياه؛ بل تراهم ينصتون، بتلذّذ، إلى السفسطة الروحانية والعاطفية الذي ينتشي به حزب النهضة العربية".[82] إنَّ الطلبة الشمال إفريقيين، بالنسبة لفرنسا، قد ضاعوا لأنهم لن يكونوا لاعربا ولا فرنسيين.

81. "Vendé ،miaire"(1)" جانفي 1934.

82. إفريقيا الفرنسية اكتوبر 1932 وديسمبر 1935.

ذهب أحد المتعاونين مع تلك الصحيفة إلى أبعد من ذلك (كان يوقّع مقالاته باسم: ل. محانديس) فدعا السلطات إلى استعمال أساليب القمع قائلا: "الواقع أنّه تحت راية "الطالب" تختفي مآربُ أخرى وتتستَّرُ بدعوى "عقد مؤتمرات" بريئة النوايا. تلك أساليب سوفيتية معادية للسلطة الفرنسية (...) فإما أن يتعلق الأمر باجتماع حريص على تحسين أوضاع الطلبة (...) أو يتعلق باجتماع سياسي محض (...) ليس في الحالة الأولى ما يمنع من تسهيل مثل تلك اللقاءات وليس في الحالة الثانية تصرّف أكثر ضرورية من حظر انعقاد المؤتمرات".[83] وذلك ما تحقق بالفعل: فمن 1936 إلى 1939 لم يتمكن الطلبة المسلمون الشمال إفريقيون من عقد إي مؤتمر لهم في إفريقيا الشمالية.

لا غرابة في تلك الأحكام القاسية عندما يتعلق الأمر بالطلبة التونسيين أو المغاربة المنضوين تحت "إ. ط. م. ش. إ." ولكن فيما يتعلّق الأمر بالطلبة الجزائريين فذلك أمرٌ محيّر؛ لأنهم كانوا، في نظر العارفين، مختلفين عن نظرائهم في المحميات. أما Maurice Violette، الرئيس الشرفي ل "إ. ط. م. إ. ش" بالجزائر وودادية الطلبة الجزائريين بباريس سنة 1931، فقد شهد على صحة "نواياهم الفرنسية الخالصة" وابتعادهم عن الوطنية العربية حين قال: "إنَّ تلك الدعاية لم تمس الطلبة الجزائريين فهم يتصفون فعلا بالصفة الفرنسية وهذا يكفي لأن نمنيهم بالآمال؛ ولكن لن نلوم سوى أنفسنا إذا خيبنا أملهم تلك وسنكون مجانين إذا غفلنا على الأمر الآتي: حين نفتح مجال الحرمة الثقافية لأناس ما فإن التجنيس الحق يفرض نفسه فرضا".[84] ومع ذلك فإلى غاية سنة 1934 كان Georges Hardy، ناظر جامعة الجزائر، يقول: "يبدو لي أنَّ طلبتنا المسلمين مختلفون بشكل واضح عن الطلبة التونسيين

نفس المصدر، (ديسمبر 1935)

هل ستعيش الجزائر الجديدة ؟ ص.496.

والمغاربة وهذا بالنظر إلى محاضر أشغال مؤتمراتهم. فهم يعترفون، مثلا، بارتباطهم الشديد باللغة الفرنسية بينما يحلم الآخرون بإحياء اللغة والعلوم العربية. إنهم منتظمون في جمعية لم تخرج عن إطار الجمعية العامة لطلبة الجزائر"؛[85] وإذا كان الأمر هكذا فلماذا، إذن، جازف الطلبة المسلمون الجزائريون بترك الريبة تحوم حول حسن نواياهم ؟

ليست الإجابة عن مثل هذا السؤال بالأمر الهيّن بالرغم من المعطيات الثمينة التي زوّدَنا بها J.Desparmet حول الموضوع فينبغي مُسايرته بحذر لأن تعقيباته على الأحداث تنمّ عن ذهنية موظف. نحن هنا بحضرة وكيل الجمهورية، في الجزائر الفرنسية، الذي كان حينذاك يحذّر الطلبة الأهالي من التسرّع في الاختيار بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية والحال أنّ المعنيين بالأمر لم يكونوا يعتبرون أنفسهم مجبرين على تحيد خيار لا مناص منه؛ فالتعليم الفرنسي كان اندماجيا، بشكل حاسم، وكان تأثيره الفعّال على الطلبة المسلمين حقيقة واقعة لا مجال لنفيها. كان ذلك النمط من التعليم يخلق هوةً بينهم وبين ثقافة المجتمع، الذي ترعرعوا بين أحضانه، وكان يُذكي في نفوسهم حنينا إليها؛ فلنستشهد في هذا الصدد باعترافات فرحات عباس: "أقول بصراحة أنني آسف لكون معلوماتي في اللغة العربية غير كافية. ونفس القول ينطبق على أغلبية رفاقي (...) ومع ذلك فإنّ الإسلام ظلّ موطننا الروحي".[86]

إنّ الطابع العربي الإسلامي المحض المميز للحفلات التي كانت تنظمها "و. ط. م. إ. ش." لم يكن يعبّر عن حقيقة الواقع الثقافي للطلبة الأهالي بل كان يعبّر عن عزمهم على الاحتفاظ بأواصر العلاقة التي تربطهم بشعبهم وذلك بمخاطبته باللغة التي ظلّ شديد الارتباط بها. غايتهم هي أن يثبتوا لشعبهم بأن استيعابهم الثقافة الفرنسية لم يحملهم على نكران ثقافة

85. "الأحداث الإفريقية"، جوان 1934، ذكرتها "صوت البسطاء" (146)، 1934-7-1
86. "الشاب الجزائري" ص. 89، ذكره علي مراد، المصدر المذكور، ص.406

أجدادهم؛ وأنّهم، كشأن الأغلبية الساحقة من الشباب الجزائري، فرنسيون مسلمون بمعنى الكلمة. بمثل هذا صرّحت مجلّة "التلميذ"[87] قائلة: لنكن فرنسيين ومسلمين في آن واحد ولنبرهن لبعض الذهنيات السقيمة بأن ذلك ليس ضربا من الخيال".

تلك الوضعية المثالية المتجسّدة في الازدواجية الثقافية، الفرنسية-العربية، تفسِّرُ مفارقة التقارب الذي حدث بين الشباب الجزائريين، ذوي التكوين الفرنسي، وبين العلماء الإصلاحيين، المدافعين عن الإسلام السلفي، بعد أن انضووا منذ سنة 1931 في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين". إنهم يمثلون نخبة "الطلبة" المتخرجة من المدارس العربية القليلة التي بقيت في الجزائر أو التي سافرت لاستكمال تكوينها في جامع "الزيتونة" بتونس أو جامع "القرويين" بفاس أو ذهبت أبعد من ذلك إلى مدن الشرق كالقاهرة أو دمشق أو مكة والمدينة.

ففي تلك الربوع وقعت النخبة تحت تأثير الحركة الفكرية المعروفة باسم "النهضة العربية" وبعد الرجوع إلى بلدها قامت بتحريض بني عمومتها على العمل لإنقاذ الثقافة الأصلية ومضاعفة عدد المدارس الخاصة حيث يتعلم أولادهم مقولة: "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني". كان فكر تلك النخبة، الإصلاحي، يندّد بالخرافات التي أدرجها تعاقب القرون ضمن طقوس الدين فتصدت للعمل من أجل استعادة نقاوته الأصلية؛ وكانت تلك النخبة على نقيض ذهنية "أصحاب العمائم القديمة" التي سادت قبل سنة 1914 والتي كانت تلعن القرن الحاضر (القرن 14) وتنتظر قيام الساعة. إنّ الإصلاحيين كانوا يدعون إلى التوفيق بين الدين وبين التفتح على مكاسب العصر العلمية والتقنية. وكانوا حريصين على ترقية المجتمع المسلم الجزائري ترقية اجتماعية وسياسية كما قال الشيخ بن باديس: "قبل أن أكون رجل دين فأنا

87 التلميذ (2) ديسمبر 1931.

واحد من الأهالي الجزائريين ولا يمكن أن أكون لا مباليا بشيء فيه صَلاحُ الجزائريين". لقد مكَّنهم تفتُّحُهم على روح العصر من استمالة الشباب الجزائري الذي استهوته فصاحةُ مخاطبتهم له بلغة "الآباء والأجداده".

أقام الشيخ الطيب العُقبي، منذ سنة 1927، في مدنية الجزائر وبالتحديد في نادي الترقي ولم يكن الطلبة أقلَّ ترددا من غيرهم على ندواته. كما انضمت مجلة "التلميذ"[88] إلى مثيلاتها من صحف الأهالي للتنديد بالقرار الصادر ضدّ العُقبي والقاضي بطلب ترخيص مُسبق على الخطب الملقاة في منابر المساجد. ولقد تصدَّت صحيفتا "صوت الأهالي" و"صوت البسطاء"، ذات النزعة الاندماجية، تصدّت للدفاع عنه. تسبَّب تحالف الشباب الجزائريين مع العلماء في سخط ونقمة الملاحظين الاستعماريين؛ فذهب بعضهم من أمثال J.Desparmet وJean Menaaut (اسم مستعار Berque Augustin) إلى القول: "إنَّ ذلك التقارب لا يفتأ يزداد كل يوم أكثر بين المثقفين والوهابيين الجدد. هاهو Descartes يتحالف مع الرسول (محمد) ضدنا (...)؛ هل ستواصلون يا تلاميذنا ويا أيها العقلانيون الذين رفعتم القدسية عن الإسلام؛ هل ستتمادون في هذا التحالف الوحشي؟".[89] كان الأستاذ Gautier يؤاخذ الطلبة المسلمين، في مدنية الجزائر، على إعراضهم "عن الانضواء تحت لواء الجمعية العامة للطلبة، التي سوف تستقبلهم بكل فرح، بدل الانضمام إلى نوادي العلماء التي ينظمها العقبي".[90]

لم يكن العلماء الاصلاحيون أبدا يعتقدون السيطرة على تلك العقول الشابة بل كانوا يعيشون يوميا هموما مضمرة بسبب ما يلاحظونه من انمحاء الشخصية العربية الإسلامية مع خبو نور اللغة والثقافة العربية.[91] وبعد أن

88. "التلميذ" (3-4) جانفي 1933

89. "إفريقيا الفرنسية" مارس 1935

90. "غوتيه" المقال المذكور.

91. أنظر مراد المرجع المذكور ص 406

حصل لدى العلماء وعي بأن أُحادية لغتهم سوف تُضعف تأثيرهم على الشبيبة المتكوّنة في المدرسة الفرنسية صاروا يطالبون "بتعليم مزدوج، فرنسي - عربي، ليجني الجميع ثماره". إنّ الميل العاطفي لدى فرحات عباس، وأغلب الطلبة، نحو تصوّرٍ معيّن للإسلام وحرصَهم، المشروعُ، على عدم القطيعة مع ذويهم سمح بحدوث تقارب كانت آثارُه السياسية جد عظمية من غير أن نخلص ضرورة إلى القول بحصول توافق تام في وجهات النظر.

من شأن ذلك الحنين إلى الثقافة العربية أنّه يفسّر أيضا لماذا انجذب الطلبة المسلمون الجزائريون نحو رفاقهم التونسيين والمغاربة؛ فلقد مكّنتهم دراستهم في جامعات فرنسا (وبكيفية أقل في الجزائر) من التعرف فورا على تاريخهم المشترك خلال الحقبة العربية الإسلامية والإطلاع على أوضاعهم الراهنة ضمن الإمبراطورية الفرنسية. لقد وجدوا لدى نظرائهم، القادمين من المحميات، مثالا يحنّون إليه وكانت تجسّدُه ثُنائيةُ تكوينهم المزدوج باللغتين العربية ? الفرنسية؛ وزيادة على ذلك فقد مكنتهم مؤتمرات الطلبة الشمال إفريقيين من التعرّف على "الطلبة" الذين كانوا يتلقون التعليم التقليدي في جامعات الزيتونة والقرويين وكان يوجد من بينهم عدد معتبر من الجزائريين.

ذلك هو سرّ انضمام طلبة المغرب الكبير، وهم أقلية في الجامعات الفرنسية، إلى بعضهم البعض لتشكيل جمعيات مشتركة بين البلدان الثلاثة بغرض الدفاع عن مصالحهم المهنية ولتحقيق هدف مضمر يتمثّل في أن يسترجع شعبهم حريته وكرامته؛ غير أنّ اختلاف الأوضاع القانونية، التي كانت تميّز الجزائر عن جارتيها، أثّر على جهودهم ودفعهم صوب وجهات مختلفة. تنطلق فكرة المحمية، أو على الأقل تطبيقها الميداني، من بديهية وجود دولة تونسية ودولة مغربية يمثّلها حكّامُها التقليديون وخضوعها لوصاية وزارة الخارجية الفرنسية؛ فطلبة تلك البلدان واعون تماما بالجنسية الخاصة بهم؛ وكان نضالُهم السياسي يتوجه، عفويا، نحو المطالبة بتطبيق نزيه لمبدأ

الوصاية تطبيقا يضع حدا للتسيير المباشر قبل التقدم إلى المراحل الموالية والمتمثلة في الاستقلال و"التعاون الحر" بين دول متساوية الحقوق؛ في حين تعلَّم الطلبة الجزائريون في المدارس الفرنسية أنهم فرنسيون. لم يكن القانون الخاص بالجزائر يسمح بممارسة السياسة خارج إطار السيادة الفرنسية. لكن قبل فشل مطالب الطلبة الجزائريين الرامية إلى تطبيق نزيه للقوانين السائدة فإنه يبدو أن معاشرة رفاقهم القادمين من المحميات قد وسّع آفاقهم وفتح أعينهم لينظروا إلى بلدهم باعتباره جزءا من شمال إفريقيا؛ ومنذ ذلك الوقت صارت الفكرة المغاربية تنافس الفكرة الفرنسية المهيمنة.

إنَّ المفارقة الكبرى في الموضوع هي كون أعضاء "و. ط. م. إ. ش." نزّاعين أكثر إلى الاقتراب من الطلبة الشمال إفريقيين الآخرين، من غير جزائريي باريس، الذين كانوا يعاشرونهم عن كثب. ذلك أنّ "و.ط.م.ج."، التي ظلت إلى غاية 1933 متجردة من الطابع السياسي، كانت تتميز عن "و. ط. م. إ. ش." فهذه الأخيرة كانت تُسمى "الجمعية القومية"، حفاظا على مرامي وغايات تتعلق بالانتماء الحرفي، ولقد كانت "و.ط.م.ج." تفتح صدرها طواعية للإشراف الإداري من طرف سياسيين من "ذوي النزعة الأهلية" أمثال: Viollette وMoutet وSoulier وGoding وكذا "لجنة تنظيم الطلبة الشمال إفريقيين الباريسيين" تحت رئاسة الأستاذ أحمد بللول[92] الذي استخدم اثنين من رؤسائها السابقين (Naroun و Hanouz). ذلك هو الأمر الذي مكنها من المشاركة في إنشاء "نادي مثقفي البحر المتوسط" المخصص لإيواء الطلبة القادمين من شمال إفريقيا على اختلاف أصولهم. تعود هذه المبادرة إلى Pierre Godin وهو مُؤسّسُ الشرطة الشمال إفريقية

92. بخصوص أحمد بللول (الممثل السابق للأمير خالد في باريس) وشركائه دمرجي ونرون، اقرأ التقرير، السلبي، الذي وجهه J. CARDE لوزير الداخلية (17-8-1933) رفقة لائحة المساندة المصادق عليها من طرف وفد المنتخبين المسلمينAOM 14H41.

في شارع Lecomte ورئيسُ شؤون شمال إفريقية في دار البلدية. تمت المصادقة على المشروع السكني من طرف المجلس البلدي، في ديسمبر 1931، وفُتحت محلاته في 26 شارع Gay Lussac، بعد سنة، غير أنّ تدشينها، بصفة رسمية، لم يقع إلا في نهاية عام 1933. كان مكتب إدارته برئاسة النائب البرلماني Edouard Soulier وكان يضم عدة شخصيات سياسية وثقافية فرنسية وبضعة أعيان من مسلمي باريس وممثلين عن ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين؛[93] غير أن الإدارة الفعلية كانت موكولة للكاتب العام بـAndré Godin وهو ابن المُؤَسِّس ورئيسُ ديوان محافظ الشرطة. يبدو أن الجزائريين قبلوا بتلك الوصاية، إلى غاية 1933، حيث لوحظ حضورهم الجماعي إلى وليمة شرفية أقيمت على نخب اللجنة لشمال إفريقية في دار البلدية وحضروا أيضا، في جوان، حفل استقبال المنتخَبين الأهالي بنادي مثقفي البحر المتوسط.[94]

وحصل، في نفس سنة 1933، تقاربٌ مفاجئٌ بين "و. ط. م. ج." وبين "و. ط. م. ش. إ" ولا شك في أن لوساطة "و. ط. م. إ. ش." أثرٌ ما في الموضوع؛ ولم تكن القطيعة بين الجمعيتين قد حدثت بصورة مطلقة في باريس. فضّل بعض الطلبة الجزائريين لانضمام إلى "و. ط. م. ش. إ" و شاركوا، في ماي 1930، في احتجاجات الطلبة التونسيين والمغاربة ضد إقامة المؤتمر الديني المسيحي في أرض الإسلام؛[95] وكانوا ممثَّلين في جميع مكاتب الجمعية

93. حول البدايات الأولى للنادي، أنظر: الرسالة التي وجهها أحمد بومنجل لأعضاء مجلس بلدية باريس، ديسمبر 1935 ( تم تبليغها من طرف السيد عمار نرون) و: "صوت الأهالي" (167) 15-09-1932، (186) 2-2-1933 ثم (209) 1-7-1933

94. نفس المرجع، غير أن هذا الانطباع الحسن، قد تم تكذيبه في إحدى كتابات Mirante بتاريخ 10-11-1931AOM 14H4

95. "إفريقيا الفرنسية" (جوان 1930) قد أوردت أعداد توقيعات كل بلد على حدة. عدد التونسيين (27 توقيعا)، الجزائريين (8) المغاربة (6)

المذكورة من سنة 1930 إلى 1937؛ ثم ابتداء من سنة 1933 سُجلت حالات انتماء مزدوج ومنذ تلك السنة، أيضا، أصبح إبراهيم بن عبد الله أمينًا عاما لكلا الجمعيتين! هذا ما يفسر ظهور أولى المساعي المشتركة بين الجمعيتين إذ وجهت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين إلى الحكومة العامة، في أفريل 1933، برقية احتجاج ضد المساس بحرية المعتقد ثم انضمّت "و، ط، م، ش، إ" إليها في رسالة مشتركة إلى عامل عمالة الجزائر.[96] من هناك فصاعدا كان للتطور السريع الذي شهده الرأي العام في صفوف الأهالي الجزائريين أثرٌ حاسم في سدّ الفجوات التي تتفرق بينها. استقبلت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، في جوان 1933، وفدًا عن المنتخَبين الأهالي كما شاركت هذه الأخيرة في حفل الاستقبال الذي أقامه نادي مثقفي البحر المتوسط على شرفهم. كلُّ ذلك لم يمنع اتهامها بالخيانة حين التمست، من أجل تحقيق مطالب مهنية، مقابلةَ الجنرال Jules Carde (الذي حضر إلى باريس لمحاربة الوفد) ثم لتوجيهها إليه رسالة شكر؛[97] وإثر استفزاز الطلبة الجزائريين، بتلك الكيفية، احتجوا على ذلك وأعربوا عن تضامنهم المطلق مع شعبهم ثم قرروا انتهاج سياسة أكثر استقلالية في علاقاتهم بالإدارة.

إنَّ منع انعقاد المؤتمر الثالث للطلبة الشمال إفريقيين، في سبتمبر 1933، وانكفاءه إلى باريس، في شهر ديسمبر، مكّن الطلاب من الفرصة المواتية. وجّهت ودادية الطلبة الشمال إفريقيين دعوةً إلى ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، لحضور المؤتمر، دون أن تنسى تخصيص دعوة لرئيسها عمار نارون وهذا بالرغم من كونه طرفا متسببا في القطيعة؛ ثم بادر ممثلو ودادية

96. "صوت الأهالي" (195) 6-4-1932.

97. "صوت الأهالي" (210) 4-7-1933. أنظر أيضا وضع النقاط على الحروف في الموضوع، الذي قام به رئيس ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، ساري باي، في "الإقدام" (4)1-8- 1933، (42) 1933-8-10 و(43) 21-8-1933

الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية (أي رئيسها السابق فرحات عباس وأمينها العام عبد الرحمن ياسين) بتقديم لائحة نددت بالموقف العدائي للسلطات الاستعمارية الفرنسية؛[98] وفي نهاية المؤتمر ترأسوا الجمعية العامة السنوية لودادية الطلبة المسلمين الجزائريين. استمع المؤتمر، بصفة خاصة، إلى نداء مصالي الحاج، رئيس نجم شمال إفريقيا (الحزب الذي تم إعادة جمع شمله) الذي وجهه إلى الطلبة فتبعه في ذلك عدد معتبر من التونسيين والمغاربة وبعض الجزائريين.[99]

أفزع المؤتمرُ الثالث السلطات الفرنسية فقرَّرت فرضَ رقابة لصيقة على الطلبة الجزائريين في باريس. كان "نادي المثقفين" بمثابة الأداة المستعملة في تلك المراقبة فقد أوكلت إدارتُه الفعلية إلى الأمين العام André Godin، باعتباره رئيس ديوان عامل شرطة باريس ثم مديرا للشرطة الشمال إفريقية في شارع Lecomte، ابتداء من جويلية 1932. انتقد "بعض الطلبة" طريقة تسيير النادي وعبّروا، سنة 1934، عن شكوكهم في حسن نوايا مديره؛[100] وفي نهاية السنة كُلفت لجنةٌ إدارية جديدة عن ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، برئاسة أحمد بومنجل، "بطرح الموضوع بمنتهى الصراحة". وجَّه المدير الجديد رسائل عديدة إلى السلطات المسئولة يتهم فيها Godin André بتسخير المؤسسة لخدمة أهدافه الخاصة وذلك بإقصاء كل الشخصيات المستقلة من مكتب إدارتها ليتمكن من جعلها "تنظيما ملحقا لمصالح الشرطة ويجعل أوساطنا الطلابية حقلا ملائما للتحريات البوليسية

98. النص في "الأمة"، "صوت الشعب" (8) 25-1-1934 و صوت الأهالي (24)15-2-1935.

99. "الأمة" و"صوت العشب" الأعداد المذكورة. كانت ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين قد بادرت بعد بإقامة حفل استقبال لمصالي الحاج، بتاريخ 4-6-1933، وهذا حسب رواية المؤرخ Benjamin STORA: "مصالي الحاج". "شجرة التين" 1981.، بحسب محمد حربي "أصول جبهة التحرير" و CH Bourjois، فإن الطلبة الجزائريين الأوائل الذين انخرطوا في نجم شمال إفريقيا، هم السادة بوقادوم وبولكروع.

100.

المشبوهة";[101] كما ترجّى المجلس البلدي أن يسحب المبالغ المعتمدة ويحوّلها إلى الجناح الخاص بالطلبة الشمال إفريقيين الذي التمس من الحكومة العامة إنشاءه في الحي الجامعي. ولقد ذهب (بومنجل) إلى حدّ معارضة عضوية Godin في الانتخابات البلدية والتحريض على ترشح ضابط مسلم متقاعد لشغل ذلك المنصب وكان هذا الأخير يطالب بحل الشرطة الشمال إفريقية.[102]

هكذا تحولت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، تحت رئاسة أحمد بومنجل، إلى منظمة مكافحة؛ وكانت، من قبل، متهمة بالتواطؤ مع الإدارة. احتجت الودادية، بعد ديسمبر 1934، ضد قرار حل نجم شمال إفريقيا وإلقاء القبض على مسيّريه؛[103] وقامت الجمعية، تحت إدارة شريف صالحي، سنة 1935 و1936 بمباشرة وحدة العمل مع ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا وكرّستها بانتماء مزدوج تمّ توسيعُه إلى نصف أعضاء مكتبها. يقال إنّ الجمعيتين نظّمتا استقبالا مشتركا على شرف وفد من فدرالية المنتخَبين المسلمين، من عمالة قسنطينة في مارس 1936، وطالبتا ذات الوفد باتخاذ موقف واضح لصالح الوحدة العربية.[104] كان لإجراءات المقيم العام Peyrouton، المتعلّقة بمنع انعقاد المؤتمر الثالث للطلبة الشمال إفريقيين[105] في فاس (سبتمبر 1936)، أثرٌ بالغ في تمتين العلاقة بين التنظيمين. وكذلك كان الشأن بالنسبة لتمديد إجراء المنع من طرف خلفه الجنرال Nogués، في

101. رسالة أحمد بومنجل إلى أعضاء مجلس بلدية باريس. أنظر "الدفاع" (51)15-2-1935 (53) 1-3-1935؛ (58) 5-4-1935 وأمنيات مؤتمر "الإتحاد الوطني لطلبة فرنسا" في "الصحافة الحرة"، 5-5-1935

102. رسالة النقيب الجزيري للناخبين، (مبلغة من طرف عمار نرون)

103. "الأمة" (28) ديسمبر 1934. كان حزب النجم مسيرا وقتها من طرف تونسيين من ودادية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، وهما: الهادي نويرا، وسليمان بن سليمان

104. "صوت الأهالي" (371) و(372) 14 و 21-5-1936، ذكره J. DESPARMET، في "إفريقيا الفرنسية" جوان 1936.

ديسمبر، بالرغم من اعتذار ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين عن قبول دعوة وجهتها لها السلطات الإسبانية للاجتماع في مدينة تيطوان (25 أكتوبر). يبدو أنّ تلك التدابير دفعت الطلبة الجزائريين إلى تقوية صفوف رفاقهم المغاربيين وذلك بحل الجمعية الخاصة بهم. ففي 10 جانفي 1937 انتخبت الجمعية العامة العادية لودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين مكتبا إداريا جديدا وكلّفته بمهمة "العمل لتحقيق الانصهار الكلي مع ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين" وفي 21 فيفري قُضي الأمر حيث هنّأ الشيخ أرسلان الطلبةَ الشمال إفريقيين على ذلك. كانت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين "واقعة تحت تأثير دعاية باطلة مفادُها إمكانيةُ تبادل التأثير والتأثُّر فراحت تقلّد تقليدا أعمى كل ما هو أوروبي؛ ولكن الله سدّد خطاها نحو صراط الحق فجمع شمل الجمعيتين وفرض المُثل التي تبنتها الأولى؛ وبفضل ذلك أصبح أبناءُ المغرب الكبير، المقيمون باريس، من اليوم فصاعدا متحدين تحت راية واحدة هي الإسلام ووحدة المغرب العربي والأمة العربية".[106]

أكّد شريف صالح هذا التفسير، بعد مدة قصيرة، فحسب ما أورده الرجل إنّ الانصهار "الضروري الذي يتمناه الجميع عموما قد واجه "عقبةً كبيرة تمثلت في شرط صارم فرضه أحد الطرفين ورفضه الطرف الآخر" (يتعلق الأمر بطرد المتجنسين). غير أن الطلبة الجزائريين قرّروا "تحقيق الوحدة مهما كان الثمن" فرأوا "أنّه من الأحسن قبولُ الشرط المطروح بدافع من روح الأخوة";[107] وبما أنّ ميثاق المؤتمر رفض إيديولوجية التجنيس فإنّ اتخاذ

---

105. أنظر "الدفاع" (119) 25-9-1936؛ (131) 11-1-1937؛ (166) 22-10-1937 ثم "إفريقيا الفرنسية" أوت-سبتمبر 1936، أكتوبر 1936، أكتوبر 1937.

106. المحضر الوارد في صحيفة "Unidad Marroqui" (الصادرة بتيطوان)، ذكرته " إفريقيا الفرنسية" في أفريل 1937، أنظر خلاصات "des AINA" باريس ، 28-3-1937 و 8- 9-1939،(AOM Oran 5-1-53 )

107. "في "الاتحاد قوة" صحيفة "إفريقيا" (2) 1-5-1939

قرار الفصل صار أمرا ممكنا ولكن الجزائريين اعتبروه، رغم كل شيء، أمرًا شاقا عليهم. وبالفعل فلقد كان من نتائجه إقصاءُ مناضلين مخلصين أمثال أحمد بومنجل الذي خلف شريف صالح. ولتعويض ذلك عادت رئاسة ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين إلى الجزائري بن عبد الله الذي كان عضوا مسيّرا في كلا الجمعيتين، منذ سنة 1933، وكان اسمه مُدرجا في سجلات الشرطة باعتباره مناضلا في نجم شمال إفريقيا ومحررا في جريدة "الأمة".[108]

كان مسار الطلبة المسلمين الجزائريين في باريس مسارا مثاليا. فبعد أن خانهم أولئك الذي كانوا يعتبرونهم محطّ ثقتهم التامة انتقلوا، في ظرف ثلاث سنوات، من قطب متطرّف إلى قطب نقيض وانتقلوا من خيار التجنيس الفرنسي إلى خيار القومية المغاربية. لم يكن للقمع من نتيجة سوى الإسراع في حدوث ما كان يسعى للحيلولة دونه وهو تطور أسرع وأكثر تجذُّرا من الذي عاشه رفاقهم من مدينة الجزائر.

كانت ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين، حينذاك، متشبثة برفضها الفصل في الخيار بين حركة الطلاب الفرنسيين أو المغاربيين؛ ومع ذلك فإنّ انتماءها المزدوج لم يكن من الممكن دوامُه. وقعت القطيعة مع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين سنة 1935-1936. ومن مفارقات الأمور أن حدث ذلك في وقت يئِس فيه الجميعُ من حدوثه. كانت صحيفة Alger étudiants، وقتها، شاهدا على تجدُّد المودّة بين التنظيمين في مطلع سنة 1935؛ وأثناء الزيارة الرسمية التي أدّاها وزيرُ الداخلية الفرنسي إلى الجزائر، Regnier Marcel، استقبل هذا الأخير "رئيسينا" Gilbert Narbonne ومحمد غرسي اللذين أطلعاه على "كل ما تم إنجازه، إلى اليوم، في سبيل الحفاظ على المودة الصريحة التي تطبع العلاقات بين جمعيتيهما وإننا لواثقون بأنّها ستظلُّ

108. خلاصات "des AINA" باريس، 1939-9-5 و ( ص 5. AOM Oran 5-1-53)

أقوى من أي وقت مضى".[109] بعد ذلك بقليل نظّمت الجمعيتان احتفالا بهيا بمناسبة إنشاء مكتب الوحدة الوطنية.

في الشهر الموالي توجه وفدٌ عن الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، بقيادة Narbonne، إلى مدينة Tours للمشاركة في مؤتمر اتحاد طلبة فرنسا. كان السيد غرسي ضمن الوفد باعتباره ممثلا عن "جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية" وكان من المفروض أن يتقدم للمؤتمر "بمجموعة من المطالب ومن بينها على وجه الخصوص تلك المتعلقة بالوضعية العسكرية للطلبة المسلمين وبالمهن المختلفة وبإقامة الطلبة المسلمين في جامعات فرنسا". حقق المؤتمر نجاحا تاما بالنسبة للجمعية العامة للطلبة الجزائريين حيث تم انتخاب رئيسها، Narbonne، نائبا لرئيس الاتحاد الوطني خلفا Gaston Richier الذي سبقه في رئاسة الجمعية العامة. لكن خيبة أمل الطلبة المسلمين كانت كبيرة: فما عدا الأمنية التقليدية، المتعلقة بالإقامة في فرنسا، فإن عريضة مطالبهم قد رُفضت بمبادرة من رئيس الجمعية العامة للطلبة الجزائريين.[110]

بذلت كلتا الجمعيتين جهودها، طيلة شهور، لتجاهل الموضوع؛ غير أنّ الرئيس الجديد للجمعية العامة، لسنة 1935-1936، Paul Leca الذي يتميز بالحيوية والتسلُّط قد عجّل مجرى الأمور؛ فيبدو أنّه وجّه إعذارا للودادية لكي تختار بين الانصهار مع الجمعية العامة أو القطيعة. ولقد خلص الرئيس غرسي إلى ترجيح خيار القطيعة بالرغم من كونه يفضّل، عادة، الإبقاء على الأوضاع كما هي.

109. Alger étudiants (187)، 15-3-1935؛ انظر كذلك: (190) 31-3-1935 و (191) 19-4-1935

110. انظر: "الصحافة الحرة" 17 و 18-4-1935؛ 27، 28، و 30-4-1935، 5-5-1935؛ 4-12-1935، و 11-12-1936 ثم Alger étudiants (192) 27 أفريل 1935 (193) 15 ماي و (194) 29 ماي. لم تورد أي تعليق بخصوص مطالب ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية.

لا توجد في حوزتنا سوى محاضرُ مختصرة بخصوص هذا الحدث الأساسي في تاريخ الجمعيتين حررها الطرفان المتخاصمان في نهاية عهدتهما. كان Leca Paul راضيا بقيامه بما كان يعتقد أنه واجب: "فبعد شهرين من الجهود ومحاولات الصلح، غير المجدية، وجدت قضية ودادية الطلبة المسلمين الحل المأمول؛ ذلك أنَّ الجمعية العامة لم تعُد تعترف بوجود ذلك الفرع ذي الأهداف الصريحة تارة، والمستترة أخرى، مستعصية عن فهمنا. إنَّ دار الطلاب، من هنا فصاعدا، مقرٌّ لجمعية واحدة تضم جميع الطلبة على اختلاف أعراقهم ودياناتهم".[111] لقي ذلك الموقف مساندة قوية من طرف الناظر Geeorges Hardy الذي عرض في خطابه، بمناسبة الدخول الجامعي، (14 نوفمبر 1936) على الطلبة المسلمين الانضمام الشامل إلى صفوف الجمعية العامة.

قاوم غرسي ورفاقه تلك المقترحات مقاومة صارمة؛ لأن الاندماج في الجمعية العامة أمر مرغوب فيه مبدئيا، حسب التقرير الذي تقدم به إلى الجمعية العامة لجمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية المنعقدة في 30 نوفمبر 1936، ولكن إذا كان المقصود هو الاندماج التام فإنَّ ذلك الخيار "سوف يعجّل بخسران كل الأماني المطلبية للطلبة المسلمين" ولهذا السبب اقترح العودة إلى الوضعية السابقة أي البقاء كفرع مستقل ضمن الجمعية العامة للطلبة الجزائريين.[112]

كانت الجمعية العامة، طيلة سنتين، تفتخر بكونها تضمُّ شمل جميع الطلبة "في إطار خال تماما من السياسة ومن غير أن تقحم نفسها في مسألة المعتقدات".[113] ولم يغادرها الطلبة المسلمون بصورة جماعية غير أنَّ جمعية

111. Alger eudiants نوفمبر 1935

112. "الصحافة الحرة" 10-12-1936

113. " الجزائر الطلابي" (214) أفريل 1937

الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية كانت تضم أغلبيتهم.[114] لذلك؛ أعلن الرئيس الجديد Roger Saurin عن نيته في: "إعادة بناء الروابط مع رفاقنا المسلمين على أسس جديدة ودائمة من العلاقات المتينة والحميمة".[115] دعي رئيس جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية إلى المشاركة في المجلس الإداري للجمعية العامة ولا شك في أنّ مجريات الأمور أجبرت، هذه الأخيرة، على الرضوخ والاعتراف بتمثيلية "و.ط.م.إ.ش" التي خرجت منتصرة من تلك المحنة. كان هذا التصالح بمثابة افتتاح عهد جديد من التعاون المتكافئ بين الجمعيتين.

كان النشاط السياسي لـ "و.ط.م.إ.ش"، أثناء تلك الفترة، كأنما يعيش مرحلة ركود؛ فقد رفضت المشاركة في المؤتمر السادس للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين، قبل أن يُمنع من الانعقاد، وبالفعل: فإنّ "فجوة، من الخلاف العميق، صارت تفصل بين أعضاء "و.ط.م.ج" التي يرأسها غرسي والذين يطالبون بالجنسية الفرنسية ويرغبون أن تُناقش المسائل المطروحة على المؤتمر باللغتين الفرنسية والعربية. أما الأعضاء التونسيين والمغاربة، الذين كانوا يطمحون إلى استقلال بلدهم، فكانوا يناضلون من أجل أن تجرى أشغال المؤتمر باللغة العربية فقط";[116] كما أصرت "و.ط.م.إ.ش" على إبعاد كل محاولة ترمي إلى مصادرة الحركة: سواء من طرف الشيوعيين؛[117] أو من طرف العلماء.[118] لم تكن مواقفها، حسب ما يبدو، أكثر عدداً ولا أكثر جرأة

---

114. 80 من جملة 100 في الجمعية العامة بديسمبر 1938 بحسب ما أوردته "الدفاع" (206) 21-12-1938

115. Alger étudiants (228) ديسمبر 1938، جانفي 1939، وفيفري 1939

116. رؤوس أقلام، "اللجنة الطلابية المشتركة لمدنية الجزائر"، حول مؤتمر تيطوان، 12 أكتوبر 1936 (AOM Oran 5-1-53)

117. حسب AGERON، فإن أحمد كيوان، وعمار أوزقان يكونان قد قاما بمحاولات استمالة ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية، نحو الحزب الشيوعي. "تاريخ" ج.٢ ص. 538

118. سيدي السعيد، رئيس "و.ط.م.ش.إ."، يكون قد رفض دعوة انصهار جمعيته مع جمعية أساتذة ومعلمي المدارس الحرة، الصادرة من طرف الشيخ بن باديس (رؤوس أقلام لجنة التنسيق الطلابي لمدينة الجزائر، 29-9-1937 (AOM Oran 5-1-53)

من التي اتخذتها قبل القطيعة ولا ندري، أصلا، هل اتخذت موقفا معينا لصالح مشروع Blum-Viollette أم ضده. حضر الرئيس مصطفاي حفل تدشين نادي الوحدة الفرنسية - الإسلامية من طرف الشيخ العقبي، في أفريل 1937، ثم أعلنت الجمعية العامة للطلبة، المنعقدة في ماي 1939، "أنَّهم مسلمون قلبًا وروحا" وندَّدت بمشروع منح صفة المواطنة مقابل التنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية.[119] ولكن لا يبدو على جمعيتهم أنها كانت حينذاك تلعب دورا رياديا ولا طلائعيا في الحياة السياسية للأهالي. كانت بياناتها الصحفية توحي بأنها تؤدي نشاطات مهنية وثقافية بصورة أساسية؛ وبهذا يمكن إدراك سرّ موافقة الجمعية العامة للطلبة الجزائريين على المصالحة معها، سنة 1938-1939، فالنشاط السياسي، للطلبة الملتزمين، كان يتمّ خارج صفوف "و.ط.م.إ.ش." التي كانت بخصوص هذا الموضوع مترددة في المُضي بخطوات حاسمة إلى الأمام.

كان تسييسُ "و.ط.م.ش.إ."، بعد إعادة لمِّ شملها، قد بلغ ذروته في باريس سنة 1937. ولقد برز ذلك التسييس في تقديم تظلماتها إلى الندوة الدولية للطلبة، المجتمعة في باريس في إطار المعرض العالمي، وبعد أن تمت المصادقة عليها بالإجماع من طرف الحاضرين أثارت تلك الأمنية اهتمامَ ممثلي ست وثلاثين دولة فاعتبروها قضية خاصة بهم وطالبوا "بأن يُسمح للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بحرية عقد مؤتمرهم داخل قارتهم"؛[120] ومع ذلك فإن هذا الأخير لم يتمكن من الانعقاد، في مدينة الرباط، لأنَّ مصالح المقيم العام سحبت من منظميه رخصة الاجتماع إثر الغليان الذي ساد المدنَ المغربية الكبيرة. رفض الطلبة الشمال إفريقيين، للمرة الثانية،

119. أنظر "العدالة" (53) 24-4-1937؛ و"الدفاع"، 1939-5-17

120. "الدفاع" (165)، 1937-10-15 و (166) 22-10-1937

تلبيةً الدعوة الموجهة إليهم من طرف الجنرال Franco ليعقدوا مؤتمرهم في مدينة تيطوان؛[121] كما أنّ حُلَّ الحزب الدستوري الجديد، في أفريل 1938، وما تبعه من أعمال شغب حال دون عقد المؤتمر في تونس. وفي شهر ماي 1939 تحصّل الطلبة على ترخيص السلطات بعقده في تونس في شهر سبتمبر[122] ويبدو أن اندلاع الحرب العالمية لم يمكن من تحقيق ذلك.

حاولت ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بباريس وبتحريض من شكيب أرسلان إنشاء جمعية للطلاب العرب في باريس (تضم طلبة مصريين وسوريين وفلسطينيين وعراقيين) وبرمجت تنظيم مؤتمر للطلاب العرب، لشهر ديسمبر 1937، في القاهرة ثم في دمشق وهو المؤتمر الذي كان من المفروض أن يُعوِّضَ المؤتمر الشمال إفريقي المحظور انعقاده في المغرب. بعد سنة انتظم مؤتمرٌ للطلبة العرب في مدينة Bruxelles، من طرف لجنة برلين الإسلامية، ولم يلق رواجا كبيرا في باريس مع أن ودادية باريس وافقت، في أفريل 1939، مساندة مبادرة جديدة من أجل إنشاء جمعية للطلبة العرب.[123]

احتجّت ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين مرة أخرى، في أكتوبر 1937 وجانفي 1938، ضد توقيف مصالي وشجبت الحكم الصادر ضده غير أن نشاطها السياسي صار يعاني الكثير، منذ أفريل 1938، من جرّاء حل الحزب الدستوري الجديد ثم الحزب الوطني المغربي.

121. "إفريقيا الفرنسية" ديسمبر 1936، ص. 564 ومارس 1938 ص. 133

122. "إفريقيا" (2) 1-5-1939

123. انظر: (AOM Oran 5-1-53) ملف "جمعيات الطلبة" : ودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا (رؤوس أقلام "أينا" لباريس 8-9-1939): جمعية الطلاب العرب في باريس ( رؤوس أقلام "أينا" 13-4-1937) ثم "مؤتمرات الطلبة" : الطلبة العرب، Bruxelles 27-30 ديسمبر 1938؛ المغرب أكتوبر-ديسمبر 1936، سبتمبر 1937، لتيطوان أكتوبر 1936، القاهرة ديسمبر 1937.

في ماي 1938 اتهم الجزائريون والمغاربة المكتب ذي الأغلبية التونسية، برئاسة صادق لمقدم، بتوريط الجمعية وتعريض مقرّها إلى التفتيش البوليسي بسبب الخلط بين نشاط الجمعية ونشاط فرع باريس للحزب الدستوري الجديد؛ ونظرا لخطر الانقسام، الذي كان يتهدّدها، قررت الجمعية العودة إلى الوضعية السابقة حيث تنصّ قوانينُها الأساسية على عدم الخوض في القضايا السياسية. ومع ذلك يبدو أن الجزائريين قلّصوا حجم مشاركتهم فيها[124]

لم يكن لدى الجمعية خيارٌ آخر غير ذلك. ذلك أنّ افتقادها المبالغ المالية، التي كانت تتلقاها من الأحزاب الوطنية المحلة، أرغمها على تقليص نشاطها وبما في ذلك النشاط الجمعوي والمهني. كانت مضطرة إلى التخلي عن تقديم قُروض الشرف للطلبة وانتقلت إلى مقر آخر بعد مغادرة مقرها ومطعمها. وجدت الجمعية نفسها في أوضاع حرجة، بينما كانت الحرب على الأبواب، ولذلك توقّف النضال السياسي لشتى جمعيات الطلبة ولو بصورة مؤقتة سواء في باريس أو في الجزائر وصار النضال السياسي للطلبة التزاما فرديا ونادرا نسبيا.[125]

زادت الحرب في تعقيد مصير الطلبة المسلمين، بسبب التجنيد (1939-1940)، الذي شمل، في هذه المرة، المسلمين بنفس الدرجة التي شمل الأوروبيين؛[126] ولكن التساوي، في الدرجة الجامعية، لم تُمكّن أولئك الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية "بصفتهم من الأهالي"، من الاستفادة بنفس

124 مذكرات AINA باريس 8-9-1939 و(AOM Oran 5-1-53).

125 في سنة 1939، بحسب AGERON، فإن 20 طالبا جزائريا فقط من بين 250 كانوا أعضاء في حزب الشعب الجزائري "تاريخ" ج.2 ص. 539

126. كان الطلبة المسلمون يمثلون 4,7% من مجموع الطلبة المجندين في جامعة الجزائر، سنة 1939-1940 كما كان عليه الأمر سنة 1938-1939

الرُّتب العسكرية الممنوحة لمن يؤديها "بصفته فرنسيا" والدليل على هذا تلك التجربة المريرة التي عاشها فرحات عباس.

بعد الاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية نزح الطلبة الشمال إفريقيون عن باريس وعن المناطق المحتلة لكي يبقوا على اتصال بأهاليهم. تجمّع أغلبهم في "المناطق الحرّة" وفي شمال إفريقيا؛ وانقطع الاتصال بين هذه الأخيرة وبين فرنسا بعد نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، في 8 نوفمبر 1942، مما دفع بعدد كبير من طلبة البلدان الثلاثة إلى الالتحاق بجامعة الجزائر؛ وبهذا لم تعد ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية تضم جزائريين فقط مثلما كانت في السابق بل أصبحت تستحق تسميتها كاملة.

كانت الحياة الطلابية مقتصرة على الاهتمام بالشؤون المهنية إلى غاية نزول الحلفاء في إفريقيا الشمالية، سنة 1942، وفي فرنسا سنة، 1944، ثمّ تفاقمت حدّة مشاكلهم المادية اليومية إلى درجة لم يسبق لها مثيل. فرضت تلك الظروف تكثيف التعاون بين الطلبة والمنظمات المهنية الأخرى، ومع السلطات الإدارية الفرنسية، نظرا لعجزهم عن التماس الإعانة الضرورية من لدن شعبهم. بعد هزيمة فرنسا وقيام حكومة Vichy أكّد Roger Saurin، في مدينة الجزائر، على التوجه الجديد للجمعية العامة للطلبة الجزائريين التي لا ترغب "في معارضة أي تجمع طلابي آخر مهما كانت انتماءاته الدينية"؛[127] فإذا كان للطلبة اليهود مبرراتٌ كافية لاتهام الجمعية العامة التي "اصطفّت بمحض إرادتها مع النظام الجديد وخانت مُثُلها العليا في التضامن الطلابي،[128] بقيادة F.Gillot (1940-1941) ثم G.Duboucher (1941-1942)

127. "La dépêche Algerienne" 11-11- & 25-11-1940.

128. انظر "الأوضاع القانونية لليهود بالجزائر"، La Dépêche Algérienne" 8-11-1941" و"رسالة من F. GILLOT" أوردها M. ANSKY؛ "يهود الجزائر، من قرار كريميو إلى التحرير". باريس. منشورات CDJC 1950 (ص. 109-116).

فإنَّ الطلبة المسلمين لم يكن لديهم ما يبرر تشكّيهم من ذلك. تمّ الاعتراف بودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية تحت رئاسة جمّام محمد الهادي، رسميا، على غرار الجمعية العامة وجمعيتين دينيتين أخريين غير اليهودية والكاثوليكية والمسيحية (البروتستنتية). شكّلت هذه المنظمات الأربعُ لجنةَ تنسيق مهنية للطلبة الجزائريين، في سبتمبر 1941، وفي نفس الوقت وُضعت دار الطلبة تحت سلطة لجنة تسيير يترأسها الناظر Hardy؛ فكانت الودادية تعقد فيها اجتماعاتها ومداومتها.[129] كان الأمر كذلك في فرنسا حيث استفاد الطلبة الشمال إفريقيون من خدمات المركز الوطني للخدمات الجامعية والمدرسية (المؤسس سنة 1941) و كذا هيئة "الإنقاذ الوطني". كان البعضُ منهم يعيش مع طلبة جاءوا من وراء البحر في سكنات أُنشئت من طرف كتابة الدولة لشئون البحرية والمستعمرات. شارك هؤلاء في اللجنة الوطنية لطلبة المستعمرات التي رُبطت في البداية بالاتحاد الوطني لطلبة فرنسا غير أن أمورها تأزمت معه، سنة 1941، ثم أنشئوا الفيدرالية العامة لطلبة المستعمرات. عقدت الفدرالية مؤتمرا في مدنية Aix، في جوان 1943،[130] أمّا ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية، التي ظلت مستقلة، فقد اكتفت بممارسة بعض المهام المهنية. كان رئيسها، سنة 1943–1944، هو الجزائري إبراهيم معيزة الذي كان "عديم الانتماء سياسيا وذا سمعة جيدة" بالرغم من كونه عضوا في القيادة السرية لحزب الشعب الجزائري.[131] لقد كان الغليان السياسي قويا غير أنه ظل مكتوما.

129. أنظر "La Dépêche Algerienne" 7-12-1940؛ 11-9-1941؛ 11-11-1941؛ 5-12-1941

130. أنظر "طلبة فرنسا ما وراء البحر، يوميات دور الطلاب (1)، جويلية 1943، إلى (8) أفريل ماي 1944

131. APP Ba. ASS 857.6 بخصوص "و.ط.م.ش.إ." أنظر "الرشيد" (6) 5-6-1943 و (17) 17-5-1744؛ و"المغرب الطلابي" (1) 1955. بخصوص الطلبة الجزائريين في مرسيليا، أنظر (AOM Oran 5-1-53) ملف "الارتياد المدرسي" (هكذا ورد) نشريات المصلحة في الشؤون الجزائرية Les Bouches du Rne.

## 3- الحياة السياسية الطلابية (1943-1954)

كان نزول القوات الإنجلو-أمريكية، في 8 نوفمبر 1942، بمثابة إيذان الحركة الطلابية بالتعبير عن نفسها في وضح النهار. ولقد انخرطت الحركة الطلابية كلها في "البيان" ثم في "حركة أحباب البيان والحرية" وتحوّلت "ج.ط.م.إ.ش." إلى منظمة سياسية بعد أن كانت، إلى عهد قريب، جمعيةً مهنية تتعاون مع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين والسلطات الجامعية الإدارية. لقد صدر ذلك التحول العنيف عن ذات الأسباب التي تحكمت في التطور العام للذهنية الإسلامية، منذ سنة 1939، غير أنّ هناك عوامل خاصة بالوسط الطلابي ينبغي ذكرها.

قضى سلوك الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، بين سنوات 1940-1942، على المبادئ التي نادت بها بخصوص تحاشي الخوض في المسائل السياسية وضرورة التضامن الطلابي وكذلك بسبب مساندتها "الثورة الوطنية" وانتشائها بإعلان تخلّيها عن موقفها الحيادي تجاه السلطة ومشاركتها في إبعاد الطلبة اليهود من الكليات؛ فتلك كلُّها أفعال سياسية. لا ندري ما طبيعة الرأي الذي ساد في أوساط الطلبة المسلمين إزاء سلوك الجمعية العامة (يبدو أنهم تعاطفوا معها) ولكن يمكننا اعتبار طبيعة سلوك الجمعية العامة إيذانا برفع آخر العقبات التي كانت تحول دون الانخراط الكلي لـ "ج.ط.م.إ.ش."، في الحركة المطلبية السائدة في أوساط المسلمين الجزائريين.

يبدو أن الدور الذي لعبه رئيسها محمد الهادي جمام في ذلك الانخراط كان حاسما. فهذا الأخير كان بالفعل من بين محرري البيان وواحدا من الساسة الذين جمعوا توقيعات المنتخبين؛ ولقد تم توقيفه، في 9 ماي 1945، وسجنه الحبس، إلى غاية فيفري 1946، باعتباره عضوا في المكتب الإداري لحركة أحباب البيان والحرية ومتعاونا مع الأسبوعية التي كانت تُصدرها

بعنوان: "المساواة". لقد كان أولَّ رئيس للوداية جمع بين المهام الطلابية وبين تحمّل المسؤوليات السياسية الهامة. إنَّ أهمية شخصه وأثره يمكن أن تعادل أهمية فرحات عباس باعتبار عهدته الطويلة على رأس الودادية ونظرا للتغيير العميق الذي أحدثه في طبيعة الجمعية.[132]

لقد قاد الحركة الطلابية، منذ سنة 1931، في دروب الاستقلالية والالتزام الاجتماعي ونظرا لشهرته، كواحد من أبرز الرؤساء القدماء ل"و.ط.م.إ.ش."، فلقد رشحته مجريات الأمور، قبل غيره، للحصول على انخراطها في الحركة السياسية.

غير أنَّ بعض الطلبة الجزائريين كانوا، منذ سنوات سابقة، ملتزمين سياسيا ولكن خارج إطار الودادية. ذلك هو حال الدكتور لمين دباغين المناضل في حزب الشعب الجزائري، منذ سنة 1939، ثم عضو القيادة السرية، في أكتوبر 1942، وإنَّه الشخص الذي جاء يبحث عن فرحات عباس غداة 8 نوفمبر لكي يعرض عليه القيام بعمل مشترك. وهناك طلبة آخرون أصغر سنا، كانوا يناضلون في صفوف حزب الشعب الجزائري، منذ عهد دراستهم الثانوية والمتوسطة، أمثال: بن خدة ومحمد يزيد؛[133] ولا شك في أنَّ التزامهم قد كان له وزن كبير في سير أمور الجمعية.

لنلاحظ أخيرا أن تشكلية "و.ط.م.إ.ش." تم تغييرُها، ابتداء من سنة 1940، وبالخصوص سنة 1942 وذلك بإشراك أعداد كبيرة من الطلبة التونسيين والمغاربة. هؤلاء المغاربة، وأغلبهم من محبي الحزب الجديد

---

132. حول مهام "و.ط.م.إ.ش" أنظر "الدفاع" (206) 21-10-1938، "La Dépêche Algerienne" 12-1940 و 11-9-1941. حول دوره السياسي أنظر: عباس "ليل الاستعمار" ص 140 و "المساواة" 17-4-1947

133. أنظر: "عباس" المرجع المذكور ص. 203؛ QUANDT، المرجع المذكور ص. 48، حربي المرجع المذكور: ص. 16 و 110-111

"الاستقلال"، كانوا نشطين بشكل خاص؛ وكان الكثيرُ منهم أعضاء في مكتب "و.ط.م.إ.ش." ونخصُّ بالذكر من بينهم "بن باركة"، الأمين العام سنة 1940-1944، قبل أن يكون عضوا مؤسسا لحزب الاستقلال[134] وعبد الكريم الخطابي، نائب الرئيس سنة 1944، وهو الذي أصبح قائد جيش التحرير المغربي فيما بعد. لقد ساهم حضور أولئك، بدون شك، في طبع صفوف "و.ط.م.إ.ش." بالروح الوطنية التي سادت بين صفوفها قبل الحرب.

انخرط الطلبة الجزائريون، تحت تأثير كل تلك العوامل، بأعداد كبيرة في حركة أحباب البيان والحرية التي ضمّتهم في فرع جامعي موحد[135] وتأسست، في نفس الوقت، جمعية التلاميذ المسلمين في مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط بالجزائر، في جانفي 1944، من طرف عبد الرحمن كيوان، قائد طلبة مدينة الجزائر فيما بعد،[136] ولقد سادت أفكار الوطنيين المتطرفين في الأوساط الطلابية كما هو الشأن في غيرها. ففي نوفمبر 1944 تم انتخاب شوقي مصطفاي رئيسا ل"و.ط.م.إ.ش."؛[137] ولاحظ الجنرال Tubert، في تقريره حول انتفاضة ماي 1945، ما يلي: "إنَّ جلَّ الشبيبة الجامعية تقريبا متأثرة بالأفكار الوطنية أو هي تطمح، على الأقل، إلى تحقيق ذاتيتها بواسطتها".[138] هكذا اكتسب الطلبة المسلمون الجزائريون السمعة التي استمرت لصيقة بهم.

---

134. حسب السيد عمار بن تومي، يكون بن باركه قد حاول تنظيم مؤتمر للطلبة الشمال إفريقيين بفاس، صيف سنة 1944. وقد يكون أيضا قد انتخب رئيسا ل"و.ط.م.إ.ش."، لكن تعرض لبرقية إقصاء من الإدارة. سنة 1945، سمح له بالتوجه إلى باريس لاستكمال دكتوراه في الرياضيات بشرط عدم العودة. أنظر: (53-5-AOM Oran) رسائل لطلبة مغاربة، في ملف مزاولات مدرسية.

135. أنظر "المساواة" (27)، 16-3-1945 (الجمعية العامة لتاريخ 11-3-1945).

136. أنظر: (AOM Oran 5-1-53) ملف جمعيات الطلبة، و (JORF 11-3- 1944) ص. 208

137. "العدالة" (12) 1-12-1944، حول دور مصطفاي في حزب الشعب الجزائري سنة 1945، أنظر حربي المرجع المذكور ص. 26 و 119.

138. تقرير TUBERT، (بالآلة الراقنة) ص. 8.

كان الالتزام السياسي الراديكالي لودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين في باريس حدثا عاديا وغير جديد؛ ولقد سمح تحريرُ باريس من السيطرة الألمانية ثم نهاية الحرب باسترجاع الودادية تلك القيادة التي كانت تسهر على مصالحها، قبل 1940، وهذه الأخيرة حملت معها تحمُّسها للمطالب الوطنية المغاربية. ورَد في أحد التقارير، سنة 1946، أنَّ عدد الطلبة في الودادية كان يتراوح ما بين 350 و 400 طالب أغلبيتهم من التونسيين ومن بينهم حوالي مائة جزائري وحوالي ستين مغربيا. في السنة الموالية (1946-1947) ذكر مقالٌ في صحيفة "العدالة" أنَّ مجموعهم قد بلغ 460 طالبا أغلبهم من التونسيين ومن بينهم حوالي مائة جزائري.[139] كان الطلبة المنتمون إلى البلدان الثلاثة ذوي نزعة وطنية راديكالية فجميعُ الطلبة التونسيين منضمون إلى الحزب الدستوري الجديد وكانوا يقدِّسون شخص بورقيبة وكان ثلاثة أرباع المغاربة أنصارا لحزب الاستقلال والبقية للحزب الديموقراطي للاستقلال تحت زعامة الوزاني وأخيرا كان ثلثا الجزائريين، على الأقل متعاطفين مع مصالي وحزب الشعب الجزائري وكان الثلث الأخير تابعا لفرحات عباس وحزب البيان. ويضيف نفس التقرير قائلا: "الكل يتحدث عن شمال إفريقيا، باعتبارها بلدا واحدا، ويتمنون استقلاله ويؤيدون فكرة انضوائه في فدرالية تضم الدول الثلاث(...)".

لم يكن الطلبة الجزائريون، في تلك الأجواء، يتميزون عن بقية رفاقهم فكان العَلَم الذي يرمز للوطنية الجزائرية أخضر وأبيض يتوسَّطه هلال ونجمة حمراوان وكان يزين محلات المقر في 117 شارع Saint-Michel كما تفعله الأعلام الرسمية لكلٍّ من تونس والمغرب. كانت المحاضرات التي أُلقيت، سنة 1945-1946، في ذلك المقر تتناول مواضيع مثل الجامعة العربية والأمير عبد الكريم ومقاومة البربر للرومان والاستعمار الفرنسي في الهند

139. ع. سفير. المقال المذكور: "العدالة" (69) 10-3-1947.

سينية؛ وفي السنة الموالية لفت كاتب ياسين (الذي غادر مقاعد الدراسة في مرحلة التعليم المتوسط) أنظارَ الشاب وأثار حماسهم حين ألقى محاضرةً تحت عنوان: "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر". كان الاحتفال بالأحداث السياسية الكئيبة يتم بالإضراب عن الطعام أو بعقد التجمعات أما الأحداث المُفرحة فيُحتفَل بها بالولائم. كانت النشاطات الثقافية نزّاعة إلى تمجيد الثقافة العربية وتعظيم شأن المواسم الدينية التي تبعث التضامن الإسلامي. حاولت "و.ط.م.ش.إ"، في سنة 1946، تجديدَ ما انقطع من تقاليد عقد المؤتمرات الثقافية، بشمال إفريقيا، ولكن دون جدوى. تعرَّض المؤتمر الذي عزمت على عقده في مدينة فاس، في سبتمبر 1946، للمنع فانعقد بباريس، في مارس- أفريل 1947، وشارك فيه ستون طالبا من شمال إفريقيا ...ا مقيمين في فرنسا وتسعة ممثلين عن شمال إفريقيا وخمسة من الطلبة العرب المقيمين في باريس. كان من بين أهداف المؤتمر دراسةُ مشاكل الشبيبة الشمال إفريقية وتأسيسُ تنظيم دائم لها وربطُ الصلة مع العالم العربي.[14] وفي نفس الوقت كانت معاشرة الطلبة الفيتاميين والملغاشيين ...ي فيهم الشعور بالتضامن مع كل الثورات ضد الاستعمار في العالم. ...ت "و.ط.م.ش.إ" و"و.ط.م.إ.ش" مع منظمات طلابية أخرى لبلدان ما وراء البحر مباشرة إلى الاتحاد الدولي للطلبة، سنة 1947، رغم معارضة الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا.[14]

من نتائج الالتزام الوطني، لجمعيات الطلبة المسلمين، أنَّها تحرَّرت من ...ية للحركة الطلابية الفرنسية؛ ومع ذلك فإن القطيعة في مدينة الجزائر ...ن فورية. أمَّا الجمعيةُ العامة للطلبة الجزائريين، التي لطخت سمعتها، ...ـة التعامل مع حكومة Vichy فقد تم استبدالها "بالوحدة النقابية للطلبة".

... (65)، 1947-2-20 (69) 1947-3-20 (75) 1947-4-3

... "العمل النقابي الطلابي" ص. 60

وذلك في أكتوبر 1943، ثم استُبدلت، في ماي 1943، "بفدرالية جامعية" كانت "و.ط.م.إ.ش." ممثلة فيها ثم أخيرا، في نوفمبر 1944، "بالاتحاد العام للطلبة" الذي كان يدَّعي "جمعَ شملِ رفاقنا دون أي اعتبار ديني أو عرقي أو سياسي".[142] كانت الجمعية العامة، التي تلتها في نوفمبر 1945، قد صادقت على نمط انتخابي يضمن انتخاب ممثلٍ واحد، على الأقل، للطلبة المسلمين في كل كُليّة مما جعل عددهم الإجمالي 5 من بين 24 ممثلا. تعرَّض ذلك الحل "الأنيق، والديمقراطي والمعقول" لانتقاد بعض الطلبة الفرنسيين الذين اعتبروه بمثابة امتياز، غير مبرر، رفعَ نسبةَ تمثيل الطلبة المسلمين؛ وما دام هؤلاء يتمتعون بجمعية خاصة بهم فلماذا لا يعاد إنشاء لجنة للتنسيق؟ غير أن الرئيس الجديد André Dissard برَّر ذلك الإجراء بكونه إجراءً استثنائيا أملته ضرورة العمل "لكي لا نُرغم رفاقَنا، الطلبة المسلمين، على الانضواء في جمعية خاصة بهم ولنُمكِّنهم من فرصة المشاركة في الحياة الطلابية حتى وإن كانت نسبةُ تمثيلهم أعلى من عددهم الحقيقي في مختلف الكليات" ثم أضاف واثقا: "إن جمعية الطلبة المسلمين سوف تقدم لي يد العون بلا شك، لتحقيق مثل ذلك التعاون".

لكن عند الدخول الجامعي، سنة 1946، صارت إدارة "و.ط.م.إ.ش" تحت سلطة الطلبة الوطنيين الراديكاليين في حزب "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" وفي نفس الوقت ألغت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين ... التمثيل الخاص للطلبة المسلمين الذين كانوا ممثلين في مكتبها الإداري بصفة فردية، وذلك إلى غاية 1954. أنشأ الرئيس الجديد Vassalo ...

142. انظر DJORF (28) 16/10/1943 و (49) 15-6-1944، "الأخوة" (29) 5-7-1944؛ "العدالة" ... 1-12-1944؛ و"الجزائر الجامعة" (1) جوان 1945

143. حول إعادة تنظيم الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، الصعبة، أنظر: "الجمهورية الرابعة" ... (110) 17 و 24-11-1945؛ 1. 8 و 12-13-1945 "الأخوة" (48) إلى (52) 15، 22 و 29-11؛ 6 و ... 1945 ثم الجزائر الجمهورية 21 و 19-11؛ 1. 4 و 11-12-1945، "طالب مدينة الجزائر" (1) ماي ...

سنة 1948، منصب نائب الرئيس المكلّف بشؤون المسلمين لكي يتدارك ذلك النقص "الذي سوف يقرّبنا بعض خطوات نحو رفاقنا ويقرّبهم نحونا لكي نتعرّف على أوضاع معاشهم المادية والصعوبات التي يواجهونها والضروريات التي هم في حاجة إليها وهم يتابعون معنا نفس الدروس"(...)[144] كان الأمر يتعلق، في الحقيقة، باحتواء الطلبة المسلمين وفصلهم عن تنظيمهم النضالي.

منذ ذلك الوقت صارت علاقة الجوار بين الجمعيتين صعبة التعايش. ففي سنة 1949، قرّر Vassalo إغلاق غرفتين كانت الودادية تشغلُها، منذ 1944، في مقر الطلبة. ثمّ تلقت وعدا من رئيس الجمعية العامة Gérard Male بالإعانة في السنة الموالية، ولكن هذا الأخير غيّر رأيه بعد مدة قصيرة.[145] كانت عزلة الطلبة الوطنيين الجزائريين تامة تقريبا؛ ولم تكن تربطهم علاقات ودية سوى مع بعض الفصائل الصغيرة من المناضلين اليساريين وأغلبهم شيوعيون أو مسيحيون كانوا يحاولون إرساء دعائم الوحدة الأخوية بين كل الجماعات القاطنة في الجزائر دون استبعاد فكرة إنشاء أمة جزائرية مستقلة.[146] ومن مفارقات الأمور أن يكون اندلاع ثورة نوفمبر 1954 سببا في آخر محاولة للتعاون على أساس التخلّي عن النشاط السياسي بين الجمعية العامة للطلبة الجزائريين وودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية ثم الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. لكن حالة الحرب، في سنتي 1955–1956، حالت دون مواصلة تلك التجربة فدخلت المنظمتان الطلابيتان في صراع بينهما وتمسّك كل منهما بمواقفه الخاصة.

144- الجزائر الطلابي (45) أفريل ماي 1948.

145- انظر Alger étudiants جانفي 1950، و"الجمهورية الجزائرية" (318) 31-3-1950

146- ح.ط.م.إ.ش." الكشافة الإسلامية الجزائرية، والجمعية الكاثوليكية للطلبة قد أسسوا اتحادا للشبيبة الجزائرية من أجل العمل الاجتماعي في نهاية سنة 1951؛ انظر: "صوت الشباب" ماي 1952. فيفري ديسمبر 1953

كانت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين تقود الاتجاه اللاسياسي داخل الاتحاد العام لطلبة فرنسا المنقسم إلى جناحين هما: أنصارُ "العمل النقابي الطلابي"، الملتزم في الحياة الاجتماعية، وأنصارُ العمل المهني المحض. وفي مؤتمر Nice، أفريل 1948، ندَّد رئيسُها Vassalo بانضمام "و.ط.م.إ.ش." و"و.ط.م.ش.إ" إلى الاتحاد الدولي للطلبة وتمكّن من الحصول على إنشاء نيابة للرئيس مكلفة بإفريقيا الشمالية. وبصفته تلك دعا الجمعيات العامة الفرنسية في تونس والرباط والدار البيضاء إلى سلوك نفس سبيل "ج.ع.ط.ج." وتعيين نيابة رئيس لشؤون المسلمين. وفي مؤتمر Touquet، أفريل 1949، تلقى رئيسُ الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا توبيخًا بسبب احتفاله بالحادي والعشرين فيفري، اليوم العالمي لمحاربة الاستعمار، الذي قرره الاتحاد الدولي للطلبة؛ غير أن ذلك المؤتمر اعترف للمرة الأولى باستقلالية الجمعيات الطلابية لبلدان ما وراء البحر. أخيرا صادق مؤتمر Arcachon، أفريل 1950، على تصريح حول السياسة الاستعمارية ضد رأي الجمعية العامة للطلبة الجزائريين التي شعرت أنها متهمة كل يوم أكثر بحمل أفكار استعمارية. لكن الأغلبية التي تحصلت عليها النزعة اللاسياسية، من سنة 1950 إلى غاية 1955، قد طمأنتها بكيفية مؤقتة.[147]

ظهرت في أهم جمعيات الطلبة المسلمين نشاطات سياسية طلابية كانت امتدادا لنشاط الأحزاب المناهضة للاستعمار وللتنافس السائد بينها، منذ أن تفكّكت صفوف أحباب البيان والحرية، وكان يُنشِّط الحياةَ السياسية بعض المناضلين الذين استطاعوا استمالة قلوب عدد من المتعاطفين ولكن من الصعب تحديد عددهم. كان أولئك المناضلون يوزّعون صحافة أحزابهم ويزوّدونها بالمقالات وبالأصداء عن الحياة في الكليات ويحرّرون النشرات

147. انظر Alger étudiants أفريل ماي 1948، 1950، 1951، و"أصول العمل النقابي الطلابي" ص 60-90

الداخلية في فروعهم الجامعية أو حركاتهم الشبانية ويحاولون إصدار صحيفة طلابية عندما تؤول إليهم شؤون جمعية الطلبة المسلمين. وكان البعض منهم، زيادة على ذلك، يزاول مهام قيادية علُيا في سلّم تنظيمه الحزبي وخصوصا في حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية فكانوا، بتلك الصفة، يشاركون في ضبط سياستها وينفّذون أوامرها داخل فروعهم الجامعية. وكان البعض منهم يعمل على استدامة حياته الطلابية من أجل تأطير رفاقهم والتأثير عليهم نظريا وكان البعض الآخر، أو هؤلاء أنفسهم أحيانا، يمثّلون أحزابهم بين صفوف فئة الأهالي من الناخبين في الدرجة الثانية.

كانت السيطرة على جمعيات الطلبة المسلمين تشكّل رهانا تنافست الأحزابُ على كسبه؛ ولقد تجلّى ذلك التنافس في مدينة الجزائر، منذ سنة 1944-1945، تحت غطاء الوحدة الذي تظاهر به الفرع الجامعي لأحباب البيان والحرية. بعد مرور بعض الوقت وجّهت التهمة إلى شوقي مصطفاي، وكان وقتها رئيسا لـ"و.ط.م.إ.ش."، فاتُهم بأنه يلجأ إلى البهتان والمناورة للحطّ من قيمة شُلّة الأخضري، الرئيس الذي سبقه،[148] ولكن هذا الأخير خلفه، سنة 1945-1946، على رأس مكتب وحدوي مستعد للتعاون مع ودادية الطلبة قصدَ تنظيم المؤتمر الجديد للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين.[149]

حدث تغيير أساسي، خلال الدخول الجامعي في نوفمبر 1946، وتزامن مع انتخاب المكتب الإداري للودادية فواجه عبد الرزاق شنوف، وهو مُرشّح حركة انتصار الحريات والديموقراطية، خصمَه حسين ميمون، مُرشّح الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري، ويبدو أن الإدارة قد تدخّلت لصالح هذا الأخير فانحطّت قيمته وأدّى ذلك الأمر إلى إقصاء تلاميذ القسم

148- "الجمهورية الجزائرية" (165)، 1949-2-18.

149- حسب تقرير AGERON.

الأعلى للمدرسة وتلاميذ مركز تكوين الأعوان الطبيين.[150] إثر تلك المعركة الانتخابية، المثيرة والمشهورة، ظلت حركة انتصار الحريات الديموقراطية صاحبة الحلّ والعقد في "و.ط.م.إ.ش."، لمدة ثلاث سنوات، تحت الرئاسات المتعاقبة لكل من شنتوف (1946-1947) وبن لحرش (1947-1948) وبساي (1948-1949). ومنذ ذلك الحين أظهرت "و.ط.م.إ.ش." التزامها السياسي بوجه أكثر جرأة من أي وقت مضى. في هذا الصدد يقول هجرس: "منذ نهاية سنة 1946 غابت أجواء "الصالونات" نهائيا من جمعية الطلبة المسلمين (...) نظمت حفلا سنويا موجها ليس إلى نخبة البرجوازيين فقط بل إلى كل الأوساط الشعبية. ولقد انصبّ محتوى ذلك الحفل كله في خانة الكفاح ضد الظلم. وفي النادي، الذي بُني بفضل السند الشعبي، كانت الجمعية تنظم المناقشات وتثير المواضيع الثقافية والسياسية المتعلّقة بأحداث الساعة لتشارك فيها كل اتجاهات الرأي العام الوطني. ولم تكن تتردد في اتخاذ موقفها مع جملة المنظمات الوطنية". ذلك ما أورده صادق هجرس الذي خلف بساي.[151]

كان الأمر كذلك حيث تغيّر التنظيم الأساسي لـ "و.ط.م.إ.ش." بغرض توسيع مجال نشاطها بعد إنشاء لجان مختصة وكان ينتظم في ناديها الذي كان مقره، أول الأمر، في دار الطلبة ثم في دار الشباب في ساحة Lyre حيث ينعقد اجتماعان أو ثلاثة كل أسبوع وحيث كانت المناقشات تعقب كل محاضرة أو ندوة. ولقد انجرّ عن تسييس النشاطات الثقافية للجمعية هدير الصواعق التي صبتها الإدارة عليها تم منعتها من تنظيم عدة حفلات، خلال فيفري 1948، في الجزائر ووهران والبليدة لأن الحفلات السابقة قد نظمت تحت الرئاسة الشرفية لمصالي. وقّعت الجمعية، في 29 مارس 1948. على بيان باسم المثقفين التقدميين يطالب بالحرية والديمقراطية ووقّعت، في 22

150. شهادة السيد عمار بن تومي، أكدتها صحيفة "رباط الطلبة المسلمين" (3)

151. صادق هجرس، "أربعة أجيال، ثقافتان" النقد الجديد، (112) 1960

ـريل، لائحة تنديد بالقمع بمعية كل الأحزاب المسلمة فحاصرت الشرطةُ ـقرها أثناء انتخابات المجلس الجزائري.[152]

نظرا لانقطاع روابط الودادية مع الإدارة ومع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين فإنها اضطرت، من أجل دعم نشاطها المهني الطلابي، إلى جمعية حباب الطلاب وقد عرفت كيف توثق روابط التعاون معها؛ وبالرغم من كون تلك الجمعية، التي يرأسها عضو في الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري، ـثل النزعة البرجوازية الجزائرية وهذه الأخيرة لا تُكِنُّ وُدًّا كبيرا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية.[153] إنّ ضرورة الحفاظ على علاقات المودة التي تربطها ـساندیها هي التي أبقت الودادية في مأمن من هيمنة الحزب عليها. وليس غريبا أن يحدث ذلك ما دام هذا الحزب يضم في صفوفه روادا سابقين للحركة الطلابية يمثلون النزعة الأكثر مساندة للتفاهم مع الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري أمثال: مصطفاي وشنتوف وكيوان.[154]

وفي باريس؛ كان الطلبة يتولون، زيادة على مسؤولياتهم في المكتب الطلابي، مسؤوليات في حزب الشعب – حركة انتصار الحريات الديمقراطية. في شهر أوت 1945 تم إيقاف المحامي بن معيزة، الرئيس السابق للودادية والأمين العام لفدرالية فرنسا لحزب الشعب الجزائري، ومعه ما يقرب من خمسين مناضلا لأنهم طلبوا من السلطات الفرنسية الاعتراف بالحزب.[155] ترشّح محمد يزيد، العضو في لجنة تحضير مؤتمر 1946 والأمين العام للودادية

152. "المساواة" (68) 13-3-1947، (115) 27-2-1948 و (126) 14-5-1948؛ "المغرب العربي" 1-15-3 ـ194، "حرية" (248) 11-3-1948 و 29-4-1948

153. جمعية أحباب الطلبة كان يرأسها الأستاذ المحامي قدور ساطور ( سنة 1944)، ثم الطبيب-الكولونيل علي قاضي (1945) ثم الأستاذ الجامعي حميد بن سالم، ابتداء من سنة 1949 (أنظر: "حرية" (334) 3 نوفمبر 1949، التي نشرت ـــة المكتب الجديد)

154. أنظر حربي، المرجع المذكور. ص 119-121؛ و 150

155. "الجزائر الحرة" (3) 19-11-194- وحربي المرجع المذكور، ص 24

1946- 1947 ورئيسها سنة 1948-1947، ترشّح لانتخابات أفريل 1948 من طرف حركة انتصار الحريات الديمقراطية رفقة طالبين جزائريين آخرين في باريس. تم إيقافهم في مطار مدينة الجزائر وبحوزتهم وثائق تحرّض على ضرورة التحضير للكفاح المسلح وتكوين جيش سري وتنظيم أعمال إرهابية في أقرب الآجال. هذا الاكتشاف أعطى الفرصة للإدارة لتسلّط أقسى الضربات على الحزب الانفصالي؛ وفي ليلة الدورة الأولى للانتخابات ألقت القبض على 32 مناضلا من مجموع 59 مرشّحًا عن الحزب. كما ضاعفت الإدارة مظاهر استعراض قوّتها وتعكير سير الانتخابات باستمرار.

كانت حركة انتصار الحريات الديموقراطية قد احتكرت تمثيل الطلبة الجزائريين داخل "و.ط.م.ش.إ" وذلك بفضل التحالف الدائم مع الحزب الدستوري الجديد ومع حزب الاستقلال؛[156] فكانت الأحزاب الثلاثة تتفق قبل إجراء أيّ انتخاب، على تعيين أعضائها الذين يُنتخَبون دائما ويتقاسمون مناصب المكتب الإداري بصفة دورية منتظمة. وكانت الاتجاهات الجزائرية الأخرى تشكو من إقصائها الدائم من المكتب من طرف تحالف الأحزاب المغاربية المتطرفة الثلاثة. كان الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري ينتقد بشدة "ذلك الفريق الرباعي المشكل من جزائريين يريدون أن يسيروا كل شيء داخل "و.ط.م.ش.إ". وفي سنة 1947 تشكّل فرع جامعي لذلك الحزب وكان يدّعي أنه يضمّ عضوية 70 طالبا ونظرا لعجز الاتحاد عن التحرك داخل الودادية فقد تحفّز لإنشاء لجنة أحباب الطلبة المسلمين في فرنسا لإدارة لجنة التعاون بين الطلبة الجزائريين،157 المفتوحة على كل الأحزاب. أما الطلبة الشيوعيون فإنهم كرّسوا نفوذهم بفضل لجنة العلاقات بين الطلبة المناهضين للاستعمار التي كانت تقحم "و.ط.م.ش.إ" مع أهم

156. أنظر حربي المرجع المذكور. رؤوس أقلام 37. ص. 175

157. الجمهورية الجزائرية (141) 3-9-1948؛ "المساواة" (90) 15-8-1947. (108) 26-12-1947

الجمعيات الطلابية لبلدان ما وراء البحر في الحركة من أجل التنديد بحرب الهند الصينية وبالقمع في مدغشقر وفي إفريقيا السوداء وإفريقيا الشمالية.[158]

كانت الحياة السياسية الطلابية، من سنة 1948 إلى سنة 1954، تعكس النزوع المتنامي إلى وحدة الأحزاب المعادية للاستعمار وعلى غرار ما وقع بعد أحداث ماي 1945 فإنّ الطلبة المسلمين كانوا مُجمعين على التنديد بالقمع وبالمساس بالحريات العامة سواء في جمعياتهم العامة أو في لجان العمل التي شكلها كبراؤهم الذين سبقوهم.[159] وبعد مدة قصيرة من إنشاء الجبهة الجزائرية من أجل الدفاع واحترام الحرية(أوت 1951) تأسّست الجبهة الموحدة للحركات الشبانية الجزائرية فانضمت إليها الجمعيات الطلابية.[160] إنّ الكفاح ضد القمع، في الجزائر، والتضامن مع الرفاق، في المغرب الكبير والعالم العربي وما وراء البحر، نشاطاتٌ رسّخت في نفوس الطلاب عداوة متجذرة للاستعمار وأبعدت كل الطلاب، الممارسين للسياسة، عن فكرة الوحدة الفرنسية. كان وعيُهم بالانتماء إلى كتلة متضامنة من الشعوب المناضلة من أجل تحررها الوطني يزداد وضوحا في أذهانهم. استغل الشيوعيون تلك المشاعر لتجنيدهم تحت راية الكفاح ضد الإمبريالية وفي صفوف الاتحاد الطلابي الدولي والفدرالية الدولية للشبيبة الديمقراطية التي كانت، منذ سنة 1949، تحتفل بيوم 21 فيفري باعتباره اليوم العالمي للكفاح ضد الاستعمار. كان الطلبة الجزائريون يمتازون

158. أنظر "طلبة معادون للاستعمار" (1949-1953) و"الجزائري في فرنسا" (1950-194)

159. مواقف عديدة، تم التعبير عنها في "الجمهورية الجزائرية"، "حرية"، "الجزائر الجمهورية"، "الجزائر الحرة".. نخص بالذكر عقب "مؤامرة الحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية" لسنة 1950. أنظر "الجمهورية الجزائرية" 19-5-1950 و"الجزائر الجمهورية" 11-12-1951

160. أنظر "حرية"، (456) 1952-3-6، و (458) 20-3-1952؛ "الجمهورية الجزائرية" (296) 7-3-1952

بمشاركتهم الحماسية في تلك التظاهرة التي قسمت صفوف الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا والتي استنكرتها الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؛[161] وعلى العكس من ذلك كانوا يقاطعون الاحتفالات بيوم 8 ماي ويحولونه إلى يوم حداد. لكن الإعلان يوم 8 ماي 1954 عن سقوط Dien Bien Phu عكّر صفو مشاعر الفرنسيين وأثلج صدور الجزائريين لأنهم رأوا فيه بشائر خير تُنبئ عن قرب تحررهم فكتبت صحيفة "الشاب المسلم"، الصادرة في 30 جويلية 1954، إثر انتهاء أشغال ندوة جنيف قائلة: "من واجبنا أن نحتفل جميعا بذلك الحدث الذي يعني انهزام الاستعمار". وبعد ديسمبر 1952 دعت صحيفة "الشاب الجزائري"، الناطقة باسم شبيبة الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري، "الجميعَ للالتحاق بصفوف" رجال الثورة المضادة للاستعمار، أولئك الذين يُحضّرون، بكيفية علمية، يوم المواجهة الكبرى والأخيرة والحاسمة التي يستعد لقيامها يوما ما المنتصرون والمهزومون في سنة 1830 وهي مواجهةٌ سوف تتم بطلب من هؤلاء الأخيرين.

في تلك الظروف فقدت حركة انتصار الحريات الديمقراطية الاحتكار الذي كانت فرضته على أهم الجمعيات ومنذ سنة 1949 اعترت فرعَها الجامعي أزمةٌ خطيرة وبالخصوص في باريس. ذلك أنّ "البربريين"، وهم مناضلون شديدو المراس، ولكنهم مترددون في اعتناق الإيديولوجية العربية الإسلامية للحزب ويُؤيدون التقارب مع الشيوعيين، قد أرغموا على المسايرة أو الاستقالة؛[162] ونظرا للضعف الذي اعترى صفوف الطلبة، في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، فقد قبلوا التعاون مع الأحزاب الأخرى في الجزائر أولا ( 1949–1950) ثم في باريس في السنة الموالية.

161. حول دور الاتحاد الطلابي الدولي، أنظر: "أصول العمل النقابي الطلابي" المرجع المذكور، ص. 70 BUY François "الطلبة حسب القديس ماركس في أوروبا وفي إفريقيا" وأصداء عديدة في "الجزائر الجمهورية"، "حرية"، "الطالب الجزائري" (1953-1954)، "طلبة معادون للاستعمار"، و "الجزائري في فرنسا
162 حربي المرجع المذكور، ص. 36-37 و 114-117

شكّل "البربري" الصادق هجرس سنة 1949-1950، في مدينة الجزائر، مكتبَ اتحادٍ مع الحزب الشيوعي والاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري. كانت الحركة يومئذ تمثل ثلث الطلاب، البالغ عددهم ثلاثمائة، وكانت نسبة السُدس في الحزب الشيوعي ونسبةُ واحد من اثني عشر في الاتحاد.[163] بقي ذلك التحالف سنة 1950-1951 تحت رئاسة رابح كربوش (من الاتحاد) ثم تحت رئاسة بلعيد عبد السلام (من حركة انتصار الحريات الديمقراطية) سنة 1951-1952. لكن هذا الأخير شكّل (خلال الدخول الجامعي 1952-1953) تحالفا مع الاتحاد بدون الشيوعيين الذين اشترطوا تحديد برنامج واضح؛ وبعد مضي سنة تحالف الاتحادُ مع الشيوعيين بعد انتقادات شديدة لإدارة بلعيد عبد السلام. لم يتم تسليم أي تصريح ببراءة ذمة هذا الأخير ولكن رغم ذلك تمّ انتخابه رئيسا شرفيا "كما جرت العادة". كانت حركة انتصار الحريات الديمقراطية غائبة عن اللجنة المديرة، سنة 1953-1954، والتي ترأّسها صابر (من الاتحاد).[164] ولكن الحركة شاركت من جديد في مكتب وحدوي تم انتخابه في ديسمبر 1954 تحت رئاسة محمد خلي (بعد أن حُلَّ الحزب).

أما في باريس فقد ظلّت الحركة، لمدة أطول، مهيمنة على تمثيل الجزائريين في اللجنة المديرة لـ"و.ط.م.ش.إ." بفضل تحالفها على المستوى المغاربي. ففي سنة 1950-1951 اتحدوا، لأول مرة، بدون إقصاءٍ حول برنامج مشترك وقدموا قائمة موحدة؛ ولسنا ندري هل استمرّت تلك الوحدة

163. بحسب AGERON، "تاريخ" ج.2 ص. 539

164. "الجزائر الجمهورية" 27-11-1949؛ نفس المصدر. 3-12-1950؛ "حرية" (392) 14-12-1950؛ "الجزائر الحرة" (39) 22-12-1951 و"الجزائر الجمهورية" 11-12-1951؛ "الحرية" (495) 18-12-1952 (543) 10-12-1953 أنظر : بلعيد عبد السلام "توضيح، بخصوص الجمعية العامة السنوية لودادية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين"، وردت في قائمة مراجع أطروحة محمود تيقيا، الجزائر المحاربة، الجزائر ديوان المنشورات الجامعية 1981.

من غير انقطاع. باشرت حركة انتصار الحريات الديمقراطية الإدارة سنة 1951-1952 (أمير) وسنة 1952-1953 (بن قطاط).[165] ومهما يكن فلقد تشكلت، في سنة 1953-1954، ولأول مرة منذ سنة 1937 جمعيةٌ طلابيةٌ جزائرية (اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس) بمبادرة من الشيوعي أحمد ينّال وكانت تضم كل الاتجاهات نظرا لكون الحركة حازت على ثلاثة أعضاء من جملة تسعة في مكتب الاتحاد. كانت الجمعية تقبل عضوية الطلبة الجزائريين من كل الأصول لأن الاعتبار المهم هو أن يكونوا من أنصار استقلال البلد حسب مبدأ الحزب الشيوعي.[166] نشأ اتحادٌ شبيه بذلك في مدينة Toulouse ( مارس 1955) وكانت تلكما الجمعيتان ترغبان في تشكيل العناصر الأولى للاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين.

أصبح تجمُّع طلبة الجامعات، في تنظيم وطني واحد، ضرورةً فرضت نفسها على جدول الأعمال؛ فالحركة الطلابية الشمال إفريقية، التي تخلصت من التبعية للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، بفضل انخراطها المباشر في الاتحاد الطلابي الدولي قد تجاوزت الإطار الوطني المحض حين جمعت طلبة البلدان الثلاثة في تنظيم واحد. غير أنهم ظلّوا مُشتَّتين حسب تباعد الأمكنة التي كانوا يزاولون فيها دراساتهم. كانت "و.ط.م.إ.ش." تضم طلبة مدينة الجزائر في حين كانت "و.ط.م.ش.أ.ف"، منذ نشأتها، تطمح إلى ضم الطلبة الدارسين في فرنسا. كان ميلادها في باريس ثم تكاثرت فروعها المستقلة في عدّة جامعات عبر التراب الفرنسي؛ وتلك المدن (سنة 1955) هي: Grenoble وLyon و Bordeaux و Nancy و Rennes و Strasbourg

165. أنظر: "الجزائر الحرة" (7) جانفي 1950؛ "الجزائري في فرنسا" (7) جانفي 1951. "طلبة معادين للاستعمار" (13) ديسمبر 1951، "الجزائر الحرة" (52) 23-8-1952؛ "الجمهورية الجزائرية" (518) 19-9-1952؛ "الطالب التونسي" جويلية 1953.

166 "الجزائري في فرنسا" جانفي 1954 وفيفري 1954 .

و Cannes.[167] غير أن أكبر التجمعات الطلابية المسلمة في كل من Montpellier و Toulouse قد شكلت جمعيات مستقلة. فلم تكن جمعية الطلبة المسلمين في Montpellier مقصورة على الإطار المغاربي،[168] خلافا لاتحاد الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين في Toulouse، الذي انفصل سنة 1936–1937 عن جمعية الطلاب العرب.[169]

فكّر المؤتمر المشترك بين "و.ط.م.ش.إ" و "و.ط.م.إ.ش." (من 1931 إلى 1935) في إنشاء هيكل دائم للتشاور وللعمل غير أن قرارات الحظر الصادرة دوريا من طرف السلطات الفرنسية حالت دون تأسيسه. بعد الحرب سجل مؤتمر 1947 في جدول أعماله مشروعَ تأسيس تنظيم دائم. وفي سبتمبر 1950 عيّن مؤتمرٌ آخر، انتظم في تونس، مكتبًا دائما وكلّفه بتحضير مؤتمر تأسيسي "للاتحاد المغاربي للطلبة المسلمين" يتفرّع إلى ثلاث فدراليات وطنية.[170] لم يتمكن هذا الأخير من عقد الاجتماع في تونس، سنة 1952، بالرّغم من أنّ الندوة التي عقدتها حركة انتصار الحريات الديمقراطية، في مدينة الجزائر، (23 جويلية) قد حرّرت القانون التأسيسي لذلك الاتحاد وتمت المصادقة عليه من طرف كل الجمعيات الممثلة وهي: "و.ط.م.ش.إ" و "و.ط.م.إ.ش." والطلبة الشمال إفريقيين في Toulouse والجزائريين في الزيتونة والقرويين وتلاميذ مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط الجزائرية.

لم تتحقّق تلك الوحدة المغاربية سوى على الورق. ومن المفيد التنبيه إلى أن كل الموقعين على عقد ميلادها كانوا جزائريين؛[171] ونظرا لدخول

167. "المغرب الطلابي" (1) 1955.

168. بخصوص هذه الجمعية، الذي تبث وجودها منذ 1947، أنظر "الجمهورية الجزائرية" (284) 14-12-1951. "الطالب الجزائري" (1) نوفمبر 1953. "الجمهورية الجزائرية" (31) 11-6-1954 (49) 24-12-1954.

169. "الدفاع"، (43)، 21-12-1934 و (137) 19-2-1937؛ "المساواة" 20-3-1947.

170. "المغرب الطلابي" (1) 1955.

171. (أنظر) "الجزائر الحرة" (52) 23-8-1952؛ "الجمهورية الجزائرية" (318) 19-9-1952؛ ثم حربي المرجع المذكور، ص. 95-96

التونسيين (منذ جانفي 1952) مرحلة حاسمة من كفاحهم من أجل الاستقلال فإنهم أحسوا بالحاجة إلى العمل، بصفة أولى، في الإطار الخاص بهم. وفي جويلية 1953 أسّسوا الاتحاد العام للطلبة التونسيين. وأوصت اللائحة الختامية للمؤتمر التأسيسي "بإنشاء اتحادات وطنية في كلّ من الجزائر والمغرب ليتسنى إنشاءُ فدرالية بين البلدان الثلاثة على المستوى الشمال الإفريقي".[172]

كان مبدأ إنشاء اتحادات وطنية أمرا متفقا عليه من طرف الجميع؛ ومن المفارقة أن يكون تعريف الاتحاد سببا للفُرقة بين الأطراف؛ فمؤسّسو اتحاد الطلبة الجزائريين، في باريس، أعلنوا في شهر ديسمبر 1953 عن إرادتهم في التحضير للمؤتمر التأسيسي للاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين (في جويلية 1954) وكان من المفترض أن يضم ذلك التنظيم كلَّ الطلبة المولودين في الجزائر والمؤيدين لمبدأ استقلال وطنهم بدون اشتراط الانتماء إلى جنس أو دين حسب التعريف الشيوعي للأمة الجزائرية؛ الأمر الذي يمكّن الحزب الشيوعي الجزائري من إدراج مناضليه و"تعويم" التنظيم. وذلك، بدون شك، السبب الذي دفع عبد السلام بلعيد إلى معاكسة ذلك المخطط والدعوة منذ ديسمبر 1953 إلى تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين.[173]

لم تتميَّز الحركة الطلابية المسلمة الجزائرية يوما ما بموقف اللامبالاة تجاه السياسة بل خاضت غمارها عبر خطوات ما فتئت تزداد وضوحا في كل مرة. لكن لنحذر من المبالغة في تصوُّر الامتداد والعمق الذي اتخذتهما عملية التسييس تلك. لم تكن تشمل (إلى غاية 1954)، في الواقع، سوى الجمعيتين الكبريين "و.ط.م.إ.ش."، في الجزائر، و"و.ط.م.ش.إ."، في

172. أنظر المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلبة التونسيين، (مطبوعة)، "الطالب التونسي" (1) و"الطالب الجزائري" (1) نوفمبر 1953.

173. عبد السلام، التقرير المذكور.

لكن كم هو عدد الطلبة الذين يكلفون أنفسهم مجرد القيام، مرة في العام، بواجب الولاء لجمعيتهم؟ ففي غياب معطيات رقمية لا يمكننا تقييم تمثيلية "و.ط.م.ش.إ". لكن تمثيلية "و.ط.م.إ.ش." معروفةٌ بتفصيل أكبر؛ فجمعيتها العامة، حسب تقدير البيانات الصحفية، جمعت حوالي مائة طالب مسلم، في نوفمبر 1930، أي قرابة 100 ٪ وفي ديسمبر 1938 استقطبت 80 طالبا أي 80 ٪ ؛ ولكنها لم تتمكن، في ديسمبر 1950، من استقطاب سوى 140 طالبا من بين 400 أي نسبة أقلّ من الثلث وفي ديسمبر 1952 استقطبت 190 طالبا من بين 572 (الثلث أيضا) وفي ديسمبر 1953 230 طالبا من جملة 513 طالبا.[176]

وحسب المعلومات التي استقاها الكاتب العام علي مرّاد، من أرشيف "و.ط.م.إ.ش."،[177] تكون الجمعية قد ضمت في صفوفها ما يلي: "أكثر بقليل من خمسين عضوا، سنة 1929"، وسبعين عضوا، سنة 1938، ومائة وثمانين، سنة 1944، وفي سنة 1954 "مائتين وثمانين إجمالا". لكنه أضاف يقول: "إن عدد المنخرطين في "و.ط.م.إ.ش." لا يمثل طبعا مجمل الطلبة المسلمين الذين يترددون على جامعة الجزائر لأنه يوجد دائما بعض ممن يفضل قضاء حياته الجامعية بمعزل عن جمعيتنا". وأخيرا لاحظت نفس الصحيفة الناطقة باسم "و.ط.م.أ.ش." في بداية أكتوبر 1955 ما يلي: "إنّ الأمر الأكثر إثارة للاستغراب هو كوننا نشكل الجمعيةَ الأقلَّ عددا أي أقل من مائتي طالب" من بين حوالي 600 مسلم. يمكن التوصل إلى نفس الخلاصة الواردة في تقرير غير منشور لأحمد ينال مفادها أنّ "و.ط.م.إ.ش." لم تعد تمثل سوى الثلث إلى 40 ٪ من جمهورها الطبيعي منذ سنة 1950 على الأقل.

176. "صوت الأهالي"، (80)، 1930-12-11؛ "الدفاع" (206) 21-12-1938؛ "الجزائر الجمهورية" 3-12-1950 "الحرية" (495) 18-12-1952 ثم (547) 10-12-1953

177. "رباط الطلبة المسلمين" (3)

هذه الأرقام تنطق بنفسها عن نفسها. إنّ التسييس المتزايد لـ "و.ط.م.إ.ش." قد رافقهُ انخفاضٌ في نسبة تمثيليتها؛ ويصحُّ الافتراضُ، منطقيا، بأنَّ هذا قد تسبَّب في ذاك. تبقى معرفةُ الأسباب التي أدت إلى تدني الالتزام الوطني فهل حصل ذلك عن نقص في القناعة؟ أم خوفا من إجراءات القمع؟ أم بسبب المنافسة التي فرضتها الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؟ (الأكثر فعالية في مجال الخدمات الطلابية) أم يأسا من قدرة الحركة الوطنية وعدم جدوى تلك الصراعات الحزبية؟

حتى ولو اعترف المناضلون، في بعض الأحيان، بأنَّ ثمة جزائريون محترمون يقفون، عن طواعية، بمعزل عن الصراعات التي يعتبرونها عديمة الجدوى فإنهم ينسبون سبب تغيُّب أغلبية الطلبة، عموما، إلى الذهنية البرجوازية. إنَّ الأقلية "المُسيَّسَة"، حسب زعمهم، كانت تضم الطلبةَ الفقراء الذين يعيشون حياةً جماعيةً متعلقة بالمطاعم والأحياء الجامعية. أما الأغلبية، اللامُبالية، فتتشكل من "البرجوازيين". توجد نظرةٌ أخرى أكثر تدقيقا تُميِّز، في جملة اللامبالين، بين "المدللين" الذين يغنمون شبابهم وبين الجادين الحريصين على ضمان مستقبلهم بالعمل بعيدا عن الخوض في السياسة. كان هؤلاء، في نظر المناضلين، لا يختلفون قيمة عن البرجوازيين لأنهم يحضرون أنفسهم ليكونوا كذلك.

كان من الممكن التردد في الوصول بالبحث إلى الخلاصة التي مفادها أنَّ أغلبية الطلبة المسلمين كانوا، سنة 1954، مُحجمين عن الالتزام السياسي الوطني لو لم يشهد المناضلون أنفسهم على ذلك؛ فكل النشرات الناطقة باسم جميع الاتجاهات الوطنية كانت تندِّد بالأنانية وباللامبالاة وبعقدة الاستعلاء والاغتراب التي تُبعد أغلبية المثقفين عن شعبهم؛ وكانوا يوجهون الدعاوى إلى تلك النخبة، الضالة المنعزلة في برجها العاجي، كي تلتحق بصفوف شعبها وتقتدي بالحماس الشعبي الروسي كمثل في ذلك. إن تنظيم اتحاد طلابي كبير، حول برنامج نقابي وطني، كان يبدو لهم ضرورة ملحة لتعبئةٍ أغلبية الطلبة الجزائريين.

## القسم الثاني

# الطلبة الجزائريون وحرب التحرير الوطنية 1955 - 1962

"غدا: سوف تتبوأ النخبة الجزائرية مقاما صعبا ومخيفا إنه مقام الشرف. شرف خدمة الأمة الجزائرية والتحدّث باسم الشعب الجزائري؛ وعندئذ سوف تكون الأحكام التي يصدرها الشعب والرأي العام الفرنسي والرأي العام العالمي والتاريخ والله ناصعة لا ترحم"
" فإذا كانت النخبة المفكرة راغبة في تولي مسؤولياتها في أحسن الظروف فعليها أن تدخل، دون تريّث، في مدرسة قاسية ولكنها مثيرة للحماس وللهمم... إنها مدرسة الثورة"

محمد العربي ماضي في مطلع سنة 1955[1]

كان الطلبة الجزائريون في الجامعة الفرنسية، لمدة طويلة، ينشطون ضمن حدود أطرها بالرغم من المواقف الوطنية المتأخرة التي اتخذها بعضهم؛ ولم يشرعوا في التخلي عن تلك الأُطر إلاّ ابتداء من سنة 1955 أي بعد انضمامهم إلى الاتحاد الوطني وتطوعهم في صوف جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني. تنوّعت أشكال مشاركة الطلبة في الثورة الجزائرية وتنوعت أساليبهم مثل: التجنيد العام للطلبة لخوض الكفاح المسلح والكفاح السياسي، من ماي 1956 إلى أكتوبر 1957، ثم العودة إلى الدراسة وتكوين ذخيرة بشرية ذات كفاءة في الخارج تحسبًّا للمستقبل.

1. ذكره محمد حربي في: "أصول جبهة التحرير" ص. 267

# الفصل الرابع

# الالتـــزام

لا يسع الإنسان، إزاء الأحداث التاريخية الكبرى، إلاّ أن يقف أحد موقفين: فإما أن يأوي إلى ملجأ يعصمه من التيار أو يخوض غماره، مهما كلّفه ذلك من ثمن. كم عددُ أولئك الذين كانوا على علم بأنّ فاتح نوفمبر 1954 سوف يسجّل في التاريخ كأول يوم في تاريخ الثورة الجزائرية؟ لو كان في مستطاع البرجوازيين الجزائريين معرفةُ ذلك لأصابهم فزعٌ كبير. ولم يكن قادة الأحزاب الوطنية يعتقدون أن للانتفاضة أدنى أمل في النجاح؛ فعندما كانوا يحتجّون ضد القمع (المسلّط على كل مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية) كانوا منشغلين بحماية أنفسهم أكثر من مساندة المتمردين.

ومع ذلك فقد استقبل المناضلون الشبابُ ذلك الحدثَ بارتياح؛ وبالأخص منهم مناضلو حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذين اعتبروا فاتح نوفمبر بمثابة الفرصة الأخيرة لإنقاذ حزبهم من التفكك ولإخراج الحركة الوطنية من القمقم الذي كان يسجنها. كما حصلت القناعة لدى بعض أنصار الأحزاب المعتدلة وبعض الطلبة الذين فضلوا البقاء بمعزل عن الإثارة السياسية، بعد انتصار الثورة الفيتنامية، بأنّ هزيمة الاستعمار لا تتأتى إلاّ

بواسطة القوة والعنف؛ أما البعض الآخر فقد التحق بالثورة، بصورة عفوية، بعد أن قرأ ملامح الغضب والخوف في وجوه الأوروبيين. كان ذلك الحدثُ استجابةً لحاجة في النفوس ولو أن درجة الوعي كانت متفاوتة بين الناس. كتبت زهرة ظريف،[2] في هذا الصدد، ما يلي: "عندما كنا ندرُسُ في الثانوية، خلال الحرب التونسية، كنا نعلم أنَّ الثورة الجزائرية ستنفجر يوما ما وكنا نظن، بكيفية ربما أنانية، أنَّ ذلك سيحدث بعد أن نُنهي دراستنا لتتسنى لنا المشاركةُ فيها". لم يكن يشوب تلك الأماني إلاَّ خشيةٌ واحدة وهي "أن نرى أولئك الرجال الأبطال يدفعون بأنفسهم إلى الموت المحتوم عن آخرهم (ولقد حدث ذلك مرات ومرات) قبل أن يتمكنوا من لمّ شمل الشعب الجزائري وراءهم".[3]

كانت مسألةُ المشاركة في الحرب، بالنسبة لأولئك الشباب الذين مارسوا السياسية، أمرًا مفروغا منه؛ وكلُّ ما في الأمر أنّه يتعين عليهم جميعا معرفة سبل المساهمة الفعلية. هناك سبيلان لذلك ولا تعارض بينهما هما: البحث عن "اتصال" للالتحاق، بصورة فردية، بصفوف جبهة التحرير وجيش التحرير أو تنظيم الوسط الطلابي لكي ينضم كتلةً واحدة إلى الثورة؛ وكان الحلُّ الأول أكثر جاذبية ولكنه غيرُ مأمون العواقب لأن المنظمة مقصورة على عدد محدود من الناس كانوا تحت الحصار والملاحقة البوليسية. بينما كان الحل الثاني مرهونا بإرادة الطلبة أنفسهم وفي استطاعتهم أن يقوموا بذلك فور ما يشاءون.

2. "موت إخواني" منشورات Maspero 1960

3. رسالة من Joseph SIXOU سيكسو إلى رئيس الجمهورية، "العمل" تونس، 1957-12-2، أوردها محمد لبجاوي، "حقائق حول الثورة الجزائرية" Gallimard 1970، ص. 121-123

## أ- تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين.

### 1- معركة الميم (الحرف الأول في لفظة مسلمين)

سبق التخطيط، منذ سنة 1953، لتأسيس اتحادٍ طلابي جزائري مستقل عن الاتحادات الأخرى؛ غير أنَّ تجسيده تأخَّرَ بسبب خلاف سياسي، وقع بين أنصار الاتحاد الوطني للطلبة الجزائيين وأنصار الاتحاد العام للطلبة الجزائريين، حول التسمية التي ينبغي أن تُطلق عليه. ولقد بادر الأولون، منذ ديسمبر 1953، إلى إنشاء اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس "إ.ط.ج.ب"؛ وكان تنظيما مفتوحا لكل طالب، من أصل جزائري، مؤمن بضرورة استقلال بلاده دون أيِّ تمييزٍ عرقي أو ديني (وفق توجهات الحزب الشيوعي الجزائري). كان هدف الاتحادُ هو تشكيلُ نواة أولى تلمُّ شمل الطلبة الجزائريين بنفس المقاييس السياسية؛ غير أنَّ المؤتمر التأسيسي، المقرّر عقدُه في جوان 1954، لم ينعقد لأنَّ الحزب الشيوعي الفرنسي كان يفضل تشكيل اتحادين متميزين عن بعضهما واحد في فرنسا والآخر في الجزائر. جلب "إ.ط.ج.ب"، في أثناء ذلك، عددا كبيرا من الطلبة بفضل نشاطه النقابي والتظاهرات الاحتجاجية ضد القمع.[4] كان مكتبه الإداري يضم، إلى جانب مؤسسيه الشيوعيين، (أمثال أحمد ينال) عددا من الوطنيين المستقلين من أنصار الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري وجمعية العلماء وكذا أعضاء من حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

غير أن بلعيد عبد السلام، الرئيس السابق لودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية والمسئول عن الطلبة في اللجنة المركزية ل."ح.ن.ح.د."، قد استقر في باريس منذ نهاية سنة 1953 لمقاومة مشروع الاتحاد الوطني

4. أنظر "الجزائر الجمهورية" 21-22 نوفمبر 1954، 2 جوان 1955، وكذا "الجمهورية الجزائرية" 10 جوان 1955.

للطلبة الجزائريين ولتجسيد مشروعه وهو: الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (إ.ع.ط.م.ج.). تقرب من المناضلين الشباب في جمعية العلماء (أحمد طالب) وكذا في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (ياكر) اللذان سبق أن طرداه من قيادة "و.ط.م.إ.ش."؛[5] وكان بلعيد، في مسعاه هذا، يهدف إلى عزل الشيوعيين وأنصارهم داخل "إ.ط.ج.ب".

في شهر ديسمبر 1954 انتخبت "و.ط.م.إ.ش."، في مدنية الجزائر، مكتبا قياديا وحدويا تحت رئاسة محمد بغلي؛ وكانت "ح.ن.ح.د."، المُنحلة في شهر نوفمبر من طرف السلطات الفرنسية، مُمَثَّلةً فيها من جديد من طرف عبد القادر بلعربي وعبد الرحمن خان. تميَّز المكتب المذكور بطرح سياسي جديد تمثَّل في المُصالحة مع الجمعية العامة للطلبة الجزائريين (التي خصصت للمسلمين منصبا قياديا) على أساس قاعدة الحياد السياسي الذي تتمسك به هذه الأخيرة. قدَّمت الجمعيتان للحاكم الحاكم، الجنرال Soustelle، لائحة ضمَّنتها الصعوبات التي يعانيها الطلبة المسلمون بصفة خاصة؛[6] غير أنَّ الميل المفاجئ إلى المواقف النقابية التقليدية من طرف الجمعية العامة لم يكن أمرا منتظرا وإنما أملته هواجس أخرى غير الحذر والاحتياط الذي كانت تُمليه الظروف آنذاك. لم يُغيِّر تقرُّبُ الطلبة المسلمين من رفاقهم الفرنسيين شيئاً من قناعاتهم السياسية. لا ندري هل احتجّت "و.ط.م.إ.ش"(على غرار "و.ط.م.ش.إ" و "إ.ط.ج.ب.") ضد حملات الاعتقال التي سلِّطت على الأوساط الطلابية إلاَّ أنَّ بعض أعضائها ساهموا في إنشاء لجنة للنضال ضد المساس بالحريات تتألف من سبعين طالبا من أصول شتى.[7]

5. أنظر محمد حربي، "أصول جبهة التحرير الوطني"، ص 175، نقطة 37، والتقارير المذكورة لأحمد بنال وبلعيد عبد السلام.

6. "الجزائر الطلابي"(4) جانفي 1955، (5) ماي 1955، ثم "الجزائر الجمهورية" 2 أفريل 1955.

7. "الجمهورية الجزائرية"، 18 مارس 1955، وكذا شهادة Charles GERONIMI، في كتاب FANON Frantz: العام الخامس للثورة الجزائرية، ص.164-167.

وجّهت الجمعية العامة للطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية نداءا عاجلا لكل الطلبة الجزائريين، في 27 فيفري 1955، تدعوهم فيه إلى تشكيل اتحاد عام للطلبة المسلمين الجزائريين دون تأخير. وُزِّع منشورٌ، في هذا الصدد، على كل الجمعيات وأرسلت الجمعية دعاتها إلى الأنحاء وكان من بينهم: محمد بن يحي ولمين خان (كلاهما مناضل في صفوف "ح.ن.ح.د" سابقا). زعزعت تلك الدعوة أنصارَ الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين فخرجوا عن جمودهم وأسّسوا اتحاد الطلبة الجزائريين في مدينة Toulouse على غرار اتحاد باريس. انعقدت ندوةٌ تحضيرية في باريس، بطلب من هذا الأخير. ضمّت ممثلين جاءوا من كل جامعات فرنسا؛[8] ووقع الإجماعُ على ضرورة تحقيق الوحدة الوطنية لولا الخلاف الذي شبّ حول تسمية المنظمة وبالخصوص حول إدراج حرف "م" (رمز كلمة مسلمين) أو عدم إدراجه في التسمية. انقسمت الآراءُ في اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس حول هذه النقطة لأن بعض أعضائه كانوا يؤيدون، منذ البداية، مبادرة "و.ط.م.ش.إ". أما الطلبة الماركسيون في باريس وToulouse فكانوا يدافعون، دون جدوى، عن تصوّرهم لأمة جزائرية مفتوحة للجميع: "جزائرٌ للجزائريين مهما كانت أصولهم" ولم يكونوا يعيرون كبير أهمية للبُعد الديني والثقافي الذي طبع الحركة الوطنية الجزائرية وشكّل سورا ضروريا لوقايتها من الاندماج. استطاعت الحجج التي قدمها أحمد طالب، في هذا الصدد، إفشال مساعيهم؛ وأكّد أغلبُ المشاركين على أنّ "الطالب المسلم الجزائري قد فُطم، بالرغم منه، وحُرم من ثقافته العربية الإسلامية ومن لغته الأصلية التي هي اللغة العربية، فعليه إذن، قبل كل شيء، إثباتُ شخصيته الجزائرية والمطالبةُ بتراثه الثقافي الذي خلّفته الحضارة العربية والدفاعُ عنه (...)". "إنّ المشاكل المطروحة، على الطالب

---

8. "الطالب الجزائري" (1) 15 نوفمبر 1955، "كفاح الطلبة الجزائريون" تونس 1960، تقرير بنال، حربي المرجع المذكور.

المسلم الجزائري، من نوع خاص به؛ ففي الجزائر تتعايش مجموعتان بشريتان ويجب أن يسود بينهما جوٌّ من الاحترام المتبادل للشخصية المميّزة لكل منهما. في حين كانت الشخصية الجزائرية دوما عرضة للقمع والتنكيل (...) ينبغي أن تعطى لها فرصةُ إثبات نفسها. يجب أن نكون موجودين أولا قبل أن نسعى للتعايش.[9] وعدت أقلية من الطلبة بأنّ حرف "م" سوف يتم التخلي عنه غداة الاستقلال (وقد وُفي بذلك الوعد حين اتفق مؤتمر الطلبة سنة 1963، على التسمية الحالية: "إ.و.ط.ج.").

كان ذلك التبرير العقائدي، الصادق دون شك، يضمر حرصا كبيرا على الوقوف ضد احتمال تمييع الاتحاد من طرف الشيوعيين "الجزائريين" وذلك بسدّ الباب أمام انخراط مناضليهم وأنصارهم غير المسلمين؛[10] فاكتسى تأسيسُ الاتحاد أهمية تجاوزت الدفاع عن المصالح المادية للطلبة الجزائريين: "إنّ تأسيس اتحاد، في الظروف الدرامية التي يعيشها بلدنا حاليا، يكتسي معنى أكبر بكثير مما يُراد من تأسيس جمعية؛ وإنّه لأبلغُ تعبير عن الانسجام التام الحاصل بين الطلبة وبين شعبهم: شعبٌ رفض رفضا باتا أن يقايض شخصيته أو يتنكر لماضٍ صنعته حضارة راقية أو يخون توجيهه التاريخي الذي يندرج حتما في نسق عربي إسلامي. تلك اللحمة الفكرية التي تجمع بين المثقفين وبين طبقات شعبنا إنها ضاربةٌ في عمق الأرض وهي خير ضمان لنجاحنا وعليها نعقد أكبر الآمال.[11]

دخل الطرفان (الأقلية والأغلبية)، إثر انعقاد الندوة، في سباق مع الزمن من أجل تنظيم مؤتمرين متنافسين تزامن انعقادهما معا في شهر جويلية بباريس. لم يكن مؤتمر الأقلية يمثّل سوى بعض الخلايا الطلابية المبثوثة في

9. "الطالب الجزائري" (1) ص. 1 و6.

10. تقرير ينال وعبد السلام وحربي، المرجع المذكور.

11. "كفاح الطلبة الجزائريين" ص. 10.

كل من: باريس وToulouse وDijon وTours وMontpellier وGrenoble. حين لم تُكلَّل مساعي الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين لتدعيم مركزه قرَّر حلّ نفسه بنفسه محاولا تناسي وجوده الهشّ؛ والتحق أعضاؤه بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (إ.ع.ط.م.ج.) الذي صمد كتنظيم طلابي جزائري وحيد في الساحة.[12]

## 2- برنامج الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين.

انعقد المؤتمر التأسيسي لـ"إ.ع.ط.م.ج." في باريس، من 8 إلى 14 جويلية 1955، في قاعة التعاضدية وبحضور شخصيات ثقافية وسياسية وممثلين عن منظمات طلابية أخرى من بينها الاتحادُ العام لطلبة فرنسا، ممثلا من طرف نائب رئيسه، Robert Chapuis[13]؛ وفي خطاب، تضمّن برنامج الاتحاد،[14] عرض أحمد طالب أهداف المنظمة المقبلة (إ.ع.ط.م.ج) فوافق عليها المؤتمر وعيّن الخطيبَ رئيسا لها. تلك الأهداف كانت من وحي منطق أوضاع الطلبة المسلمين والتي لا يمكن فصلُها عن أوضاع الشبيبة الجزائرية، عموما، ولا تمييزُها عن الأوضاع المفروضة على الشعب الجزائري من طرف النظام الاستعماري.

- "أيها الطلابُ علينا بالنضال في المجال المهني لتذليل المصاعب التي تواجهنا فلنتعاون مع جميع الجمعيات الطلابية الموجودة على الساحة المحلية".

---

12. تقرير ينال، حربي المرجع المذكور، وكذا شهادة أيت شعلال

13. المحضر الذي نشرته "الجمهورية الجزائرية" بتاريخ 19-7-1955، وكذا "الطالب الجزائري"، (1) 15-11-1955. حول موقف الاتحاد العام لطلبة فرنسا، أنظر "أصول العمل النقابي الطلابي" ص. 18، "أخبار اتحاد طلبة فرنسا" (27) 30-90-1955، "العمل النقابي الطلابي والمشكل الجزائري، 1960، ص.2-3

14. نسخة منه، سلمت من طرف Robert CHAPUIS

- "أيها الطلاب المسلمون إننا نعاني، في أجسادنا وفي كرامتنا، من كون لغتنا لغة أجنبية في بلادنا؛ ولن يهنأ لنا بال حتى تتبوأ تلك اللغة مقامها المشروع" وهذا يعني تعليم اللغة العربية "لجميع أبناء الجزائر في كل مستويات التعليم وفي كل مناطق بلدنا دون تمييز".

- "علينا، كنخبة محظوظة من بين شبابنا، واجبُ التصدي في كل وقت للكفاح من أجل ضمان التمدرس لكل أطفالنا؛ ولسوف ننتزع حقهم في التعليم والتربية". كانت نفس مقتضيات التكافل الاجتماعي تدفع الطلاب الجامعيين لمساندة طلبة الثانوي وذلك بمساعدتهم على الانضواء ضمن جمعيات الشبيبة الطلابية المسلمة[15] التي لم يفتأ عددها يتضاعف، منذ 1954، وبمؤازرة "تطور شبيبتنا الأنثوية في إطار قيمنا الحضارية (...) بفضل تعليم مكيف خصيصا لذلك".

تلك المطالب الثلاثة تقود حتما إلى معترك النضال السياسي؛ فالعمل النقابي، بالخصوص، سوف تكون الغاية منه ليس تحسين الظروف المعيشية للطلبة (من منحة وسكن)، فحسب، وإنما السعي أيضا لتوجيههم المهني وفتح آفاق عمل جديدة: "يجب علينا التأكيد على الدور الأساسي الذي ينبغي أن تضطلع به منظمتنا وهو البحث عن آفاق عمل لشبيبتنا. يتعلق الأمر هنا بواجبنا في المساهمة الفعلية في كل مجالات الحياة العمومية باعتبارنا إطارات بلدنا؛ وسوف نطالب بتغيير جذري في مقاييس اختيار إطاراتنا في المجالات الإدارية والاقتصادية والسياسية لأنها الهيكل الأساسي لكل بلد منظم على أسس ديمقراطية من أجل خدمة سكانه جميعا".

15. جمعيات محلية، حلت منذ 1954، محل جمعيات تلاميذ الثانويات والمتوسطات الجزائرية في كل من: قسنطينة، سكيكدة، الجزائر (في 13 فيفري 1955)، تيزي وزو، البليدة ومستغانم. انظر نشرياتهم: "العمل الطلابي" (1) مارس 1955، وكذا "الصحوة الطلابية" (1) مارس 1956 (البليدة).

يصدُقُ نفسُ الأمر عن المطالب الثقافية المؤدية حتما إلى إعادة النظر في السياسة الإدماجية الفرنسية: "فالتعليم الذي نتلقاه لا ينسجم مع مقتضيات شخصيتنا التي صاغتها قرون من التاريخ وغذتها مبادئ وآمال مشتركة.

إنّ من واجبنا الاعتراف بما لأوروبا من فضل علينا والتأكيد بأن ثقافتها فتحت لنا السُّبلَ إلى العالم المعاصر إلاّ أنّ من حقنا (بل من واجبنا) أن نظلّ على حقيقتنا وأن نحتفظ بشخصيتنا". إنّ مخلّفات ذلك التعليم، غير المكيف مع الوسط المسلم، تتمثل في الضياع الذي تتخبط فيه النخبة المثقفة الجزائرية وهي الآن أشبه باليتيم يتجاذبها عالمان فلا هي ارتبطت بثقافتها ولا هي استوعبت الثقافة المفروضة عليها".

إنّ الطلبة المسلمين يرفضون أن يظلوا أيتاما: "فمن المبادئ الأساسية لمنحنا الحيلولةُ دون الفصل والعزل الملازم حتما لنوعية التعليم الذي تتلقاه الشبيبة المسلمة في المدارس الفرنسية؛ وإننا لمقتنعون بأن نخبتنا ستظل عاجزة عن الإسهام في تحسين ظروف شعبنا ما بقيت غير قادرة على الارتباط به بالرغم من مستوى التطور الذي بلغته".

إنّ هذه الوضعية ليست وليدة الصدفة ولا يمكن تسويتها إلاّ بالتغيير السياسي: "يجب أن يحدث تغيير في المواقف التقليدية للإدارة، إزاء ثقافتنا، تلك المواقف التي أملتها الخشية من أن تبقى الشبيبة المسلمة متمسكة بدينها وبلغتها وبماضيها؛ غير أن ذلك التغيير في المواقف لن يتأتى إذا لم يحل المشكل الجزائري برمته. يجب استبدالُ التعليم الحالي، المنبثق من سياسة الإدماج، بتعليم يناسب الشخصية الجزائرية ويجمع بين الثقافتين. بعبارة أخرى لا يمكن تحقيق تعايش الثقافتين إلا بالتخلي عن وهم الإدماج واستبداله بسياسة واقعية تقوم على التعاون بين الشعبين تعاونا مبنيا على المساواة المطلقة(...).

لكن الأجواء الجزائرية الحالية يسودها الخوف والقمع؛ والمسؤولية في هذه الوضعية تعود أساسا إلى أولئك الذين يتمسكون بمقاليد السلطة كلها من غير مقاسمتها مع الممثلين الحقيقيين لشعب فُرض عليه البقاء، طيلة 125 سنة، خارج هياكل الوطن. لا مراء في وجود ما يمكن تسميته المشكل الجزائري؛ وهذا المشكل يستلزم حلا عاجلا لأن طول مدّة المطالبة بالعدالة يمكن أن يؤدي إلى نفاذ الصبر وتحريك الضغائن وقسوة القلوب".

هذا المصير المأساوي ليس مرغوبا فيه؛ وبالفعل فإن ثمة "هدفا آخر لاتحادنا وهو أن يكون بمثابة صلة الوصل بين الحضارتين" وذلك بالاستفادة من الازدواجية الثقافية. إنّ الارتباط المخلص بالثقافة الفرنسية وتواجد أقلية أوروبية في الجزائر، كأمر واقع، يفرض "ضرورة التعايش والتفاهم المتبادل".

لكن الحركة الطلابية الجزائرية لا يمكن أن تظل حبيسة الحياد؛ وبانتهاج مسار تدريجي ومنطقي وجدت المطالبُ، الخاصة بالطلبة الجزائريين، نقطة التقائها مع مطالب الحركة الوطنية لتتحول إلى مشاكل سياسية حامية الوطيس. كانت خلاصة الخطاب فاصلة: "فيما يخصنا فإن وحدتنا ليست إبداعا اصطناعيا. إنها تعكس مجرى تيار قوي لم ننتظر حتى تحملنا قوة دفقه بل إنّ رغبتنا قوية في المشاركة فيه بكل نشاط؛ ففي نقطة التفرّع التي وصل إليها تاريخ بلدنا إن اتحادنا يمكّننا من جمع أمرنا واستخلاص العبرة وخصوصا بالنسبة لجيلنا الذي يتساءل عن مستقبله. لن نرضى أبدا بيناء ذلك المستقبل على الكراهية والضغينة".

بالرغم من تلك التحفظات فمن الواضح أننا هنا إزاء التزام صارم بالمساهمة في المعركة التي يخوضها الشعب الجزائري.

## ب) النضال الملتزم للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

### 1- مناهضة القمع

لم يعُد "إ.ع.ط.م.ج." يعتبرُ نفسه "حلقة وصل" بين فريقين لا أمل في التقريب بينهما بسبب التطور السريع لمجريات الحرب؛ فتحولَ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين إلى "وحدة نضالية" تابعة لجبهة التحرير الوطني: صار الاتحادُ يناهضُ أساليب القمع وضاعف نداءاته إلى الشعب الفرنسي راجيا منه ترجيح العقل. بعد القمع الرهيب أثناء أحداث 20 أوت 1955 "ترحَّمَ (الاتحادُ) على الضحايا البريئة، في صفوف المسلمين والأوروبيين على حدّ سواء، ثم رفع احتجاجا شديد اللهجة ضدّ الأساليب التي استعملتها قوات القمع حين دمّرت قرى بأكملها ولم ترحم لا النساء ولا الأطفال وقضت على آلاف السكان العزّل(...). أصبح من الضرورة بمكان إحداث تغيير جذري على الفكر السياسي الفرنسي، تجاه القضية الجزائرية، للوصول إلى تصورِ حلٍّ ناجع ولن يكون الحلُّ ناجعا إلاّ إذا أخذ في الحُسبان مقومات الشخصية الجزائرية وإرادةَ الشعب الجزائري". بعد الانتخابات التشريعية، التي جرت في 2 جانفي 1956، وجّه الاتحاد نداء يهيب بممثلي الأمة الفرنسية أن تعمل على إيقاف إراقة الدماء في الجزائر.[16]

لم يجد ذلك الخطاب آذانا صاغية لأن أعمال العنف التي ارتكبها الثوار في الشمال القسنطيني، في 20 أوت 1955، جعلت الفرنسيين، في الجزائر، يعتقدون أنهم محكوم عليهم بالإعدام عاجلا أو آجلا ولم تكن التدابير العسكرية التي اتخذتها السلطات كافية لطمأنتهم. ثم تطورت القضية المغربية نحو الاستقلال فوقَر في نفوس فرنسيي الجزائر اعتقادٌ راسخٌ بأنّ

16. "كفاح الطلبة الجزائريين"

السلطات الفرنسية سوف تتخلى عنهم وتتركهم يواجهون مصيرهم بمفردهم إن لم يُظهروا للوطن الأم عزمهم الحازم لإنقاذ الجزائر الفرنسية.

ما كان للجامعة أن تظل بمعزل عن تلك الأجواء الملتهبة؛ ففي مدينة الجزائر صار الحوار أمرا مستحيلا بين أنصار بقاء فرنسا، بغير قيد ولا شرط، في الجزائر وبين أنصار استقلال الجزائر. انقسم الطلبة الفرنسيون إلى فئتين غير متكافئتين: أغلبية تعتبر أنَّ الحل الوحيد هو القضاء على الانتفاضة؛ وأقلية "ليبرالية" كانت تعتقد أنَّ التفاوض مع شتى الاتجاهات السياسية الجزائرية، بما فيها المتمردين، يمكن أن يحول دون ما لا تحمد عقباه.[17] بدأ تجنيد الفئات في فرنسا يفعل فعله في تحسيس الأوساط الطلابية؛ فمنذ شهر أكتوبر كان الردُّ على مقال صدر في مجلة L'Express قد زعزع أركان المكتب الإداري في الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا: فالأقلية، بقيادة Borella وChapuis، كانت تريد الانضمام إلى حملة الاحتجاج ضد الحرب بينما عارضت الأغلبية ذلك الانضمام بدعوى الوقوف على الحياد سياسيا.[18]

إنَّه لمن مفارقات الأمور أن تُبادر الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، في ذلك الوقت بالذات، إلى تشكيل مكتب يتكون من "أغلبية ليبرالية" قريبة من اتجاه "الأقلية"؛ برئاسة Paul Akoun الذي يمثل مجموعة من الطلبة اليساريين الكاثوليكيين والشيوعيين واليهود والمسلمين الحريصين على حُسن العلاقات بينهم بالرغم من اندلاع الحرب. يعود السبب في نجاحهم على ما يبدو، إلى قلَّة عدد الطلبة المشاركين في الجمعية العامة (100

17. البعض منهم، على غرار الطبيب المتربص Pierre Chaulet، المناضل المسيحي الذي ساهم في تأسيس "اتحاد الشبيبة الجزائرية للإنقاذ"، قد ذهب إلى حد الانخراط في جبهة التحرير الوطني. انظر Geronimi، الشهادة المذكورة

18. "أصول العمل النقابي الطلابي"، ص، 187-197. أغلبية المسيرين المشكلين "للأقلية" كانوا مناضلين ضمن الشبيبة الطلابية المسيحية

عضو من بين 5.200 مسجل) وإلى غموض الغاية السياسية من وراء تلك الانتخابات؛ غير أن المكتب الجديد لم يلبث أن طلب من رئيسه توضيح موقفه بصراحة.

في 07 ديسمبر 1955 ألقت الشرطة القبض على طالب في قسم الآداب يدعى محمد رشيد عمارة وهو رئيس ودادية الطلبة الشباب المسلمين الجزائريين ومناضل هام في جبهة التحرير الوطني. كلّف هذا الشاب بتوزيع منشورات سرّية تهدّد بالقتل كل جزائري يساهم في الانتخابات التشريعية، المزمع إجراؤها يوم 02 جانفي، كما أُلقيَ القبض أيضا على ثلاثة أعضاء في الشبكة التي كان يُشرف عليها. صادق المكتبُ، بالاتفاق مع فرع "إ.ع.ط.م.ج." المجتمع في 15 ديسمبر، على لائحة تُطالب "المصالح المعنية باحترام المعايير القانونية والإجرائية في القضايا الإجرامية، وخصوصا منها الآجال القصوى للتوقيف في محلات الشرطة، وهي محدّدة قانونًا بثمان وأربعين ساعة وطالبوها بالكفّ عن ممارسة التعذيب الجسدي".

لم يكن ذلك التذكير بالمبادئ، المعترف بها قانونيا، مجرد حدث عابر؛ فقد تلقّى الطلبةُ المسلمون خبرا مفزعا يتعلق باكتشاف جثة رفيقهم زدّور قاسم بعد أن اعتقلته شرطة مدينة وهران، في 6 نوفمبر 1956، فاللائحة التي أصدرها المكتب الإداري كانت إذن تعبيرا عن التضامن الطلابي ولا تمس بصلاحيات السلطات العمومية. غير أنَّ الأعضاء السابقين في المكتب الإداري بقيادة Jacques Laporte ندّدوا بذلك "التدخل غير القانوني في المجال السياسي وبتلك المبادرة التي من شأنها تدعيم الإرهاب والإساءة لسمعة العدالة الفرنسية" وبضغط منهم ندّد اثنا عشر عضوا في المكتب الجديد باللائحة الصادرة بينما أصرّ أربعة عشر عضوا، من نفس المكتب على التمسك بها. إثر ذلك استقال المستشار القانوني من المكتب وسبعة أعضاء احتجاجا على قرار الأغلبية. بعد أن لاحظ قدماء

عضو من بين 5.200 مسجل) وإلى غموض الغاية السياسية من وراء تلك الانتخابات؛ غير أن المكتب الجديد لم يلبث أن طلب من رئيسه توضيح موقفه بصراحة.

في 07 ديسمبر 1955 ألقت الشرطة القبض على طالب في قسم الآداب يدعى محمد رشيد عمارة وهو رئيس ودادية الطلبة الشباب المسلمين الجزائريين ومناضل هام في جبهة التحرير الوطني. كلّف هذا الشاب بتوزيع منشورات سرّية تهدّد بالقتل كل جزائري يساهم في الانتخابات التشريعية، المُزمع إجراؤها يوم 02 جانفي، كما أُلقيَ القبض أيضا على ثلاثة أعضاء في الشبكة التي كان يُشرف عليها. صادق المكتبُ، بالاتفاق مع فرع "إ.ع.ط.م.ج." المجتمع في 15 ديسمبر، على لائحة تُطالب "المصالح المعنية باحترام التدابير القانونية والإجرائية في القضايا الإجرامية، وخصوصا منها الآجال القصوى للتوقيف في محلات الشرطة، وهي محدّدة قانونًا بثمان وأربعين ساعة وطالبوها بالكفّ عن ممارسة التعذيب الجسدي".

لم يكن ذلك التذكير بالمبادئ، المعترف بها قانونيا، مجرد حدث عابر: فقد تلقّى الطلبةُ المسلمون خبرا مفزعا يتعلق باكتشاف جثة رفيقهم زدّور قاسم بعد أن اعتقلته شرطة مدينة وهران، في 6 نوفمبر 1956، فاللائحة التي أصدرها المكتب الإداري كانت إذن تعبيرا عن التضامن الطلابي ولا شأن لها بصلاحيات السلطات العمومية. غير أنّ الأعضاء السابقين في المكتب الإداري بقيادة Jacques Laporte ندّدوا بذلك "التدخل غير القانوني في المجال السياسي وبتلك المبادرة التي من شأنها تدعيم الإرهاب والإساءة إلى سمعة العدالة الفرنسية" وبضغط منهم ندّد اثنا عشر عضوا في المكتب الإداري الجديد باللائحة الصادرة بينما أصرّ أربعة عشر عضوا، من نفس المكتب، على التمسك بها. إثر ذلك استقال المستشار القانوني من المكتب ومعه سبعة أعضاء احتجاجا على قرار الأغلبية. بعد أن لاحظ قدماء

الجمعية العامة "تفاهة" تدخّل المكتب الإداري أعلنوا عن تنصلهم صراحة من كل تضامن معه وندّدوا بتلك اللائحة ذات "الطابع السياسي" والتي هي عبارة "عن تشكيك في نزاهة العدالة الفرنسية" وتتجاوز الإطار الذي ينبغي أن يحترم النشاطُ النقابي الطلابي حدودَهُ. ومهما يكن فبعد الوساطة التي قام بها مدير الجامعة وديوان الحاكم العام يبدو أن القضية هدأت فعقد المكتب الإداري اجتماعا ضم كافة أعضائه في 6 جانفي 1956.[19]

في تلك الأثناء كان "إ.ع.ط.م.ج." ماضيا قُدمًا في نضاله السياسي؛ وبعد أن وجّه نداءا ملحّا إلى ممثلي الأمة الفرنسية بادر إلى تجنيد أعضائه للمشاركة في حملة تضامن مع الرفاق المسجونين وضدّ القمع تستغرق مدة أسبوعين. انطلقت حملة التضامن في 20 جانفي بالإضراب يوما واحدا عن الدراسة وعن الطعام؛ وتمت الاستجابة لهذا النداء من طرف الطلبة المسلمين وكذا من طرف "قسم كبير" من الأوروبيين في مدينة الجزائر من غير حادث يُذكر؛ باستثناء أنّ الطلبة الفرنسيين أنشدوا النشيد الوطني الفرنسي في المطعم الجامعي. صادق المضربون على لائحة تطالب "بإطلاق سراح الطلبة المسجونين فورا والتحقيق حول مقتل الطالب زدّور بلقاسم ومعاقبة الفاعلين والكفّ عن ممارسة القمع والاعتراف بالأمة الجزائرية وبحق الجزائريين في تولي السلطة في بلدهم والتفاوض مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري".[20]

تميّز ذلك اليوم بأحداث دامية في تلمسان أثناء مراسيم تشييع جنازة الدكتور بن زرجب، المتوفى بسبب التعذيب الذي لقيه من طرف الشرطة، أما في Montpellier فقد تعكّر صفوُ الاجتماع الذي نظّمه "إ.ع.ط.م.ج."، مع تنظيمات

19. "المجتمع الجزائرية" (5) 23-12-1955، (6) 30-12-1955، (7) 13-1-1956، "جامعة الجزائر" أفريل 1956، ثم Geronimi، المرجع المذكور.

20. "المجتمع الجزائري" (8) 20-1-1956، ثم "العمل" 30-1-1956.

طلابية من دول ما وراء البحر، بقيام مظاهرة مضادة قادها Marc Mousseron-Jean، الرئيسُ الشرفي للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، وبالرغم من الوعد الذي أعطاه هذا الأخير بالسماح للحضور بالخروج آمنين فإن أنصارَه، المسلّحين بالحجارة، قاموا لمدة ساعات بحملة "مطاردة كل من كانت سحنتهم سمراء" ولقد استمرت حالة التوتر أياما عديدة؛ ويُروى عن تلك الأيام العصيبة مناظرُ فظيعة منها مثلا أنّ الناقمين سحبوا على الأرض امرأة مغربية حُبلى وهم يجرّونها من شعرها؛ والتمس الطلبةُ المغاربة حمايتَهم من العاهل المغربي. أعقَب تلك الأحداث نقاشٌ طويل وشاق في صفوف الاتحاد العام لطلبة فرنسا؛ وبرّر Mousseron فعلَته تلك بقوله: "لا نرضى أن يُنظر إلينا كقتَلة ونرفضُ التنديد بالعنف، من جانب واحد، أي ذلك الذي ارتكبته قوات الأمن. أنا أتحمّلُ مسؤولية المظاهرة المضادة بل أتبنّى مسئولية المطاردات والضرب رغم الوعود التي أعطيتُها لدى خروجي من مقرّ بورصة العمل. واعتبارا للمهام العسكرية التي أناطتها بنا السلطات العمومية فعليها أن تُدرك أنّ الاجتماعات التي يعقدها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين غير لائقة".[21]

ومع ذلك فقد وجَّه له المكتب الإداري للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا توبيخا علنيا ورسميا كما قرَّر معاقبة مدينة Montpellier بتحويل مكان المؤتمر السنوي إلى مدينة Strasbourg. شنَّ Mousseron هجمة مضادة فحمّلَ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين مسؤولية أعمال الشَّغب في الجامعة: "أشهدُ بشرفي عن الضغوط المستمرة التي يعانيها الطلبة المسلمون ذووا الأصل الجزائري. إنَّهم خائفون هنا وفي مدننا الجامعية بالذات(...)؛ إنَّهم يتوجسون خيفةً من أن تُسلَّط عليهم أعمال انتقامية تطال أموالهم وعائلاتهم؛ وأيٌّ منا يغمض عينيه عن رؤية تلك المساومات الشنيعة، من الآن فصاعدا، فإنه يتقاسم مسئوليتها". والواقعُ أنَّ الطلبة شاركوا في

21. Le Monde 20 إلى 23-1-1956؛ "كوميدي ليبر" 21 إلى 27-1-1956.

طلابية من دول ما وراء البحر، بقيام مظاهرة مضادة قادها Marc Mousseron-Jean، الرئيسُ الشرفي للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، وبالرغم من الوعد الذي أعطاه هذا الأخير بالسماح للحضور بالخروج آمنين فإن أنصارَه، المسلّحين بالحجارة، قاموا لمدة ساعات بحملة "مطاردة كل من كانت سحنتهم سمراء" ولقد استمرت حالة التوتر أياما عديدة؛ ويُروى عن تلك الأيام العصيبة مناظرُ فظيعة منها مثلا أنَّ الناقمين سحبوا على الأرض امرأة مغربية حُبلى وهم يجرونها من شعرها؛ والتمس الطلبةُ المغاربة حمايتَهم من العاهل المغربي. أعقَب تلك الأحداث نقاشٌ طويل وشاق في صفوف الاتحاد العام لطلبة فرنسا؛ وبرّر Mousseron فِعلَته تلك بقوله: "لا نرضى أن يُنظر إلينا كقتَلة ونرفضُ التنديد بالعنف، من جانب واحد، أي ذلك الذي ارتكبته قوات الأمن. أنا أتحمَّلُ مسؤولية المظاهرة المضادة بل أتبنّى مسئولية المطاردات والضرب رغم الوعود التي أعطيتُها لدى خروجي من مقرٍّ بورصة العمل. واعتبارا للمهام العسكرية التي أناطتها بنا السلطات العمومية فعليها أن تُدرك أنَّ الاجتماعات التي يعقدها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين غير لائقة".[21]

ومع ذلك فقد وجَّهَ له المكتب الإداري للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا توبيخا علنيا ورسميا كما قرَّر معاقبة مدينة Montpellier بتحويل مكان المؤتمر السنوي إلى مدينة Strasbourg. شنَّ Mousseron هجمة مضادة حمّلَ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين مسؤولية أعمال الشَّغب في الجامعة: "أشهدُ بشرفي عن الضغوط المستمرة التي يعانيها الطلبة المسلمون ذووا الأصل الجزائري. إنَّهم خائفون هنا وفي مدننا الجامعية بالذات(...)؛ إنَّهم يتوجسون خيفةً من أن تُسلَّط عليهم أعمال انتقامية تطال أموالهم وعائلاتهم؛ وأيٌّ منا يغمض عينيه عن رؤية تلك المساومات الشنيعة، من الآن فصاعدا، فإنه يتقاسم مسئوليتها". والواقعُ أنَّ الطلبة شاركوا في

21 Le Monde 20 إلى 23-1-1956؛ "لوميدي ليبر" 21 إلى 27-1-1956

المظاهرة المضادة، يوم 20 جانفي، دفاعا عن حريتهم. أما في باريس فقد رُفعت "رايةُ الفلاَّقة"، الشهيرة في أوساط الوطنيين الجزائريين، أثناء الاجتماع المناهض للاستعمار يوم 21 فيفري. كان ذلك بمثابة حجج إضافية بين أيدي أولئك الذين يتهمون "إ.ع.ط.م.ج". ردّ أحمد طالب، رئيس الاتحاد، على ذلك بوضوح قائلا: "إذا وُجد ثمة ضغطٌ مسلط على الطلبة المسلمين الجزائريين فإنه صادرٌ عن ضمائرهم التي أملت عليهم بأن لا يقفوا موقف المتفرّج على معاناة شعبهم بل دفعتهم إلى التضامن معه ومشاركته طموحاته وكفاحه. فليعلم الجميع أنَّا مُصرون على القول: إذا كانت لفظةُ "الثوار" تدلُّ على الرجال المطالبين بحريتهم ( ولم يحملوا السلاح إلاَّ حين رأوا جميع الأبواب موصدةً أمامهم) وإذا كانت تلك اللفظة تعني المناضلين في سبيل استعادة كرامتهم وحقهم في الوجود فكل المسلمين الجزائريين، والطلبة منهم، هم "ثوار"! لم يبق لاتحاد الطلبة "الجزائريين" الذي تم تأسيسه في تلك الفترة بباريس إلا أن يستخلص بأن الحوار مع "إ.ع.ط.م.ج". بعد ذلك التاريخ أضحى مستحيلا؛[22] ولم يعد مسئولو الاتحادين رفاقا وإنما صاروا أعداء.

## 2- مع جبهة التحرير الوطني

لم يعد الموقف التوفيقي الذي اتخذه المكتب الإداري للجمعية العامة للطلبة الجزائريين تجاه الاتحاد يعبّر عن الرأي العام لدى أغلبية الطلبة، في مدينة الجزائر، لأنَّ هؤلاء وقعوا في دوامة الغليان العام السَّائدة آنذاك. ولقد صار فرنسيو الجزائر، منذ جانفي 1956، يتوجّسون خيفة من أن تتخلى الحكومة عنهم؛ فلم يكونوا يثقون فيها لأنَّهم لم يساهموا في تعيينها. إنَّ استخلاف الحاكم العام Soustelle بالجنرال Catroux مؤشّر عن قرب نهاية ما يسمى "الجزائر الفرنسية".

22. Le Monde -14-2، 18-2، 25-2، 26 و 27-2-1956.

في 1 فيفري شكَّل الأستاذ Bousquet، في كلية الحقوق، لجنةَ عمل جامعية من أجل بقاء السيادة الفرنسية في الجزائر؛ وحظيت اللائحة المطالبة بذلك بتوقيع 80 ٪ من المدرِّسين. إثرَ ذلك غادر 400 طالب الجمعية العامة للطلبة الجزائريين للانخراط في لجنة العمل تلك، وفي يوم 2 فيفري ساهم الطلاب في حفل كبير أقيم لتوديع آخر حاكم عام في الجزائر كما شاركوا في استقبال صاخب لرئيس المجلس الفرنسي Guy Mollet؛ ولم يلق النداء الذي وجهه رؤساء مختلف الجمعيات الطلابية (الكاثوليك واليهود والمسلمون) "إلى التزام التعقل والهدوء للحفاظ على السلم، في الإطار الجامعي،" أيَّ صدى.[23]

حفّزَ نجاحُ لجنة العمل الجامعية، بتاريخ 6 فيفري، الشبابَ الذين تظاهروا ضد الأستاذ Mandouze ذي العلاقة المكينة مع جبهة التحرير الوطني وذلك منذ أن نشر سلسلة من المقالات السرية في مجلة "الضمائر المغاربية". كان الأستاذ Mab Douze يحمل مقترحات من طرف عبّان رمضان إلى Pierre Mendès-France وكان يعتقد أنّ الأجدى هو تحويل الرأي العام عن تلك المهمة الأساسية بتوجيه "تحية المقاومة الجزائرية إلى الشعب الفرنسي" عبر منتدى التعاضدية؛ وإثر عودته إلى الجزائر، بعد شهر من ذلك التاريخ، استقبلَ الأستاذُ، في 01 مارس، أعضاءً من لجنة العمل الجامعي ورفضَ الرضوخ لضغوطهم والتراجع عن تصريحاته؛ فأنذروه بأنه لن يمارس التدريس في أية جامعة فرنسية. لكن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين انحاز إليه ووقف بجانبه؛ وكانت عودته إلى التدريس، في 6 مارس، فرصة لحدوث صدامات عنيفة بين أعضاء من "إ.ع.ط.م.ج." ومن الجمعية العامة، من جهة، وبين أنصار لجنة العمل الجامعية، من جهة أخرى.

23 Le Monde 1 و 4-2-1956. "المجتمع الجزائري" (10) 17-2-1956 ثم "العمل" 28-5-1956

وكان هؤلاء قد أحضروا معهم قطعة حبل لشنق الأستاذ Mandouze فغادر الجزائرَ في كنف السرية التامة بعد أن توقف عن إلقاء دروسه.[24]

فرضت لجنةُ العمل استقالة المكتب الإداري بعد أن استأنست من نفسها القوة، بفضل موجة المساندة التي لقيتها من طرف الرأي العام في صفوف فرنسيي الجزائر، وتضمّن المنشور المُطالِبُ بالاستقالة 1.500 إمضاء حين قرر المكتب الإداري اللجوء إلى استفتاء عام في 16 مارس. شارك في ذلك الاستفتاء 2.483 طالبا وهو عددٌ لم يسبق أن حصل من قبل؛ فأُطيحَ بالمكتب بعد أن صوَّت 1.708 ضده مقابل 755 لصالحه. وفي 21 مارس تم انتخاب مكتب جديد لم ينافسه أحدٌ وتولى رئاسته Jean-pierre Caye.[25] قطع "إ.ع.ط.م.ج."، فور ذلك، علاقاته مع الجمعية العامة التي كانت تشرف عليها لجنة العمل الجامعية.

أضحت الجامعة، منذ ذلك الوقت، مضمار حرب خفيَّة لا تُفصح عنها سوى الكلماتُ أو الحركات التي كانت في الواقع انعكاسات لتلك الحرب الحقيقية التي قسمت البلد إلى مُعسكرين اثنين. تحدَّث عبد الرحمن بطاطا عن تلك الأجواء الخانقة فقال أثناء محاكمته: "عشنا يوم 6 فبراير من تلك السنة وشاهدنا كيف قرروا تقتيل إخواننا القاطنين في الحي الجامعي (...) كنت أعيش جنبا إلى جنب مع شباب كانوا يوما ما رفاقي في الثانوية وقضينا معا سبع سنوات في النظام الداخلي؛ ثم التقينا على المقاعد الجامعية ولكنهم هذه المرة لم يكونوا يترددون في إشهار مسدس، من عيار 6,35 أو 7,65، لتهديدنا. وفي سنة 1956 عشنا جوا من الاختناق في العلاقات لا يمكن تحمله.[26]

24. "جامعة الجزائر" أفريل 1956؛ وشهادة André Mandouze

25. "جامعة الجزائر" أفريل 1956

26. Liberation 26-7-1959 ذكره Patrick KESSEL و Giovani PIRELLI "الشعب الجزائري والحرب"، ص. 358

لم يتأخر "إ.ع.ط.م.ج." في الرّد على ذلك النصر، الذي حققه "الاستعماريون"، فصوّت 60 عضوا في المؤتمر المنعقد من 24 إلى 30 مارس بباريس (في مقر الودادية) على لائحة حاسمة ورد فيها ما يأتي:

- "حيث أنّ الاستعمار، كسبب من أسباب البؤس والجهل، قد سلب كرامة الشعوب.

- "حيث أن كفاح الشعب الجزائري، العادل والمشروع، سائرٌ في اتجاه التطور التاريخي للشعوب ولا يمكن أن يؤدي سوى إلى تمكين الشعب الجزائري من سيادته.

- "وأخيرا حيث أن سياسة القوة، القائمة على الحرب الشاملة والقمع المعمم، لا يمكن أن توقف الحركة التحررية، التي لا رجعة فيها، وإنما تتسبّب في مزيد من الضحايا وتؤدي إلى استحالة التفاهم المنشود بين الشعبين، الجزائري والفرنسي، السيدين فإن المؤتمر يطالب بما يلي:

- الإعلان عن استقلال الجزائر.

- إطلاق سراح جميع الوطنيين المسجونين.

- التفاوض مع جبهة التحرير الوطني.[27]

كانت تلك اللائحة أصدق تعبير عن التحاق "إ.ع.ط.م.ج." بتنظيم سياسي "علنَ عن اسمه، لأول مرة، وتبنى مطالبه بصراحة ووضوح مثل اشتراط الاستقلال كمطلب أساسي ورد في بيان أول نوفمبر 1945. برّر الرئيس حعيستي، في كلمة اختتام المؤتمر، أولوية العمل السياسي قائلا:

- كيف يمكننا مواصلة دراستنا ونحن نرسف في أغلال الاستعباد الكولونيالي؟ ونظرا لوضعية الطلبة المسلمين الجزائريين البائسة، المتمثلة

27. كفاح الطلبة الجزائريين" ص. 43.

في استلاب شخصيتهم وتغريبهم عن لغتهم وتاريخهم، فإنهم يطالبون قبل كل شيء بحقهم في استرجاع هويتهم وتعلُّم لغتهم واكتشاف جذورهم الثقافية. إنَّ قضيتهم الأولى قضيةُ حرية وسيادة، وهي أمّ القضايا، و عنها يتفرع كل شيء.[28]

تصدى المؤتمر لدراسة مسائل خارجة عن أُطر الدراسة الجامعية مثل تكوين الممرضين والممرضات، من طلبة فرع الطب والصيدلة، قصد الالتحاق بصفوف المقاتلين؛ وكانت فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني هي التي انتقت من تثق فيهم من الطلبة المناضلين في صفوفها للإشراف على تلك للجنة. تخلَّى أحمد طالب، الذي كان عضوا فيها منذ أكتوبر 1955، عن منصب رئاسة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين لكي ينخرط في لجنتها الفدرالية وخلفه على رأس الاتحاد مناضل آخر في الجبهة هو مولود بللاوان.

كان المؤتمر الخامس والأربعون للاتحاد العام لطلبة فرنسا، المنعقد في مدينة Strasbourg بين 5 و15 أفريل، بمثابة مضمار مُغلق تصادمت فيه الجمعية العامة للطلبة الجزائريين، المُصرةّ على قطع كل العلاقات مع "إ.ع.ط.م.ج." ومع باقي جمعيات ما وراء البحر، المتضامنة معه؛ ولاجتناب كل قطيعة فإنَّ "الأغلبية" و"الأقلية" توصلتا إلى صيغة تفاهم ترجمتها لائحتان صودق عليهما بالإجماع تقريبا وورد فيهما أنَّ الاتحاد العام لطلبة فرنسا يرفض "تزكية المواقف الوطنية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" ولكنه يعده بالتأييد "عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن المطالب النقابية والمهنية" "وعندما "يطالب بالاحترام الصارم للحريات الجامعية". وفي مقابل ذلك وجّه "إ.ع.ط.ف." إلى "إ.ع.ط.م.ج." نداءً دعاه فيه إلى التنديد بالعنف وإلى ربط الصلة بالجمعية العامة. دعت هذه الأخيرة اتحا

28. Le Monde 3-4-1956

الطلبة المسلمين إلى الاجتماع، المقرر في يوم 2 ماي، في مكتبها الإداري واشترطت ثلاثة شروط من جملتها، كشرط أول، التخلي عن مواقفه الوطنية هو شرط تجاوز ما ورد في لائحة المؤتمر.[29]

كان من نتائج ذلك فشل كل محاولة للحوار بين المنظمتين. ومن مفارقات الأمور أن كانت التدابير التي اتخذها الوزير المقيم Robert Lacoste، والمتعلقة بالتحاق "الفرنسيين المسلمين" بالوظيفة العمومية، سببا في القطيعة النهائية بين الطلبة المسلمين وبين جامعة الجزائر. كما مدّدت تدابيرُ القرار الصادر في 17 مارس 1956 السنَّ الأقصى للتوظيف بخمس سنوات لصالح المسلمين وخُصص لهم نصف عدد المناصب الشاغرة في كل رتبة من مختلف الأطر والمصالح الإدارية نظرا إلى أنَّ توظيف المستخدمين الجدد لا يشترط تقديم شهادة تأهيل. لم تتردد لجنة العمل الجامعية ولا الجمعية العامة في التنديد، في عدة مناسبات، بالجوانب "العنصرية والمنافية للدستور" في تلك التدابير وطالبت "بإدماج عادلٍ وكامل للوظيفة العمومية الجزائري ضمن الوظيفة العمومية في الوطن الأم وفي ظل احترام أطر القانون العام والدستور" وفي 3 ماي دعوا إلى إضراب غير محدود عن الدارسة ثم اعترضوا، في 8 ماي، سبيل الوزير المقيم وشتموه فكان رد فعله إصدارُ قرار بفصل الأستاذ Bousquet مؤسس اللجنة الجامعية للعمل.

لم تكن أعمال الشغب، الصادرة عن "أقصى" المتطرفين ضد الحكومة الفرنسية، تعني الطلبة الجزائريين. وفي 4 ماي أصدر "إ.ع.ط.م.ج." البيان التالي:

- " إثر الإضراب التي دعت إليه الجمعية العامة للطلبة الجزائريين ولجنة العمل الجامعية والمتعلق بالإصلاحات الجديدة (...) فإنَّ الطلبة المسلمين

29. "العمل"، 1956-4-16 وكذا " أصول العمل النقابي الطلابي" ص. 199.

في إ.ع.ط.م.ج. وبغرض رفع كل التباس، يمكن أن يحدثه حضورهم الدروس حريصون على التأكيد بأن الإصلاحات الجديدة ليست فقط بعيدة كل البعد عن نيل رضاهم بل لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال حلاً مناسبا للمشكل الجزائري".

كان الطلبة المسلمون يعتبرون ذلك الشغب دليلا آخر على العدوانية التي يضمرها أصحابها تجاه النخبة المسلمة التي تهدد مصالح الأوربيين وهيمنتهم على الأمور؛ غير أنَّ التتابع السريع للأحداث كان يبدو بشكل ما اصطناعيا؛ ففي 11 ماي أوقفت الجمعية الإضرابَ وطلبت من المنخرطين فيها مواصلة التعبئة العامة "كي يوضع حد نهائي لحملة الكذب والبهتان التي تضايقهم في عزلتهم "وكذا تكوين فئة جامعية واضحة المعالم.[30] لم يكن لتلك اللائحة تأثير ولكنها شكّلت بالنسبة لـ"إ.ع.ط.م.ج." سابقةً حسنة؛ ففي 17 ماي أعلنت وكالة الأنباء Associated Press أنَّ الطلبة الجزائريين، المسجلين في الجامعة المسلمة بتونس، قد تلقوا من طرف بن بلة وخيضر برقية تقترح عليهم مناصب في تنظيمات بالجزائر كمحافظين سياسيين. وفي 18 ماي اجتمع أعضاء "إ.ع.ط.م.ج." في نادي سعدان وصادقوا على لائحة تدعو إلى إضراب، عام وغير محدود، عن الدروس والامتحانات ودعت أيضا إلى الانخراط في صفوف جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني.[31] تم تحرير منشور سري في هذا الصدد وتسريبه تحت الأبواب في الإقامة الجامعية ببن عكنون و la Robertsau و Clarté خلال الليل.

"أيها الطلبة الجزائريون!

بعد اغتيال أخينا زدور بلقاسم من طرف الشرطة الفرنسية؛ وبعد قتل أخينا الأكبر الدكتور بن زرجب؛ وبعد النهاية المأساوية التي لقيها أخونا

30. Le Monde 4 و 5-5, 9 و 10-5, 13 و 14-5-1956

31.Le Monde 18-5 "العمل" 28-5-1956

الصغير إبراهيمي، في متوسطة بجاية، حيث تم إحراقه حيًا داخل أحد المشاتي التي أضرم فيها الجيش الفرنسي النار خلال عطلة الربيع؛ وبعد اغتيال الكاتب رضا حوحو، أمين نادي بن باديس في قسنطينة، وبعد التعذيب الشنيع الذي سلّط على الدكاترة: هدام، من قسنطينة، وبابا أحمد وطبال، من تلمسان، وبعد إلقاء القبض على رفاقنا عمارة ولونيس وصابر وتواتي الذين تم افتكاكهم من زنزانات الإدارة الفرنسية وإلقاء القبض على رفاقنا زروقي وماضي؛ وبعد نفي رفيقنا حيحي؛ وبعد حملات الترهيب ضد "إ.ع.ط.م.ج." هاهي ذي الشرطة تختطف من بين أيدينا، في أولى ساعات الصباح، أخانا فرحات حجاج وهو طالب في القسم التحضيري ومسئول بداخلية بن عكنون. لقد عذّبوه واحتجزوه مدّة تزيد عن عشرة أيام (مع تواطئي العدالة والإدارة العليا الجزائرية التي تم إعلامها بالقضية) إلى أن جاء اليوم الذي صعقنا فيه بخبر ذبحه من طرف شرطة مدينة جيجل وبمساعدة الميليشيا المحلية.

فهل الإنذار الذي وجهناه من خلال إضرابنا العظيم، في 20 جانفي 1956، لم يفد في شيئ؟

إنّ حصولنا على شهادة تعليمية إضافية لا يمكن أن يجعل منا جُثثًا أفضلَ من الجثث الأخرى! وما فائدة تلك الشهادات العلمية، التي تمنح لنا، بينما يكافح شعبنا، ببطولة، وبينما تُغتصب أمهاتنا وأخواتنا وأزواجنا؛ وبينما يسقط أولادنا وشيوخنا برصاص الرشاشات وقنابل النابالم؟ نحن أطر الغد فما الذي يراد منا تأطيره؟ ومن ترى سوف نؤطر؟ ... هي الأطلال و بقايا الجثث دون شك في قسنطينة وفي تبسة وفي سكيكدة وفي تلمسان وأماكن أخرى قد اندرجت في ملحمة بلدنا. إنّ موقفنا السلبي إزاء الحرب الجارية أمام أعيننا يجعلنا أناسا متواطئين مع التهم الشنيعة المنسوبة إلى جيشنا الوطني الباسل. إن الطمأنينة الكاذبة التي نتظاهر بها لم تعد ترضي ضمائرنا.

إنّ واجبنا يدعونا إلى مهامّ مستعجلة وضرورية وحاسمة ومجيدة. إنّ واجبنا يدعونا إلى المعاناة اليومية بجنب أولئك الذين يكافحون ويموتون أحرارا أمام العدو؛ فلنلتزم، كلنا، بإضراب فوري عن الدروس وعن الامتحانات ولأجل غير مسمى. يجب أن نغادر مقاعد الدراسة لنلتحق بالجبال. يجب أن ننضمّ، بصورة جماعية، إلى الجيش التحرير الوطني وجهازه السياسي جبهة التحرير الوطني.

أيها الطلبة وأيها المثقفون الجزائريون: هل ترى سنظهر بمظهر المتنكرين في أعين العالم الذي يشاهدنا والأمة التي تنادينا؟"[32]

انتقل أعضاء مكتب فرع مدينة الجزائر ل"إ.ع.ط.م.ج." للعمل في الخفاء ضمن التنظيم السري. فلقد حضّروا لذلك الحدث المثير مدة طويلة وبصفة أخصّ حين نظّموا، بعد المؤتمر الثاني، تربّصا لتكوين الممرضين؛ وبعد أن اجتمعوا، مرتين، مع مئات من طلبة مؤسسات التعليم الثانوي، في غابات سيدي فرج، لتدريبهم على العيش في الغابات والجبال. انطلقت أوّل دفعة من المتطوعين ثلاثة أيام قبل الإعلان عن موت فرحات حجاج ميتة شنيعة؛ ولكن السلطات نفت ذلك الخبر واعتبرته مجرد تبرير مختلق لتجنيد الطلبة الجزائريين.

## ج) الإضراب الكبير

### 1- القرار

كان من المتفق عليه أن تنضمّ إلى الإضراب جميع فروع "إ.ع.ط.م.ج." فأرسل فرعُ الجزائر موفَدين إلى فرنسا بغرض تعميم الاتفاق؛ وأوفد المكتب الإداري للاتحاد (الذي يوجد مقره في باريس) بعثة استطلاعية إلى الجزائر وحسب ما ورد في المنشور بعنوان: "كفاح الطلبة الجزائريين"، الذي أصدره

32. "المجاهد" (1) نهاية جوان 1956.

المؤتمر الرابع سنة 1960، "فإنَّ هذا الموقف قد استُقبل بحماس كبير من طرف جميع الطلبة الجزائريين في المغرب وفي تونس وفرنسا. لقد قرّروا التضامن مع إخوانهم، بصورة عفوية، فأضربوا عن الدروس وعن الامتحانات" وأكّد نفسُ المصدر أنَّ لائحة الجزائر قد صودق عليها بالإجماع. أمّا في الواقع فقد تمَّ التصويت برفع الأيدي ولم يكن حساب الأصوات ممكنا نظرا لضيق الوقت. كان ذلك الإجماع من قبيل الوهم لا أكثر: بل يقال إنَّ اثني عشر شخصا صوتوا ضد اللائحة. تجرّأ ثلاثة طلبة فقط على طلب الكلمة لمعارضة اختيار الوقت المناسب للإضراب لأن المبدأ كان متفقا عليه من طرف الجميع. ويجب أيضا أن يؤخذ الغائبون بعين الاعتبار لأنَّ عدد الحاضرين لم يكن معروفا بدقة كما كان يُجهل عددُ الطلبة الحاضرين من التعليم الثانوي والمتوسط (الأعضاء في ودادية الشباب والطلبة المسلمين الجزائريين). من الصَّعب الجزم، إذن، بصحة تمثيل اجتماع 18 ماي لأغلبية الطلبة. ومهما يكن فإن محتوى النص المنشور يُلفت النظر إلى ضرورة إقناع الجموع المترددة بأن الخورَ ليس بأفضل من الشجاعة، لمن أراد الاحتماءَ من ضربات القمع العمياء، كما لفت النظر إلى ضرورة تحسيس الجميع بأنَّ من العار الوقوف موقف اللاّمبالاة من معاناة الشعب. كان لعبارة "المتنكرين"، الواردة في آخر النص، أثرٌ كالذي تتركه لسعاتُ السوط فحدث ردُّ الفعل المناسب وثارت مشاعر النخوة.

كلاَّ! لم تتم الاستجابة للإضراب بنفس الحماس من طرف جميع الطلبة وبالأخص في فرنسا؛ ومن المُرجَّح أنَّ الأغلبية هناك وقفت ضدَه. تبادلت فروع الاتحاد البرقيات المؤيدة والمعارضة للإضراب، قبل صدور القرار النهائي عن المكتب الإداري ل"إ.ع.ط.م.ج." (بل لجبهة التحرير)؛ وصوّتت كلها في الأخير لصالحه ما عدا فرع Toulouse الذي عارضه، بحزم، رغم مساعي أنصار الإضراب التي تصدت لتوبيخ "الخونة". من الخطأ تبني وجهة

النظر هذه واعتبارُ تأييد الإضراب أو معارضته بمثابة المقياس الوحيد لصدق المشاعر الوطنية عند الناس. ففي الواقع، كانت السلطات العليا لـ"إ.ع.ط.م.ج." منقسمة في هذا الشأن؛ وكان كثيرٌ من المناضلين منقسمين بين الميل إلى إحداث ضجّة تثير اهتمام الرأي العام الفرنسي وبين الرغبة في التحضير للمستقبل بكيفية عقلانية؛ فالطلبة، الذين عارضوا الإضراب، فعلوا ذلك بدوافع أخرى غير الاعتبارات الشخصية؛ لأنّ الإضراب عن الدراسة يمكن أن يكون نوعا من المقامرة بمستقبل الجزائر باعتبار أنّه يُعرقل عملية تكوين الإطارات التي سوف يكون البلد في أمس الحاجة إليها. لم يحدث قط أن منعت جمهورية الفييتنام الديمقراطية الطلبةَ الفيتناميين عن مواصلة الدراسة أثناء حرب الهند الصينية؛ ولقد وجد الكثير من الطلبة الملتزمين سياسيا، ذلكَ القرار عملا مرتجلا فهل تمّ التفكير في ردّ فعل السلطات الفرنسية التي قد تقرر حظرَ انتقال الطلبة إلى الجزائر أو إلى الخارج لتمنعهم من الالتحاق بالثورة؟ رفض بعض المناضلين الخضوع لأوامر وردت إليه عبر أعمدة جريدة le Monde ثم من إدارة "إ.ع.ط.م.ج." من غير أن يُخبَر بذلك من طرف مسئوليه في السلّم التصاعدي بفدرالية فرنسا. الواقع أنه كان لموقف جبهة التحرير الوطني، باعتبارها الجهة التي أصدرت الأوامر، أثرا فعّالا في حسم الموضوع؛ فمهما يكن الرأي، في موضوع الإضراب، فإنّ الامتثال لأوامر جبهة التحرير الوطني مسألة لا مراء فيها تحت طائلة العقاب. ولذلك السبب رضخ أغلب الطلبة الجزائريين أو حاولوا أن لا يظهروا بمظهر المخالف صراحة للأوامر.

لم يكن في استطاعة المكتب الإداري لـ"إ.ع.ط.م.ج." أن يتبنى مسئولية إصدار نداء الالتحاق بالجبال من غير أن يرغم نفسه على الدخول في العمل السرّي، على غرار فرع مدينة الجزائر، فاكتفى المكتب في تصريحه، يوم 25 ماي، بتقديم شرحٍ مستفيض للموقف الذي اتخذه فرع الجزائر ثم الموافقة

عليه من غير أن يتبناه كلّية. تعمّم الإضراب اللاّمحدود لدى جميع الطلبة المسلمين الجزائريين في الجامعات الفرنسية والتونسية والمغربية. كانت الفرصة مواتية للقيام بحملة الترويج لفكرة إيجاد حلٍّ تفاوضي لقضية الجزائر؛ وبهذا الصدد وُجِّهَت آلافُ الرسائل إلى رئيس المجلس وإلى الوزراء وإلى جميع البرلمانيين وجميع الشخصيات السياسية والدينية في فرنسا. وتمّ إعلام مديري وعمداء وأساتذة الجامعات إمّا عن طريق المراسلة أو بواسطة وفود خاصة. أكّد بيان المكتب الإداري الذي تم توزيعه على شكل وثيقة سرية ما يأتي:

"يكتسي هذا الفعل (الإضراب) دلالة هامّة من حيث أنه آخر صيحة استغاثة نخاطب بها الضمير الفرنسي لنقول له: هذه هي الطريقة الوحيدة لتبليغك درجة الخطورة التي آل إليها الوضع في الجزائر حاليا. وليكن هذا الفعل مناسبة لكلّ واحد كي يُغلِّب، في هذا الصراع المرير، ضرورةَ التفاوض والسلام.

لكن، تفاديا لكل التباس، فإن المكتب الإداري لـ"إ.ع.ط.م.ج." واثقٌ من أنّه يعبّر بهذا عن العواطف العميقة لجميع الطلبة المسلمين الجزائريين وهو حريص على التأكيد بأنّ الفعل الذي أصبح هؤلاء مرغمين على القيام به لا يمكن تأويلُه، بأي حال من الأحوال، على أنه دليلٌ عن مشاعر العداء تجاه الجامعة الفرنسية ولا هو تنكُّرٌ لثقافةٍ سوف يضلون مرتبطين بها بصدق. بل أكثر من هذا فإن المكتب الإداري، في هذه الساعات الحاسمة بالنسبة إلينا، يرى من واجبه توجيه أبلغ التحية والتقدير إلى كل الأساتذة الذين لم يهنوا يوما ما في إخلاصهم لشبيبتنا المثقفة وإلى كل أصدقائنا الفرنسيين الذين كان وفاؤهم للقيم التي شرّفت فرنسا على الدوام ضمانا لاستمرار المساندة الأخوية التي ما انفكوا يقدمونها للشعب الجزائري".[33]

33. كفاح الطلبة الجزائريين" و"العمل" 31-12-1956

هل أراد فرع فرنسا ل "إ.ع.ط.م.ج." أن يقطع النهر من غير أن يهدم الجسور؟ إنَّ هذا الخطاب المُتَّزن؛ وهذه اللهجة الدبلوماسية، التي صاغ بها "إ.ع.ط.م.ج." تصريحه، يتناقضان بشكل واضح مع الحماس الثوري الذي ميّز نداء مدينة الجزائر.

في الواقع، كان هذا الأخير يعبّر، بصدق، عن الهدف الحقيقي المرجو من الإضراب؛ فلم يكن يُدرج الرأي العام الفرنسي في حسبانه إلاّ بصورة عابرة؛ أمّا غايتُه الأساسية فهي فرض سلطة الجبهة على الطلبة وعلى الشعب الجزائري برمته وتقوية صفوفها بكفاءاتهم. ولقد سجَّل مؤتمرُ الصومام انضمامهم إلى الثورة بارتياح حين أورد تحت عنوان: المثقفون وأصحاب المهن الحرة ما يأتي :

- "أيها المثقفون ويا أصحاب المهن الحرة: إنَّ التحاق المثقفين بالوطن الجزائري؛ وإنَّ فشل "سياسة الفرنسة" في إخماد الوعي الوطني؛ وإنَّ القطيعة مع المواقف المثالية الفردانية أو الإصلاحية لخيرُ دليل على سلامة الطَّرح السياسي".[34]

غير أن ذلك الارتياح كان مُرفقا بتحفظ: فلقد كان على الطلبة "أن يجرفوا معهم، في تيار الكفاح التحريري، بقية الطلبة والطالبات الذين لا يزالون واقفين مكتوفي الأيدي رغم النداء التاريخي الذي أصدرته منظمتهم الوطنية "إ.ع.ط.م.ج." في شهر ماي 1956.

## 2- المحنة

إلى أي مدى تمت تلبية النداء فعليا؟ لاذت أقليةٌ من الطلبة الجزائريين إلى العمل السرّي ثم التحقت بالجبال أو عبرت الحدود لتضع نفسها تحت تصرّف

34. "ارضية مؤتمر الصومام" "المجاهد" (4) نوفمبر 1956

1.300 و 1.400 من بين حوالي 1.500 طالب مسجل في الجامعات الفرنسية أي الأغلبية العريضة منهم.[37] لكن يمكن التساؤل هل كان ذلك الانضمام، الشامل تقريبا، عفويًا كله؟ لا غرو أن يكون الاتحاد، حينئذ، يضم في صفوفه جموعا من "التابعين" وهم توفيقيون أكثر منهم وطنيين بقيادة "مشرفين" ملتزمين بالعمل النضالي.

على كل حال، ذلك هو الانطباع الذي توحي به مضامين النشرات التي أصدرها المناضلون الشباب في ودادية الشبيبة الطلابية المسلمة. إنّ أولئك الطلبة الثانويين والمتوسطين، الذين زوّدوا الجبهة بالمحاربين، فاق عددُهم أعداد الطلبة الجامعيين وكانوا معروفين بحماسهم الوطني كشباب. تضمّن عدد صحيفة "الصحوة الطلابية"، الصادر في مارس 1956، شهادات بليغة عن ذلك الواقع وكان يندّد أيضا بالمواقف المعادية للوطن من طرف بعض الشباب الذين أحدث تعليمُهم فجوات عميقة من الاغتراب في نفوسهم. و لم يحدث الإضرابُ إجماعا حماسيا[38]؛ حتى في الثانوية الفرنسية ؟ الاسلامية، في بن عكنون، التي هجرها التلاميذ بصفة جماعية منذ 20 ماي 1956.

مهما يكن الأمر، فإن الإضراب وضع الذين شاركوا فيه في مواقف صعبة للغاية: فلقد تعرّض المسيّرون، في فرع مدينة الجزائر، لمتابعات قضائية. أمّا في فرنسا فظلّ الاتحاد تنظيما مشروعا رغم المتابعات التي تعرَّض لها موزّعو المناشير؛[39] ولكن بالرّغم من حملات التوعية، التي قام بها "إ.ع.ط.م.ج."، فإنّ المضربين تعرَّضوا، هنا وهناك، لإجراءات إدارية كانت ترمي إلى حرمانهم من الامتيازات المخصّصة للطلبة مثل: المنح والاستفادة

37. شهادة قدماء الاتحاد، من بينهم آيت شعلال، الذي أحصى 500 عضوا في الجزائر، 300 في باريس، و 100 في Montpelier

38. شهادة مديره، محمد الحاج صدوق.

39. Le Monde 14 و21-6-1956 و "العمل" 19-11-1956

من المطاعم والإيواء في الأحياء الجامعية والإرجاء لأداء الخدمة العسكرية. هكذا فرض مجلس جامعة Montpellier على الطلَبة المسلمين الجزائريين تعهدًا بالانضباط في الدراسة.

تلك التدابير، وأخرى أكثر صرامة، طالبت بها جمعيات طلابية موالية لقضية الجزائر الفرنسية؛ فلنذكر، على سبيل المثال، أنّ الجمعية العامة في جامعة Montpellier قد قطعت، منذ نهاية شهر ماي، كلّ علاقة ب"إ.ع.ط.م.ج." وطالبت بحلّه فورًا وبتسليط العقوبات على مسيّريه وبقطع كل علاقة للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا معه. ومع المطالبة بحماية مصالح الطلبة "الفرنسيين المسلمين"، الذين أُرغموا على الإضراب، فإنّها استعملت القوة من أجل منع المضربين من دخول المطعم الجامعي.[40]

في 2 جوان، وبعد مداولات صاخبة، صادق مكتب الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا على القطيعة مع "إ.ع.ط.م.ج." متسببا، بذلك، في استقالة أعضائه الذين يمثّلون "الأقلية"؛ ولقد تم تأويل ذلك القرار، من طرف الطلبة الجزائريين، على أنّه "موقفٌ عدائي ضدّ التطلعات المشروعة لشعبهم وسوف يكون (عبئًا كبيرا) على مستقبل العلاقات بين الشبيبة الفرنسية والجزائرية". وفي الحال، انجرّ عن ذلك انقطاعُ العلاقات بين "إ.و.ط.ف. وبين جمعيات الطلبة فيما وراء البحر.

لكن انقلابا في صفوف الأغلبية حدث في مكتب إدارته، يوم 1 جويلية حين قدّمت "الأقلية" لائحةً تقترح إعادة ربط العلاقات مع إ.ع.ط.م.ج لكي يتسنى تحرير نداء يندّد باللجوء إلى العنف ويشجب الدعوة إلى الالتحاق بالجبال. صودق على اللائحة بنسبة ضئيلة جدا بالرغم من التهديد الذي أشهرته الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؛ ونظرا لاستقالة الرئيس Ruffoux

40. Le Midi libre 30.315 و1 و2-6 و6-6-1956

فإن مكتبا منسجم الصفّ ويتشكَّلُ من ممثلي "الأقلية" خلفه برئاسة Jacques Michel de la Fournière. وبعد 5 جويلية التزم "إ.و.ط.ف"، بمعية "إ.ع.ط.م.ج"، بالحرص على نبذ كل أشكال العنف والمواقف المضادة لإقامة علاقات الصداقة والأخوة بين صفوف الطلبة". فشلت آخر محاولة قامت بها الجمعية العامة لفرض إعذار يشترط التنديد ببيان 19 ماي فانسحبت نهائيا من الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، في 9 جويلية،[41] وحينئذ وجد مكتب "الأقلية" حريةً أكبر لمواصلة سياسة التقارب مع إ.ع.ط.م.ج. ذلك التقارب الذي تجسّد بتنظيم مشترك "لندوة وطنية طلابية من أجل حلّ المسألة الجزائرية".[42]

لم يكن ذلك التصالح مع "إ.و.ط.ف" أمرا هيّنا، بالنسبة ل"إ.ع.ط.م.ج"، فقد تمكّن، بفضل ذلك، من إلغاء القرارات المُتَّخذة ضد المضربين وبالخصوص في Montpellier؛[43] ولكنه سارع إلى حماية نفسه بانتزاع الاعتراف بتمثيليته، كاتحاد وطني، أثناء اللقاءات الدولية الطلابية. شارك "إ.ع.ط.م.ج"، منذ بداية جوان، في الندوة الطلابية الآفرو- آسيوية المنعقدة في Bandoung وأقرّته الندوةُ الطلابية الدولية السادسة في Colombo، في شهر سبتمبر، ثمّ أقرَّه مؤتمرُ الاتحاد الدولي للطلبة في Prague.[44] وإثر ذلك شرع الاتحاد في التماس الحصول على منح دراسية للطلبة الجزائريين خارج التراب الفرنسي.

---

41. "أصول العمل النقابي الطلابي" ص. 205 وما بعدها. وكذا " العمل النقابي الطلابي، والقضية الجزائرية. ص. 29-30

42. "انظر: منشور، "ندوة وطنية طلابية من أجل حل *المسألة الجزائرية*" *باريس، 1956*. و*BUY* François. "الطلبة حسب القديس ماركس". ص. 78-80 (ندد فيه بالدور الذي لعبه "إيديولوجيون خطيرون": F Borella و J. Julliard وM.de la Fourniére، و R. Chapuis و P. Y. Cossé الخ.

43. انظر: BORELL وM. De la FOURNIERE. "العمل النقابي الطلابي" ص. 93

44. "العمل" 31 ديسمبر، 1956. حول الندوة الدولية الطلابية في كولومبو، حيث قام "إ.و.ط.ف." بمعارضة الاعتراف ب"إ.ع.ط.م.ج." انظر: "أخبار "إ.و.ط.ف." (35) سبتمبر 1956

الإضراب اللامحدود في غياب معطيات جديدة. وحيث أن Fourniere Michel قد ردّ بأن ليس في وسعه الاستجابة لتلك المطالب، حالا، فإنّ "إ.ع.ط.م.ج"، في 31 ديسمبر، قطعَ علاقاته الرسمية مع الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا فتبعته في ذلك كل جمعيات الطلبة فيما وراء البحر. سجّل اتحاد طلبة فرنسا ذلك القرار بتأسف مع الاحتفاظ بالأمل في "أن تسمح ظروفٌ أحسن يوما ما بالعودة إلى الحوار".[50]

لم تتقطع العلاقات، بصورة نهائية، بين الطلبة الجزائريين وجمعيات "الأقلية" العضو في الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا؛ ولكن إدارته كانت تتجاذبها خشيةُ الانفصال(الذي تسعى إليه الجمعية العامة) ورغبةُ التقارب مع "إ.ع.ط.م.ج"؛ ولم يكفّ، هذا الأخير، عن التصريح بمساندته للثورة الجزائرية فنظّم "نصف شهر للتضامن" ليندرج فيه أسبوعُ الإضراب الذي أمرت به جبهة التحرير الوطني كما ضاعف حملات الاحتجاج ضد القمع خلال "معركة الجزائر"؛[51] ونددت الجمعية العامة للطلبة الجزائريينن من جهتها بالحملة الانهزامية "ضد التعذيب" وقاطعت الأستاذ Peyrega، وهو عميد كلية الحقوق بالجزائر، بسبب رسالة نشرتها مجلة L'Express؛[52] وهو الوقت الذي خرج فيه مكتب "الأقلية" عن تحفظه المعهود ليصرح جهرا بانتقاد الأساليب "الأمنية" المطبّقة ويدعو إلى الدخول في المفاوضات وكان المكتب يراهن، عندئذ، بتعريض الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا للانقسام. وتلك فعلا هي الغاية التي عمل من أجلها موفدو الجزائر أثناء مؤتمر الذكرى الخمسين المنعقد في باريس من 21 إلى 27 أفريل 1957، وبالرغم من كون الأغلبية التي

50. " "العمل" 31-12-1956؛ "العمل النقابي الطلابي والقضية الجزائرية"، ص. 30؛ "أصول..." ص. 256-260

51. أنظر "المقاومة الجزائرية" (9) (فيفري 1957) و"العمل" 25-2- و 28-3-1957

52. " جامعة الجزائر" افريل وجوان 1957.

تمثلها "الأقلية" قد سحبت مشاريع اللوائح المقترحة في شأن الجزائر وكذا الرسائل المزمع إرسالها إلى رئيس الجمهورية فرضَ ممثلو 17 جمعية عامة التصويت على لائحة تطالب بتجنُّب الخوض في المسائل السياسية. بعد رفض تلك اللائحة قرَّر موفدو الجمعيات 17 الانسحاب من الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا بناء على مشاورة قاعدتهم. حينئذ قرّرت أغلبية تلك الجمعيات، في7 ماي 1957، بمدينة Limoges إنشاء تنظيم يُسمَّى "حركة طلاب فرنسا والاتحاد الفرنسي" تحت رئاسة Pierre Marc Lachaud؛[53] ومنذ ذلك الوقت صار السعي إلى إعادة توحيد الحركة الطلابية الفرنسية شُغلَها الشّاغل. تحصّل "إ.ع.ط.م.ج"، إلى غاية 15 نوفمبر 1958، على كل المساندة التي كان يرجوها.

انتهى الإضراب المدرسي بنفس الطريقة الذي بدأ بها، أي بأمر صادر عن جبهة التحرير الوطني في أكتوبر 1957، و تمّ حلُّ "إ.ع.ط.م.ج"، في كامل التراب الفرنسي يوم 28 جانفي 1958، باعتبار الاتحاد مجرَّد تغطية للتنظيم السياسي. وبالفعل؛ سرعان ما تحوَّل الاتحاد إلى وحدة "قتالية" تحت إمرة جبهة التحرير الوطني أو على الأقل صار مساعدها الفعلي في عملها السياسي. لقد وضع الاتحاد الأغلبية الساحقة للطلبة الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية تحت سلطة الثورة وذلك بإصداره الأمر بالإضراب كما تسبب أيضا في انسياق عائلات الطلبة على خطاهم.[54]

تمايزت داخل "إ.ع.ط.م.ج"، منذ ذلك الوقت، وجهتان متناقضتان بشكل واضح: فبالنسبة لفرع الجزائر كان الهدف من الثورة هو أن تحلَّ، بصفة

---

53. "العمل النقابي الطلابي والقضية الجزائرية" ص. 31-40؛ "أصول..." ص. 260-268. حول حركة طلاب فرنسا، أنظر: "شعبي الوسط" 29-4-و 16-5؛ 1957-11-5 وكذا 7، 11، 12، و 14-4-1958.

54. " في أغلب الحالات، فإن الشباب ذوو الأصول البرجوازية هم الذين تسببوا في انضمام هذه الأخيرة إلى قضية الاستقلال"، كما ورد في وثيقة برنامج طرابلس ( عناوين إفريقيا الشمالية، 1962، ص 693).

مؤقتة، كل وجود للوسط الطلابي حين دعت جميع الطلبة إلى أن يضعوا أنفسهم رهن إشارة جبهة وجيش التحرير الوطني والانصهار في صفوف شعبهم المكافح إلى أن يأتي يوم النصر؛ أما المكتب الإداري في باريس فأعطى للإضراب طابع الكفاح السياسي الذي ينبغي للطلبة أن يتبنوه لدى الرأي العام وفي الوسط الطلابي في فرنسا وفي العالم دون التخلي عن الوسط الخاص بهم، بما في ذلك إمكانية عودتهم إلى الدراسة خدمة لمصلحة بلدهم، سواء كان ذلك في فرنسا أو في أي بلد آخر؛ وخصوصا إذا تأخر موعد الاستقلال كثيرا. هكذا كان الطَّرحُ الأول يفترض حربا قصيرة المدى ولا شك أنَّ الطَّرحَ الثاني سيكون الأصح في حالة استمرار الصراع طويلا.

كان تنظيم الوسط الطلابي والانخراط، بصفة فردية، في جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني إلى غاية ماي 1956 سبيلين متكاملين لا يلغي أحدهما الآخر؛ ولكن منذ الإضراب، وبالأخص بداية من الدخول المدرسي في أكتوبر 1957، بدأ الفرق يبرز للعيان بين المناضلين الحقيقيين، أي أولئك الذين ضحوا بدراستهم أثناء الحرب، وبين أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم طلبةً، قبل كل شيء، ثم مناضلين بالدرجة الثانية. ذلك تصنيف كلاسيكي شائع يميز بين المحاربين المتواجدين في الصفوف الأمامية مُعرَّضين بصفة مستمرة ومباشرة للخطر؛ وبين الذين يقفون في الصفوف الخلفية أي قوات الاحتياط.

## الفصل الخامس

# المعركة

إنّ انضواء حركة الطلاب الجزائريين تحت لواء جبهة التحرير الوطني، في ماي 1956، محصلة طبيعية لانخراط مسيريها سابقا؛ فلقد بادر هؤلاء، بكل عفوية، إلى تأسيس "إ.ع.ط.م.ج"؛ ذلك المشروع الذي تم تصوّره من طرف بلعيد عبد السلام، سنة 1953، وكان يهدف إلى تجسيد سياسة الوحدة الوطنية التي دعا إليها المركزيون؛ كما أنّ تطبيق ذلك المشروع، سنة 1955، يتلاءم مع غايات جبهة التحرير الوطني. غير أنَّ هذا لا يعني حتما بأنّ الجبهة لعبت، منذ الوهلة الأولى، دورا حاسما في تنظيم الوسط الطلابي.

وبالفعل؛ لم تلتحق مختلفُ اتجاهات الطيف السياسي الطلابي بجبهة التحرير الوطني فور إعلانها ولا بدون تحفّظ؛ كما أن المتعاطفين معها لم يكونوا، بالضرورة، في اتصال مع التنظيم الثوري؛ وسببُ ذلك هو أنّ الانخراط لم يكن بالأمر الهيّن؛ فمستلزمات النضال السري كانت تشترط الانخراط بصفة فردية ووفق هيكلة صارمة تجعل أجزاء التنظيم لا يُفضي بعضُها إلى بعض بصفة مباشرة. انخرط الطلبة في صفوف جبهة التحرير الوطني، في وقت متأخر، نتيجة القمع العنيف، في الجزائر، ونتيجة تمركز الحركة الوطنية الجزائرية في فرنسا بالذات. ولقد حدث ذلك تدريجيا خلال سنوات 1955 و1956 بطريقتين تُكمّل إحداهما الأخرى وهما: تأطيرُ الوسط

## الفصل الخامس

# المعركة

إنّ انضواء حركة الطلاب الجزائريين تحت لواء جبهة التحرير الوطني، في ماي 1956، محصلة طبيعية لانخراط مسيريها سابقا؛ فلقد بادر هؤلاء، بكل عفوية، إلى تأسيس "إ.ع.ط.م.ج"؛ ذلك المشروع الذي تم تصوّره من طرف بلعيد عبد السلام، سنة 1953، وكان يهدف إلى تجسيد سياسة الوحدة الوطنية التي دعا إليها المركزيون؛ كما أنّ تطبيق ذلك المشروع، سنة 1955، يتلاءم مع غايات جبهة التحرير الوطني. غير أنّ هذا لا يعني حتما بأنّ الجبهة لعبت، منذ الوهلة الأولى، دورا حاسما في تنظيم الوسط الطلابي.

وبالفعل؛ لم تلتحق مختلفُ اتجاهات الطيف السياسي الطلابي بجبهة التحرير الوطني فور إعلانها ولا بدون تحفّظ؛ كما أن المتعاطفين معها لم يكونوا، بالضرورة، في اتصال مع التنظيم الثوري؛ وسببُ ذلك هو أنّ الانخراط لم يكن بالأمر الهيِّن؛ فمستلزمات النضال السري كانت تشترط الانخراط بصفة فردية ووفق هيكلة صارمة تجعل أجزاء التنظيم لا يُفضي بعضُها إلى بعض بصفة مباشرة. انخرط الطلبة في صفوف جبهة التحرير الوطني، في وقت متأخر، نتيجة القمع العنيف، في الجزائر، ونتيجة تمركز الحركة الوطنية الجزائرية في فرنسا بالذات. ولقد حدث ذلك تدريجيا خلال سنوات 1955 و1956 بطريقتين تُكمِّل إحداهما الأخرى وهما: تأطيرُ الوسط

الطلابي، من طرف "إ.ع.ط.م.ج"، وتجنيدُ مسيري هذا الأخير، من طرف جبهة التحرير الوطني، والواقعُ أنَّ الاستجابة للأوامر التي صدرت بخصوص الإضراب، في ماي 1956، حوَّلت الاتحاد إلى "وحدة قتالية" تابعة للجبهة فوضعت جموع الطلبة رهن إشارة الثورة. لقد وجد كل الرَّاغبين في الالتحاق بالثورة فرصةً مواتية للخروج من عزلتهم لمشاطرة شعبهم المكافح ظروفَ محنته سواء في إطار التنظيمات السرية أو في الجبال أو في السجون.

## أ) المقاومة في كنف السرية

إنَّ الانخراط في جبهة التحرير الوطني، وكانت بطبيعة الحال تنظيما سريا، فرض على الطلبة أن يحيوا حياةً مزدوجة؛ فموازاة مع مهامهم العادية، داخل الاتحاد، كانوا يزاولون نشاطات سريَّة خفية عن أوليائهم وأحبابهم، بسبب الاعتبارات الأمنية، وسواء طال الوقت أم قصُر، قبل 19 ماي 1956 أو بعده، فسوف يأتي الوقت الذي يجدون فيه أنفسهم مجبرين على اختيار واحدة من هذه السبل دون غيرها: فإما الدخولُ في كنف السرية التامة أو الصعودُ إلى الجبال أو الالتحاقُ بالتنظيم في الخارج. كانت تطورت الأمور بتلك الصفة، في مدينة الجزائر، وبطريقة لا رجعة فيها وبسرعة أكبر عما هي عليه في فرنسا.

### 1- في مدينة الجزائر

ظلَّ الفرعُ الطلابي التابع لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، في مدينة الجزائر، يلتزم موقفا حياديا في الأزمة التي هزَّت أركان الحزب؛ واستقبل أعضاؤه الإعلانَ عن انتفاضة أول نوفمبر بكل ارتياح: فلقد كانوا، منذ أمد طويل يتوقون إلى الخروج من العزلة وإلى المجازفة مع شعبهم المكافح. كان انخراطهم في تنظيم جبهة التحرير الوطني مرتبطا بإمكانية اتصالهم بتنظيماتها.[1]

1. حسب لمين خان، ملاحظ الفرع الجامعي للحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية، في مؤتمر المصاليين في مدينة Hornu.

الطلابي، من طرف "إ.ع.ط.م.ج"، وتجنيدُ مسيري هذا الأخير، من طرف جبهة التحرير الوطني، والواقعُ أنَّ الاستجابة للأوامر التي صدرت بخصوص الإضراب، في ماي 1956، حولّت الاتحاد إلى "وحدة قتالية" تابعة للجبهة فوضعت جموع الطلبة رهن إشارة الثورة. لقد وجد كل الرّاغبين في الالتحاق بالثورة فرصةً مواتية للخروج من عزلتهم لمشاطرة شعبهم المكافح ظروفَ محنته سواء في إطار التنظيمات السرية أو في الجبال أو في السجون.

## أ) المقاومة في كنف السرية

إنَّ الانخراط في جبهة التحرير الوطني، وكانت بطبيعة الحال تنظيما سريا، فرض على الطلبة أن يحيوا حياةً مزدوجة؛ فموازاة مع مهامهم العادية، داخل الاتحاد، كانوا يزاولون نشاطات سريَّة خفية عن أوليائهم وأحبابهم، بسبب الاعتبارات الأمنية، وسواء طال الوقت أم قصُر، قبل 19 ماي 1956 أو بعده فسوف يأتي الوقت الذي يجدون فيه أنفسهم مجبرين على اختيار واحدة من هذه السبل دون غيرها: فإما الدخولُ في كنف السرية التامة أو الصعودُ إلى الجبال أو الالتحاقُ بالتنظيم في الخارج. كانت تطورت الأمور بتلك الصفة، في مدينة الجزائر، وبطريقة لا رجعة فيها وبسرعة أكبر عما هي عليه في فرنسا.

### 1- في مدينة الجزائر

ظلَّ الفرعُ الطلابي التابع لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، في مدينة الجزائر، يلتزم موقفا حياديا في الأزمة التي هزَّت أركان الحزب؛ واستقبل أعضاؤه الإعلانَ عن انتفاضة أول نوفمبر بكل ارتياح؛ فلقد كانوا، منذ أمد طويل يتوقون إلى الخروج من العزلة وإلى المجازفة مع شعبهم المكافح. كان انخراطهم في تنظيم جبهة التحرير الوطني مرتبطا بإمكانية اتصالهم بتنظيماتها.[1]

---

1. حسب لمين خان، ملاحظ الفرع الجامعي للحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية، في مؤتمر المصاليين في مدينة Hornu.

كان تنظيم الجبهة، في نواحي مدينة الجزائر، ضعيفا في البداية ثم ما لبث أن فكَّك القمعُ أوصالَه؛ وبعد اعتقال رئيسه الأول، رابح بيطاط، تولت ولايةُ منطقة القبائل أمورَ مدينة الجزائر وأحوازها. كانت تلك المنطقة غنية بالمناضلين عددا ونوعية. عيّن قائدها، بلقاسم كريم، نائبَه أوعمران قائدا لمنطقة الجزائر؛ وأسندَ قيادة مدينة الجزائر إلى عبّان رمضان فقام هذا الأخير فورا بمبادرات دعائية تمثلت في توزيع المناشير السرية ابتداء من فاتح افريل؛ ونظرا لاقتناعه هذا الأخير بأنَّ الفكر السياسي ضروري لتوجيه العمل المسلح فقد أحاط نفسه بقيادة أركان ضمّت كلا من: الشيوعي عمار أوزقان وصديقه محمد لبجاوي (اشترك معه في تحرير البرنامج الذي صادق عليه مؤتمر الصومام)[2] وكذا بعض "المركزيين" أمثال بن خدة وسعد دحلب الذين كانوا من بين أصدقائه في متوسطة البليدة؛ وبعد أن تحصل على شهادة البكلوريا منعه الفقر من مواصلة الدراسة في الحقوق ولكن لم يمنعه من الاهتمام بالطلبة.

يقال إنَّ أول رئيس للطلبة، في تنظيم جبهة التحرير الوطني، هو عمارة رشيد؛[3] وبما أنَّ هذا الأخير كان طالبا في كلية الآداب ويعمل ، في ذات الوقت، مُراقِبًا تربويًا في ثانوية Bugeaud فلقد مكّنه ذلك من تجنيد الطلبة وتلاميذ التعليم الثانوي تحت غطاء ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وودادية الشبيبة الطلابية المسلمة الجزائرية (التي كان يرأسها منذ أن تأسست في 13 فيفري 1955). كان المنخرطون الشباب يساهمون في نقل المنشورات والأسلحة والأموال ويقومون بدور عناصر الاتصال. يبدو أنَّ

2. محمد لبجاوي "حقائق عن الجمهورية الجزائرية" Galimard، 1970 ص. 112، وكذا محمد حربي "جبهة التحرير الوطني بين الخيال والواقع" Jeune Afrique، 1980، ص. 1976-1978

3. "Yves COURIERRE" زمن الفهود ص. 128، 146 و 152 ثم 192 494-498. م لبجاوي. المرجع المذكور ص. 239 و 244 و" Y. GODARD المظليون في المدينة Fayard 1972"، ص. 119-419-422. لكن من المؤسف أن هؤلاء المؤلفين قد خلطوا (حسب محمد حربي) بين "رشيد عمارة" وبين "رشيد لوعمارة". شيخ مناضل، ورجل ثقة عبان رمضان.

كان تنظيم الجبهة، في نواحي مدينة الجزائر، ضعيفا في البداية ثم ما لبث أن فكّك القمعُ أوصالَه؛ وبعد اعتقال رئيسه الأول، رابح بيطاط، تولت ولايةُ منطقة القبائل أمورَ مدينة الجزائر وأحوازها. كانت تلك المنطقة غنية بالمناضلين عددا ونوعية. عيّن قائدها، بلقاسم كريم، نائبَه أوعمران قائدا لمنطقة الجزائر؛ وأسندَ قيادة مدينة الجزائر إلى عبّان رمضان فقام هذا الأخير فورا بمبادرات دعائية تمثلت في توزيع المناشير السرية ابتداء من فاتح افريل؛ ونظرا لاقتناعه هذا الأخير بأنّ الفكر السياسي ضروري لتوجيه العمل المسلح فقد أحاط نفسه بقيادة أركانٍ ضمّت كلا من: الشيوعي عمار أوزقان وصديقه محمد لبجاوي (اشترك معه في تحرير البرنامج الذي صادق عليه مؤتمر الصومام)[2] وكذا بعض "المركزيين" أمثال بن خدة وسعد دحلب الذين كانوا من بين أصدقائه في متوسطة البليدة؛ وبعد أن تحصل على شهادة البكلوريا منعه الفقر من مواصلة الدراسة في الحقوق ولكن لم يمنعه من الاهتمام بالطلبة.

يقال إنّ أول رئيس للطلبة، في تنظيم جبهة التحرير الوطني، هو عمارة رشيد؛[3] وبما أنّ هذا الأخير كان طالبا في كلية الآداب ويعمل ، في ذات الوقت، مُراقبًا تربويًا في ثانوية Bugeaud فلقد مكّنه ذلك من تجنيد الطلبة وتلاميذ التعليم الثانوي تحت غطاء ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وودادية الشبيبة الطلابية المسلمة الجزائرية (التي كان يرأسها منذ أن تأسست في 13 فيفري 1955). كان المنخرطون الشباب يساهمون في نقل المنشورات والأسلحة والأموال ويقومون بدور عناصر الاتصال. يبدو أنّ

---

2. محمد لبجاوي "حقائق عن الجمهورية الجزائرية" Galimard، 1970 ص. 112، وكذا محمد حربي "جبهة التحرير الوطني بين الخيال والواقع" Jeune Afrique، 1980، ص. 1976-1978.

3. "Yves COURIERRE" زمن الفهود ص. 128، 146 و 152 ثم 192 494-498. م لبجاوي، المرجع المذكور ص. 239 و 244 و" Y. GODARD المظليون في المدينة Fayard 1972 "، ص. 119-419-422. لكن من المؤسف أن هؤلاء المؤلفين قد خلطوا (حسب محمد حربي) بين "رشيد عمارة" وبين "رشيد أوعمارة"، شيخ مناضل، ورجل ثقة عبان رمضان.

التلاميذ التعليم الثانوي والمتوسط وجدوا، أكثر من إخوانهم الطلبة، مُتعةً في أداء تلك المهام التي خلقت فيهم شعورًا حماسيا فياضا للمساهمة الفعلية في الثورة. لقد دبّت في قلوبهم حماسةٌ ساذجة دفعتهم إلى الاتصال بالتنظيم السري ذي السمعة الأسطورية؛ وكان الطلبة الراشدون أكثر رصانة؛ ولكن ذلك لم يمنع بعضهم من تعريض نفسه للخطر. وهكذا كُلِّف رشيد عمارة بتأمين الاتصال بين القيادة السياسية والفرق المسلحة. ولقد أُلقي عليه القبضُ في 7 ديسمبر 1955، وفي سيارته كل من فرحات عباس وأحمد فرانسيس بالإضافة إلى كمية معتبرة من المنشورات تهدّد بقتل الجزائريين الذين يقبلون المشاركة في الانتخابات التشريعية الفرنسية؛[4] وكان إيقافه سببا في اعتقال رفيقيه: تواتي وصابر.

في نفس الوقت بسطت جبهة التحرير الوطني نفوذها على "إ.ع.ط.م.ج" ولكن من الصعب الجزمُ بصحة التاريخ الذي تمّ فيه الاتصال بين مؤسسي الاتحاد وبين الجبهة. من المحتمل أن تكون هذه الأخيرة قد تابعت تأسيس الاتحاد وما تلاه من تطورات عن كثب منذ شهر أفريل 1955. مهما يكن: فرع مدينة الجزائر لـ"إ.ع.ط.م.ج" قد شكل "وحدة قِتالية" تحت إمرة جبهة التحرير قبل الفروع الأخرى بكثير. كان مسيِّروه أمثال محمد الصدّيق يحي وعلاّوة بن بعطوش ولمين خان وبوعلام أوصدّيق وسعيد حرموش يحملون بين جوانحهم حماسا فياضا جرَّ المكتب الإداري، في باريس، إلى يحذو حذوه في جرأته. لذلك؛ فإنَّ ترقية محمد الصديق بن يحي، رئيس فرع الجزائر، إلى رتبة عضو في المجلس الوطني للثورة الجزائرية بقرار صادر عن قيادة الجبهة، منذ أوت 1955، كان بمثابة تثمينٍ للجهود الضخمة التي

4. نص المنشورات في "الجريدة" لمولود فرعون ص. 50-51 أنظر: تقرير النائب العام لمجلس قضاء الجزائر ذكره Henri JACQUIN. "الحرب السرية في الجزائر" Olivier ORBAN، 1977، ص. 113 وفرحات عباس " خلاصة تشريح حرب" Garnier 1980 ص. 151

بدأها فرع الجزائر ل"إ.ع.ط.م.ج." (باتصال مع ودادية الشبيبة الطلابية المسلمة) في تأطير وتعبئة الوسط الطلابي خلال مدة لم تتجاوز سنة واحدة فقط.

من نتائج إضراب 19 ماي 1956 أنّه وضع طلبة الجامعة ومؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط كلهم تحت تصرّف جبهة وجيش التحرير الوطني. غير أنه لم يلتحق بصفوف التنظيم سوى الطلبة المتطوعون ذوو العزم السابق على الكفاح. وحيث أن المناضلين في إ.ع.ط.م.ج. وفي ودادية الشباب الطلابي المسلم قد تمّ توزيعهم على الهياكل الحضرية للتنظيم المذكور وفي الجبال لم يكن في وسعهم الاستمرارُ في تأطير المترددين وحثهم على العمل الثوري.

كان بوسع جبهة التحرير إرغامُهم على ذلك غير أنها كانت تولي عناية فائقة لاختيار نوعية المناضلين وليس لعددهم حين تريد تعزيز صفوفها. فالنداء الذي وجهته، في 19 ماي، كان الغرض منه ترقية المستوى الفكري للتنظيم وذلك من منظور تأسيس الدولة الجزائرية المقبلة وإحلال سلطتها محل السلطة الفرنسية. ذلك هو السبب الذي جعل عضوية الطلبة عضوية متميزة: فلم تكن مهمتهم تعزيز صفوف جبهة التحرير الوطني فحسب بل ترقية كامل التنظيم السياسي والإداري الذي يجسد مفهوم الجبهة بالتحديد. وحسب البرنامج المنبثق عن مؤتمر الصومام فإن "على الجبهة أن توكل للطلبة والطالبات، وبكيفية عقلانية، مهامّ محددةً في المجالات التي تمكنهم من استثمار قدراتهم: وهي مجالات السياسة والإدارة والثقافة والصحة والاقتصاد الخ..."[5]

---

5. "المجاهد (4) نوفمبر 1956 (النشرة المعادة في بلغراد م.1 ص. 60) نفس النص دعا إلى "تكوين لجان بين المثقفين الوطنيين. أ) الدعاية (...)، ب) الاتصال بالفرنسيين الأحرار، ج) الانضمام إلى مصالح الخدمات الصحية".

لمزيد من التوضيح ينبغي التمييز بين المهام السياسية والمهام التقنية؛ فمجال الأولى هو الغايات وأما مجال الثانية فهو الوسائل. وبالفعل؛ فلقد تبنّى مؤتمرُ الصومام نمطًا مُعقّدًا جدا من أنماط التنظيم الهيكلي؛ ففي مجالات النشاط الموكل إلى جبهة وجيش التحرير أنشئت ثلاثة فروع هي الفرع العسكري (جيش التحرير) والفرع السياسي – الإداري (جبهة التحرير)؛ ثم فرع "العلاقات والاستخبارات" وضُبطَ لكل فرع سلّمٌ إداري يربط مسئوليه بقيادات سياسية – عسكرية مشتركة.[6] يمثّل المحافظون السياسيون، المكلفون بنشر وتعزيز الوعي الثوري لدى الجيش وفي الأوساط الشعبية، حجرَ الزاوية في هيكل ذلك التنظيم؛[7] وكان الطلبة، الأكثر اقتناعا بالقضية، مؤهلين للقيام بتلك المهام الأساسية؛ وتبعا لذلك فإن الكفاءة التقنية هي التي كانت تحمل هؤلاء وأولئك لتبني المناصب الإدارية (كتابة، محاسبة؛ تموين) أو مصالح العدالة والتعليم والصحة. وكانت هذه المصلحة الأخيرة تعني بالخصوص جيش التحرير الوطني ويصدق نفس الأمر بالنسبة لمجال الاتصالات[8] وصناعة الأسلحة وخصوصا المتفجرات. لقد كانت تلك المهام المختلفة واضحة، على صعيد الطرح النظري، ولكنها دانت دون ذلك على صعيد التطبيق الميداني. وكانت جبهة وجيش التحرير الوطني تنشط في كل مكان من التراب الجزائري لكن في أشكال مختلفة؛ ولقد ظلّ تنظيمها سرّيا في المدن وفي القرى ذات الكثافة الاستعمارية وكذا في المناطق

---

6. أنظر مخطط الهيكلة عند Philippe TRYPIER "تشريح حرب الجزائر" فرنسا-الإمبراطورية 1972. ص. 635-636.

7. أنظر : النشرة الداخلية للمنطقة المحلية لمدينة الجزائر، التي حررها المحافظ السياسي بن ... المذكورة من طرف Jacques DUCHEMIN، "تاريخ جبهة التحرير الوطني" "الطاولة المستديرة" ... ص. 191-212.

8. شبكة الاتصال لجبهة التحرير الوطني هي من إنجازات عبد الحفيظ بوصوف أنظر: المجاهد ... أفريل 1959.

التي يغطيها الجيش الفرنسي بشبكته الإدارية التي تدعى "الفروع الإدارية المتخصصة" (S.A.S). لكنه كان يعمل سافرا في "المناطق المُحرَّمة" الخارجة عن سيطرة الفرنسيين وكان الثوار يسمونها "المناطقَ المُحرَّرَة". تم توزيع الطلبة والتلاميذ الثانويين، الذين تطوعوا في ماي 1956، بين الجبال وبين المنظمات السرية في الولايات الجزائرية السِّت. وكانت المنطقة المستقلة ذاتيا لمدينة الجزائر هي التنظيم الوحيد الذي حظي باهتمام عدة مؤلفين وتحدثوا عنه بإسهاب وتفصيل؛[9] وربما يكون من المفيد مقارنته بالتنظيم الذي ساد بقية المدن الكبيرة والذي ظلَّ تاريخُه مجهولا على العموم.

لقد ظل تنظيم مدينة الجزائر إلى غاية شهر ماي 1956، على ما يبدو، قليلَ النشاط لأنه كان يمثل قيادة أركان وقاعدةً خلفية لولايتي وسط البلاد وهما: الولاية الثالثة (القبائل) والولاية الرابعة (ناحية الجزائر). غير أنه تخلى عن ذلك التحفّظ الحذر ابتداء من الشهر الموالي حيث سُجلت ردود فعل عنيفة ضد تنفيذ أولى أحكام الإعدام على الثوار وتمثلت في موجة من الأعمال المسلّحة التي استهدفت السكان الفرنسيين (19 جوان). وهكذا دخلت مدينة الجزائر في دوامة الإرهاب والإرهاب المضاد فتحولت إلى ساحة للقتال.

في نفس الوقت؛ أضفى مؤتمر الصومام مزيدا من الأهمية على منطقة الجزائر بعد تحويلها إلى منطقة ذاتية مستقلة عن الولاية الرابعة لكي تكون مقرا للجنة التنسيق والتنفيذ وهي الجهاز الإداري المركزي لجبهة وجيش التحرير الوطني. قررت لجنة التنسيق والتنفيذ فورا تكثيف الكفاح في عاصمة الجزائر وذلك بتنفيذ سلسلة من الهجمات بالقنابل الموقوتة كتكملة

---

9. منهم Jacques MASSU "معركة الجزائر الحقيقية" Fayard 1971، Yves GODARD "المظليون في المدينة" Fayard 1972، ياسف سعدي، "ذكريات عن معركة الجزائر" Julliard 1982 و"معركة الجزائر" 1962...الخ.

للأسلحة الفردية. وتواصلت تلك الحملة بدون هوادة من 30 سبتمبر 1956 إلى غاية 27 جانفي 1957 أي ليلة "إضراب الأيام الثمانية" الذي تقرّر شنّه للبرهنة على تمثيل جبهة التحرير الوطني للشعب الجزائري قبيل انعقاد الدورة السنوية للأمم المتحدة. كانت تلك الخطة الإستراتيجية مغامرةً أخطأت هدفها بحيث مكّنت الخصمَ من تفكيك هياكل الجبهة في المنطقة المستقلة ذاتيا من طرف الفيلق العاشر للقوات المظلية تحت قيادة الجنرال Massu الذي كُلِّف، في 7 جانفي، بمهمة فرض الأمن في عمالة الجزائر.

كانت المنطقة المستقلة ذاتيا لمدينة الجزائر تحت سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ مباشرة حيث كان أعضاؤها القياديون الخمسة وهم: عبان رمضان وبن خدة وسعد دحلب وكريم بلقاسم وبن مهيدي يجتمعون بصفة دورية في المدينة. كان بن خدة مكلفا بقيادة المنطقة ونظرا لكونه خرّيج جامعة الجزائر فقد كلّف بعض الطلبة بتحمُّل مسؤوليات عليا. كان النشاط التابع للفرع السياسي- المالي مسيرا من طرف الطالب "إبراهيم شرقي" المدعو احميدة وكانت هيكلة الفرع عبارة عن سلّم تنظيمي يمثّل مختلف المسؤوليات الإقليمية للمحافظين السياسيين ومن بينهم يوجد الطالبان مالك هاشمي ومحمود مسعودي... كما يمثل المسؤوليات الموكلة للمكلفين بجمع الأموال. كان فرع "الاتصالات والاستخبارات" متطورا بشكل خاص ومقسّما إلى لجان متخصصة عديدة تحت إمرة لجنة التنسيق والتنفيذ وهي: لجنة العلاقات (مع الولايات ومع فدرالية فرنسا ومع الخارج) ولجنة الاستخبارات والتحرير (للدراسة والدعاية ومن جملة ما كانت تقوم به تحريرُ صحيفة المجاهد) ولجنة العدالة (لتحل محل العدالة الفرنسية) ولجنة الصحة (مكلفة بتزويد الثوار في الجبال بالأطباء والممرضين والأدوية وكذا بالتغطية القانونية لعملها مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر) ولجنة المالية (تسيير الأموال التي تجمعها لجنة السياسة والمالية). كانت تلك المجالات تستقطب نشاط الـ

الأكبر من الحائزين على الشهادات والبرجوازيين وحتى أبناء بعض "العائلات الكبيرة" ممن لا يشك كثيرا في ولائهم للثورة. وتقوم المنظمات المهنية المصرّح بها أو السريّة بتأطير السكّان مثل: الاتحاد العام للعمال الجزائريين (لتأطير العمال) والاتحاد العام للتجار والحرفيين الجزائريين (الذي يؤطر أصحاب الدكاكين و"المعاليم") والهلال الأحمر الجزائري (الأطباء وعمال الصحة) ومجموعة المحامين (المكلفة بمساعدة الموقوفين المقدمين للعدالة الفرنسية) وكذا "إ.ع.ط.م.ج." وودادية الشبيبة الطلابية المسلمة التي حلت آليا بعد الإضراب.

كان الفرع العسكري، الذي تولى ياسف سعدي قيادته، موضوعا تحت إشراف بن مهيدي خصيصا وكان يضم المجموعات المسلحة الموزعة على كل أحياء المدينة وكذا شبكة القنابل التي تم فصلها عن بقية التنظيم بهدف ضمان انعزال صارم بين أقسام الهيكلة. لعب الطلبة دورا أساسيا في هذه الشبكة ولقد شُرع في صناعة القنابل قبل شهر جويلية 1956 بفضل مجموعة من الكيميائيين الشيوعيين الذين انضموا إلى جبهة وجيش التحرير الوطني تحت إشراف بوعلام أوصديق. وحيث أن المختبر قد تهدّم إثر انفجار حدث فيه فقد تم تعويضه بمخبر آخر من طرف طالب في العلوم تم استقدامه من الجبل وهو عبد الرحمن طالب (نفّذ فيه حكم الإعدام بالمقصلة في أفريل 1958). تمّ اختيار طالبات ذوات ملامح وسحنة شبيهة بملامح النساء الفرنسيات (مثل زهرة ظريف وسامية لخضري وحسيبة بن بوعلي) لوضع تلك "الحوائج"، كما يحلو لياسف سعدي، تسميتُها، في الأماكن العمومية في الأحياء الأوروبية.

أُعيد تنظيم المنطقة المستقلة ذاتيا وفق نفس المبادئ التي حددتها الهيكلة أولّ مرة. حدث ذلك بعد إلقاء القبض على العديد من المناضلين (من بينهم بن مهيدي وأحميدة) وبعد فرار أعضاء مجلس التنسيق والتنفيذ (25

فيفري 1957). إنّ ندرة الإطارات المؤهلة هي التي سمحت للطلبة بتولي المسؤوليات الهامّة والخطيرة التي ترقى إلى مستوى المسؤوليات السابقة. فلقد وقع اختيارُ مجلس التنسيق والتنفيذ على بلعيد عبد السلام لقيادة المنطقة المستقلة ذاتيا لمدينة الجزائر غير أنه كان قد التجأ إلى المغرب قبل أن يصله خبر تكليفه بتلك المهمة.[10] قام المسئول الجديد، ياسف سعدي، بتعيين طالبة في الحقوق هي الزهرة ظريف كمساعِدة دائمة له وأوكل فرع السياسة لطالب في معهد الدراسات الإسلامية العليا والمناضل سابقا في شبكة القنابل وهو عبد الرحمن بن احميدة. وبعد سلسلة الاعتقالات الجديدة، في سبتمبر 1957، كلَّف أحدَ الحائزين على شهادة ويدعى حاج اسماعين، وهو موظف في القضاء الإسلامي، بتولي الفرع السياسي كما أوكلت مسؤولية فرع التحرير للطالب حوحات. وبعد أن إلقاء القبض على ياسف في 23 سبتمبر خلفه "الابنُ الشقي" "علي لابوانت" بمساعدة طالبة في الثانوي تدعى حسيبة بن بوعلي وبعد أن رفضوا الاستسلام هلكوا في 8 أكتوبر عندما انفجرت ذخيرة القنابل التي كانت بحوزتهم. كان إلقاء القبض على المحافظ السياسي بن احميدة وعلى أعضاء لجان المناطق بمثابة استكمال لتفكيك المنطقة المحلية. لم يتمكن تنظيم مدينة الجزائر من تجديد هيكلته إلا في سنة 1960.

## 2- في فرنسا

تأخر انضمام الطلبة إلى جبهة التحرير في فرنسا مدّة طويلة. ولم يحدث ذلك بسبب ظروف القمع الصارم (كان أقلّ في فرنسا مقارنة بمجريات الأمور في الجزائر) لكن تأخر انضمام الطلبة بسبب وجود تنظيم قوي منافس لجبهة التحرير يسمّى "الحركة الوطنية الجزائرية". وهو تنظيم أسّسه مصالي الحاج بعد أن حلت حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

10. حسب السيد حربي "أصول جبهة التحرير" ص 34.

كانت فدرالية فرنسا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية قد وقفت جماعيا إلى جانب مصالي إثر انشقاق صفوفها. كان مسيروها المركزيون، أمثال يزيد وبولحروف...، قد اضطروا إلى التستّر أو اللجوء إلى الخارج بعد أن حُلَّ الحزب، إثر01 نوفمبر 1954، بقليل؛ وكان أعضاءٌ آخرون، في القيادة القديمة، أمثال بوضياف وديدوش قد غادروا فرنسا لتنظيم صفوف الثورة في الجزائر وفي القاهرة. هكذا خلت الساحة إذن أمام أنصار مصالي ليستحوذوا على قيادة التنظيم.

كان الفرع الجامعي منقسما على نفسه؛ فكان بلعيد عبد السلام يعمل من أجل انضمام أغلبية الطلبة إلى موقف المركزيين غير المتحمّسين لخيار الكفاح المسلح. وكان البعض الآخر مناصرا لمصالي أمثال: أمير بن عيسى وباسطا علي، الذي أُلقي عليه القبض بعد جانفي 1955، وكان ثمة أيضا نواةٌ مناصرة لجبة التحرير الوطني ينشّطها محمد العربي ماضي.[11]

في تلك الظروف؛ كانت بداية نشاط فدرالية فرنسا لجبهة التحرير محتشمة جدا وقام مسئولون، قدماء، بالتنسيق مع بوضياف ويزيد لربط اتصالات ضمنت لهم تأيد 100 مناضل (في حين احتفظت "الحركة الوطنية الجزائرية" ب 7.000). في ذلك التنظيم الهشّ تكفّل بعضُ الطلبة بمسؤوليات أساسية أمثال: زروقي، في الشئون المالية، وماضي، في شئون الدعاية، ولقد أُلقي القبض على الأول في شهر ماي 1955 واعتُقل الثاني في شهر جوان.[12] تكفّل طلبة آخرون بمسؤوليات محلية وبصفة خاصة بمهام تحسيس وتجنيد العمال الذين استاءوا من تلاعب "الحركة الوطنية الجزائرية" التي كانت تدّعي قيادة الكفاح في الجزائر.

---

11. حربي المرجع المذكور، ص. 129، 143، 263، 267، و 303.

12. "الجمهورية الجزائرية" 24-6-1955؛ "الجزائر الجمهورية" 6-1955, France Observateur 16-6 و 7-7-1955. KESSEL و PIRELLI: "الشعب الجزائري والحرب" ص 67 وما بعدها.

لكن هذا لا يعني أن جميع الطلبة المُسيَّسين كانوا مُجَنَّدين في صفوف جبهة التحرير؛ بل كان الأمر، وقتئذ، لا يزال متعلّقا بأشخاص معدودين فقط. لا يمكننا التأكيد، بصفة مضبوطة، متى وقع ضمُّ "إ.ع.ط.م.ج" تحت لواء فدرالية فرنسا؛ ذلك لأنَّ مؤسسي اتحاد الطلبة كانوا من المركزيين ومن أنصار العلماء و"الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري" وكانت هذه التنظيمات تتفاوض في شأن انضمامها إلى الجبهة. يُمكن تأويل آخر جملة وردت في الخطاب- البرنامج الذي ألقاه أحمد طالب كإشارة إلى الرغبة في ربط الاتصال بينما لم يزل يوجد في صفوف الطلبة مؤيدون لمصالي مثلما هو شأن أمير بن عيسى؛ وكان المُروِّجون لتنظيم "الاتحاد العام للطلبة الجزائريين" من الشيوعيين وأنصارهم؛ وكان حزبُهم، رغم مساندته منذ شهر جوان للكفاح الذي شنّته جبهة التحرير الوطني، يُفضِّل الاحتفاظ باستقلاليته تجاهها.

يبدو أنَّ فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني استغلت فرصة تأسيس "إ.ع.ط.م.ج" لاختراقه بواسطة خلاياها المبثوثة في صفوفه. تم تجنيد رئيسه أحمد طالب في أكتوبر 1955. إنَّ قائمة الطلبة الذين ألقي عليهم القبض، قبل إضراب 20 جانفي 1956، أصدق تعبير عن ذلك؛ وفيها أسماء طلبة أمثال: عبد المالك بن حبيلس (مركزي) وجمال الدين رحال (أول رئيس لاتحاد الطلبة الجزائريين في باريس وعضو في الاتحاد العام للطلبة الجزائريين) ومولود بالاوان (أمين عام ل"إ.ع.ط.م.ج.") وبلعيد عبد السلام وأمير بن عيسى (اللذان انضما إلى الجبهة).

بعد الانتخابات التشريعية، في 2 جانفي 1956، قرّرت القيادة السياسية لمدينة الجزائر إيفاد صالح الوانشي إلى باريس للتفاوض والعمل على استمالة الرأي العام الفرنسي. وتحت قيادته وجّهت فدرالية فرنسا حملة كثيفة لتجنيد المناضلين في صفوف الطلبة وترقيتهم إلى أعلى المسؤوليات.

لذلك؛ اصطحب الوانشي معه، بعد شهر جانفي، أحمد طالب الإبراهيمي لإجراء مقابلة مع Pierre Mendès France؛ وفي شهر مارس تم تعيينُ هذا الطالب في اللجنة الفدرالية حيث كُلِّف بمهام الدعاية؛[13] وشارك طلبة آخرون في لجان مختلفة كلجنة تحرير نشرة "المقاومة الجزائرية" وكانوا يكلّفون بالخصوص بالاتصال بالطلبة اليساريين إلى جانب مهامهم المتمثلة في تنظيم الجزائريين في المهجر.

في نفس الوقت؛ فرضت الفدرالية على "إ.ع.ط.م.ج." تبعية صارمة وأملت عليها إنجاز عدة نشاطات تضامنية مع الثورة ومن ذلك: المشاركة في إضراب 20 جانفي 1956 وتبني عريضة المؤتمر الثاني الداعية إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني وأخيرا إصدار الأمر بالإضراب اللامحدود، في ماي، رغم صعوبة تنفيذه.

كان قادة الفدرالية موزعين بين نوعين من المشاعر تجاه الطلبة فتراهم يُكنون تقديرا عاليا للمهام التي يتولاها المناضلون منهم ولكنهم، في نفس الوقت، كانوا يحذرون من المثقفين الذين يجنحون عموما إلى الانسياق مع مشاعرهم الفردية والفوضوية وهي مشاعر يصعب إدراجها في نسق منظم. ولقد ظلّ "إ.ع.ط.م.ج." ذاتُه، ولمدة طويلة، منظَّمةً مشبوهة لأنها متميّزة ومتفتحة على كل الاتجاهات. لكن ابتداء من 25 ماي 1956 لم يكن الاتحاد يمثل سوى "وحدة قتالية" تابعة للجبهة متقمصة لباس الشرعية.[14]

كانت الفدرالية تسهّل إجراءات عبور المتطوعين الذين يضعون أنفسهم رهن إشارة جبهة وجيش التحرير الوطني في الجزائر وفي تونس أو المغرب غير أنّ فكرة إرسال جميع الطلبة الجزائريين، الموجودين في فرنسا، إلى الجبهة لم تكن واردة قط. لقد حطّم طلبة جامعة Montpellier الرّقم القياسي

13. وهكذا فقد حرر "رسالة إلى الفرنسيين" و"رسالة إلى صديق فرنسي" ("العمل" 11-6 و 17-12-1956)

14. شهادات السادة : لونشي صالح وأحمد طالب.

حين تمكّنوا من تجنيد حوالي عشرة من الطلبة المضربين وبعثوهم إلى الجبهة.[15] أمّا الفدرالية فقد فضّلت تجنيد الطلبة، في عين المكان، لممارسة النضال السياسي في إطار الجامعات الفرنسية (وبدرجة ثانية للمساهمة في اللقاءات الطلابية الدولية) بحيث ينسجم ذلك النضال مع طبيعة النضال الذي يميز تنظيمها. لأنّ كلاًّ من الفدرالية أو "إ.ع.ط.م.ج"، ضمن دائرة اختصاصهما، منظمتان كانتا تسعيان لتحقيق هدف واحد صيغَ من طرف مؤتمر الصومام كما يلي: "تنوير الرأي العام الفرنسي والأجنبي بإعطاء المعلومات وبنشر المقالات في الجرائد والمجلات. ويتحقّق ذلك بذوي الخبرة من المناضلين المثقفين والطلبة".[16] تندرجُ الحملة، التي قرّرها المكتب الإداري لشرح أهداف الإضراب، ضمن مخطط يرمي إلى إقناع الأوساط التي يمكن أن تستجيب طبيعيا لفكرة المبادرة بالمفاوضات مع جبهة التحرير الوطني للوصول إلى حلّ سلمي. ذلك هو الجهد الذي تكفل به صالح الوانشي بصفة خاصة.

ومع ذلك؛ فإن التوجه الذي أعطاه هذا الأخير لنشاط فدرالية فرنسا صار موضوع انتقادات تتزايدُ حدّتُها كلّما تلاشت آفاق الوصول إلى المفاوضات؛ وكان الملامةُ الموجّهة إليه أساسا أنّه رجلٌ دبلوماسي أكثر منه ثوري وأنّه يفضّل "عمل الصالونات" على تجنيد السكان الجزائريين لمحاربة "الحركة الوطنية الجزائرية" والاستعمار الفرنسي.[17] عندما أُلقي القبض على معظم أعضاء المكتب الفدرالي، في نوفمبر 1956، قرّر مكتب التنسيق والتنفيذ تعيينَ رئيس جديد للفدرالية هو محمد لبجاوي وكلّفه بانتهاج سياسة أكثر هجومية.

---

15. حسب تقدير السيد أيت شعلال.

16. "المجاهد" (4) م.1 ص 72.

17. حسب شهادة السادة: حربي، وj. Berthelet (عضو سابق في شبكة Jeanson)، فإن صالح الونشي، أحد قدماء الكشافة الإسلامية الجزائرية، هو من جملة مؤسسي تنظيم (م.إشكا)؛ وهو أيضا صهر للدكتور Chaulet Pierre.

وصل هذا الأخير، في جانفي 1957، عازما على تعزيز تأطير السكان الجزائريين بواسطة هياكل جبهة التحرير الوطني وبواسطة المنظمات المهنية الدائرة في فلكها. كان الوسط المثقف، في نظره، أقلَّ طواعيةً ولكنه في نفس الوقت أكثر ثراء من حيث نوعية المناضلين ذوي المستوى العالي. ها هو يُقدِّمهم كما يلي: "أما الطلبة فإنهم منضوون في تنظيمهم الخاص بهم وهو "إ.ع.ط.م.ج" ولكن؛ يوجد بينهم عناصر عديدة لا يبدو أنَّها استوعبت أُسُسَ سياستنا تماما(...) لقد جمعتُ المسئولين في إحدى غُرف الحي الجامعي وكان من بين الحاضرين كلٌّ من بلاوان (...) ومحمد خميستي (...) ورضا مالك (...) وبن يللس والأخضري. لقد كان هدفي هو تقديم شرح واضح لسياسة جبهة التحرير على أساس القرارات السياسية والعسكرية الصادرة عن مؤتمر الصومام ومن جهة أخرى محاولةُ إيجاد بعض الأطر الكفيلة بتعزيز التنظيم الذي لم تجد صفوفه ما يفي بالحاجة في هذا المجال".[18] احتفظ لبجاوي بعضوية صالح الوانشي وأحمد طالب في اللجنة الفدرالية (هذا الأخير أوكلت له مسؤولية اللجنة المالية) وأضاف إليها عضوية أحمد بومنجل وزوّد اللجنة بأمانة دائمة تكفّل بها محمد حربي ومحمد الشريف صالحي ورضا مالك. وقام بفضل مساعدة "إ.ع.ط.م.ج." بتجنيد المواطنين الجزائريين للقيام بإضراب الأيام الثمانية الذي قررته لجنة التنسيق والتنفيذ. بعد هذا النجاح (الذي سمح لجبهة التحرير بالتظاهر، لأول مرة، في فرنسا) بتمثيلية أقوى من الحركة الوطنية الجزائرية. فاجأت الجبهةُ الرأيَ العام الفرنسي بتكثيف اتصالاتها مع الأوساط الليبرالية؛ غير أنَّ توقيف كل أعضاء المكتب الفدرالي تقريبا (منهم لبجاوي والوانشي وأحمد طالب)، في نهاية فيفري 1957، قد وضع حدا لذلك المشروع.

18. لبجاوي ؛ المرجع المذكور ص. 75-83

تولّى الطبيب بولحروف شؤون الفدرالية مؤقتا وعند انتهاء عهدته تشكّلت قيادة جديدة، في جويلية 1957، من طرف عمر بوداود الذي أوفدته من الخارج لجنة التنسيق والتنفيذ. تمثلت أهداف تلك القيادة، أساسا، في تعبئة جموع المهاجرين الجزائريين لتصفية الحركة الوطنية الجزائرية ولنقل الحرب إلى التراب الفرنسي؛ فلم يبق للتشدّق بالكلمات مُتّسع من الوقت بل آن وقت العمل.

لا شكّ أنّ أهمية دور المثقفين تتناقص في مثل تلك الظروف فلم يعد لهم، في القيادة الجديدة، تمثيل سوى من طرف رجل واحد هو علي هارون المكلّف بالإعلام. صحيح أنه وجد هناك آخرون كانوا يعملون في مختلف اللجان التي تدور في فلك اللجنة الفدرالية ولكن العديد منهم (أمثال بومنجل وصالحي ورضا مالك ومحمد حربي) قد تم استدعاؤهم إلى الخارج من طرف لجنة التنسيق والتنفيذ ثم من طرف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. بعد عودة الطلبة إلى الدارسة، في أكتوبر 1957، نضبت المصادر التي كانت تزوّد الحركة بالمناضلين من الوسط الطلابي.

أمّا بالنسبة للقيادة الجديدة فإن "إ.ع.ط.م.ج" لم يكن سوى تنظيما تابعا لها رغم أنّه يكتسي صبغة شرعية وكان موجّها لتأطير الوسط الطلابي ولتبليغه أوامرها كما هو الشأن بالنسبة للمنظمات المهنية الجزائرية الأخرى مثل: "الودادية العامة للعمال الجزائريين" و" الودادية العامة للتجار والحرفيين الجزائريين" ( وهي فروع لاتحاد العمال واتحاد التجار والحرفيين). عندما حُلّ "إ.ع.ط.م.ج"، في 28 جانفي 1958، بسبب تواطؤه الظاهر مع جبهة التحرير الوطني، تم تعويضه بفرع جامعي للجبهة هو "ف.ج" ( أي الفرع الجامعي) ولقد تمت هيكلة المسؤولية فيه بشكل هرمي وفق المبادئ العامة للتنظيم غير أن عوازل صارمة كانت تفصله عن هيئته الرئيسية ولم يكن يرتبط بها إلا في المستوى الأعلى. بالفعل؛ كان "الفرع

الجامعي" لجامعة باريس ينسّق نشاطات الفروع المحلية وكان مسئوله الوطني يضمن استمرار الاتصال مع لجنة فدرالية خاصة يُشرف عليها عبد الكريم سويسي وهو عضو المكتب الوطني المكلف بالمالية؛[19] ورغم كل الاحتياطات فإنّ حملة الاعتقال مسّت المنظمتين، في ديسمبر 1958، وحوكم حوالي خمسة عشر مناضلا (أغلبهم من "ف.ج")، في جويلية 1959، بتهمة إعادة تشكيل الرابطة المنحلّة. بذلك تضاعف عزل الفرع الجامعي فاضطر الطلبة، من 1959 إلى 1962، على النضال في دائرة مغلقة داخل وسطهم الطلابي؛ فكانوا يقومون بإسداء بعض الخدمات للقضية الوطنية مثل: العمل الدعائي لدى الفرنسيين الذين يظهر عليهم حسن الاستعداد لتقبل ذلك، وتقديم المعلومات؛ وجمع الأموال والأدوية؛ وتجنيد المتطوعين لجيش الحدود، ابتداء من جويلية 1960، غير أنّ اجتماعات الفروع الجامعية كانت تهدف أساسا إلى الاحتفاظ بالقدر الأدنى من التنظيم والوعي السياسي لدى الطلاب. كانوا يوهمون أنفسهم بأنهم يلعبون دورا ما حين يوزعون الوثائق المتعلقة بمجريات الحرب أو بالتخطيط للمستقبل في مجموعاتهم الدراسية (على غرار "المنتدى الاقتصادي" الذي صدر عنه تقرير ضخم في 1962) أو بالمشاركة في تربصات التكوين السياسي في ألمانيا. كان بعض المناضلين مقتنعين بأن الشرطة تتابع نشاطهم عن كثب غير أنها كانت تغمض عينها عن ذلك لأنها لم تكن ترى فيه خطرا؛ والواقع؛ أن الفرع الجامعي لم يكن، أو لم يعد، مدرسة تكوين الأطر لحساب الفدرالية. وكان الطلبة المناضلون يقترحون على الفدرالية توظيفَ متطوعين متخصصين في المحاسبة إلاّ أنَّها كانت تردّ عليهم قائلةً: "عليكم بالانتظام فيما بينكم والانشغال بمتابعة دراستكم".

19. حول تنظيم فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، أنظر لبجاوي، المرجع المذكور ص. 173-177، وYves COURRIERE، "ساعة الكولونيلات" ص. 387-389.

توصّل مسيرو الفدرالية أخيرا إلى حل مشكلة مراقبة الوسط الطلابي وذلك بتكليف الطلبة أنفسهم بتولّيها، ابتداء من 1957–1958، غير أنّ الفواصل العازلة بين أجزاء الهيكلة التنظيمية ضاعفت حالة العزلة في المحتشد الجامعي وهي عزلة اخترقتها، لفترة معينة، مشاركةٌ فعلية لبعض الطلبة في العمل النضالي السري أو التجربة الخطيرة والمثيرة للحماس التي أقدم عليها بعضهم الآخر في الجبال.

## ب) في الجبال

إنّ دعوة الطلاب إلى الالتحاق بالثوار في الجبال، المتضمنة في نداء 19 ماي 1956، كان رمزا للقطيعة النهائية مع رغد العيش والحياة الهادئة في سبيل القضية الوطنية. كانت معاقل الثورة في الجبال أحسن مكان يُجسدّ المخاطرة والحرية. ولقد كان نشيد حزب الشعب الجزائري، منذ سنة 1945، ينادي: "من جبالنا طلع صوت الأحرار...". أما أولئك الثوار، الذين تُطلق عليهم الصحف الاستعمارية تسمية "الخارجين عن القانون"، فإن الطلبة والتلاميذ الجزائريين كانوا يثقون فيهم ثقة تامة تكاد مشاعر صوفية: "إلاّ أنك يا قلبي مؤمنٌ. أنت تُؤمن بالخارجين عن القانون"[20]؛ وكانوا يعتبرونهم أبطالا معصومين تتجسّد فيهم جميع الفضائل البشرية: "هاهنا يوجد الجندي، الذي يقدم لنا جميعا، أحسنَ درسٍ وأصدق مثال؛ أليس هو حاملُ اللواء وحامي الشرف والمجد والحرية؟"[21]

20. نادية قندوز. "الخارجون عن القانون"، من كتاب "أمل وكلمات"، قصائد جزائرية جمعتها BARRAT Denise. منشورات Seghers 1963.

21. "الصحوة الطلابية" (1) مارس 1956. السمعة الكبيرة التي حظي بها الثوار في الجبال قد أكدتها LET-BEYSSADE Alberte SADOUIL في كتابها "في الجزائر، على مر الدراما الجزائر 1956"، ص. 102؛ Pierre "احتضار إحدى العوالم" ص. 100؛ Edmond JOUHAUD "يا بلدي المفقود" Fayard 1969، ص. 32-333، في "يوميات" مولود فرعون، ويوميات المحارب عبد الحميد بن زين (الجزائر 1965)

كان ذلك الحماس العفوي شعورا فيّاضًا في نفوس الطلبة الشباب، وخصوصا في مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط، فلا غرابة في أن يُقدّموا أكبرَ عدد من المتطوعين، في ماي وجوان 1956، وحتى بعد نهاية الإضراب المدرسي استمرّ بعضهم في الالتحاق بالجبال إلى غاية 1958.

أما الغريب في الأمر فهو المشاركة الضعيفةُ للطلبة الجامعيين: فمن جملة 157 متطوعا من الشباب الذين شاركوا في تربُّص للتكوين السياسي نظّمته الولاية الرابعة في جبال تيطري، في صيف 1956، كان عددُ الجامعيين يعدّ على أصابع اليد ولا يبدو أن نسبة 10/1 من بين 600 طالب مسلم، من مدينة الجزائر، قد التحقت بالجبال خلال الأشهر الثلاثة الأولى في كل الولايات الجزائرية ولم تكن نسبةُ الطلبة القادمين من جامعات فرنسا أحسنَ من ذلك. يمكن تفسير هذا الخلل، النسبي، بمحدودية طاقة الاستقبال في الجبال؛ فلقد أعربَ بعضُ الطلاب عن رغبتهم في الالتحاق بالجبال، ومنهم من راسل عبّان رمضان في الموضوع، ولكن طلبهم قوبل بالرفض؛ وكان عدد الطلبة المتطوعين ضعيفا وفي تناقص مستمر نظرا لعدم تجدّده بالقدر الكافي. وبما أن العدد الإجمالي للمحاربين قد سلك نفس المنحنى فلا يصحّ الاستنتاجُ بأنّ النسبة المئوية للطلبة في الجبال قد انخفضت بل يمكن القول بأن المثقفين كانوا يمثلون هناك نفس النسبة التي يمثلونها داخل المجتمع أي أنها نسبة ضعيفة كما أن وعيهم القومي لم يكن أقوى من المعدل العام؛ ولا ينبغي اعتبار تواجد أقلية من الطلبة في الجبال (من الثانويين بالأخص) أمرا غير ذي قيمة، بل العكس هو الصحيح، لأنّ العبرة هنا بالنوعية وليس بالكمية.

الواقع أنّ قسوة ظروف الحياة توضّح، بما فيه الكفاية، سببَ قلّة عدد المتطوعين. لم يكن الطالب قد ألِفَ الصبر على تحمُّل شظف العيش بل تعوّد على رفاهية العيش في المدينة.؛ أما في الجبل فكان يمشي على قدميه يوميا

إلى حدّ الإحساس بالهلوسة فتدمى قدماه وتنفذ قواه الجسدية وتنحط معنوياته ذلك أنّ التحرُّك والتنقُّل المستمر شرطٌ من شروط الأمن بالرغم من عدم كفايته بشكل دائم. إنّ صعوبات التأقلم تلك كافيةٌ لإحباط مسعى كل من كان مدفوعا، بعزم لا يلين، إلى خوض غمار الكفاح؛ فهذا، على سبيل المثال، أحدُ الطلبة المسجونين في مدينة الجزائر سنة 1957، وهو من أبناء عائلة مرموقة، يبوح لرفقائه عن فرحته بتوليه أخيرا إلى الظل! وهذا أيضًا رشيد بوجدرة، وهو طالب ثانوي التحق بالجبل سنة 1958، يتحدّث عن تجربته في بعض فصول روايته الأولى كما يلي:

"بعد التوقف عن السير كنا ننطلق من جديد بحثا عن بعض أشجار العرعر لكي نكمن تحتها قبل أن توقظنا روائح المذابح من غفوتنا؛ ثم نتسلق القمم لكي نضاعف إسالة الدم من أقدامنا المكدودة التي ارتسمت عليها أخاديدُ متعفّنة توخز صاحبها فيحاول تهدئتها بحكّ قدميه إلى حدّ الجنون: ولا يزول عنا ذلك الجنون إلاّ حين نصادف أرضا ذات تكوين فُطري مسامي توحي باقترابنا من البحر".[22]

إنّ الاستغناء عن الفراش الوثير وإنّ الخلود إلى النوم فوق ركام من روث البقر وبجانب الحمار أو المعزى وقضاء الحاجة ثم أداء الصلاة وسط فحيح الأفاعي والاغتراف من برك الماء الآسن الذي يعج بالجراثيم...؛ فكل تلك الأمور عادات غير مألوفة ينبغي اكتسابها والتخلّي عن رفاهية المرافق التي توفرها الحضارة. الأدهى من كلّ هذا هو استحالة خلود الشخص إلى الراحة والطمأنينة مع بقائه في حالة استنفار دائمة ثم العيش في حدود مقتضيات كل يوم؛ فتلك الحياة غير العادية لا يمكن تبريرها سوى بالقناعة القوية والشعور العميق بحتمية أداء الواجب. قد يحدث، من حين لآخر، لأحد

22 "الطلاق" Denoël 1969، ص. 212.

الطلاب أو الأطباء أن يسأل نفسه عن كُنه الدوافع التي ساقته إلى تلك الأصقاع المتوحشة بينما العديد من رفاقه باقون في كنف الأمن خارج الوطن؛ ولكن بما أنَّ هؤلاء المتطوعون جاءوا من تلقاء أنفسهم فلا يصح أن يلوموا أحدًا غيرهم فلا حيلة لديهم سوى الرضا بما يلاقون: "أقلُّ ما يمكن أن نفتخر به هو رصيد الذكريات التي عشنا والتي سوف نقصّها على أحفادنا" إن رجعنا غليهم سالمين طبعا!

### 1- مهام المثقفين

في البداية كان طلبة التعليم الثانوي والجامعيون وحملة الشهادات يعتبرون من ذوي الاختصاص العالي ولكنهم لا يكادون يتحملون المعيشة الشاقة؛ ولهذا السبب كان يتم توجيههم للعمل في الفروع الصحية والسياسية والإدارية ومصالح الاتصال والمخابرات. حدّدت أرضيةُ مؤتمر الصومام مختلفَ المهام الموكولة لهم غير أن التخصّصات المحدّدة لم يكن من الممكن احترامها: فضعف عدد المثقفين أدّى إلى استخدامهم في صلاحيات متعددة وكانت الكفاءة المهنية للأطباء والممرضين هي التي تثير الإعجاب فكانت مصلحة الصحة، بالإضافة إلى مهامها في صفوف المحاربين، تُعالج سكّان المداشر المتواجدة تحت سلطة جبهة وجيش التحرير الوطني؛ وكانت تنشر الوعي الصحي في صفوف الجيش ووسط الشعب. كان كلُّ جندي، من جنود الولاية الرابعة، يحمل في حقيبته قطعة صابون ومعجون أسنان وفرشاة وكان كلُّ قائد سرّيَّة مسئولا عن شروط النظافة والصحة. كانت المداشر المتواجدة في "المناطق المحرمة" تعيش في نظام مُغلق؛ فكان من مهام المسئولين السياسيين والإداريين السهرُ على تنظيم الإنتاج وضمان المبادلات بين المناطق المتكاملة، سواءً في نفس الولاية أو بين مختلف الولايات، وتزويد جيش التحرير بالضروري الذي يحتاج إليه. كانت دروس

محو الأمية، باللغتين الفرنسية والعربية، تُمنح للمحاربين بأمر من الكولونيل عميروش؛ وهكذا انتشرت المدارس الابتدائية في العديد من المناطق الجبلية حسب ما يتوفّر من إمكانيات وكان الكولونيل، قائد الولاية الرابعة، يفتخر في 1957 بتوفير مئة وعشرين مدرسة. كان المثقفون يساهمون في تسييس المحاربين والشعب ورفع الروح المعنوية بواسطة المنشورات السريّة و النشرات المحلية ومن بينها: "صوت الجبال"، في الولاية الثالثة، و"حرب العصابات" ثم "الثورة"، في الولاية الرابعة، وكانوا يؤدون وظيفة القضاء، باسم جبهة التحرير الوطني، ويصدرون الأحكام في النزاعات بين الفلاحين وضد الخونة؛ في حين تم تكليف آخرين بمهام الاتصال والاستعلام وهو اختصاص تم تحديثُه بفضل أجهزة الراديو، منذ سنة 1957، كما كُلِّف الطلبة والمثقفون بمهام الكتابة العامة والمحاسبة المالية، التي شدّد مؤتمر الصومام على أهميتها، مما ساهم في بيروقراطية الثورة الجزائرية.[23]

لم يكن المثقفون، في بداية الأمر، يُرسلون إلى صفوف جيش التحرير الوطني باستثناء بعض العلميين الذين كانوا يُستعملون كمختصين في المتفجرات؛ ولكن سرعان ما التحق عددٌ هام من طلاب التعليم الثانوي وبعضُ الطلبة الجامعيين بالصوف كمحاربين وخاصة في الولاية الرابعة. لقد تمّ إلحاقهم بقوات الطليعة وفي كومندوس النواحي وتمت ترقية بعضهم لمنصب قيادة الكومندوس؛ وهكذا اندمج المثقفون اندماجا تاما وكانوا أهلا لما أُسند إليهم من مهام فنجحوا بصفتهم مناضلين في صفوف جبهة وجيش التحرير الوطني. ورد الحديث عن هذا المسار في مقال كتبته جريدة المجاهد[24] وهو المقال الوحيد الذي خُصّص للتحدث عن طالب ذُكر اسمه

23. حول الحياة في الجبال، انظر Yves COURRIERE: "ساعة الكولونيلات". سي عز الدين " كانوا يدعوننا فلاقة" Stock 1977، ومقالات في "المجاهد".

24. (8) 5-8-1957 (م. 1 ص. 82 و 86-87).

بالتحديد؛ فلقد تم الحديث بتفصيل عن المصير الذي لقيه عبد القادر بونعجة كمثال للشبيبة الطلابية الجزائرية بالعبارات التالية:

"نتحدّث اليوم عن طالب شاب من مدينة الأغواط، هو عبد القادر بونعجة، الذي بدأ نضاله كمحافظ سياسي قطاعي وعمره، حينئذ، 19 سنة. لم يكن يسمح لنفسه بأي قسط من الراحة. كان يخصّص لحظات الاسترخاء القليلة التي تتوفّر له للمطالعة. وكان حريصا على إثراء فكره ومضاعفة مردوديته. كان يتميّز، في الاجتماعات، بملاحظاته الهامة وبتحليلاته السياسية المستشرفة للمستقبل. وكان، في المداشر، يفضلّ التوجه إلى السكان الأكثر فقرا لتقدير بؤسهم ومؤاساة محنتهم. كان يُحدّثهم عن الأراضي المغتصبة وعن تبعية اقتصادنا لاقتصاد العدو تبعيةً تامة. كان يحدثهم هكذا لأن نظره كان متجها نحو مستقبل الجمهورية الديمقراطية والاجتماعية التي تعمل الثورة على تأسيسها.

إنّ أمنيته، الغالية، هي أن يصير جنديا؛ فكان القمع الهمجي الفرنسي المسلط على الشعب يدفعه إلى الرغبة في الانتقام؛ وكانت رغبته أن يحمل بين يديه قطعة سلاح ليقتل بها واحدة من بين تلك المخلوقات المتوحشة القاسية قلوبها والتي تعذب النساء وتحرق الديار وتُفسد الحرث وتهدم المدارس. تمت تلبية رغبته بتعيينه ضمن فرقة في إحدى المناطق؛ وهناك أيضا أثبت أنه كان وطنيا متميّزا بذكائه وفضائله الحربية. سقط شهيدا أثناء المعركة في جبل لوح. كان يرأس كتيبة تحت إمرة ضابط الصف المدعو الطاهر. هاجم إحدى المواقع الإستراتيجية وواصل التقدّم مواجها رصاص البندقية الرشاشة ثم نادى إخوانه إلى الهجوم فتمكّنوا من السيطرة على الموقع. من هناك، وبفضل تصويبه الدقيق، أطاح العديد من الأعداء المنتمين إلى كومندوس أسود. وبعد عشر دقائق كان النصر لنا تماما (...) تجاهل عبد القادر الموت فعاد ليقف على قدميه ثم أعطى الأمر بالهجوم النهائي صائحا: "الله أكبر" "تحيا الجزائر"

"يحيا الشعب". ثمّ وافاه الأجل بعد ذلك وهو بين ذراعي عبد القادر الذي أغمض له عينيه وجدّد له عهد كل المناضلين بمواصلة مسيرته والانتقام له (...) ولنذكر هذا الإهداء الذي تقدم به بطلٌ شاب إلى الملازم توفيق قائلا: "من بين كل الحريات البشرية فإن أغلاها ثمنا هو استقلال الوطن".[25]

## 2- علاقات الطلبة بالشعب

ألهمت حياةُ الطلاب في الجبال كاتبًا آخر سعى إلى خدمة ذات القضية بمقدرة فائقة على الإقناع باستحضار المواقف بكل بساطة وزهد. تلك هي قصيدة "حرب العصابات" التي كتبها بوعلام طيبي،[26] وهو طالب في قسم الآداب الكلاسيكية ومسئول في مصلحة الدعاية بالولاية الرابعة، خاطب في قصيدته المواطن الجزائري ودعاه إلى العمل قائلا: "أخي! ارفع بصرك نحو السماء الزرقاء! تأكّد بنفسك أنّ في سماء الجزائر ثغرةً غاب عنها نجمٌ وأنّه يجب وضع النجم فيها غدا..."

لكن إنجازا عظيما كهذا يقتضي سلوك سبيل العنف المتمثل في "حرب العصابات". إنّ تكرار تلك العبارة يوحي بتعاقب صور رهيبة:

- "اصغ إلى النحيب المُفجع المنبعث من الديار المهدّمة ومن الأعشاش المحطّمة اصغ إلى خُطى الحزن العميق في كل مكان. لم يبق في الساحة العمومية وقرب الينبوع شيءٌ يذكر... ما أكثر عدد الجُثث وبرك الدماء التي أخذت تجفُّ تحت وهج الشمس..."

- "انظر إلى الدخان المُتصاعد نحو السماء الزرقاء حيث تُحلّق الغربان السود وكأنها بقع متحركة؛ وهنالك في قاع الوادي وخلف ستار الزيتون يلتهم اللهب ما تبقّى من الدّشرة الشهيدة..."

---

25. حسب رواية Charles MAURRAS.

26. أعيد نشرها في "أمل وكلمات" ص. 49-50؛ بوعلام طيبي كان تسمية حربية لبوعلام أوصديق.

كان العنف الثوري، الذي يثأر للشعب، هو الرد العادل على القمع الاستعماري الظالم؛ غير أن الكاتب اكتفى بالحديث عن خلاّنه الذين ما زال ينتظر مجيئهم وعن وابل الرصاص الذي لا ينقطع هديره. إنَّه يغُضُّ بصره عن وصف المجازر، حياءً، ثم يختم حديثه الحماسي بالدفاع عن مشروعية الكفاح العادل قائلا:

- "أمعن النَّظر جيدًا لعلَّك تتبيَّن، تحت ضياء القمر الخافت، تلك الظلال الرمادية المتوعدة. هاهنا، فوق هذه القمم، أوهناك، خلف الشجيرات، يتمدَّد ضباطٌ وجنودٌ... إنَّهم يتربصون تحت كابوس السكون... وبعد لحظات سوف يمر العدو من هنا.

- "استمع إلى دوي الرشَّاشات وهي تُلعلع في عمق الليل! وأصغ إلى أوركسترا النغمات المضطربة المنبعثة من الأسلحة الأوتوماتيكية وبنادق الحرب! وأصغ إلى زمجرة الريح وهي ترافق العزف بصوت خافت..."

- "في دروب جبالنا وأعماق غاباتنا المظلمة وفي شوارع مدننا الصاخبة يوجد ملايين النساء والرجال والأطفال! الجميع يكافحون لتحضير غدٍ مشرق!"

تتمثّل غاية أولئك الطلبة الثوار في تبوء مكانتهم داخل صفوف أهاليهم المحاربين وإحداث القطيعة مع نمط الحياة التي كانت تضعهم في صنف الأجانب الذين جاوروا في المدن حتى صاروا عاجزين عن النفاذ إلى ذهنية شعبهم والإحساس بحياته التعسة في عمق أعماق البلد. لأن يقطع أولئك الطلبةُ المسافات الشاسعة، بين دشرة ودشرة، عبر قمم الجبال بدل أن ينعموا برونق الحياة في مقاهي مدينة الجزائر...إنَّ هذا لثورةٌ في حد ذاته! لقد منحتهم عودتُهم إلى الأصل فرصة التعرُّف عن كثب على الحقائق الاجتماعية في الجزائر وهي حقائق تحجبها الواجهاتُ البرَّاقة في المدن عن

أنظار الأجانب أو سادة البلد المقيمين فيه. وحتى الطلبة، الأكثرُ تسييسا، ظلوا بعيدين عن تلك الحقائق بسبب خبرتهم القليلة ولأنَّ اهتماماتهم الحقيقية كانت مجرَّد تصورات تجريدية. إنَّ المهام المستعجلة المسندة إليهم هي التي قرَّبتهم من الواقع المعيش. تتجلى تلك الذهنيةُ بصورة واضحة على الصفحات الأولى من دفتر الدكتور حرموش حيث سجَّل في ثنايا وصفات العلاج والطبخ حِكَمًا وأقوالا مأثورة عديدة بخصوص التساؤل المستمر الذي كان يؤرِّقُ ضميرَه الحي ويشدُّ أزرَه حين يقول: "لا يبرر سفكَ الدماء سوى الحرية!" "لو طُلب مني الخيار بين هذا أو ذاك لكنت اخترتُ التضحية بالوطن من أجل إقامة العدل". وفي الدفتر أيضا بعضُ الاقتباسات من الأدب الفرنسي مثل "نشيد الأنصار" لتبرير مشروعية الثورة ضد فرنسا التي لم تعد جديرة بالمُثُل التي كانت تُبَشِّر بها.[27]

هكذا واجه الفكر المتولد عن الأيديولوجية الفرنسية عالَمًا آخر هو العالَمُ الذي انبثقت عنه تلك الأيديولوجية. إنَّ عودة الابن الضال لا تطرحُ، بين عشية وضحاها، حلولَ جميع المشاكل التي أفرزها التعارف والاختلاط وخصوصا بالنسبة للطلبة الذين لم يعودوا يُحسنون التحدُّث باللغة الأم (أو لم يسبق لهم نطقوا بها) ربما كانت تلك الحالات خاصة ولكن بالنظر إلى عدد الطلبة الثوار المحدود فإنَّ جميعَ الحالات الخاصة تصبح ذات أهمية ومن المتعارف عليه، عموما، أنَّ الحماس الذي يدفع صاحبه إلى العيش بين صفوف أهله ينطوي حتما على أريحية كفيلة بإنارة السّبل المؤدية إلى التفاهم المتبادل.

إنَّ أوَّل ما يصادفه الطالب عند التحاقه بالجبل هو التأكُّد من أنَّ قناعاته كانت سليمة فيشعر بمنتهى الرَّاحة النفسية حين يلتقي العادات الشعبية ويلمس فيها تلك الأصالة الثقافية التي حُرم منها مدة طويلة؛ فعداؤه

27. ذكره Yves COURRIERE "زمن الفهود" ص. 373.

للاستعمار يُبصِّرُه بالآفات التي ألِفَ التنديدَ بها وهي: البؤس والجهل والظلم. وبالرغم من كون هذه المواضيع معروفة لديه، منذ زمن طويل، فإن معاينتها الميدانية يُحدث في نفسه وقعًا يكاد يتحول إلى صدمة نفسية.

كانت صفية بزي وفضيلة مسلي ومريم بلميهوب ممرضات في صفوف جيش التحرير قبل وقوعهن في الأسر، في جويلية 1956، وكان لتواجدهن في الجبل، مدّة شهرين، وقعٌ بالغ في نفوسهن؛ وذلك ما دفع فضيلة مسلي إلى أن تُصرح للقضاة قائلة: "عالجتُ الوطنيين الجرحى وسكانَ الجبال ضحايا البؤس والجوع وعمليات التمشيط العسكري والقصف والحرائق؛ ولقد شاهدتُ عائلات بأكملها تغادر مساكنها هربا من التعذيب ومن الاغتصاب ومن التقتيل؛ وأشرفتُ على تدريس أطفال لم يسبق لهم أن دخلوا مدرسة أبدًا".

كما وصفت مريم بن ميهوب نفسَ الحقائق ولكن بتفصيل أكثر حين قالت: "لم يكن المحاربون الجزائريون يستفيدون وحدهم من العلاج بل كان المدنيون يعانون حالة من الحرمان والعوز يستحيل وصفُها بصدق هنا. لقد شاهدتُ أُناسا كانت مظاهر سوء التغذية والإهمال باديةً على هندامهم: من ذلك الأمراضُ التناسلية والسلُّ وهزال البنية الجسدية والبؤس. تلك هي الآفات التي تنخر سكان العديد من المداشر التي مررنا منها؛ إنّ البؤس السائد في المساكن القصديرية لا يمثل شيئا مقارنة بحال سكان القرى ولا شك أنكم على علم بأن المساكن المذكورة يتمّ إخفاءُ بشاعتها عن أنظار الشخصيات المرموقة التي تأتي لزيارة الجزائر.

لقد عالجتُ المدنيين الذين تعرضوا لقصف الطائرات الفرنسية. فالجيش الفرنسي كان يدمِّر ويحرق الديار والغابات ويبيد المداشر بأكملها ويعدم النساء والشيوخ والأطفال رميا بالرصاص وبدون تمييز. عالجتُ طفلا يبلغ الخامسة عشر إثر عملية تمشيط قامت بها القوات الفرنسية كان وجهه منتفخا ومشوها بصفة كلية؛ وكان مظهره يوحي بأنّه فارق الحياة فرموه بكل

استخفاف في خندق؛ أما أبوه وأخوه فقد أُعدِما أمام نظره المفزوع. تلك، أيها السادة، هي "المجهودات" الفرنسية الرامية إلى التهدئة وإقرار الأمن؛ وذلك هو وجهها الكاذب التي تظهره، ويا للأسف، تحقيقا لمصالح شرذمة من المستوطنين الذين أمعنوا في استغلال الشعب الجزائري".[28]

لكن واقع الشعب الجزائري لم يكن متطابقا دوما مع الصورة التي تخيّلها الطلبة فحتى أكثرُهم حماسا كان يضطر، في كثير من الأحيان، إلى الاعتراف بغياب الوعي السياسي في المناطق الجبلية: إنّ تأثير الأحزاب الوطنية يتوقف حيث ينتهي الطريق المعبّد؛[29] وإنّ الحذر الذي يضمره المزارعون، تجاه سكان المدن، وكذا الخصومات العرقية بين العرب والبربر والضغائن الموجودة بين القبائل المتجاورة وبين "الصفوف" والعائلات... كلّها عوامل كرّست الخصوصيات المحلية وكبحت الانسجام الوطني الذي يمثله التضامن الإسلامي؛ ولهذا فإنّ مهمة التوعية السياسية للشعب، الموكولة إلى الطلبة والثانويين، كانت مسئولية ثقيلة للغاية وكثيرا ما كان الفشل يعتريها. كان الفلاحون ينظرون إلى الثورة وكأنما هي عملية اقتحام من طرف "أجانب" جاءوا لإلقاء الأوامر عليهم فكان الفلاحون يتساءلون باسم ماذا جاء هؤلاء؟ فكان من واجب القائمين على الإعلام أن يشرحوا للناس ما هي الثورة ويبسطوا مفاهيمها؛ وما دام الناس غيرَ مقتنعين فلن يخلد المحاربون إلى الاطمئنان. أورَد الرائد عز الدين مثالا عن الحذر الذي استُقبل به، سنة 1955، حين قال له أحدُهم: "إننا نعيش حياة تعسة نعم وبلى! ولكن ما معنى الاستقلال؟ (...) إنّ أولادي جياعٌ ومشاكلي لا نهاية لها. أمضوا إلى حال سبيلكم! فالمصاليون والجبهةُ والوطنيون يملئون أجواءنا قذارة"؛[30] وقال

28. KESSEL وPIRELLI المرجع المذكور ص. 132-133.

29. عز الدين المرجع المذكور، ص. 183.

30. نفس المصدر ص. 55.

رشيد بوجدرة، الذي عاش في الجبال من سنة 1958 إلى سنة 1960: "سيرٌ طويل وشاق وبحث عن مخبأ أو ينبوع ماء أو كوخ حيث يقدّم لي الأكل بتردد كبير" وذكر بوجدرة، في نفس السياق: "كان عناصرُ جبهة وجيش التحرير يحاولون أثناء السير الشّاق اجتناب الكمائن وعداوة السكان الذين لم يقتنعوا بعد ...".[31]

تلك الأحداث لا تناسب الرؤيا التقليدية في الجزائر أي التي تجعل حرب التحرير انتفاضة عارمةً وحيث "البطل الواحد هو الشعب"؛ فقدماء المحاربين يعترفون أنَّ الخديعة كانت دوما أمرا ينبغي الاحتياط منه وأنَّ الحذر كان مطلوبا. أما العمل الدعائي الذي كان يقوم به "الفرع الإداري المتخصص" حين يأمر بتجميع السكان أو يدفعهم إلى الحماية الذاتية ويحثهم على تجنيد "المخازنية" "والحركة" و"القنّاصة" للعمل في صفوف الجيش الفرنسي فكلها أمور معروفة. قرّرت السلطات الفرنسية، بعد سنة 1955، إحياءَ "المكاتب العربية" التي كانت تسمى أثناء الاحتلال "الفرع الإداري المتخصص" قصد استرجاع مقاليد السيطرة على السكان الذين صاروا خاضعين لسلطة المنظمة السياسية والإدارية "الثائرة" أو تحسُّبًا لتكوينها.[32] كانت أهم نشاطات الفروع الإدارية المتخصّصة تتمثل في تقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية (ومنها المساعدة الصحية المجانية والإسكان وتعليم الأطفال) والعملُ السيكولوجي وجمعُ الأخبار عن المنظمة السياسية والإدارية؛ إلاَّ أنها عجزت، إلى غاية 1956، عن وضع حدٍّ لانتشار الثورة، الذي كان يبدو عارما في المناطق الخاضعة لنفوذ جبهة وجيش التحرير الوطني أو التي وصلتها "العدوى"، أما بعد 1957 فقد خلقت سياسةُ "استرجاع الأمن" فجوات واسعة في الهيكل التنظيمي "للثوار" ومنذ تلك

31. بوجدرة، المرجع المذكور ص. 165 و 210.

32. أنظر Nicolas D'ANDOQUE، الحرب والسلم في الجزائر، ملحمة "الفرع الإداري المتخصص" الصامتة شركة الإنتاج الأدبي، 1977.

السنة صار المسئولون في الولاية الرابعة ينددون بالتواطؤ الذي وجده العدو في صفوف "الشعب الجزائري".

"إنَّ المعلومات التي يستقيها الاستعماريون، لدى بعض الناس، تساعدهم على اقتراف المجازر الوحشية..." وكانت هناك مجموعات مسلحة "بيعت للعدو من طرف بعض الخونة الذين لا يمكن التعرف عليهم لانعدام المعلومات عنهم" ولا يمكن لها أن تختبئ بسبب "الجهل والغلظة التي تميز السكان".[33]

بعد سنة 1957 فاق عددُ المسلمين الذين جنَّدتهم فرنسا لمحاربة جيش التحرير العددَ الإجمالي لهذا الأخير؛ فأخذ ذلك الاختلال يتضاعف من سنة إلى أخرى حتى وصل، في سنة 1960، إلى نسبة 10/1 في المناطق الداخلية. بعد أن حُرم المُقاتلون من السَّند الشعبي، بسبب حشد السكان وإنشاء مجموعات الحماية الذاتية، صار همُّ الثوار يتمثل في المحافظة على سلامتهم في المناطق الجبلية التي كانوا، قبل سنتين، يسيطرون عليها سيطرة تامَّة. هل نستخلص من هذا أنَّ المواطنين كانوا يفتقدون للحسِّ الوطني؟ ذلك هو الرأي الذي خلص إليه، فيما يبدو، بن احميدة المحافظ السياسي للمنطقة المستقلة ذاتيا بمدينة الجزائر.

"صحيحٌ أنَّ التربية السياسية للسكان سطحية جدا في بعض الأحيان وصحيح أنَّ بعض تصرفاتهم قد تصدمنا؛ ولكن ينبغي أن نتفهم حالتهم بدل أن نتعجب منها. إنَّه لمن الضروري أن ندرج في حسباننا القاعدة السوسيولوجية لشعبنا: ففي كل بلدان العالم لا يحصل الوعي الوطني بنفس القوة في القرى والمدن؛ ففي قرانا لا تزال آثار المحاولات الرامية إلى طمس شخصيتنا، منذ سنة 1830، بادية للعيان ونحن ندرك ذلك ولكن تلك الآثار لن تلبث أن تزول لأن شعبنا قد خطى، منذ سنة 1954، خطوات جبارة في طريق

33. " ذكره Claude PAILLAT، الملف السري الثاني للجزائر، 1962 presses de la Cité ص. 355-356

التقدُّم. تلك هي الميزة الكبرى لجبهة وجيش التحرير الوطني. يمكن تفسير بعض الاختلال الذي نجده لدى شعبنا بسهولة فدورنا هو البحث عن أسباب ذلك الاختلال لكي نتصدى لمحاربة الداء الحقيقي".[34]

لكن، ويا للأسف، إنَّ هذا التفسير لا يستقيم لأنَّ طمس الشخصية عمليةٌ نلمسها في المدن التي يتواجد فيها 10/9 من السكان الأوروبيين أو في السهول التي يملكها المستوطنون (في متيجة أو نواحي وهران) وليس في الجبال التي تأوي المُقاتلين. ومن المفارقات أن يساهم ذلك التحليلُ في دعم الأطروحة الاستعمارية التي تؤكد أنه لا يوجد في الجزائر سوى "عشرة ملايين من الفرنسيين". الواقع أنَّ أزمة الضمير الوطني الجزائري تستدعي البحث عن تفسيرها في عوامل بسيطة جدا؛ ومن بين تلك العوامل: حيلولةُ الخصوصيات الثقافية والعائلية دون تحقيق "الوطنية الإسلامية"؛ فلقد ظلّت ذاكرة الفلاحين محتفظةً بذكرى المقاومة التي خاضها أسلافُهم ضد الاستعمار الفرنسي ولم تحتفظ بذكرى الهزيمة التي منوا بها ولقد ازداد اختلالُ ميزان القوى بشكل مريع في عصر الآليات المصفّحة والمدافع والطائرات وطائرات الهليكوبتر؛ فلا غرابة إذا كانت "معنويات الشعب" وحماسه لجيش التحرير تزيد أو تنقص حسب توفر حظوظ النصر المُتوّج للثورة. بالإضافة إلى ذلك فإن ظروف الحرب فرضت على الشعب تقديم تضحيات مادية لا يمكن تحمُّلها مدة طويلة ولقد تمكّن منه البؤس إلى حدٍّ جعل الإعانات التي تقدمها الفروع الإدارية والاجتماعية والأجور التي تدفعها إلى "المخازنية" و"الحركة" مغريات تصعب مقاومتها. لم تنفك الدعاية الفرنسية تؤكد أن الاستقلال سوف يؤدي إلى الدّمار وأنَّ تطبيق سياسة الاندماج معناه تحقيق الرفاهية للجميع. في المقابل لم يكن الثوار يتمتعون

---

34. النشرة الداخلية للمنطقة المحلية لمدينة الجزائر، ذكرها ﭬنظفضاط jacques، "تاريخ جبهة التحرير"، الطاولة المستديرة، 1962، ص. 208.

بالإمكانيات التي تتيح لهم تقديم الإسعاف الفعال للشعب بل على العكس من ذلك فإن تنقلهم من دشرة إلى أخرى فرض عليهم تسخير إمكانيات الشعب المادية وخدماته من أجل تموينهم إلى درجة أن فاق ثقل ذلك التسخير ما كانت تفرضه الإدارة الفرنسية من ضرائب.[35] حدث كلُّ ذلك في ظرف تميز بتحسُّن خدمات الإدارة الاستعمارية ونظرا لعجز الثوار عن إقناع الناس فقد نزع بعضهم، في بعض الأحيان، إلى الإكراه كوسيلة لتحقيق مآربهم كما أن تنفيذ أحكام الإعدام على الخونة كان يستفز الآخذين بالثأر وكان تنفيذ أحكام الإعدام بصورة متكرّرة قد أفقد الخيانة كل معنى. كان الناس يتساءلون: "ما هي الفائدة التي نجنيها من القيام بالثورة؟ " فقد تجنحُ دشرة برمّتها إلى اختيار الولاء الذي يخلصها من المتاعب.[36]

سمحَ ذلك الوضعُ "للمثقفين" بأن يلعبوا أدوارا أساسية من منطلق إخلاصهم للقضية ورغبتهم في الإقناع؛ فلقد كان بوسعهم، أكثر من غيرهم التصدّي لشرح أسباب الكفاح وأهدافه. كان تواجدُهم في تلك المناطق المحرَّمة دليلا ملموسا على أن حدوث تغير حقيقي أمر واقع وأنَّ الوحدة الوطنية والتضامن الوطني ليست عبارات جوفاءَ.[37] كان الثوار يستعرضون لديهم من أطباء لكي يثبتوا للناس أنهم ليسوا "فلاَّقة" فالعلاج والإعانات التي كانت تقدمها قيادة الثورة دليلٌ قاطع على رغبتها في خدمة الشعب مقابل ما كانت تفرضه عليه من إكراه. كان قادة الثورة ينافسون الفروع الإدارية والاجتماعية حسبما يتوفَّر لديهم من إمكانيات محدودة. لم يعد العنف هو السلاح الوحيد الذي في جعبتهم بل كان بوسعهم الرد أيضا على حرب الخدمات الخيرية. كما أنَّ القمع الذي تتعرض له المداشر، حين يكتشف

35. أنظر مولود فرعون المرجع المذكور، ص. 209، وعز الدين المرجع المذكور ص. 65.

36. مولود فرعون، المرجع المذكور ص. 296، عبد الحميد بن زين، "يوميات السير" ص 60.

37. حول التمازج الاجتماعي في الجبال، أنظر عز الدين، المرجع المذكور ص. 190 و 243-244.

الاستعمار أنها تأوي الأطباء والممرضين، كان يلغي مصداقية الأعمال الخيرية التي تدعيها الفروع الإدارية والاجتماعية، من جهة، ويقوي اللُّحمة بين الشعب وإطاراته الثورية من جهة ثانية.

### 3- علاقات الطلبة بالمقُاتلين

طرح التحاق المثقفين بالجبال مشكلا من نوع آخر تمثل في صعوبة التفاهم بينهم وبين المقالين المُسنِّين والأميين أو العصاميين؛ فبالرغم من كونهم مناضلين ذوي قناعة سياسية عميقة إلاَّ أنَّ أولئك الذين هيكلوا الحرب في الجبال هم، قبل كل شيء، رجالُ حركة ونشاط روَّضتهم سنوات المقاومة السرية قبل اندلاع ثورة نوفمبر 1954 . فما هي المكانة التي كان ينبغي عليهم تخصيصها للقادمين الجدد؟ هل تراهم يعتبرونهم "أدوات" أم "إطارات"؟ هل يحتل أولئك الطلبةُ القادمون مرتبة دنيا فيأتمرون بالأوامر؟ أم إنهم مناضلون بمعنى الكلمة؟ وهل تراهم ينظرون إليهم كمنافسين جاءوا لإصدار لأوامر أم ينظرون إليهم كمساعدين من نوعية رفيعة؟ تلك التساؤلات كانت تُطرح من طرف القادة أساسا أما المحاربون البسطاء فكانوا يتساءلون فقط عن السبب الذي دفع هؤلاء الشباب المحظوظين ليختاروا الإقامة بينهم.

إنَّ الاتصالات الأولى بين الطلبة وإخوانهم في الكفاح لحظات لا يمكن أن تمحي من الذاكرة حيث تمّ فيها استحضار الصورة المثالية التي كانوا يحملونها في مخيلتهم عن الثائر المحارب ومقارنتها بالواقع. فهل هي خيبة الأمل؟ تختلف الأوضاع حسب الحالات والأمكنة فبالنسبة للممرضات الثلاث، اللائي تحدثنا عنهن سابقا، كانت الصورة مطابقة للواقع. صرّحت صافية بزي بما يلي:

"إنَّ جنايتي الوحيدة، باعتباري ممرضة، هي أنني عالجتُ المقاتلين الجرحى. إنَّهم ليسوا قطَّاع طرق بل رجالٌ أساتُم الحكم عليهم لأنكم لا

تعرفونهم تمام المعرفة. إنَّهم رجالٌ حملوا السلاح بعد أن عانوا طويلا من الغدر بهم. إنَّهم رجالٌ شرفاء يمكنكم، إن رغبتم في ذلك، أن تقيموا معهم صداقة فرنسية جزائرية حقيقية...".

أما مريم بلميهوب فقالت ما يلي:

"نظرا لحاجة جيش التحرير الوطني إلى ممرضات لمعالجة المقاومين الجرحى فقد وجَّه نداءً إلى الفتيات الشابات للقيام بتلك المهمة وما أجملها وما أنبلها. بلغني ذلك النداءُ فوافقت، بدون تردد، على الذهاب لعلاجهم كما هو شأن العديد من أخواتي اللائي اقتنعن بأنه يستحيل عليهن البقاء بعيدات عن ميدان الكفاح. لقد عالجتُ إخواني المجروحين وكذا أولئك الذين أنهكهم السيرُ طويلا عبر الجبال؛ ثم شاهدتهم بعد ذلك وقد اندملت جراحُهم واستعادوا عافيتهم؛ وكان ذلك، بالنسبة لي، عنصر ابتهاج وجزاءً أوفى (.) هنا أيها السادة أسمح لنفسي أن أقدم إليكم الوجه الحقيقي للوطنيين الجزائريين. أنتم تنعتونهم بالمجرمين وتسمونهم "الفلاقة" والخارجين عن القانون والإرهابيين واللصوص؛ كلا أيها السادة: إنَّهم رجالٌ سئموا حياة المذلَّة والاستعباد مدة تربو عن القرن. إنَّهم رجالٌ ضحوا بأنفسهم من أجل مُثل نبيلة إنَّهم رجالٌ يعملون من أجل أن يحظى بلدهم بمستقبل أفضل ثم إنهم رجال يكافحون ويموتون من أجل أن لا يضطر أولادهم لفعل ذلك".[38]

على نقيض هذا الموقف نجد امرأة شابة ومثقفة، من باتنة، بعد أن تطوعت للالتحاق بجبال الأوراس، في ديسمبر 1956، صارت تعاني مرارة خيبة الأمل لأنها وقعت تحت سلطة قادة جهلة وأغبياء كانوا يعاملونها كخادمة ويراقبون ما تطالعه من كتب؛ فبعد ثلاثة أشهر سلَّمت نفسها للقوات الفرنسية التي ألقت القبض عليها. قالت: "كنت مستاءة وغاضبة على نمط

38. KESSE و PIRELLI المرجع المذكور، ص. 131-134.

معيشتي فكنت كالمجنونة وسط المجانين؛ ولقد فهمت أن جبهة التحرير لا تحتوي على أي شيء ذي قيمة".

هكذا تعارضت صورتان متناقضتان عن المقاتلين في الجبال: كانت الفكرة المسبقة التي في أذهان الطلبة عن المقاتلين فكرةً مثالية وهي صورة البطل المحرِّر الذي يطمحون إلى الاقتداء به. وعكس ذلك كانت مختلف المصادر الفرنسية تتداول فكرةً متفاوتة الوضوح عن "الفلاقة" الأجلاف المتعصّبين والعاجزين عن تفهُّم أو تقدير أولئك المثقفين الشباب. إنَّ عاقبة تلك التصورات الذهنية هي عمليات التصفية التي نخرت جسم الولايتين الثالثة والرابعة بالخصوص، في سنوات 1958 و 1959، فبعد أن اقتنع القادة بأن الخونة قد تسرّبوا بين صفوف المنظمة توجّهت شكوكهم، بالدرجة الأولى، نحو المثقفين باعتبارهم أقربَ إلى الفرنسيين، من حيث التكوين، فهم إذن أكثرُ من غيرهم قابلية للدعاية الفرنسية بخصوص فكرة "جزائر العهد الجديد". باتت عداوة المثقفين حالة ذهنية مشتركة وبالأخص عند الكولونيل عميروش وهو أول من انتهج أسلوب التصفيات الجسدية.

دبّت في الولاية الثالثة حالةٌ من الهلوسة بضرورة توخّي الحذر من "الزُّرق"، أي "ذوي البذلة الزرقاء"، وتستقي صفة "الزُّرق؛" "la bleuitte"، على حدِّ تعبير الكولونيل عميروش، مرجعيتها من "البدلات الزرقاء التي يرتديها السائقون" وكان مناضلو المنطقة المستقلة ذاتيا لمدنية الجزائر يرتدونها قبل انضمامهم إلى صفوف الجيش الفرنسي. إنَّ تحمُّس عميروش لتلك التصفيات الجسدية سمح للكولونيل Godard "بتسميمه فكريا" وذلك لمّا أوهمه أن منظمة "الزُّرق" نجحت في نسج خيوطها داخل الهيئات المسيرة لولايته. أسفر "تحقيقٌ" أُجري على عجل وعن طريق الاستنطاق والتعذيب عن نتائج محيرة:

"منذ البدء بدت لنا المنظمة وكأنها اتخذت أبعادا كبيرة جدا (...) على رأس ذلك التنظيم كان الدكتور مصطفى لاليام (القادم سنة 1957 من تونس) بصفته رئيسا لمصلحة الصحة بالولاية. وكان نوابه المباشرون هم بوداود محمد (طالب في الطب) وزيان أكلي (...). كان لكل منطقة مسئول خاص أمثال: سي كمال (طالب في الثانوية الفرنسية – الإسلامية في بن عكنون (...) ونوري مصطفى (معلم أصله من تيزي وزو وهو واحد من أوائل الطلبة الذين التحقوا بالجبل (ماي 1956...."[39]

كان الدكتور لاليام، حسب اعترافات بوداود، يمثل "حزب فرنسا":

"قال لي إنه عاش طويلا في فرنسا وإنه يعرف الفرنسيين جيدا وإنهم في الحقيقة ليسوا أناسا سيئين كما يسود الاعتقاد عنهم بيننا."[40]

انطلاقا من "حُسن تقديره الفرنسيين الحقيقيين" يبدو أن الحكم عليه بالخيانة كان أمرا متسرعا لأنّ تلك "الاعترافات" لم تثبت شيئا. إن قضية "الزرق" في نظر العسكريين الفرنسيين الذين سرّبوا الدعاية المسمومة كانت في الولاية الثالثة مرضا وهميا. غير أنّ بعض المصادر الفرنسية تؤكد على وجود جانب كبير من الحقيقة فيما تسميه "مؤامرة الاندماجيين" بالولاية الرابعة. توجّهت أصابع الاتهام إلى مسؤول سام في تلك الولاية، إثر التحقيق الذي قام به عميروش، والمتّهمُ هو سي الطيب (عمر أوصديق) الذي تم تعيينه كاتبا للدولة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. أما الكولونيل سي امحمد فقد رفض الانسياق في حملة "الماكارتيزم" (حسب تعبيره الخاص) إلى أن يأتي موعد اجتماع الولايات، في ديسمبر 1958، ولكن بعد تم إقناعه من طرف عميروش مدّد عملية التصفية إلى الولاية الرابعة ولم يلبث الأمر طويلا حتى تم اكتشاف المؤامرة:

---

39. تقرير للجنة التنسيق والتنفيذ، ذكره Claude PAILLAT "الملف السري للجزائر" Cité la Presses 1961، ص. 99-100.

40. نفس المرجع ص. 96.

"كان مديرها الأساسي طالبٌ في السابعة والعشرين من عمره اسمه "حاوتية حسين" المدعو خالد؛ وكان برتبة ملازم سياسي في الناحية الثالثة؛ ولقد اعترف بأنه قام بدور "المُرجف" و"الانهزامي" حين انتقد بعض المسئولين ولم يوافق على بعض الترقيات (...) اعترف أنه أخبر كلاًّ من "عبد الرزاق" و"حسن" بأن الطلبة الشباب يعانون الإهمال وأنهم يستحقون مصيرا أحسن. اعترف الجميع بأن سي الطيب كان القائد وبأنه صرَّح لخالد بما يلي: "لقد ضيَّعنا كثيرا من الشباب وهذه الوضعية تحتاج إلى حلٍّ يرضى الطرفين ويكون وسطا بين الاستقلال والوضع الراهن". لذلك ينبغي تصفية سي امحمد الكولونيل الحالي في الولاية الثالثة". اعترف أحمد صاولة، الطالب في الحقوق، بأنه يتفق مع خالد حول الأفكار التالية: "إنَّ الوضع الداخلي لا يبعث على الارتياح؛ والجزائر تضيِّع أبناءها جميعا؛ فينبغي أن تتوقف هذه الحرب بإجراء المفاوضات. إنَّ المسئولين الحاليين يتميزون بخشونة كبيرة وينبغي استبدالُهم... وذلك بقتلهم لكي نشرع في المفاوضات. وأورد طالب آخر، اسمه لعريبي، فيما يتعلق بالاتفاق الذي توصل إليه مع الملازم خالد قائلا ما يلي: "نحن، الطلبة الشباب، عرضةٌ للتُّهم ونحن أهلٌ لتقلُّد مراتب أعلى وإننا بصدد ترتيب أمورنا لقلب الأوضاع؛ السلطة للشباب! والحرب قد طال أمدها وينبغي التوصّل إلى وقف إطلاق النار مع الفرنسيين".[41]

يبدو أن تلك التصريحات أكَّدت صدقَ الشكوك التي اعترت الكولونيل عميروش: "إنّ الولاية الثالثة تقترح إجراء تحقيقات مشتركة للتّثبت من صحة محاكمة "الزُّرق". ومهما يكن من أمر فإنَّ الإجراءات لن تُتخذ سوى لقمع عقدة الطالب وهي عقدة "زرقاء" ترمي إلى تبرير بعض المحن وبعض الغلطات الراهنة والمستقبلية والتي يمكن أن تؤدي إلى زرع الشكوك بين الجيش والشعب"[42]

41. نفس المرجع ص. 248-249.

42. نفس المرجع ص. 214" لقد امتدت عملية التصفية من الولاية الرابعة إلى المنطقة المجاورة في الولاية الخامسة، الواقعة تحت قيادة السي طارق، الرهيب (أنظر: بلقاسم ولد موسى "الطرق المؤدية إلى الاستقلال"، سندباد 1980، ص. 153-154 و 180-203

بما أنَّ العديد من المتآمرين، الحقيقيين أو الافتراضيين، كانوا من الطلبة فيبدو أنَّ عميروش قد استنتج من ذلك أنَّ جميع الطلبة خونة ما داموا يحملون صفة الطلبة أو على الأقل إنهم خونة بالقوة؛ ولقد ذهب في الأمر بعيدا إلى حدٍّ أصاب معه الذُعرُ جميعَ المثقفين عبر الولاية وصارت الأميةُ خير ضمان للأمن. كانت "لجان التحقيق والجوسسة المضادة"، التي أنشأتها الولايات بعد اجتماع ديسمبر 1958، تختار منفِّذيها وتُجنِّدهم من بين الفئات الأمية. وكانت الولاية الرابعة تفتخر بكونها تجنَّبت الوقوع في معضلة "الماكارتيزم". ومع ذلك فإن سي صالح، الذي خلف سي امحمد، أورَد حصيلةً ثقيلة ضمَّنها تقريره، في 27 أوت 1959، حيث يقول: لقد تمّ استنطاقُ ومحاكمةُ وإعدامُ 486 شخصا منهم 4 ملازمين و5 من رتبة ملازم أول و11 مرشحا و19 عريفا و35 صف ضابط و409 جنود.

ثمّ أكّد على ما يلي:

"كثيرٌ من العناصر المثقفة قد شملتها عقدة الشك وكان الكثير منهم من طلبة الثانوية الفرنسية -الاسلامية في بن عكنون".[43]

قبل استخلاص أية نتيجة ينبغي التثَبُّتُ من صحة التُّهم؛ فليس ثمة، من جانب الفرنسيين، من يصدِّق وجود ما يسمى مؤامرة الولاية الثالثة بينما أكّد الكثير على كون مؤامرة الولاية الرابعة حقيقة واقعة؛[44] وبالرغم من ذلك تمَّ انتهاج نفس الأساليب في التحقيق.

"اعترف سي صالح، بكل نزاهة، أنَّ الاستنطاق تمَّ بواسطة الضغط والتعذيب ثم أضاف قائلا: "لكن حين يفهم المتهمون خطورة ما هم مقبلون

43.أورده الكومندان Guvin CHEAM. وثيقة 3614.

44 . الباشاغا بوعلام قد أكد على أن خالد زاره ( "بلدي فرنسا" منشورات France Empire. 1962، ص 245-243). زيارة ضابط في الولاية الرابعة في الجزائر بعد 13 ماي 1958. قد أكدها la GORCE de Paul Marie ("دوغول بين عالمين" Fayard 1964 ص. 613-619 وأكدها Jean POUGET ( "فيلق لا شيء يذكر، الجزائر" Presses de la Cité، 1962، ص. 354-355).

عليه باعترافهم فمن الطبيعي أن ينكروا مادية الأشياء المنسوبة إليهم بسهولة".[45]

الواقع أن تلك الطرق المستعملة لم تثبت شيئا؛ وهذا الأمر سوف يزداد تأكيدا عندنا إذا علمنا أن المختصين الفرنسيين في الحرب النفسية وهم يعرفون أن أولى قواعد الأمن المطبّقة من طرف جيش التحرير تتمثّل في إعدام الخونة، بدون هوادة، قد قرّروا تسليط بعض أقسام الجيش على البعض الآخر وذلك بتحريك عملية الهدم الذاتي في أوساطهم.[46] لم تُؤدِّ عملية التصفية الدموية إلى إضعاف روابط الانسجام في صفوف جيش التحرير فحسب وإنما فسحت المجال أمام الحملة الهجومية الكبيرة المتمثلة في "خطّة Challe" الرامية إلى إضعاف جيش التحرير ماديا ومعنويا ولكن لا يستبعد أن تكون تلك التحقيقات قد تسبّبت في استياء حقيقي.

المفروض أنّ "التركيبة الطلابية" تتمثل في مجموعة من الأشخاص الذين يجمع بينهم تكوينٌ ثقافي مشترك ويتقاسمون بالتالي نفس الأساليب في تقدير المسائل المطروحة عليهم وعلى وطنهم؛ وإنّ التكوين الذي تلقوه في المدرسة الفرنسية يدفع إلى التقدير بأنه حين تخفتُ وتيرة الثورة، أو تضعف، فإنّ الطلبة سوف يكونون، أكثر من غيرهم، استعدادا لتقبُّل ضرورة التفاوض مع فرنسا. إنّهم أقربُ إلى الفرنسيين منهم إلى إخوانهم في الكفاح وذلك من حيث تكوينُهم وإيديولوجيتهم ويبدو أن تلك القرابة الفكرية مع العدو قد أفضت إلى احتمال الانهزام إن لم يكن واقعا؛ ومن جهة أخرى فإنّ جانبا أساسيا من مؤامرة خالد قد جسّده "الانتماء المهني": ذلك الانتماء الذي كان يطمح إلى تحقيق الترقية العادلة والتي لم يكن النظام القائم في

---

45- PAILLAT المرجع المذكور ص. 152.

46- انظر Henri JACQUIN "الحرب السرية في الجزائر" ص. 205 وما يليها. Paul Alain LEGER "مشرقات الحرب" Albin Michel 1983. ص 292-305 ثم ما أورده COURIERRE و PAILLAT الخ.

جيش التحرير يضمنها للطلبة. وبالفعل؛ فإذا كان قادة المجموعات في الولاية الرابعة منتخَبين من طرف المقاتلين فإن توزيع المناصب العليا كان يخضع للمحاباة وإقصاء الطلبة لاستدامة سيطرة الضباط الأقل ثقافة. تلتقي كلتا النزعتين في برنامج يمكن صياغته ببساطة كما يلي: ضرورة تغيير القادة لتغيير السياسة. إلاَّ أن الكُتَّاب الفرنسيين الذين تحدثوا بغبطة يشوبها الندم عن "المؤامرات الاندماجية للولاية الرابعة" قد حادوا عن الصواب حين رأوا في ذلك دليلا على انتفاء الوعي القومي لدى الطلبة ذلك الوعي الذي جسَّده تطوعُهم الإرادي للكفاح. يُحتمل أن تكون حقيقة التجربة القاسية التي خاضوها في الجبال، هي التي جعلتهم أكثر إنصاتا للحجج الاقتصادية والعسكرية من منطق واقعي؛ فالعرضُ المتمثل في "سلْم الأبطال" مع تبني الفئة الانتخابية الوحيدة (أي المساواة بين كل الجزائريين) وكذا الإعلانُ عن "مشروع قسنطينة" للتنمية قد يمثل في نظرهم أفضلَ سبيل ممكن للخروج من تلك الحرب المرهقة. لكن هذا لا يسمح باستخلاص أنَّهم تنكروا لمشاعرهم الوطنية ولم يعودوا يرغبون سوى في تبني الجنسية الفرنسية حين أورد سي صالح أهمَّ المبررات التي تضمَّنتها دعاية المتآمرين فإنه فنَّد صفة "الاندماجيين" الواردة في قضية خالد قائلا:

"إنَّ الحرب طال أمدها حقا وشعبنا يعاني والكثير من الناس يموتون وإطاراتنا تذوب مثل السمن والمثقفون يختفون أو إنهم، على الأقل، لا يشغلون الوظائف الهامة. يمكننا وضع الثقة في de Gaulle لأن المسئولين في الخارج لا يقومون بأي شيء لإغاثتنا. سوف تكون الجزائر دوما في حاجة إلى فرنسا؛ وإنَّ فكرة الاستقلال، عبر مراحل، أمرٌ يمكن تصوره ما دام de يعرض علينا سلْمًا مُشرِّفةً. إنَّ de Gaulle شخصٌ مخلص ويضمر في نفسه قناعةً حقيقية بضرورة استقلال الجزائر".[47]

47 PAILLAT، المرجع المذكور ص. 254.

لا يمكن الجزم بأي شيء في ذلك الموضوع؛ وحتى "عداوة المثقفين" المنسوبة إلى عميروش لا يمكن اعتبارها أمرًا غير قابل للمناقشة. إنّ جميع الذين عرفوه، وبالأخص المثقفون منهم، حريصون على حفظ ذكراه وتجنيبه تلك التُّهمة؛ فهو لم يكن قط متعصبًّا ولا دمويا وإذا ثبت عنه أنه إنسانٌ لا يتردد في تسليط أقسى العقوبات حين يعتقد أنّ مصير الثورة في خطر فلقد كان يثير الإعجاب ببساطة مظهره الخالي من كل تصنُّع وكذا بأريحيته وباعتباره إنسانا عصاميا. لقد كان يغتنم أدنى الفرص التي تمكنه من الاستزادة في العلم، عند من هو أعلم منه، ولم يكن يضمر أية عداوة للمثقفين بل حين ورد إليه خبر حلّ "إ.ع.ط.م.ج" أرسل إلى "الإخوة فيه رسالة تشجيع جاء فيها:

"إنّ خدمة الوطن هي الشعار الوحيد لكل الجزائريين. أيها المتواجدون في المدن وفي الجامعات وفي الثانويات: إنّ كل شيء حولكم يعبق برائحة الثورة وإنها تدعوكم، في كل حين، إلى التفكير في أداء واجبكم. ينبغي أن يكون شغلُكم الشاغلُ هو حصر انتباهكم حتى لا ينصرف عن القضية الجزائرية وأينما تكونون فإنّ سيرتكم وحركاتكم ينبغي أن تظهركم كمناضلين: وفي نفس الوقت فإنّ أخوانًا لكم، وهم طلبةٌ مثلكم، يجاهدون في الجبال. أنتم كذلك سوف تحاربون من أجل وطنكم. إنّ النضال هو خدمة الوطن، بأية وسيلة كانت، وإنّ العبرة بالنوايا وخصوصا بالنسبة لطلبة لا يمكن أن يكونوا غير واعين بوجودهم كجزائريين. إنّ الجزائر في حاجة إلى جميع أبنائها لكي تستكمل الكفاح السياسي الذي يحرِّر الشعب من الاستعمار. ومن أجل استمرار الثورة فسوف تكون الجزائر في أمسّ الحاجة إلى عناصر قادرة على ضمان سير الأمور؛ عناصر واعية بالمصلحة العليا للجزائر؛ ووفاءً لذكرى أولئك الذين سقطوا في الجبال، في سبيل شعبنا الرّازح تحت وطأة الظلم والقمع الجبان. إنّ واجبكم، أيها الطلبة الجزائريون، أن تثبتوا للعالم أجمع

وأكثر من أي وقت مضى أنَّ نشاطاتكم التي لا تنفصل عن الثورة ولا يمكن الاستهانة بها. إنَّ جميع الجزائريين سوف يضمون مشاعرهم وطاقاتهم في نفس الوجهة التي تدفع بهم إلى التضحية من أجل جزائر حرة وديمقراطية".[48]

كان عميروش مقتنعا بضرورة مواصلة الطلبة لدراستهم، خدمة لمصلحة البلاد، وباقتراح من الدكتور لااليام، الذي كان يتحدث باسم طلبة الولاية الثالثة، قرَّر عميروش في سبتمبر 1957 إرسالَ عددٍ من الطلبة لاستكمال دراستهم في تونس حيث اشتروا دارين من نوع "فيلا" لإيوائهم وكانوا يتقاضون أجرة مسبقة. بعد مقتل عميروش، في 28 مارس 1959، أطلق الفرنسيون العنان للإشاعات بخصوص التصفيات الدموية التي قام بها وبخصوص حذره وارتيابه من المثقفين. أشارت جريدة المجاهد إلى تلك المزاعم في مقال عنوانه "كنتُ رفيقا لعميروش" كتبه الطبيب الملازم أحمد بوضربة بمناسبة إحياء ذكرى وفاة البطل جاء فيه ما يلي:

"كان إنسانا بسيطا وكان يُقرُّ، بكل تواضع، بنقائصه ويودُّ أن يجمع حوله خبرة أحسن المستشارين. كان مغتبطا بصحبة المثقفين الثوريين ولم يقصِّر قط في التعبير عن التقدير والاحترام الذي يكنه لهم. لن أنسى أبدا ذلك اليوم حين دعاني أثناء اجتماع مجلس الولاية، ولم أكن وقتها أتمتع بأية صفة دعاني لرئاسة الجلسة. كان يريد من خلال ذلك العمل الرمزي إبراز أهمية الدور الذي ينبغي أن يلعبه المثقفون في كفاحنا وتأكيد حرصه الدائم على رفع المستوى الثقافي لثورتنا".[49]

أورد أحد السجناء الفرنسيين، الذين أُطلق سراحهم، شهادة مماثلة يقول فيها:

48. "المجاهد" (23) 5-5-1958 (م.1. ص. 456).
49. "المجاهد" (39) 10-4-1959 (ج. 2 ص 210-212).

"لا يهم أن نموت: فإنَّ قوتنا كامنة في شباب نخبتنا التي تتلقى العلم حاليا في فرنسا أو في الخارج. ومن أجلهم نقوم بالحرب وهي حرب رجال ناضجين وناس نكرات".[50]

فما الذي حدث إذن؟ هناك تفسيرٌ أولي يفرض نفسه؛ فباعتبار عميروش إنسانا يأخذ برأي الآخرين فربما كان ضحية أُناس لم يخلصوا له النُّصح. فبينما يجتهد أفضل القادة على التزام العدل والإنصاف في معاملة رجالهم جميعهم فإنه يوجد في الجبل نوع من الإطارات، غير المثقفة، كانت تعتبر ترقية الشباب المثقفين أمرًا يهدِّد بزوال هيمنتهم وسلطتهم. تتجلّى ردود فعل أولئك في مشاعر الغيرة التي يبدونها وفيما يكيلونه من ألفاظ الشتم وعبارات الاستنقاص للمثقفين بشتى الوسائل. لقد بلغت التصفيات في الولاية الثالثة مداها وبالأخص في توجّهها "المعادي للمثقفين" وهي أساسا نتيجة أحقاد شخصية. لم يكن أولى ضحايا التصفيات ينتسبون إلى فئة المثقفين. بعد توقيف بوداود، الطالب في الطب، سمحت سلسلة الاعترافات التي تم انتزاعها بتوجيه التهمة ضد "التركيبة الطلابية". كان بوداد يعلم، منذ شهر ماي 1958، أنَّ الحكم عليه قد صدر؛ وكان يعتبر نفسه ميتا مع إرجاء التنفيذ.[51]

لكن التفسير السابق لا يكفي وحده؛ ذلك أنَّ عميروش كان قائدا واعيا بمسؤولياته ولم يكن إمَّعة بين يدي شخص عبقري آخر يحرِّكه كما يشاء. لقد أقدم، من غير تردُّد، على إراقة الدماء بسبب قناعته بأنَّ اتخاذ الإجراءات الصارمة أمرٌ ضروري لإنقاذ الثورة. إنَّ الحذر المودع في طباع كلِّ محارب هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى سوء تقديره للأمور. لكن لم يكن عميروش لينعت "تآمر الطلبة" بأنَّه "مؤامرة زرقاء" لو لم تحصل القناعة لديه بصحَّة ذلك ولم يكن ليؤمن بأنَّ الخيانة واقعة حقيقة لو لم يجد لها تفسيرا محتمل الوقوع.

50. Benois REY "الذابحون" منشورات de Minuits 1961، ص. 33

51. أنظر Yves COURRIERE. "ساعة الكولينلات" ص. 436 و 513-514

كانت عداوة عميروش للمثقفين، في الواقع، تعبيرا عن ردّ فعل من طرف شخص خاب أمله. فلقد ثبت، في مناسبات عديدة، أنّ الثقة التي وضعها في المثقفين آلت إلى خيبة مُحبطة. التقى عميروش، في سنة 1957، بمدينة تونس بأحد المحامين من بجاية سبق له أن زوّده بالأسلحة. قصّ عليه هذا الأخير، بكل افتخار، حكاية الملحمة الطويلة والشاقة التي خاضها ليكون في مأمن من المتابعة؛ ولكن عميروش تصنّع اللطف ليردّ عليه بهدوء: "كان جبلُ قورايا على بُعد عشر دقائق من الموقع الذي كنت فيه". وفي "مستشفى الصادقية" جمع 45 طبيبا جزائريا كانوا متواجدين في تونس علّه يجد بينهم متطوعين للالتحاق بالجبل وكان يعتقد أن طالبي الالتحاق سوف يتزاحمون عنده وأنّه سيجبر على الفرز في قوائم الأسماء؛ ولكنه، في الأخير، لم يجد سوى متطوعين اثنين. ليس مستبعدا إذن أن يكون الشعور بالضغينة عالقا في ذاكرته تجاه نوعية معينة من المثقفين. عندما "يقنع بالحجج الدامغة" بخيانة "أولي العلم" فإنه لن يتردد أبدا في تطهير الأرض الجزائرية من أوزارهم.

ينبغي دراسة مؤامرة الولاية الرابعة بمعزل عن ذلك ويبدو هنا أن "التركيبة الطلابية" لم تكن موضوع اتهام بدليل أنّ التصفية طالت عددا من الطلبة وليس جميع الطلبة؛ ومن جهة أخرى فإنّ أغلبية الضحايا (409 جنديا) لم يكونوا طلبة. غير أن عدد "مدبري المؤامرة"، من بين الطلبة، كان مرتفعا بشكل ملفت للنظر. وبالرغم من كل ذلك فلقد تم اجتناب الوقوع في حملة "ماكارتية" معادية للمثقفين. فمثلا لم يتعرّض بوعلام طالبي، وهو عمّ سي الطيب، للمضايقة قط ولم تحم حوله الشكوك بل احتفظ بالمسؤوليات التي كانت موكلة إليه. وأكثر من ذلك فإن الطبيب سي حسن (يوسف خطيب) كان من جهة المحققين. سوف يكون بوعلام طالبي لاحقا أول طالب تتمّ ترقيته إلى رتبة كولونيل، في سنة 1962، وسيتميّز أثناء أزمة صيف تلك السنة بالهجوم على المنطقة المستقلة ذاتيا لمدينة الجزائر، والتي أعيد

تشكيلها، ثم ألقي القبض على قائدها الجديد سي الطيب وتمّ تقديمه إلى محكمة ثورية للبث في سيرته.[52]

نعتقد أن "التوجه المعادي للمثقفين" طرحٌ يجب أن تتم مقاربتُه بكثير من الاحتراس فليس من البساطة تحديدُ موقف المقاتلين تجاه المثقفين، وخصوصا الضباط منهم، رغم ما يمكن استشفافه من اللّمز أو ما يشبه الاستخفاف من العبارة التالية: "نحن أصحاب السيف وأنتم أصحاب القلم"[53] لكن كثيرا ما كان الشعور بالتعالي مرفقا، عند ذويه، بالوعي بنقائصهم الشخصية. فالعرفان بالجميل للمثقفين كان يعبّر عن جانبين في موقف غامض: لقد كان ينظر إليهم باعتبارهم جزءً من النخبة ولكنهم، في الوقت ذاته، مخلوقات ضعيفة يجب إحاطتها بعين الرعاية؛ وكان الطلبة يردون على ذلك بالمطالبة بحقهم في المعاملة مثل غيرهم من المحاربين.

في سنة 1958 عاد من تونس كل من الكولونيل علي كافي والطبيب لمين خان والرائد علاوة بن بعطوش، وهم من الولاية الثانية، وكذا الرائد سي صالح والدكتور "ر"، من الولاية الرابعة، فبعد أن اخترقوا "الحاجز القاتل" تعثّر بن بعطوش بسلك مُكهرب فتفحّم بعد ثوان قليلة أمام مرأى رفاقه الذين هالهم الفزع. كان الدكتور "ر" يسير خلفه فتقدم سي صالح ليسبقه في اختراق الحاجز ولكن الدكتور رفض ذلك باعتبار أنّ المثقفين كغيرهم فلا ينبغي أن يتميّزوا عن إخوانهم في الكفاح. حلّل رشيد بوجدرة تلك العلاقات المعقدة والمتعارضة في لين، بين الفئتين، في أولى رواياته حيث يقول:

"كان كبراؤنا يعاملوننا بقسوة وربما كانت الغيرة تنتابهم حين يشاهدوننا نتصفح مدونة شعر أو كتاب رياضيات أو مؤلفا في السياسة بينما هم يجهلون كل شيء عن ذلك ويحترقون حبا في الإطلاع عليه؛ فكان علينا أن نصطنع

52. Jeune Afrique 9-15 جويلية و 4 10 اوت 1962. عز الدين المرجع المذكور ص. 329-330 و 345

53. عز الدين المرجع المذكور. ص 190 أنظر ص. 243-244.

وأعادت الصحيفة الجديدة الناطقة باسم "إ.ع.ط.م.ج." نشر قصيدة بوعلام طالبي التي يقول فيها: "أولئك الذين عرفوا كيف يموتون... لقد كانوا هم الأخيار"[56]. كم منهم لقي حتفه في "ساحة الشّرف" المجيدة؟ كم منهم مات في ظروف غامضة كضحايا حرب سرية؟

## ج) الوقوع في الأسر

وقع عدد كبير من الطلبة الجزائريين، ممن تطوعوا للكفاح الوطني، وراء قضبان السجون أو خلف الأسلاك الشائكة في المحتشدات. وهذا ليس مبرّرا لإهمال ذكرهم؛ ذلك أنّ أسرى الحرب لم "تُستأصل شوكتهم نهائيا" بل كان السجن مجالا آخر للمقاومة والنشاط السياسي؛ خصوصا وأنّ الأسرى، باستثناء المحكوم عليهم بالإعدام، سوف يستعيدون حريتهم يوما ما؛ وإنّ مستقبل الجزائر مرهون إلى حد بعيد بما تؤول إليه حالهم أثناء الأسر؛ وإنه لمن الأهمية بمكان أن ينجم عن تجربة السجن والمعتقل تغيُّرٌ عميقٌ وصادقٌ في نفوس المثقفين الواعين بواقعهم وبمآلهم. ولقد تضافرت الاعترافات والتصريحات من كل جانب على التأكيد بأن الوقوع في الأسر حافظ على جذوة الروح الوطنية الجزائرية. لقد تعرَّف Jacques Charby على "الجزائر في السجن"؛[57] فهاهنا قاومت الأمة الجزائرية، بالفعل، شتى الهجمات الرامية إلى إذابتها وبرهنت على استمرارية وجودها من خلال التضامن اليومي.

### 1- لا مناص من المقاومة

ما انفكّ "إ.ع.ط.م.ج."، كغيره من الجمعيات الطلابية السابقة، يحتجُّ ضد الاعتقال ويندِّد بالتعذيب والقتل المريب المسلط على الطلبة والمناضلين

56. "الثورة في الجامعة" (1) إلى (4) نوفمبر 1962 إلى مارس 1963
57. منشورات Minuit 1961.

الذين تعتقلهم "قوات الأمن". كان الدافع إلى إضراب 20 جانفي 1956 هو الاحتجاج على المصير المأساوي الذي لقيه بلقاسم زودر. ثم ذكر نداءُ 19 ماي حالات أخرى مثل حالة الدكتور بن زرجب وبابا أحمد وطبال وهدام وابراهمي وفرحات حجاج والكاتب رضا حوحو. لعب اتحاد الطلبة، خلال الإضراب الكبير، دورا هاما في فضح شتى أساليب العنف التي ارتكبها رجال المظلات أثناء معركة الجزائر؛ ولقد احتجَّ ذات الاتحاد، في 5 فيفري، ضد اعتقال مراقب الثانوية مصطفى معيزة وندَّد بأعمال القمع ورفض الاعتراف بدعوى "انتحار" بن مهيدي، القائد العسكري للمنطقة المستقلة ذاتيا، بعد شهر من ذلك؛[58] وإثر العودة إلى مقاعد الدارسة بفرنسا تعرَّض "إ.ع.ط.م.ج." للقمع في شخص أمينه العام خميستي[59]، أولا، ثم في شخص جميع قادته؛ وبعد إعادة هيكلة فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني في شكل فرع جامعي تعرَّض مناضلو المنظمتين لموجة من الاعتقالات في باريس وداخل التراب الفرنسي مع نهاية سنة 1958 وبداية 1959. نشر بعضُهم كتابا بعنوان "La gangrène" يفضح أساليب التعذيب الذي تعرضوا له في محلات الشرطة الوطنية في قلب باريس بشارع les Saussaies ولقد صودر الكتاب بعد نشره مباشرة.[60] وفي 13 ماي 1959 اغتيل السيد أمقران ولد عودية ليلة تقديمه مقال الدفاع كمحام للطلبة الستة عشر المتهمين بإعادة تشكيل الرابطة المحلة. تضمَّن المقال نصا يعتبر عمليات التعذيب ممارسة لها سوابقها حيث يقول:

"تأسس "إ.ع.ط.م.ج." خلال حرب الجزائر ولقد تعرَّض المسئولون فيه لشتى أساليب التعذيب البشعة؛ ولسنا، أنا وأصدقائي، الوحيدين في التنديد

58. "العمل" 25-2 و 18-3-1957.

59. "العمل"، 2-12-1957 وتقرير لجنة البحث والإعلام المجلس العالمي للطلبة لسنة 1959-1960

60. منشورات Minuit، 1959، شهادات كل من بشير بومعزة، مصطفى فرنسيس، بن عيسى سوامي، عبد القادر بلهادي، موسى قبائلي، الحاج علي، وخيضر الصغير

بتلك الأساليب المنافية للسلوك الإنساني؛ فلقد اغتيل زدور، وهو من المسئولين الأوائل، واكتُشفت جثته بعد ذلك ملقاة على شاطئ البحر؛ ولا يزال الذين اغتالوه طلقاء. ومنذ يومين، فقط، أعلنت الصحافة عن عودة تلاميذ تلمسان إلى الإضراب عن الدروس إثر وفاة طالبة في الثانوي كانت محتجزة من طرف السلطات العسكرية؛ وهكذا لا يمر يوم إلا ويحمل للطلبة الجزائريين نصيبهم من المآتم والمعاناة".[61]

بعد صدور كتاب الجنرال Massu بعنوان "معركة الجزائر الحقيقية" افتضحت أساليب التعذيب التي كانت " قوات حفظ النظام" تمارسها أثناء حرب الجزائر. ولقد كانت ممارسة التعذيب تتم في الجزائر قبل سنة 1954 من طرف الشرطة "الجزائرية" ثم سرت عدواه بشكل واسع في صفوف الجيش الفرنسي (سواء في ذلك العسكر المحترفون أو المجندون للخدمة العسكرية) ولقد أقرّت السلطات الفرنسية ممارسة التعذيب بصورة ضمنية سنة 1955 و 1956 حين عجزت عن منع ممارسته فاكتفت بالحدّ من أساليبه وتكليف مُختصين بذلك...[62]

لكن التعذيب، حسب ما يدّعيه أولئك الذين اعترفوا بممارسته، لم يكن شاملا بالشكل الذي تصفه المصادر الدعائية للمتمردين؛ بل كان آخر وسيلة لاستنطاق الإرهابيين والمتواطئين معهم وذلك من أجل إنقاذ أرواح بريئة؛ أما بعد سنة 1957 فلم يعد التعذيب الوسيلة الوحيدة لاستقاء المعلومات ولا أهمّها؛ بل كان السكان أيضا يدلون بمعلومات كثيرة كلما تيقنوا أنهم في مأمن من الانتقام وكذاك كان يفعل قدماء "المتمردين" بعد انضمامهم إلى صفوف القوات الفرنسية؛ وكثيرا ما كان مجرد التهديد بالتعذيب أو بالإعدام الفوري كافيا لاستنطاق بعض الأسرى؛ أما الصمود للتعذيب والاستماتة في رفض

61. PIRELLE KESSEL المرجع المذكور، ص. 176

62. راجع كتب Pierre VIDAL NAQUET ، بالخصوص منها: " مصلحة الدولة" "التعذيب في كنف الجمهورية" منشورات Minuit، 1962 و1972 ثم Jean Pierre VITTORI "اعترافات محترف التعذيب" Ramsay 1980.

إفشاء الأسرار فكان ميزة الأشخاص الغلاظ والأميين والمناضلين في قاعدة التنظيم أو التعساء الذين كانوا يجهلون كل شيء عن الموضوع؛ وأما القادة، وبالأخص المثقفون منهم، فكانوا يتحدثون بعفوية وطلاقة وكانوا يحاولون مغالطة المُستنطِقين بالإدلاء لهم بمعطيات خاطئة أو بمعلومات تجاوزتها الأحداث أو كانت معروفة لدى الجميع وذلك للتغطية عن المعلومات ذات الأهمية في نظرهم. كان الضباط المكلفون بعمليات الاستنطاق يتفنّنون في اصطناع تصديق ما يقال لهم خلال عمليات الاستجواب فيغالطون السجناء في تقدير أهمية المعلومات التي يدلون بها. وكان بعض الأسرى، من الدرجة العليا، يوافقون من غير إلحاح على التبليغ عن إخوانهم في الكفاح أو دعوتهم إلى التخلي عن الكفاح. لم يكن العسكر الفرنسيون غلاظا شدادا كلهم بل كان بعضهم يفضل استمالة قلوب الأسرى بمعاملتهم باحترام والاعتراف لهم بأن ثورتهم لا تخلوا من مظاهر الشجاعة والحق قصد إقناعهم بأن حسن تقدير مصلحة الشعب المسلم الجزائري تكمن في وقف الحرب والشروع، جنبا إلى جنب مع فرنسا، في بناء جزائر جديدة تسودها المساواة.[63]

ربما يكون ذلك الموقف المُتفهِّم من طرف بعض الضباط الأذكياء قد استهوى بعض المثقفين الجزائريين؛ ولكن محاولات بعث حوار حرٍّ غالبا ما تبوء بالفشل نظرا للإطار القمعي العام الذي يكتنفها؛ وكثيرا ما كانت عملية الاستنطاق تزاوج بين الترغيب والترهيب من طرف أشخاص يتقاسمون فيها الأدوار وكأنهم في مسرحية وذلك ما كان يُلغي مصداقية الحجج والتبريرات التي يقدمها العسكر؛[64] وكان يحدث أيضا أن تُجهض جهود الإقناع بمجرد

63. حسب ما أورده الجنرالات: MASSU المرجع المذكور، GODARD المرجع المذكور، الكولونيل TRINQIER ("الحرب العصرية، المائدة المستديرة 1962؛ "حرب، شغب، وثورة" Robert Lafffont "الوقت الضائع والحرب" Albin Michel 1978و 1980)

64. أنظر CHARBY المرجع المذكور، ص. 26؛ عز الدين المرجع المذكور ص 214-220؛ بلقاسم ولد موسى "سبيل الاستقلال" سندباد 1980 ص. 285-332.

تحويل الأسير من مركز استنطاق إلى مركز آخر حيث تستعمل ضده أساليب أخرى. وفي كل الحالات لم يكن الأسرى يفلتون من أيدي العدالة الفرنسية التي كانت تصدر ضدهم أحكاما صارمة إن لم يرضوا بالتكفير عن أخطائهم بخيانة زملائهم.

الواقع أنّ جميع أعمال"التمرد" الغير شرعي يعاقب عليها القانون الفرنسي غير أنّ طول المدة التي تستغرقها الإجراءات القانونية، من جهة، وكذا الضمانات التي كانت توفرها للمتهمين، من جهة أخرى، كان لصالح جبهة التحرير الوطني التي كانت تضرب بدون هوادة كل من يتصدى لمقاومتها؛ ولذلك السبب أيضا كان الضباط الفرنسيون يطالبون، منذ الشهور الأولى للحرب، بأن تتم المحاكمة في وقت أسرع وأن تكون أحكامها أكثر ردعا. لجأ بعض الضباط إلى تنفيذ الإعدام الفوري اعتقادا منهم بأن "الخارجين عن القانون" لا يحقّ لهم الاستفادة من التسهيلات القانونية.[65] لم تتوقّف تلك الممارسات غير الشرعية حين شرعت المقصلة في إعدام المحكوم عليهم بالموت ابتداء من جوان 1956. كانت الإجراءات القانونية أقل سرعة في التخلص من الأسرى؛ وكان الأشخاص الموقوفون، بعد استنطاقهم في مراكز الشرطة أو الجيش، إما يظهرون الولاء ويُجنَّدون فورا أو يُوجَّهون مباشرة إلى "مراكز العبور والفرز"؛ وهناك يصنَّفون إلى فئات: فمنهم الذين تُوجَّه لهم تهمٌ محددة ويُحالون على العدالة أما المتمردون الذين يُؤسرون والسلاح بأيديهم فيوجهون مباشرة إلى المحتشدات العسكرية؛ أما المشتَبه فيهم فيوجهون إلى مراكز الإيواء المدنية وأما الأبرياء فيُسرحون ليعودوا إلى ذويهم.

كانت إجراءات العدالة بطيئة بالرغم من تكييفها نسبيا مع ظروف الحرب (التي لم يكن يطلق عليها اسم الحرب رسميا) يتمثل ذلك التكييف في قوانين

---

65. أنظر Antoine ARGOUD " الانحطاط، الأكذوبة، والمأساة" Fayard 1974 ص 147، 183 ثم وثيقة رقم : ١.

حالة الطوارئ (أفريل 1955) والسلطات الخاصة (مارس 1956). كان السجناء يقضون شهورا عديدة قبل محاكمتهم؛ وكان لهم الخيار بين أمرين: فإما التقليل من شأن مسئولياتهم بدافع الخوف أو استجداء عطف القضاة أملا في إطلاق سراحهم في أقرب الآجال. وعلى نقيض ذلك كان الآخرون يعلنون جهرا عن الأسباب التي دفعتهم إلى الانتفاضة ويؤكدون تضامنهم مع جبهة التحرير الوطني؛ من ذلك، مثلا، ما دفع صافية باعزي في أفريل 1957 إلى الثورة حين قالت:

"لماذا تصرَّفتُ بذلك الشكل؟ من المفروض أن لا يُطرح سؤالٌ كهذا من طرفكم. فهل تُسأل جزائرية لماذا تقوم بواجبها؟ إنَّ الذَّنب الوحيد الذي ارتكبتُه، بصفتي ممرضة، هو أنني ضمدت جراح المقاتلين المصابين(.) رجال كانوا يضعون كرامتهم فوق كل اعتبار ويمكنكم، إن رغبتم في ذلك، أن تقيموا معهم أواصر صداقة فرنسية جزائرية حقيقية؛ ولكن هذا يستوجب منكم أن تعترفوا لنا أوَّلاً بحقنا في الكفاح من أجل استرجاع مجد بلدنا وعظمته السالفة؛ ويجب عليكم أن تعترفوا لنا، نحن الجزائريين، بنفس الحق الذي تتمتعون به في وطنكم.

إن لم تفعلوا ذلك فأصدروا حكمكم عليَّ فإنني أؤكد لكم بأنَّ ما فعلتُه إنما كان عن وعي وإرادة راسخة للدفاع عن قضية أعرف أنَّها عادلة. أما أنتم فبصفتكم تنتمون إلى جيش يحمي الجلادين، فليس في وسعكم أن تشعروا تجاهنا بأي شكل من أشكال الرحمة. ونظرا لكوننا قد قمنا بواجبنا فإننا لا نستجدي رحمتكم أبدا"[66]

امتثل الأسرى للأوامر التي كانت ترد إليهم من جبهة التحرير الوطني بواسطة المحامين (سواء من المناضلين الجزائريين أو الفرنسيين

---

66. KESSEL و PIRELLI المرجع المذكور ص. 131

المتعاطفين) فانتهجوا، ابتداء من سنة 1957، منهجَ "المُرافعة السياسية"[67] باعتبارهم محاربين جزائريين لا يعترفون بالعدالة الفرنسية ولا بالتهم المنسوبة إليهم. استُقبل ذلك الموقف "الثوري" الرافض لأية علاقة بين "المتمرد" وبين القانون باندهاش، ثم بغضب. وكان للعدالة وسائل الانتقام من ذلك التحدي.

باعتبار جبهة وجيش التحرير الوطني منظمة ذات طابع عنيف (عسكري وإرهابي) فقد تعرَّض أعضاؤها لعقوبة الإعدام؛ وكان المحكوم عليهم ينتظرون التنفيذ، أو العفو، طيلة شهور وهم يرزحون في الأغلال داخل الزنزانات الخاصة؛ وعندما يحين الفجر كان الجميع يصغون بتوتُّر وحيرة إلى وقع خطوات الحُراس في بهو السجن وهم في طريقهم لتنفيذ حكم الإعدام. كانت صيحاتهم توقظ بقية السجناء. كانت صيحة "الله أكبر" وكذا الأناشيد الوطنية ترافق سير "الشهداء" إلى المقصلة تحيةً لهم على تضحيتهم؛ وهكذا لم يحقق إعدامُ المحكوم عليهم أهدافَه لأنَّه كان مجرد انتقام لفرنسيي الجزائر من العنف الإرهابي بل كان تنفيذ حكم لإعدام يقوي، في خضم الفاجعة، أواصر التضامن الوطني بين المساجين الجزائريين.[68]

مهما كانت الأحكام ضدَّ المتهمين فلقد كانوا كلهم معرضين للمهانة والضرب؛ بيد أنَّه ينبغي التمييز بين مكان وقوع الأحداث (بالأخص بين فرنسا والجزائر) وبين المواقف الشخصية الصادرة بصورة تلقائية عن الحرّاس؛ ويبدوا أنَّ عددا كبيرا من حراس السجون، في الجزائر، كانوا

67. أنظر KESSEL وPIRELLI، المرجع المذكور؛ لبجاوي "حقائق..." ص 86 و176؛ عز الدين المرجع المذكور ص. 228-232؛ Henri J. DOUZON في "حرب الجزائر" ج. 1 ص 464 وde BONIS Jacques ج 2 ص 446 و 508-509 الأزمنة الراهنة 1981.

68. زهرة ظريف "موت إخواني" Maspero 1960؛ Henri ALLEG "سجين حرب" منشورات Minuit. 1962، الخ.

يضمرون للمساجين "الفلاقة" الموضوعين تحت رقابتهم مشاعر الكراهية والحقد. كانوا ينهالون عليهم بالصفعات واللكمات وبالعصي" لأدنى سبب. أما "رؤوس" العصيان؛[69] فكانوا ينتقمون منهم بعزلهم، طيلة أسابيع كاملة، في زنزانات مظلمة تغشاها الرطوبة أو يتركونهم ساعات طويلة في "حُفر شبيهة بالقبور" تصطلي فيها رؤوسهم بلهيب الشمس المحرقة. كانت بعض المراكز مشهورة بوحشية أساليبها، مثل سجن البرواقية، حيث يقال إنه يُلجأ فيها إلى دفن بعض المساجين وهم أحياء وكان الأمر كذلك في سجن لامبيز. في هذا الصدد كتب أحد المناضلين الجزائريين، وهو من أصل أوروبي،[70] ما يلي:

"كم شهدنا من أحداث في سجن لامبيز: تعذيبٌ وتنكيلٌ ثم إعدامٌ. الواقع أنَّه ليس ثمة ظروفا أمثل من ظروف السجن لتمتين عرى العلاقات ولتحقيق اللحمة الإنسانية التي لا تضاهيها أية لُحمة أخرى (.) تحت لسعات السوط التي كانت تنهال علينا وتحت المياه الحارَّة التي ترمى على أجسادنا وتحت وقع الضربات التي كنا نتلقاها، أنا والآخرين، فلا يصحُّ القول بأنني كنت هناك ضيفا!" "بل أكثر من ذلك فبعد انقضاء فترات التعذيب العصيبة والقاسية كنت ألجأ إلى الضحك والفذلكة مثل بقية إخواني وما كنت لأقوى على تحمُّل ذلك لو كنتُ بمفردي بل لأصابني الانهيار والجنون؛ لقد كنت أتحمل لأنني كنت أسبح في صفو الأُخوَّة وبين أحضان شعب (...) وكانت مشاعر الحقد تجمع بيننا. ما أفظع أن نشاهد أعزّ الأصدقاء يقضي نحبه تحت ضربات أحد الحراس..."

هكذا لم تُؤدّ أقسى المعاملات وأشدها نكدا إلاَّ إلى تعميق المشاعر الوطنية الجزائرية. كانت ظروف السجون، في فرنسا، أقلَّ قسوة من ذلك بكثير إلى درجة أنَّ تحويل أي سجين من الجزائر نحو أحد سجون شمال المتوسط كان يُنظر إليه وكأنَّه تدبيرٌ من تدابير العفو.

69. أنظر رسالة زهرة ظريف ومحاميها؛ PIRELLI وKESSEL المرجع المذكور ص. 176

70. Jeune Afrique، (92)، 9-15 جويلية، 1962، ص12

بالإضافة إلى السجون كانت توجد مراكز اعتقال تحت سلطة العسكر ومراكز إيواء مدنية؛ وكان العمل السيكولوجي مطبّقا فيها جميعا مع بعض الاختلاف في الإجراءات من مؤسسة إلى أخرى؛ ففي مراكز الاعتقال، التي أنشأت سنة 1958، كان هدف العمل السيكولوجي عبارة عن غسيل مخ "المتمردين"، الذين وقعوا في الأسر وهم يحملون السلاح، ومحاولة توظيفهم في صفوف الجيش الفرنسي. كان العمل في تلك المراكز إجباريا ومن يرفض الامتثال يُعرِّض نفسه إلى أسوأ أنواع المعاملات وخصوصا في مركز "بخاري" الذي اشتهر كثيرا بسبب شهادات الشهود؛[71] ومن بين تلك الشهادات ما قيل عن اغتيال الطالب مصطفى خالف (المحافظ السياسي للولاية الخامسة) بين جدران المحتشد الرئيسي في شهر أفريل 1960 بدعوى محاولته الفرار؛ كما اغتيل طالب آخر، في المُحتشد الخاص، وهو سنوسي أمعمر (ضابط بالولاية الرابعة) فلقد لقي نفس المصير في 11 مارس 1961.

كانت المراكزُ المدنية المعروفة باسم "مراكز الإيواء" مُخصّصة لاستقبال المشتبه فيهم الذين لم تتم محاكمتهم بسبب انعدام الأدلة الكافية لإدانتهم؛ وكانت تلك المراكز المدنية تستقبل أيضا المحكوم عليهم الذين استنفذوا أحكامهم لقضاء مدة إضافية رهن الاعتقال لتقدير مدى الخطورة المحتملة التي قد تنجرّ عن إطلاق سراحهم. أما مراكز مدينة الجزائر، التي تم إنشاؤها ابتداء من سنة 1955، فكانت أكثر عددا وكذلك أنشئت بعض المراكز الأخرى في فرنسا ابتداء من سنة 1958؛ وكانت جميع تلك المراكز تُسيّر وكأنّها آلات فرز. كان "رؤساء الثورة" والأشخاص الخطيرون يوضعون في معتقلات الجنوب الجزائري مثل" مركز Bossuet وPaul Gazelles والجرف حيث تسود ظروف مناخية قاسية. أما الشيوعيون الأوروبيون فكانوا يعتقلون في مركز Lodi وأما المثقفون ففي مركز الدويرة الخ.

71. عبد الحميد بن زين، "المحتشد" منشورات Sociales، 1962، "ثورة في الجامعة" (4) 1-3-1963؛ "حديث ناري" الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص. 264-273 (جحيم محتشد بخاري)

كان أولئك المعتقلون يُعزلون عن غيرهم من المساجين الذين يُفترَضُ أنّ التأثيرَ عليهم أيسرُ منالا. كان كل مركز يشتمل على فرع للتحرير مخصص لاستقبال العناصر الطيّعة من بين الأسرى؛ وكان الضباط المتخصصون في العمل السيكولوجي والممرنون يجتهدون في تفكيك هياكل التمرد بواسطة الدعايات المتعددة الأشكال ومن بينها إشراك بعض المُعتقلين في المراكز لتقدير مدى أهليتهم لإطلاق سراحهم.

كان ذلك العمل السيكولوجي موضوع تنديد شديد من طرف Fanon Frantz وهو خبير في الميدان السيكولوجي وكان من المتعاونين مع صحيفة المجاهد. وصف Fanon تلك الأعمال بأنها عملية غسيل الدماغ وأنها تؤدي إلى اضطراب خطير في الشخصية؛[72] ويبدو أن تلك الأساليب قد استُلهمت من الأساليب التي كانت سارية في محتشدات المساجين في فيتنام. غير أنّ Pierre Beyssade، الذي أشرف من سنة 1957 إلى 1961 على سير العمل السيكولوجي في مراكز الإيواء المدنية، أنكر أن تكون تلك المرجعيات قد ألهمت عمله وهي أساليب، حسب زعمه، قائمة على الإكراه ولا تُسفر عن نتائج دائمة بل كان يفضّل بذل جهود صادقة للإقناع مبنيةٍ على احترام المُعتقَلين في المركز وعلى إشراكهم في تحسين ظروف معاشهم حيث قال: "إن حشو الدماغ أسلوب محظورٌ ولقد استعيض عنه بالعمل السيكولوجي القائم على الإعلام" ولقد اعترف بأنّ تلك العملية لا تؤثر إلاّ على فئة محدودة من الجموع غير المتعلمة وهم أقلية كما أنّ التضامن بين السكان المسلمين يشلُّ مفعول الأساليب السيكولوجية. وهكذا اضطر إلى الاعتراف بالفشل النسبي الذي لقيه ذلك "الحلُّ المستحيل" كما اعترف أيضا بأن بعض ضباط العمل السيكولوجي انساقوا وراء "الإغراء بالعنف" وكانوا يودون اقتباس

72. "معذبو الأرض" Maspero 1961، ص. 218 وما بعدها.

الأساليب المنتهجة في فيتنام لتطبيقها في مراكز الاعتقال المدنية أي تلك المراكز التي يسمّيها العسكر "أديرة جبهة التحرير الوطني"[73] من قبيل السخرية.

### 2- لا مناص من العمل

في مثل تلك الظروف كان بوسع المسجونين القيام، أحيانا، ببعض الأعمال المفيدة للقضية الوطنية، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فعندما يقتنعون بحتمية المصير فإن أوّل انطباع يحصل لديهم هو أنهم أصبحوا، بسبب الاعتقال، على هامش الأحداث "بعيدا عن ميدان المعركة" في هذا المعنى كتب أحمد طالب في سجن Fresnes بعد اعتقاله بشهر:

"إنّ أنكى الأمور، الآن، هو إحساسنا بأننا في وضعية سلبية وأننا عاجزون ومقصون من الكفاح؛ ففي هذا الظرف تستبد بالواحد منا رغبةٌ في نطح جدران المعتقل برأسه؛ لقد انقضى زمن الحرية والعمل السري وزمن الاتصال وتوزيع المناشير والتفطُّن للمكائد وكتمان المخاوف والشعور بالوقوع بين فكي كمّاشة... والخوف من العصا التي تحطّم الأواصر... انتهى عهد العمل والنشاط...". [74] كان الفرار من السجن أفضل وسيلة لاسترجاع تلك الحرية شريطة أن تكلّل العملية بالنجاح وذلك ما حدث أكثر من مرة.[75] لكن عجز السجين لم يكن مطلقا لأنّ السجن يمكن أن يتحول إلى جبهة للكفاح الوطني ويصلح، أيضا، أن يكون منطلقا لتحضير مستقبل البلاد.

---

73. Pierre BEYSSADE حرب الجزائر DenÆ "I"، 1968 ص. 95-98 "احتضار عالم" غير منشور.ص. 167-197

74 "رسائل من السجن" الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1966، ص. 16

75 أحمد عكاش، "الهروب" الجزائر ش.و.ن.ت.؛ طالبي منير، "ثمن الحرية" الجزائر ش.و.ن.ت. "حكاية نارية" ص 173-180 (فرار مصطفى بن بولعيد. عز الدين. المرجع المذكور ص. 93-97 الخ

كانت المرافعات السياسية شكلا من أشكال العمل؛ وكانت المحاكم فرصة سانحة للمعتقلين لإبراز حقيقة للثورة الجزائرية والتنديد بالسياسة الفرنسية؛ وكان المعتقلون حريصين، قبل كل شيء، على توطيد علاقاتهم بنظرائهم المساجين وربط الاتصالات بغيرهم من المعتقلين الجزائريين؛ كما كانوا توّاقين للخروج من العزلة المفروضة عليهم واستعادة العلاقات التي تشد أزرهم وتقوي تضامنهم الجماعي وكانوا ينظمون صفوفهم بصورة عفوية وفق النمط الساري لدى جبهة التحرير الوطني تحت قيادة أبرز المناضلين وأقدمهم في السجن أو في المحتشد. كان ربط الاتصال بالجبهة يتم بواسطة المحامين والعائلات وكانت هيئة المحامين ولجنة دعم المساجين، في فرنسا بالخصوص، يقدمون لهم المساعدات المعنوية والمادية.[76] كانت ظروف الحياة المهيكلة في السجن زادًا معنويا للمساجين وعاملا لتيسير نشر الأخبار السارّة التي تُعلل النفوس باقتراب النصر وخصوصا ما تعلّق منها بأخبار الكفاح المسلح والاعتراف بالقضية الجزائرية على الصعيد الدولي والشروع في المفاوضات؛ وكان الحرّاس يتكفّلون بتبليغ الأخبار البائسة...[77]

كان التنظيم يسمح للمساجين أيضا بالقيام بنشاطات مطلبية وأكثرها استعجالا هي المطالب المتعلّقة بتحسين ظروف معاشهم ( المأكل والنظافة والتمارين الرياضية والرعاية الصحية) ثم المطالب المتعلقة بصون الكرامة الشخصية (الحد من الإهانة والضرب والحق في ممارسة الشرائع الدينية وفي التعلم) بالإضافة إلى مطالب أخرى، أكثر طموحا، وهي المتعلقة بالمجال السياسي مثل: رفض اعتبار السجناء تابعين للقانون العام والحق في التنديد بتنفيذ أحكام الإعدام.

76. أنظر لبجاوي، المرجع المذكور ص. 176، وعز الدين، المرجع المذكور ص. 231.

77. أنظر Henri ALLEG "سجناء حرب".

تميَّز ردُّ فعل السلطات بالغلظة والقسوة، وبالخصوص في الجزائر، فلقد سعت لمنع أو إبطال مفعول التنظيم لدى السجناء وذلك بحشرهم في زنزانات سجناء القانون العام ومع المصاليين ومع الوُشاة أو بتفريقهم بين مختلف مراكز الاعتقال. وكانت السلطات تلجأ، في حالة التمرّد والعصيان العام، إلى فرض الأمن باستعمال العصي؛[78] وحيث أنَّ القوة لم تكن في جانب السجناء فإن المظاهرات وحركات العصيان أمورٌ لم تكن تنتهي لصالحهم أبدا؛ وبالرغم من ذلك تواصل الإضرابُ، عن العمل أو عن الطعام، كشكل من أكثر أشكال النضال فعالية لأنه يصنع من الضعف سلاحا. لقد تمكّن السجناء الجزائريون من الضغط على السلطات الفرنسية بفضل قوة الإرادة وبفضل إخلاصهم وتضامنهم وأحسن ما تكون الضغوط فعَّالة هي حين تتسرب أخبار الإضراب إلى خارج الجزائر فيصبح الرأي العام الفرنسي والدولي شاهداً على ذلك.

تلك الأساليب السلمية هي التي مكنت المناضلين، المعتقلين في فرنسا، من الحصول تدريجيا على صفة المعتقلين السياسيين وهي الصفة التي طبقت على بن بله ورفاقه في سجن La Sant ثم على محمد لبجاوي وبقية مسيري فدرالية فرنسا الموقوفين معه في سجن Fresnes؛[79] ولقد ظلّت هذه المعاملة حكرا على المسئولين السامين، إلى غاية سنة 1959، قبل إلغائها، بصورة مؤقتة، انتقاما من الإضراب عن الطعام الذي أعلنه الوزراء الخمس في الحكومة الجزائرية المؤقتة تضامنا مع رفيقهم رابح بيطاط في سجن La Santé، من 28 أكتوبر إلى 13 نوفمبر 1958،[80] ولقد بقي معظم السجناء السياسيين الجزائريين تحت نظام القانون العام حتى بعد الانتصارات التي حققوها.

---

78. مثال ذلك معتقل Paul Gazelle، في عز الدين المرجع المذكور ص 238-241 وKESSEL وPIRELLI المرجع المذكور ص. 298.

79. أنظر Jean BOISSON، "لقد تم إيقاف بن بله" دراسات وبحوث تاريخية ، 1978، وكذا لبجاوي المرجع المذكور ص. 87-91.

80. KESSEL وPIRELLI المرجع المذكور، ص 174-176؛ لبجاوي المرجع المذكور ص. 91-92 "المجاهد" (31) و(33) 1-11 و 8-12-1958

في 18 جوان 1959 وجّهت لجنة المضربين (تشكّلت سريّا في سجن Fresnes وكانت تضمّ عددا من مؤلفي كتاب La Gangrène التصريحَ التالي إلى وزير العدل:

"منذ دخولنا السجن ونحن خاضعون لنظام القانون العام بصرامة لا تُراعي كرامتنا وإننا محرومون من أبسط حقوقنا الشخصية والإنسانية ولم يبق أي أسلوب من أساليب الاحتقار والإهانة والعنف، الجسدي والمعنوي، إلاّ وطُبِّق علينا قصد تجريدنا من مُقوِّماتنا كبشر. وكلما حاولنا فرض احترام شخصيتنا فإننا نتعرض إلى عقوبات صارمة يُسمُّونها إجراءات وتدابير نظام؛ ولقد أُرغمنا على الخضوع لما يفرض على السجناء غير السياسيين. إنّ هذه الأمور كلها انتهاكٌ مستمر لكرامتنا وهدفُها هو إهانتنا. إننا إذ نُعبِّر عن احتجاجنا بصفة رسمية وعلنية على ظروف الحبس المفروضة علينا (...) فإن ضمائرنا كرجال أحرار تفرض علينا أن نفضح تلك الممارسات وأن لا نسمح بها مستقبلا لكي لا ينظر إلينا نظرة احتقار"[81]

قامت السلطات بتفريق "الرؤوس" المدبِّرة وتشتيتهم، ردّا على تلك الاحتجاجات، غير أنّ الإضراب تواصل واتسع مداه؛ وفي في 30 جوان انضم وزراء الحكومة المؤقتة الخمسة، المعتقلون في جزيرة Aix، إلى الحركة الاحتجاجية تضامنا فاضطرَّ وزير العدل على الرضوخ للأمر الواقع قصد تطويق حركة الاحتجاج التي ما انفكت تتسع. توقف الإضراب في 2 و3 جويلية ولكن الإدارة رفضت الوفاء بوعودها فعاقبت "الرؤوس" المدبِّرة وشتّتت شملهم؛ وبعد توقف دام خمسة أيام انطلق الإضراب من جديد واتسع مداه أكثر. انتهت الحركة الاحتجاجية بعد سبعة عشر يوما بالإحراز على انتصار تامٍّ (على الأقل في سجنFresnes حيث تحصّل حافظ الأختام Edmond Michelet، (4 أوت) على موافقة الحكومة وقبولها تطبيق نظام ليبرالي جدا (يتنافى مع موقف الوزير الأول ووزير الداخلية).

81. KESSEL وPIRELLI المرجع المذكور، ص. 361. المجاهد (45) 6-7-1959 و (47) 3-8-1959

لم يطبّق ذلك النظام، المتسامح جدا، لا في مراكز الاعتقال العسكرية ولا في مراكز الإقامة الإجبارية سواء في الجزائر أو في فرنسا (التي لا ترتبط إداريا بسلطة وزير العدل) ولا حتى في السجون الجزائرية التي عرفت أوضاعها، رغم كل شيء، تحسُّنا ملحوظا.[82] خلال سنة 1960، وأمّا في فرنسا فقد تفاوت الالتزام بتطبيق ذلك النظام بين سجن وآخر وذلك حسب عدد ونسبة المناضلين الجزائريين المتواجدين فيها. في 2 نوفمبر 1961 شنَّ 15.000 سجين جزائري، في فرنسا، إضرابا عن الطعام قصد الحصول على تطبيق ذات النظام وتعميمه وكان ذلك بمساندة من طرف الوزراء الخمسة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الموضوعين تحت الإقامة الاجبارية في قصر Cahteau deTurquant. ولقد تمكنوا من انتزاع حقّهم في 20 نوفمبر.[83]

"الإضراب عن الطعام: إن الروح المعنوية مرتفعة جدا! فلأول مرة، منذ اعتقالي، صرت أشعر بأنني أشارك في الكفاح بنشاط؛ هنا يتملكنا إحساسٌ بأننا نعيش فترة متميِّزة من تاريخ بلدنا حيث لا يكتسي مصيرُ الأفراد أهمية تذكر ما دام الأمر يتعلق بمصير شعب بأكمله؛ فينبغي إذن إنقاذ الأهم ولا مجال هنا لمراعاة الظروف الشخصية.[84]

"لكن، كم في ذلك من معاناة! كم من مريض أصيب بعاهة مدى الحياة! لا يمكن أن نتصور، بدقَّة، ما هو وقعُ الإضراب عن الطعام على الجسم: الحمى والبول الممتزج بالدم والآلام التي لا تطاق ناهيك عن اضطراب الدورة الدموية وغيرها؛ ولا يغرب عن البال أنَّ السجين، أثناء ذلك كله، كان يتعرّض للضرب بعقب البندقية!؛ وحين يخاطب الحارسُ أحد السجناء، بصيغة الجمع، يتظاهر بقية السجناء بأنهم نسوا أن ذات الحارس كان من عهد قريب يصب عليهم الشتائم. لقد تمكّن المعتقلون من انتزاع حقوقهم في تشريف

82. بن زين المرجع المذكور ص. 19، 23، 29 بن زين المرجع المذكور ص. 19، 23، 29

83. KESSEL و PIRELLI المرجع المذكور، ص 679 وما بعدها: "المجاهد" (87) 22-11-1961

84. أحمد طالب المرجع المذكور. ص. 39

موتاهم وترديد النشيد الوطني وطاعة أوامر قادتهم وحقهم في الدراسة وحقّهم في التعاون وحقهم في أداء الصلاة جماعة وحقهم في أن يحظوا بالاحترام اللازم".[85]

إنّ انتزاع صفتهم كمعتقلين سياسيين كان فعلا انتصارا كبيرا؛ ولقد كان السجناء الجزائريون مُصرّين على انتزاع الاعتراف بكونهم ليسوا من فئة المنحرفين الذين ينبغي إعادة تربيتهم في المراكز الخاصة قبل إدراجهم من جديد في المجتمع الفرنسي. كانوا يعتبرون أنفسهم أفرادا منتمين إلى أمة أخرى؛ ولقد كانوا، وهم في سجونهم، يسعون بوسائلهم المحدودة لتحقيق نفس الهدف الذي ترمي إليه جبهة وجيش التحرير الوطني.

إنّ تلبية المطالب الثقافية، وفقا للتقاليد الليبرالية الفرنسية، قد فتح السبيل للعمل السياسي لمناهضة الوضع القائم في الجزائر: فالقانون الفرنسي يضمن حرية الفكر والمعتقد حتى للمساجين. ولقد شكّل الأداء الجماعي للشرائع الإسلامية (صوم رمضان والصلاة جماعة والأعياد) بالنسبة للسجناء الجزائريين شكلا ضمنيا لا يؤاخذون عليه من التعبير عن وفائهم للشخصية التقليدية التي تُميز شعبهم؛ وكانت تلك الشخصية التقليدية تسمح لهم بالتعارف من جديد وتكفل لهم شدّ أزر بعضهم البعض في أحلك الظروف؛ وكانت تساهم بشكل قوي في تحقيق الانسجام ضمن جماعتهم إلى درجة أنّ المثقفين المنفصلين عنها، ممن لا يقيمون الشعائر أو لا يؤمنون بها، بل وحتى "الجزائريين الخصوصيين" من ذوي الأصل الأوروبي أو الإسرائيلي قد انضموا طواعية إلى ذلك.[86]

85. CHAR المرجع المذكور ص. 77.

86. "العمل" 2 جوان 1958؛ 15-9 (92) Jeune Afrique جويلية 1962: بن زين المرجع المذكور ص 64 و 72-73؛ في الاتجاه المعاكس، أنظر CHARBY المرجع المذكور ص 87، آسيا جبار "الحمام السلاح" Julliard 1967 ص. 199.

اعترفت المصالح الإدارية للمساجين بالحقّ في التعليم والتثقيف، من منظور إعادة إدماجهم الاجتماعي، ولكن نظرا لكون التعليم يستلزم توفير المواد الضرورية مثل الورق والكتب والأقلام فقد كان تطبيقه رهن مزاج مديري مراكز الاعتقال. كان المثقفون والمسئولون السامون يحصلون على ذلك بسهولة لكن تحت رقابة تعسفية دوما.[87]

بما أنّ التعليم كان امتيازا نادرا في المجتمع المسلم الجزائري فلقد كان للمستفيدين منه كلُّ الحق في المطالبة بتعميمه على إخوانهم الأميين أو الجهلة. كان هذا التعاون الثقافي يقوي لحمة الجماعة وكذا سلطة المسئولين؛ فإذا لم يكن للإدارة أيُّ مبرِّر لمنع ذلك فإنها كانت محقّة في تخوُّفها من استعمال التعليم كوسيلة لنشرِ الدعاية "الثورية". إنّ قبول تعميم التعليم معناه نسف كل مجهود يرمي إلى تحقيق العمل السيكولوجي المسطر.

ذلك ما حدث فعلا، منذ سنة 1957، فيَ الأجنحة المخصّصة للسياسيين في سجن la Santé وFresnes؛ ففي هذا الصدد كتب أحمد طالب ما يلي: "لقد عشت، منذ أن وقعتُ في الأسر، عيشةً جماعية حقيقية في صحبة حوالي خمسة عشر رفيقا. كانوا جميعا مثلي مناضلين في صفوف جبهة التحرير؛ وحيث أننا اتفقنا على مبدأ "على كل واحد منا أن يفيد الآخرين بمعارفه مهما كانت هزيلة" فقد قمنا بتنظيم دورات لإلقاء الدروس في شتى المواضيع الاقتصادية والسياسية والدينية الخ";[88] وكان نفسُ التسامح سائدا أيضا في سجن Grenoble حسب قول حكيمي: "لقد تمكّنتُ من القيام ببعض التطبيب كما تعرّفتُ على بعض مبادئ الاقتصاد السياسي. نحن نعلّم القراءة والكتابة لمواطنينا الأقل حظوة منا. لقد تحول السجن إلى مدرسة. يجب الاعتراف بأن علاقاتنا مع إدارة سجن Grenoble كانت تشوبها كثير من الجوانب

87. KESSEL وPIRELLI المرجع المذكور ص. 253، بن زين م م ص. 66

88. طالب م.م. ص. 104.

الإنسانية ومن التفاهم والتقدير المتبادل بفضل الجهود المبذولة من الطرفين وذلك بالرغم من التنديد ببعض الأعمال الوحشية التي وقعت في فرنسا بالذات".[89]

تلك حالات استثنائية بكل تأكيد لأنَّ عددا كبيرا من مراكز الاعتقال في الجزائر كانت تعامل "المتمردين" المعتقلين معاملة قمعية في أبشع الحالات ومعاملة "تربوية" في أحسنها؛ ولكن بعد تبني النظام الجديد، في أوت 1958، خطت روح التسامح خطوات إيجابية. لقد تحوّل سجن Fresnes إلى مؤسسة تعليمية كبيرة توفّر تدريس كل المواد لكلّ المستويات من أوليات الأبجدية إلى البكلوريا باللغتين الفرنسية والعربية. لقد تمكن التلاميذ من استدراك تأخر دراسي دام 10 أو20 أو30 سنة؛ ولقد كان كبارُ السن هم الأكثر حرصا وجديّة "ومع الدروس فإن المكان لم يعد سجنا". كانت المدرسة مسيّرة من طرف مسئولي جبهة التحرير، وأغلبهم من قدماء الطلبة، ومن بينهم مؤلفو كتاب la Gangrène؛ وحين يتدنى مستوى العمل يُعاتب الكسالى على ذلك: "إخواني إنَّ هذا أمرٌ جاد جدا؛ فالتعلّم، بالنسبة إليكم، واجب مزدوج لأنَّه ثراءٌ لكم ولأنَّ الجزائر في حاجة إليكم غدا. تصوّروا حالة إخوانكم في الجبال: لا شك أنَّهم يودّون لو تتوفر لهم مثل هذه الفرص كي يتعلموا. إنَّ طريقتكم في الكفاح هي أن تتعلموا"[90]

كان المثقفون ينتظمون في لجان تفكير في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تنتظر الجزائر المستقلة؛ وكانوا يستقدمون المحاضرين من خارج السجن ويجمعون مواطنيهم كل يوم للإصغاء لأحاديث حول تاريخ وطنهم وحاضره ومستقبله".

89. "العمل" 2 جوان 1958.
90. CHRBY م.م. ص. 64.

اعتبر أحدُ المناضلين أنَّ التعرُّض بالتفصيل إلى كل المظالم والآلام لا طائل من ورائه فطلب الكلمة ثم قال: "كلُّ هذا كلامٌ مملٌّ أنا أقترح حذف دروس التاريخ لأنَّ ما يهمني هو معرفة ما الذي سنفعله بعد ذلك وما الذي سنفعله "نحن" في الجزائر". وكان الرد على ذلك المناضل بأن عليه، أوَّلاً، استيعابُ تاريخ بلاده والوقوف على معاناة آبائه وأجداده "أما فيما يخصُّك فلقد قاسيتَ كثيرا في الكفاح ولكن ينبغي أن تعرف ما الذي عانى منه آباؤك من قبلك فهم الذين كانوا ضحايا تلك المظالم".[91]

كان التعليم الذي قدمه المناضلون الجزائريون إلى إخوانهم في ميدان الكفاح وفي السجن منفتحا على "الحقيقة الوطنية"؛ ولقد تمكنوا من إثبات قوميتهم الخاصة. كان Jacques Charby شاهدا على ذلك حين قال: "عشتُ معهم في سجن Fresnes قرابة خمسة أشهر؛ ولقد جعلتني تلك التجربة أتيقَّن بوجود الشعب الجزائري الذي رأيته يحيا في السجن ورأيته أثناء "النزهات" كل صباح وفي هيئة استعداد ينشد النشيد الوطني؛[92] ثم يقف دقيقة صمت تخليدا لأرواح وذكرى شهدائنا الأبرار من المحاربين والفدائيين الذين سقطوا من أجل جزائر حرة ولأرواح جميع ضحايا القمع الفرنسي".[93] إذا كان نظام المساجين، في الجهات الأخرى، سريّا وقاهرا فإنه هنا معترف به رسميا. كان للمساجين مندوبون يمثّلونهم لدى الإدارة؛ وكانوا مسئولين عن النظام داخل مجموعاتهم ويشرفون على تسيير الصندوق المشترك والخزينة التي كانت تزودها الحوالات والطرود التي يتلقاها كل واحد منهم؛ وكانوا يتمتعون أيضا بالحق في الإعلام ونشروا جريدة المبكر التي كان يتم تحريرها واستنساخها يدويا. هذا هو عكس ما كان يرمي إليه "العمل

91. ن.م. ص. 56

92. "قسما" كتبه بالعربية مفدي زكرياء (أنظر عز الدين، م.م. ص 16-17) وترجم إلى الفرنسية في Fresnes (أنظر "الجزائر في السجن" و"أمل وكلمة" ص 47-48).

93. CHARBY م.م. ص. 43.

السيكولوجي" تماما. إنّ الجزائر الحرّة موجودة على الأقل في نقطة واحدة من العالم إنها في Fresnes. هكذا تساءل شاربي قائلا: "هل إدارة سجن Fresnes أكثر تقدمية من قصر L'Elyée؟"

كانت تلك الوضعية ثمرة كفاح طويل ولكن أغلب المساجين الجزائريين لم يستفيدوا منها إلا في وقت متأخر جدا؛ وسواء أكان نضالهم يهدف إلى احترام أبسط المقتضيات أو كان لتحقيق مطالب أكثر طموحا فإنهم لم يتخلوا قط عن كونهم مكافحين؛ ونظرا لكونهم قد خبروا شعورهم الوطني وحسّنوا أداءهم بواسطة التعليم فإن الخمسين ألف سجين جزائري كانوا بمثابة جيش احتياطي عظيم. إنَّ مجرَّد وجودهم كافٍ لإلقاء ظلال الشكّ على استمرار السيادة الفرنسية في الجزائر حتى ولو تمكنت فرنسا من كسب تلك الحرب.

## الفصل السادس

# ضمن الاحتياط

### أ) العودة إلى الدروس في الجامعات الفرنسية

أحدث النقاش حول "جدوى الإضراب"، منذ شهر ماي 1956، انقساما في صفوف الطلبة ونشبت بسببه مواجهاتٌ بين فروع إ.ع.ط.م.ج. ولو أن تلك المحنة استمرت طويلا لأدّت إلى انهيار معنويات الطلبة. أعرب كلٌّ من اتحاد الطلبة وفدرالية فرنسا لجبهة التحرير تظلماتهما إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية، المجتمع بالقاهرة في 23 أوت 1957، وإلى لجنة التنسيق والتنفيذ الجديدة التي عيّنها هذا الأخير. الواقع أنّ الإضراب حقق أهدافه طالما أنّه أثبت انخراط الطلبة الجزائريين في جبهة التحرير الوطني؛ فلقد استجابوا للإضراب "بكل حماس وتفان بالرغم من أنهم لم يدركوا مغزى ذلك القرار الذي اتخذ خارج إرادتهم". كانت الاستجابة للإضراب تجربة قاسية جدا ولكنها كانت في ذات الوقت دليلا على مدى ولائهم للثورة الوطنية. غير أنّ استمرار الإضراب أمرٌ غير مجد وخطير: ذلك أنّ "الطلبة اليوم يتمنون أن يعير قادة الثورة الجزائرية نظرة أخوية إلى المشاكل التي يعانونها وأن يتخذوا مبادرات سياسية تساعدهم على تجاوز الصعوبات التي أوهنت عزيمة البعض على المقاومة" وبما أنّ تجنيد جميع الطلبة في صفوف جيش التحرير

الوطني غير ممكن، من الناحية العملية، فإنهم يستأذنون للعودة إلى مقاعد الدراسة اعتبارا للمصلحة الوطنية. ونظرا أيضا لاستحالة إرسالهم جميعا لمواصلة الدراسة خارج فرنسا فمن الأليق الموافقة على فكرة "استغلال الجامعة الفرنسية بصورة مؤقتة" بما يتوافق مع مواصلة الكفاح السياسي.

يجب أن يتخذ "كفاح الطلبة أشكالا سياسية واقعية ويرمي إلى بلوغ أهداف محددة" مثل مقاطعة جامعة الجزائر وتوجيه أكبر عدد ممكن من الطلبة إلى جامعات غير فرنسية كما "ينبغي أن يقوم الطلبة بنشاطات ملموسة ويقفوا مواقف صريحة لرفع أي التباس محتمل حول مدلول عودتهم إلى مقاعد الدراسة". يبدو، حسب تقرير محمد حربي،[1] أنّ ذلك الحل كان "يعبر عن شعور عام لدى الطلبة في فرنسا".

وافقت لجنة التنسيق والتنفيذ على تلك المبررات فقرر "المكتب الإداري لـ"إ.ع.ط.م.ج." (باريس في 21 و 22 سبتمبر 1957) بالإجماع رفع الإضراب عن الدراسة والامتحانات ابتداء من الدخول المدرسي 1957–1958 ووجه نداء أخويًا إلى كل التلاميذ والتلميذات وكل الطلبة والطالبات الثانويين والجامعيين لاستئناف الدروس في جميع مستويات التعليم. غير أنه ينبغي استثناء جامعة مدينة الجزائر من ذلك نظرا للذهنية الاستعمارية السائدة فيها والتي لا تحتاج إلى إثبات"[2] وهو قرار تبرره الحجج المستقاة من صفوف المعارضين في ماي 1956: "نحن واثقون من المآل الذي سوف ينتهي إليه الكفاح التحرري وواعون بثقل المهام التي يجب على الطالب تحمُّلها من أجل بناء دولة جديدة ولضمان سيرها المنسجم فليستعد لمواجهة مسؤولياته الجديدة؛ وحيث أنّ شعبَه هو الذي أوكل إليه تلك المهمة فإنه سوف يركز

1. تقرير موجه إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ورد ذكره في ملحقات مذكرة الأستاذية لـ[illegible] Thomas حول فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، باريس 7، 1975.

2. "العمل" 21-10-1957.

اهتمامه على المستقبل ويستعد، في أحلك أوقات الحرب، للأيام التي سوف تعقب النصر ويمنح الجزائر إطارات قوية حنّكتها الظروف وهي ممثلة حقا لروح شعبه الثورية".

كان تأويل الطرف الفرنسي لمغزى الرجوع إلى مقاعد الدراسة تأويلا مغايرا حيث اعتبره "إقرارًا بالهزيمة في صورة مغلّفة"؛ فكتبت المجلةُ الناطقة باسم الجمعية العامة للطلبة الجزائريين عنوانا ساخرا يقول: "إ.ع.ط.م.ج. ينحدر ويعود إلى مقاعد الدراسة بعد "نجاح" الإضراب الذي دعا إليه والنداء الذي وجّهه للثورة".[3] نشرت جريد المجاهد ردًا على ذلك الرأي في مقال جاء فيه ما يلي: "سوف يكون من الصعب على الاستعماريين الفرنسيين أن يتغنوا بالنصر إثر هذا القرار وإن يحولوه إلى انتصار للسياسة المنتهجة من أجل "استتباب الأمن". لقد تم توقيف الإضراب فعلاً ولكنَّ عواقبَه ستظل باقية. لقد خمدت الدعاية القائلة بأنَّ المثقفين الجزائريين أنصارٌ للنظام الاستعماري. إنَّ شبابًا يُضحي بسنتين من الدراسة في سبيل بلوغ المثل الوطنية ثم يجد في نفسه القدرة على الانطلاق من جديد، لمواصلة التحصيل العلمي، شبابٌ لا يمكن أن يهنأ له بال المعمرين أبدا. لا! لن يتغنى (الاستعماريون) بالنصر أبدا وسوف ينظرون بعين الحيرة والتخوف إلى عودة طلابنا إلى الجامعة (...) لقد هجر الطلاب مقاعد الجامعة كوطنيين يعون تمام الوعي واجبهم وسوف يعودون إلى الدراسة رجالا أحرارا أوكل لهم وطنُهم، الذي وصل إلى برِّ الأمان، مهامَ أخرى. إنَّ الجزائر تتقدم بخطى حثيثة نحو نيل استقلالها وإنَّ المهام المستقبلية أضحت الشغل الشاغل لرواد الثورة ويجب على كل جزائري أن يستعد لها".[4]

3. "الجزائر الطلابي" نوفمبر 1957
4. "المجاهد" (11) 1-11-1957

ليست تلك المبررات مقنعة تماما فالإضراب عن الدراسة قد تم تصوّره طبقا لخطة كانت تُعدّ لاندلاع ثورة شاملة وعلى العكس من ذلك فإن تطوّر مجريات الحرب نحو مواجهة عنيفة غير محدّدة المدّة هو الذي أملى على الطلبة ضرورة العودة إلى الدراسة. زيادة على ذلك فإنّ الإستراتيجية الجديد، المقررة في أوت 1957، كانت ترمي إلى إحداث مواجهة عسكرية ودبلوماسية حاسمة بالاعتماد على قواعد قوية خارج تراب الجزائر ولقد أدّت إلى تحويل العدد الأقصى من الطلبة خارج الجامعات الفرنسية ووضعهم تحت تصرف الجهاز الخارجي لجبهة وجيش التحرير الوطني.

## 1- في فرنسا

الواقع أنّ الغالبية العظمى من الطلبة الجزائريين قد سجلوا أنفسهم في فرنسا وبالرغم من أنّ عددهم غير معروف بدقة إلاّ أنّ عدد الطلبة الوافدين من الجزائر(الذي انخفض من 2080 طالبا إلى 1811 طالبا أثناء الإضراب) قد ارتفع إلى 2190 طالبا أثناء الدخول الجامعي لسنة 1957. إنّ الحظر المفروض على جامعة الجزائر يفسر ذلك التضخّم في عدد الطلبة؛ ذلك أنّ قدماء طلبة جامعة الجزائر التحقوا بقدماء الطلبة في فرنسا وفي نفس الوقت كانت أغلبية الطلبة الجدد تتقدم مباشرة للتسجيل في فرنسا؛ وهكذا استمرّ الطلبة الجزائريون متمركزين، أكثر من أي وقت مضى، في جامعات فرنسا وفي جامعة باريس على وجه الخصوص.

مع ذلك قرّر "إ.ع.ط.م.ج."، منذ بداية الإضراب، توزيعَهم على البلدان الأخرى. شرع الاتحاد، أثناء صيف 1956، في التماس المنح الدراسية لفائدة مناضليه لدى الأنظمة الطلابية والجامعية العالمية[5] وخلال الموسم المدرسي 1957-1958 توجّه 33 طالبا لاستكمال دراستهم خارج فرنسا غير أنّ الظروف سوف تفرض وتيرة أسرع لهذه الحركة مستقبلا.

5. التقرير الأدبي للرئيس أيت شعلال، (إ.ع.ط.م.ج. المؤتمر الرابع).

سحبت السلطاتُ الفرنسية اعتمادَها الرّسمي عن "إ.ع.ط.م.ج." نظرًا لتعاونه الواضح مع جبهة التحرير منذ مدة طويلة؛ وفي 12 نوفمبر 1957 أُلقي القبض على الأمين العام محمد خميستي في Montpellier وتم تحويله إلى الجزائر؛[6] وتمكّن المؤتمر الثالث (المنعقد من 23 إلى 26 ديسمبر في جلسات مغلقة في الضاحية الباريسية) من جمع ممثلين عن أعضائه البالغ عددهم 1.500 وخلُص إلى التأكيد على موقف المؤتمر الثاني لصالح مطلب الاستقلال وضرورة التفاوض مع جبهة التحرير الوطني وقرّر إقصاءَ الطلبة الذين لم يستجيبوا للإضراب وتنصيبَ إدارة جديدة تحت رئاسة مسعود آيت شعلال.[7] التحق أغلب قدماء المسئولين في "إ.ع.ط.م.ج." فورًا بالجهاز الخارجي للجبهة؛ وبعد انقضاء شهر تمَّ حلُّ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بقرار مؤرخ في 27 جانفي 1958 وأُلقي القبض على مسيريه ووُضعت محلاتُه (في باريس وفي كل المدن الجامعية) تحت الحجز. في تلك المناسبة تظاهرت الجمعيات الطلابية الأخرى (ما وراء البحر) وكذا الاتحادُ الوطني لطلبة فرنسا والطلاب اليساريين الفرنسيين تعبيرا عن تضامنهم.[8] لجأ مسئولو "إ.ع.ط.م.ج."، بعد الإفراج المؤقت عنهم، إلى خارج فرنسا حيث أعادوا تنظيم منظمتهم وحضّروا الظروف الملائمة لهجرة القاعدة بعد الحصول على منح كثيرة. غادر أكثر من 100 طالب جزائري باريس في الفترة الممتدة من جانفي إلى نوفمبر 1958.[9]

في تلك الأثناء تحوّل الترابُ الفرنسي إلى ميدان من ميادين الحرب؛ فلقد شنّت فدرالية فرنسا (25 أوت 1958) هجمات مثيرة استهدفت الأشخاص

6. "العمل" 2-12-1957 وكذا "تقرير لجنة البحث والإعلام للمجلس الطلابي العالمي 1959-1960.
7. "المجاهد" (18) 15-2-1958 (ج.1 ص. 332-334)؛ انظر "جامعة الجزائر" جانفي 1958.
8. "المجاهد" (17) 1-2-1958؛ "العمل" 3-1958-12؛ النقابية الطلابية والقضية الجزائرية؛ ص. 53-55
9. "الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، أخبار ما وراء البحر 1959.

والتجهيزات وتزايدت وتيرة الهجمات إلى غاية أكتوبر. ثم كثّفت الشرطة جهودها لتفكيك شبكات الجبهة فتمكّنت من اكتشاف الفرع الجامعي الذي أسّسته فدرالية فرنسا لتأطير الطلبة بعد حلّ الاتحاد. تم اعتقالُ 23 مسئولا (منهم 9 في باريس)، خلال شهر ديسمبر 1958، ثم ارتفع عددهم إلى 31 معتقلا، في نهاية جانفي 1959، ولقد كان التعذيب (الذي تعرض له بعضُهم في مراكز الشرطة بباريس) مادّة خاما لكتاب la Gangrène الذي صادرته السلطات فور صدوره ولقد اعتمد الأستاذ ولد عودية على ما ورد في ذلك الكتاب في مرافعته دفاعا عن المناضلين الستة عشر، المنتمين إلى كلتا المنظمتين، والذين وُجِّهت لهم تهمةُ إعادة تشكل الرابطة المُحلَّة والمساس بالأمن الخارجي للدولة. قال الأستاذ في مرافعته: "لقد وجد الطلبة أنفسَهم كبقية أفراد شعبهم، أناسا خارجين عن القانون فلم يعودوا يتمتعون لا بالحرية ولا بالحماية ولا بأي حق من الحقوق. وما دام الحق بجانبهم فمن ذا الذي يتجرأ يا ترى على مؤاخذتهم حين سلكوا الطريق الوحيد المؤدي إلى الشرف وحين تضامنوا مع المحاربين والسجناء والمعدومين بالمقصلة؟"[10] غير أنّ اغتيال هذا المحامي، ليلة المحاكمة، تسبّب في تأجيلها إلى 25 جويلية.

حرصًا على تهدئة الأوضاع أو إرضاءً لجمعيات الطلبة الفرنسيين فيما وراء البحر وكذا الأجانب حضر ممثلوهم أثناء المداولات باعتبارهم شهود دفاع (وخصوصا منهم رئيسُ الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا) أو كملاحظين. جرت وقائع المحاكمة في جو هادئ لا يكاد يصدَّق؛ ورافع المحامون عن عدم قانونية حلّ المنظمة الطلابية كما قدَّم المتهمون وصفا لأوضاعهم البائسة قائلين: "إنّ حياتنا في الظروف الراهنة تطرح علينا مشاكل مادية ومعنوية كثيرة إلى درجة أنّ التضامن صار الوسيلة الوحيدة لتحمّلها؛ وإننا لنشعر بأننا جزائريون قبل كل شيء (...) فليس في وسعنا التنكر لآلام شعبنا الراهنة

10. KESSEL و PIRELLI، "الشعب الجزائري والحرب"، ص 348 و 358

وطموحاته المستقبلة. إنَّ "إ. ع. ط. م. ج."، كغيره من المنظمات الأخرى، ظلَّ محتفظا بشرعيته وقناعته بأنَّ من حقه بل ومن واجبه أن يتمنى الاستقلال لبلدنا وأن يؤيد إجراء المفاوضات. غير أن نشاطنا، في هذا الشأن، ظلَّ نظريًا محضًا وبمعزل عن الإرهاب وعن السياسة ولسنا نشعر قط بأننا قد مسسنا أمنَ التراب الفرنسي" أما نائب وكيل الجمهورية فقد تقدم بمرافعة جدُّ معتدلة جاء فيها: "إنَّ جنحة إعادة تشكيل الرابطة المحلَّة قد ثبتت وتمَّ الاعتراف بذلك؛ فلا يمكن مناقشةُ هذا الأمر ولكن يمكن تفهُّمه. إنَّ المودعين في السجن الاحتياطي يجسِّدون انصهار ثقافتين؛ وإنَّهم شهود طلاق مستحيل؛ ويجب عليكم أن تتفهَّموا موقفهم" بعد ذلك تمت تبرئة كل المتهمين ما عدا المسئولين الأربعة في الفدرالية فأولئك حُكم عليهم بسنة حبسا بتهمة المساس بالأمن الخارجي للدولة.[11]

لم يكن ذلك التسامح النسبي كافيا للحدِّ من هجرة الطلاب الجزائريين فقرَّرت السلطات الفرنسية عدم منحهم ملفاتهم الجامعية مهما كان المبرِّرُ وكذا مراقبتُهم سنويا من طرف السلطات الجامعية في مدينة الجزائر وفرضُ تأشيرة على خروجهم من فرنسا (والقدوم إليها من الجزائر) حدث هذا موازاة مع رفع عدد المنح المقررة؛ ونظرا لعدم معرفة عددهم بالضبط سنة 1957 – 1958 فليس بوسعنا التأكيد على كون العدد قد ارتفع أو انخفض أو تمَّ تعويضُ الأعداد المهاجرة بأعداد أخرى مماثلة قادمة من الجزائر. في سنة 1959-1960 ذكر إحصاءٌ، غير مكتمل، أصدره المكتبُ الجامعي للإحصاء أنَّ عدد الطلبة الجزائريين في كليات فرنسا بلغ 608 طالب أما كتابة الدولة للشؤون الجزائرية فقدَّرت من جهتها عددهم ب750 طالبا يُضاف إليهم 480 تلميذا في الأقسام التحضيرية للمدارس العليا أي ما مجموعه 1.250 طالبا. وقدَّر الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا (في سنة 1960)

11. "تقرير لجنة البحث والإعلام" 1959-1960 النشاط النقابي الطلابي والقضية الجزائرية" ص. 53-55.

و"إ.ع.ط.م.ج" (في سنة 1962) عددَ الطلبة المسلمين الجزائريين في فرنسا بحوالي 1.000 طالب[12] موزَّعين إلى ثلاث مجموعات متقاربة الحجم: الثلث في الجزائر والثلث في فرنسا والبقية متفرقة بين عشرين بلدا تقريبا [13].

حين لاحظ قادة الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا أن الطلبة الجزائريين غادروا الإطار الفرنسي بصورة لا رجعة فيها تبيّن لهم أنَّ المبادرات التضامنية التي قاموا بها (سنة 1958 و 1959) لم تكن كافية. وبعد أن اطمأنوا إلى أنَّ معارضة "الأغلبية" صارت تزداد ضعفا باستمرار وافقت الأغلبيةُ الحقيقية (التي كانت تُدعى سابقا "أقلية") أثناء المؤتمر التاسع والأربعين للاتحاد، المجتمع في مدينة Lyon من 8 إلى 13 أفريل 1960، وافقت على لائحة تطالبُ بالشروع في المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني "بشرط وقف إطلاق النار وضمان تقرير المصير" وأوصت اللائحة أيضا "باتخاذ كل التدابير التي من شأنها التقريب بين الطلبة الفرنسيين والطلبة الجزائريين تحضيرا لتصالح فرنسا مع الأمة الجزائرية". أرسل المكتب الجديد (الذي يرأسه Pierre Gaudez ويتشكل من مناضلين في الاتحاد الاشتراكي الموحد) أرسلَ نائبَه المكلف بالشؤون الخارجية، Dominique Wallon، للتفاوض في Lausanne مع لجنة التنسيق بين جمعيات طلبة ما وراء البحر ثم مع "إ.ع.ط.م.ج."؛ وفي 6 جوان 1960 صدر بيانٌ مشترك يطالب بفتح المفاوضات مع جبهة التحرير "من أجل الاتفاق على حيثيات تقرير المصير

12. "الطالب المسلم الجزائري، دراسة ومسار مهني" المكتب الجامعي للإحصاء، كتابة الدولة للشؤون الجزائرية. في السابق، كانت إحصائيات المكتب الجامعي للإحصاء، تعتبر جزائريا كل طالب من أصل جزائري. ونظرا لعدم التفطن لذلك، فإن الاتحاد الوطني لطلاب فرنسا، أخبار ما وراء البحر، (1959) وكذا النشاط النقابي الجامعي والقضية الجزائرية (1960) قد بالغوا في تقدير العدد. في جانفي 1961، ثم الاتحاد الوطني لطلاب فرنسا- الأخبار الدولية، بتصحيح تلك الغلطة.

13. Espoir Algerie 4-8-1960؛ Afrique Action 10-7-1961 و Jeune Afrique 25 و HO مارس و 4-10 أوت 1962

باعتبارها السبيل الوحيد للوصول إلى وفق إطلاق النار"؛ وفي شهر جويلية ألقى Dominique Wallon كلمة في المؤتمر الرابع ل"إ.ع.ط.م.ج"، بصفته ممثلا عن "إ.و.ط.ف"، ولقد تناول الكلمة في ذلك المؤتمر للتعبير عن أسفه على فشل مفاوضات Melun وللتأكيد على أمله في قيام تعاون مستقبلي بين فرنسا والجزائر. غير "إ.و.ط.ف" رفض تبنِّي مواقف "إ.ع.ط.م.ج." وندَّد بمن دعوا إلى العصيان وإلى إعانة جبهة التحرير الوطني ومنهم نائب الرئيس،Gilbert Barbier، الذين تجمعوا في منظمة "المقاومة الشابة" بدعم من فدرالية فرنسا ومع ذلك أصرّ الاتحاد الوطني على تبنِّي المبادرات الداعية إلى التفاوض من أجل إحلال السلام ومن ذلك قيام مظاهرات 27 أكتوبر 1960 والتجمع النقابي (بين "إ.و.ط.ف" و فدرالية التربية الوطنية والكنفدرالية العامة للشغل والقوة العمالية وكنفدرالية فرنسا لعمال الثقافة و إ.ع.ط.م.ج. وإ.ع.ع.ج.) وذلك في 16 و 17 فيفري 1961.[14]

أثار تبنِّي تلك المواقف نوعين من ردود الأفعال: فبعد 6 جوان 1960 شكَّل المعارضون المتشدِّدون ما يُدعى "لجنة الاتصال والإعلام لطلبة فرنسا" وهي التي نددَّت بالبيان الصادر في Lausanne وكان من بين أهدافها تغييرُ الأغلبية الراهنة. في نفس الوقت استاءت الحكومة من نظرة "إ.و.ط.ف." وتقديرِه للأمور وسعيه في طريق الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. قرَّر وزير التربية الوطنية، بعد 17 جوان، توقيفَ الإعانة المالية عن "إ.و.ط.ف" وفي 18 أكتوبر علَّقت وزارة الدفاع الإرجاء من الخدمة العسكرية لنائب رئيس الاتحاد المكلَّف بالشؤون الخارجية ولكن انتخابات الدخول الجامعي أسفرت عن تدعيم موقف إدارة تتكون من "الأقلية". عبَّر

---

14. "مصادر العمل النقابي الطلابي" ص. 311-317؛ HAMO وPatrick ROTMAN: "حاملو الحقائب" Albin Michel، 1979، ص. 218-228؛ المجاهد (66) 20-6-1960؛ (67) 16-7-1960؛ (69) 8-7-1960؟ (ج. 1. ص. 137، 191 و 197-201)

المؤتمر الخمسون ل"إ.و.ط.ف"، المنعقد في Caen من 26 إلى 30 مارس 1961، عبّر عن موافقته بأغلبية عريضة على مبادرة الرئيس Gaudez وعيّن Dominique Walon خلفًا له؛ ولقد استمر هذا الأخير في انتهاج نفس سياسة التقارب مع "إ.ع.ط.م.ج"؛ وبالرغم من عودة الحكومة الفرنسية إلى التفاوض مع الحكومة الجزائرية المؤقتة إلاّ أنّ ذلك لم يمنعها من معاقبة إدارة الاتحاد الوطني. في 27 ماي وجّه وزيرُ التربية الوطنية تهديدا ل"إ.و.ط.ف" يدعوه إلى الالتزام بعدم الخوض في السياسة وإلاّ فسوف يبحث عن ناس آخرين ليتعامل معهم؛ ولكن الاتحاد تجاهل التهديد وأصدر، في 22 جوان، بيانًا مشتركا مع "إ.ع.ط.م.ج." يؤيِّد العودة إلى المفاوضات بين فرنسا والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وفق الشروط التي حدّدتها هذه الأخيرة. فور ذلك عقد معارضو السياسة الجزائرية المنتهجة من طرف "إ.و.ط.ف" تجمّعا، في 29 جوان، من أجل تأسيس "الفدرالية الوطنية لطلبة فرنسا" (ف.و.ط.ف.). وخلافا للانفصال الذي حدث في أفريل 1957، والذي تم التراجع عنه في نوفمبر 1958، فإنّ القطيعة هذه المرة كانت نهائية لأنها لم تكن تتعلق بالقضية الجزائرية فحسب وإنما بالتصوُّر العام للعمل النقابي الطلابي.[15] هكذا دفع الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا ثمن التزامه ووقوفه الجريء دفاعا عن المصالحة الفرنسية الجزائرية والذي استفاد منه "إ.ع.ط.م.ج".

## 2- في الجزائر

تقرر اللجوء إلى الإضراب عن الدراسة كردٍّ فعل ضد "الذهنية الاستعمارية" السائدة في جامعة الجزائر؛ ومع ذلك فقد سجّل 250 طالبـ أنفسهم للدخول الجامعي 1956–1957 وتزايد عددهم تدريجيا من سنة

15. مصادر العمل النقابي الطلابي، ص 337-356؛ أنظر جامعة وهران (7) فيفري 1961 و المعهد (79) 15-04-61 و (82) 25-6-1961 (ج. 3 ص. 456-457 و 517).

لأخرى: 392 طالبا سنة 57-58 و512 طالبا سنة 58-59 و814 طالبا سنة 59-60: فلقد تمَّ تجاوزُ العدد الأصلي للطلاب الذين كانوا متواجدين في الجامعة قبل ذات الإضراب وهذا حسب الإحصائيات الفرنسية.

اضطر "إ.ع.ط.م.ج" إلى الاعتراف بذلك الواقع ولكنه نفى أن يكون بذلك الحجم الكبير؛ وفي هذا الصَّدد صرَّح رئيسُه، آيت شعلال، أثناء المؤتمر الرابع بما يلي:

"الواقع أنَّ الاتصال بالجزائر قد انقطع طيلة السنوات الأخيرة باستثناء بعض العلاقات الشخصية والظرفية ولم يرجع الطلاب إلى الجامعة إلاَّ في السنة الماضية فقط ولا يخفى عنَّا بأنَّ معظم أولئك الطلبة يودون الهرب من جامعة الجزائر لأنها قلعة الاستعمار المتطرِّف؛ ولكن الرَّقابة الصارمة على الخروج من الجزائر تعوقهم عن ذلك بكل تأكيد. يصعُب تقديم أرقام مضبوطة عن عدد أولئك الطلاب. تدَّعي الحكومة الفرنسية وجود 800 من الطلاب الجزائريين في جامعة الجزائر؛ ولقد تبيَّن، بعد التحقيق، بأنَّ هذا الرقم يشمل حتى الطلبة الذين يحضِّرون أنفسهم للدخول إلى كلية الحقوق وتلاميذ مراكز التكوين الإداري والدواوين الأخرى التي أنشأتها الحكومة الفرنسية. الواقع أنَّ عدد الطلبة الجزائريين لا يتجاوز 300 أو 350 طالبا ومعظمُهم يعملون كمعلمين أو مراقبين في الأقسام الداخلية" ثم اقترح آيت شعلال في خلاصة كلمته: "التفكير في سبل إعادة ربط الاتصال وإقامة نوع من التنسيق مع مجموعتنا الطلابية في الجزائر".16

إنَّ الاختلال الحاصل بين الإحصائيات الفرنسية والتقديرات الجزائرية قد استمر حتى النهاية: ففي سنوات 1960-1961 و1961-1962 ذكر الدليلُ الإحصائي للجزائر أزيدَ من 1.400 طالب مسلم في البلد بينما أشار

16. إ.ع.ط.م.ج. المؤتمر الرابع. تونس 1960 ص. 28.

"إ.ع.ط.م.ج." إلى 700 طالب فقط؛ ويعود سببُ سوء التفاهم هذا إلى الدلالة السياسية للعدد المذكور.

كانت جامعة الجزائر، بكل تأكيد، قلعةً من قلاع "الاستعمار" أو من قلاع "الوطنية" حسب تأويل كل طرف لقضية الجزائر الفرنسية؛ وكانت الأغلبية الساحقة من الأساتذة منخرطة في "الحركة الجامعية من أجل إبقاء السيطرة الفرنسية في الجزائر وهي حركة متفرعة عن لجنة العمل الجامعية (CAU) التي تأسَّست في سنة 1956 بمقتضى لائحة وقَّع عليها ألفُ مدرِّس للتنديد بما اعتبروه "خيانة" من طرف البروفيسور Mandouze. ظلَّت الجمعيةُ العامة للطلبة الجزائريين هي المنظمة الوحيدة الناطقة باسم الطلاب منذ أن غادر "إ.ع.ط.م.ج." الجامعة؛ ولقد أصبح "الليبراليون" الأوربيون واليهود في حالة من العجز لأنَّهم صاروا أقلية ولأنهم كانوا مستاءين من الإرهاب الأعمى المُسلَّط على السكان غير المسلمين دون تمييز؛ ولذلك لاذوا بالصمت تحت غطاء "عدم الممارسة السياسية".17

كانت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين في طليعة المنادين بمزيد من الحزم لقمع "التمرُّد" والإرهاب الذي كان يستهدف أماكنَ تجمُّع أعضائها وخصوصا حانات L'Otomatic و le Coq Hardi وكذا la Brasserie des Facultés. ولقد تصدت تلك الجمعية إلى الدفاع عن الجيش الفرنسي وما يلحقه من "تشويه" وندَّدت بالموقف "المعادي للوطنية" الذي تبناه الأستاذ Peyrega، عميد كلية الحقوق، وندَّدت أيضا بقيادة "إ.و.ط.ف.". عبَّرت الجمعيةُ عن استعدادها لتقديم المساعدة لإنجاح تدابير "استتباب الأمن"؛ فساهمت في عملية إحصاء البيوت القصديرية وشاركت في الخدمات الاجتماعية التي تقدمها "الفروع الإدارية الحضرية"؛ وحاولت أيضا تنوير الرأي العام الفرنسي بتقـ

17. "جامعة الجزائر" ديسمبر 1956، فيفري 1958، ديسمبر 1958.

"إ.ع.ط.م.ج." إلى 700 طالب فقط؛ ويعود سببُ سوء التفاهم هذا إلى الدلالة السياسية للعدد المذكور.

كانت جامعة الجزائر، بكل تأكيد، قلعةً من قلاع "الاستعمار" أو من قلاع "الوطنية" حسب تأويل كل طرف لقضية الجزائر الفرنسية؛ وكانت الأغلبية الساحقة من الأساتذة منخرطة في "الحركة الجامعية من أجل إبقاء السيادة الفرنسية في الجزائر" وهي حركة متفرعة عن لجنة العمل الجامعية (CAU) التي تأسَّست في سنة 1956 بمقتضى لائحة وقَّع عليها ألفُ مدرِّس للتنديد بما اعتبروه "خيانة" من طرف البروفيسور Mandouze. ظلَّت الجمعيةُ العامة للطلبة الجزائريين هي المنظمة الوحيدة الناطقة باسم الطلاب منذ أن غادر "إ.ع.ط.م.ج." الجامعة؛ ولقد أصبح "الليبراليون" الأوربيون واليهود في حالة من العجز لأنَّهم صاروا أقلية ولأنهم كانوا مستاءين من الإرهاب الأعمى المُسلَّط على السكان غير المسلمين دون تمييز؛ ولذلك لاذوا بالصمت تحت غطاء "عدم الممارسة السياسية".17

كانت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين في طليعة المنادين بمزيد من الحزم لقمع "التمرُّد" والإرهاب الذي كان يستهدف أماكنَ تجمُّع أعضائها وخصوصا حانات L'Otomatic و le Coq Hardi وكذا la Brasserie des Facultés. ولقد تصدت تلك الجمعية إلى الدفاع عن الجيش الفرنسي وما يلحقه من "تشويه" وندَّدت بالموقف "المعادي للوطنية" الذي تبناه الأستاذ Peyrega، عميد كلية الحقوق، وندَّدت أيضا بقيادة "إ.و.ط.ف.". عبَّرت الجمعيةُ عن استعدادها لتقديم المساعدة لإنجاح تدابير "استتباب الأمن"؛ فساهمت في عملية إحصاء البيوت القصديرية وشاركت في الخدمات الاجتماعية التي تقدمها "الفروع الإدارية الحضرية"؛ وحاولت أيضا تنوير الرأي العام الفرنسي بتقضية

17. "جامعة الجزائر" ديسمبر 1956، فيفري 1958، ديسمبر 1958.

حفلات الاستقبال للشباب المجندين وللطلبة القادمين إلى الجزائر في مهمات دراسية أو لمتابعة التربص ضمن "الفروع الإدارية الاجتماعية" وساندت عمل المؤيدين في جامعات فرنسا بإرسال "قوافل المصطافين الوافدين من الجزائر الفرنسية" أثناء العطل الصيفية.[18]

دفع ذلك الالتزامُ "الوطني" الجمعيةَ العامة خارج الإطار "اللاسياسي" الذي كان يدّعيه رئيسُها، Jean Gautrot، سنة 1956-1957. بعد سبتمبر 1957 انضمت الجمعية العامة إلى المنظمات الأخرى الممثلة لفرنسيي الجزائر المناهضين "للقانون الإطار" بصورة حازمة: ذلك القانون الذي لم يكن يضمن دوام السلطة الفرنسية في الجزائر. أما قرار منع المظاهرات الذي أصدره Robert Lacoste فقد وضع حداً لشعبيته وتسبب في هياج الطلبة ضده وشتمه في 11 نوفمبر 1957؛[19] وخصوصا حين ألغى قانون الإرجاء من الخدمة العسكرية الذي سنّه Jean Gautrot. أمّا خليفتُه Pierre Lagaillarde، وهو من المحامين ومن قدماء رجال المظلات، فقد جرّ الجمعية العامة في دوّامة العداء الصريح لكلٍّ من "القانون الإطار" والوزير المقيم وكذا النظام البرلماني؛[20] فهاجمت فرقُه الطلابية، المدعومة من طرف شباب مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط، مقرّ الحكومة العامة وألقوا ما فيه من ملفات عبر النوافذ في 13 ماي 1958 فأصابوا الجمهورية الرابعة إصابةً قاتلة (Jacques Roseau هو الذي هيكل التلاميذ ضمن الجمعية العامة لتلاميذ الثانوي والمتوسط في الجزائر).[21] بعد انتخاب

18. "جامعة الجزائر" ديسمبر 1956، أفريل جوان جويلية، نوفمبر 1957.

19. أنظر مقال Pierre GORINARD حول الجمعية العامة للطلاب الجزائريين، في Historia Magazine، حرب الجزائر، (243) (48) ص، 1424-1432.

20. "جامعة-الجزائر" جانفي، فيفري ومارس 1958.

21. حول "ج.ع.ت.ث.م.ج"، أنظر مقال J.P LARROUS، Historia Magazine، (243) (48)، ص، 1446-1451، لقد حلت بعد الإصطدامات الدموية لديسمبر 1960.

Lagaillarde نائبا (في نوفمبر) عوّضه مساعدُه Michel Labbé في منصب رئاسة الجمعية العامة وأبقاها كما كانت في وضعية معارضة حذرة للنظام الجديد.[22] وفي نوفمبر 1959 جرت انتخابات شديدة التنافس أسفرت عن فوز Jean Jacques Susini (طالب في الحقوق) وعضو لجنة إدارة جماعة متطرفة هي الجبهة الوطنية الفرنسية. تميّزت عهدة رئاسة Susini بأحداثٍ مأساوية مثل انفجار القنبلة التي أودت بحياة الطالب Paul Couderc، في شهر ديسمبر، فألقى ذلك الحدث غشاوة حدادٍ على الاحتفالات المخلدة للذكرى الخمسين لتأسيس جامعة الجزائر. وفي 24 جانفي 1960 حوّل Lagaillarde جامعة الجزائر إلى حصن اعتصام بينما كانت فرق الجبهة الوطنية الفرنسية تتموقع لمواجهة اللجنة الموفدة من طرف الحكومة العامة وتطلق النار على رجال الدرك مما دفعهم إلى ردٍّ فعل دموي. بعد استسلام المعتصمين أُلقي القبض على كل من Lagaillarde و Susini والبروفيسور Michaux، رئيس الحركة الجامعية، وتحت الرئاسة المؤقتة Maréchal Christian تضامنت الجمعية العامة مع قدماء مسيريها وأمرت بالإضراب يوم افتتاح جلسات محاكمتهم في 5 نوفمبر 1960. ومع ذلك فقد حاولت الجمعية العامة التخلص من الصبغة "الفاشية" التي كانت عالقة بصورتها حين ذكّرت الرأي العام الفرنسي بأنّ إلحاق الجزائر بفرنسا توجُّهٌ سياسي تقدميٌّ بمعنى الكلمة.[23]

وبنفس الإصرار، في الادّعاء، رفضت الجمعية العامة تهمةَ رعايتها للروح العنصرية؛ وكانت على نقيض ذلك تساهم في إنجاح سياسة الإدماج بكل ما أوتيت من قوة وذلك باستقبال كل الطلاب الذين تحدوهم المشاعر الوطنية الفرنسية. كانت الجمعية تفرّق بوضوح بين ما تسميه "طموحات إخوانة

22. الجزائر الجامعي جانفي وفيفري 1959.

23. الجزائر-الجامعي نوفمبر، ديسمبر 1959، جانفي وجوان 1960.

المسلمين"، الراغبين في الدراسة، وبين "الكابوس المتغطرس المُسلَّط من طرف جمعيتهم" ولقد دعتهم، خلال الدخول الجامعي لسنة 1957-1958، إلى "البرهنة على أنَّ جامعة الجزائر ليست جامعة استعمارية كما يدَّعيه "إ.ع.ط.م.ج."؛ وأكَّدت بأنها مستعدة، كما كانت دائما، لاستقبالهم بصورة أخوية على مقاعد الجامعة الفرنسية.[24]

بعد الدخول الجامعي وجدت جريدة l'Echo 'Alger مناسبةً سانحة لتلاحظ، بكل ارتياح، تواجد "العديد من الطلبة المسلمين" في الجامعة وتذكِّر بأنَّ "بعضهم قد انخرط في الجمعية العامة للطلبة الجزائريين"؛ وبالفعل حملت نشرة Alger-Universite، ابتداء من 13 ماي 1958، بعض التوقيعات لأسماء عربية وبربرية نذكر من بينها توقيع شخص يدعى "بن ناصف" وهو ينادي بتقليد منهج مصطفى كمال لكي يتحقق "انتزاعُ البلد من بين أيدي العصابات الثائرة وذلك بنشاط مستمر لا هوادة فيه" وكذا "انتزاعُ الجزائر من براثن الإسلام".[25] أما طالب آخر يدعى أحمد بن نفلة، وهو نائب في مكتب Susini، فقد وجَّه نداءا لخوض الكفاح.[26] وكان طالب ثالث، يدعى أحمد ك، يراسل أحد ضباط "الفروع الإدارية الاجتماعية" وعبَّر عن استيائه من رؤية جبهة التحرير الوطني تعيدُ تنظيم نفسها في المدن وفي جامعة الجزائر في ديسمبر 1960.[27]

---

24. نفس المصدر نوفمبر 1957.

25. نفس المرجع، جانفي وفيفري 1959، 16(L'Echo d'Alger,1959-8-17) أشار إلى تدخل طلبة مسلمين من ناحية مدنية الجزائر، ضد الدعاية التي يقوم بها "إ.ع.ط.م.ج." في المهرجان العالمي للشبيبة في Vienne

26. نفس المصدر 9 جانفي 1960

27. Pierre SAS وYves ROMANETTI، "حياة شعب ميت، مفاتيح لبلاد القبائل" منشورات1961 Scorpion.

هل يمكن أن تكون تلك الحالات القصوى، المسانِدةُ "للمتطرفين"، دليلا على وجود تيّارٍ أوسع؟ إنّ العديد من الشهادات تؤكد على وجود توجّهٍ مؤيّد للجزائر الفرنسية رغم اختلاف التأويلات. في سبتمبر 1958 التقى الجنرال Jouhaud بواحدة من الطالبات اللائي درسن في جامعة الجزائر ثم انقطعت عن الدراسة في ماي 1956 ويبدو أنها قالت "بأنّ كثيرا من الطلبة، ومنهم من كان مناضلا في صفوف جبهة التحرير، كانوا معجبين برجال المظلات وبأساليبهم في الإقناع السيكولوجي"؛ ولقد حاول الجنرال Challe الاتصال بأولئك الطلبة بواسطة أساتذتهم؛ وكان يرجو إقناعهم بأنّ المصلحة الحقيقية لبلدهم تكمن في قبول سياسة الاندماج التي تمكّنهم من تقاسم رخاء فرنسا وأوروبا: فالوطنية، في نظره، شعورٌ محترم غير أنّ العقل يعارضُه في زمن التكتُّلات القارية الكبرى. وبذلك أيضا حاول الجنرالان تفسير مجريات حلقة غريبة من الأحداث تسبَّبت فيها محاولتُهم الانقلابية في أفريل 1961؛ فيبدو أنّ ممثلين عن 400 طالب مسلم (كانوا يعتبرون حينذاك وطنيين) قد صرَّحوا لأساتذتهم، صبيحة 24 أفريل، بأنّهم على أتم الاستعداد للانخراط في الجيش الفرنسي يقينًا منهم بأنّه سوف يبقى في الجزائر؛[28] ولكن نجاح الجنرالات كان أقلّ مما كانوا يتصورون؛ ذلك أنّ تصديق مثل تلك الأقاويل يعني أنّ الناس كانوا يتمنون حدوثها ولكن موقفا من ذلك القبيل لا يمكن أن يصدر عن أناس يتّصفون حقا بالوطنية الجزائرية؛ فمصداقية تمثيليتهم إذن تظل مطروحة.

لقد تخلت السلطة، في البلد الأم، عن قضية الجزائر الفرنسية التي يبدو أنها كانت أمرا ميئوسا منه منذ جوان 1960؛ ولذا يمكن اعتبارُ ما ورد من أخبار حول تغيُّب معظم الطلبة المسلمين عن انتخابات الجمعية العامة، في

28. Edmond JOUHAUD، "يا بلدي الضائع Fayard 1969 "، ص. 97 و Maurice CHALLE" 186ثورتنا Presses de la Cité "، 1968، ص. 82.

نوفمبر 1960 وفي ديسمبر 1961، أمرًا معقولا حسب ما أوردته مختلف المصادر. بالرغم من كون آخرِ رئيس للجمعية العامة، وهو Jean Poirey، قد احتج في رسالة موجهة إلى جريد le Monde ضدَّ ذلك الادعاء قائلا: "أمَّا فيما يتعلق بإخواننا المسلمين، الذين سارع المدَّعون إلى وصفهم بأنهم جميعا أنصارٌ لجبهة التحرير الوطني، فإنَّ مشاركتهم في انتخابات اليوم جاءت كدليل قاطع على أنَّ تأكيدات مراسلكم كاذبة (...) لقد شاركوا في التصويت بأعداد كبيرة؛ وهل ينبغي أن نضيف أنَّ معظم أولئك الذين أيَّدونا قد ترجَّونا، صونا لسلامتهم، بأن لا ننشر أسماءهم في قوائم المنتخِبين وأن نؤشر على أصواتهم المعبَّر عنها بعلامة تقاطع؟ (...) ما أتعس الأيام التي يُجبر فيها المصوِّتُ لصالح فرنسا على إخفاء وجهه وحيث تجد فيها "المنظمة الديمقراطية أي جبهة التحرير الوطني" بسهولة محامين يدافعون عن علو صيتها(...)"[29]

إنه لمن الصعب التصديق بأنَّ أغلبيةً عريضة من الطلبة المسلمين ظلت مؤيدة للجزائر الفرنسية لولا أنَّ هذا الأمر يؤكده "إ.ع.ط.م.ج." نفسُه. وبعد الاستقلال أكَّدت النشرة الجديدة، الناطقة باسمه، على ما يلي: "الجميع يعلم أن تسعة أعشار الطلبة (في جامعة الجزائر) كانوا عملاء مباشرين ونشطين للاستعمار بينما ظل العُشر الباقي، وتلك نسبة كبيرة، مخدَّرًا من طرف المصالح السيكولوجية بمختلف أساليب الرشوة والخلاعة فكان يخدم، بكيفية غير مباشرة وغير واعية، نفس الاستعمار".[30] كان "إ.ع.ط.م.ج." يشبِّه "شبيبَتنا الكاذبة" بأولئك المستفيدين من التسهيلات في الالتحاق بالوظيفة العمومية والترقية التي أملتها الحكومة الفرنسية في مارس 1956 وفي أوت 1958: "نحن نتذكر أن تلك الترقية الاجتماعية، التي أرادت فرنسا تطبيقها في الجزائر، كانت تستعمل الشباب أساسا فكانت تغدق عليهم المال

29. La depeche quotidienne 13 ديسمبر 1961، ص. 11.

30. "ثورة في الجامعة" (1) نوفمبر 1962. ص. 3.

والسيارات والمناصب الإدارية لتضمن، في المقابل، موقفهم الحيادي الذي سيتحول فيما بعد إلى تجنيس (...) كان البعض، إما بدافع الطموح أو الخيانة، مستعدا للعب تلك الأدوار؛ أما البعض الآخر، ممن كانوا أكثر وعيا، فقد رفضوا ذلك".[31] كان تحليل الوضع ذاك مشفوعا برسالة من أحد القراء يهاجم فيها، بعنف منقطع النظير، الشبابَ المقلِّدين للبرجوازيين "الذين لم يتخلوا عن رفقائهم من "الأقدام السوداء" إلاَّ عندما صار هؤلاء يقتلون كلَّ من يصادفونه من الجزائريين من غير تمييز؛ وهذا بضعة أشهر فقط قبل وقف إطلاق النار". تلك "الشبيبة المتعفنة" وهي "صنف من اللقطاء القذرين التي ينبغي على الثورة الشعبية أن تخلِّص البلاد منهم؛ مثلما فعل الروس الحمر في تصفية الروس البيض؛ خلال الثورة البلشفية".[32]

يبدو أنَّ نسبةً كبيرة من الطلبة المسلمين، في جامعة الجزائر، قد أسلموا أنفسهم ما بين 1957 و 1960 وانساقوا وراء أبواق الاندماج. لكن بعض الشهادات تجعلنا نعتقد أنَّ حزب "الانتظاريين" لم يكن أقلَّ تمثيلا؛ فكان موقفُهم السلبي في صالح الجمعية العامة غير أنه موقفٌ لم يمكِّنها من الاعتماد عليهم حسب ما اعترف به أحد الشباب المتطرفين (في أكتوبر 1960) حين قال بأسلوب ساخر: "صدِّقوني! إنَّ الحلَّ الوحيد هو أن نُظهر لهم القوة؛ فتلك هي الوسيلة الأمثل لشلِّ تحركات من بقي في الجامعة".[33] كان الطلبة المسلمون لا يُفصحون عن حقيقة مشاعرهم بصورة علنية ولا يبوحون بمكنونها حتى فيما بينهم ومن باب أولى أمام الفرنسيين. لا شك في أنَّ أغلبيتهم كانت تحاول اجتناب كل التزام سياسي؛ فمواصلة الدراسة كانت بالنسبة إليهم ملاذا ضد التذبذب السياسي. وسواء كانت الجزائر مدمجة أو

31. نفس المصدر، (2) 5 ديسمبر 1962. ص 4.

32. نفس المصدر، (4) 1 مارس 1963 ص. 2.

33. ذكره Roger GOLDFARB في Afrique Action 17-10-1960

مستقلة فسوف تكون في حاجة إلى أُطرٍ من ذوي الشهادات العلمية. المؤكّد هو أنَّ الذهنية اللاسياسية أو المفرغة من السياسة كانت موجودة حسب شهادة أحد المناضلين في جبهة التحرير الوطني حين قال: "إنَّ الاعتقاد السائد عند الطلبة هو أنَّهم الإطارات الطبيعية لجزائر الغد؛ غير أنَّنا نصرُّ على التأكيد بأنَّ الطالب هو مناضلٌ قبل كل شيء وينبغي عليه أن يعيش بين أحضان شعبه."[34]

لم يتمكن تنظيمُ الجبهة من إعادة تمركزه بقوة في مدينة الجزائر إلا في سنة 1959-1960؛ ولقد انخرط فيه بعضُ الطلبة بصفة فردية. يقول توفيق في هذا الصدد: "...إنها نفسُ العزلة لدى من كنتُ معهم من قدماء الطلبة العائدين إلى الدراسة في أكتوبر 1957 فأغلبية قدماء المسئولين أو المناضلين الجادّين قد التحقوا بالجبال أو لاذوا إلى العمل السري أو انتقلوا إلى الخارج فلا يمكن مفاتحتهم في إعادة تنظيم أي شيء في مؤسسات التعليم الثانوي و المتوسط أو في الجامعة. وبالرغم من تمام اتفاقهم معنا ومع الجبهة فإنهم يترددون في الانخراط".

ويقول رضا في هذا الصدد: "بلى؛ كان علينا أن ننتظر سنة 1959-1960 كي نشرع، بصفة جدية، في إعادة تنظيم الوسط الجامعي؛ فلقد وصل حينئذ جيلٌ جديد إلى الأقسام النهائية في التعليم الثانوي أو إلى الجامعة؛ ولقد شرعنا معهم في إعادة تشكيل الأفواج الطلابية(...)".35

لم يكن يوجد هناك أيُّ تنظيم طلابي خاص، إلى غاية نوفمبر 1960، فالمجموعة الصغيرة من الطلبة المسلمين الذين كانوا يأوون في إقامة la Robertsau كان معظمهم مسجلا في المعهد العالي للدراسات الإسلامية أو في مركز التكوين الإداري فاتخذوه مركزا لنشر الأفكار الوطنية الثقافية

34. النَّفس الثاني للثورة ، المجاهد، (86) 1961 (ج 3 ص ص 612-616).

35. نفس المرجع ص. 613.

غير أنّ نشاطهم النضالي كان محدودا. كانت "اللجنة الطلابية للعمل اللائيكي والديموقراطي" (تأسّست سنة 1960) هي المنظمة الوحيدة التي تصدّت لمعارضة سياسة الجمعية العامة للطلبة الجزائريين؛ وكان هذا التجمّع الذي يضمّ ممثلي اليسار الفرنسي (الشيوعيين والاشتراكيين والحزب الاشتراكي الموحد) يؤيّد مبدأ تقرير المصير ويتبنى مواقف الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا. كان جزءٌ من أعضائه، الثلاثمائة، يتشكل من المسلمين (القبائل بالخصوص)؛[36] وهم الذين أحبطوا، في 3 نوفمبر 1960، الإضراب الذي أمرت به الجمعية العامة للطلبة الجزائريين تضامنا مع المعتقلين في المظاهرات والحواجز ولقد كلّفهم ذلك مشادّات بطولية.[37] تلك العمليات التي تحدثت عنها الصحافة كانت مثيرة حقا؛ فلأول مرة تظهر على جدران الجامعة كتاباتٌ مؤيدة للاستقلال؛ غير أنّ "اللجنة الطلابية للعمل اللائيكي والديموقراطي" أجهضت ذلك النجاح برفضها تقديم قائمة لانتخابات الجمعية العامة مما مكّن رئيسَها الجديد، Jean Charles Isselin، من أن ينفي عنها حقَّ تمثيل الطلبة بأي شكل من الأشكال [38] ونظرا للعزلة التي وقعت اللجنة فيها فإنها لم تلبث أن تخلت عن نشاطها السياسي.

حينئذ قام الأعضاء المسلمون في "اللجنة الطلابية للعمل اللائيكي والديموقراطي" بربط اتصال مع سي محمد، الذي خلف سي صالح على رأس الولاية الرابعة، فأسّسوا الفرع الجامعي لجبهة التحرير الوطني. كان حنين مولا منشّط الفرع، وهو مسئول في القسم الداخلي بثانوية **Bugeaud**، ولقد قام هذا الأخير بعمل جبار في المجال الدعائي وفي التزويد بالسلاح (من مرسيليا والجزائر إلى غاية البليدة). تأسّس فرعٌ جامعي آخر وكان على

36. Algérie Espoir ماي و 13 جويلية 1960. شهادات Antoine Blanca، ومالك صياد.
37. Algérie Espoir نوفمبر 1960؛ "المجاهد" (73) 24-11-1960.
38. Algérie Espoir نوفمبر 1960؛ "المجاهد" (73) 24-11-1960.

علاقة مع الفرع الجامعي في فرنسا و"إ.ع.ط.م.ج." وتشكَّل هذا الفرعُ، في إقامة la Robertsau، قبل انقلاب أفريل 1961 الذي دفع المظليين وأعضاء المنظمة السرية إلى اقتحام المقرّ. يبدو أنّ الفرعين الجامعين قد اندمجا، بعد ماي 1961، بأمرٍ من سي محمد[39] ولقد نجا أهم المناضلين في الفرع الجديد (في الوقت المناسب) من الوقوع في الأسر أثناء عملية اغتيال هذا الأخير في البليدة يوم 8 ماي 1961.

أما الجمعية العامة للطلبة الجزائريين فقد تمادت في التزامها الوطني تحت إمرة رئيسيها Issekin ثم Poirey؛ ولقد أرسلت وفدًا إلى المؤتمر الخمسين للاتحاد الوطني لطلبة فرنسا للتنديد بسياسة الأغلبية ولتشجيع المعارضة[40] وتوجّهت أثناء "الانقلاب"، يوم 23 أفريل، بنداء إلى الشبيبة الجزائرية جاء فيه: "نحن جميعا مع الجيش وكلُّنا مع الجزائر الفرنسية"[41] ثم أصدرت، بعد فشل الانقلاب، أوامر للقيام بإضراب في 2 ماي احتجاجا على المصادرات وعمليات الاعتقال (ومن جملتها اعتقال أستاذين وثلاثة طلبة)[42]. التحق عددٌ كبير من أعضائها برئيسهم السابق، Susini، إلى منظمة الجيش السري ليشكلوا الكومندوس "Z" مع Dominique Zattara و Sarradet Jean.[43] انضمت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين إلى مواقف الجمعيات الوطنية الأخرى وساهمت، أثناء المفاوضات، في حملة جمع التوقيعات تحت

39. رسالة سي محمد إلى طلاب الجزائر. ملحق في أطروحة محمد تقية "الجزائر المحاربة" باريس 8، 1976، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1981.

40. Echo d'Alger :3-29 و 1-4-1961.

41. نفس المرجع 23-4-1961.

42. Le journal d'Alger 4-4-1961.

43. Anne LOESCH، "الحقيبة والتابوت" بلون 1963، و Micheline SUSINI "من شمس ومن دموع"، Robert Laffont، 1962.

شعار "أنا فرنسي" وضاعفت الأوامر بالإضراب احتجاجا ضد التدهور المتزايد للأوضاع الأمنية؛[44] ثم قامت، بعد اتفاقيات Eian، بالاحتجاج على وضع المؤسسات التعليمية، مستقبلا، بين أيدي المجلس التنفيذي الجزائري المؤقت ثم ضد حملة قوات الأمن في باب الوادي وفي شارع Isly: ولجأت السلطات، في 9 أفريل وإثر الحوادث، إلى غلق مؤسسات التعليم الثانوي وجامعة الجزائر، التي أصيبت بعطب جرّاء التفجيرات، وأصدرت الجمعية العامة للطلبة الجزائريين أمرا إلى الطلبة الجامعيين وتلاميذ الأقسام النهائية، في الثانويات، للقيام بإضراب غير محدود عن الدراسة ما عدا الامتحانات الجارية. قرّر المحافظ السامي، Christian Fouchet، بعد محاولات فاشلة لإحلال الوفاق قرّر حلّ الجمعية في 11 ماي؛ ولكن المنظمة السرية كانت تطبّق سياسة "الأرض المحروقة" فبعد هدم مقرّ إدارة جامعة الجزائر، يوم 11 أفريل، ومفتشية الأكاديمية، يوم 29، توّجت أعمالَها، يوم 7 جوان، بحرق المكتبة الجامعية.

هكذا كانت نهاية الجامعة الفرنسية في مدينة الجزائر في جو من الرعب المأساوي.[45]

يبدو أنّ الفرع الجامعي لجبهة التحرير الوطني قد فرّ من الجامعة في تلك الأثناء؛ فمنذ أشهر عديدة كان مناضلوه يسقطون تحت رصاص منظمة الجيش السري وبعد اغتيال مؤسّسِه، حنين، في 20 فيفري 1962 قرّرت الجبهة، يوم 21، القيام بإضراب غير محدود عن الدروس "إلى أن تسود في مدينة الجزائر سلطة حازمة".[46] تراجع أعضاؤها الذين لا ينتمون إلى منطقة

---

44. La depeche quotidienne 16 و 22-12-1961 و 27-1-1962؛ Le Journal d'Alger ، 15.9 و 17-2-1962

45. انظر تسلسل الأحداث في "عناوين إفريقيا الشمالية" 1962

46. Le Journal d'Alger ، 21 و 25-26-02-1962

الجزائر نحو مدن الداخل حيث قاموا بدعم المنظمات التي تضمُّ تلاميذ التعليم الثانوي؛[47] كما ساعدوا رفاقهم الشباب على التحضير للامتحانات (التي لن تتم إلا في شهر أكتوبر)؛ ثم قامت المنطقة المستقلة ذاتيا لمدينة الجزائر، التي أعاد سي عز الدين تشكيلها، بتوجيه الدعوة إلى طلبة قسم الطب لمعالجة ضحايا الجيش السري في المستشفيات السرية؛[48] وأخيرا وبعد إجراء استفتاء تقرير المصير والإعلان عن الاستقلال، وفي جو من مشاعر البهجة والانتصار، احتل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين مقرَّه في محلات الجمعية العامة للطلبة الجزائريين في 10 شارع Baudin الذي تغيَّرت تسميتُه تشريفا للكولونيل عميروش.

## ب) النزوح والمنفى

كانت مهامُ "إ.ع.ط.م.ج."، في الخارج، أقلَّ عرضة للخطر وكانت جد مفيدة للقضية الجزائرية؛ فالانسحاب إلى خارج التراب الفرنسي مغامرةٌ لم يسبق لها مثيل بالنسبة للحركة الطلابية الجزائرية وربما يصدق ذلك على الإطار الجامعي الفرنسي برمته؛ ولقد سعى الاتحاد إلى تطوير علاقاته الدولية مع المنظمات الطلابية الأخرى ولقد استعمل، بعد صدور قرار حلِّه، كلَّ ما لديه من رصيد المودَّة والتضامن الفعَّال لتوزيع أكبر عدد ممكن من أعضائه في الجامعات الأجنبية وللحصول على المنح الدراسية. وفي هذا الصدد ورد في تقرير الرئيس آيت شعلال ما يلي: "إنَّ منظمتنا التي وُلدت في أحلك ظروف الحرب، داخل تراب العدو والتزمت بخوض الكفاح التحرري مُعرِّضة نفسها للقمع الاستعماري، قد اضطرت إلى حماية نفسها بلباس واق

47. أنظر "رسالة سي محمد" و"أمر القيام بمهمة للأخ فراج محمد" بتاريخ 25-5-1962 ملحق لأطروحة السيد تاقية.
48. عز الدين "يسموننا فلاقة" ص. 332-333؛ و "الجزائر لم تحترق" Stock 1980.

يمكّنها من مقاومة العدو؛ ولقد أدركنا، منذ الشهور الأولى لميلاد اتحادنا، أنّ انضمامنا إلى الحركة الطلابية العالمية ضرورة حيوية"؛[49] فالاحتجاجات التي تعالت ضدنا وحركة التضامن التي أحدثها قرارُ حل "إ.ع.ط.م.ج." أثبتت سلامةَ الاستراتيجية التي انتهجناها.

تحرّك الاتحاد الطلابي، على الصعيد الدولي، وفق مبادئ عامة ترمي كلها إلى تحقيق أهداف محدّدة: فالمبدأ الأساسي هو الالتزام بمناهضة الاستعمار؛ ولقد تمكّن اتحادنا "وفق هذا المبدأ من ربط العلاقات مع مجمل المنظمات الطلابية الوطنية والدولية ومع حركات الشبيبة في العالم تقريبا. ووفق هذا المبدأ، أيضا، رفض اتحادُنا ربطَ أية علاقة مع المنظمات التي ليست لها مواقف واضحة من مشروعية الكفاح التحرري الوطني ومن الحق الطبيعي للشعوب في تولّي شؤونها بنفسها".[50] هذا المقياس الحاسم يبرر انقطاع العلاقات الرسمية مع الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا من ديسمبر 1956 إلى جوان 1960.

وأمّا المبدأُ، الثاني، فهو عدم الانحياز الذي أملته ضرورة تجنيب الاتحاد الخوض في معارك خارجة عن القضية الجزائرية أو مُضرَّة بمصالحها: "لقد امتنعنا، دوما، عن التصرُّف وفق اعتبارات مذهبية منبثقة من الانتماء الطائفي أو على أساس التكتل(...) لقد رفضنا الخوض في الجدل والنزاعات المذهبية التي تمزّق صفوف العالم الطلابي لأنّ تلك المهاترات لم تكن لتفيد قضيتنا في شيء".[51] إنّ العقبة الكبرى التي تهدِّدنا هي انقسام الحركة الطلابية الدولية بين منظمتين متنافستين هما: "الاتحاد الدولي الطلابي"، الذي كان مقرُّه في مدينة Prague من جهة و"الندوة الدولية للطلبة" التي كانت "أمانتها التنسيقيه" في مدينة Leyde من جهة أخرى. لم تلبث المنظمة

49. التقرير الأدبي للرئيس أيت شعلال، "إ.ع.ط.م.ج. المؤتمر الرابع"، تونس، 1960، ص. 32.

50. نفس المصدر.

51. نفس المصدر.

الأولى، التي تأسست سنة 1946 في غمرة الحماس الذي أعقب الحرب، لم تلبث أن ظهرت بعد سنة 1948 كمكوك يدور في فلك السياسة السوفيتية ولم تلبث الاتحاديات الطلابية في الدول الغربية أن غادرتها لتأسيس تجمّع مستقل في ديسمبر سنة 1950؛ وكانت المنظمتان تتنافسان في مناهضتهما للاستعمار من أجل استمالة طلبة آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.[52] اختار "إ.ع.ط.م.ج." انتهاج سياسة الحضور الدولي المكثف والمتوازن وساهم في الندوة الأفرو – آسيوية للطلاب التي انعقدت، بصفة رمزية، في Bandung، 30 ماي 7 جوان 1958، ثم انضم إلى الاتحاد الدولي للطلبة، كعضو شريك، بعد مؤتمر Prague، 26 أوت– 2 سبتمبر 1956،[53] وحصل على الاعتراف به كاتحاد وطني من طرف اللجنة الدولية للطلبة المجتمعة في Colombo، من 11 إلى 21 سبتمبر، وذلك بالرغم من المعارضة الشديدة من طرف الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا وعدة منظمات طلابية من أوروبا الغربية. إنّه لمن باب الإطناب أن نتعرض، هنا، لذكر جميع اللقاءات التي تمت في الشرق وفي الغرب وفي العالم الثالث وساهم فيها الطلبة الجزائريون؛[54] ولقد تميّز الطلاب الجزائريون في تلك اللقاءات بنشاطهم الدءوب "في الاتجاه الذي الأنسب لتحقيق التعاون وتوحيد الحركة الطلابية وللمحافظة على السلم في العالم ولاستتباب عهد جديد من الحرية والتقدم لفائدة كل شعوب العالم في جو من الاحترام والصداقة".[55] هكذا كان الحياد الإيجابي ل"إ.ع.ط.م.ج." يهدف إلى إحلال الوفاق في العالم الطلابي من أجل تحقيق أكبر قدر من المساندة للقضية الجزائرية التي هي جزء لا يتجزأ من كفاحه.

52. أنظر François BUY " الطلبة حسب القديس ماركس"؛ العمل الطلابي ضد القمع؛ "الخمسة عشر سنة الأولى للجنة الطلابية الدولية"؛ الجزائر الجامعي فيفري 1954 وماي 1955؛ "مصادر العمل النقابي.

53. "العمل" 31-12-1956

54. أنظر "كفاح الطلبة الجزائريون" تونس؛ 1960 والأخبار التي أوردتها جريدة "المجاهد".

55. أيت شعلال التقرير المذكور.

كانت الندوات الأفريقية التي انعقدت بصورة ارتجالية في 1958 وفي 1959 مخيبة للأمل؛ ولم يكن اجتماع الطلبة العرب أكثر نجاحا بالرغم من المحاولات العديدة المبذولة منذ 1957 وذلك لعدم وجود منظمات طلابية مهيكلة في بلدان المشرق. يتمثّل النجاح الوحيد في انعقاد الندوة الشمال – إفريقية للطلبة وهي التي اقترحها الاتحاد العام للطلبة التونسيين، في شهر جويلية 1953، فلقد تم تأسيسها في ندوة إيفران عقب تأسيس الاتحاد الوطني للطلاب المغاربة يوم 1 جانفي 1957؛ وبعد انقضاء سنة انعقد المؤتمر التأسيسي للندوة الشمال – إفريقية للطلبة في تونس، من 31 ديسمبر 1957 إلى 2 جانفي 1958، حيث قدم دعما غير مشروط للنشاط الدبلوماسي والمهني لـ"إ.ع.ط.م.ج".56

## 1- النشاط الدبلوماسي لاتحاد الطلاب

لم يُخفِ الاتحادُ العام للطلبة المسلمين الجزائريين كونَه "وحدة قتالية" تابعة لجبهة التحرير الوطني أكثر من كونه نقابة طلابية؛ ولقد أعلن رئيسه عن ذلك باعتزاز أثناء مؤتمره الرابع في جويلية 1960 حين قال: "إذا كان "إ.ع.ط.م.ج" وحدةً قتالية في الداخل فهو كذلك على الصعيد الدولي. إنّ هدفنا الأول هو تعزيز الثورة الجزائرية والتعريف بها وإكسابها الصفة الشعبية عبر العالم وعلينا أن نضع حداً للوهم الذي ساد عهودا طويلة حول "المهام الحضارية للتواجد الاستعماري" وعلينا أن نبرز للعالم صورة شعب مكافح يُعتبر كفاحُه من أهم البطولات التي عرفها التاريخ... ينبغي لكل طلاب العالم أن يطلعوا على الجرائم المُرتكبة ضد الإنسانية، كل يوم، في الجزائر لكي يتحملوا مسؤولياتهم ويبذلوا كل طاقتهم لوضع حد للإبادة التي يذهب ضحيتها الشعب الجزائري. إنّ هدفنا واضحٌ وهو تقديم المعلومات

56. "العمل" 6-01-1958؛ "المجاهد" (18) 15-02-1958؛ (26) 4-07-1958؛ (28) 22-08-1958؛ (46)20-07-1959؛ (76) 5-01-1961؛ (85) 1-10-1961

المستفيضة عن الأوضاع المأساوية التي تطبع الواقع الجزائري وتبسيط الأمور لدى العالم الطلابي الذي لا يُحسن التمييز بين فرنسا الثقافية وفرنسا الاستعمارية وكسب المودّة إلى جانب قضيتنا العادلة والحصول على التزامات ملموسة للمجموعة الطلابية الدولية لصالح الكفاح الذي نخوضه".[57] لقد قدم حصيلة الافتخار بما تحقق من انتصارات: "إنّنا نعتقد بأنّ القضية الجزائرية، من بين كل المشاكل المطروحة للنظر في العالم الطلابي، هي إحدى النقاط النادرة التي حصلت على الإجماع؛ فلم يحدث للتضامن الدولي أن ظهر في مثل هذه الشمولية وإنّ المنظمات الطلابية الوطنية والدولية وحركات الشبيبة أضحت متفقة على التنديد بالحرب الاستعمارية الجارية في الجزائر وعلى مساندة الشعب الجزائري في كفاحه من أجل الاستقلال؛ وإلى حد اليوم لا نعلم بوجود منظمة واحدة في العالم تعارض هذه السياسة... وما كان لهذه النتيجة أن تتحقق لولا المقاومة البطولية وروح التضحية التي يتحلى بها شعبنا والتي تنتزع إعجاب العالم بفضل العمل الدعوب لكل أفراد اتحادنا الذين ما انفكوا، حيثما وُجدوا، يبذلون كل ما في وسعهم لتوضيح المعنى الحقيقي والأهداف التي يرمي إليها كفاحنا" ولقد أدركت فرنسا كل الخطورة التي يمثلها نشاط الطلبة الجزائريين عبر العالم وكانت ردودُ الأفعال العشوائية لدبلوماسيتها تؤدي إلى تزايد الصفة الشعبية لقضيتنا ومن أجل ذلك تلجأ فرنسا إلى سلاح الجزيمة؛ فبعد أن اغتالت منظمةُ "اليد الحمراء" الطالب أكلي عيسيو في Bruxelles، في مارس 1960، توعّدت محمد سحنون بالقتل وهو ممثل "إ.ع.ط.م.ج" في نيويورك.

اعترف الجنرال Challe بفعالية النشاط الخارجي للطلبة الجزائريين من غير أن يمدح أساليبهم طبعا؛ فلقد صرّح بعد الخطاب في شأن تقرير المصير، في أكتوبر 1959، قائلا: "سوف يعود المنفيّون لا محالة حتى وإن

57. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر الرابع ص. 33-35.

منعنا فرحات عباس أو نُوابَه المباشرين من الدخول. لا ينبغي أن ننسى أنّ جميع الطلبة المنتمين إلى جبهة التحرير والمتواجدين في كل بقع العالم، ومنهم عددٌ لا يستهان به خلف الستار الحديدي، سوف يعودون في النهاية ويمكن أن يكون هؤلاء أكثر خطورة من فرحات عباس ومن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية".[58]

كان الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ذخيرةً ومدرسة لتكوين إطارات الجهاز الدبلوماسي لجبهة التحرير الوطني علاوة على كون قادته المتنقلين باستمرار عبر العالم، طلبةً نقابيين وكانوا، أكثر من ذلك، يتكونون في الحقل الدبلوماسي باعتبارهم سفراء شبه رسميين فكانوا يجتازون الحدود بكيفية أقلّ لفتا للنظر من الممثلين الرّسميين للثورة الجزائرية. إنهم يتميزون عن الكبار بأسلوب أقل جدية وبالروح العفوية التي تُميِّز الشباب وتجلب إليهم مودّة الناس. كانت الفروع التي فتحوها في الجامعات الأجنبية بمثابة شبكة يسري نفوذها بشكل موازٍ ومكمِّل لنفوذ التمثيليات الدائمة للحكومة المؤقتة وخلافا لهذه الأخيرة فإنّ تلك الفروع الطلابية لم تكن تتوجه مباشرة إلى حكومات البلد المضيف وإنما كانت تحوِّل الجمعيات الطلابية المحلية إلى جماعات ضاغطة مؤيدة للقضية الجزائرية في البلدان التي لم تعترف بها بصفة رسمية.

## 2- العمل النقابي لـ"إ.ع.ط.م.ج."

كان "أ.ع.ط.م.ج" أيضا نقابةً طلابية في خدمة قضية الشعب الجزائري كما كان يخدم قضيته الخاصة أيضا؛ ومن بين الأهداف الأساسية لنشاطه الدولي العملُ على تحقيق "التغطية" للاحتماء من القمع المسلط عليه: "جميعُ الأحداث المأساوية التي أصابت اتحادنا قد تم إعلام الطلبة عنها؛ وإنّ

58. "ثورتنا" المرجع المذكور.

حملات الاعتقال في فرنسا وفضائح المحاكمات والاغتيالات الجبانة لطلبتنا ومناضلينا النقابيين وممارسة التعذيب... هذه التصرفات قد تمت إذاعتها عبر العالم وكان رد الفعل الدولي رائعا حقا. هذا التضامن العالمي الذي وجد أصدق تعبير عنه في قضية خميستي وفي إصدار الحكم بالإعدام على طالب ومحاكمة خمسة عشر طالبا بباريس بعد اغتيال الأستاذ ولد عودية وفي اغتيال عيسيو أكلي وفي قضايا أخرى أيضا فكان كل هذا سندا قويا للاتحاد؛ ولولا اتساع دائرة الضغط الحازم عبر العالم الطلابي لكان الاستعمار أكثر وحشية في ضرباته مما كان عليه".[59] كان الرئيس آيت شعلال يُمجِّد التضامن الطلابي الذي سمح بإعادة تنظيم الاتحاد وأدّى إلى إطلاق سراح مؤقت لقادته المعتقلين في 28 جانفي 1958.

لقد استفاد "إ.ع.ط.م.ج." من دعم مالي بفضل التعاطف الحاصل؛ فالنجاح الذي تحقق في الندوات الطلابية الدولية جعل الجمعيات الطلابية العالمية تستضيف قادته على حسابها الخاصّ (فيما يتعلق بمصاريف السفر) وعلى حساب الجمعيات المحلية (فيما يتعلّق بمصاريف الإقامة) وهكذا أصبح النشاط الدولي للطلبة الجزائريين يحقق تمويله الذاتي؛ وحيث أن حلّ الاتحاد قد طرح مشاكل مادية، لم يسبق لها مثيل، فلقد أضفت تلك الوضعية أهمية كبيرة على حيوية النشاط الدولي للطلبة الجزائريين من أجل الإبقاء على وجودهم. نستشفّ ذلك مما ورد في ثنايا تقرير آيت شعلال (المذكور سابقا) حين يقول: "شاهدنا كيف كان التضامن الدولي عاملا حاسما في بعث اتحادنا وإنه لمن مفارقات الأمور أن يحدث ذلك في فترة من فترات تطوُّرنا التي كُنا خلالها في تبعية شبه تامة للخارج؛ وإنّ تطوُّرنا الداخلي وثيقُ الارتباط بالنجاح الذي تحققه سياستنا الخارجية. إن المتعاملين معنا لن يمنحونا السند الملموس إلا إذا أقنعناهم بعدالة كفاحنا

59. أيت شعلال التقرير المذكور، ص. 35.

التحرّري ومشروعيته وذلك هو السبب الرئيسي للحالة التي آلت إليها أوضاعنا؛ وإنَّ مساندتهم لنا لهي التعبير الملموس عمّا يكنونه من مودّة تجاه كفاحنا السياسي؛ كما أنَّ تعزيز قوتنا الداخلية هو الذي يمكننا من توسيع دائرة نشاطنا وإشعاعنا في الخارج واستقطاب مزيد من التعاطف الذي يسمح لقضيتنا بالتقدم".[60]

قرَّر المكتب الإداري لـ"إ.ع.ط.م.ج."، بعد الإضراب مباشرة، منحَ الأولوية لتوجُّه أعضائه نحو الجامعات غير الفرنسية؛ وهكذا ظهرت فكرة أخرى مناقضة لفكرة التخلي عن الدراسة إلى أن يتحقق النّصر وتتمثل في مغادرة الطلاب تراب العدو لكي يتمكنوا من مزاولة دراستهم بكل حرية تحقيقا للفائدة المستقبلية للوطن. في تلك البداية الأولى تبرّعت دولة سويسرا بعشرين منحة دراسية وتأسَّس في مدينة Lausanne فرع "إ.ع.ط.م.ج." وأُهديت ثلاث منح دراسية أخرى في طرف مدرسة الكيمياء في جامعة Sarrebruck واستقبلت بلدانُ أوروبا الشرقية عشرة طلاب تحصلوا على منح دراسية من الاتحاد العالمي للطلبة.[61]

بعد قرار حلِّ "إ.ع.ط.م.ج" صار البحث عن المنح الدراسية ضرورة مُلحَّة أكثر من أي وقت مضى؛ فكان معظم الأعضاء في القاعدة النضالية "إ.ع.ط.م.ج" متواجدين في تراب العدو وكانوا معرَّضين للقمع البوليسي ولم يكن في إمكان المنظمة الطلابية البقاء على قيد الحياة إلا ببعث الروح في جسدها من جديد وذلك بالانتقال إلى الخارج. في تلك الأثناء حدث نزوحٌ حقيقي فاجأ القادة على حين غرَّة ولقد ورد في تقرير المؤتمر الرابع ما يلي: "بعد تزايد القمع، وما يتبعه من إهانات واعتقال وتعذيب، انطلق النزوح الحقيقي للطلبة الجزائريين من فرنسا نحو البلدان المجاورة. كان أولئك

60. نفس المصدر 34.

61. البيان المشترك "إ.ع.ط.م.ج."-"إ.ع.ط"، في فيفري 1957، ذكر في Est Ouest 15-06-1958.

الطلبة يصلون بالعشرات في وضعية إنسانية مأساوية؛ وكان الحلُّ الأسهل هو توجيههم نحو تونس أو المغرب ليلتحقوا بصفوف المهاجرين؛ فكان هذا المآل، بالنسبة لمعظمهم، يعني نهاية الدراسة ولقد اختاروا السبيل الأصعب، عن طواعية، وقرّروا النضال من أجل إعادة تأهيلهم في الجامعات الأوروبية مهما كلفهم ذلك من ثمن؛ وكان عليهم أن يجدوا الإمكانيات لتحقيق ذلك الهدف الذي يفوق إمكانياتهم المتواضعة؛ ولقد نجحوا، نسبيا، بفضل المدِّ التضامني للعالم الطلابي".[62]

فور تسريح قادة الاتحاد ولجوئهم إلى خارج التراب الفرنسي وجدوا مساندة فعلية من طرف رفاقهم التونسيين والمغاربة في "الكونفدرالية الشمال - إفريقية للطلبة" وقاموا بالرّد على أسلوب القوة الذي انتهجته الحكومة الفرنسية بالدعوة إلى تنظيم تظاهرتين للتضامن الطلابي وهما: الندوة الدولية الاستثنائية حول قرار حلّ "إ.ع.ط.م.ج." والأسبوع الدولي للتضامن مع الطلبة الجزائريين.

في 17 و18 أفريل 1958 التقت في Londres وفودٌ طلابية تمثّل 22 اتحادا وطنيا منخرطا في اللجنة الدولية للطلاب؛ ولقد صرّحت هذه الأخيرة في بيانها "بأنَّ إنهاء الحرب بالتفاوض السلمي لتحقيق استقلال الجزائر هو السبيل الوحيد لحل المشاكل المطروحة على الطلبة الجزائريين... كما ضبطت الندوة برنامج مساندة لهم... فعلى طلبة كل البلدان أن يمدّوا إخوانهم الجزائريين بالكتب والملابس والأغذية والأدوية؛ ومن جهة أخرى دُعيت مختلف الاتحاديات الوطنية لتقديم الدّعم المالي لتخصيص المنح الدراسية بواسطة الهيئة الجامعية الدولية".[63]

62. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4 ص. 27.
63. نفس المرجع. ص 23؛ "المجاهد" (23) 5-05-1958 (ج.1 ص. 456-457).

نظَّم الاتحاد الدولي للطلبة، من 24 إلى 30 ماي، أسبوعا للتضامن مع الطلبة الجزائريين وأهدى لممثليه عددا كبيرا من المنح الدراسية يُشرف على تسييرها الصندوقُ الدولي للتضامن الجامعي.

أخذت الإعانات الدولية، من سنة لأخرى، تُحدث أثرها الإيجابي في أوضاع الطلبة الجزائريين ولقد تم تقديم مئات المنح الدراسية من طرف الهيئة الجامعية الدولية ومن طرف الاتحاديات الوطنية المنخرطة في اللجنة الطلابية الدولية (الولايات المتحدة وألمانيا الفدرالية والسويد والنرويج ويوغسلافيا...الخ.) وكذا من طرف الاتحاد الدولي الطلابي (الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات الشعبية بالخصوص) ومن طرف تونس والمغرب والبلدان العربية الأخرى.

كُلِّف وزيرُ الشؤون الثقافية والاجتماعية، في الحكومة المؤقتة، بالإشراف على توزيعها وفق مقاييس عديدة منها: صلاحية شعبة الدروس المختارة والنجاح في الدراسة الجامعية وبطاقة المناضل والظروف العائلية والصحية... ونظّم "إ.ع.ط.م.ج"، بمساعدة من طرف الهلال الأحمر الجزائري، مصالحَ الخدمات الاجتماعية للطلبة اللاجئين في تونس والمغرب والمطعم الجامعي والدار الجماعية والمصلحة الصحية ومصلحة الاستقبال والتوجيه.[64]

في مقابل ذلك طلب الوزير من الطلبة المقيمين في تلك البلدان مساعدته في مهمة تقديم الدّعم للاجئين ومن بينها محاربة الأمية.[65] لم يقتصر نشاط "إ.ع.ط.م.ج." على التعليم الثانوي بل بادر، أثناء مؤتمره الرابع، إلى تغيير قوانينه الداخلية بإدراج الفئات القريبة من الجامعة لمشاركة طلبة التعليم العالي مشاكلهم الخصوصية حيث نقرأ ما يلي:

64. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4 : "كفاح الطلبة الجزائريين" وAfrique Action 10-07-1961

65. أنظر "المجاهد" (84) 25-06-1961 (ج 3. ص. 566).

"المادة 05 يعتبرون أعضاء نشطين كلٌّ من: 1) الطلبة المسجلين في الكلية بكيفية نظامية عدا أولئك الذين يُحضرون لامتحان دخول كلية القانون أو الأهلية بالعربية. 2) طلبة المدارس العليا ومعاهد التعليم العالي وطلبة مدارس التحضير للدخول إلى المدارس العليا. 3) طلبة المعاهد الإسلامية الذين يحضّرون لدرجة ثانية. 4) طلبة الأقسام النهائية في التعليم الثانوي الذين يواصلون دراستهم خارج الجزائر والذين دفعوا اشتراكهم السنوي وقبلوا بتدابير هذه القوانين.

المادة 06: يعتبرون أعضاء منخرطين كلٌّ من: 1) طلبة السنة الأولى التي تُحضّر للدخول إلى كلية الحقوق وطلبة السنة الأولى للأهلية العربية. 2) المساعدون التقنيون للصحة العمومية في الجزائر. 3) طلبة الطور الثاني من التعليم الثانوي الذين يواصلون دراستهم خارج الجزائر باستثناء التدابير المخالفة المنصوص عليها في الفقرة الرابعة. 4) الطالبات في فرع التمريض. 5) إنَّ طلبة المدارس الخاصة غير الحاصلين على الصفة الجامعية سوف يستفيدون من كل الامتيازات الممنوحة من طرف الاتحاد العام إلى أعضائه النشطين عندما يسدّدون مبلغ الاشتراك ويكون تصويت هؤلاء استشاريا.[66]

في جويلية 1961 نشرت صحيفة أسبوعيةٌ تونسية مقالا ثريا بالمعلومات حول تكوين الإطارات المستقبلية للجزائر؛[67] وتضمّن المقال جدول توزيع المنح من طرف الاتحاد حسب البلدان والاختصاص والمستوى الدراسي. بلغ المجموع العام 1.882 طالبا منهم 987 طالبا في التعليم الثانوي و847 في التعليم العالي. تمّ تجميع طلبة التعليم الثانوي في الدول العربية وبالأخص في

66. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4. هذا التعريف المفتوح، يمكن من تضخيم عدد "الطلبة" في المهجر، ردا على الإحصائيات الفرنسية.

67. "الجزائر السنة الصفر". Afrique Action 10-07-1961

تونس والمغرب وخصوصا ما تعلق بالتعليم العالي: 406 طالبا مقابل 264 في الغرب و234 في الشرق؛[68] لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار صلاحية الشُّعب الدراسية للتطور المستقبلي للجزائر فإن ترتيب الأهمية سوف يتغير؛ ففي الجامعات العربية كانت معظم الشُّعب الدراسية هي الشعب الأدبية (240 طالبا) ثم الشعب القانونية (120 طالبا) من بين 406 طالبا؛ أما في البلدان الغربية فكانت الدراسات الطبية والصيدلانية تحتل الصدارة؛ وفي الدول الاشتراكية فإن مدارس تكوين المهندسين كانت تستقبل الأغلبية الساحقة من الطلبة الجزائريين (129 من بين 234) كانت هذه الأخيرة تتولى تكوين أغلبية الطلبة المهندسين الذين يدرسون خارج فرنسا والجزائر (129 من بين 196 أما البقية ما عدا طالبين اثنين فيدرسون في البلدان الغربية).

كان كلٌّ من "إ.ع.ط.م.ج." ووزارة الشؤون الاجتماعية والثقافية يدعّمان، عن قصد، ذلك التوجُّه التقني والعلمي في الدراسة من أجل تعديل التوجُّه الكلاسيكي نحو المهن الحرة (الحقوق والطب والصيدلة) وهي الثلاثية التي كانت تستهوي الكثير من الجزائريين قبل اندلاع الثورة؛ فلم يعد الأمر متعلّقا الآن بالتكيّف مع الأوضاع التي فرضها الاستعمار بل حان وقت الإعداد للجزائر المستقلة. عبّر فرحات عباس، في خطابه أثناء المؤتمر الرابع، عن شكره لرفاقه الشباب الذين تحلّوا بروح المبادرة قائلا: "ها أنتم قد تمكنتم من تحطيم أسطورة بالية؛ فلا يمرُّ يومٌ إلا ويقدم لنا براهين ملموسة عن هذه الحقيقة التي لا نقاش فيها فلا وجود لجنس متفوِّق وجنس منحطّ. لقد تمكّنت الثورة الجزائرية، في مدة ستّ سنوات، من أن تكوِّن من بينكم عددا من التقنيين يفوق العدد الذي كوَّنه الاستعمار طيلة 130 سنة من الاحتلال: فيجب أن نقول هذا وأن نردده. إنَّ غلق أبواب المدارس العليا والتقنية في

68. حسب JeuneAfrique 25-12-1961 إلى 9-03-1962، فإن عددهم قد انتقل في السنة الموالية (1961-1962) إلى 274 في الغرب و 296 في الشرق.

وجه أجيال من الجزائريين ثم اتهام شعبنا بالقصور في التحصيل، في مجال العلوم الدقيقة، واحدة من بين العديد من حيل التزوير التي سعى الاستعمار إلى رعايتها وتطويرها".[69] لم يكن بعض المناضلين في الاتحاد يتهمون الاستعمار وحده في قضية توجّه أسلافهم نحو المهن الحرة؛ فلقد كان الأسلاف يجدون فيها ملامح الروح البرجوازية والأنانية الاجتماعية.[70] لم يكن "إ.ع.ط.م.ج" يقصر نشاطَه على خدمة قضية الاستقلال بل كان عليه واجب المساهمة في التحويل الثوري للمجتمع الجزائري المحرّر من النير الاستعماري.

### 3- تطور الهيكلة الداخلية ل "إ.ع.ط.م.ج"

كان الطلبة الجزائريون مشتّتين عبر أقطار العالم ولقد أثّر ذلك الواقع على الهيكل التنظيمي ل"إ.ع.ط.م.ج" وعلى تسييره فلم يتمكن المؤتمر، المكلَّفُ سنويا بانتخاب مكتب التسيير، من الاجتماع مدةً تزيد عن سنتين فحدثت، نتيجة لذلك، هُوَّةٌ ما فتئت تتسع بين المسيِّرين الذين كانوا في تنقل دائم عبر العالم وبين الطلاب المستفيدين من خدمات الاتحاد الطلابي دون اطّلاعهم، بصفة منتظمة، على مجريات الأمور. برز في المؤتمر الرابع، المنعقد بتونس من 16 جويلية إلى 1 أوت 1960، تيّارٌ مُعارض يمثِّله الفرعُ الجامعي لفدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا؛ ولقد آخذ ذلك التيّارُ الهيئةَ المديرة على انتهاجها أساليب بيروقراطية عرّضت الطلبة إلى خطر الابتعاد عن الشأن السياسي. واعترف آيت شعلال في تقرير الأدبي بأنّ فريقه اضطُر إلى التضحية بالحياة الداخلية للاتحاد لضرورة العمل

---

69. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4.

70. "الثورة في الجامعة" (3) 15-01-1963، ص. 3. كان Michel Launay يعمم تطبيق ذلك التحليل القاسي على معظم الطلبة الجزائريين : "لقد علمت من مصدر موثوق، أن من بين 480 طالبا استفادوا من المنح التي قدمتها الحكومة المؤقتة، 5 منهم قد نجح في الامتحان المحضر" ("فلاحون جزائريون Seuil Le، 1963 ص. 381) قام السيد أيت شعلال بتكذيب ذلك.

الخارجي المفروض عليه وأضاف بأنّ سير الأمور قد حوّل الاتحاد إلى مجرد "مصلحة إدارية بدون هيكل إداري";[71] ولم يكن انعدام الاتصال بين القمة والقاعدة أُحادي الجانب فاللجنة الإدارية نفسُها قد اشتكت من عدم اطّلاعها على نشاط بعض الفروع بل وصلت إلى حدّ الاستياء من بعض حالات "النشاط الانفرادي" من طرف بعض "القنّاصة المنعزلين" خارج إطار "إ.ع.ط.م.ج" أما القضية الأخطر فتعلقت بالمستفيدين من المنح في جمهورية ألمانيا الديمقراطية الذين انساقوا، وراء إغراء مضيِّفيهم، إلى حد الانخراط في الحزب الشيوعي ومحاولة التأثير، إيديولوجيا، على بعض رفاقهم الجزائريين؛ وحين استُدعي هؤلاء إلى تونس فرفضوا تلبية الدعوة وافق المؤتمر على العقوبة المقرّرة ضدهم وندد "بنشاطهم الانفرادي".[72] عبّر المؤتمر عن عرفانه بالجميل للفريق المُسيِّر السابق وذلك بإعادة انتخاب السيد آيت شعلال على رأس المكتب الجديد وكانت المهمة المستعجلة هي ضبطُ الأمور الداخلية للمنظمة وكان تعديلُ القوانين الأساسية أوّل الخطوات في هذا الاتجاه.

كلما اقتربت الحرب من نهايتها زاد ميلُ الطلبة أكثر إلى عدم الاكتفاء بالدراسة في انتظار الاستقلال؛ فبرز من بينهم تيّارٌ يريد المساهمة في طرح الخيارات السياسية والتقنية الكبرى وذات الأثر الحاسم في التوجُّه المستقبلي للوطن. كان الفرع الجامعي لفدرالية جبهة التحرير بفرنسا وفرعُ "إ.ع.ط.م.ج" في سويسرا على رأس هذه الحركة؛ وفي ديسمبر 1961 أسفر اجتماع المكتب الإداري الموسع عن تعيين لجنة وطنية مكلفة بالتحضير للمؤتمر الخامس خلَفًا للجنة التنفيذية المنتخَبة؛ وكُلِّفت ذاتُ اللجنة بتحضير القوانين الأساسية الجديدة لتُعرض على المؤتمر. اتخذ التنظيم الطلابي

71. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4 ص. 29

72. ن.م.ص. 66 وص. 71-72؛ انظر عرض الحال عن المهمة التي تمت إلى ج.أ.د من طرف السيد آيت شعلال، في محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية" "جون أفريك" 1981، ص. 497-500

تسميةً جديدة هي اللجنة الجامعية لجبهة التحرير (دون أن يتخلى عن تسمية "إ.ع.ط.م.ج") وأصبحت هياكله الإدارية الجديدة مطالَبة بالتوافق مع هياكل الحزب الثوري الطلائعي الذي تقول جبهة التحرير إنّها قد تحولت إليه من أجل قيادة جزائر الاستقلال في النهج الاشتراكي. انعقدت ندوةٌ وطنية تحضيرية للمؤتمر الخامس في مدينة Cologne، في أفريل 1962، غير أنّ أزمة جبهة التحرير الوطني إثر اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس (في شهر جوان) أجهض تلك المحاولة. كان شرخُ الانقسام بين الطلبة عميقا أثناء أزمة الصيف ومردُّ ذلك، جزئيا، إلى انتماءاتهم الجغرافية. لم يتمكن المؤتمر الخامس الذي انعقد في بن عكنون، من 5 إلى 15 سبتمبر، من اتخاذ أي قرار فتحوّل إلى مجرد "ندوة تحضيرية للمؤتمر" وانتهى، في 19 سبتمبر، بتعيين لجنة إدارية مؤقتة مكلفة بتحضير المؤتمر الحقيقي وبتسيير شؤون الاتحاد إلى غاية انعقاده. بعد أطوار أخرى تمكن المؤتمر الخامس من عقد جلساته (أوت 1963) وأسّس الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين "إ.و.ط.ج"[73].

## ج) إدماج الطلبة وترقيتهم

كان "إ.ع.ط.م.ج"، كشأن الجمعيات الطلابية السابقة، بمثابة مدرسة لتكوين إطارات الحركة الوطنية؛ فبعد سنة 1955 تمّ تجنيد مسيِّريه الأساسيين في صفوف جبهة التحرير وبعد أن أثبتوا جدارتهم هناك صاروا مسئولين دائمين فيه؛ وتجسّدت تلك الترقية السريعة بعد شهر مارس 1956 في شخص أحمد طالب، رئيس الاتحاد، الذي غادره أثناء المؤتمر الثاني للدخول في لجنة فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني.

73. زهير فارس: "المواضيع، الأفكار السياسية، والنشاط النقابي الطلابي الجزائري"، شهادة دراسات عليا، في العلوم السياسية باريس، 1966، ص 72-74 و 86-97؛ و "ثورة في الجامعة" (1) 1-11-1962، ص. 2

عجَّل إضراب ماي 1956 بإدماج الطلبة المناضلين في جبهة وجيش التحرير الوطني وبالأخص في مدينة الجزائر فانتقل مكتبُ فرع "إ.ع.ط.م.ج" بمنطقة الجزائر إلى العمل السري التام وتفرَّق أعضاؤه بين المنظمات الحضرية والجبال والخارج؛ وبعد سبتمبر 1956 تم تعيين رئيس الاتحاد، محمد الصادق بن يحي، عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية وممثلا لجبهة التحرير الوطني في جنوب شرق آسيا. أما في فرنسا فقد احتفظ مسيرو الاتحاد على انتمائهم المزدوج إلى غاية صدور قرار الحلّ، في جانفي 1958، ثم واصلوا نشاطهم بشكل موازٍ لدبلوماسية الحكومة المؤقتة بعد انسحابهم إلى الخارج.

كان الأعضاء المنتخَبون يدمجون في الجهاز الخارجي لجبهة التحرير إثر كل تجديد يطال الجنة التنفيذية للاتحاد. ويبدو أنَّ فدرالية فرنسا قد وفرت فرصا أقل لترقية مناضليها في الفرع الجامعي. حدث ذلك قبل أن يتمكن هذا الأخير من الاستيلاء على قيادة "إ.ع.ط.م.ج" في ديسمبر 1961.

كانت كل ترقية في الهيئات المسيرة للثورة، منذ سنة 1957، تتضمن الانتقال إلى الخارج حيثُ مقر السلطة السياسية والعسكرية. وبعد أن اضطرت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى الفرار من القمع الذي انصب على المنطقة المستقلة ذاتيا بمدينة الجزائر تمركزت في تونس (جوان 1957). انعقد المجلس الوطني للثورة الجزائرية، لأول مرة، في القاهرة (أوت 1957) وبادر، في شهر سبتمبر، إلى تعيين لجنة تنسيق وتنفيذ جديدة. قامت هذه الأخيرة (أفريل 1958) بتنظيم القطاعات الوزارية قبل أن تتوسع لتشكل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي تم الإعلان عنها في القاهرة (19 سبتمبر). انبثق عن تلك الحكومة إدارةٌ موزَّعة بين تونس والقاهرة والرباط وطرابلس وكذا حركةٌ دبلوماسية اجتهدت في فرض وجودها في كل مكان.

أنشأ جيش التحرير الوطني، ابتداء من 1956، قواعد للعتاد في كل من تونس والمغرب وقواعد لتدريب قوات الداخل وضعتها لجنة التنسيق والتنفيذ

(أفريل 1958) تحت إمرة قيادتين للعمليات العسكرية قبل تعويضهما (سنة 1960) بقيادة أركان عامة موحَّدَة تحت سلطة الكولونيل بومدين. حوَّل هذا الأخير تلك الجموع المجنَّدة من مختلف الولايات، والتي حالت الحواجز المكهربة على الحدود دون دخولها الجزائر، حوَّلها إلى جيش جيِّد التجهيز والتدريب والتكوين السياسي.

بعد قرار حلِّ "إ.ع.ط.م.ج" (جانفي 1958) وحلِّ "إ.ع.ع.ج." و"ج.ع.ت.ج (أوت)؛ فإن فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، التي أصبحت محرومة من المؤسسات التي توفِّر لها التغطية القانونية، قد اضطرت إلى تحويل مقرِّ لجنتها الفدرالية إلى مدينة Dusseldorf. كانت هذه اللجنة تعمل في صلة وثيقة مع التمثيلية العامة في أوروبا والتي اتخذت مدينة Bonn مقرًا لها. وهكذا لم تكن حياة المنفى المفروضة على "إ.ع.ط.م.ج" أمرًا شاذًا عن القاعدة العامة.

كان المحاربون في الجبهة الداخلية، عند قدومهم بحثا عن الأسلحة والمدد أو لحضور دورات المجلس الوطني للثورة الجزائرية، يشعرون بانقباض نفسي عميق عندما يلمسون ظروف الراحة والأمن التي يعيشها قادتُهم؛ فالبعض منهم، أمثال عميروش، سنة 1957، أو سي صالح، سنة 1958، قد استعجلوا العودة إلى ولاياتهم؛ وكان آخرون يتوافقون مع ذلك الوضع ويمكثون هناك. عندما صار قادة الداخل لا يحصلون على السلاح والإمداد والإطارات، ابتداء من 1958، فقد أحسُّوا بأنَّ القيادة في الخارج قد تخلَّت عنهم. زرعت الدعاية الفرنسية البلبلة والضَّغائن ضد "ثوار الفنادق الفخمة". إنَّ المعنيين بذلك ليسوا فقط "سياسيين" يتحدثون باسم المحاربين دون أن يقاسموهم المخاطر ولكنهم أيضا كولونيلات هجروا الجبال وتحولوا إلى وزراء أو ضباط أركان. كان الداخل هو "جبهة" هذه الحرب التي صارت بدون جبهة وصار الخارج بمثابة المؤخرة. فمن جهة

كانت هناك الفئات التي تمت التضحية بها ومن جهة أخرى كان أولئك الذين وجدوا "المأوى" في انتظار الاستفادة من مزايا الاستقلال.

إنَّ آلاف المهاجرين، من المستوزِرين كانوا مكدَّسين في المحتشدات قرب الحدود ولم يكونوا من زمرة المحظوظين. لكن نوعية أخرى من المهاجرين، وهي أكثر حظوة، كانت تدور في فلك الحكومة المؤقتة وهياكلها الإدارية وكانت تلتمس أية وظيفة لتشغل نفسها أو توهمها بأنها تشارك في المعركة عن طريق التعليق على الأحداث في انتظار الاستقلال.

تحدَّثت آسيا جبار في روايتها الجميلة "الطيور الساذجة" بلباقة عن ذلك العالم الصغير من "فرنسيي لندن" الذي عرفته في تونس حين تقول: "ليس في تلك المدينة سوى خيالات الظلّ (...) ممثلون كان في الإمكان أن يلعبوا بمهارة في الفصل الأول ولكنهم قرروا أنَّ دورهم قد انتهى؛ فتراهم، منذ ذلك هائمين في دروب الكواليس. بعضهم (...) كانوا يحاولون جهدهم ولكن المسرحية تواصلت بدونهم".[74]

كان للمناضلين الدائمين في "إ.ع.ط.م.ج" حظُّ الانتماء إلى صنف "الإخوة المتنقلين" فكانوا يتدربون في كواليس الدبلوماسية في مختلف العواصم (...) أولئك الذين نشاهدهم في مقهى المحاربين يتحولون إلى مركز استقطاب في طاولة تضم 10 أو 15 مواطنا ينتظرون، بكل عفوية، أن يُباح لهم ببعض الأسرار وكأنَّ الأهمّ لا يتمثل في أخبار التقتيل الجماعي وسجون الداخل بل في إظهار البراعة في النفاذ إلى خبايا سياسة التوازن الدولي".[75]

إنَّ تجنيد العالم بأكمله كقوة ضاغطة ضد السياسة الفرنسية، في الحرب العجيبة الدائرة رحاها بالجزائر، لم تكن بأقل ضرورة لكسب النصر من المقاومة اليائسة لجيش التحرير في الداخل؛ فأصحاب المنح الدراسية

74. "الطيور الساذجة" Juliard 1967، ص. 221

75. نفس المصدر 262.

الذين تم إيفادهم إلى الخارج، كانوا يشعرون أيضا بالرضا عن مساهمتهم المتواضعة مع مواصلة الدراسة أملا في خدمة الوطن؛ وكثيرا ما يحدث أن نشاهد في أحد المقاهي "مجموعة من الطلبة تنتظر موعد انطلاقها كلٌّ إلى ناحية من العالم: الشرقي والغربي لكي لا ينقطع خيط التوازن الدبلوماسي المشهور. إنَّهم يتحدثون عن "البومة"، وهو أحد القادة الذين يشغلون الساحة هذه الأيام ويتحدثون عن الخط المكهرب وعن الأسلحة التي يُنتظر وُصولها وعن العمال القادمين يوميا من أوروبا (...) في تونس لا نعرف شيئا غير الانتظار فرادى وليس الغدو والرواح الجماعي. الشرق، الغرب، الخط المكهرب، الحدود، التحرك ما أكثر التحرك!"[76]

بالرغم من تلك الإثارة الدائمة فإن الطلبة بدورهم كانوا يعيشون في انتظار الاستقلال لأنَّ طموحاتهم لا يمكن أن تتحقق سوى في المستقبل. إنَّ قدَرَهم، باعتبارهم إطارات الجزائر المحررة، أن يشغلوا المناصب التي انتزعها إخوانُهم المحاربون بدفع حياتهم ثمنا كما توقَّع الكولونيل عميروش ولكن من ينعم بامتياز، مثل ذلك، لا يمكن له أن يتبجح به من غير أن يُصاب بأزمة ضمير: فالنضال في صفوف "إ.ع.ط.م.ج" والانخراط في منظمة جبهة وجيش التحرير الوطني يُشكِّل في نظرهم أفضلَ وسيلة لتبرير ترقيتهم إلى أوضاع يُغبطون عليها؛ ومن المفارقات أن الترقية في سلَّم القيادة المدنية أو العسكرية لا يمكن سوى أن تبعدهم عن الخطر.

## 1- في جبهة التحرير الوطني

تأجَّلت ترقية الطلبة لتحمُّل مسؤوليات سياسية لاعتبارين اثنين: أولهما هو احتراس مفجِّري الثورة من "السياسويين" فهم لا يميِّزون بينهم وبين خريجي الجامعات الفرنسية. فالقادة "التاريخيون" التسعة كانوا، قبل كل

76. نفس المصدر 261 أنظر: شهادة "Noel FAVRELIERE"، "الهارب" نشرة خاصة، 1972، حول حياة الطلبة الجزائريين في تونس، في نيويورك. (ص. 193-220) وفي Ljubljana (ص. 221-238)

الذين تم إيفادهم إلى الخارج، كانوا يشعرون أيضا بالرضا عن مساهمتهم المتواضعة مع مواصلة الدراسة أملا في خدمة الوطن؛ وكثيرا ما يحدث أن نشاهد في أحد المقاهي "مجموعة من الطلبة تنتظر موعد انطلاقها كلٌّ إلى ناحية من العالم: الشرقي والغربي لكي لا ينقطع خيط التوازن الدبلوماسي المشهور. إنَّهم يتحدثون عن "البومة"، وهو أحد القادة الذين يشغلون الساحة هذه الأيام ويتحدثون عن الخط المكهرب وعن الأسلحة التي يُنتظر وُصولها وعن العمال القادمين يوميا من أوروبا (...) في تونس لا نعرف شيئا غير الانتظار فرادى وليس الغدو والرواح الجماعي. الشرق، الغرب، الخط المكهرب، الحدود، التحرك ما أكثر التحرك!"[76]

بالرغم من تلك الإثارة الدائمة فإن الطلبة بدورهم كانوا يعيشون في انتظار الاستقلال لأنَّ طموحاتهم لا يمكن أن تتحقق سوى في المستقبل. إنَّ قدَرهم، باعتبارهم إطارات الجزائر المحررة، أن يشغلوا المناصب التي انتزعها إخوانُهم المحاربون بدفع حياتهم ثمنا كما توقَّع الكولونيل عميروش ولكن من ينعم بامتياز، مثل ذلك، لا يمكن له أن يتبجح به من غير أن يُصاب بأزمة ضمير: فالنضال في صفوف "إ.ع.ط.م.ج" والانخراط في منظمة جبهة وجيش التحرير الوطني يُشكِّل في نظرهم أفضلَ وسيلة لتبرير ترقيتهم إلى أوضاع يُغبطون عليها؛ ومن المفارقات أن الترقية في سُلَّم القيادة المدنية أو العسكرية لا يمكن سوى أن تبعدهم عن الخطر.

### 1- في جبهة التحرير الوطني

تأجّلت ترقية الطلبة لتحمُّل مسؤوليات سياسية لاعتبارين اثنين: أولُهما هو احتراس مفجِّري الثورة من "السياسويين" فهم لا يميِّزون بينهم وبين خرِّيجي الجامعات الفرنسية. فالقادة "التاريخيون" التسعة كانوا، قبل كل

76. نفس المصدر 261 أنظر: شهادة Noel FAVRELIERE، "الهارب" نشرة خاصة، 1972، حول حياة الطلبة الجزائريين في تونس، في نيويورك، (ص. 193-220) وفي Ljubljana (ص. 221-238)

كانت هناك الفئات التي تمت التضحية بها ومن جهة أخرى كان أولئك الذين وجدوا "المأوى" في انتظار الاستفادة من مزايا الاستقلال.

إنَّ آلاف المهاجرين، من المستوزرين كانوا مكدَّسين في المحتشدات قرب الحدود ولم يكونوا من زمرة المحظوظين. لكن نوعية أخرى من المهاجرين، وهي أكثر حظوة، كانت تدور في فلك الحكومة المؤقتة وهياكلها الإدارية وكانت تلتمس أية وظيفة لتشغل نفسها أو توهمها بأنها تشارك في المعركة عن طريق التعليق على الأحداث في انتظار الاستقلال.

تحدَّثت آسيا جبار في روايتها الجميلة "الطيور الساذجة" بلباقة عن ذلك العالم الصغير من "فرنسيي لندن" الذي عرفته في تونس حين تقول: "ليس في تلك المدينة سوى خيالات الظلّ (...) ممثلون كان في الإمكان أن يلعبوا بمهارة في الفصل الأول ولكنهم قرروا أنَّ دورهم قد انتهى؛ فتراهم، منذ ذلك هائمين في دروب الكواليس. بعضهم (...) كانوا يحاولون جهدهم ولكن المسرحية تواصلت بدونهم".[74]

كان للمناضلين الدائمين في "إ.ع.ط.م.ج" حظُّ الانتماء إلى صنف "الإخوة المتنقلين" فكانوا يتدربون في كواليس الدبلوماسية في مختلف العواصم (...) أولئك الذين نشاهدهم في مقهى المحاربين يتحولون إلى مركز استقطاب في طاولة تضم 10 أو 15 مواطنا ينتظرون، بكل عفوية، أن يُباح ببعض الأسرار وكأنَّ الأهمَّ لا يتمثل في أخبار التقتيل الجماعي وسجن الداخل بل في إظهار البراعة في النفاذ إلى خبايا سياسة التوازن الدولي".
إنَّ تجنيد العالم بأكمله كقوة ضاغطة ضد السياسة الفرنسية، في الحرب العجيبة الدائرة رحاها بالجزائر، لم تكن بأقل ضرورة لكسب النصر من المقاومة اليائسة لجيش التحرير في الداخل؛ فأصحاب المنح الدراسية

---

74. "الطيور الساذجة" Juliard 1967، ص. 221.
75. نفس المصدر 262.

الذين تم إيفادهم إلى الخارج، كانوا يشعرون أيضا بالرضا عن مساهمتهم المتواضعة مع مواصلة الدراسة أملا في خدمة الوطن؛ وكثيرا ما يحدث أن نشاهد في أحد المقاهي "مجموعة من الطلبة تنتظر موعد انطلاقها كلٌّ إلى ناحية من العالم: الشرقي والغربي لكي لا ينقطع خيط التوازن الدبلوماسي المشهور. إنَّهم يتحدثون عن "البومة"، وهو أحد القادة الذين يشغلون الساحة هذه الأيام ويتحدثون عن الخط المكهرب وعن الأسلحة التي يُنتظر وُصولها وعن العمال القادمين يوميا من أوروبا (...) في تونس لا نعرف شيئا غير الانتظار فرادى وليس الغدو والرواح الجماعي. الشرق، الغرب، الخط المكهرب، الحدود، التحرك ما أكثر التحرك("76

بالرغم من تلك الإثارة الدائمة فإن الطلبة بدورهم كانوا يعيشون في انتظار الاستقلال لأنَّ طموحاتهم لا يمكن أن تتحقق سوى في المستقبل. إنَّ قدَرَهم، باعتبارهم إطارات الجزائر المحررة، أن يشغلوا المناصب التي انتزعها إخوانُهم المحاربون بدفع حياتهم ثمنا كما توقَّع الكولونيل عميروش ولكن من ينعم بامتياز، مثل ذلك، لا يمكن له أن يتبجح به من غير أن يُصاب بأزمة ضمير: فالنضال في صفوف "إ.ع.ط.م.ج" والانخراط في منظمة جبهة وجيش التحرير الوطني يُشكِّل في نظرهم أفضلَ وسيلة لتبرير ترقيتهم إلى أوضاع يُغبطون عليها؛ ومن المفارقات أن الترقية في سُلَّم القيادة المدنية أو العسكرية لا يمكن سوى أن تبعدهم عن الخطر.

## 1- في جبهة التحرير الوطني

تأجَّلت ترقية الطلبة لتحمُّل مسؤوليات سياسية لاعتبارين اثنين: أولُهما هو احتراس مفجِّري الثورة من "السياسويين" فهم لا يميِّزون بينهم وبين خرِّيجي الجامعات الفرنسية. فالقادة "التاريخيون" التسعة كانوا، قبل كل

76. نفس المصدر 261 انظر: شهادة Noel FAVRELIERE،" "الهارب" نشرة خاصة، 1972، حول حياة الطلبة الجزائريين في تونس، في نيويورك، (ص. 193-220) وفي Ljubljana (ص. 221-238)

شيء، رجالَ حركة وعمل ولقد حضّروا أنفسهم منذ سنوات طويلة للكفاح المسلَّح في صفوف المنظمة السرية ومع ذلك لم يكونوا أميِّين ولا جهلة بل استفادوا جميعا، باستثناء العصامي محمد خيضر، من التعليم الفرنسي في المدارس الابتدائية ومن التعليم الثانوي بالنسبة للبعض. لقد سبق لهم أن عرضوا منصب قيادة جبهة التحرير الوطني على الدكتور لمين دباغين، باعتباره النمط المثالي للمثقف النشيط، غير أنهم كانوا يحذرون من السياسيين ذوي النزعة القانونية والإصلاحية وهؤلاء عموما من خريجي الجامعات الفرنسية الذين ناضلوا، بصفة خاصة، في صفوف الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري لفرحات عباس وفي اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديموقراطية التي يرأسها بن خدة؛ ونظرا للحكم عليهم بأنهم تسبّبوا في وقوع الحركة الوطنية في الورطة فكانوا يشترطون عليهم قبل الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، حلَّ أحزابهم وعدم التطاول إلى أي منصب في القيادة العليا للجبهة.[77]

لقد فتح تعيينُ عبان رمضان على رأس المنطقة المستقلة لمدينة الجزائر (ابتداء من مارس 1955) الطريقَ أمام ترقية "السياسيين" في الهيئات المسيِّرة لجبهة التحرير الوطني؛ وباعتبار عبان متحصلا على شهادة البكلوريا ورجل فكر مثلما هو رجل عمل فلقد كان يؤمن بضرورة أن يخضع الثاني لقيادة الأول؛ ولذات السبب أحاط نفسه بقيادة أركان سياسية حيث يجد حمَلَةُ الشهادات أمثال بن خدة مكانهم. ولقد تمكّن من ضمِّ جميع الأحزاب الوطنية إلى الجبهة (ما عدا الحركة الوطنية الجزائرية التابعة لمصالي وبدرجة أقل الحزب الشيوعي الجزائري). أعلن مؤتمرُ الصومام (المنعقد من 20 أوت إلى 10 سبتمبر 1956) عن أولوية "السياسي" على

77. انظر William B. QUANDT ، "Algeria Revolution and political leadership"، 1968. 1954 وأعمال السيد حربي

"العسكري" وأولوية الداخل على الخارج. ومع تخصيص أغلب المقاعد في المجلس الوطني للثورة الجزائرية لقادة الولايات ونوابهم فلقد أدمج فيه عدّة مسئولين من الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري (فرحات عباس وأحمد فرنسيس) ومن جمعية العلماء (توفيق المدني) ومن حركة انتصار الحريات الديموقراطية (من بينهم لمين دباغين وبن خدة ويزيد ومهري). كانت لجنة التنسيق والتنفيذ المتكونة من خمسة أعضاء تضم أقليةً من "السياسيين" (بن خدة وسعد دحلب) لكن "أغلبية "السياسيين" إذا أضفنا عبان وصديقيه في متوسطة البليدة، كريم وبن مهيدي، كانوا "عسكريين". ندَّد القادةُ التاريخيون في الخارج (عدا آيت أحمد) بذلك التغيير في القيادة واعتبروه شكلا من أشكال الانقلاب العسكري. ولقد آخذ بن بله، أكثر من غيره، عبان على إعادة إدخال "السياسيين" من جديد في الثورة.[78]

بعد فشل معركة الجزائر تقلّص عددُ أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ إلى أربعة، بعد وفاة بن مهيدي، وانسحبت نحو الخارج ثم أقبلت لتقديم الحسابات إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي اجتمع لأول مرة في القاهرة (من 23 أوت إلى 18 سبتمبر 1957). عيَّن المجلسُ لجنةً جديدة موسعة تشتمل على تسعة أعضاء من بينهم أغلبية من الكولونيلات (كريم وبوصوف وبن طوبال وأوعمران ومحمد شريف) وأقلية تتشكل من أربعة سياسيين ثم لم تلبث أن تقلصت إلى ثلاثة هم: عبان ولمين دباغين ومهري بعد اغتيال عبان الذي كان يبالغ في إشعار زملاءه العسكريين بتفوقه الفكري.[79] قام الأعضاء الثمانية، وفقا للمهمة الموكلة إليهم من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية (في أفريل 1958)، بإعادة تنظيم

78. QUANDT ، وحربي، أنظر أيضا.Philippe TRIPPIER ، "أنظر تشريح حرب الجزائر 1972 France Empire "، المجلدات الأربع ( Yves COURRIERE بالأخص ج 3 و 4، "ساعة الكولونيلات" و"نيران اليأس". ومذكرات فرحات عباس، تشريح حرب،Garnier ، 1980

79. أنظر عباس، تشريح حرب" ص 224-230 و لبجاوي "حقائق..." ص 151-162

القطاعات الوزارية وتبنُّوا عضوية زملاء جدد قصد تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المعلن عنها في 19 سبتمبر.

كانت الحكومة المؤقتة الأولى تهتم بالتمثيل أكثر من اهتمامها بتنسيق أمورها. كانت تضم أحد عشر وزيرا وثلاثة كُتَّاب دولة بالإضافة إلى وزراء الدولة الخمسة الشرفيين المعتقلين في فرنسا. يبدو هنا أن العسكر صاروا أقلية تتمثل في أربعة كولونيلات (كريم وبوصوف وبن طوبال ومحمد شريف) وكان عدد السياسيين أكثر. ولقد آلت الرئاسة إلى أكثرهم شهرة وهو فرحات عباس. وبالفعل، فقد تم اختيار هذا الأخير لإظهار الثورة في مظهر يبعث على الاطمئنان ومن أجل حثٍّ De gaulle على التفاوض. لم يكن دوره دورا قياديا وإنما كان من أجل التمثيل في الخارج والتنسيق داخل الحكومة المؤقتة.

كان عدد الوزراء كبيرا لا يسمح لهم بالعمل الفعَّال معا وكانوا منقسمين إلى ثلاث مجموعات فرعية حسب مؤهلاتهم التقنية وانتماءاتهم السياسية السابقة. كانت قيادة الكفاح المسلح، التي تستحوذ على الأولوية في كل شيء من نصيب الثلاثي العسكري الحاكم (كريم في شئون الحرب وبوصوف في العلاقات العامة والاتصال وبن طوبال في الشؤون الداخلية) يساعدهم في ذلك الكولونيل الرابع محمود شريف وزير التسليح والتموين. كان هذا الأخير يعمل أيضا مع وزير المالية أحمد فرنسيس وكلاهما قريب من فرحات عباس ومن قدماء الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري. ذلك الفريق السياسي المعتدل كان مكلفا بمهام تقنية وكان المُعرَّبُ أحمد توفيق المدني (الشؤون الثقافية) حلقة وصل مع مجموعة قدماء حركة انتصار الحريات الديمقراطية المتخصصين في الشئون الدبلوماسية والدعائية وهم: لمين دباغين (الشؤون الخارجية) وبن خدة (الشؤون الاجتماعية) ويزيد (الإعلام) ومهري (شؤون شمال إفريقيا). وأخيرا فإن كُتَّاب الدولة: لمين خان وعمر أوصديق ومصطفى اسطمبولي كان من المفروض أن يمثلوا المحاربين في الداخل.

لم يكن ذلك التنظيم المعقّد واقيا من خطر الإخفاقات السياسية والعسكرية التي تكبّدتها جبهة وجيش التحرير الوطني في 1958-1959 ولا عاملا للحدّ من الخلاف الداخلي الذي كان يلغّم انسجام الفريق. فكثيرا ما كان الوزراء المدنيون يوضعون على الهامش من طرف زملائهم، الثلاثي العسكري الحاكم، عندما يتعلّق الأمر باتخاذ القرارات الحاسمة. وعندما أعلن الجنرال De Gaulle اللجوء إلى تقرير المصير تسبّب ذلك في تغيير معطيات الصراع فاجتمع المجلسُ الوطني للثورة الجزائرية من جديد في طرابلس (من 13 ديسمبر 1959 إلى 15 جانفي 1960) لوضع الإستراتيجية الجديدة. كانت الحكومة المؤقتة الجديدة، التي تم تعيينها لتنفيذ تلك الإستراتيجية، قد تقلّص عددُ أعضائها إلى ثمانية. كان عدد السياسيين فيها يساوي عدد العسكر. ويبدو أنّ التنظيم العام فيها ظلّ كما هو: عباس رئيسا وكلٌّ من فرانسيس في المالية ويزيد في الإعلام ومهري في الشؤون الاجتماعية والثقافية؛ وأما أهم تجديد في تلك الحكومة فهو إلغاء وزارة الحرب وتعويضُها بقيادة أركان عامة مستقلة. ولقد تحوّل كريم إلى الشؤون الخارجية غير أنه ظلّ عضوا في لجنة وزارية مشتركة للشئون الحربية مع زملائه في الثلاثي الحاكم بوصوف (الذي أضاف التسليح إلى العلاقات العامة) وبن طوبال. إنّ ربط الشؤون الخارجية بجماعة العسكر دليلٌ على الأهمية المتزايد لهذا القطاع في ظروف كانت تؤشر ببدء المفاوضات مع فرنسا.[80]

عندما انطلقت المفاوضات اجتمع المجلس الوطني للثورة (من 6 إلى 26 أوت 1961) لتجديد الحكومة وضبط خطة عملها؛ ولئن كانت الحكومة المؤقتة الثالثة أقلّ عددًا فإنها كانت أكثر انسجاما من سابقتها. ولقد ضم

80. حول عمل كريم في الشؤون الخارجية. أنظر COURRIERE، ج.4 ص. 31-44: عمار حمداني، "أسد الجبال"، Balland 1973 ص. 221-226 والوثائق العمومية من طرف محمد حربي ("أرشيف الثورة الجزائرية" ص. 381-532).

الفريق الحكومي الجديد عددا من العسكر يفوق عدد السياسيين لتفنيد تهمة الضعف والاعتدال التي وجهتها قيادة الأركان إلى هذه الأخيرة. تمّ اختيار أولئك العسكريين من بين قدماء حركة انتصار الحريات الديمقراطية وتمّ إقصاء السياسيين المعتدلين من بين قدماء الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري. لقد عوّض بن خدة ( خريج جامعة الجزائر) فرحات عباس وأحمد فرنسيس في الرئاسة وفي الشؤون المالية والاقتصادية واحتفظ يزيد بالإعلام وتولى سعد دحلب الشؤون الخارجية. نتيجة لذلك تغيّر توزيع المهام بين الوزراء العسكريين فلقد انتزع كريم الشؤون الداخلية من بن طوبال لمراقبة عمل الأركان العامة بينما احتفظ بوصوف بالمسؤوليات الموكلة إليه.[81]

وقّعت الحكومة المؤقتة، الثالثة والأخيرة، على اتفاقيات Evian (18 مارس 1962) بعد موافقة الدورة الجديدة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية. ومنذ ذلك الوقت تعزّزت صفوفُ قيادة الأركان العامة (المعارضة دوما لسياسة الحكومة المؤقتة) من طرف ثلاثة من بين خمسة وزراء الدولة المسرّحين من السجن وهم: بن بلة؛ وخيضر وبيطاط.

تشكّل المكتبُ السياسي الذي اقتُرح انتخابُه في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس في جوان (وكذلك المكتب الذي نصب في الجزائر) من قدماء المناضلين الثوريين وأُبعد "السياسيون" منه.[82]

بعد انفراج أزمة الصيف قام المجلسُ الوطني التأسيسي، برئاسة فرحات عباس، بتنصيب أول حكومة في الجزائر المستقلة شكّلها أحمد بن بله (في 19 سبتمبر). لقد فسح هذا الأخير مجالا واسعا للسياسيين المتخرجين من الجامعة وللمثقفين مثلما ستفعله الحكومات المقبلة.

---

81. Quandt، حربي،COURRIERE، نفس المصدر.

82. Quandt، فصل 9؛ حربي، جبهة التحرير..." فصل 22.

إنَّ جبهة التحرير، بالرغم من الأحكام المسبقة التي أصدرها مؤسسوها، قد فتحت أجهزتها المسيِّرة "للسياسيين" و للحاصلين على الشهادات العلمية. ولقد جمعت كل الأجهزة التنفيذية للجبهة في توازن ظاهر وهش بين "رجال السيف" و" رجال القلم". فلم تكن العقبة أمام ترقية الطلبة تتمثل فقط في شعور العداء تجاه المثقفين، وتلك ميزة القادة الثوريين، ولكن تمثلت العقبةُ أيضا في وجود أسلافهم السياسيين المحنكين في مناصب من الدرجة الأولى.

إنَّ أوَّل طالب تمت ترقيته في هيئة مسيِّرة للثورة هو محمد بن يحي، رئيس السابق ل"إ.ع.ط.م.ج." في مدينة الجزائر، ولقد انضمَّ هذا الأخير إلى المجلس الوطني للثورة منذ سبتمبر 1956 والتحق به آخرون إلى ذات المجلس الذي كان يتم توسيعه قبل كل دورة من 1957 إلى 1962. أمّا صديقه لأمين خان فقد تحوَّل إلى محارب في الولاية الثانية وكان أوَّل من مثَّل جيله في الحكومة المؤقتة في منصب كاتب للدولة ممثل للشئون الداخلية الذي تم إلغاؤه في جانفي 1960. هكذا إذن كانت المناصب المهيأة لترقية الطلبة المتكونين في مدرسة "إ.ع.ط.م.ج" في دواوين الوزراء وفي الأمانات العامة وفي مديريات الوزارات.[83]

وفعلا فإنَّ كل القطاعات الوزارية، سواء منها التي يديرها العسكريون أو المدنيون، كانت في حاجة إلى إطارات عالية التكوين[84] أهمُّها (بعد إلغاء وزارة الحرب سنة 1960) هي:

وزارةُ التسليح والعلاقات العامة التي أُسندت إلى بوصوف ( تمّ تنظيمها في فروع ثلاثة هي فرع التسليح والإمداد وفرع الاستعلامات والاستخبارات

---

83. Quandt فصل 7 ص. 115-123) قد أحصى 1 كاتب دولة، 9 أعضاء في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، 2 أعضاء في الوفود المتفاوضة مع فرنسا، 3 سفراء للحكومة المؤقتة، و 5 حائزون على وظائف رسمية في الوزارات.

84. نحن نتبع ما أورده TRIPIER، م. م. القسم 3. ف 8.

المضادة وفرع الاتصالات اللاسلكية) وأُسندت وزارة الداخلية إلى بن طوبال (ثم كريم) وكانت تشرف على الدواليب السياسية والإدارية لجبهة التحرير في كلٍّ من تونس والمغرب وفدرالية فرنسا.

أُسندت وزارة المالية والشؤون الاقتصادية، في البداية، إلى أحمد فرنسيس (بمساعدة الشاب محمد لبجاوي وهو دكتور في الحقوق) ثم أُلحق بالرئاسة من طرف بن خدة في 1961 وأُسندت وزارة الشؤون الاجتماعية والثقافية إلى عبد الحميد مهري وكانت مكلفة بشئون اللاجئين والهلال الأحمر الجزائري والمنظمات المهنية ومن بينها: "إ.ع.ط.م.ج" الذي كان بلعيد عبد السلام مسئولا فيه على توزيع المنح. كان امحمد يزيد ينشّط وزارة الإعلام بمساعدة أحمد بومنجل ورضا مالك مدير صحيفة المجاهد. أُسندت وزارة الشؤون الخارجية، في البداية، إلى الدكتور لمين الدباغين ثم أعيد تنظيمها من طرف بلقاسم كريم سنة 1960 بمساعدة أمينين عامين هما: سعد دحلب و المحامي مبروك بلحوسين. كان كريم بلقاسم يعتمد على فريق من الشباب المثقفين من بينهم: توفيق بوعتورة وحسن عزيز ولخضر الإبراهيمي وعبد المالك بن حبيلس وعبد العزيز زرداني ومحمد حربي. كانت هذه الوزارة تشرف على شبكة تتألف من 38 بعثة دبلوماسية دائمة معترف بها رسميا أو ملحقة بسفارات الدول العربية وتضمّ ممثلين عن كل الوزارات أهمها بعثة نيويورك التي كان يسيرها عبد القادر تشندرلي وكانت تعزّز، سنويا، بوفد هام من الحكومة المؤقتة وكذلك الأمر بالنسبة للممثلية الدبلوماسية في Bonn وكانت مكلفة بتنسيق عملها الدبلوماسي في أوروبا. هذه الأخيرة كانت، سنة 1958، تحت إشراف المحامي آيت أحسن الذي أصيب بجروح يوم 5 نوفمبر في حادث اعتداء دبّرته منظمة "اليد الحمراء" فتمّ تعويضه من طرف نائبه حفيظ كيرامان المدعو "مالك" (رئيس سابق لودادية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا) الذي طُرد في شهر ماي 1961 واستقرّ في سويسرا. ولقد تم توظيف قدماء "إ.ع.ط.م.ج." بأعداد كبيرة ضمن

البعثات الدبلوماسية للحكومة المؤقتة بناء على ما أوصى به تقرير آيت أحمد بعد 1957[85] وكانت رئاسة الحكومة المؤقتة مقتصرة على ديوان الرئيس خلال العهدتين المتتاليتين لفرحات عباس. تولى محمد بن يحي رئاسة ديوان رئيس الحكومة المؤقتة في جانفي 1960 و ابتداء من سبتمبر 1961 ألحق الرئيس الجديد بن خدة بها وزارة المالية والشؤون الاقتصادية التي كان فيها بلعيد عبد السلام ولمين خان من بين أهم المساعدين.

هكذا بدأت بعض الأسماء المعروفة لدى الجزائريين تخرج من الظل ابتداء من سنة 1960. صوّت المؤتمر الرابع ل"إ.ع.ط.م.ج" على لائحة تمنح بموجبها "عضوية الشرف" لثلاثة من قدمائه هم: محمد بن يحي ورضا مالك وليمين خان.[86] كان الأول، حينئذ، متوجها إلى مدينة Melun رفقة أحمد بومنجل لتحضير لقاء بين الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وكان عضوا في الوفد الجزائري أثناء كل جولات المفاوضات مع فرنسا. أمّا الثاني، مدير جريد المجاهد، فقد شارك في المفاوضات أيضا باعتباره الناطق الرسمي والملحق الصحفي للوفد؛ وأمّا الثالث فقد عمل في منظمة جبهة التحرير بوزارة الداخلية ثم تولى بعد ذلك الإدارة المالية (بعد أن شغل منصب كاتب الدولة في الحكومة المؤقتة الأولى).

عبّرت لائحةٌ أخرى للمؤتمر الرابع عن "عرفانها بالجميل" و"عميق شكرها" لرئيس"إ.ع.ط.م.ج." بلعيد عبد السلام الذي وصفته بأنه "أبُ اتحادنا".[87] بعد تكليف هذا الأخير بالشؤون الاقتصادية في ديوان الرئيس بن خدة (أوت 1961) غادره في أفريل 1962 ليتولى نفس المسؤوليات في

85. تقرير إلى لجنة التنسيق والتنفيذ، أفريل 1957؛ ورد في "الحرب وما بعد الحرب" منشورات 1964 Minuit (ص. 56-57).

86. "إ.ع.ط.م.ج" المؤتمر 4 ص. 75.

87. نفس المصدر.

المجلس التنفيذي المؤقت المنشأ بموجب اتفاقيات Evian. التحق به الأمين العام السابق ل"إ.ع.ط.م.ج."، محمد خميستي، بصفته كاتبا للرئيس عبد الرحمن فارس. أمَّا الأعضاء الآخرون، الذين عيَّنتهم جبهة التحرير، فكانوا كلهم من المتحصلين على الشهادات العلمية أمثال: شوقي مصطفاي وعبد الرحمن شنتوف (الرئيس السابق لودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية) ومحمد بن تفتيفه وبومدين حميدو.[88]

في تلك الأثناء كان المجلس الوطني للثورة الجزائرية مجتمعا في طرابلس لتحديد الخيارات الكبرى لجزائر ما بعد الاستقلال ولتمكينها من قيادة مقبولة لدى جميع الأطراف. كُلِّف المثقفون الشباب بالتحضير لبرنامج جبهة التحرير الوطني، المعروف "ببرنامج طرابلس"، لقد حرره كلٌّ من محمد حربي ورضا مالك ومصطفى الأشرف بمساهمة محمد بن يحي وامحمد يزيد وأحمد بن بله ولقد تمت المصادقة عليه بالإجماع رغم توجهاته الاشتراكية؛[89] ولكن مؤلفيه ورفاقهم لم يكونوا يتمتعون بالقوة الكافية التي تمكنهم من الحيلولة دون انفجار الجبهة ولا المساهمة بنجاح في السباق نحو السلطة الذي أعقب ذلك. تمَّ اختيار أعضاء المجلس الوطني التأسيسي من طرف المكتب السياسي الذي نُصِّب في الجزائر (أوت) والذي لم يكن يضم أي حامل لشهادة علمية؛ ولقد أُبعد العديد من المناضلين، من ذوي الخبرة الكبيرة، الذين كونهم "إ.ع.ط.م.ج" (بعد أن تم اختيارهم في أول الأمر من قائمة النواب). يتعلق الأمر ب: محمد آيت شعلال وعبد المالك بن حبيلس ورضا مالك وبلعيد عبد السلام ومحمد بن يحي ومحمد حربي...[90].

---

88. Bernard TRICOT ، "دروب السلم Plon. 1972"، ص. 316-325 وعبد الرحمن فارس، "الحقيقة المرة Plon 1982"، ص. 95 وما بعدها.

89. حربي، "جبهة التحرير..." ص. 330-337. النص الكامل لبرنامج طرابلس في "عناوين أفريقيا الشمالية" 1962، ص 683-704.

90. QUANDT نفس المصدر. 179.

بعد تشكيل أول حكومة في الجزائر المستقلة تضافرت كفاءة ونضال هؤلاء لتفتح أمامهم مسارات مهنية رائعة في المجالات الوزارية والإدارية والدبلوماسية أو الاقتصادية. ومن جهة أخرى فإن الأزمات المتتالية التي عكّرت صفو الحياة السياسية الجزائرية من 1962 إلى غاية 1967 وتسبّبت في إقصاء ذوي الأدوار الأولى من القدماء قد سهلت ترقية الأعضاء الشباب من الجيل الذي كونته حرب التحرير الوطني.

## 2- في صفوف جيش التحرير الوطني

إنّ ترقية الطلبة في صفوف جيش التحرير غير معروفة بصورة واضحة نظرا لمقتضيات السّر العسكري. كان من الممكن، مبدئيا، أن تكون أسهل من الترقية في سلّم جبهة التحرير الوطني لكن واقع الأمر لم يكن كذلك. كان الطلبة محظوظين بسبب عدم توفّر حملة الشهادات العلمية ضمن الكبار الذين سبقوهم في صفوف جيش التحرير باستثناء بعض الأطباء أو بعض الضباط المتخرجين من المدارس العسكرية الفرنسية وخاصة في الولايات الداخلية. لقد مكّنتهم كفاءتهم من الارتقاء بسرعة في المصالح الصحية أو في الفروع السياسية والإدارية والعلاقات والاستخبارات. وكانوا مرشحين لإظهار كفاءاتهم العسكرية في الوحدات القتالية وقيادتها إذا أثبتوا تأهيلهم لذلك. يبدو أنَّ قاعدةً مُضمرة قد خصّصت مناصب القيادة السياسية والعسكرية في الولايات الداخلية وقيادة الأركان في الخارج للرُواد الأوائل من مفجري الثورة.

كان الطلبة، في الداخل، يمثلون الطليعة المثقفة في الولايات وكان قادتهم يجتهدون في استعمال كفاءاتهم. لقد تمكنوا بسهولة من الوصول إلى تقلّد المسؤوليات في المنطقة (ملازم سياسي أو علاقات - استخبارات أو ملازم نائب عسكري أو نقيب كومندوس القطاع كما هو الشأن بالنسبة لعلي لونيسي في الولاية الرابعة). كثيرا ما كان الطلبة يتولون الوظائف العليا على المستوى

الولائي: رئيس مصلحة الصحة (لمين خان في الولاية الثانية) أو مصلحة الدعاية والإعلام (بوعلام أوصديق في الولاية الرابعة). لكن رتب العضوية في المجالس الولائية (كولونيل سياسي عسكري أو رائد قائد عسكري سياسي أو في الاتصال و الاستخبار) فقد ظلت خاضعة، عموما، للخيار بصفة انتقائية بين أقدم المحاربين. لقد كان علاّوة بن بعطوش، الضابط الأعلى رتبة حين وفاته (في 1958)، رائدا في الولاية الثانية وهو من مناضلي "إ.ع.ط.م.ج" الذين التحقوا بالجبل في ماي 1956. وكان الكولونيل لطفي، الذي خلف الكولونيل بومدين على رأس الولاية الخامسة، من قدماء طلبة الثانوية الفرنسية – الإسلامية في تلمسان. ولقد تمّت ترقية أحد قدماء طلبة الطب بجامعة الجزائر وهو يوسف خطيب المدعو "سي حسن" في مجلس الولاية الرابعة إلى رتبة كولونيل في 1962.

لكن بالنسبة للطلبة المحاربين فإن الترقية الحقيقية تتمثّل في الانتقال إلى الخارج (إقتداء بما فعله الكولونيلات الأعضاء في لجنة التنسيق والتنفيذ ثم في الحكومة المؤقتة). لقد تمّ إيفاد العديد منهم إلى الخارج سواء في مهمة لدى قيادة الأركان أو الحكومة (تمّت ترقية لمين خان إلى منصب كاتب دولة) أو إيفادهم لأسباب صحية (مثلما حدث لبوعلام أوصديق). لكن القليل منهم تمكّن من العودة لأن عبور حاجز الحدود كان أصعب بكثير من جهة الخارج نحو الداخل منه في الاتجاه المعاكس. وُضع بعضهم تحت تصرف الحكومة المؤقتة وتمّ تعيين البعض الآخر في قيادة الأركان في الشرق وفي الغرب.

تأسّست قواعد العتاد لجيش التحرير، ابتداء من 1956، في التراب التونسي والمغربي قرب الحدود الجزائرية (كانت في البداية مخبأة في ليبيا والمنطقة الإسبانية في المغرب). فكانت الولايات المجاورة تبعث إليها الفيالق للتسليح والتدريب أو للاستراحة؛ ولقد مكّن إضراب ماي 1956 جبهة

التحرير من أن تضع تحت تصرفهم عددا كبيرا من طلبة قسم الطب ومن الأطباء الجزائريين أمثال الدكاترة هدّام ونقّاش ومصطفاي وتومي ولاليام وأمير وفرانتز فانون... الذين كانوا يعالجون المحاربين واللاجئين الجرحى[91]

لقد اكتسبت تلك القواعد، المنشأة على الحدود الشرقية والغربية، أهمية حيوية في استراتيجية الثورة ابتداء من صيف 1957؛ فبعد أن استقرّت لجنة التنسيق والتنفيذ في الخارج قرّرت استغلالها لتدريب حوالي 20.000 من المجندين من الولايات الداخلية ولرفع المستوى التقني للجيش الجديد. كما شرعت في تجهيزها بالأسلحة وتزويدها بالإطارات التي تلقّت كوينها في أحسن المدارس. يتجلى ذلك المسعى في حثّ الضباط الجزائريين على الفرار من أحدث وحدات الجيش الفرنسي المتموقع في المانيا[92] ويتجلى أيضا في إرسال المئات من ضباط جيش التحرير لتطوير قدراتهم في المدارس العسكرية في الدول العربية وفي البلدان الاشتراكية.[93] لقد تلقوا بفضل ذلك تكوينا متخصّصا ليس في حرب العصابات فحسب بل في كل أصناف الأسلحة: المشاة والمدرّعات والمظليين والطيران والبحرية والاتصالات الخ. استخدم هؤلاء المختصون كممرنين في مراكز التدريب أو كضباط أركان في "القيادتين العسكريتين الميدانيتين" على الحدود الشرقية والغربية (أفريل 1958).

احتلت التقنيات العصرية مكانة مرموقة في اهتمامات الولاية الخامسة (منطقة وهران) وهي أوسع الولايات. ولقد عانت القوات المسلّحة، المتمركزة في المغرب منذ 1955، من عقبة الحاجز الحدودي فكانت قيادتُها أوّل من طوّر استعمال الراديو في الاتصالات والاستخبارات. وكان قادته،

91. COURRIERE ج. 3 ص 107-110 و 217-219

92. انظر عبد القادر رحماني "قضية الضباط الجزائريين" Le Seuil 1959

93. TRIPIER م.م. ص198-206. JACQUIN ، "الحرب السرية... ص. 161-164.

أمثال بن مهيدي وبوصوف وبومدين ولطفي، يختارون العناصر المثقفة من بين المنخرطين الشباب لتكليفهم بالمهام التقنية أو التنظيمية؛[94] وكان للإيديولوجية نصيبُها من التدريس أيضا. فبعد سنة 1957 فتحت في مدينة وجدة مدرسة لتكوين المحافظين السياسيين المكلفين بنشر الروح الثورية في صفوف الجيش والشعب. ولقد نشر رئيسها، وهو المهندس الزراعي لعروسي خليفة، كتابا عنوانه "دليل المناضل الجزائري".[95] وكان بعض المدرِّسين فيها (ومنهم عبد السلام بلعيد لمدة بضعة أشهر) من بين قدماء الطلبة الذين جاءوا من فرنسا أو تكوَّنوا في المدارس المتخصِّصة في الدول الشيوعية. لقد استعمل قادة الولاية الخامسة الشباب المثقف وكلفوه المسؤوليات. من أشهر الذين تمَّت ترقيتهم، بهذه الصِّفة، النقباء الثلاثة: شريف بلقاسم (ممثل فرع الرباط قديما في المكتب الإداري ل"إ.ع.ط.م.ج") وأحمد مدغري (طالب سابق في مدينة الجزائر ومعلم في سعيدة) وعبد العزيز بوتفليقة (طالب في ثانوية تلمسان).[96] لقد تولى هؤلاء الثلاثة مناصب في أركان الغرب عندما استقر الكولونيل بومدين في تونس للإشراف على قيادة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني (ابتداء من جانفي 1960).

اتخذ المجلس الوطني للثورة الجزائرية (المجتمع في طرابلس من ديسمبر 1959 إلى جانفي 1960) قرارَه الحاسم بتعويض القيادات الميدانية العسكرية ووزارة الحرب بقيادة موحدة للأركان العامة ذات استقلالية تامة. وهو قرار أملته حاجة ولايات الداخل إلى الدَّعم الفعَّال بعد أن أرهقتها أزمة "الزرقية" وعمليات "خطَّة شال". شرعت قيادة الأركان الجديدة في إمدادها

---

94. COURRIERE ج. 3 ص 229-236؛ Ania FRNCOS، وJean Pierre SERENI، "جزائري يدعى بومدين"، Stock، 1976، ص. 69-70؛ JACQUIN م.م.ص. 126-131، 239-242 و 283-296.

95. Lausanne، La Cité، 1962.

96. FRANCOS وSERENI م.م.ص. 70-71 و83.

بالإطارات والمال والأسلحة وخصوصا بتعطيل حركة القوات الفرنسية على الشريط الحدودي بواسطة الهجمات المتوالية على الحواجز التي أقامها. فرضت هذه الاستراتيجية دعم جيش الحدود عن طريق تجنيد مكثف في صفوف الجزائريين المقيمين في فرنسا وفي تونس وفي المغرب وباللجوء إلى التطوع الأجنبي. ولقد كان ضروريا تمكينُ تلك الجموع المتزايدة من تلقي تنظيم وتسليح وتدريب راق جدا.[97] لقد أصبح تنفيذُ ذلك التكتيك أمرا مستعجلا بعد أن طرأ حدثان هامّان (جوان 1960) هما: مبادرة السلام التي قامت بها الولاية الرابعة (حين اجتمع ثلاثة من مسئوليها السامين بالجنرال ديغول في قصر الإليزي) وفشل المفاوضات التي شرع فيها في Melun بين السلطات الفرنسية ومبعوثي الحكومة المؤقتة. في 5 جويلية أكّد رئيس الحكومة المؤقتة، بن خدة، على ضرورة تنفيذ القرار الذي اتخذه المجلس الوطني للثورة الجزائرية (في جانفي) والقاضي بتكثيف الحرب لتمكين الجبهة من فرض شروطها للسلام.

ذلك ما دفع برئيس "إ.ع.ط.م.ج" إلى التحدث طويلا في التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع عن "حرب الجزائر ومشاركة الطلبة" حيث قال: "إزاء الجنون الإجرامي للاستعمار ورفضه كل إمكانية لتحقيق السلام وإصراره على سحق الشعب الجزائري باللجوء إلى المناورات "الماكيافيلية" إزاء كلِّ هذا فإنّ واجبنا هو أن نضع نصب أعيننا أن الحرب سوف تكون طويلة الأمد وواجبُنا هو الاستعداد لمواجهة تلك المحنة الشاقة... تتمثل مهام مؤتمرنا الرابع الرئيسية في البحث عن الوسائل المناسبة والأكثر فعالية لدعم مساهمتنا في دفع الثورة وتطوير مشاركتنا في الكفاح التحرري داخل التراب الوطني وخارجه.

97. Yves COURRIERE، ج. 4 ص 44-48، و 247-248؛ عز الدين "كانوا يسموننا فلاقة" ص 320-324، و TRIPIER نفس المصدر، جزء 3.

تمّت المصادقة على تصريح حول السياسة العامة في الجزائر خلُص إلى قول ما يلي: "إنّ الطلبة الجزائريين (...) يظلون أوفياء بعزم لا رجعة فيه لمُثل شعبهم وإنّ الاستقلال الوطني أساسُ كل تقدم اقتصادي واجتماعي وثقافي للبلاد. إنّ الإضراب التاريخي عن الدروس وعن الامتحانات (25 ماي 1956) كان عربونا واقعيا عن تجنيدهم المطلق لتحقيق الأهداف الأساسية للثورة. وإنّهم دوما أوفياء لسيرة من سبقهم ممن ضحوا بحياتهم من أجل القضية الوطنية وإنّهم واعون، أكثر من أي وقت مضى، بثقل مسؤولياتهم وبدورهم في هذه المرحلة الحاسمة من الثورة وبأنّهم يخوضون حربا لا تزال طويلة وشاقة. إنّ الطلبة الجزائريين (...) عازمون، بكل إصرار ومهما كان الثمن، على مواصلة الحرب التحريرية ومضاعفة مساهمتهم المباشرة في الكفاح.

إنّهم يعتبرون أنفسهم في حالة تأهب دائمة لخدمة الثورة وإنّهم مستعدون للتخلي عن دراستهم والاستجابة لأي نداء يصدر من حكومتهم".[98]

ولإضفاء دلالة أكثر على تلك اللائحة أصدر الاتحاد لائحة أخرى في شأن إضراب 1956-1957 تؤكد على: "قرار المؤتمر الوطني الثالث القاضي بإقصاء الطلبة غير المضربين من صفوف "إ.ع.ط.م.ج."".

تلك اللوائح "الملتهبة" كانت تترك انطباعا بأنّ في الأمر استعدادٌ للدخول في إضراب آخر مثل إضراب 1956-1957؛ ومع ذلك فإن نتائجها كانت أقلّ مما كان متوقعا؛ فحين طلبت القيادة العامة تجنيد الطلبة والأطباء فضلّت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية توجيه نداء إلى المتطوعين. قام "إ.ع.ط.م.ج."، وبالخصوص الفرع الجامعي في فدرالية فرنسا، بنشر ذلك

98. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4، ص 53 و 63-65. أنظر "المجاهد" (68) 5-08-1960 (ج. 3 ص. 169-176) أن توجيه النداء للطلبة، كان أمرا واردا، منذ ديسمبر 1959، في أشغال المجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس (حسب حربي، جبهة التحرير... ص. 252). "سوف يكون خطأ أن لا نقحم بعض التقنيين في الكفاح، بدعوى أنهم سوف يكونون أكثر نفعا لجزائر الغد (...) يجب أن يظل هؤلاء (...) مرتبطين بالثورة التي يمكن أن تعبئهم في كل حين، إذا اقتضت الضرورة ذلك".

النداء عبر الفروع التابعة له. إنّ العشرات من الطلبة الذين استجابوا للنداء جاؤوا من فرنسا ومن تونس ومن المغرب.[99] في نفس الوقت وجّه مؤتمر الاتحاد الدولي للطلبة، المنعقد في بغداد (أكتوبر 1960)، نداء "للطلبة المتطوعين من كل بلدان العالم وخصوصا طلبة التخصُّصات التقنية من أجل المساهمة مع إخوانهم الجزائريين في الكفاح المباشر داخل التراب الوطني الجزائري"[100] ورد هذا النداء عقب بيان اللجنة الدولية للطلبة الذي نددت فيه بتواطؤ الحلف الأطلسي في حرب الجزائر.

حدثت مواجهة بين اتجاهين في الحركة الطلابية (مثلما وقع في ماي 1956) هما: قيادة "إ.ع.ط.م.ج" التي رفضت التضحية، مرة ثانية، بالإطارات الضرورية للجزائر المستقلة وبين قيادة الفروع الجامعية وبالخصوص فروع Caen وGrenoble التي شعرت بالحاجة إلى مشاركة أكبر حجما في الثورة. كان الحلُّ الذي توصلّوا إليه موافقا للقضية التي تتبناها الجبهة وذلك بإحداث ضغط معنوي على الحكومة الفرنسية عبر المنظمات الطلابية من غير توقف عام عن الدراسة.

إنّه لمن الصعب التكهن بالدوافع الشخصية التي كانت تحفّز المتطوعين ولا التكهن بنوعية العلاقات التي كانت تربطهم بالمجندين الآخرين (من الفلاحين واللاجئين والمهاجرين العائدين من فرنسا) ولا بسلوك القادة تجاههم... لكننا نعلم أن دوافع قيادة الأركان العامة لم تكن عسكرية محضة.

الواقع أنه منذ الشروع في مفاوضات Evian (ماي 1961) صار استقلال الجزائر، الذي أقرّته فرنسا، اقلّ أهمية من محتواه؛ فكان على المناضلين في جبهة التحرير أن يستعدوا للمستقبل بتحديد الخيارات الكبرى في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للدولة المنبثقة من النضال الذي

---

99. محمد حربي (جبهة التحرير الوطني... ص. 270-271).

100. "المجاهد" (72) 1-11-1960 (ج. 3 ص. 281) و (70) 25-09-1960 (ج. 3 ص. 225).

كانوا يخوضونه. وفي منظور رفض التمييز التعسفي بين العسكري والمدني أراد العقيد بومدين تحويل جيش التحرير الوطني في الخارج إلى جيش مناضل يؤطره محافظون سياسيون (من بينهم فرانتز فانون). وعكس الصيغة الواردة في مؤتمر الصومام فإنهم كانوا يؤكدون في دروسهم على أنّ الاستقلال ليس سوى مرحلة "وأن الثورة هي الهدف". وبالرغم من استخلاف بن خدة لفرحات عباس، في قيادة الحكومة المؤقتة، فإنهم كانوا يتهمون هذا الأخير بالبحث عن صيغة تفاهم مع فرنسا قصد الحصول على استقلال شكلي لا تستفيد منه سوى الأقلية المحظوظة. "الحكومات تزول والشعب باق".[101]

ذلك ما دفع بقيادة الأركان العامة إلى توجيه اللوم للحكومة المؤقتة على اتباعها "عمداً سياسة خرقاء في مجال استغلال كفاءة الإطارات" وبالأخص فيما يتعلق بالأطباء والطلبة الذين "تحاول السياسة العشوائية إبعادهم عن حقيقة كفاحنا وذلك بوضعهم في ظروف تجعلهم في آن واحد فريسة سهلة للإيديولوجيات الأجنبية الموجهة للتصدير".[102]

كان الكولونيل بومدين خبيرا في استغلال كفاءة الإطارات مع الحرص على عدم تشجيع طموحاتهم؛ ويبدو أنه صرّح في وقت لاحق قائلا:[103] : "عادة، يصل المثقفون عندنا إلى تقلّد المسؤولية من غير اكتساب خبرة كافية بمتاعب الكفاح؛ ولذلك فإنّ "التيار" لا يمر كما ينبغي بينهم وبين رجال مناطق الشيع والحلفاء. ويذهب الأمر ببعضهم إلى حد التحوُّل إلى مثقفين عملاء".. لقد عاملهم كغيرهم من الجنود فأرسلهم إلى مواجهة نيران الأسلاك المكهربة على الحدود قبل تكليفهم بالمهام التي تناسب كفاءاتهم. يبدو أن إدراج بعض الطلبة

101. FRANCOS و SERENIم. م. ص. 95-97. انظرYves COURRIERE ، ج. 4 ص. 249. 379-376، 422-417 وحمداني م. م. ص. 235-244.

102. مذكر قيادة الأركان العامة إلى الحكومة المؤقتة، 1961-07-15. في "أرشيف الثورة الجزائرية" ص. 324.

103. FRANCOS و SERENIنفس المصدر ص. 71.

وترقيتهم في جيش التحرير الوطني في الخارج كان في نظر قيادة الأركان العامة وسيلة للتأثير على الوسط الطلابي حيث ظلت الأغلبية فيه (إلى سبتمبر 1962) تلتزم موقفا حياديا تجاه التحالفات المتنافسة.[104]

## اللجان التنفيذية في "إ.ع.ط.م.ج"

**- المُنتَخبون في المؤتمر الأول (جويلية 1955):**

أحمد طالب (رئيسا)؛ العياشي ياكر (نائبا للرئيس)؛ مولود بلوان (أمينا عاما)
عبد الرحمان شريط (أمينا مساعدا)؛ محمد منصور (أمين الصندوق).

**- المنتخَبون في المؤتمر الثاني:**

مولود بلوان (رئيسا)؛ محمد خميستي (أمينا عاما)
رضا مالك؛ عبد المالك بن حبيلس؛ علي الأخضري.

**- المنتخبون في المؤتمر الثالث:**

مسعود آيت شعلال (رئيسا)؛ طالب شعيب (نائبا للرئيس)
علي عبد اللاوي...

**- المنتخبون في المؤتمر الرابع:**

مسعود آيت شعلال (رئيسا)؛ جلول بغلي وجمال حوحو (نائبا الرئيس)
محفوظ عوفي (أمينا عاما)؛ محمد بزُّوغ (أمينا مساعدا)؛
مختار بو عبد الله (أمينا عاما للصندوق)؛ بوتمجادت (أمينا مساعدا للصندوق).

104. QUANDT. نفس المصدر ص 169؛ حربي، جبهة التحرير...ص 340، 358، 362 وكذا بيانات "إ.ع.ط.م.ج".

## القسم الثالث

# إيديولوجية الطلبة المسلمين من 1908 إلى 1962

"يُؤاخذنا البعض على كون الطلبة "العرب - البربر" تلقّوا تكوينهم في إطار الثقافة الفرنسية وحين تبرز أوجُه الاختلاف في وجهات النظر بينهم وبين رفاقهم الفرنسيين فإنهم يوعزون ذلك إلى التطرف الإسلامي(...) الواقع أن معرفتي باللغة العربية، ويا للأسف، محدودةٌ جدا وكذلك الأمر بالنسبة لأغلبية رفاقي(...) إنّ الفكر الفرنسي يمثل الأرضية التي ترتكز عليها مبادئنا الأخلاقية ومع ذلك فإن الإسلام يظلُّ(...) موطننا الروحي. فهل من التطرف أن يحتفظ المرء بهويته ؟..."

فرحات عباس *1927*[1]

إنّ إيديولوجية الطلبة والمثقفين الجزائريين تُلقي الضوء على ماهية نشاطهم بكيفية أفضل؛ ولقد مزج تطوّر تلك الإيديولوجية بين القطيعة والتواصل: فالقطيعة الإيديولوجية التي حدثت في سنوات 1936 إلى 1943 كانت تمهيدا لتلك التي سوف تحدث فعليا سنة 1956؛ غير أنّ التواصل يظهر جليا في الوفاء للجماعة الأصلية، من جهة، وللثقافة المكتسبة من جهة أخرى. فكيف؟ ولماذا؟ تمكّنت الأفكار الوطنية الجزائرية، في تلك الظروف، من فرض نفسها على أذهانهم؟ يحاول القسمُ الأخير من هذا الكتاب تبيان ذلك باستعراض مختلف الإيديولوجيات التي تنازعت اهتمام المثقفين الجزائريين ثم صحوة الضمير الوطني من خلال إدماجهم اجتماعيا كأفراد ومن خلال الأفكار التي طرحوها كتعريف للأمة الجزائرية.

---

1. الشاب الجزائري ص. 89

## الفصل السابع

# التطور الجماعي

إنَّ الشعور الوطني لدى المثقفين المسلمين ذوي التكوين الفرنسي كان دائما محلَّ جدل؛ فمنذ أن جهروا بمواقفهم، سنة 1908، صار أعداؤهم "الاستعماريون" يتهمونهم بالنفاق وبأنهم دعاةٌ مبشِّرون "بالخطر الوشيك والمتمثل في القومية الإسلامية" بينما كان "الليبراليون" يعتبرونهم مواطنين فرنسيين لا ريب في صدق وطنيتهم. ومنذ حصول الجزائر على استقلالها صار الاعتزاز بالوطنية الجزائرية رمزا للنصر ولهذا السبب فإن التأريخ الجزائري الرسمي، أو ذلك الذي يدور في فلكه، ينزع إلى البحث دوما عن بوادر الانتماء إلى الحركة الوطنية في آيات الافتخار تلك. فهل هذا سببٌ كاف لإعادة الاعتبار لوجهة النظر الكولونيالية والاكتفاء بمجرد قلب أحكام القيم السائدة؟

صار من المؤكد الآن أنَّ النقيب خالد، وهو حفيد الأمير عبد القادر، قد وجَّه في ماي 1919 رسالةً إلى الرئيس "Wilson" للمطالبة بتقرير مصير الجزائر تحت إشراف عصبة الأمم. ولكن ينبغي الاحتراسُ من تعميم هذه الحالة، الخاصة، على جميع الشباب الجزائري ذوي التكوين الثقافي الفرنسي. إنَّ الوطنية الجزائرية نشأت خارج دائرة "الإنتلجنتسيا" المستلبة ثقافيا وترعرعت بين جموع العمال المهاجرين المنتمين إلى حزب نجم شمال إفريقيا

دور المثقفين ضمن الحركة الوطنية يتزايد من 1936 إلى 1954 وإلى 1962 مهما أعقب ذلك التزايد بالذات من ردود أفعال معادية للمثقفين. كان الطلبة الجزائريون وحاملو الشهادات العلمية، المنتمون إلى جيل الحرب، من أكثر الناس استفادة من مزايا الاستقلال.

ومع ذلك؛ فإنّه لمن الأخطاء الفادحة الاستخفاف بقيمة موقفهم السياسي وحصره في صراع النقيضين: إما الاندماج أو الاستقلال. الواقع أنّ ثمة مواقفُ بينية كانت تربط بين هذين الخيارين أكثر مما كانت تفصل بينهما؛ ويبدو أنّ أغلبية المثقفين الجزائريين قد حاولوا الفصل في مسألة الخيار بين جنسيتين بادعاء كلٍّ منهم الحصول على الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بكل المقومات التي تميّزه كمسلم. ولقد ترجمت صيغٌ سياسية كثيرة هذا الانتماء المزدوج أو تلك المساواة مع احترام الفروق في عبارات مثل: "التجنس في إطار القانون الخاص" أو الاندماج أو الشراكة أو الاتحاد الفدرالي. إنّ هذه الصيغ الفضفاضة وما رافقها من جدل في صفوف مناصريها من الفرنسيين أنفسهم؛[2] وكذا الاستعمال المفرط لعبارة الوطنية؛ كلُّ ذلك أدّى إلى حدوث مزيد من الخلط في المفاهيم.

لا غرابة إذن إذا تأخّر المثقفون الجزائريون في تجلية الخيار الحتمي المطروح أمامهم فلم تكن لديهم اتجاهاتٌ سياسية مشخّصة بوضوح بل كانوا، عكس ذلك، أمام طيف من الاتجاهات السياسية يصعب الفصل بينها من غير عناء؛ وكانت الخطوط الفاصلة، في كثير من الأحيان، تمرُّ في ذهن كل فرد من الأفراد أكثر من مرورها بين تلك الألوان نفسها.

لا يمكن لإيديولوجية المثقفين المسلمين الجزائريين، في ظروف مثل تلك، أن تُحدّد معالمها ببساطة؛ ويبدو أنّ ثلاثة اتجاهات كانت متزامنة

---

2. حول الإيديولوجية الكولونيالية الفرنسية أنظر AGERON أطروحة فصل 35 (ص. 989-1002) و"فرنسا كولونيالية أو حزب كولونيالي؟" المنشورات الجامعية الفرنسية 1968، فصل 6 (ص. 189-234).

عندهم، في كل مرحلة من المراحل، كما يبدو أنَّ أغلبيتهم قد اتجهت بالتتابع نحو ثلاث أيديولوجيات هي:

-الاندماج قبل سنة 1919.

-الأيديولوجية الفرنسية - الإسلامية في مختلف أشكالها من سنة 1919 إلى 1942.

-الوطنية الجزائرية ابتداء من 1943.

ولكن ليس ثمة إيديولوجيةٌ معينة تمكّنت من الهيمنة إلى حدٍّ إقصاء الأخريات. لقد كان التنافس حادًا بينها جميعا إلى غاية بزوغ فجر الاستقلال تقريبا. فالحركة الاندماجية، التي أضعفتها إصلاحات 1919، قد استمرت في الوجود بفضل عمليات التجنس الفردي ثم تواصلت بعد 1940 - 1942 عن طريق التسجيل في قوائم الانتخاب من الدرجة الأولى ثم عادت للظهور، سنة 1958، تحت غطاء المطالبة بالاندماج. انقسم أنصار الإدماج "مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية"، وهو مشروع مرفوض من طرف كل من الجمهورية الثالثة وحكومة فيشي، انقسموا سنة 1943 إلى اتجاهين: كان الاتجاه الأول يأمل أن يطبّق الأمر الرئاسي الصادر في مارس 1944 والذي كان يقضي بالمساواة في الحقوق المدنية، في إطار الجمهورية الفرنسية، واحترام الشخصية الجزائرية؛ وذلك ما كان يسمى، إلى غاية 1947، "التجنيس" والذي أطلق عليه Jacques Soustelle تسمية الإدماج ابتداء من سنة 1955. أما الاتجاه الثاني، الذي ظل وفيًا "للبيان"، فكان يطالب بجمهورية جزائرية متحدة فدراليا مع الجمهورية الفرنسية تشارك فيها وبكيفية متساوية كل المجموعات الإثنية المتواجدة بالجزائر. حاول الجنرال De Gaulle في سنوات 1958- 1960 بعث هذا البرنامج بعد أن رفضه سنة 1944.

يتبين مما سبق أنّ الحركة الوطنية الجزائرية كانت بعيدة كل البعد عن تحقيق إجماع "الأنتليجنسيا" المسلمة والفرانكفونية في نوفمبر 1954. جاءت حرب التحرير الوطنية لتبسيط هذا المشهد وذلك بتقليص تلك الثلاثية إلى بديلين اثنين: إما جزائر مستقلة أو جزائر فرنسية وكلُّ شخص مطالبٌ بتحديد خياره لأنّ الخيارات الوسطية لا حظ لها في أن تسود باعتبار أنها خيارات لم تفرضها قوى مسلحة.

## أ) الخيار الاندماجي

بما أنّ "وجهة التاريخ" أضحت معروفة منذ استقلال الجزائر فلقد صار من الصعب تصديقُ مقولة أن أغلبية المثقفين الجزائريين كانوا قد جنحوا، في البداية، إلى اختيار مصير مخالف للذي آلت إليه الأحداث. لقد أخذ هؤلاء يؤولون ما كانوا يجاهرون به من المشاعر الوطنية الفرنسية ويفسرونه بأنّه مجرّد تكتيك انتهازي. إنّهم، في هذا الصدد، يذهبون مذهب المعربين الذين كانوا يندّدون بالشبان الجزائريين ويعتبرونهم منافقين خطرين وكانوا يضمرون الحقد لفرنسا تحت صيغ خادعة تحت غطاء "التقية" أو "الكتمان" وهو أسلوب إسلامي يعدل "التقليص الذهني" عند "الجزويت". يمكن أن ينطبق هذا التأويل على العلماء المعربين ولكن لا يُعقل أن ينطبق على الطلبة المسلمين في الجامعات الفرنسية. لئن استشعر الشباب الجزائري بكونه فرنسيا فذلك أمرٌ يندرج في منطق سير الأشياء.

### 1- أصل الحركة الاندماجية

ينبغي علينا، في هذا المجال، تذكُّر أوضاع العالم قبل سنة 1914 أي حين كان يرزح تحت سيطرة الإمبريالية الأوروبية: فكل الدول الإسلامية، آنذاك، كانت فاقدة استقلالها إما بسبب الاحتلال العسكري أو التدخل الاقتصادي

أجل إدراج لقاح ثقافة مريضة عن طريق قتل ثقافة أخرى؛ وبهذا الشكل تُزرع البلبلة في العقول لكي لا تتمكن من التمييز بين العلم وبين الحضارة؛ ونتيجةُ هذا الخلط هي الفوضى العامة التي يتخبط فيها المثقفون الجزائريون: وإنَّهم، كالأيتام، يتجاذبهم عالَمان فلا هم قادرون على التواصل مع ثقافتهم ولا هم استوعبوا الثقافة المفروضة عليهم". نفس هذا النقد عبَّر عنه أيضا الكاتب جان عمروش بصورٍ لاذعة مفعَمة بالمشاعر;[7] وهو نقدٌ يندرج ضمن التقاليد العريقة في رفض المدرسة الفرنسية من طرف المسلمين الجزائريين لأنَّ المدرسة "فخٌّ منصوب للوقوع بديانتهم و بوطنيتهم".

بالفعل؛ لم يُعط المعلمون الفرنسيون لتلاميذهم انطباعا يوحي بأنهم يحاولون فرض هيمنتهم وذلك لفرط إيمانهم "بمهمتهم الحضارية". كان تعليم الأهالي، سنة 1908، في حاجة إلى الذود عنه ضد هجمات المستوطنين والوكالات المالية التي كانت تحاول إلغاءه أو الحدَّ من فعاليته بفتح "المدارس في شكل أكواخ"؛ ولهذا استعرض Paul Bernard منافع ذلك التعليم قائلا "الحقيقةُ أنَّنا نقوم، تحت غطاء تدريس التاريخ، بتقديم دروسٍ في الوطنية وإلقاء الخطب والمواعظ اللائكية التي تُمجِّدُ فرنسا" ونراه في مجالات أخرى يُعرِّف مهمة المدرسة الفرنسية في عبارات أقلَّ نفعية حين يقول: "إنَّ مهمتها الخيرية المزدوجة" كانت تقرن وظيفة السلطة "بأداة التعليم الفكري" وهذا جانبٌ ينبغي أن يحظى بالأولوية على حساب الجانب الأول: "إنَّ مدرسة الأهالي ليست مجرد مدرسة لتعليم المحادثة باللغة الفرنسية بل غايتُها هي التأثيرُ على الذهنيات وتحريرُها قدر المستطاع وتمكينُها من الأفكار العقلانية المتوفرة في الثقافة الأوروبية... لسنا بصدد التوجه إلى العبيد أو المملوكين بل إلى رجال. إنَّ على عاتقنا تحمُّل أعباء التنوير

7. "رؤوس أقلام، من أجل التعبير عن الحالة المعنوية للمستعمَر" دراسات متوسطية، (11) [illegible] ص. 76-77.

وواجبُنا، إزاء أنفسنا، هو أن نفرض عليها التبشير الأخلاقي وتطوير التفكير بعقلانية. ليس الهدفُ أن نُفَرنِسَهم ولكن أن نسمح لهم بالاقتراب من الفرنسيين مع الحرص على تحسين ظروفهم المعيشية المادية ونلخص هذا في عبارة واحدة فنقول: يجب علينا أن نتصرّف كمربين".[8]

صحيح أنَّ ذات الشخص يمكنه، حسب الظروف، أن يتحدث إما عن "الاحتلال الأخلاقي" أو عن "التبشير الأخلاقي". والفرق بين العبارتين واضحٌ. ومع ذلك يبدو أنَّ الدعاة القائمين على تعليم الأهالي لم يكونوا يدركون ذلك تماما فلقد كانوا يعتقدون أنَّهم قادرون أن يقدّموا، عن طريق الإدماج، خدمات جليلة لتلاميذهم ولأُمَّتهم في آن واحد من غير أن يعكر صفوَ ضمائرهم أيُّ شعور بالإثم.

لقد ردَّ Jeanmaire، مدير الدراسات، على الذين يؤاخذونه على تشبثه بذلك المعتقد قائلا: "لا أريد التصديق بأنَّ ما هو جيِّدٌ لأبنائنا لا يمكن أن يكون جيِّدا لأبناء الأهالي".[9] وفق هذا المنظور فإنَّ "خُطب الوعظ اللائيكي" التي تتغنى بأمجاد فرنسا تجد ما يبررها من غير عناء: إنَّ التعليم الذي يقدَّم للشباب الفرنسيين لم يكن يختلف عن ذلك؛ وخلافا لمقولة Fénelon التي تؤكد بأنَّ " المؤرخ الجيِّد لا ينتمي إلى زمن ولا إلى بلد" فإنَّ التاريخ الوطني قد تم استعماله كتكملة لما أخلّت به دروس الأخلاق والتربية المدنية باعتباره شكلا من أشكال التأريخ المقدس للديانة القومية. حدث ذلك في زمن كانت فيه أوروبا مزهوة بتفوُّقها العلمي والتقني؛ ولم تكن تعترف للعالم بحضارة أخرى غير حضارتها حيث كانت فرنسا، التي أذلَّتها وأضعفتها الهزائم المتتالية في 1814-1815 ثم في 1871، كانت تستعيض عن ذلك بحماس أكبر في تلقين أمجادها. أمام التجرُّد المادي فإنَّ الأولوية كانت تعطى للمكاسب

8. أنظر AGERON، أطروحة ص. 956، رؤوس أقلام 3 و 6.

9. ن. م. ص. 940.

الفكرية "فرنسا الأمة الرائدة حضاريا" إنَّ هذا الطرح المألوف في الخطب الرسمية يعبِّر بصدق عن الإمبريالية الفكرية الفرنسية التي تصبُّ في خانة استعادة مكانتها وذلك بتحقيق "احتلال أخلاقي" في أذهان العديد من الرعايا الأوفياء فيما وراء البحر. ومن موقعنا، لاحقا، يسهُل التنديدُ بهذا الخلط في ترتيب الأولويات؛ فلئن وُجد ثمة تقديسٌ فلقد انفلت عن وعي المبشرين به وهم الذين يعتبرون من أولى ضحاياه.

لم يكن المعلمون الفرنسيون يبحثون عن اقتلاع التلاميذ من وسطهم ولم يكن التعليم الابتدائي في الجزائر، كما هو الشأن في فرنسا، يهدف إلى تكوين نخبة متميزة وإنما كان يهدف إلى ترقية الجماهير. كانت البرامج في مدارس الأهالي، على وجه الخصوص، تؤكد على الجوانب التطبيقية والعملية للمعارف التي يتم تلقينها. إنَّ لهذا الجهد المبذول من أجل تكييف التعليم "تي" مع جمهوره جوانب "جيِّدة" حسبما ذهب إليه أحد أساتذة اللغة العربية حين يقول: "المراد هو الوصول بالشاب العربي والقبائلي إلى فهم الأفكار الجديدة من غير دفعه إلى كراهية نمط حياته التقليدي" لكن الواقع المسلَّم به مُسبقا هو أنَّ "الأفكار الجديدة" لا يمكن أن تصدر إلا من الغرب، أي من فرنسا مع تجاهل تاريخ الجزائر وجغرافيتها وكلِّ المساهمات الثقافية للحضارة العربية؛ فكيف نُجنِّب الشاب "كراهية نمط حياته التقليدية" إذا فصلناه عن كلِّ ما يمكن أن يُبرز قِيَمَ "نمط الحياة" هذا؟ فالإطار لا يمكن أن يحتفظ بقية قيم إلا إذا تواصل باستمرار مع جذور ثقافة بلده بعد إحيائها".[10]

هكذا كان التعليم الفرنسي، العاجز عن توفير التكوين لجميع الأهالي مجبرًا على إحداث القطيعة بين تلاميذه وبين محيطهم الاجتماعي لأنَّ ذلك التعليم لم يكن يندرج في الثقافة التقليدية وإنما كان يطرح نفسه بديلا عنها

10. Robert MALAN، نفس المصدر.

نفس الملاحظ ينتهي إلى التعبير عن أسفه على: "مرارة القطوف التي تُجنى من المدرسة" والتي" تصدر عن توجيه ذي نزعة إدماجية قوية" خاصة و "أنّ الأوروبيين والمسلمين يعيشون نفس الميول الخفية والظاهرة لدى الطرفين، وهي التي تتمثل في هاجس التقليد؛ فبالنسبة للبعض ينبغي أن يكون كلُّ شيء مطابقا للصورة الموجودة في فرنسا وبالنسبة للبعض الآخر فإنّ كلّ ما يجعله مخالفا للأوروبيين يبدو له ظُلمًا". إذن لقد كان على الطلبة المسلمين انتظارُ مرور الأيام قبل أن يكتشفوا، في مرحلة متأخرة، أنّهم "أيتامٌ يتنازعهم عالَمان". في أول الأمر كان التلميذ منبهرا بالعالم الجديد الذي فتحته المدرسة الفرنسية أمام عينيه وكان يطمح إلى الاندماج فيه.

إنّ الوظيفة الأساسية لمدرسة الأهالي هي تلقين اللغة الفرنسية كمعطى ضروري لفهم كل محتويات التعليم؛ وإنّ هذا التعليم المتسبِّب في التأخر المدرسي والذي يتم تلقينه بواسطة لغة أجنبية، مفروضة كوسيلة تعبير وحيدة، بدلا عن لغة الطفولة قد أحدث عاهة ثقافية وتغييرا في المحيط الذهني. لقد لاحظ عبد الله مازوني: "أنّ هذه الغربة التي يعيشها الجزائري في رحم بلده بالذات تشكِّل، بدون شك، عنصرا هاما من عناصر الانبهار ومصدر الاهتمام والاعتناء".[11] إنّ التلميذ المسلم الخاضع إلى "عملية استلاب ثقافي بأسلوب مكثَّف ومنهجي" كان فرنكوفونيًا بحق وكانت لغتُه أنقى من لغة الشباب الفرنسيين الذين أصيبوا بعدوى التحريف الناتج عن الإفراط في استعمال العبارات الدارجة؛ فهو يتحدث ويفكِّر باللغة الفرنسية. "يمكن أن نولد في بوسعادة أو في تيزي وزو فذلك مجرَّد حدث بيولوجي وجغرافي محض ثم نلج إلى العالم من باريس وذلك حدثٌ فكري" (...)" يُشكِّلُ التحوُّلُ الذهني سلسلةً أخرى من الظواهر المخالفة للتحول الفيزيولوجي

11. عبد الله مازوني " "الثقافة والتعليم في الجزائر وفي بلدان المغرب" Maspero 1969، ص. 45-48.

فالأول يستغرق تسعة أشهر وتجري وقائعه في عالم آمن وأما الثاني فيمتد على مدى ثمانية عشر عاما، على الأقل، وهو مفتوح على كل المؤثرات" إنّ التعليم الفرنسي، حين يفتح آفاقا لا محدودة ومغايرة للتي عرفها الأبوان، يُحدث في المتعلم لا محالة تحوُّلاً يقتلعه من الجذور. كان المثقف المسلم يتقبل ذلك الاقتلاع باعتباره ثمنا ينبغي دفعه لبلوغ رُشده؛ وفي هذا الصدد يقول مولود معمري: "إنّ اللغة الفرنسية لا تمثل، بالنسبة إليَّ، لغةَ العدو الممقوتة وإنما تمثل أداةَ تحرُّر لا مثيل لها وهي، فوق ذلك، أداةُ اتصال مع بقية العالم؛ وأعتقد أنها تُترجم عن مكنون نفوسنا أكثر مما تخونه".[12]

من الطبيعي أن ينظر أوائلُ الطلبة الجزائريين إلى فرنسا باعتبارها "البلد الأم" وتلك عبارة لُقِّنوها تلقينا وتقبلوها بكل إخلاص. أثناء الحرب الكبرى 1914 – 1918، كان 3.000 من المساجين المسلمين الجزائريين متواجدين في معسكر Zossen ولقد ظلوا يرفضون شتى الحجج التي كان بعض المهاجرين يحاولون إقناعهم بها وبالخصوص منهم التونسيين الذين كانوا يتعاملون مع الألمان. يمكن التذكير بالردود التي تلقَّاها الشيخ صالح شريف من طرف بعض أولئك السجناء حين قالوا له: "كُنَّا وسوف نظل فرنسيين" أو قولهم "لا ينبغي للولد أن يحارب أمه"؛ ولكن الذين رفضوا التنكر لبذلتهم العسكرية وكانوا ثائرين ضد الدعاية الوطنية قد صُنِّفوا من طرف الألمان ضمن قائمة "الشباب الجزائريين" (...) وتم توزيعهم على مختلف المعسكرات وعومل بعضُهم معاملة قاسية".[13] حدث في باريس، قبل سنة 1914، أن توجَّه جميل مردم (الذي سوف يتولى رئاسة المجلس في سوريا) توجَّه إلى بعض الطلبة

12. ذكره عبد الله مازوني. نفس المصدر. ص. 221.

13. ذكر ذلك AGERON، "في الأطروحة... ص. 1184، حسب Jean MELIA، "الجزائر وحرب 1914-1918" باريس 1918. انظر Gilbert MEYNIER " l'Algéie révelée" ص. 457-458، من أجل تحليل مخالف.

المسلمين الجزائريين ملتمسا منهم الانخراط في جمعية عربية ولكنهم رفضوا نداءه من غير تردد قائلين: "إننا فرنسيون".[14]

كتب Albert Memmi في كتاب له بعنوان "ملامح الرجل المُستعمَر": إنَّ أوّل ردود فعل الرجل "المتطور" الذي كونته المدرسة الأجنبية هو "مشاعر الحب التي يُكنُّها للمستعمِر وإنَّ أوّل ما يطمح إليه الرجل المستعمَر هو أن يرقى إلى مستوى السمعة التي يحظى بها سيِّدُه وأن يكون شبيها له إلى حد الذوبان في شخصه".[15]

## 2- تحليل الحركة الاندماجية

يُعتبرُ كتابُ بن حبيلس "الجزائر الفرنسية من منظور أحد الأهالي"، والذي نُشر سنة 1914، أحسن وثيقة تترجم تلك الإيديولوجية بصدق ومما جاء فيه: "إنَّ هذا الحُكم بمثابة اعتراف مُحتشم يصدر عن جزائري، من الأهالي، تربَّى في مقاعد المدرسة الفرنسية ويعشق تلك التسمية الجميلة، المتمثلة في كلمة فرنسي، ولقد تلقى تعليمه بفضل الإدارة الفرنسية ومن واجبه الاعترافُ بهذه الحقيقة فهو لا يود تجريح من أسدى له الجميل، كما يفعل بعض الناكرين، ولا يتملَّق الأقوياء ممن دانت لهم الأمور يوما. إنَّه يتمنى، بكل بساطة، البرهنة على عرفانه بالجميل عبر المساهمة بوضع لبنة في البناء الشامخ الذي تشيده الجمهورية الثالثة على الأرض الجزائرية وربما ببعض التسرُّع أحيانا ولكنه عملٌ مكلَّلٌ بالنجاح في كثير من الأحيان".[16]

يتمحور الكتاب حول أفكار "التقارب بين الطائفتين" و"اندماجهما" ويستعرض المنجزات الفرنسية في الجزائر ويكيل لها المديح بسخاء ولقد

---

14. ذكر ذلك عمار نروم.

15. "ملامح الرجل المستعمَر" وقد سبقه "ملامح المستعمِر" باريس، 1957، ص. 157.

16. بن حبيلس نفس المصدر. ص 5.

تمكّنت فرنسا من إحلال الأمن في بلد عكرته النزاعات الأهلية وسطت عليه العصابات: "إنّ إحلال الأمن إنجازٌ عظيم في سبيل التقارب بين الطائفتين علاوة عن فوائده الاقتصادية التي تعود على الأهالي؛ وهو سببٌ كافٍ لدفعهم إلى إجلال فرنسا وإكبارها. إنّ تدعيم الهدوء والاستقرار وتوسيع رقعته معناه العمل بثبات لتحقيق إدماج إخواننا".[17] ولقد أفرط الكاتب في مدح مآثر الاستعمار بمغالاة فاقت الحد حين قال: "هل يوجد تقاربٌ أقوى وأكثر نزاهة؟ كيف يكون مصيرُ المستوطن بدون الأهالي؟ ومن الذي شحذَّ أذهان هؤلاء الأهالي وحبب إليهم العمل إن لم يكن المستوطن؟ (...) من ذا الذي يجرؤ على نكران الإنجاز العظيم المنبثق عن هذا التعاون؟ إنّ الاستعمار، بهذا المفهوم، أفضلُ وسيلة لتحقيق التقارب؛ وهذا هو ما يعتقد جميع الناس. لقد جلب الاستعمارُ الثراء للبعض وجلب الرخاء للأغلبية وحقّق للجميع حياة أفضل وعناية صحية أحسن؛ ولقد قلب الاستعمار أوضاع الأهالي رأسا على عقب وأخرجهم من حالة الخمول الموروثة".[18] ثم نوّه الكاتب بميزة أخرى للاستعمار تمثلت في إقناع الأهالي بأنّ الاحتلال الفرنسي أمرٌ لا رجعة فيه وأنّ عليهم الرضوخ لذلك: "تضيف القول بأنّ الرضوخ للاستعمار لن يشوبه أي شعور بالندم بل على العكس إنّه شعور نبيلٌ وأهلٌ للتقدير والإعجاب". ولم يتعرض المؤلف للمشكل الإنساني الناجم عن الاستعمار إلا في آخر الفصل حين يقول: "من الأهمية بمكان معرفة ما هو نصيب الأهالي من مزايا الاستعمار الذي خدموه بسواعدهم؛ فإذا لم يُقلص الاستعمارُ الحواجز المعنوية والمادية بين الشعبين فإنه لم يخلق عراقيل جديدة بسبب إفرازه طائفة جديدة من ذوي الامتياز بين السكان المحليين".[19] تجنّب الكاتب ذكر

17. نفس المصدر، ص. 10.

18. نفس المصدر، ص. 15-17.

19. نفس المصدر، ص. 19-20.

الصعوبات بالتهرُّب منها وحين تحدث عن آلاف البدو الرحل المطرودين نحو الجنوب، بعد الاستيلاء على مراعيهم، لم يجازف بطرح "هذا المشكل الخطير الذي كان يقضُّ مضجع الإدارة الجزائرية المكلفة بالمحافظة على التوازن بين عناصر سكان المستعمرة"؛ بل فضَّل الكاتبُ إرجاء الموضوع قائلا: "ربما يأتي اليوم الذي نبوح فيه بالحقيقة بعد أن نكتسب الخبرة وتنضج أفكارنا بفعل السنين".

فيما يتعلق بالتدريس؛ مدح الكاتب"النوايا الحسنة للإدارة العليا" وتأسّف على بطء إنجازها ورفض، في معرض حديثه عن "البلديات المزدوجة"، انتقادَ نظام حكم الأهالي المتعسف فقال: "بلى! إنَّ قانون الأهالي، حين يطبق بنزاهة، مكسبٌ وضمانٌ للأمن العمومي ولقد أسفر في مناطق عديدة عن نتائج حسنة".[20] وفي صفحات أخرى من الكتاب أشاد الكاتب باحترام وتقدير "بالإدارة حامية الرعايا الأهالي" وذكر أنَّ "أعزَّ أمانيه سوف تتحقق يوم يتجسَّد في شمال إفريقيا تحالفُ الأفكار والطموحات والمشاعر وفي فترة لاحقة أواصر الدم التي وضع قواعدها أمثال Bugeaud وTirman وJonnart و"Lutaud.[21] اقترح الكاتب إصلاح بعض الميادين مثل "نظام الخمَّاسة":[22] ونصح بفرنسة الأهالي عن طريق تشجيع الهجرة إلى فرنسا قائلا: "عندما يتم اتصالهم بإخوانهم، فيما وراء البحر، فسوف يكوِّنون فكرةً حقيقية عن قوة فرنسا وسينشرون هذه الفكرة، لا محالة، بعد رجوعهم إلى البلد بفضل ما أوتو من براعة في الخيال والحكاية".

هكذا اعتنق بن حبيلس، وبشكل مطلق، قضية أسياده وتبنَّى وجهات نظرهم كلها وحتى أوهامهم: "ما الذي يضرُّ إذا نفد صبر أولئك الذين

20. نفس المصدر. 59.

21. نفس المصدر. ص.36.

22. نفس المصدر. ص. 76.

الصعوبات بالتهرُّب منها وحين تحدث عن آلاف البدو الرحل المطرودين نحو الجنوب، بعد الاستيلاء على مراعيهم، لم يجازف بطرح "هذا المشكل الخطير الذي كان يقضُّ مضجع الإدارة الجزائرية المكلفة بالمحافظة على التوازن بين عناصر سكان المستعمرة"؛ بل فضَّل الكاتبُ إرجاء الموضوع قائلا: "ربما يأتي اليوم الذي نبوح فيه بالحقيقة بعد أن نكتسب الخبرة وتنضج أفكارنا بفعل السنين".

فيما يتعلق بالتدريس؛ مدح الكاتب"النوايا الحسنة للإدارة العليا" وتأسّف على بطء إنجازها ورفض، في معرض حديثه عن "البلديات المزدوجة"، انتقادَ نظام حكم الأهالي المتعسف فقال: "بلى! إنَّ قانون الأهالي، حين يطبق بنزاهة، مكسبٌ وضمانٌ للأمن العمومي ولقد أسفر في مناطق عديدة عن نتائج حسنة". [20] وفي صفحات أخرى من الكتاب أشاد الكاتب باحترام وتقدير "بالإدارة حامية الرعايا الأهالي" وذكر أنَّ "أعزَّ أمانيه سوف تتحقق يوم يتجسَّد في شمال إفريقيا تحالفُ الأفكار والطموحات والمشاعر وفي فترة لاحقة أواصر الدم التي وضع قواعدها أمثال Bugeaud وTirman وJonnart و"Lutaud". [21] اقترح الكاتب إصلاح بعض الميادين مثل "نظام الخمّاسة"؛ [22] ونصح بفرنسة الأهالي عن طريق تشجيع الهجرة إلى فرنسا قائلا: "عندما يتم اتصالهم بإخوانهم، فيما وراء البحر، فسوف يكوِّنون فكرةً حقيقية عن قوة فرنا وسينشرون هذه الفكرة، لا محالة، بعد رجوعهم إلى البلد بفضل ما أوتو من براعة في الخيال والحكاية".

هكذا اعتنق بن حبيلس، وبشكل مطلق، قضية أسياده وتبنَّى وجهات نظرهم كلها وحتى أوهامهم: "ما الذي يضرُّ إذا نفذ صبر أولئك الذين

---

20. نفس المصدر. 59.

21. نفس المصدر. ص.36.

22. نفس المصدر. ص. 76.

يسخرون من بطء الإجراءات الإدارية فلقد انتظر الأهالي قرونا في خضم الفوضى السائدة... سوف يتحملون الانتظار قرنا أو قرنين إضافيين في كنف السلم والطمأنينة التي زرعتها الجمهورية الثالثة في أرض شمال إفريقيا".[23] إنّه يعتقد، مثل أسياده، أنّ الوقت يعمل لصالح الجزائر الفرنسية.

ومثلهم كان يُصدر على الأهالي أحكاما قاسية ممزوجة بالرعاية الأبوية فكان يندد بذلك "التراخي الموروث" و"الخمول العريق" وبالأحكام المسبقة وعدم التفاني في بذل الجهد وهي صفات تميز الأهلي "المتوحش" "الذي يولد راش بامتياز" راض بالبؤس وبالأمراض. خصّص الكاتب للحديث عن مجتمعه الأصلي أكبر قسط من قدراته على النقد والتنديد وبما أنّ الأمر يتعلق بذويه فإنه، خشية أن يتنكر لذاته، لم يكن في مقدرته أن يمقتهم فهو يخجل منهم ولصالحهم؛ وذلك هو "المقت الذاتي"، الذي يعتبره Memmi، امتدادًا "لعشق المستعمِر": "إنّ الشخص المستعمَر لا يسعى إلى تزيين نفسه بخصال المستعمِر، فحسب، بل يتمادى في إفقار نفسه وفي انتزاع نفسه من نفسه؛ إنّ انسحاق المستعمَر أمرٌ متضمَّنٌ في القيم الاستعمارية ذاتها فحين يتبنى الشخصُ المستعمَر تلك القيم فهو يتبنى الحكم على نفسه؛ ولكي يتحرر فإنه يوافق على تحطيم ذاته".[24] لكن ينبغي التقليل من حدة هذا التحليل فابن حبيلس كان، على العكس، يمدح شعبَه "وخصوصا فئة الفلاحين البسطاء الكادحين والطيّعين"[25] والذين أنجبوا تلاميذ نجباء للمدرسة الفرنسية وهو يعتقد أنّهم مستعدون للإدماج فيقول: "في الأوساط الشعبية نجد العناصر التي يمكن إدماجها بسهولة. والشعب وحده يمكن أن يرتمي في أحضان أمه بلا أفكار مسبقة وهو وحده الذي يمكن أن يمد لأولاده يدا نزيهة

23. نفس المصدر.

24. MEMMI نفس المصدر. ص. 79.

25. بن حبيلس نفس المصدر. ص. 79.

يسخرون من بطء الإجراءات الإدارية فلقد انتظر الأهالي قرونا في خضم الفوضى السائدة... سوف يتحملون الانتظار قرنا أو قرنين إضافيين في كنف السلم والطمأنينة التي زرعتها الجمهورية الثالثة في أرض شمال إفريقيا".[23] إنّه يعتقد، مثل أسياده، أنّ الوقت يعمل لصالح الجزائر الفرنسية.

ومثلهم كان يُصدر على الأهالي أحكاما قاسية ممزوجة بالرعاية الأبوية فكان يندد بذلك "التراخي الموروث" و"الخمول العريق" وبالأحكام المسبقة وعدم التفاني في بذل الجهد وهي صفات تميز الأهلي "المتوحش" "الذي يولد راش بامتياز" راض بالبؤس وبالأمراض. خصّص الكاتب للحديث عن مجتمعه الأصلي أكبر قسط من قدراته على النقد والتنديد وبما أنّ الأمر يتعلق بذويه فإنه، خشية أن يتنكر لذاته، لم يكن في مقدرته أن يمقتهم فهو يخجل منهم ولصالحهم؛ وذلك هو "المقت الذاتي"، الذي يعتبره Memmi، امتدادًا "لعشق المستعمِر": "إنّ الشخص المستعمَر لا يسعى إلى تزيين نفسه بخصال المستعمِر، فحسب، بل يتمادى في إفقار نفسه وفي انتزاع نفسه من نفسه؛ إنّ انسحاق المستعمَر أمرٌ متضمَّنٌ في القيم الاستعمارية ذاتها فحين يتبنى الشخصُ المستعمَر تلك القيم فهو يتبنى الحكم على نفسه؛ ولكي يتحرر فإنه يوافق على تحطيم ذاته".[24] لكن ينبغي التقليل من حدة هذا التحليل فابن حبيلس كان، على العكس، يمدح شعبَه "وخصوصا فئة الفلاحين البسطاء الكادحين والطيِّعين"[25] والذين أنجبوا تلاميذ نجباء للمدرسة الفرنسية وهو يعتقد أنّهم مستعدون للإدماج فيقول: "في الأوساط الشعبية نجد العناصر التي يمكن إدماجها بسهولة. والشعب وحده يمكن أن يرتمي في أحضان أمه بلا أفكار مسبقة وهو وحده الذي يمكن أن يمد لأولاده يدا نزيهة

23. نفس المصدر.

24. MEMMI نفس المصدر، ص. 79.

25. بن حبيلس نفس المصدر، ص. 79.

وصريحة لأن ذلك السلوك لا يخلق في نفسه أدنى شعور بالندم على الماضي الذي انقضى ولا على الحاضر ولأنه لا يُحسن تغطية الحقيقة بالأقنعة؛ إنَّه لا يكره المنتصر اليوم لأنه لم يكن يحبه بالأمس ولكن إذا عرفت الأمة كيف تواصل إنجازها بسخاء ففي مستطاعها السيطرةُ عليه تماما"[26]؛ وليس لهذا الشعب البائس شيء يخسره بل سوف يربح كل شيء حين يصير فرنسيًا؛ إنَّه شعب بسيط وطيِّب وسوف تلين قناته بسبب الاعتراف بالجميل. تتمثَّل العقبة الوحيدة في ذلك الكمّ الهائل من الأحكام المسبقة الموروثة ولسوف يبددها التعليم "حين يتعلم هذا الإنسان على مقاعد المدرسة الفرنسية سوف يتم كسبه".[27] إنَّ العيوب التي يتميّز بها الأهالي والتي مردُّها إلى الجهل والبؤس ليست طبيعة متأصلة فيهم: لا ينتمي العنصر العربي إلى "جنس منحط ولا غير قابل للتعليم". بن حبيلس مؤمن بإمكانية تحسين أوضاع شعبه وليس صحيحا "الادعاء بأن الأهالي كتلة جامدة ومستعصية منذ ثمانين سنة؛ فلقد قدّموا ما كان منتظرا منهم فتراهم مندفعين مقبلين على العمل وقد خلب لبَّهم نمطُ المعيشة الجديد في بعض نواحي المستعمرة كما قد تجدهم، في نواحي أخرى من الحياة، عديمي الإحساس وكسالى وغير مبالين بشيء. ما قيمة قرن من الزمن بالنسبة لمسار التطور الفكري لدى شعب من الشعوب؟"[28] يُعتبر موقف الشريف بن حبيلس من الفلاح الجزائري من بوادر الاتجاه الشعبوي الذي ميَّز الحركة الطلابية الجزائرية. إنَّ لفظة "شعب" مستعملةٌ هنا بمفهومها الاجتماعي وهي مرادف للطبقة الكادحة الواسعة الانتشار في المجتمع ولا تتضمن اللفظة أية دلالة وطنية مسبقة. ينبغي على الأمة الفرنسية إدماجُ هذا "الشعب" الذي سوف ينضوي تدريجيا في كيانها".

26. نفس المصدر. ص. 81.

27. نفس المصدر ص. 61.

28. نفس المصدر. ص. 29.

البهائم. إنّ كرامة الإنسان أسمى من النزوات وأنبل من الشهوات الهمجية".[30]

إنّ "كراهية الذات" لا تستهدف الشعب وإنما تستهدف النُخب المسئولة على مصير الحضارة؛ وفي هذا الصدد كان الحكم قاسيا وصارما ولا مجال للاستئناف فيه: "قرونٌ من الانحطاط تكفي!". يقدّم بن حبيلس خصوصيات الشعب الجزائري المسلم مستعينا بعبارة حفظها عن بن موهوب، معلّمه في المحضرة، فيقول: "لقد بلغ الشعب الدرك الأسفل من الانحطاط". ثم ألقى أربع محاضرات سبق لمعلمه أن ألقاها باللغة العربية حيث توالت عبارات الشكر والعرفان لفرنسا التي تنشر العلم في أوساط رعاياها الأهالي وعبارات التنديد بالجهل الذي يصرُّ المتعصبون على البقاء منغلقين فيه. هذه الفئة القبيحة من المسلمين التي تعمل لتمديد فترة انحطاط المسلمين بالتنكر للتعاليم الحقيقية التي جاء بها الرسول: "لقد هجرنا العلوم والفنون فأضحينا معزولين لا نبذل أي مجهود لاقتفاء أثر الدول الكبرى فبقينا في المؤخرة؛ وديننُا لا يمنعنا من المساهمة في ذلك الترقي نحو الأفضل الذي يسود العالم. هانحن نشاهد مختلف الشعوب تنتج أشياء مفيدة يحثنا دينُنا على اكتسابها ولكننا لا نصغي إليه. بل أكثر من ذلك؛ لقد أصدرنا فتاوى تعلن للملأ أن الأشياء العصرية سيئة؛ فهاهي المصائب تسحقنا بصواعقها"[31] ولهذا فقد المسلمون استقلالهم لأنهم أساءوا استعماله ولقد جاء الاحتلال الفرنسي لانقاذ الجزائر المسلمة من الانحطاط.

وبالفعل؛ فإن الماضي القريب، المرتبط بفترة ما قبل الاستعمار، كان موضوعَ استهجان الكاتب حين يقول: "بعد أن تحولت الجزائر إلى وكر حقيقي

---

30. نفس المصدر، ص. 104.

31. نفس المصدر، ص. 152.

للقراصنة وقُطّاع الطرق في أغلب فترات الاحتلال السالفة فإنها لم تعرف هُدنة، عن السلب والنهب، إلاّ يوم تحولت هذه الأرض فرنسية".[32] تعرّض شريف بن حبيلس للحديث عن التاريخ الكولونيالي ولكنه أورد من التقاليد المحلية ما يؤكد أطروحته فقط؛ فلقد تحدّث عن الأعمال الفظيعة التي كان يرتكبها بوعكاز، أمير فرجيوة، وعن نزواته المرعبة ولاحظ الكاتب، متأسّفا، أنّ تسلُّطه بوعكاز استمر طويلا بعد الاحتلال بسبب تواطؤ القوة المنتصرة حيث يقول: "فالذين عايشوا الفترة التي ساد فيها الوحشُ وشاهدوا الخراب الذي زرعه في مقاطعة قسنطينة لا تزال فرائصُهم ترتعد لذكره. إنّ بعضا ممن لا يزالون على قيد الحياة، ومنهم خادم عائلتنا الشيخُ الوقور الذي بلغ السابعة والتسعين، يمكن أن يؤكدوا لكم أنه في زمن مضى كان من اليسير الانتقال من ميلة حتى سطيف بمائة دابة محمّلة بالقمح وكان بالإمكان الإقامةُ وسط الحقول دون خشية التعرُّض لسوء. ربما كان ذلك الكلام صحيحا إلى حد ما غير أنه لا يتنافى مع كون بوعكاز من أكبر قُطّاع الطرق الذين عرفتهم المملكة". إنّ تحريف هذه الشهادة يفضح بشكل واضح تحيُّز الكاتب: "فهل في وسع الأهالي أن يكونوا صادقين في استعراض مجريات "ذلك العهد الجميل؟" طبعا لا والذين يقومون، دفاعا عن إخوانهم في الدين بالمقارنة ما بين العهد الذي سبق سنة 1830 والعهد الذي يليها ثم يفاضلون بينهما ليسو سوى مُحرِّفين لا يمكن إثبات ما يذهبون إليه".

كان بن حبيلس إذن يصدم التقاليد الشفوية التي تتغنى بأمجاد الماضي وتستهجن الحاضر وهي الصادرة عن "العمائم القديمة" التي تَحِنُّ إلى الماضي وفي قصائد الشعر الملحون؛[33] التي يلقيها المداحون الجوّالون

32. نفس المصدر. ص. 7-9.

33. "الشعر الجزائري من 1830 إلى اليوم" تحت إشراف Albert MEMMI، منشورات Mouton، 1963، ص. 19-38 أنظر AGERON، أطروحة. ص. 920-921، وMEYNIER، الأطروحة المذكورة، ص. 253-254.

الذين تتغنى أشعارُهم بأمجاد أبطال الإسلام منذ عهد الصحابة إلى عهد الأمير عبد القادر ثم تبكي على الهزائم التي منوا بها. وكان هؤلاء وأولئك يلعنون القرن الرابع عشر (الهجري) باعتباره فترة انتصار للكفر ومذلة للمسلمين لا ينتظرون بعده سوى قيام الساعة أو حلول المهدي المنتظر "صاحب الساعة" الذي "سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا" أما تقليد المسيحيين فذلك أمرٌ غير وارد إطلاقا. على عكس ذلك يوجد حديثٌ يؤكد أنَّ البقاء على الصراط السوي يكمن في "مخالفة الكفار"؛ وإنَّ الآية القرآنية التي تقول: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" هي الدليل على عدم الاعتراف بتفوق الأسياد الأجانب.

لكن بعد انقضاء قرون العزلة أدرك جمهور المسلمين حالة الجهل التي آلوا إليها. ولقد ساهمت المدرسة الفرنسية في الجزائر بقسط كبير في تلك الثورة الثقافية. كان الخزي يمثل فيها العامل الحاسم: الخزي الذي يجسِّدُه تفسيرُ نزول المطر بتدخل مباشر لله والاعتقادُ بأن الأرض ترتكز على قرني ثور ومشاهدُ الاحتفال بالجنّ وتشريفهم بالقرابين وبالرقص في "الدواوين" أيحدث هذا في القرن العشرين وفي مدينة يخفق فيها العلَم الفرنسي؟ فلنحارب الجهل! ولنقض على الخمول فذلك هو عدونا الحقيقي".[34] لا ينبغي إلقاء التهمة على المحتل فالعدو الحقيقي موجودٌ داخل مجتمع الأهالي وداخل كل واحد. هذه هي، بشكل ما "كراهية الذات" فيجب القضاء على الرجل الهرم الذي يسكن الذات.

يمكن الرد بالقول: إن شريف بن حبيلس لم يكن الممثل الحقيقي للشباب الجزائري وأنَّه وضع نفسه فوق الزِّحام وتموقع بينهم وبين أعدائهم ليؤاخذهم على عنف الأسلوب في جرائدهم والذي تجاوز حدود اللياقة وعلى عدم ثقتهم في الإدارة. غير أنَّه كان يقدم شخصه كضامن لإخلاصهم

34. بن حبيلس م. م. ص. 153.

للقضية الفرنسية؛ ومهما يكن الأمر فلقد كان عربونا للاندماجيين ولكن لا ينبغي أن نخلط بين هؤلاء وبين باقي الشباب الجزائري.

كان الشبان الجزائريون يتميزون، بفضل تواضعهم، عن جموع "المستعجلين" الذين انتقدهم بن حبيلس، قبل سنة 1914، أي أولئك الذين حوّل الهوانُ المسلط عليهم أنظارَهم شيئا فشيئا عن فرنسا. وعلى نقيض "البسطاء"، الذين وجدوا العراقيل حافزا لشحذ عزائمهم وأصروا على تجاوزها للانخراط في الأمة الفرنسية، كانت تلك الذهنية موضوع انتقاد لاذع من طرف الوطنيين الجزائريين فمثلا كتب محمد عبدللي في معرض تعقيبه على مجلة المعلمين ذوي الأصول الأهلية قائلا: "فريق بأكمله يعودُ أصلُ نشأته إلى زمن ما قبل الحرب يُسمّي نفسه "صوت البسطاء" إنَّ هذه التسمية وحدها عبارةٌ بليغة للتعبير عن تلك الحالة".[35] وأصدر محمد شريف صالحي، بلهجة أكثر حدَّة، حكمَه الصريح فقال: "رجالٌ لا إيمان لهم ولا حُرمة وضعوا أنفسهم في خدمة المحتل إنهم عملاء من النوع المبتذل ومزوَّرون؛ وإنَّهم يجنون من وراء تلك العمالة فوائد جمَّة. ولكي تتمكن تلك البرجوازية الجديدة من تطوير امتيازاتها الطبقية فإنها طالبت بالمساواة في الحقوق عن طريق الاندماج؛ وهي راغبة في أن تصبح فرنسية للحصول على مكانة في مائدة الأسياد".[36] لكن؛ إذا كان من الضروري التشكيك في صدق نية هذا أو ذاك فلماذا التعرُّض للذين تمسَّكوا بأهداب قضية ميئوس منها؟ صحيحٌ أنَّ بعض الاندماجيين، ممن خاب ظنُّهم، قد تطوروا مثل شريف بن حبيلس وأنَّ البعض الآخر تمسَّك بمذهبه إلى النهاية؛ لكن ليس من حقنا أن نحكم على أي كان.

35. "الأدب الجزائري الجديد"، في الآداب الفرنسية (60) 8-14 مارس 1956.

36. "الجزائر تتهم: متاعب الشعب الجزائري" الجزائر 1949، ص. 56-58 محمد شريف صالحي كان بنفسه اندماجيا حوالي 1930-1932.

"كراهية الذات" تعبيرٌ عن الرغبة في القطيعة مع ماضي الجزائر القريب و البعيد؛ ولكن للرفض درجات يجب أن نميِّز بينها، بدقة. فغلاة المتطرفين يرفضون ماضيهم العربي الإسلامي جملةً وينظرون إلى سيرة الفرنسيين كهوية جديدة يطمحون لاكتسابها. فنجدهم تارة من بين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية، تحت تأثير المبشرين، وتارة أخرى من الدُّعاة إلى تبني اللائيكية التي تسعى إلى نشرها مدارس تكوين المعلمين وفي كلا الحالتين هم، في أغلب الأحيان، من بين سكان بلاد القبائل. بالفعل؛ إن بلاد القبائل ذات الصناعة البارعة والكثافة السكانية العالية قد شكَّلت بالنسبة للسلطات الفرنسية حقلا للتجارب الرامية إلى إحداث شرخ في الكتلة العربية الإسلامية وذلك بإدماج الأقلية البربرية أو بفصلها عن الأغلبية العربية. لذلك؛ فإن هذه النزعة الاندماجية، سواء أكانت مسيحية أو لائيكية، فإنها تبرز في أكثر الأحيان في شكل "توجُّه بربري" وبعبارة أدق "توجه بربري مزعوم" لأنَّهم لم يكونوا يظهرون الرغبة في الدفاع عن الثقافة البربرية أو إبرازها وإنما التنكر للعروبة والإسلام لكي يهبوا "بلاد البربر" جسدا وروحا إلى فرنسا. لا داعي للتأكيد كيف يكون مثل ذلك المذهب المخالف للتقاليد الإسلامية في الوسط القبائلي، الشديد الحذر من "إيرومِّين"، مدينًا في انتشاره للتعليم الفرنسي وبالخصوص إلى تعليم جامعة الجزائر.[37] إنَّ التوجه البربري المزعوم أيديولوجية مُصطنعة بالرغم من الإخلاص الذي أبدته القلَّةُ من معتنقيها.

إنَّ المحامي بلقاسم إباعزيزن باعتباره رائدا للبربرية المسيحية، والذي تسمى في الكنيسة باسم أوغسطين، قدَّم سنة 1930 تحليلاً عن "تطور الشبيبة القبائلية"[38] يقول فيه: "تطمح الشبيبة القبائلية إلى التفرنس" وهذا يجد

37. أنظر مراد، نفس المصدر، ص. 357.

38. مقال في "المجلة الجديدة للشباب" ذكره Jean Paul ANGELELLI، في أطروحته للدرجة الثالثة، "الرأي العام الفرنسي وجزائر 1930، باريس 10، 1972، ص. 251-252. أنظر: ذكريات أوغسطين بلقاسم إبازيزن، "Le pont de Bereq Mouch ou le bond de mille ans"، الطاولة المستديرة، 1980

ذلك لا يعني أنّه يحبها" هناك عقبة تحول دون ذلك إنّها "الإسلام" "لكن يمكن أن نجد وسيلة لإضعاف تلك الخصوصية" وإنّها اللائيكية: "يمكن لفرنسا أن تستوعب العالم الإسلامي بشرط أن تكون لائيكية بكل عزم وبكل نشاط بل بكل عدوانية".[39] تلك اللائيكية يمكن أن يكون معناها الفكرُ الإلحادي العلمي أو الارتيابُ الفلسفي أو أية عقيدة هادئة خالية من التشدد ومن اللاّتسامح. لكن كيف يمكن أن تظهر في وجه آخر غير الذي يجعلها موجّهة ضد الإسلام التقليدي؟

إنّ "رسائل جزائرية" التي نشرها المحامي "حنفي لهمك" المدعو حسناي لهميك(سنة 1931) تعطي لنا المثل الصارخ "للائيكية الهجومية": "لا أُكنّ للإسلام ولا لأية ديانة أخرى حُبًا أعمى ولا عداوة دائمة. غير أنني أعتقد بأنّ الضرورة العاجلة تفرض إبقاءه ضمن مجال لا ينبغي له أن يحيد عنه: إنّه المجال المقدّس للفكر الأخلاقي"[40] إنّ التصريح بتلك العقيدة اللائيكية لم تمنع المؤلف من القيام بمرافعة ضد الإسلام وضد العرب فاعتبر ذلك فضيحة من طرف العلماء. إنّ أبشع ما جاء به الاحتلال العربي، حسب رأيه، هو: "إدخال عامل الموت الذي يسمى الإسلام في بلاد البربر(...) مخدرًا ذا فعالية عظيمة" فمبادئ القرآن متناقضةٌ تماما مع قوانين الحياة العصرية". "وباعتناقها الإسلام فإنّ جُموعا جاهلة تتوجه حتما نحو قعر سحيق". كان الكاتب مقتنعا بالنزعة البربرية، إذا أردنا أن نطلق ذلك على النظريات التي ترمي إلى فصل بلاد البربر عن المشرق وإعادته إلى أوروبا، "نحن لاتينيون"

---

39. مقال J. DENIS، "حديث مع شاب مثقف من الأهالي، "Le Populaire" 29-04-1939، ذكره ELLI-ANGEL، نفس المصدر، ص. 286. إن الأفكار الفلسفية والدينية للشباب الجزائري تستحق دراسة معمقة، انظر Xavier YACONO، "قرن من الماسونية الجزائرية 1785-1884" الذي يقدر أن التخلي عن الاستسلام للرب من طرف "المشرق الكبير الفرنسي" في 1887، قد حد من انتشاره لدى المسلمين (ص. 233-275).

40. رسائل جزائرية، ص. 48-50.

هذه العبارة ذات دلالة كافية على تفاهة التوجه البربري المزعوم الذي هو مجرَّد تبرير للنزعة الاندماجية المطلقة.

لكن النزعة الاندماجية لا تفترض، بالضرورة، توجها معاديا للعرب وللإسلام فثمة عددٌ معتبر من الشباب الجزائريين من ذوي النزعة الاندماجية يرون في اللائكية المؤسسة على حياد الدولة، فيما يخص الشؤون الدينية، فرصةً لكي يختاروا فرنسا وطنا لهم والإسلام دينا. إنَّ الشريف بن حبيلس، وهو من قدماء مدرسة قسنطينة وقاض مسلم، كان يُرجع سبب انحطاط الإسلام لعوامل الارتشاء التي حرَّفت مبادئه النبيلة والحكيمة عن مواضعها. لم يكن يشكُّ أبدا في احتمال أن ينطق فكرٌ عصري تقدمي باللغة العربية ولم يكن يرى أيَّ تناقض بين المبادئ القرآنية وما تلقاه من معلميه الفرنسيين؛ فالإسلام يدعو إلى البحث العلمي عن طريق التساؤل وذلك "معطى من معطيات الحرية ومبدأً من مبادئ البحث العلمي المؤدي إلى الحقيقة أنى كانت وهو من المسلَّمات التي سمحت للأوائل بمعرفة مستوجبات الدين الحق المعارضة للتعصب.[41]

لكن هل يمكن أن يسمح الدين الحقُّ بالاندماج في أمة غريبة عن الإسلام؟ بن حبيلس كان يؤكد أنَّ "التجنس"، أي التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، لا يتناقض مع غايات هذا الدين: "فالتجنس فعلٌ تقبله، مبدئيا، جميعُ النخب التي تعتقد أنَّ الشعور الديني مجرَّدُ قناعة شخصية".[42] لكن الإسلام ليس مجرَّد عقيدة إنه منظومة قوانين؛ والإسلام، منذ الهجرة، لم يُميِّزُ بين ما هو دينيٌ وما هو زمنيٌ. بعد سقوط الخلافة الإسلامية تحت سلطة الأمم الأوروبية صارت القوانينُ التي يشترك فيها جميع المسلمين وهي الشريعة، العاملَ الوحيد الذي يوحِّد صفوف الأمّة؛ فالخضوع المشترك

41. بن حبيلس نفس المصدر. ص. 51.
42. نفس المصدر. ص. 112.

لتدابير الشريعة خلق نمطًا من الجنسية الإسلامية يتجاوز حدود الدول. وهذا ما ينكره "التجنس" وهو التخلي طواعية عن الشرائع المُنزَّلة والرضوخ التام للقوانين الفرنسية.

إذن هناك، بالنسبة "للفرنسيين المسلمين"، تصوُّرٌ مسيحي أو لائكي للديانة "فهل المقصود من عبارة "الوحدة الإسلامية" هو الدلالة على مشاعر الودِّ التي يُكنّها البدوي في سطيف إلى أخيه، في الدين، في المدينة؟ إذا كان الردُّ بالإيجاب فلا يوجد ثمة أمرٌ طبيعي أكثر من ذلك الودِّ الذي نكنه لشخص يفكر مثلنا ويحمل نفس المشاعر الأخلاقية ونفس التقوى الدينية ويخفق قلبُه بنفس المشاعر الباطنية ويستجيب لنفس الإرشادات الربّانية خاصة إذا لم يكن هناك واقع يفصلنا عنه. أليست هذه حال المسلمين جميعهم وحال كل المسيحيين وكل اليهود؟ "[43]

الأمة إذن؛ محكوم عليها أن تلقى نفس المصير الذي لقيته المسيحية أي التفكُّك. كان بن حبيلس يؤكد على إخلاص توجُّه النخبة الجديدة بإيراد مثال في شخص "مختار الحاج سعيد" وهو "واحدٌ من بين أكثر الشباب الجزائريين إخلاصا" والذي كان يردُّ على اتهامات أولئك الذين يضمرون "معاداة العربي" بقوله: "(...) نحن لا نملك موطنين اثنين؛ فاسطنبول والخلافة تمثل بالنسبة لنا، نحن المسلمين، ما تمثله روما والبابا بالنسبة للمسيحيين لا أكثر. هذا ما يؤكد أنَّه: ما عدا الوُدُّ الحقيقي، الناجم عن الديانة المشتركة، فليس ثمة ما يجمع بيننا وبين الأتراك والفرس أو المصريين"[44] وباختيار "التجنس" فإنَّ الشباب الجزائريين الاندماجيين قد تخلوا عن "الأمة" ليندمجوا في جماعة أخرى على أُسس غير دينية؛ وإنَّهم بهذا يجازفون بالإقصاء من طرف أهليهم باعتبارهم كفارا بالرغم من إيمانهم الصادق.

---

43. نفس المصدر. ص. 123.
44. نفس المصدر. ص. 129.

من المفيد التعرف إلى أي مدى يمكن للمثقفين الأهالي القيامُ بمثل تلك المجازفة. كتب إسماعيل حاميت سنة 1906 لمحة عن سيرة حمَلَة الشهادات مفادُها "أنّ أغلبية أولئك دخلوا العائلة الفرنسية عن طريق التجنس"[45] ولكن الشريف بن حبيلس يعترف بأنّ "القلّة القليلة هي التي تقوم بذلك (بعملية التجنس) بسبب العراقيل الكثيرة فبالنسبة للأغلبية توجد أسباب عائلية تحول دونه التجنيس (...). فمن الذي يستطيع وصف خلجات التردُّد والإحساس بالغمّ التي كانت تنتاب معظمَهم قبل اتخاذ قرار مثل ذلك وهو قرارٌ من شأنه أن يفصلهم إلى الأبد عن العائلة الجزائرية المسلمة؟[46] "إذا أضفنا إلى تلك العدوانية ما يبديه المجتمعُ المسيطرُ من حذر وأضفنا سوء نية الإدارة، كما حصل لسعيد فاسي،[47] أدركنا أنّ التجنس، وإن كان قضية حظيت مبدئيا بموافقة النخبة كلها، لم يقدم عليه سوى الأقلية. وحتى ولو وجّهنا التحقيق صوب حركة الشباب الجزائري، حيث التجنس أيسر منالا، فليس من المؤكد أنّ الذين تجنّسوا فعلا كانوا أغلبية[48].

## 3- التطور والانبعاث

يمكن التساؤل، في هذه الحالة، عما إذا كان الإندماجيون مجرّد فئة متطرفة تضمّ بين صفوفها، قبل سنة 1914، حملَة الشهادات العلمية. يمكن استنتاج هذا من تصفّح الكتب التي أُلّفها، باللغة الفرنسية، كُتّابٌ مسلمون (إسماعيل حاميت وشريف بن حبيلس) وتتبادرُ نفس الفكرة من تحليل مطالب حركة الشباب الجزائري ومن بيان الوفد الذي ترأسه المتجنّسُ

45. HAMET نفس المصدر. ص. 212.

46. بن حبيلس، نفس المصدر. ص. 112-113.

47. "مذكرات معلم جزائري من أصل أهلي" ملحق "بصوت البسطاء"(98) افريل 1931، أنظر: عدة مقالات ل ر. زناتي في "صوت الأهالي".

48. G. MEYNIER أحصى حوالي عشرة، في مدنية الجزائر بالخصوص. (الأطروحة المذكورة، ص 224)

بوضربة حين طالب، في سنة 1908، بتوسيع الحقوق المدنية الفرنسية لتشمل الأهالي. أما في سنة 1912 فلم يُطالب الوفد الذي ترأسه متجنّسٌ آخر، هوالدكتور بن تامي، بمنح الجنسية في إطار قانون الأهالي حتى ولو كان ذلك في فائدة النخبة كما لاحظ بن حبيلس بكل ارتياح.[49]

استمرت معظم الكتب، التي نُشرت بعد الحرب العظمى، تطالب بتحقيق الاندماج ومنها الكتب التي ألّفها كلٌّ من حسناي لهميك؛ وعبد القادر فكري؛ وصوالح؛ وس. فاسي؛ و ر. زناتي.

الواقع أنّ ظهور النشاط السياسي في صفوف الجماهير المسلمة، بفضل إصلاحات سنة 1919 وتوظيف المشاعر الدينية المعادية للمتجنسين من طرف الأمير خالد، كان بمثابة نذير عن بداية تراجع الدور السياسي للاندماجيين؛ ولكن عدم إتمام الإصلاحات وإرجاء شتى مشاريع القوانين، الرامية إلى تحديد تمثيل الأهالي في البرلمان، دفع بعض الاندماجيين إلى الاعتقاد بأن الاندماج هو السبيل الوحيد للحصول على المواطنة. ولقد ازداد عددُ المتجنسين زيادةً محسوسة بعد سنة 1919 وأصبح يتراوح ما بين 100 إلى 200 من سنة 1930 إلى 1939 وذلك ما أقلق العلماء الإصلاحيين.[50] كانت جمعية المعلمين الأهالي تُروِّج المطالب الاندماجية في مجلة صوت الضعفاء من سنة 1922 إلى 1939؛ كما برز ر. زناتي، وهو من قادتها القدماء، كواحد من الرواد في هذا المجال من خلال صحيفته الأسبوعية، صوت الأهالي، منذ سنة 1929؛ ومن جهة أخرى حذا بعضُ خريجي المدارس حذو الشريف بن حبيلس زمهم: صوالح، أستاذ اللغة العربية، وبلحاج، الأستاذ المحامي، وعبد القادر الحاج حمو، المُدرِّس،...وهذا الأخير أولُ مسلم جزائري ألّف

49. بن حبيلس م.م. ص. 117.

50. أنظر مقال توفيق المدني، "نحن بين الحياة والموت" الشهاب أفريل 1930، ذكره مراد. نفس المصدر. ص. 406.

روايات باللغة الفرنسية، تحت اسم مستعار هو عبد القادر فكري، كتب سنة 1933 يقول: "إنني أحلم بقيام جزائر فرنسية إلى الأبد (...) أنا من أنصار المساواة والقانون العام، بصفة مطلقة، وليكن ذلك لفائدة نُخبتنا في انتظار ميلاد الجزائر كمنطقة فرنسية شاملة وكاملة(...) لا يتعارضُ الإسلام مع هذا في شيء ولا يطرح أيَّ حاجز أمام فرنستنا لأنَّه دينٌ يحث على التطور لا على الجمود".[51] وفي سنة 1936 كتب س. فاسي، وهو معلم متقاعد ومؤسّس صحيفة صوت الضعفاء، كتب بتفاؤل صادق يقول: "من الواضح أنَّ مفهوم الجامعة الإسلامية غيرُ موجود في الجزائر وأنَّ الأهالي لا يعارضون السيادة الفرنسية ولا يحاولون التملُّص منها (...) إنَّ الأهالي أوفياءُ لفرنسا بشكل كامل ونهائي، ولقد أثبتوا ذلك في مناسبات عديدة، بل أكثر من ذلك إنَّهم لا يكتمون مشاعر الاعتزاز بل يؤكدون على هويتهم الفرنسية".[52] بعد انقضاء سنتين واصلَ زميلُه زناتي ما كان شرع فيه شريف بن حبيلس حين أصدر منشورا بعنوان: "القضية الجزائرية من وجهة نظر أحد الأهالي"، وهو عبارة عن تحليل أكثر صرامة، ليرشد المثقفين الأهالي إلى الطريق الصحيح قائلا بشأنهم: "إنَّ طريقهم مسطَّرٌ بوضوح فما عليهم إلاَّ أن يتطوروا في الإطار الوطني وأن يقتربوا قدر الإمكان من أسيادهم الفرنسيين فليتحلوا بالثقة وليذهبوا مباشرة نحو الهدف المقصود ألا وهو فرنستُهم بصفة شاملة".[53]

شعر أولئك الاندماجيون، المتشبثون بالفكرة، بأن مصداقيتهم الشعبية أخذت تتراجع شيئا فشيئا فانخرطوا في صفوف جمعية تُدعى "رابطة

---

51. Robert RANDAU وعبد القادر فكري، "رفقاء الحديقة" باريس 1933، ص. 10 عبارة عن حوار ماسوني.

52. س. فاسي "الجزائر تحت القيادة الفرنسية" م.م. ص. 5.

53. زناتي م.م. ص. 41. أعيد نشر كتابه من طرف "استخبارات كولونيالية" (ملحق ل"إفريقيا الفرنسية") أفريل-ماي و جوان 1938 ص. 49-63، 81-104، 107-135.

المواطنين الفرنسيين ذوي الأصول الأهلية" بغرض الخروج من عزلتهم والدفاع عن مصالحهم. عندما صدر قانون 4 فيفري 1919 لم يغيِّر شيئا من مواقفهم كمنشقين بين مجتمَعَين اثنين. ذلك أنَّ مشروع القانون الذي طرحه Guernut والذي كان يرمي إلى اقتصار حقِّ الترشح (لتمثيل الأهالي في البرلمان) على من تحصَّل على المواطنة الفرنسية لم يحُل دون ذلك التردي. أما مشروع Cuttoli، المقترح سنة 1935، فهو مُقتبَسٌ من القانون الفرنسي الذي يقضي بتجنيس الأجانب المولودين فوق التراب الفرنسي فاقترح تجنيس أعضاء النخبة المثقفة بصفة آلية إذا لم يعترض أحدهم على ذلك صراحة. حصل ذلك "العنف اللطيف" على تأييد كاملٍ من طرف شخص اسمه علي محبوب؛[54] وكذلك من طرف ر. زناتي رغم النقائص الظاهرة فيه؛ ولم يكن آخرون يرون أية بادرة حلٍّ خارج قرار Crrémieux الذي يقتضي إلغاء منظومة الأحوال الشخصية الإسلامية بالنسبة للنخبة على الأقل.

يبدو أنَّ هذه الفكرة، التي عبَّر عنها عبد القادر فكري وRobert Randau سنة 1933، قد وجدت بعض الصدى في نفوس نفرٍ من غير الاندماجيين؛ ويبدو أنَّ لمين لعمودي، وهو أحد المفكرين من ذوي الثقافة المزدوجة الفرنسية والعربية ومن المناضلين في صفوف جمعية العلماء وصديق للشيخ العقبي، يكون قد صرَّح سنة 1933 للسيدRobert Randau بما يلي: "كونوا على يقين بأن لو صدر قرارٌ مثل قرار Crémieux لصالح المسلمين، فسوف يلقى الترحيب والابتهاج من طرف كثير من المثقفين؛ والواقع أنَّ هؤلاء لا يرون حلا آخر لقضية المسلمين الجزائريين"؛[55] ويبدو أيضا أنَّ فرحات عباس يكون قد سلَّم، في سنة 1935، "بأن لم يعد ثمة حلٌّ في هذا البلد سوى الاندماج وذوبان العنصر الأهلي في المجتمع الفرنسي وإذا استحال تحقيق

---

54. "قضية الإصلاحات الجزائرية، رأي من الأهالي" الاستخبارات الكلونيالية أفريل 1935. ص. 25-30.

55. RANDAU وفكري نفس المصدر. ص. 184.

التجنيس، في إطار القانون الخاص، فإنَّ الأهالي المتطورين سوف يخضعون للقانون العام أي أنَّهم سوف يرضون بالجنسية وبالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الخاص بهم". هذا التصريح أشار إليه وزير الداخلية، Régnier Marcel، أمام مجلس الشيوخ في 22 مارس 1935 بهذه العبارات: " قال لي بعضهم: نحن نُقدِّرُ، يا سيادة الوزير، ما تطرحه مطالبُنا عليكم من صعوبات ولكننا نرجوكم أن تفرضوا علينا التخلي عن قانون الأحوال الشخصية".[56] لم تجرؤ الحكومة الفرنسية على اتخاذ تلك التدابير، في سنة 1935 ولا سنة 1938–1939، لأنَّ أغلبية مناضلي الحركة المطلبية المسلمة كانت تعارض ذلك بإيعاز من جمعية العلماء.

لكن أغلبية المثقفين المسلمين، وحتى بعض المتجنسين ممن خاب ظنُّهم، كانوا يُعلِّقون آمالا كبيرة على مشروع Viollette، الصادر سنة1931، ومشروع Blum-Viollette، الصادر سنة 1936، والذي وعدهم بالحصول على الجنسية مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية بصفة فردية في انتظار تحقيق مطالب المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1936 وطالب بتحقيق المساواة في الحقوق بين جميع سكان الجزائر من غير اشتراط الخضوع للقانون المدني. هل هذا هو الإدماج أيضا؟ الجواب نعم، حسب رأي Maurice Viollette، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ المستفيدين منه قد تم إعدادهم مسبقا لتقبُّل ما يمكن أن تحدثه فيهم الثقافة الفرنسية من تأثير حضاري.

ومهما يكن فإنَّ انهزام فرنسا سنة 1940 وكذا السياسة العنصرية التي انتهجتها حكومة فيشي قد وضعتا حداً نهائيا لسياسة الإدماج الرسمية؛ فبعد سنة 1940 انخفض عدد المتجنسين ولم يتجاوز عددا قليلا من الأفراد سنويا. اعتبر بيانُ الشعب الجزائري ذلك الأمرَ الواقع فرصةً سانحة ليؤكد على أن: "قد مضى الزمنُ الذي لم يكن المسلم الجزائري يطالب فيه بشيء

56. "Charles André JULIEN" أفريقيا الشمالية تسير" ص. 112.

آخر غير حقّه في أن يكون جزائريا مسلما؛ فمنذ إلغاء قرار Crémieux أصبحت الجنسية والمواطنة الجزائرية بالنسبة للشعب أكثر أمنا وغدت، في نظره، حلاً أكثر معقولية لتحقيق تطوره وبلوغ رشده السياسي.[57] وبهذا التحدي أُسقط في يد الجنرالين De Gaulle وCatroux فلم يعد في مُستطاعهما بعثُ النشاط من جديد في الحياة السياسية. وقع اختيارهما على تحقيق مشروع فيوليت بعد توسيع مقتضياته بالأمر الصادر في 7 مارس 1944 مع الوعد بتطبيقه تدريجيا؛ ولكن هذا الإصلاح، بالرغم من ادعائه تحقيق الإدماج، كان يبدو في نظر رجال القانون أمثال البروفيسور Viard Paul Emille وJacques Lambert، وكلاهما من كلية الحقوق في الجزائر، "أفضل طريقة للتنكّر" لتلك السياسة "فما الذي يدفع المسلمين إلى التخلي عن قانون أحوالهم الشخصية والتقرُّب منا ما دام بوُسعهم الاستفادةُ من مزايا الجنسية؟ فليس المسلمون هم الذين يطالبون بالمواطنة بل المواطنة هي التي جاءت إليهم خاضعة".[58]

لم يضمحل التوجُّه الإدماجي في سنة 1944 رغم كل شيء وليس مردُّ ذلك إلى السياسة الطموحة لبلوغ نفس الهدف فحسب بل لأنَّ إلغاء القانون الخاص بالمسلمين أو تكييفه مع القانون الفرنسي أمرٌ وردت المطالبة به مرات عديدة من طرف المسلمين الجزائريين؛ ولم تتوقّف المطالب الاندماجية الراديكالية تماما إلاَّ في سنة 1960 حين تخلت فرنسا نهائيا عن مشروع فرنسة الجزائر.

لم يكن الأمر الصادر في 7 مارس 1944، لإدراج النخبة المسلمة في فئة المواطنين الفرنسيين، يمثّل سوى جزء من برنامج إصلاحات واسعة في

57. اورد النص C. COLLOT وJ. R. HENRY، "الحركة الوطنية الجزائرية نصوص 1912-1954 ص. 163.
58. Jacques LAMBERT، "دراسة في التشريع الجزائري"، ذكره Alain de SERIGNY، "Echo d'Alger" ج 1 ص. 237.

المجالات الاقتصادية والاجتماعية. أكّد الجنرال Catroux، وهو محافظ الدولة للشؤون الإسلامية، في تقريره المؤرخ يوم 4 أفريل 1944 على وحدة تصوُّر ذلك البرنامج قائلا: "إنَّ هدف فرنسا هو الإدماجُ الفعلي للأهالي وتحويلُهم إلى فرنسيين عن طريق التعليم العمومي والمساواة الاجتماعية والاقتصادية؛ وهذا يفترض نشر التعليم على نطاق واسع وإسداؤه باللغة الفرنسية فقط؛ ويفترض أيضا (...) تطبيقا فعليا لسياسة المساواة الاجتماعية (...)"[59]

أخفق هذا البرنامج الواسع لأنَّ الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية رفضت تمويله ولأنَّ نسبة النمو الديموغرافي، بين السكان المسلمين، كانت أدنى مما كان متوقعا؛ ولم يُطبَّق الشقُّ السياسي من هذا البرنامج سوى بصفة جزئية وظل العملُ ساريا بنظام الفئة الأولى والفئة الثانية في الانتخابات. رفض المجلسُ التأسيسي الفرنسي (الأول بعد الحرب العالمية الثانية) المصادقة على مشروع إدماج الجزائر بفرنسا بصورة شاملة؛ أما المجلس التأسيسي الثاني فصوَّت لصالح قانون 5 أكتوبر 1946 الذي وسَّع حق التصويت ليشمل جموع الحاصلين على الشهادة الابتدائية وقدماء طلبة التعليم الثانوي وذلك اعتبارا للمطالب التي تقدم بها الدكتور بن جلول وكذا الحزبان الشيوعي والاشتراكي؛ غير أنَّ القانون الخاص بالجزائر، الصادر في 20 سبتمبر 1947، ألغى حقَّ التصويت الشامل وقصره على الذين سبق تسجيلهم في قوائم الانتخابات دون غيرهم. إنَّ استفادة جماهير الفئة الانتخابية الثانية بحقوق مماثلة للتي مُنِحت للفئة الأولى سيتمُّ، بصورة تدريجية، تتوافق مع تطور المستوى المعرفي والاجتماعي للسكان المسلمين. مدَّد هذا التطور البطيء الشَّرخ بين النُّخبة وبين عامة الجمهور وعرَّض المستفيدين من امتيازات الفئة الأولى إلى التجريح من طرف الوطنيين.

59. تقرير الجنرال Catroux إلى اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني حول مشاريع القرارات المصادق عليها من طرف لجنة الإصلاحات، 4 أفريل 1944.

غير أنَّ أمل الخروج من هذه الوضعية ظلَّ واردا وتجلَّى في الوعود التي قدّمها الحاكم العام، الجنرال Naegelen، حين قال: "إنَّ نوايا فرنسا لا رجعة فيها ومرادُها هو أن يتواجد في الجزائر مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات (...) إنَّ غرضَها هو إرساء الديمقراطية السياسية التي سوف يزداد مداها اتساعا على الدوام وإحلالُ الديمقراطية الاجتماعية وتوفيرُ حظوظ متساوية للجميع لا يُقصى منها أحد. هذه هي الخطوط العريضة للبرنامج الذي شُرِع في تنفيذه وسيتواصل من غير كلل (...) كلَّما مضينا قُدمًا، بواسطة التعليم، في توسيع الآفاق الفكرية واستصلاح الأرض وباطنها فسوف نرفع مستوى الحياة المادية (...) وهكذا تتحقق تلك الديمقراطية السياسية والاجتماعية التي (...) سوف تظل غايةً نطمح إليها"[60]؛ وهكذا سوف تلتحق جموع المواطنين ببقية المندمجين في الفئة الأولى. وجدت تلك الوعودُ صدًى إيجابيا لدى شطر من النخبة المسلمة ودليل ذلك هو مساهمة العديد منهم في "الحوار بين الجزائريين"؛ ذلك الحوار الذي افتتحه Jacques Chevallier في جريدة L'Echo d'Alger في ديسمبر 1950[61]

تقدَّم الحاكمُ العام، Soustelle، بنفس البرنامج في فيفري 1955 ولكن تحت تسمية جديدة حين قال: "لقد أقدمت فرنسا على خيارٍ يُدعى الإدماج" والمسألة هنا هي العمل لكي تصبح الجزائر منطقة فرنسية مثل مقاطعة La Bretagne أو أية منطقة أخرى من مناطق فرنسا؛ فاستمالت هذه الصيغةُ كلَّ المُتخوِّفين من تشبُّث الثورة بفكرة الاستقلال كحلٍّ وحيد وكان Palewsly Jean-Paul شاهدا على حال أولئك حين قال: "إنَّ الرجال الذين قابلتُهم

60. "رسالة إلى المجلس الجزائري"، 21 ماي 1948، NAEGELEN م.م. ص. 79-90.

61. "L'Echo d'Alger" من 19-12-1950 إلى 15-1-1951؛ أنظر مساهمة الأستاذ مهنا عبد السلام، وكذا ولد عودية، وإبازيزن، وقائد حمود، والقاضي بن حورة، وشريف بن حبيلس، والاشتراكي قدور متساوي. كان بن حبيلس الوحيد الذي يشكك بسخرية في حدود السيادة الفرنسية.

والشبان المسلمين الذين تحدثتُ معهم يشعرون في أعماق نفوسهم بمعاناة كبيرة. إنَّهم يعانون اضطرابات نفسية مُريعة وفي نفوسهم جروحٌ عميقة فلقد حاربوا تحت رايتنا ونالوا شهاداتنا العلمية وتزوَّج بعضُهم بنساء فرنسيات ولا زلتُ أتذكر النظرات الضبابية في عيون أولئك المحامين والأطباء والموظفين وأشاهد الملامح الحزينة والصارمة على محيا الرجل الذي تحدَّث باسمهم بهذه العبارات: "قولوا لي أو قولوا لنا؛ ما الذي ينبغي فعلُه لكي نصير فرنسيين ؟! فنحظى ببعض الاعتبار ونُكرَّم كفرنسيين من طرف الفرنسيين سواء كانوا من الوطن الأم أو من الجزائر".[62]

كان المسلمون أكثر اقتناعا بسياسة Jacques Soustelle وإثر اجتماع انعقد في سبتمبر 1955 وضمَّ 61 منتخبا اندماجيا (من بين 90) صدر بيانٌ يعلن أنَّ أغلبية المواطنين قد انضموا إلى فكرة الأمة الجزائرية إلاَّ أنَّ بعض الموقِّعين على ذلك البيان فنَّدوا هذه الفكرة وطالبوا بالتطبيق الفوري للإدماج.[63] صرَّح الدكتور بن سونة، وهو من تيارت، يقول: "لا نستطيع التنكر لفرنسا فلقد تخرجنا من مدارسها وتشبَّعنا بثقافتها"؛ وكذلك تناول عبد الرحمن فارس، نائبُ رئيس المجلس الجزائري، الكلمةَ على أمواج الأثير لصالح مشروع الإدماج الذي اعتبرَ تحقيقَه "أقصى أمانيه في الحياة".[64]

غيَّر هذا الأخير رأيه فيما بعد وطالب بالتفاوض مع جبهة التحرير؛ ولكن آخرين كانوا أكثر ثباتًا في مواقفهم ومن بينهم المحامي علي شكَّال الذي لم يتوقف عن الدفاع على مشروع الجزائر الفرنسية؛ وعندما اغتيل في Colombes، في 26 ماي 1957، صرَّح قاتلُه بأنَّه قتل "آخر صديق لفرنسا". كان هذا الأخير مخطئا فالدكتور سيد قارة وعبد القادر بورقروق، وهم

62. "الواقع الجزائري الجديد" الثلاثي الثالث، 1955 (ذكرته دورية الصحافة المسلمة...)

63. أنظر "التوصيات" في "المجموعة الجزائرية" 1، 1955-10-1

64. أنظر عبد الرحمن فارس "الحقيقة المرة" ص. 56-59

مسلمون، ساهموا في حكومة Bourgés-Maunoury وFelix Gaillard بصفتهم نواب كُتّاب دولة. بل أكثر من ذلك فالمئات من المسلمين تجرؤوا على المساهمة في "لجان الإنقاذ العمومي"، الناجمة عن "ثورة 13 ماي"، ولقد تقاسم الدكتور سيد قارة مع الجنرال Massu رئاسة لجنة الإنقاذ العمومي الجزائر – الصحراء. سمحت الانتخابات التشريعية، في نوفمبر 1958، بإرسال 45 نائبا إلى قصر Bourbon وأغلبُهم ينتمي إلى مجموعة "وحدة الجمهورية" وممن احتجوا ضد سياسة تقرير المصير. وقف أحد هؤلاء النواب إلى جانب Pierre Lagaillarde، أثناء أسبوع المتاريس، وكان العديد منهم ضمن المكتب الرئاسي "لجبهة الجزائر الفرنسية" في سنة 1960. صادق العديد من المنتخبين المسلمين في المجالس البلدية ومجالس العمالات، في أفريل 1961، على لائحة تأييد لثورة الجنرالات الأربع ضد المفاوضات مع جبهة التحرير؛ ويمكن القول بأنَّ مجموعة لا يستهان بها من النخبة المسلمة ناضلت ضد الاستقلال ولصالح الإدماج.

يمكن تأييد Soustelle فيما ذهب إليه من تدقيق حين نبَّه إلى "وجود فرقٍ واضح بين الإدماج والتجنيس"؛ وعلى عكس ما ذهب إليه الحاكمان العامان، Violette وCatroux، فإنَّ Jacques Soustelle، وهو آخر حاكم عام في الجزائر، كان يعتقد أنَّ من المفيد نفيُ كل صلة بين سياسة التجنيس القديمة والسياسة الجديدة التي طرحها تحت تسمية جديدة. إنَّ التجنيس ليس أمرا ممكن التحقيق ولا مرغوبا فيه ومشروع الإدماج أفضل، حسب رأيه، لأنه يستجيب لطموحات المسلمين في تحقيق العدالة واحترام شخصيتهم الأصيلة؛ ومع ذلك فإنَّ الفرق الجوهري الذي حاول إثبات وجوده بين السياستين كان يبدو أمرًا اصطناعيا.

"ينبغي قبل كل شيء تحديد مدلول الكلمة: فالتجنيس يستهدف الفردَ أما الإدماج فيستهدف الإقليم؛ ولا مناص من التخلي عن الوهم بتحويل كل مسلم

إلى فرنسي مثل الفرنسيين في موطنهم الأصلي؛ فهل يجب التخلي عن إدماج الإقليم الجزائري في المجموعة الفرنسية؟[65] ولكن ليس من الواضح كيف يمكن إدماج الإقليم بدون تجنيس الأفراد الذين يسكنونه. إنّ المساهمة في حياة المجتمع تفترض وجود ثقافة مشتركة ومتسامحة فيما يتعلق بالفوارق والحال أنّ الإدماج يشمل جزءا من التجنيس ولا يمكن لهذه السياسة أن تحترم الشخصية التقليدية للمسلمين الجزائريين احتراما كاملا. وفي هذا الصدد لاحظ ر. زناتي: "أنّ الشعوب المتعاشرة تتوافق فيما بينها فإذا كان الجزائريون الأهالي يتفرنسون كل يوم أكثر فإن الفرنسيين أيضا يتعرّبون، بكيفية ما، وليس في وسع أيِّ أحد الوقوفُ ضدّ صيرورة القوانين الطبيعة. إنّ التقارب والتعاون النزيه ووحدة القلوب والأفكار هي الصيغة الأكثر عقلانية إلى حين يتحقق امتزاج العنصرين المتواجدين بشكل حميمي؛ والواقع أنّ تعايش شعبين جنبا إلى جنب أمرٌ مغرق في المثالية وتجاور حضارتين لا تتوفر في كليهما العناصر الضرورية للتداخل أمرٌ مفارقٌ حقا. كم هو ساذج ذلك الشخص الذي يُصدِّق إمكانية حدوث مثل هذا الخلل في قوانين الكون".[66]

"إنّ فكرة الإدماج تفترض (...) بأنّ الجزائر إقليمٌ ذو مواصفات و"شخصية متميزة في المجالات الثقافية واللغوية والدينية"؛[67] ومن المعلوم أنّ الأمة الفرنسية تعرِّف نفسها وفق نوعية التعايش الجماعي الذي يختاره مواطنوها؛ والواقع أنّ جميع الفرنسيين ملزمون بمعرفة "لغتهم" الفرنسية التي هي اللغة الوحيدة والتي تُدرَّس إجباريا وتُستعمل كوسيلة لاستيعاب المواد الأخرى. إنّ صفتها الإجبارية خيارٌ سياسي فرضته سلطة الدولة منذ صدور أمرية Villers Cotterets، في سنة 1539، فالوحدة اللغوية إذن من

65. J. SOUSTELLE "الجزائر الحبيبة والمعذبة Plon"، 1956، ص. 92-94 و 245. "الأمل المخدوع" منشورات "Alma"، 1962. ص. 24-26.

66. زناتي نفس المصدر. ص. 68-69.

67. سوستيل نفس المصدر.

أُسس الوحدة الوطنية. لكن الدولة قد تُرخِّص باستعمال اللغات المحلية مثل: البروتونية (le Breton) والباسكية (le Basque) والأكسيتانية (L'Oxitan) والكورسيكية (le Corse) والألزاسية (L'Alsacien) أو الفلامانية (le Flamand)؛ فلماذا لا تستفيد اللغتان العربية والبربرية بنفس الترخيص في إقليم الجزائر؟ لم يكن في الإمكان تصوُّر معاملة اللغة العربية بالمساواة مع الفرنسية أي اللغة الوطنية؛ لأنّ "تدريس اللغة العربية يخضع لتنظيم صارم على جميع المستويات" حسب العبارات الواردة في القانون الجزائري الخاص ولكن تدريسها لا يمكن أن يكون سوى اختياريا. في سنة 1958 أوصت مجموعة عمل مكلفة بدراسة الإدماج بأن "يُعمِّم التمدرس بصفة شاملة على الشبيبة الجزائرية في أقلّ من عشر سنوات" (...).[68] فهل كان في وسع فرنسا تطبيقُ ذلك التعليم باللغة العربية ولو مناصفة مع اللغة الفرنسية؟ لا يتصور أحد، في ظروف كهذه، أن تؤدي سياسة الإدماج إلى شيء آخر غير الإخلال بالتوازن لصالح اللغة الفرنسية.

أما فيما يتعلق بالدين فإنّ الإدماج لم يضع في حسبانه قط إدخال المسلمين في الديانة المسيحية؛ ولقد كانت الديانة، منذ قيام الثورة الفرنسية، مسألة قناعة شخصية وليس ثمّة مانع لاعتناق المواطن الفرنسي الديانة الإسلامية. بل الديانة الإسلامية هي التي رفضت التحوُّل إلى عقيدة "جماعة" منفصلة. إنّ الاندماج، خلافا للتجنيس، يُقرُّ المساواة في الحقوق والواجبات من غير اشتراط التخلي عن قانون الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين. ظلّ Jacques Soustelle متشبثًا بفكرة العقيدة في الدين ومصرًّا على تجاهل "الجماعات" وهي تمثل واقعا اجتماعيا واقتصاديا متميّزا: "إنّ فرنسا تحتضن شتى الديانات بما فيها التي لا يُتوقع وجودُها ولكننا لم نكن نتوقع أن تُستعمل العقيدة الأوروبية لموازنة "العقيدة الإسلامية".

68. ذكره TRIPIER. نفس المصدر. ص. 626.

هذا التعبير الماكر والكاذب شتيمة مضاعفةٌ أربع مرات: لفرنسا وللمسيحية وللإسلام ولليهودية؛ ففي الجزائر يوجد فرنسيون يدينون بعقائد مختلفة ولا يمكن أن يقتصر الوجود على هؤلاء وحدهم".[69] طرحت مجموعة العمل المذكورة، المكلفة بالنظر في الإدماج، اقتراحا "بخصوص قانون الأحوال الشخصية يقضي بتوسيعه فورا للاستفادة من الحقوق المدنية الفرنسية للجميع وبالتوسيع التدريجي لواجبات القانون المدني الفرنسي بالنسبة للمسلمين فلا يُحتفظُ، من التدابير القرآنية، سوى التعاليم الدينية التي لا تدخل في صلاحيات رقابة الدولة والتي تلتزم باحترام حرية تطبيقها".[70] هل يعني هذا الاقتراح شيئا آخر غير تحويل الإسلام إلى مجرد عقيدة؟.

الواقع أنَّ هذا الإصلاح الثوري لم يصدر عن الفرنسيين ذوي الأصل الأوروبي فحسب وإنما صدر أيضا عن بعض المسلمين؛ فمنذ سنة 1950 كان المناضل الاشتراكي، قدور متساوي، يقترح إصلاح قانون الأحوال الشخصية قصد "حصر القانون المدني ومحاولة فصله عن الشأن الديني كما هو الحال في تركيا وفي غيرها".[71] وفي سنة 1958 تبنّى المسلمون، الأعضاء في لجنة الإنقاذ المدني، نفسَ البرنامج وكانت خطة العمل فيه بمثابة هجوم على قانون الأحوال الشخصية في الصميم لأنه يحمل أفكارا تناهض ارتداء الحجاب وداعية إلى تحرير المرأة. في 3 جوان 1958 اقترحت السيدتان، معلّم وتبِّيب "إجراء تعديل" على قانون الأحوال الشخصية أي "التخلي عن نمط الحياة الاجتماعية الموروث" وهو الذي "يخلق فجوة بين الطائفتين". بعد استفتاء 28 سبتمبر 1958 نشر موحند السعيد مدني بيانا في جريدة L'Echo d'Alger يطالب "بمنح الجنسية وبتعميم القانون الفرنسي" وأثناء الحملة الانتخابية، في نوفمبر 1958، صرَّح أحد الأوروبيين المسجلين في

69. الإنقاذ العمومي"، 1959-02-12، أورده Bruno ETIENNE نفس المصدر. ص. 75.

70. TRIPIER، نفس المصدر. ص. 626.

71. "L'Echo d'Alger" و 27، 28-12-1950.

نفس القائمة مع الباشاغا بوعلام قائلا: "سوف يتمُّ تطبيق التجنيس بعد تطبيق الإدماج".[72]

يُستنتج من هذه المؤشرات أنَّ أشدَّ أنصار الإدماج عزمًا هم أنفسهم الذين باشروا الدعوة إلى التجنيس؛ وهاهو التجنيس يظهر، لآخر مرة، بتسمية جديدة هي الإدماج؛ فالجديد في القضية لا يتعلق بالهدف المقصود ولكن بالمنهج المتَّبع والمحدَّد من طرف Jacques Soustelle: إنَّ المقصود بالإدماج هو الإقليمُ وليس الأشخاص. لقد انتهى عهدُ التجنيس خطوة فخطوة ووُضع المجنَّسُ في مواجهة مع الكتلة المسلمة التي أنجبته. إنَّ القضية ترمي الآن إلى إحداث تغيير جذري على المجتمع المسلم كما طالب به فرحات عباس سنة 1935؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لتوفير حظوظ النجاح لإدماج الجزائر في فرنسا.

لم يكن شعار الإدماج يهمُّ المتحمِّسين من دعاة التجنيس وحدهم بل كان يمثل جهدا حثيثا يرمي إلى استمالة العدد الأكبر من المسلمين الجزائريين ممن استهوتهم الامتيازات الناجمة عن تحقيق المساواة مع الفرنسيين مع احتفاظهم بشخصيتهم الدينية والإثنية؛ فسوف يكونون فرنسيين مسلمين بكل معنى الكلمة حسبما طالبت به أغلبية الشباب الجزائري وحسبما ورد في ميثاق المطالب في جوان 1936.

ذلك هو الأمر الذي جعل بعض المتعاطفين مع حركة 13 ماي يعتبرون الإدماج "عبارة سحرية" من شأنها أن تنال إعجاب الجميع وتصالح بين الأضداد؛ فتلك سياسة مراحل يمكن أن تؤدي إلى تحقيق مختلف النتائج من التجنيس إلى الاستقلال.[73] امتنع الجنرال De Gaule عن استعمال تلك العبارة التي يشوبها

72. Jacques MASSU، "الواد والحاجز"، Plon، 1972، ص. 152-158، 237-239 و 249. انظر "الجزائر الجامعي"، جانفي 1959، حيث اقترح المدعو بن ناصف إتباع أتاتورك من أجل القيام "بالمحو النهائي لبقايا ماض، كان فيه إخواننا المسلمون على هامش الحياة الفرنسية؛ إلغاء القانون المحلي، انتزاع الجزائر من الإسلام".

73. تقرير عامل العمالة، Serge Baret؛ أكتوبر 1958، ذكره MASSU، نفس المصدر، ص. 275-277.

الالتباس وكان يعتقد أنها عبارة "ذكية ولكنها فارغة من أي مدلول" إلاَّ إذا أُريد من وراءها التمويه على استحالة تحقيق التجنيس.[74] تحدَّث الجنرال في خطابه، بتاريخ 16 سبتمبر، عن خيار الرَّبط النهائي للأمة الفرنسية تحت تسمية "الفرنَسَة" (المرادفة للتجنيس)[75] ثم ندَّد بها صراحة سنة 1960.

يستحق الحديث عن إيديولوجية التجنيس مثل هذا الإطناب في البحث فأهميتها عند المثقفين الجزائريين، ذوي الثقافة الفرنسية، لم تُقدَّر حقَّ قدرها إلى اليوم. كثيرا ما تكرَّر القول، هنا وهناك، بأنَّ الشباب الجزائريين كانوا يطالبون، تحت غطاء التجنيس، بالمساواة مع أسيادهم الفرنسيين؛ وهذا أمرٌ صحيح ولكنه لا يسمح باستنتاج أنَّهم لم يكونوا راغبين في أن يكونوا مثلهم. أما بعض المفاهيم مثل: "عشق المستعمِر" أو "هاجس التقليد"...فلم تكن مجرَّد سلوك ظاهري عند "المتطورين" الذين تعرَّضوا لعملية استلاب ثقافي مكثفة.

## ب) الأيديولوجية "الفرنكو- إسلامية"

إن مردَّ الانتقاص من قيمة "النزعة الاندماجية" لدى النخبة هو كون هذه الأيديولوجية لم تكن عبارة عن مفاهيم مجردة خالصة؛ فكثيرا ما نجدها مقرونة بتوجّه آخر يخالفها تماما: إنه المحافظة على مقومات الشخصية الثقافية الموروثة. ولقد صيغ ذلك التوجُّه المثالي من طرف عدد لا يستهان به من الشباب الجزائريين الراغبين في أن يصيروا فرنسيين ومسلمين بصفة كاملة. ومن أعراض ذلك: استعمالُ شعارات مثل "الوحدة" أو "التعاون الفرنكو

74. "مذكرات الأمل" ج.1 ص. 49.

75. Jacques Soustelle وAlain de Sériny، كانا يصفان ذلك، "الإدماج الكاريكاتوري الذي من شأنه تحطيم الشخصية الجزائرية .L'Echo d'Alger( "ج. 2 ص. 383). لكن Pierre Laffont والدكتور سيد قارة، أسسا جمعية تدعى "الجمعية من أجل الفرنسة".

- إسلامي" التي كانت متداولة قبل سنة 1914 وبعد سنة 1919 غير أنّ ذلك التوجهُ تمّ التعبير عنه في شكل مطالب مختلفة متتالية أحيانا ومتنافسة أحيانا أخرى. كان الأمر متعلّقًا، حتى سنة 1936، بقضية حق التصويت مع الموطنين الفرنسيين أو مع بقية المسلمين المندرجين في هيئة خاصة؛ وبعد أن تجاوز "ميثاق المطالب"، الصادر عن المؤتمر الإسلامي، تلك المفارقة وطالب بهيئة انتخابية مُوحَّدة أضحى من الضروري الخيارُ بين الارتباط بفرنسا وبين التأكيد على الهوية السياسية الجزائرية المتميزة والتي ترتبط في شكل نظام الشراكة أو النظام الفدرالي مع الوطن الأم. يتبيَّن بوضوح، من خلال هاتين المرحلتين، استمرارُ تواجد تيَّارين متنافسين: كان أحدُهما يطمح إلى تحقيق "التجنيس" (بالمعنى العريض الذي اقترحه كلٌّ من Maurice Viollette والجنرال Catroux أي تحقيق "الإدماج". أما التيَّار الثاني المُتمثل في مطلب "الشراكة" أو "الفدرالية" فهو أقرب إلى التوجه الوطني؛ والواقع أنّ حرب التحرير هي التي فصلت بين هذين التيارين اللذين تواجدا جنبا لجنب فترة طوية.

إنّ الانتماء المزدوج هو الصيغة التي تستجيب، بشكل أحسن، لمطالب المثقفين المسلمين وهي أفضلُ من صيغة "الاستيعاب"؛ بحيث كان هؤلاء المثقفون مذبذبين بين انجذابهم نحو العالم العصري، الذي كشفته لهم الثقافة الفرنسية، وبين حنينهم إلى مواطنهم الأصلية. كان التوجهُ "الاندماجي" نزعةً متطرفة دعا إليها بعض الأشخاص الذين وصل بهم الاستلاب الثقافي إلى حدِّ عدم الاعتراف بالفضاءات المشتركة التي تجمعهم بمواطنيهم. على عكس ذلك كانت الأيديولوجية "الفرنكو - إسلامية" خياراً وسطًا يعبِّر عن طموحات الذين يريدون البقاء أوفياء لخيارات متناقضة ظاهريا. من الجلي أنّ ذلك التوجُّه كان ينمُّ عن الحالة الذهنية لأغلبية الشباب الجزائري منذ سنة 1919 بل حتى قبل 1914.

## 1- جذور الإيديولوجية الفرنكو - إسلامية

إنَّ المطالبة بحق المواطنة، في إطار قانون الأحوال الشخصية، قد تم التعبير عنها، بشكل صريح، منذ ظهور حركة الشباب الجزائري وحتى قبل أن تُبرهن مجلة الأهالي، بفضل الاستشارة القانونية، التي أجرتها سنة 1911، بأنَّ ذلك الأمر لا يتناقض مع القانون الفرنسي. إنَّ المساواة في الحقوق المدنية، دون التخلي عن القانون الشخصي الإسلامي أو ما يعرف "بالتجنيس المزدوج"، مطلبٌ نودي به منذ سنة 1908 لصالح "المتطوِّرين" الذين لم يكونوا يرغبون، أو يستطيعون، المطالبة بالتجنيس التام مخافة إقصائهم من طرف ذويهم. طالب الشباب الجزائريون، منذ سنة 1891، بتوسيع تمثيل المسلمين في المجالس الجزائرية وفي البرلمان الفرنسي أو أيٍّ من المجالس المُنتخبة التي تدور في فلكه؛ ولذلك السبب كانت مطالبُهم متكاملة أكثر مما كانت متعارضة؛ بل لا تعارُض بينهم حتى وإن بدأ نوعٌ من التمايز يرتسم فيما بعد من بن رحال إلى بن ثامي.

لم تنفصل حركة الشباب الجزائري إلى اتجاهين متميِّزين إلاَّ بعد سنة 1919 فالإصلاحات التي تمت في شهر مارس 1919 فصلت بين أولئك الذين اعتبروها فرصة للانطلاق نحو تحقيق المساواة، عن طريق التجنيس الفردي، وبين الذين تمسّكوا بتمثيلٍ خاص بالمسلمين في البرلمان الفرنسي. إنَّ الانتخابات البلدية التي جرت في مدينة الجزائر، سنة 1919، وما نجم عنها من تبعات زرعت الفُرقة بين المتجنِّسين وبين أنصار المواطنة، في إطار القانون الخاص، ولقد اتَّضح للطائفة الأولى أنَّ برنامجها الانتخابي لم يحظ بموافقة الأغلبية الساحقة للناخبين وأرجعت سبب الفوز الذي حققه الأمير خالد إلى روح "التعصب الإسلامي" بالرغم من أنَّ الأمير خالد قد ترشَّح تحت لواءٍ مزدوج هو: فرنسا والإسلام؛ فلئن رفض سياسة "الاندماج" مُسايرا في ذلك توجُّهَ جموع المسلمين الرافضة فلقد أكَّد على

تمسُّكه بفكرة الشراكة؛[76] ولم تكن مطالبتُه بتمثيلٍ برلماني للأهالي في باريس موقفا وطنيا صريحا. لقد تم تحقيق ذلك في وقت متأخر بواسطة الأمر الصادر في 17 أوت 1945؛ ولكن حكومة فيوليت نجحت في استمالة أغلبية المثقفين الأهالي إلى مشروعها الرامي لتمكين النخبة من صفة المواطنة الفرنسية مع بقائها ضمن قانون الأهالي وذلك ما تحقق بفضل الأمر الصادر في 7 مارس 1944. إذا كان نظامُ الهيئتين الانتخابيتين يسمح بالتعايش بين هذين الشكلين من "المواطنة داخل القانون" فإنّ التناقض العميق الذي فرّق بينهما لم يكن في الإمكان تجاوُزه إلاّ بعد إنشاء الهيئة الانتخابية المُوَّحدة التي تمت المطالبة بها سنة 1936 وتحقّقت فعليا سنة 1958.

يمكن القول بأنّ حظوظَ تأسيس جزائر "فرانكو-إسلامية" كانت كبيرة سنة 1919؛[77] وكان انتصارُ فرنسا في الحرب، بفضل مساعدة المسلمين الجزائريين، قد كرَّس سُمعتَها "كأُمَّة حضارية رائدة"؛ ومنذ ذلك التاريخ لقيت نهضةُ المشرق العربي والإسلامي اهتمامًا متزايدا من طرف المثقفين الأهالي الذين كانوا مهتمين بما يُبذل من جهود في مجالات الحداثة المادية والثقافية وتحقيق الرُّشد السياسي. كانت كلٌّ من تركيا وإيران ومصر والأقطارُ العربية، التابعة للخلافة العثمانية سابقا، تسعى إلى الخروج من وضعية الانحطاط والتخلُّص من هيمنة القوى الغربية واسترجاع مكانتها في حظيرة الأمم. أبرزت تلك النهضة قطبا جديدًا هزَّ النفوس، عن طريق تونس وعن طريق العلماء الإصلاحيين في الجزائر، وأجَّج معارضَة النفوذ الفرنسي فيها. لم تستمر تلك الحالُ طويلا إذ تسبَّب توازنُ القوى المتواجدة في

76. أنظر AGERON. "هل كان الأمير خالد أوَّل الوطنيين الجزائريين؟" في مجلة "السياسة الكولونيالية في بلدان المغرب" المنشورات الجامعية الفرنسية، 1972، ص. 249-288، مقال مؤسس على المواقف العلنية المتخذة من طرف "الأمير".

77. AGERON . "حركة الشباب الجزائري من 1900 إلى 1903" في "Etudes magrebines - Mélanges Charles André JULIEN. المنشورات الجامعية الفرنسية، 1964

تمسُّكه بفكرة الشراكة؛[76] ولم تكن مطالبتُه بتمثيلٍ برلمانيٍ للأهالي في باريس موقفا وطنيا صريحا. لقد تم تحقيق ذلك في وقت متأخر بواسطة الأمر الصادر في 17 أوت 1945؛ ولكن حكومة فيوليت نجحت في استمالة أغلبية المثقفين الأهالي إلى مشروعها الرامي لتمكين النخبة من صفة المواطنة الفرنسية مع بقائها ضمن قانون الأهالي وذلك ما تحقق بفضل الأمر الصادر في 7 مارس 1944. إذا كان نظامُ الهيئتين الانتخابيتين يسمح بالتعايش بين هذين الشكلين من "المواطنة داخل القانون" فإنَّ التناقض العميق الذي فرّق بينهما لم يكن في الإمكان تجاوُزه إلاَّ بعد إنشاء الهيئة الانتخابية المُوَّحدة التي تمت المطالبة بها سنة 1936 وتحقّقت فعليا سنة 1958.

يمكن القول بأنَّ حظوظَ تأسيس جزائر "فرانكو-إسلامية" كانت كبيرة سنة 1919؛[77] وكان انتصارُ فرنسا في الحرب، بفضل مساعدة المسلمين الجزائريين، قد كرَّس سُمعتَها "كأُمّة حضارية رائدة"؛ ومنذ ذلك التاريخ لقيت نهضةُ المشرق العربي والإسلامي اهتمامًا متزايدا من طرف المثقفين الأهالي الذين كانوا مهتمين بما يُبذل من جهود في مجالات الحداثة المادية والثقافية وتحقيق الرُّشد السياسي. كانت كلٌّ من تركيا وإيران ومصر والأقطارُ العربية، التابعة للخلافة العثمانية سابقا، تسعى إلى الخروج من وضعية الانحطاط والتخلُّص من هيمنة القوى الغربية واسترجاع مكانتها في حظيرة الأُمم. أبرزت تلك النهضة قطبا جديدًا هزَّ النفوس، عن طريق تونس وعن طريق العلماء الإصلاحيين في الجزائر، وأجَّج معارضَة النفوذ الفرنسي فيها. لم تستمر تلك الحالُ طويلا إذ تسبَّب توازنُ القوى المتواجدة في

76. أنظر AGERON، "هل كان الأمير خالد أوّل الوطنيين الجزائريين؟" في مجلة "السياسة الكولونيالية في بلدان المغرب" المنشورات الجامعية الفرنسية، 1972، ص. 249-288، مقال مؤسس على المواقف العلنية المتخذة من طرف "الأمير".

77. AGERON، "حركة الشباب الجزائري من 1900 إلى 1903" في "Etudes magrebines - Mélanges Charles André JULIEN. المنشورات الجامعية الفرنسية. 1964

إحداث حالة من التردُّد استمرَّت إلى سنة 1936. "ماعرفناش وين انروحو": هذا مطلعُ أغنية لقيت رواجا كبيرا سنة 1937.[78] كانت صحيفة صوت الأهالي، حينذاك، تنتقد المثقفين الذين "يراوحون مكانهم ويتجاذبهم تياران متناقضان" وكذا القادة "المُغرَّر بهم والذين لا يعرفون ماذا يريدون بالتحديد".

لم تكُن جهود الدول العربية والإسلامية في مجال الحداثة لتخفى على دُعاة الاندماج؛ ولقد اتخذ حسناي لهميك مصطفى أتاتورك قدوةً للبرهنة على ما في الإسلام من ضرر وللدعوة إلى الاندماج في فرنسا اللائيكية؛ وتحدَّث زناتي عن حُمى الحداثة التي اجتاحت المشرق لينتقد من يربطهم الحنين إلى ماضي المسلمين الجزائريين المعارضين لفكرة الاندماج ولكنه غضَّ الطرفَ عن تراجع طائفةٍ من "أصحاب العمائم القديمة" عن نظرتهم البالية بعد أن كفُّوا عن انتظار قيام الساعة وعن صبِّ اللعنات على القرن "الرابع عشر" فأصبحوا يتحدثون عن "النهضة" والحداثة والتقدم في إطار حضاري إسلامي متطوِّر. كانت تلك الوعود تنفذ إلى قلوب الشباب الجزائريين ومن أهمِّهم: امحمد بن رحَّال والنقيب خالد.

إنَّ أهمَّ مصدر يتيح دراسة تلك الأيديولوجية الفرنكو - إسلامية هو مجموعةُ المقالات التي كُتبت ما بين 1922 و 1927 ونُشرت سنة 1937 من طرف فرحات عباس تحت عنوان: "الشاب الجزائري". كان ذلك بمثابة انبعاث لنشاط النقيب خالد ورفاقه كما كان مؤشرا للمؤتمر الإسلامي في جوان 1936. وكان ذلك أيضا تعبيرا عن إيديولوجية ودادية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية وللتوجه الذي سوف تتخذه الحركة الطلابية لاحقا.

## 2- تحليل الأيديولوجية الفرنكو - إسلامية

إنَّ ذلك الكتاب الذي نشره فرحات عباس عملٌ رائع تميَّز بوضوح الرؤى وصرامة التعبير عنها؛ ولن نجد أفضل من تلك الوسيلة لتفنيد الأحكام

78. محي الدين باش تارزي، "مذكرات" ص. 332.

المجحفة التي صوّرت حركة الشباب المسلم وكأنّه "طلاءٌ برّاقٌ بفعل بعض عناصر الثقافة الفرنسية التي لم يتم استيعابها جيدا" ولقد عبّر الكتاب بصدق عن مشاعر المجتمع المسلم وعن الثقافة الفرنسية المُكتسبة. ولقد أكسبته هذه الثُّنائية قيمةً خاصة والواقع أنّ مقارنته بما كتبه بن حبيلس فرصةٌ جيدة لتمكين القارئ من تقديره حقّ قدره. يبدو بن حبيلس، على الصعيد الفكري، حبيسَ مذهب أسياده بالرغم من الحب الكبير الذي يكنُّه لشعبه إلاّ أنّه عاجز عن النفاذ إلى كبريات المشاكل التي يجهلون طبيعتها. ومما يميز قيمة مؤلّف عباس كونُه يجمع إلى صرامة الفكر الديكارتي إخلاصَ المسلم الجزائري الصادق في عاطفته التي تربطه بمجتمعه الأصلي؛ كما تشهد التحليلات المُتضمنَّةُ فيه على فكر اجتماعي وتاريخي ناضج وحِسٍّ اجتماعي مُرهف. لا يخلو الكتاب من بعض الأوهام، وهذا أمر بديهي، ولكنّها أوهامٌ أقلُّ بكثير من التي يتضمنها نصُّ بن حبيلس. إنّ حدة المزاج التي تطبع أسلوبه تبهر القارئ بما يشّع من ثناياها من فصاحة أخّاذة ويمكن أن نلمس في النّص خصوصيات تلك الشجاعة الأدبية التي جعلت من عباس قائدا للحركة الطلابية الجزائرية بدون منازع.

كان فرحات عباس، إلى غاية سنة 1936، يراوح مكانه مترددا في أروقة الفكر الاندماجي؛ ولقد دفعه كيانُه النفسي إلى المساهمة في إثراء تلك الأيديولوجية بعناوين منها: "من المستعمرة إلى الإقليم"[79]؛ و"فرنسا هي أنا" وهي عناوين استلهمت محتواها من رغبته الأكيدة في الاندماج؛ ولكن لم يكن في وُسعه أن يرسل العنان لنفسه لتذهب إلى أبعد مدى لأنّ ضميره، كمسلم جزائري، كان يقضُّ مضجَعه بمشاكل لم يقو على طرحها ولا على التعبير عنها بوضوح. لقد وقع في حالة تناقض يمكن الدلالة عليها بالمثال التالي: ففي نفس المقال، المؤرخ في سنة 1922، نجد جملتين لا تفصل بينها سوى

79. عنوان لمشروع مؤلف يحتوي على ثلاثة أقسام، لم ينشر منه سوى "الشاب الجزائري".

صفحات قليلة يقول فيها "إنَّ منتخبينا يُهلِّلون لما أحرزه الشعب التركي من انتصار مُبين بفضل تضحياته الجسام ضد الجشع الرأسمالي الأوروبي الذي يحتل فيه رأس المال الفرنسي مكانة مرموقة وا أسفاه![80] وبعد بضع صفحات نقرأ ما يلي: "هذا ما يسمح بالقول "إنَّ الأهلي مجنَّدٌ لأنَّه فرنسيٌّ وهو، بهذه الصفة، مدعوٌّ إلى دفع ضريبة الدم؛ فلئن جُنِّدتُ للدفاع عن الراية فلأنني فرنسي لا لشيء آخر؛ والأهليُّ موجود في منطقة Ruhr باعتباره مواطنا فرنسيًا وهو موجودٌ في المشرق وفي المغرب باعتباره فرنسيًا أيضا.[81] نسب عباس نفسَه إلى الفرنسيين وكان، في ذات الوقت، يندِّد بالإمبريالية الفرنسية التي يعود إليها فضل اكتسابه تلك الجنسية. إنَّه عاجزٌ عن اختيار موقعه في هذه المواجهة؛ ويمكن القول بأنَّ الانتقاد الذي وجَّهته له صحيفةُ صوت الأهالي كان صحيحا حين قالت: "إنَّ فرحات عباس أستاذٌ في مجال التناقض والغموض؛ ولقد سنحت الفرصة لعباس أن ينشر كتابا جميلا وهو في سنِّ العشرين. يُعَدُّ هذا الكتاب طُرفةً في مجال الطَّرح الذي تُناقضُ سطورُه بعضَها البعض ويمكن في ذات الوقت أن يتعرَّض مؤلِّفُه للنفي، بسبب أفكاره المعادية لفرنسا، كما يمكن أن يُقلَّد وسام الشرف، بسبب آيات الولاء التي يبديها، وهذا حسب الجمل التي يقع عليها الاختيار".[82]

ففي كتاب عباس يتجلى عشقُ المستعمِر والخجلُ من الذات، وهما ثنائية المشاعر التي تميز دعاة الاندماج، وهو يعتبر أنَّ تدهور أوضاع الشعب الجزائري المسلم عقوبةٌ عن الخطايا التي ارتكبها: "يؤكِّد الأستاذ النابغ، Gautier، ومعه بعضُ المستعربين على القيمة الكبيرة للإسلام وأوضحوا في

80. "الشاب الجزائري ص. 14.

81. نفس المصدر. ص. 24.

82. "صوت الأهالي" (437)، 1938-3-17، انظر رأي رفيقه السابق أكلي زناتي: "إذا خيرت في أن أصدر عليك حكما، انطلاقا من فلسفتك، فإنني أقول بأنك تمثل التناقض المشخص". نفس المصدر. (458) 24-11-1938).

نفس الوقت عيوب العالم الإسلامي بفضل نفاذهم إلى عمق الروح الإسلامية. لقد صارحونا، نحن الجزائريين بالخصوص، بالحقائق المُرَّة؛ وإنَّهم مشكورون على ذلك لأنَّ معرفة الحقيقة جزءٌ من تربية الشعوب وإنَّ عيوبنا لكثيرة. بما أنَّ كل إنسان مؤهَّلٌ للمصير الذي يؤول إليه فنحن نستحقُّ مصيرنا بما لا يدع مجالا للشك".[83] إنَّ ذلك التواضع يعادله، في الطرف المقابل، عرفانٌ بالجميل وإعجابٌ لا حدَّ له بالثقافة الفرنسية كأداةٍ للرقي لا نظير لها. أمّا الدراسة الثالثة، وهي أكبرُ حجما من كل الدراسات التي تتضمنها سلسلة "الشاب الجزائري"، فعنوانها كما يلي: "المثقف المسلم في الجزائر" أُهديها "إلى أساتذتي الموقرين من المدرسة إلى المتوسطة إلى الجامعة فأنتم، في نظر تلاميذكم المسلمين، أفضلُ ما هو مودعٌ في الروح الفرنسية من كرم؛ ومن خلالكم وبفضلكم ستكون تلك الروحُ الفرنسيةُ محبوبةً في الجزائر الجديدة"؛[84] ثم بعد صفحات تعرَّض عباس للحديث، بانفعال، عن فرنسا التي علَّمتنا كيف نحبها، منذ كنا على مقاعد الدراسة. "فهل هي فرنسا التي يفكر المثقفون المسلمون طعنها في الظهر؟ هذه تهمة باطلة لأنَّ المثقف الجزائري لا يتنكَّر للجميل وهو يُضمر المودَّة (...) هل يوجد مثقفٌ مسلم واحدٌ يمكن أن يتنكر لحديث رسولنا المحبوب: "أحبُّوا معلميكم كما تحبون آباءكم"؟[85] بل إنَّه يُسقط مشاعر المحبة الأبوية على فرنسا المثالية التي تعرَّف عليها في كتبه (ص.115).

"ستقول لنا فرنسا إنني دخلتُ هذه الربوع عُنوةً؛ ولقد أفرزت القوة منتصرين ومهزومين ففي إمكاني الاحتفاظُ بحقوقي كاملة لأنَّها حقوقُ

83. "الشاب الجزائري" ص. 114، أنظر: مفهوم "القابلية للاستعمار" في مؤلفات مالك بن نبي، "مقال في شروط النهضة الجزائرية" الجزائر، 1948. ص. 22، "أهداف الإسلام" باريس 1954 ص. 83 ونقد السيد م.ش. ساحلي، "مفهوم خطأ وخطير، القابلية للاستعمار" في "الجزائر قبل كل شيء" (1) 1955.

84. "الشاب الجزائري" ص. 41.

85. نفس المصدر. ص. 126.

المنتصر وأطاردكم وأترككم متوحشين وأمنع مدارسكم وأغلق في وجوهكم أبواب مدارسي وأضطهدكم. في وسعي أن أستعبدكم أو أحرِّركم. وبإمكانكم، أنتم أيضا، الاحتفاظُ بحقوقكم كمهزومين وأن تُكِنُّوا مشاعر الحقد لمن يضطهدكم وتحاولون التخلص منه بما أوتيتم من وسائل الخديعة والخيانة والتحالف مع الأجنبي...

"من الأفضل أن نكون أصدقاء؛ فأنا أودُّ أن أكون أُمَّكم وأن تكونوا أولادي ولا ينبغي أن تُفرِّق الديانة بيننا فلنحكم على الناس بأفعالهم ولندع الله يتولى الحكم على صدق إيمانهم. سأحترم موطنَكم الروحي وسوف تحبون موطنَكم الفكري بعد أن انقضى نصفُ قرن من الحداد والحزن سوف نمحوه بفضل مزايا الرفاهية والسعادة والعدالة وما قيمةُ خمسين سنة في حياة بلد أو شعب؟

"ستستفيدون منى واستفيد منكم. سأفتح لكم مدارسي وجامعاتي. سأنظِّم مجتمعكم. وإنني أعدكم وعدًا أكيدا بمستقبل يعمُّه السلام والعمل والحرية. عليكم بتصفُّح تاريخي عبر القرون فلقد حرَّرت الشعوب من الجهل والاستعباد. ثقوا فيَّ ومدُّوا إلي أيديكم."

لم تكن المطالب التي تقدم بها فرحات عباس موجهة ضد فرنسا بل كان يعتقد أنَّ في وسعه الجمع بين قضية فرنسا وقضية شعبه "سياسة واحدة من شأنها أن تحافظ على مصالح فرنسا ومصالح الحضارة ألا وهي نزوعُنا إلى الحرية والرقي الاجتماعي".[86] "الشروع في تحقيق العدالة والوفاء ثم تأتي السياسة من بعد" ذلك هو البرنامج العملي للشاب الجزائري والذي لم يكن موجها ضد أية جهة: "سوف يرفض أوروبيو الجزائر أن يمدوا إلينا أيديهم طالما بقينا في وضعنا المادي الهش وتحت أسمال الجهالة البالية فهذه طبيعة البشر. لا يُصادق الإنسانُ جارَه إلاَّ إذا بادله مشاعر الاحترام؛ وإنَّ أول

86. نفس المصدر. ص. 104.

خطوة نحو إشاعة مشاعر الأخوّة هي إنجازُ برنامجٍ واسع لتحقيق الترقية الاجتماعية".[87]

عبّر المؤلّف عن مقترحات ملموسة لتحسين أوضاع الأهالي المتواجدين في عمق أعماق "الدواوير" النائية؛ فتحدّث بأسلوب بليغ عن البرامج التي يطالب بها وعن أدوات تحقيقها وهي: المدرسة والطريق والمستشفى التي تنقذ المجتمع المسلم من براثن العزلة والجمود: إننا ننادي بضرورة النفاذ إلى داخل المجموعة السكانية المتكوّنة من ستة ملايين نسمة وبضرورة التواصل معها لتخليصها من تصرفات المغامرين الحاقدين."إنّ المبدأ الأهم، في السياسة الإسلامية، هو تحقيق العدالة للجميع إن أردنا أن يتحمّس الإنسان الجزائري للاندماج مع فرنسا".[88] يرومُ الكاتب الجمع بين المشاعر الشعبية الجزائرية والشعور القومي الفرنسي. "إنّ ترقية المجتمع المسلم ودفعه نحو تحقيق "الهوية المعنوية المشتركة" مع المستعمرة الأوروبية، أوّلاً، ثم مع فرنسا البلد الأم بعد ذلك[89]" هي السبيل الكفيلة بتحقيق الرفاهية الكبرى لفرنسا: فرنسا الأم وفرنسا الجزائرية".[90] "غاية الأهداف هي أن تتحول فرنسا، التي تضم ستة ملايين مسلم، إلى قوة إسلامية أولى وهي في نفس الوقت إحدى القوى المسيحية؛ وليس ذلك بالأمر المستحيل. أقلُّ ما يمكن قوله هو أنّه لا يوجد في كتابنا المقدس ما يحول بين المسلم وبين كونه "مواطنا فرنسيا" قوي الساعدين ومتيقظ الذكاء ونزيه القلب" "واعيا بأهمية التضامن الوطني".[91] تمثّل تلك الفرضية، في نظر المؤلف، أمرًا واقعا "فليقبل الناس إفريقيا اللاتينية أو يرفضوها فلن

---

٨٧. نفس المصدر. ص. 8.

88. نفس المصدر. ص. 102.

89. نفس المصدر. ص. 138.

90. نفس المصدر. ص. 144.

91. نفس المصدر. ص. 135.

يغير ذلك شيئا في كوننا مسلمين وفرنسيين. نحن أهالي وفرنسيون. صحيح أنه يوجد هنا أهالي ويوجد أوروبيون ولكن ليس ثمة سوى فرنسيين.[92] لا يوجد فرقٌ هنا بين هذا الجانب من فكر عباس وبين المذهب الاندماجي.

ومع ذلك فإنّ فكر عباس يتناقض مع فكرة الاندماج باعتبار آخر: إنه الأنَفةُ والشهامة التي تتجلى في قوله "يجب أن نميِّز جيّدا بين العرفان بالجميل وبين الخنوع والاستكانة".[93] كان عباس يتحدث بصراحة ولم يكن يتهيب من الإفصاح عن مكنون سريرته باعتباره إنسانا حرًا؛ فلقد أضاف إلى كرامة بن حبيلس فصاحةً بليغة تندِّد بالسفسطة الحاقدة للمستعربين الذين كان عباس يرى فيهم العدوّ الألدّ.

لم يكن ذلك الموقف ينم عن سمة مزاجية فحسب بل لم ينس فرحات عباس اثني عشر سنة من حياته انقضت ولم يكن خلالها سوى ذلك العربي الصغير؛ فالثقافة الفرنسية لم تجد كيانه وذاته فارغين بل إن الدروس التي تلقاها من معلميه وذكرياته العائلية أكسبته تصوُّرًا خاصا لتاريخ الجزائر الفرنسية "فإذا كان كل إنسان مؤهل للمصير الذي آل إليه فإننا نستحق مصيرنا استحقاقا تاما ولكننا دفعنا ثمنا غاليا جدا".[94] "يمكن الحكم على الاستعمار من وجهة نظر مغايرة سواء بالنسبة للذين يمارسونه أو الذين يُمارَس عليهم".[95] تلك حقيقة لم يكن يشك فيها بن حبيلس وهو سليل عائلة قسنطينية كبيرة انضم مبكرا إلى صفِّ المحتلين بينما كان عباس، عكس ذلك، يفهم وجهة نظر المهزومين ويترجمها بوفاء حين يقول "إنَ العصر الذي انقضي هو عصر الدموع والدماء؛ وقدرُنا، كأهالي، أن نكون الباكين النازفين

92. نفس المصدر. ص. 24.

93. نفس المصدر. ص.127.

94. نفس المصدر. ص. 144.

95. نفس المصدر. ص. 89.

فلندفن ذلك الزمن إذن غير آسفين عليه ولا مغتبطين به ولنتضرّع إلى الله وإلى الرجال أن لا تعود تلك الأيام القاتمة أبدا مع الأمل في أن تستقبلنا أيامٌ أفضل".[96]

لا غرابة في أن تفاجئ تلك السطور من يقرؤها في زخم الاحتفالات بالذكرى المئوية للجزائر الفرنسية حتى وإن حدث ذلك في وقت قرّر فيه مسؤولٌ، رصين الفكر، مثل Viollette حظر كلمة "احتلال" واستبدالَها بعبارة "تحرير الدول الهمجية" وحتى وإن أصرَّ الخطاب الرسمي على الحديث عن "العرب الطيبين" وعلى نكران المقاومة الشرسة من طرف المسلمين الجزائريين: "يعتقد كثير من الناس أنَّ فرنسا جاءت إلى ديارنا وعلى رأسها قبعات "إفرنجية" وفي يدها غصنُ زيتون فأنَّى ذلك. بل تزامنت مع الاحتلال ثورةٌ اجتماعية هائلة كانت، كغيرها من الثورات، في حاجة إلى أن تلتهم شيئا فكنا لها حطباً".[97]

استعرض عباس مذكرات جنرالات الاحتلال عن خمسين سنة "من سنوات الرُّعب والفظاعة" كنا خلالها مطارَدين، بدون هوادة، كأننا حيوانات متوحشة". لم تصمد الجزائر عسكريا سوى عشرين يوما أما الجزائر الريفية فقاومت نصف قرن؛ فكان على الفلاح أن يدافع، كل ما سنحت له الفرصة، عن وجوده وأملاكه وحريته ولم يستسلم إلا عندما عجز عن النهوض من الأرض وهو محطَّمٌ"؛ ثم ختم حديثه عن الموضوع قائلا: "إنَّ حصيلة تلك المعاناة مجهولة اليوم لدى أغلبية من يسمون أنفسهم "جزائريين"؛ أما نحن فلا نجهلها لأننا تعلَّمنا حقائقها مذ كنا أطفالا في حجر جداتنا".[98]

96. نفس المصدر، ص. 8.

97. نفس المصدر، ص. 96.

98. نفس المصدر، ص. 97-98.

إنَّ الاحتلال، في نظره، يعني التقتيل والنهب والتحطيم ومصادرة الأراضي وأعمال السُخرة والإفقار حين يقول: "من نتائج استعمار بلدنا أن ظهرت فئةٌ اجتماعية لم تكن معروفة في العالم الإسلامي إنها طبقة البروليتاريا (...). إنَّ أغلبية العمال الحاليين من نسل تلك القبائل المحاربة والغنية والقوية"؛[99] غير أن أوضاع البروليتاريا أفضلُ من أوضاع الفلاحين البؤساء "كم هو قاس بؤس الفلاحين إنه بؤس كبير لا متناه ولا يخطر على بال أحد. لقد صار الفلاح أشبه بالحيوان". في ثنايا هذه السطور تتجلى أولى محاولات "تصفية التاريخ من الاستعمار" واستشراف آفاق جديدة واستعمال أسلوب شعبوي أقلّ أبوية من أسلوب بن حبيلس.

خلافا لما كان عليه عباس، كناقد للاستعمار، فإنّه كان المُنافح عن التقاليد الشعبية في نظرتها إلى "العهود الجميلة السالفة"[100] السابقة لسنة 1830 تلك العهود التي يعتبرها بن حبيلس مجرّد افتراء. كانت تلك العهود، حسب عباس، عهود رخاء ووفرة ولم تكن الحروب الأهلية تتسبب في خسائر بقدر ما كانت ترسي مفاهيم الأريحية وقيَمها؛ وفي هذا الصدد خصّص الكاتب صفحات طويلة لمدح الحضارة الإسلامية التي حرّفها المستعربون. فبينما كان بن حبيلس يستعرض القيم الإسلامية بشعور الخزي فإنّ فرحات عباس كان يرغب في أن يعيد إلى شعبه مشاعر الافتخار والاعتزاز بها.

جادل عباس مجلة "إفريقيا اللاتينية" بتقديم تحليلات طويلة عن تفرّق الإسلام على الاستعمار الروماني الذي لم يُخلّف سوى أطلالا في أفريقيا "هناك أمران يثيران اهتمامنا وهما الفشلُ التام للاستعمار الروماني والنجاحُ التام للإسلام؛ فالقضية هنا تتعلّق بمنهجين مختلفين أدّيا إلى نتائج

99. نفس المصدر. ص. 29-31.

100. نفس المصدر. ص. 112-113.

مختلفة".[101] لقد نجم عن الحضارة الرومانية ثراءٌ للأقلية وبؤسٌ للأغلبية. وعلى العكس لم يكن الفاتحون العرب النبلاء "متوحشين متعصبين" فلقد بسطوا العدل والحكم الراشد ونشروا لغتهم وديانتهم "إنَّ الشبيبة المتقدة حماسا وهي تتواصل بينها عن طريق اللغة العربية الجميلة هي التي تمثل الفضاء الفكري المشترك والخميرة الضرورية لإحياء الروح الإسلامية: ولذلك تيقَّن البربريُ، للمرة الأولى، من أنَّه يحيا حياة وطنية وأنَّه صار جزءا من كلٍّ وأحسَّ بأنَّ الإسلام لم يكن دينا غريبا عنه وأنَّ له نصيبا في هذا التراث الفكري والمعنوي".[102] لم تكن العادات البربرية، أبدا، حاجزًا يحول دون الاندماج فيه فالإسلام المتسامح عاملهم باحترام. يعتقد Félix Gautier Emile أنَّ "من النادر أن نجد في تاريخ العالم عمليةَ استعمارٍ لقيت نجاحا باهرا مثل ذلك"؛ ولقد خلُص تلميذُه عباس من ذلك إلى نتيجةٍ مفادها "أنَّ المنهج الذي أدَّى إلى انتشار الإسلام يجب أن يكون بمثابة مرجعيةٍ لفرنسا إن رغبت في إرساء إنجاز دائم" (...) "بينما لم تخلِّف روما، في هذا البلد، سوى أطلالا طمستها الطبيعة فلقد أعطى الإسلام لهذا البلد روحا مكَّنته، رغم المصائب التي حلَّت به، من المقاومة ولا يزال يقاوم عواصف القرون".[103]

كان عباس يدافع عن تلك الروح المسلمة ضد المحبطين: "لم تكن أوروبا تجهل أمور الإسلام، فحسب، بل كانت أيضا تنظر إليه بعين الحذر والريبة وكانت متحيِّزة في أحكامها. إنَّ الأحقاد الدينية هي التي حرَّفت الحقائق التاريخية"؛[104] أما الإسلام فهو غريب عن روح التعصُّب "أضحى التعصُّب للإسلام لونا مُميَّزًا من الألوان المحلية مثلما تتميَّز الجزائر بجمالها

101. نفس المصدر. ص. 59.

102. نفس المصدر. ص. 63.

103. نفس المصدر. ص. 66.

104. نفس المصدر. ص. 67.

ونخيلها"؛ ولكن "إلى أي جانب انحاز التعصب؟ هل انحاز إلى صفِّ الإسلام، الذي أصبح معتنقوه ضحايا الجهل، أم انحاز إلى صفِّ المسيحية المستنيرة، التي ظلّت (...)، رغم تعاقب القرون، مرتبطة بالحروب الدينية؟".[105] ثم بررّ الكاتب ما ذهب إليه بذكر حرب الريف التي أطلقت العنان لمظاهر التعصب المخزية وبكراهية العرب وبالحنين إلى زمن الحروب الصليبية وما ارتُكب فيها من فظائع مثل شواء أجساد الجواسيس الأتراك على النار ثم تساءل: "متى نزل الإسلامُ إلى مثل ذلك الحضيض؟ ومتى كان المسلمون من أكلة لحوم البشر؟"[106] إنَّ الإسلام دينٌ سمح ولم يكن مؤسسه يحمل أية صفة من صفات المفترين. بل إنَّ نبالة مبادئه تفصح عنها بعض الأحاديث مثل قوله: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" "لنفس واحدة أغلى من أغنى الأمصار" "لا إكراه في الدين" "الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" "إن الله لا يُغيِّرُ ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم (...)" ختم فرحات عباس كلامه بقوله: "تلك هي أخلاقيات المساواة التي أكسبت الإسلام عظمته".[107] "بالأمس كانت الظلمات وساد قانون الغاب. أما اليوم فيسود النظام والعدالة والأخوة وقانون العمل وتقديس العلم والحرية"[108] لقد وجد المؤلف في المبادئ الإسلامية ما يشبه التعاليم الأخلاقية التي قامت عليها المدرسة الجمهورية الفرنسية فقال: "الإسلام هو الديمقراطية الخالصة في ارتباطها بثقافة الفكر".[109]

105 . نفس المصدر. ص. 80.

106 . نفس المصدر. ص. 83.

107 . نفس المصدر. ص. 78-79.

108 . نفس المصدر. ص. 85.

109 . نفس المصدر. ص. 73.

شغل ذلك السرد الطويل لفضائل الإسلام حيزا كبيرا من الكتاب واعتقد البعض أنه مبالغ فيه فحسب Jean Lacouture [110]"إنّ أزيد من نصف المقالات الواردة في "الشباب الجزائري" كانت مخصصة للدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية ضدّ السيطرة الرومانية" ومن جهته خصّص Charles André Julien عدّة صفحات من كتابه "شمال إفريقيا تسير" للردّ على الأطروحات التاريخية الواردة في "الشباب الجزائري" والتي تبنّاها بيانُ الشعب الجزائري سنة 1943 إنّ اتهام الكاتب بالسذاجة كان أمرا صحيحا ولكن بصفة نسبية لأن عباس استقى معلوماته من أستاذه Gautier ومن علماء غربيين آخرين؛ غير أنّه كان يؤولها وفق أحاسيسه الخاصة وأحاسيس المجتمع الذي ينتسب إليه. كانت ملاحظة Lacouture، في هذا الصدد، صحيحة حين قال: "إنّ حدّة المرافعات ومقالات الاتهام الواردة في الاستعراض التاريخي للطالب عباس ينبغي أن يُنظر إليها كردٍّ فعل من طرف شاب يشعر بالمذلّة ويريد أن يثبت وجودَه بإسناد ظهره إلى جدار تقاليد عظيمة وحضارة تتعرّض للقذف بالباطل". شكّل ذلك الموقفُ إحدى ثوابت الحركة الطلابية المسلمة قبل عباس وبعده[111].

لم يكتف عباس بسرد مناقب الإسلام فحسب بل كان قوي الإيمان بمستقبل زاهر للعالم الإسلامي وكان مغتبطا لصحوته. وفي هذا المجال، أيضا، كان الرجل يقاسم ذويه أحاسيسهم.[112] وبعد أن أشاد بإنجاز مسجد باريس واعتبره "من جملة الأحداث المميّزة للعصر" دعا "فرنسا إلى تبني

110. "خمس رجال وفرنسا" Le Seuil 1961، ص. 272.

111. أنظر أيضا "المسلم الشاب" الناطق باسم شبيبة جمعية العلماء، التي نشرها أحمد طالب 1952-1954

112. أنظر : تنبؤات محمد بن رحال التي أوردها AGERON، "أطروحة"ص. 1030 وكذا "مذكرات مصالي الحاج" J. C. Lattés 1982

سياسية إسلامية حقيقية" تُميِّزها عن "السياسة الإمبريالية التي تبناها الحلفاء".[113] لقد كان متضامنا، سنة 1922، مع كفاح الشعبين التركي والمصري من أجل نيل استقلالهما حين يقول: "أما الحاضر فسوف يسجلُ أسماء لامعة أمثال زغلول ومصطفى كمال إنَّهم رجال ستظلُّ هاماتُهم المزدانة بهالة النصر مدى الأجيال اللاحقة وسوف تذكر هذه الأسماء بخشوع واحترام، ليس من طرف مسلمي العالم كله فحسب، بل من طرف الذين بكوا مخلصين على مصير بولندا المسكينة ومصير Loraine et Alsace.[114] كان عباس يكنُّ إعجابا كبيرا برجال المشرق المعاصر أمثال: محمد عبده وابن سعود ومصطفى كمال. كان يتوقع لتلك البلدان مستقبلا زاهرا "لن نعيش، ويا للأسف، حتى نشاهد الدول الإسلامية تعيش وهي مطمئنة على مستقبلها وتساهم في إثراء الحضارة البشرية بفكرها ومنجزاتها ولكن أليس احتساب ذلك، منذ الآن، نوعٌ من مقاسمتها مجدها وهناءها ؟"[115].

لم يكن عباس يعتقد أن الأنوار سوف تشرق كلها بالضرورة من فرنسا ولا من أوروبا. "ليس ثمة حضارة واحدة وإنما توجد حضارات". (...) "لكل شعب ولكل أرض قوانين تنبثق منها كما تنبثق الثمرة من الشجرة. وإذا لم يرفض هذا البلد الإسلام فلأن الإسلام ديانة تلائمه".[116] هذه العبارات تقربنا من فكر Montesquieu.

قد نجد تناقضا في فكر هذا الرجل الذي اجتهد لإثبات روعة الإسلام والتنديد بالأحكام الدينية البالية وهلل لعظمة الإمبراطورية الإسلامية

113. الشاب الجزائري ص. 137.
114. نفس المصدر. ص. 15.
115. نفس المصدر. ص. 88.
116. نفس المصدر. ص. 134.

ماضيا وحاضرا ولكنه يعرض عن الإشارة إلى الجزائر المستقلة وكأنما ذلك وهمٌ مستحيل في الحاضر أو في المستقبل المُرتقب. يعتبر بعضهم أنَّ توقيع عباس أعماله باسم مستعار هو: كمال ابن سيراج دليلٌ على ازدواجية شخصيته فكأنما يتواجد شخصان في ذاته أحدهما عقلاني عصري والثاني رومانسي تقليدي".[117]

لكن عباس في الواقع لم يكن مصابا بانفصام الشخصية وكان يتمنى أن لا تضعه الأيام في موقف يفرض عليه خيارَ الانتماء إلى معسكر ضد آخر ويُجبر على الاختيار بين "وطنه الفكري" و"وطنه الروحي". كان أملُه أن لا تعمل فرنسا على بعث "الجزائر الرومانية لتواصل استعباد أهاليها" وإنما أمله هو ان تسعى فرنسا إلى تحقيق "زواج موفق بين فرنسا والمشرق" ينجر عنه ميلاد فرنسا الشرقية كأجمل معجزة يعرفها العالم المعاصر".[118] "بواسطة اللغتين الفرنسية والعربية يمكننا أن يلتئم الجرحُ العميق المتمثل في الجهل".[119] كان فرحات عباس يعمل من أجل تحقيق وحدة فكرية ذاتية لأنه وجد في القرآن كبريات المبادئ الأخلاقية التي تلقاها في المدرسة الفرنسية فلم يكن عباس رجلا مزدوجا، فحسب، بل كان رجل مصالحة وتأليف بين القلوب.

### 3- التطور السياسي واختلاف وجهات النظر

تميَّز تطور الفكر السياسي لدى فرحات عباس بالنزعة التوفيقية وبرفض الرهانات المتطرفة؛ وكان يُفضل دائما تحقيق المواطنة، في إطار قانون الأحوال

117. Ch. A. JULIEN، م.م. ص. 242-243 و LACOUTURE نفس المصدر.

118. عباس نفس المصدر، ص. 99.

119. لقد أضاف: "نحن عاجزون عن التأكيد بما فيه الكفاية على أهمية اللغة العربية، لأنها اللغة الكفيلة بتخليص ديننا من التعصب والتطيُّر التي جرفته إلى الحضيض. لغتنا هي وحدها الكفيلة بإبراز تربية إسلامية" (ن.م. ص. 190).

الشخصية، عن التجنيس بصورة فردية. كما فرض عليه حسُّه المجتمعي وفلسفته الاجتماعية الرافضة للفردانية ذلك الخيار فهو يقول: "لا يمكن تبرير التجنيس بصفة فردية (...) نحن جزائريون وكلُّ واحد فينا عنصر ينتمي إلى عائلة معينة وهي جزء من مجتمع محدَّد؛ فهل ترانا قادرين على تغيير أي شيء في هذا المجتمع بواسطة التجنيس الفردي؟ كلاَّ! فالحلُّ يكمن في استصدار قانون شامل للجميع".[120] إنَّ تمسكه بالتقاليد حال دونه ودون إعلان القطيعة مع الماضي. "إنَّ قانون الأحوال الشخصية الإسلامية بمثابة "الموطن الحقيقي" في الجزائر" "إنَّ الحقوق المدنية في القانون الفرنسي مستقلةٌ عن قانون الأحوال الشخصية. إنَّ الإسلام يحترم عادات سكان منطقة القبائل فما الذي يمنع فرنسا من احترام القانون الشخصي للمسلم". كان عباس مُعجَبًا بمصطفى كمال كبطل وطني وليس بصفته مُناهضًا للإسلام وكان في مقدور هذا الأخير إدخال بلده إلى الحداثة دون أن يصدم بمثل ذلك العنف المشاعر الدينية لدى شعبه. وبما أنَّ عباس لم يجد حلاً بديلاً أحسن فقد اقترح على الوزير Regnier إلغاء قانون الأحوال الشخصية؛[121] وكان يعتبر ذلك أفضلَ وسيلة لترقية المجتمع المسلم الجزائري بعد وأد مقترح Viollette، في مارس 1935. أما مقالُه الشهير، المنشور سنة 1936، تحت عنوان: "فرنسا هي أنا" والذي كثيرا ما ذُكر، في غير سياقه الحقيقي، فلم يكن يدعو إلى تبنّي الاتجاه الاندماجي بصورة جذرية.

هكذا يتَّضحُ لماذا تدارك فرحات عباس موقفه، بعد أن انتقده الشيخ بن باديس، فدشَّن بمناسبة *المؤتمر الإسلامي* في جوان 1936 عهدًا جديدا من التعاون الوثيق مع العلماء الإصلاحيين استمر طيلة عشرين سنة أي إلى غاية انضمامهما إلى جبهة التحرير في أفريل 1956. ندَّد الشيخ الزاهري (أحد

120. نفس المصدر. ص. 92-93.

121. إنه ينكر تقديمه "مقترحا" مثل ذلك، لكن موافقته على قانون Crémieux جديد، قد تأكدت بشهادات مختلفة من طرف معاصيره (أنظر "صوت الأهالي" (317) 15-3-1935 ص. 2 و"الدفاع" (62) 3-5-1935 ص. 2.

المنشقين عن جمعية العلماء والمنضمين إلى حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية) ندّد بالتعاون بين عباس والعلماء واصفا ذلك التحالف بأنّه: "تحالفٌ بين اللائيكيين ومتصنّعي الورع"؛ والواقع أنّ الهموم المشتركة بين عباس وابن باديس، رغم اختلاف تكوينهما الفكري، هي سبب اتفاقهما، في جوان 1936، على المطالبة بارتباط بلدهما بفرنسا في إطار الاحترام التام للشخصية العرقية والدينية والعربية الإسلامية والارتباط، هنا لا يعني الاندماج. تبنّى الاتحاد الشعبي الجزائري، الذي أسّسه عباس سنة 1938، هذا البرنامج؛ أما ابنُ باديس فطالب بإدراج الجزائر ضمن نظام الحماية أو نظام "الدومنيون" (أي الدولة المستقلة ذاتيا والتابعة للدولة الفرنسية) فانضم عباسُ إلى وجهة النظر هذه فبادر بإصدار البيان. ولكن حين أدرك أن لا سبيل إلى تنازل الحكومة الفرنسية الجديدة عن السيادة الوطنية، دون الدخول معها في صراع مسلّح، اكتفى بالمطالبة بجمهورية ذات سيادة ذاتية في إطار الاتحاد الفرنسي ووافق على مواصلة العمل بأسلوب الهيئتين الانتخابيتين ولو بصورة مؤقتة. بذل عباس جهده، ولكن دون جدوى، للحصول بالطرق القانونية على الحلّ الفدرالي كخيار وسط بين الاندماج والاستقلال واستمرت تلك الوضعية قائمة من مارس 1944 إلى مستهل سنة 1955. في تلك السنة الحاسمة تحوّل ما كان يُسمى "الأحداث" إلى حرب حقيقية فاضطر عباس إلى اختيار معسكره بصفة نهائية. تطوّر المسار السياسي لدى عباس بصورة أقلّ التواءً مما يدعيه البعض وكان الرجلُ يطمح في أداء دور تاريخي في تحرير شعبه، بكيفية أو بأخرى، وكان يسعى بما أوتي من قوة إلى تجنيبه مآسي حرب تحرير وطنية[122]

122. أنظر AGERON "فرحات عباس والتطور السياسي للجزائر المسلمة أثناء الحرب العالمية الثانية" مجلة التاريخ المغاربي" (تونس) (4) جويلية 1975 ص. 125-144 ومذكرات عباس في صيغتيها المختلفة، "ليل الاستعمار" Julliard 1962، و"تشريح حرب" Gaenier 1980.

يعتبر مسارُ فرحات عباس نموذجًا حيا لتجربة شريحة هامة من الشباب الجزائريين المنتمين إلى جيله أمثال: عزيز كسوس وأحمد فرنسيس وأحمد بومنجل؛ ولكن لا يمكن الجزم بأنَّ الجميع وافقوه فيما ذهب إليه؛ ومن المعلوم أنَّ الإجماع الظاهري الذي وقع حول البيان لم يصمُد أمام ردِّ الفعل الصارم الذي أبداه الجنرال de Gaulle. وافق عددٌ كبير من الأعيان "البرجوازيين" ومن المناضلين في الأحزاب اليسارية على التصويت مع الفرنسيين ضمن الهيئة الانتخابية الأولى وعلى ترشيح أنفسهم في قائمة الهيئة الثانية أملا في أن تندمج هذه الهيئة الأخيرة تدريجيا في الهيئة الأولى ولقد فعلوا ذلك بعد أن أغراهم الأمر الصادر في مارس 1944 وأفزعهم العنف الثوري لحزب الشعب.

أخذ الاتجاهان المتنافسان، منذ ذلك الوقت، يُعلنان عن إيمانهما بالمبادئ المثالية "الفرنكو - إسلامية" لتحقيق المساواة في ظل احترام الفوارق. وضع الاتجاهُ الأول ثقته في المسئولين الفرنسيين لتجسيد مبادئ المساواة الكامنة، بصورة افتراضية، في الأمر الصادر سنة 1944 ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لأنَّ برنامج سنة 1945، الذي وُصف بالاندماجي، تجاوُزًا، لم يُجسَّد لا من طرف الجمعية التأسيسية الأولى ولا الثانية ولا من طرف القانون الجزائري. ومع ذلك؛ فإن الحاكم Naegelen كان شديد الحرص على إبقاء الأمل في نفوس أنصاره فوعدهم، باسم فرنسا، أنَّه سيبذل جهده لكي "لا يكون، في الجزائر، سوى مواطنون متساوون في الواجبات والحقوق وسكانٌ تجمعهم روح المواطَنَة الفرنسية بروابط عادلة متينة مع احتفاظ كلِّ فئة بأصالتها الروحية". لقد توجَّه بهذا الكلام إلى الذين "يئسوا من الانتظار وملُّوا من الوعود الكاذبة" قائلا: "إنَّ ما كان يُسمَّى بالأمس، عدالةً ومعقولية لا يمكن أن تتغير ملامحه وتسميتُه بسرعة ولم يكون الناسُ يطمحون إلى شيء آخر غير الدخول على قدم مساواة في

المدنية الفرنسية ولا يطالبون بشيء آخر غير ضمان مكان لهم في بيت الوطن المشترك؛ وها نحن نقدم لهم ذلك".[123] غير أن الجانب القمعي في ما قام به Naegelen من أعمال طغى على الجانب البنَّاء فنزلت السياسة الفرنسية لتغور في أوحال الجمود.

اقترَح آخرُ الحكام العامِّين في الجزائر، وهو Jacques Soustelle، نفس البرنامج في فيفري 1955 ولكن تحت تسمية جديدة، هي "الإدماج"، فحاول ضمَّ أنصار الاتحاد الفدرالي والوطنيين إلى هذا المسعى أي كلَّ أولئك الذين لم ينضموا إلى الثورة فوَعدَهم بالاعتراف بالشخصية الجزائرية، ضمن نظام فدرالي، غير أنه عدَل عن ذلك الوعد خشية الوقوع في لعبة الانفصاليين؛[124] وحيث أنَّه لم ينجح في تمرير مُخطَّطه، أثناء تلك السنة الحاسمة، فقد حصَل على موافقة أنصار الجزائر الفرنسية (الأوربيين منهم والمسلمين) الذين انضموا، سنة 1958، إلى لجنة الإنقاذ المدني لمطالبة الوطن الأم بتنفيذ المُخطَّط. كانت أولى الخطابات التي ألقاها الجنرال de Gaulle، بعد عودته إلى السلطة، تبدو تكريسًا لميثاق المطالب المقدَّم سنة 1936 أي بعد انقضاء اثنتين وعشرين سنة.

سعى فرحات عباس إلى ترجيح الخيار الفدرالي الذي من شأنه أن يجمع كل الطوائف الجزائرية على قدم المساواة في جمهورية مستقلة ذاتيا ومرتبطة بالجمهورية الفرنسية؛ ولكن سعيه ذاك لم يحقق أدنى نجاح، رغم مظاهرات التأييد من طرف أحباب البيان والحرية ورغم الاعتماد على

---

123. NAEGELEN نفس المصدر. ص.82.

124. Jacques SOUSTELLE، وزير المستعمرات في عهد الجنرال de Gaulle، كان من أنصار تأسيس اتحاد فرنسي فدرالي؛ ولكنه اقتنع بأنَّ "قطار الجزائر سوف يتخطى محطة الفدرالية؛ ولن يتوقف إلا عند الاستقلال." أنظر "الجزائر المحبوبة والمتألمة Plon. 1956 "، "الأمل المخدوع" منشورات Alma، 1962. ص. 20-26 ثم "ثمان وعشرين سنة من الديغولية". الطاولة المستديرة 1968، ص. 275-314.

تصويت الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري، بل كلُّ ما وُفِّقَ إلى تحقيقه هو إقناعُ الشيوعيين والاشتراكيين بأنَّ الاندماج أمرٌ تجاوزَه الخيارُ الفدرالي. في سنة 1955 فضَّل الاشتراكيون الفرنسيون ذلك الحلَّ بدل الإدماج والارتباط الفدرالي المقترح من طرف Jacques Soustelle غير أن تشكيل حكومة Guy Mollet جاء في وقت متأخر ولم يُوفَّق في الحيلولة دون انضمام الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري وجمعية العلماء إلى جبهة التحرير وقد جرَّهم إلى الكفاح المسلح تيارٌ جارف يصبو إلى نيل الاستقلال. بعد فشل الثلاثية المتمثلة في: "وقف إطلاق النار والانتخابات والمفاوضات" جاء القانون الإطار، سنة 1957– 1958، كمحاولة لصالح المساواة بين المواطنين وتحقيق تضامن الجماعات فيما بينها ومع فرنسا بواسطة نظام فدرالي مزدوج وبفضل ثنائية برلمانية لم توفق في نهاية الأمر إلاّ إلى إثارة أنصار الجزائر الفرنسية ولم تجلب إليها أنصار الدفاع عن البيان.

ومع ذلك؛ فإن برنامجهم هو الذي حظي بسعي الجنرال de Gaulle إلى تحقيقه إثر تسلُّمه مقاليد السلطة في فرنسا. منحَ de gaulle الحقوقَ المدنية لكل الجزائريين ورفض التصريح بالإدماج وأبدى ميله إلى انتهاج سياسة تأخذ الشخصية الجزائرية بعين الاعتبار في إطار المجموعة الفرنسية. ابتداء من 16 سبتمبر 1959 عادت أفكارُ فرحات عباس إلى الواجهة وهي تقرير المصير والميلُ إلى فكرة حكم الجزائر، من طرف الجزائريين، في إطار التعاون الوثيق مع فرنسا؛[125] غير أنَّ هذا الأخير قد تجاوز تلك الأفكار وخصوصا بعد انضمامه، من غير رجعة، إلى جبهة التحرير. تم تعيينُه

125. منذ جوان 1955، صرَّح de Gaulle لصالح سياسة "شراكة" (مصطلح تم تطبيقه في الاتفاقيات الفرنسية التونسية). وفي سنة 1960 فضَّل فكرة "الجزائر الجزائرية" وهي الصيغة التي اخترعها فرحات عباس في ماي من سنة 1955. انظر AGERON، "الجزائر جزائرية من نابليون الثالث إلى الجنرال de Gaulle" سندباد، 1980 ص. 239-254.

فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة الجزائرية، لاستدراج فرنسا، ثم عُزِلَ إثر موافقة de Gaulle على التفاوض حول مستقبل الجزائر مع جبهة التحرير الوطني.

لم يكن الجنرال يملك خيارًا آخر بسبب عدم الإقدام على إخراج "حزب التقدم الجزائري الكبير" من "مستنقع" الانتظار؛ ومع ذلك فإنَّه حاول إرضاء طموح أغلبية الجزائريين إلى حُكم أنفسهم بأنفسهم مع اجتناب الوصول إلى حدِّ القطيعة مع فرنسا. غير أنَّ جميع الشخصيات التي تم الاتصال بها بُغية تشكيل "قوة ثالثة" كوسط بين القطبين المتعارضين (الاستقلال والاندماج)؛ قد علَّقت موافقتها بشرط حصول اتفاق مسبق بين الجنرال de Gaulle وبين جبهة التحرير الوطني.[126] وافق عبد الرحمن فارس تولي رئاسة الهيئة التنفيذية المؤقتة لضمان تحويل الموظفين المسلمين، العاملين في الإدارة الفرنسية، إلى موظفين تابعين للدولة الجزائرية الجديدة؛ ولم يبق من مشروع "الشراكة" الفرنسية – الجزائرية سوى "التعاون" بين دولتين مستقلتين.

هكذا؛ انهارت الإيديولوجية التوفيقية التي كانت خيارَ أغلبية الشباب الجزائريين، من سنة 1919 إلى سنة 1939، ولقد انهارت تلك الإيديولوجية في سنة 1943 بفعل تصاعد نزعتين ما فتئت هوَّة الاختلاف بينهما تتزايد مع الأيام قبل أن تفرِّق بينهما حرب 1954–1962 نهائيا. حاول دعاة التجنيس الالتحاق بالاندماجيين المطلبين بجزائر فرنسية بينما انضم الفدراليون إلى معسكر دعاة الاستقلال. لم يعد يوجد بين هاتين القوتين المتعاديتين مكانٌ لقوة ثالثة. أخذت أغلبية الفئة، التي وقفت موقف المتفرج، تنتظر ما تؤول إليه الأحداث بناء على مؤشرات القوة أو الضعف التي تظهر عند هذا القطب

---

126. Chaeles de GAULLE "ذكريات الأمل" ج1، ص. 99. (في هذا الصدد، لم يتعرض للحديث عن اغتيال السناتور شريف بن حبيلس، الذي كان يُنظر إليه كزعيم مُفتَرض "للقوة الثالثة" بتاريخ 28 أوت 1959. انظر عباس، تشريح ثورة. ص. 270.

أو ذاك وبعد أن "انقلبت" لمدة قصيرة إلى صفّ دُعاة الجزائر الفرنسية مالت نهائيا إلى المُطالبة بالاستقلال بعد سنة 1960.

## ج) الاتجاه الوطني

### 1- أصول الاتجاه الوطني

نشأ الاتجاه الوطني، خلافا للأيديولوجيتين السابقتين، خارج نطاق النُّخبة الفرانكفونية وداخل المجتمع المسلم الوفي لتقاليده والشديد الحساسية إزاء المؤثرات الواردة من الشرق؛ ومن المفارقات القولُ بأنّ تكوين الاتجاه الوطني كان الأقدمَ والأحدثَ في آن واحد؛ فيمكن القول بأنّه أقدم الاتجاهات باعتبار أنّ مفهوم "القومية الإسلامية" نابعٌ من شعور الانتماء إلى المجموعة الدينية والزمنية المتمثلة في المؤمنين (الأمة). ظهر هذا التوجه في الجزائر في شكل طموح إلى تحقيق "وحدة إسلامية"، منحازة إلى "الجانب التركي"، ولكن هذا الإحساس التقليدي المُدعَّم بروح المقاومة ضد الاحتلال والاستعمار فإنّه لم يُفرز، قبل سنة 1914 بل إلى غاية 1919، أيَّ نشاط سياسي طموح إلى إعادة تأسيس الدولة الجزائرية. كانت الروح الوطنية، في هذا الاتجاه بالتحديد، مجرَّد إحساس عام لم يرق إلى درجة الوعي، حسبما اعترف به مصالي الحاج في مذكراته،[127] فلم يولد هذا التوجه إلاّ في نهاية الحرب العالمية الأولى، تحت تأثير الحركة الشيوعية، في شكل مشروع سياسي لدى الأوساط العمالية المهاجرة إلى فرنسا. يمثّل حزب نجم شمال إفريقيا، الذي تأسس سنة 1926 بعد حرب الريف، أولّ تنظيم طالب صراحة باستقلال الجزائر سنة 1927.

ومع ذلك؛ فإنّ من باب الصدق التذكير بأنّه وُجدت ثمة محاولاتٌ سابقة منها: محاولة بعض المهاجرين الجزائريين والتونسيين الذين تعاونوا مع

127. "لم نكن ندري بأننا مدفوعين إلى النشاط بشعور وطني" (مذكرات مصالي الحاج، ص. 91 و 108).

الأتراك والألمان للمطالبة باستقلال الأمة التونسية والجزائرية في ندوة الشعوب المضطهدة (Lausanne) سنة 1916) ثم وجّهوا مذكرةً، بهذا الخصوص، إلى مؤتمر الصُّلح سنة 1919. لكن صدى نشاطهم لدى الشباب الجزائريين كان مشكوكا فيه حتى وإن التحق بهم الملازم الفارُّ من صفوف الجيش الفرنسي، رابح بوكابويا، وهو معلم سابق من الموالين للدكتور موسى بوشنوف ومختار الحاج سعيد.[128]

كانت مبادرة الأمير خالد، خرّيج مدرسة Saint-Cyr، أهمَّ من ذلك؛ فقد توجه في ماي 1919، باعتباره حفيدا للأمير عبد القادر، ببرقية إلى الرئيس Wilson يطالبه بمشاركة وفد من الجزائريين، المُنتَخَبين، في مؤتمر الصُّلح وتقرير مصير الجزائر تحت إشراف عصبة الأمم. إنَّ هذا النص الذي يعتبر وثيقة اتهام حقيقية ضد الاحتلال والاستعمار لا يدع أي مجال للشك في صدق المشاعر الوطنية لدى كاتبه؛ ولكنّه بصفته سليل عائلة مرموقة وبفضل تنشئته الشرقية، فقد وُلد في دمشق، لم تُمكّنه من أن يكون ممثلا أصيلا للشباب الجزائري؛ فلم يوفّق سوى في ضمِّ أربع شخصيات إلى مسعاه (لم يُوقّع أيُ واحد منهم على وثيقته) قبل أن يُندِّد به الدكتور بن ثامي والدكتور موسى بوشنوف بصورة علنية. وبعد فشل تلك المحاولة، التي تمت في الكتمان، عاد الأمير خالد إلى تبني مطالب تتميَّز بحذر أكبر ومنها الشراكة الفرنكو - إسلامية التي غدت توجُّهاً يُميِّز نشاطه المدني. ولا يُعرَفُ من رفاقه أحدٌ غير المهندس الزراعي، قائد حمود، الذي أبانت مواقفُه عن تفكيره الوطني "المعتدل" الذي يصعب تمييزه عن التوجه الفدرالي أو الاندماجي.[129]

128. انظر AGERON "أطروحة" ص. 1174-1189 و MEYNIER "أطرحة" ص.417-154، 516-514، 536-525.

129. انظر AGERON، "مجلة التاريخ المغاربي" (18-20) جويلية 1980 ص. 199-209. انظر أيضا، مساهمة القائد حمود في "الحوار بين جزائريين" في "L'Echo d'Alger" 2 و 5 جانفي 1951

يمكن القولُ، بكلِّ تأكيد، بأنَّ التُّهم المُوجَّهةَ إلى المثقفين وإلى الطلبة الجزائريين بأنَّهم "وطنيون" أو "شيوعيون" كانت من باب الافتراء ولقد تصدوا لتفنيدها إلى غاية سنة 1936. لقد تطور اتجاهُهم الوطني ابتداء من سنة 1930، بباريس، ثم تواصل، بعد سنة 1931 بالجزائر، تحت تأثير جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين وجمعية العلماء ونجم شمال إفريقيا: ولكن المناضلين الوطنيين ظلوا يمثلون أقلية في مجتمعهم إلى غاية سنة 1939 ولم يمثلوا الأغلبية فيها إلا بعد سنة 1943 بل إلى غاية 1955. هذا الانضمام المتأخر والجزئي يُفنِّدُ ما نسبه "الحاقدون على العرب" إلى الشباب الجزائريين من دور ريادي في الحركة الوطنية.

## 2- القطيعة والاستمرارية في الاتجاه الوطني

إنَّ هذا التطور، وإن حدث في وقت متأخر، قد اتخذ شكل تحوُّل فجائي: فالطلبة الذين اعتنقوا الاتجاه الوطني كانوا يرفضون، بعنف الاعتراف بالسيادة الفرنسية التي دأب معلموهم على تلقينها إياهم باعتبارها الإطار الذي لا مناص منه لتحقيق رقي شعبهم. فلقد تصدوا للتنديد بكل أشكال الاحتلال الفرنسي: سواء منه الاحتلال العسكري أو الاستعمار الاستيطاني وحتى الاندماج الثقافي الذي كانوا يرون فيه تغريبا ثقافيا و طمسا للشخصيتهم. كما رفضوا عُقدة الشعور بالنقص التي حالت دون طموح من سبقوهم إلى فكرة الاستقلال عن فرنسا ولقد اختار أوائل الاندماجيين ذلك التوجُّه السياسي كردِّ فعلٍ ضد انحطاط شعبهم: أما الوطنيون فقد سلكوا الطريق المغاير الذي اختاره آباؤهم وهو الطريق المؤسس على الثقة في حسن نوايا فرنسا بالرغم من أنَّهم لم يجنوا منها سوى خيبة الأمل المتكررة.

يمكن القولُ، بكلِّ تأكيد، بأنَّ التُّهم المُوجَّهةَ إلى المثقفين وإلى الطلبة الجزائريين بأنَّهم "وطنيون" أو "شيوعيون" كانت من باب الافتراء ولقد تصدوا لتفنيدها إلى غاية سنة 1936. لقد تطور اتجاهُهم الوطني ابتداء من سنة 1930، بباريس، ثم تواصل، بعد سنة 1931 بالجزائر، تحت تأثير جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين وجمعية العلماء ونجم شمال إفريقيا: ولكن المناضلين الوطنيين ظلوا يمثلون أقلية في مجتمعهم إلى غاية سنة 1939 ولم يمثلوا الأغلبية فيها إلا بعد سنة 1943 بل إلى غاية 1955. هذا الانضمام المتأخر والجزئي يُفنِّدُ ما نسبه "الحاقدون على العرب" إلى الشباب الجزائريين من دور ريادي في الحركة الوطنية.

## 2- القطيعة والاستمرارية في الاتجاه الوطني

إنَّ هذا التطور، وإن حدث في وقت متأخر، قد اتخذ شكل تحوُّلٍ فجائي: فالطلبة الذين اعتنقوا الاتجاه الوطني كانوا يرفضون، بعنفه الاعتراف بالسيادة الفرنسية التي دأب معلموهم على تلقينها إياهم باعتبارها الإطار الذي لا مناص منه لتحقيق رقي شعبهم. فلقد تصدوا للتنديد بكل أشكال الاحتلال الفرنسي: سواء منه الاحتلال العسكري أو الاستعمار الاستيطاني وحتى الاندماج الثقافي الذي كانوا يرون فيه تغريبا ثقافيا و طمسا للشخصيتهم. كما رفضوا عُقدةَ الشعور بالنقص التي حالت دون طموح من سبقوهم إلى فكرة الاستقلال عن فرنسا ولقد اختار أوائل الاندماجيين ذلك التوجُّه السياسي كردٍّ فعلٍ ضد انحطاط شعبهم: أما الوطنيون فقد سلكوا الطريق المغاير الذي اختاره آباؤهم وهو الطريق المؤسس على الثقة في حسن نوايا فرنسا بالرغم من أنَّهم لم يجنوا منها سوى خيبة الأمل المتكررة.

ومهما بدت القطيعة مع الأيديولوجيات السابقة عنيفةً فإنها لم تكن مطلقة؛ ولم تكن تخلو من تواصل وذلك في أمرين، على الأقل، هما: التمسُّك "بفكرةٍ مّا عن دور فرنسا" والشعبوية.

كان التحول إلى الوطنية بالفعل تعبيرا، بصيغة جديدة، عن طموحٍ قديم لدى المثقفين الأهالي: إنه الوفاءُ لشعبهم ولفرنسا في نفس الوقت. كان الشباب الجزائريون عازمين على خدمة الشعب وتمكينه من مزايا التعليم الذي استفادوا منه والحصول على المواطنة التي يطالبون بها؛ وبعد أن لمسوا تمسُّكه بمقومات شخصيته الدينية والعرقية عملوا على إيجاد صيغة انتساب مثالي مزدوج من شأنه التوفيقُ بين الواقع الفرنسي والواقع الإسلاميٍ ولكنهم أدركوا، قبل أو أثناء الحرب العالمية الثانية، أنَّ الجماهير الشعبية لم تكن تشعر قط بأنها فرنسية ولم تكن راغبة في أن تكون فرنسية فأُرغموا على الخضوع لأرادتها وعدم التحدث باسمها.

ومع ذلك؛ فإنَّ المثقفين المتحولين إلى الوطنية لم يكن بوسعهم، بالرغم من مبادئهم الجديدة، أن يتنكروا لتكوينهم الثقافي الفرنسي. لقد تمكنوا من التغلب على ذلك التناقض بالتمييز بين الخيار السياسي المتوجِّهُ نحو شعبهم وبين القيم العالمية التي تتضمنها الثقافة الفرنسية؛ وفي هذا فإنهم لم يقوموا بأكثر من تأكيد ما كان يذهب إليه أسلافهم من تمييز بين فرنسا الحقيقية، الموجودة في الوطن الأم، وبين الاستعمار الفرنسي، الموجود في الجزائر، وهكذا فإنَّ "فكرةً مًّا عن دور فرنسا" التي تلقوها عن معلميهم ظلَّت، بشكل مفارق، عالقةً برفضهم لسيادتها الزمنية. غير أنَّ تلك الفكرة تحوَّلت إلى حقيقة نسبية فلم يعد تقليدها أمرا واردًا، باعتبارها مثالا كاملا، ولا إشراكُها في مشروع ثقافي عربي إسلامي، وإنما أصبح الأمر يتعلق بإدماجها في الشخصية التقليدية للشعب المسلم الجزائري كخميرة للحداثة؛ ولم يعد ذلك المثال يتناسب مع الوضعية الثقافية الحقيقية للطلبة الجزائريين الذين ما فتئ اندماجهم يتحقق بكثافة متزايدة.

هكذا أضحت الإيديولوجية الوطنية، لدى الطلبة المسلمين الجزائريين، استمرارا لإيديولوجية الأجيال السابقة. كان التحوُّل والاستمرارية وجهان متناقضان وسوف يظهران، بشكل أوضح، في الفصلين التاليين حيث يتم تحليل مراحلهما من خلال مسار مهني ممتاز لأحد الممثلين النموذجيين كما سيتم تبيان تفاعل المفاهيم المرتبطة بها.

# الفصل الثامن

# التكوين السياسي الفردي

يهدف موضوع هذا الفصل والذي يليه إلى تحليل أسس الوعي الوطني لدى الطالب الجزائري؛ ويتعلّق الأمر، باديْ ذي بدء، بتحديد معالم تكوين ذلك الوعي الوطني من خلال مسار مهني متميز لشخصية نموذجية. وسوف تكون هذه الشخصية عيِّنة ممثلة للجيل الطلابي الذي التحق بالدراسة الجامعية بعد سنة 1945؛ مع أنَّ تجربة الأجيال التي سبقت هؤلاء سوف تؤخذ في الحسبان من حيث تأثيرُها، الواعي أو غير الواعي، في تشكيل وإثراء الحركة الوطنية بعد سنة 1945. يعتمد هذا التحليل على ما يُسميه علماء الاجتماع والسياسة "التنشئة السياسية للفرد" فهو تحليلٌ يتوافق، من أوجه عديدة، مع تحليل William B Quandt الذي يُعتبر كتابُه، المذكور سابقا،[1] مصدرا ثمينا من مصادر دراسة الحركة الوطنية الجزائرية.

تضافرت مفاهيم "الأمة" و"القومية" على تشكيل عدد كبير من التعاريف وخصوصا منها التعريف الفرنسي والألماني؛ والحال أنَّ جميع تلك التعاريف مبنية على نفس الإثباتات وهي: تنوُّع البشر حسب تنوع "الأجناس" والثقافات (الألسن والديانات والطبائع والمؤسسات...). إنَّ تضافر عدد من تلك العوامل

---

1. "ريفولوسيون أند بولنتيكال ليدرشيب" الجزائر 1954-1968 ذاميت ابراس 1969.

هو الذي يحدِّد هويةَ المجموعة العرقية أو الوطنية ويجعلها تعي خصوصياتها التي تميِّزها عن الآخرين؛ غير أنَّ الأحداث التاريخية تربط المجموعات إلى بعضها وتتيح لها، في بعض الأحيان، إمكانيات التعايش في نفس المضارب. ونادرا ما يتحقق ذلك التعايش في كنف المساواة بل يتحدَّد، في كثير من الأحيان، بموازين القوى لدى كل من الشعبين المتواجدين معا ومهما استمرت تلك الموازين قائمة فإنَّ المجموعة الأكثر حيوية (وهي لا تمثل الأغلبية بالضرورة) سوف تنزع إلى ابتلاع المجموعة الأضعف أو القضاء عليها.

وبعد قيام الثورة الفرنسية ظهر مبدأٌ جديد في القانون الدولي مفادُه أنَّ لجميع "القوميات"، صغيرة كانت أو كبيرة، الحقُّ في تكوين دولة وطنية ذات سيادة؛ ولقد تطوَّر، نتيجة لذلك، مفهومُ لفظة "القومية" فأصبح يعني الانتسابَ إلى دولة، يُفترض أنَّها منتميةٌ إلى مجموعة عرقية واعية بشخصيتها وراغبة في المتمتع بسيادتها؛[2] لكن خريطة الدول لا تنطبق حتما مع خريطة القوميات. إنَّ الخطأ الأساسي للسياسة الفرنسية في الجزائر هو فرضُ هيمنتها كأمرٍ واقع؛ باعتبار أنَّ هدفها، على المدى البعيد، هو منحُ الجنسية الفرنسية للأهالي الجزائريين الذين ظلوا، رغم انهزامهم متمسكين "بقوميتهم" الخاصة. يتمثل خطأُ السياسة الفرنسية أيضا في خلطها بين المفاهيم فلقد تمادى قادتُها في نكران الواقع وطرحوا المشكل السياسي الجزائري وكأنما الجزائرُ صارت بالفعل جزءا لا يتجزأ من الأمة الفرنسية. كان الشيخ بن باديس أكثر دقة في الطرح حين ميَّز بين "القومية العرقية" و"القومية السياسية".

ينبغي التمييزُ، إذن، بين الشعور القومي العفوي وبين الوعي الوطني المؤَسَّس الذي يُدرج العواقب السياسية في حسبانه؛ لأنَّ هذا الأخير لا

2. راجع العريفات التي سبق وأن ذكرها روبير في هذا الصدد.

تسمعوا لما سيقوله المعلم. تلك مدرسة الشيطان يريد أن يسلخكم عن ملَّتكم". إنَّ الشهادات على هذا القول متوفرة بكثرة؛ ومنها شهادة فرحات عباس كما لا تقلُّ شهادة صادق هجرس[3] أهمية عنها رغم تأخُّرها زمنيا. جمع مالك بن نبي، الذي وُلد سنة 1905، شهادات عن وقائع احتلال مدينة قسنطينة سنة1837 فقال: "حين كان الفرنسيون يدخلون من خلال الفجوة، التي أحدثتها مدافعهم في سور المدينة، كان الشباب القسنطينيون وعائلاتهم يغادرون المدينة بواسطة سلالم مصنوعة من حبال فكانوا ينزلون بواسطتها من أعلى الجبل، حيث تقبع المدينة، فتتقطع أحيانا وتسقط العذارى في الهوة السحيقة. لقد عاشت جدتي الحاجة باية تلك الفاجعة".[4] واستعرض الشاعر مالك حداد، الذي يصغُره سنًّا، ذكريات عن سنة 1871 يقول فيها:

"إن للفظة وطن، عندنا، مذاقٌ أسطوري

يدي لامست صلب أشجار الزيتون

قبضةُ الساطور هي بداية الملحمة

شاهدت جدي المقراني

يُدلّي مسبحته ليشاهد النسور وهي تمرُّ

إن للفظة وطن، عندنا، مذاقٌ من غضب."[5]

أما عبد الحميد بن زين (كان محافظا سياسيا في الولاية الخامسة سنة 1956) فقد أورد في Journal de marche حكاية امرأة تجاوزت المائة عام

3. "اربعة أجيال، ثقافتان" في مجلة "لا نوفيل كريتيك" (112) جانفي 1960 ص. 26-49.

4. "مذكرات شاهد على العصر" ج. 1 الجزائر 1965 ص. 9-10.

5. "البؤس في خطر" باريس 1956، ص. 25. أعاد روايته ج. لفي فالانسي، و ج.إ. بن الشيخ. "ديوان جزائري" المركز البيداغوجي المغاربي، 1967، ص. 111.

وُلدت أثناء وصول الفرنسيين إلى المنطقة التي كانت تسكنها: "لا تزال نشطة ولا تزال تصلي من أجل أن ينصر الله الإسلام. لقد طلبت أن يزورها بعضُ المجاهدين متمنية أن لا تموت قبل أن تشاهد هرب الفرنسيين كما شاهدت مقدمهم"؛[6] ولا شك في أنّ تعاقب السنين قد أفقد بعض الذكريات حيويتها، حسب رأي فرحات عباس،[7] ولكنها ذكرياتٌ لا تنسى فربما طغت عليها هموم الأحداث الراهنة غير أنّها لا تزال تُحرِّك الضمائر في بعض المناسبات. اكتشف بلقاسم إيبعزيزن، المتطوع للتجنيد أثناء الحرب الكبرى، اكتشف فظاعة ما أقدم عليه الألمان من تخريب منتظم ومهول للأراضي الفرنسية عند انسحابهم عنها سنة 1918؛ ولقد ذكّرته تلك المشاهدُ بما حدث لأشجار الزيتون في قريته من طرف المحتل الفرنسي[8]. كان أحد الأطباء في الجبل، وقد أسره الجيش الفرنسي سنة 1957، كان يرتعد للفكرة الغريبة التي جعلته يتصور نفسه بين أيدي الجلاّدين وهم يقتلعون شاربه، شعرة شعرة، مثلما فعلوا بأحد أجداده سنة 1871.

كان الجانبُ الخفي في تلك القصص يُخفي عبرةً هامة مفادها: أنَّ الفرنسيين قومٌ أجانب ولا ينتسبون إلى مجموعة المسلمين؛ وكما يقول Quandt: "سواء أكان الابنُ مولودا في أحضان عائلة عربية قسنطينية أو عائلة بربرية من فلاحي بلاد القبائل فإنّه كشاب جزائري كان متيقنا من انتمائه إلى الإسلام؛ فربما يختلف تأثيرُ ذلك على مجريات حياته اليومية ولكن مجرد كون الفرد مسلما كان يُشعرُه بالفرق الجوهري بينه وبين أفراد المجتمع الأوروبي ممن يلتقي بهم في غُدوِّه ورواحه إلى المدرسة. حتى وإن

6. "جريدة السيرة" الجزائر 1965، ص. 51.

7. "إن مآسي الاحتلال قد أخذت بعد تنمحي من ذاكرتنا. الغد يحمل في طياته النسيان." ("الشاب الجزائري" ص. 148).

8. " جسر بيريك موش" ص. 56.

حاول بعض المسلمين تجاهل ذلك العنصر المشكِّل لهويتهم فإنَّ أفراد مجتمعهم وكذا المستوطنين يحرصون دوما على تذكيره بأن لا يجوز الخلط بين المسلمين والأوروبيين".[9] ويجد ذلك مضمرا في اللغة اليومية أيضا: فالناس لا يتحدثون عنهم إلا باستعمال ضمير الغائب. والذين يخالفون هذه القاعدة، أمثال بن علي فكّار، الذي تجرأَّ بالقول: "الأهالي المنتمون إلى "مستعمراتنا" في الهند والسنغال"[10] أو فرحات عباس الذي قال: "فرنسا هي أنا"... قد أثاروا فضائح بما تفوهوا من كلام يصدم الأفكار السائدة والتي لم تجد حتى بين الفرنسيين من غفل عن ملاحظتها.

الواقع أنَّ الضمير الشعبي الفرنسي لا يُضمر "للفرنسيين المسلمين" تصورا آخر غير كونهم "عربًا" (في الجزائر) أو "جزائريين" (في فرنسا). وحين حرصت الإدارة الفرنسية على الاحتفال، سنة 1930، بتخليد الذكرى المئوية لاحتلال مدنية الجزائر واحتلال مدنية قسنطينة، سنة 1937، وبتحويل مسجد كتشاوة إلى كاتدرائية، سنة 1939، وبتأسيس Napoléon Fort، سنة 1957، أو Fort National؛[11] فلقد حرصت في خضمِّ احتفالها على إبراز الصِّدام المسلَّح الذي حصل بين القوميتين وكيف انتصرت إحداهما وانهزمت الأخرى. وكانت المعايشةُ اليومية مع الفرنسيين، في الشارع وفي المدرسة، توفِّر للطفل الجزائري الفرص العديدة لتلقينه أنَّه ليس فرنسيا ولكنه "عربي" بل Bicot أو جدع كرمة. إنَّ فرنسيي الجزائر هم الذين كانوا يخصُّون أنفسهم بالنسب الشريف "جزائري" قبل أن يستعيده الأهالي مع تطور الحركة الوطنية.[12]

---

9. كاندت م.م. ص. 27

10. في "التمثيل السياسي لمسلمي الجزائر" م.م.

11. "يوميات" لمولود فرعون، ص. 238-239

12. أنظر "الجزائر الطلابي" (16) 16-6-1923. 14: " الجزائريون هم دوما ابناء للفرنسيين، أما الأخرين فهم أهالي".

## 2- المدرسة الفرنسية

من مفارقات الأمور أن تساهم المدرسة الفرنسية، المبرمجة وفق نسق اندماجي، في تكوين الشعور الوطني الجزائري. إنَّ اكتشاف التلاميذ لهذه المدرسة الأجنبية عزَّز في نفوسهم الشعور بالغيرية؛ فكل الأطفال يعيشون، في أولى أيامهم بالمدرسة، حالة من الغربة لأنَّ الانتقال من الأجواء العائلية إلى الوسط المدرسي حدثٌ هام تجري وقائعه في شكل دراما صغيرة. وتتَّخذ تلك الوقائع، بالنسبة للطفل المسلم، أشكالا درامية مضاعفة فبالإضافة إلى تغيُّر وسطه الطبيعي فإنَّه يدخل في رحاب مجتمع مُغاير. إنَّ حالة الغربة الأولية تكون أشقَّ على النفس وأعمق في الوجدان؛ لكن في حالة ما إذا وُفِّق الطفل إلى اجتيازها والتغلب عليها فمن المحتمل أن تتحول إلى مواجهة بينه وبين الوسط العائلي. كان من المحتمل، أيضا، أن يحدث التراجع عن عملية التغيُّر الحاصلة ولذلك فمن المحتمل جدا أن تؤدي تلك التجربة الأولى إلى نتائج جد مختلفة: قد توصل إمَّا إلى الاندماج أو إلى تحريك الشعور الوطني. لكنَّ فكر الطفولة لا يصل إلى تلك الآفاق البعيدة.

عندما يُقتلع الطفل الجزائري من تربة الوسط العائلي، بعنف، ويتم استبدال أهله وأقاربه بمعلمين وأصدقاء مفروضين عليه، فرضا، فإنَّ حالة الغربة الأولية تتضاعف فيعاني مشاكل التكيُّف مع عادات المجتمع الآخر. وصف الصادق هجرس تلك الوضعية كما يلي: "كم واجهنا أثناء ذلك التكيُّف من أحداث مضحكة تبعث على السخرية! كان نزعُ الطاقية قبل الدخول إلى القسم أمرا طبيعيا، بالنسبة للطفل الأوروبي، أما بالنسبة إلينا فكنا نقوم بذلك ونحن نتساءل عن السرِّ الكامن وراء ذلك التصرُّف لأنه نقيض ما نقوم به في المحاضر حيث كنَّا ننزع الحذاء ونحتفظ بالطاقية؛ ومهما يكن فلقد كان من الصعب جدا الإفلات من سخرية الأصحاب واستهزاءهم. لقد كنا، بسبب "شواشينا" الحمراء، نُلقَّب "الجبن الأحمر"؛ وبعد نزع الطاقية نتحول

إلى "حجرة صلدة" حيث كانت المدية تمر على أديم أدمغتنا في فترات منتظمة فلا تترك فيها شعرة نابتة. وكم من مرّة استُقبل بعضُنا بموجة من الضحك عندما يعتذر، مبرّرا تأخّره عن الدرس، بأنّه رافق "الدار" إلى الحمّام وهي الطريقة العربية في التعبير عن مرافقة نساء العائلة إلى الاستحمام".[13] تلك الحوادث المضحكة لم تكن تمثّل خطورة ما غير أنها كانت بليغة التعبير عن وضعية التلميذ الجزائري المسافر بين عالمين.

إنّ الجانب الأكثر راديكالية، في هذه الغربة، هو إرغامُ الطفل على استبدال لغة بأخرى من أجل استيعاب المحتوى الدراسي. فعلى التلميذ الجزائري أن يتعلم القراءة والكتابة والنطق والتفكير بلغة أجنبية تدّعى أنها تحتكر الثقافة وتحلُّ محل اللغة الأم وتزيحها إلى مرتبة أدنى. عندما يتم اقتلاع الطفل الجزائري من جذوره الرطبة فإنّه يُرغَم على الانبعاث في عالم تحكمه ذهنية مُغايرة؛ ولقد اكتسى هذا التحوُّل الإجباري طابعا دراميا ساهم بشكل فعّال في تكوين الوعي الوطني؛ وأصبح بعض الطلبة كُتّابًا باللغة الفرنسية. في هذا الصدد يتحدث مالك حدّاد عمّا يسميه "الحنين إلى لغة الأمومة التي فطموا منها وصاروا أيتاما تستحيل مؤاساتهم بعد فقدانها".[14] لقد ألهم هذا الطّرح كتابات بليغة التأثير لكُتّاب جزائريين آخرين أمثال جان عمروش وكاتب ياسين. لكن النظام الذي فرضه الاحتلال والاستعمار الفرنسي حاصر لغة الأمومة في الإطار العائلي الضيّق. وكان العالم الخارجي مجالا مخصصا للرجل الفرنسي ولغته. لم تكن المدرسة، التي تحضر للدخول في ذلك العالم، تقوم سوى بفرض علاقة تُميِّزها سيطرة السيِّد على المسود : "كانت لغتُنا الأم مهجورةً في عقر دارها (...) فالصحافة والإذاعة والندوات والأفلام والمسرحيات والملصقات الإشهارية والإجراءات الإدارية

13. "هجرس م.م. ص. 35.

14. "الأصفار تدور في حلقة مفرغة" ماسبيرو . 1961، ص. 32.

مثل ملء الحوالة البريدية أو استمارة الحالة المدنية وكل ما كان يكتب سواء في ذلك عبارة "ممنوع الإلصاق" على الجدران أو لوحات أسماء الشوارع فليس ثمّة شيء يُستثنى من الاحتكار الذي كانت تتمتع به اللغة الفرنسية".

إنّ ارتباط اللغة الفرنسية بقضاء المصالح اليومية، التي أدرك الناس ضرورتَها، هي سببُ التخلي عن رفض التمدرس". كانت اللغة الفرنسية تُدعى اللغةَ "الدنيوية" أو " لغة الخبز" وكانت لغةً ضرورية لمواجهة النظام الاجتماعي الجديد الذي فرضه الأجانب في البلد؛ ولذلك قرّر والدُ كاتب ياسين إلقاء ولده بين "فكي السبع" منذ أن بلغ سنّ السابعة قائلا له: "دع عنك اللغة العربية الآن. أنا لا أريد أن تصير مثلي جالسا بين مقعدَين. فلو كانت الظروف عادية، كما كانت في الماضي، لتولّيتُ أنا تدريسك الأدب واللغة ولتولت أمّك الباقي. لكن إلى أين سيوصلنا مثل هذا التعليم؟ إنّ اللغة الفرنسية هي المسيطرة وينبغي عليك أن تسيطر عليها. اترك وراءك كلّ ما لقّنّاه إياك منذ نعومة طفولتك. يجب أن تصير علَمًا في اللغة الفرنسية؛ وبعد ذلك يمكنك العودة بسلام إلى مواقعك الأولى بجانبنا". ذلك كان، عموما، محتوى الخطاب الأبوي. فهل كان يصدّق ما يقول حقًّا؟ "[15] الحقيقة أنّ النهر لا يعود إلى النبع؛ فالاحتجاجات الشديدة التي كانت ترتفع مندّدة باستئصال الناشئة من جذورها "وقطعِ حبلِ المشيمة التي كانت تشدّها إلى أرحامها"، بفعل التحوّل الثقافي الذي فرضته المدرسة الفرنسية، كان شاهدا على كون الطفل الجزائري بدأ يستسيغ متعة عالمه الجديد. شرح عبد الله مازوني[16] هذه الوضعية بقوله: إنّ الغربة الثقافية عاشها المغتربون بصفة إيجابية باعتبارها محفّزة على الفضول ومقوية للإرادة التي تصنع النجباء؛ وكان الطفل الجزائري يحوّل بعضا من مشاعر الاعتراف بالأبوة إلى أولئك

15. كاتب ياسين "مضلع النجوم" لوسوي، 1966، ص. 180-182.

16. مازوني م.م. ص. 45-47.

الذين قادوه في تلك المغامرة الجميلة اعترافا بصنيعهم الجميل. يبدو أنّ كاتب ياسين كان مغرما بمعلِّمته الفرنسية حين يقول: "كانت أمي ألطفَ من أن تظل غير مكترثة بمظاهر الجفاء؛ ولا زلت أتخيَّلُ ملامحها المجعَّدة وهي تحاول اقتلاعي من الكتب التي كنت منكبّا عليها؛ وفي ليلة من الليالي توجَّهت إليَّ بنبرة البراءة قائلة: "مادام محظورًا عليَّ أن أُلهيك عما بين يديك من كتب فهيا علِّمني اللغة الفرنسية إذن..." وهكذا وقعت جذوري الرطبة بين فكَّي كمَّاشة العصور الحديثة ولا زلتُ أثور على غباوتي حين شعرت بالانتشاء يوم أن جلست أمي قبالتي، في مكتب الدراسة، وفي يدها جريدة فرنسية. كانت ملامحها تزداد توغُّلا في الابتعاد مشدودة في قبضة السكون والسُّقم وكأنَّ يد ذلك التلميذ القاسي كانت تحتم عليها أن تضع كمامة الصمت على كيانها بل أن ترتمي في فم السبع".[17]

لم يكن في وسع الوسط العائلي الاحتفاظُ بالعلاقة مع أطفاله إلا إذا سار معهم في المغامرة التي يخوضونها. كان الطفل مبتهجا بالمعرفة التي يكتشفها في المدرسة وكانت قيمةُ وسطه العائلي وضيعةً، في نظره، لأنّه يجهل ذلك العالم. عندما يتحكَّم الطفل في اللغة السائدة يفقدُ الإحساسَ بأنه مسودٌ وعندما يصير معلما لتلك المادة يتحوَّل ليتبوأ مكانته في جناح المعلمين. إنَّ هذه الردود الإيجابية الأولى الصادرة من التلميذ الجزائري تجاه التعليم الذي كان يتلقاه، كانت تدفعه منطقيا إلى تبني فكرة الاندماج. غير أنَّ الندم على فقدان الروابط مع ذويه كان يحرِّك فيه، إن عاجلا أو آجلا، توبيخ الضمير. كانت المدرسة الفرنسية تنتج مُدمجين يقف بعضُهم موقف العداء الصريح للاندماج أمثال كاتب ياسين الذي يقول: "لم يحدث لي أبدا حتى في الأيام التي نلت فيها الحظوة لدى معلمتي، أن فقدت الإحساس في أعماق نفسي بآلام قطع حبل المشيمة الذي يشدني إلى الرحم الأصلي: ذلك

17. كاتب يسين م.م. ص. 180-182.

المنفى الداخلي الذي لم يكن يقرِّب التلميذ من أمه سوى ليُمعن في اقتلاعه كل يوم أكثر (...)؛ وهكذا حدث لي أن فقدت أمي ولغتَها معًا. ذلك الكنز الذي لا يمكن استلابه ومع ذلك فقد سُلب".

كان من الممكن أن تؤدي الأزمة اللغوية، التي أحدثها التعليم الفرنسي، إلى نتيجتين متعارضتين هما: إما فرنسة الذات أو تجلية الوعي الوطني الجزائري. لكن هذا الأخير من خصوصيات الأطفال الذين طُبعوا، منذ صباهم، بختم الثقافة العربية الحية. فهمُ الذين وجدوا في تلك القضية عنصرا حاسما أدى بهم إلى اكتمال الوعي. وهناك آخرون لم يتأثروا بذلك قط: فأبناء المعلمين أو أبناء العائلات التي كانت تستعمل اللغة الفرنسية كلغة ثانية لم يشعروا بالغربة في المدرسة الفرنسية. وهناك حالات لطلاب وطنيين لم يكونوا يتحدثون بغير اللغة الفرنسية؛ وبعض الأطفال الذين يقطنون خارج بلاد القبائل كانوا متعودين على التحدّث باللغة البربرية في المنزل وباللغة العربية في الشارع فلم يصدموا حين أُجبروا على استعمال لغة ثالثة في المدرسة. وهكذا فإن قضية اللغة لم تكن تشكل بالنسبة للجميع، وبنفس الدرجة، برهانا على الحسِّ الوطني الجزائري.

ومع ذلك؛ فإنَّ زحزحة اللغة العربية إلى مرتبة أدنى لم يكن ليحدث دون أن يخلف أثرا وكانت في الماضي اللغة الوحيدة للثقافة المدرسية. إنَّ ندرة المدارس باللغة العربية وعدم ملائمة مستواها الدراسي وكذا الحجم الساعي المحدود الممنوح للغة العربية في المدرسة الفرنسية كان دافعا إلى التفكير في الأمر؛ فاستحالة التعلُّم بلغة أمهاتهم قد شكلت دائما موضوع حيرة وإحساس بالعار بالنسبة لقسم هام من الطلبة الجزائريين بما فيهم الاندماجيين المعتدلين المطالبين بثقافة مزدوجة. لقد حظي شريف بن حبيلس بذلك في مدرسة قسنطينة الرسمية. ويعتبر فرحات عباس أحسن ممثل لذلك الاتجاه حين ندَّد بمحدودية معرفته باللغة العربية؛ أمَّا التعليم

الأولي في المدرسة القرآنية فكان محصورا في حدود حفظ آيات من القرآن ولم تستفد منه سوى أقلية من الطلبة الجزائريين ذوي التكوين الفرنسي؛ ولقد وجد بعضُهم ذلك إكراها لا فائدة ترجى منه. فهم مرغمون على القيام مبكرًا للذهاب إلى الكُتّاب؛ ولكن ذلك الأمر كان في ذهن الأولياء وسيلةً لتلقين شعور الانتساب إلى الأمة الإسلامية وإبطال مفعول الاستلاب الثقافي وتضييق الخناق على المدرسة الفرنسية لكي لا تحتكر المسألة الثقافية بمفردها. تحدّث صادق هجرس[18] عن ذلك قائلا: "لقد كنا محظوظين حين تعلمنا القراءة والكتابة باللغة الفرنسية ولم نتعرض للإحباط المعنوي بفضل معرفتنا أبجدية اللغة العربية ذلك المكسب الذي يمثل النظام القاعدي لحضارة بأكملها أثبتت في مناسبات كثيرة عطاءها الكبير. لا زلتُ أذكر تلك النخوة التي كنا نحس بها تجاه رفاقنا الأوروبيين في المدرسة حين كنا، بعد أن اطّلعنا على أسرار أبجديتهم، نستعرض لهم ألف؛ باء؛ تاء؛... التي لم تكن تقلُ تنظيما عنها والتي كانت كتابةُ أحرفها، في نظري، أجمل وهم لا يفقهون من ذلك شيئا...". فالتعليم الفرنسي لم يجد ذهن التلميذ قاعا صفصفا؛ بل أكثر من ذلك إنّ وجود ثقافة خاصة، يجهلها الرفاق الأوروبيون، كان عامل تمايز وطني: "بدت لي طريقة حملنا الألواح مليئة بالرمزية. فعند عودتنا إلى الدار كنا نخبؤها تحت جناح المعطف أو "القشابية" لإخفائها عن نظرات الأوروبيين الطفيلية".

كانت اللغة العربية مهملة في المدرسة الفرنسية ما عدا في المؤسسات الرسمية للتعليم الثانوي (الفرنكو – إسلامية)؛ فبناء على ما ذهب إليه Augustin Berque؛[19] فإنّ التلاميذ المسلمين لم يكونوا يستعملونها قط بل كانوا يفضلون تعلُّم اللغة الإنجليزية بدلا عنها. يتساءل Berque قائلا: من

18. هجرس م.م. ص. 33.

19. "المثقفون الجزائريون" المقال المذكور.

يشكو القوميون الجزائريون إذن؟ إنَّهم فعلا يشتكون من السياسة التي جعلت تعلُّم اللغة العربية في الجزائر أمرا غير ذي جدوى. أما الطلبة فكانوا يندِّدون بعدم كفاية تدريسها كمّا وكيفا: "على عكس ما يحدث للغات الأخرى فإنَّ تعليمها كان دوما دون المستوى (...). إنَّ الكتب المنتشرة (مثل كتاب صوالح) وهو الأكثر شهرة وانتشارا تسمح بسبر المستوى العام المنحط؛ وبالإضافة إلى ذلك كانت دروس اللغة العربية تمثل، بالنسبة للطلبة، أفضل المناسبات للتهريج لأنها لم تكن تُحظى بأي اعتبار يُذكر. لقد كان الطلبة يقومون أثناء حصصها بحلِّ واجباتهم في مادة الرياضيات أو يخوضون "المعارك البحرية" ولم يكن الأساتذة يستنكرون ذلك. كان ذلك يحزُّ في نفوسنا عندما يكون الأساتذة جزائريين وكنا، بسبب ذلك، نمقتُهم أكثر مما يمقتهم رفاقُنا الفرنسيون".[20] خلقت النتائج الهزيلة في امتحانات تلك المادة شعورا بالمهانة ساهم في تجذُّر الحسِّ الوطني. وبمرور الوقت خلقت معاشرة المغاربة والتونسيين وبعض الشرقيين في جامعات فرنسا لدى الطلبة الجزائريين شعورا بالبهدلة بسبب مبلغهم من الجهل في تلك اللغة.

على عكس ذلك؛ ساهم بعض الأساتذة في إذكاء الشعور الوطني لدى الطلبة بفضل كفاءتهم وبفضل قيمة الدروس التي كانوا يسدونها. لقد كانوا يأخذون مهمَّتهم مأخذ الجدِّ "ويبذلون جهودا جبارة كأنما يحاولون من خلال ذلك تدارك الخلل الموجود في المنظومة كلها. كان يسري بيننا وبينهم تيَّار تفاهم ضمني وكأنَّما لسان حالهم يقول لنا: "اغتنموا الفرصة وتعلَّموا لغتكم" ذلك ما كنا نستشفُّه من اهتمامهم المتزايد بنا ومن صرامة تعاملهم معنا؛ وكنا، من جهتنا، نبذل المستحيل لكي لا نخيِّب ظنَّهم فينا". كانوا متحكمين في الثقافة العربية، الكلاسيكية كما العصرية، ولم يكونوا يترددون في التعرُّض للحديث عن الأوضاع السياسية الراهنة؛ وكان جلُّ أساتذة اللغة

20. هجرس م.م. ص. 41.

العربية من المسلمين باعتبار أنَّ أوروبيي الجزائر لم يكونوا يعيرونها كبير اهتمام فهي في نظرهم لغةٌ أجنبية ليس إلاَّ": "لم يكن اختيار اللغة الثانية يطرح مشكلا كبيرا بالنسبة للأغلبية الساحقة فهي اللغة العربية. هكذا بدأ طرح أولى القضايا الوطنية من المنظور الفكري والثقافي المحض. فهل يُعقل أن يدرس تلميذُ التعليم الثانوي لغةً هي لغته؟ و يحصل ما هو أدهى من ذلك حين يبلغ الطالب مستوى السنة الرابعة فيُطلب منه اختيارُ لغة حيَّة ثانية. كان كثير من الطلبة يختارون اللغة العربية الدارجة أي لغة 90 ٪ ممن حولهم من الناس". ذلك ما لاحظه Robert Malan. لا شك في أنَّ اللغة العربية الكلاسيكية هي لغة القرآن والأدب القديم ولكن تفريعاتها المستعملة في الجرائد وعلى أمواج الإذاعات العربية كانت مختلفة عن اللغة الدارجة المُتداولة من طرف عموم الجزائريين؛ فهل يمكن اعتبارها "اللغة الأم" بالرغم من أنَّ رجل الشعب لا يفقه منها عُشر ما يسمعه؟ ولقد طرح وجودُ الأقلية الناطقة باللغة البربرية مشكلا آخر؛ فاللغة العربية الكلاسيكية لم تكن إذن اللغة الأم بالنسبة لأغلبية الجزائريين ولم تكن تمثل سوى لغة التمدرس قبل سنة 1830. إنَّ التعددية اللغوية، عند الطفل الجزائري، ليست من إبداعات المدرسة الفرنسية وليست التُّهمُ الموجهة ضدَّ تلك المدرسة، باسم "اللغة الأم"، مؤسَّسة بشكل تام. ومع ذلك فإنَّ تصنيف لغة الثقافة الجزائرية التقليدية ضمن اللغات الأجنبية تصورٌ ذو مغزى عميق يُنبئ عن التبعية السياسية لفرنسا. كانت هذه المسألة من العوامل الباعثة على التفكير والدافعة في اتجاه تبلور الوعي الوطني. وواضحٌ أيضا أنَّ الأجيال الأولى للطلبة الجزائريين، الاندماجيين المعتدلين وأنصار الشراكة السياسية مع فرنسا، لم تتمكن من استخلاص العواقب السياسية.

من المحتمل أن يكون للمحتوى الدراسي أثرٌ على الطالب فيغرس في شغاف القلب شعورا بالتغيُّر وبعبثية الوجود في آن واحد غير أنَّ أيًّا من

المشاعر لا يمكن أن ينشأ بمعزل عن الآخر. فالعلوم الدقيقة والرياضيات والفيزياء والبيولوجيا كانت تُتقبَّل تقبُّلا إيجابيا، على العموم، وكان وعيُ التلميذ المسلم يزداد بفضلها اقتناعا بتفوُّق الثقافة الأوروبية وبتخلُّف الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه: فالمطر ينزل حين تصل نسبة التكاثف في الجو درجة الإشباع وليس، فقط، لأنَّ الله أراد أن يُنزل المطر؛ والأرض كوكبٌ مستديرٌ يدور حول نفسه وحول الشمس وليس محمولا فوق قرن ثور! فأنَّى للتلميذ أن يعذر جهل ذويه وتطيُّرهم؟ إنَّ اكتشاف قيمة العلوم، وهو حكر على المدرسة الفرنسية في الجزائر، جعل الطالب يسلك وجهة الاندماج الثقافي.

إنَّ المحتوى الاجتماعي والثقافي للتعليم، ذي المرجعيات الأجنبية، يمكن أن يُتقبَّل بمرارة حين لا تكون الرغبة في الاغتراب قوية. في هذا الصدد قال صادق هجرس: "كانت مشاكلُنا، مع المدرسة الفرنسية، تبدأُ حين نغادر ميدان العلوم الطبيعية ومضمار الحياة العملية ونلج إلى صميم الحياة الاجتماعية والثقافية. هل يمكن تصوُّر معاناتنا حين يُطلب منَّا، في مادة الإنشاء، التحدُّث عن أعياد الميلاد ورأس السنة؟ لقد كان ملاذنا الوحيد، في تلك الحالة، هو الانكبابُ على كتب القراءة لننتحل منها الأفكار والصور وكان ذلك الانتحال يترك على كتاباتنا بصمات واضحة عن سوء النية".[21] ويقدم لنا محمد ديب مثالا عن سوء النية تلك حين يقول: "كان يتعلم الكذب لكي يتجنب لسعات العصي المبراة من أغصان الزيتون الشهيرة. تلك هي طريقة دراستنا لمادة الإنشاء حين يأمر المعلم بقوله: اكتبوا وصفا عن سهرة في ركن المنزل قرب المدفئة... ولكي يمكّنهم من الدخول في الموضوع كان السيد حسن يقرأ لهم نصوصا تتحدث عن أطفال منكبين باهتمام على كتبهم. يرسم المصباح دائرة ضيائه على الطاولة. أبي يقرأ جريدته اليومية وهو منغمس

21. هجرس م.م. ص. 36.

في الأريكة وأمي تواصل أشغال الطرز. كان عمر إذن مجبرا على الكذب فيقوم بإتمام المشهد فيصف ألسنة النار المتصاعدة من مدفئة الحطب ودقات الساعة الجدارية الرتيبة ونعومة أجواء المنزل حين ينزل المطر أو يسمع صفير الرياح وتسود الحلكة خارج الدار. ما أحلى الحياة داخل منزلنا في ركن المدفئة !... يقول الأطفال لبعضهم البعض: "من يبرع أكثر في الكذب ويصوغ أكاذيبه في أجمل الصيغ سوف يكون التلميذ الأنجب في القسم".[22] كانت تلك الأسطر تفضح ظروف الدراسة التي عاشها التلميذ الجزائري "والكذبة" التي أُسِّست عليها فكرة الجزائر الفرنسية. كان التلميذ الجزائري يعامل وكأنه فرنسي بمقتضى قانون مبني على تصور مستقبلي غير واقعي وكانت مادة تاريخ التربية المدنية، الموجّهة أساسا لتعزيز الوعي الوطني لدى الشباب الفرنسيين، تُحدِث نتائجَ عكس المقصود بسبب عدم تلاؤمها مع الواقع. إنّ الوعي الوطني، الذي كان التعليم الفرنسي يدّعي غرسه في النفوس، يتناقض مع كنه المشاعر الوطنية العفوية ويترك في القلوب إحساسا بالغثيان إزاء ذلك العبث.

يبدو أنّ جميع الطلبة الجزائريين، ممن ينتمون إلى جيل ما بعد 1945، قد احتفظوا بنفس الانطباع عن مادة التاريخ التي كانت تُلقَّن لهم في المدرسة الفرنسية. يشهد الصادق هجرس على ذلك في عبارة بليغة حيث يقول: "كنت أزهو بالكيفية التي انتُهجت لتدريسنا مادة التاريخ ولا شك في أنّ أدمغتنا الصبيانية كانت تتميّز بقسط كبير من المرونة بحيث نتمكّن من حفظ ذلك القدر من الترّهات ونحن نكتم تعجُّبنا منها". إنّ أولى تلك الترّهات هي العبارة المشهورة: "أجدادنا هم الغاليون" وهي عبارة تفتح سلسلة طويلة من الصور النمطية المتتابعة التي يسميها Gaston Bonheur "الألبوم العائلي للفرنسيين". كانت تلك الصور المثالية تبعث الاطمئنان في النفوس حقا، لكن

22. الدار الكبيرة لوسوي 1952، ص. 21.

فقط، بالنسبة لأولئك الذين يتعرفون من خلالها على مشاهد منمّقة من ماضيهم الوطني. "لم نكن لنعيش ذلك كله من غير أن ينتابنا شعور بالدوار؛ فنحن نعلم يقينا بأنّ أجدادنا ليسوا هؤلاء ولكن من هم يا ترى؟ وأين كانوا في ذلك الوقت؟ وماذا كانوا يفعلون؟ خصوصا وأن بلادنا لم تكن صحراء خالية. لماذا تظلُّ الكتب صامتة إزاء مثل هذه الاستفسارات؟ هل كلُّ ما كان يُروي لنا عن ماضينا لطريقة شفهية مجرّد خرافات لا معنى لها؟ هل كانت تلك الروايات من قبيل حكايات الغول التي تقصُّها علينا الجدات؟ ألم يوجد في بلدنا رجل أو امرأة يتميّز بصفة البطولة أو العدل أو يكون مخترعا شيئا ما فيؤهله ليشغل ولو سطرا واحدا من هذا الكتاب؟ هل عاش آباؤنا هنا ثم ذهبوا مثل القطيع من غير أن يخلفوا آثارا؟"[23].

تتمثل النقطة الثانية التي تؤاخذ المدرسة عليها، وهي الأخطر، في تحيُّزها الصارخ عندما تتناول العلاقات الفرنكو - إسلامية. في هذا الصدد يضيف هجرس ما يلي: "بلى! إنّ الكتاب يكلف نفسه عناء التعرُّض للحديث عن أجدادنا؛ فلقد بدأت القصة في مدينة Poitiers. وإنّ أول حدث تاريخي يتعلّق بماضينا قد أُلقي على وجوهنا مثل الخرقة البالية تحت أنظار التلاميذ الأوروبيين الساخرة وكأن في ذلك تبريرا كافيا ومسبقا للهوان الذي عشناه ماضيا أو نعيشه حاضرا ومستقبلا. لم يدخل أجدادُنا التاريخ إلا لمواجهة سيف Charles Martel ثم طُردوا من حلبة التاريخ بعد رمش عين؛ قبل أن يظهروا من جديد ليتصدّوا، بكل سخافة، لمقاومة الصليبيين المدجّجين بالأسلحة والمُثُل النبيلة. سيثبتُ أجدادنا أنّهم هم الأشرار حين تجرؤوا على اعتقال الملك الطيب Saint Louis. ولقد تصدت القرون، من جديد، فطمست كل أثر يشير إلى وجودنا حتى حلّ اليومُ الذي ضرب فيه الداي الشرير قنصل فرنسا بمروحته". وكان احتلالُ الجزائر واستعمارُها فرصةً أخرى لإبراز

23. هجرس م.م. ص. 37-38.

الانحياز الصارخ: "مجمل القول أنّه يمكن تلخيص الفترة التاريخية الممتدة من 1830 إلى يومنا هذا فيما يلي: إنّ جميع أشكال الوحشية والتعصب كانت من جانبنا وأما البطولة وشتى القيم الإنسانية فهي من جانب القادمين الجدد".

يتعرض ذات النص الذي وردت فيه هذه الشهادة لتحليل آثار ذلك التعليم الموجّه فيقول: "كنا نحس، في أعماق نفوسنا، بمزيج من المهانة والتوتّر والإحباط والغضب. فالمهانة والإحباط مردُّهما إلى كون أدمغتنا المسكينة لا تحتوي على أي شيء يمكن أن تواجه به ما يتضمنه هذا الكتاب الذي لا يمكن أن يكذب ما دامت كتب الحساب ودروس الأشياء لا تكذب هي أيضا؛ ولكن هنالك شيءٌ ما كان عسيرا على مداركنا فكنا نرفض كل شيء جملة واحدة. كانت الثورة تتصاعد من عمق أعماقنا يغذيها ما كنا نتعلمه منذ الصغر عن قسوة أوضاع الرجل المستعمَر وكانت تذكيها حكايات الآباء وقصائد المدّاحين وروايات شيوخ المحضرة التي كانت، رغم غموضها وإبهامها، تشدُّ أزرنا وتمنعنا من الانهيار..." هكذا ظهر جليا مدى التناقض الذي طبع الدروس التي كان التلميذ الجزائري يتلقاها من الوسطين الأهلي والاستعماري. كانت ذهنية الطفل، في توجّهها الكلي إلى تلقي ما يصدر عن الكبار، مستعدة لتضع ثقتها العمياء فيهم ولا شيء يمكن أن يعكّر صفو الطفل مثل حدوث الخلاف بين أشخاص يعتقد أنهم حازوا صفة الكمال؛ فأنّى للطفل أن يميز بين المخطئ والمصيب وهل يصح، أصلا، أن يكون أحدهم مخطئا؟ صرّح الصادق هجرس بأنّه انحاز، بصورة حدسية، إلى موقف ذويه ولكن ردّ الفعل العكسي يمكن، نظريا، أن يحدث أيضا وسوف يؤدي بصاحبه نحو وجهة الاستيعاب وإنّ الاحتمال الثالث المتمثل في انعدام أي خيار آخر هو ما يتناسب مع الأيديولوجية "الفرنكو - إسلامية".

الواقع أنّ تجربة هذا الشاهد دفعت حسّه الوطني نحو التفتق حين يقول: "حتى وإن كانت بعض التفاصيل، في دروس التاريخ تلك، تثير حنقنا لأننا لم

نتمكن من دحضها فإنها، في نهاية المطاف، لم تُوفَّق إلى فصلنا عن ارتباطاتنا الوجدانية العميقة. بل أكثر من ذلك لقد كنا نشعر شيئا فشيئا بوجود قوة خفية، لم تتبين معالمها بوضوح، كانت تصرُّ على استنقاص قيمتنا الذاتية. حين نقارن أوضاعنا بأوضاع البلدان العديدة التي كانت خرائطها تملأ أطلس البلدان نلاحظ غيابنا المُبهم من صفحات معجم Larousse حيث رُسمت أعلامُ جميع دول العالم فكان الإحساسُ باليتم يحزُّ في قلوبنا ويدفعنا إلى أن نحلم. كنا نحلم باستبيان آثار وطننا المفقود وكنا راغبين في تعلّم المزيد لاستجلاء الأمر وكنا ننضج استعدادا لليوم الذي نتصدى فيه للبحث عن الأسباب الحقيقية". إنّ "القوة الخفية" التي كان التلاميذ يشعرون بوجودها، من خلال دروس التاريخ المتحيزة، هي "الاستعمار". ذلك اكتشاف جوهريٌّ اهتدى إليه الطلبة الجزائريون الوطنيون وهكذا أدّى الشعور بالعبث إلى اكتشاف المظلمة.

يمكن التسليم، طواعية، بصحة تلك التحاليل اللبقة والوجيهة غير أن خطأها يكمن في الصرامة المبالغ فيها فالجانب "الاستعماري" في تدريس التاريخ، من طرف المدرسة الفرنسية، لم يكن نتاجَ سياسة خاصة موجهة للأهالي. كان الشاب هجرس، باعتباره تلميذا في الصنف -أ- من التعليم (الصنف الأول)، يتلقى نفس دروس التاريخ الوطني التي كان يتلقاها الفرنسيون الشباب. كانت عيوب هذا التاريخ معروفة وتتمثل أساسا في: تمركز الأنا العرقي وفي الفخار الوطني المبالغ فيه؛ وتلك من خصوصيات النزعة الوطنية الفرنسية. ظلّ محتوى التاريخ الوطني في جميع البلدان، وإلى عهد قريب، عبارة عن تراتيل مقتبسة من الديانة المدنية؛ ففي الدول الإمبريالية يكون التاريخ إمبرياليا ولا يرد فيه ذكر الشعوب المحتلة إلا بمناسبة الحديث عن احتلالها. لم يندرج هذا التاريخ، المتميز بالوطنية، في النسق الاستعماري. ولئن بدا، في آخر الأمر، بتلك الصورة فلأنه يحصل

بطريقة غير مقصودة. كان التلميذ، في المستويات المتوسطة، يستقي بصورة ضمنية الخلاصة التالية: إنّ الفرنسيين متفوقون على العرب لأنهم شيدوا لهم المدارس والطرقات والمستشفيات وهؤلاء لم يتمكنوا من تشييدها بأنفسهم" هذا ما صرّح أحد المدرسين سنة 1960.[24] كانت البرامج التعليمية في الجزائر تُخصّص فضاء محدودا لتاريخ وجغرافية البلد. يبثّ مالك حداد شكواه بهذا الخصوص قائلا: "في نهاية السنة الثانية من القسم المتوسط كنا نلقي لمحة عابرة على جغرافية وتاريخ الجزائر". إذا حاولنا التأكد من ذلك من خلال الكتاب المدرسي، الأكثر شيوعا، وهو كتاب من تأليف Paul Bernard و Frantz Redon،[25] فإننا نستخلص أن تدريس التاريخ لم يكن ذا وجهة استعمارية بصورة صريحة بالرغم من أنّ منجزات فرنسا قد ذُكرت فيه بحماس واعتزاز ولكن الفترة السابقة للاستعمار لم تكن موضوع استنقاص بشكل شامل؛ فالغزاة من بني هلال في القرن الحادي عشر والأتراك في القرن السادس عشر هم الذين اعتُبروا السبب في انحطاط الجزائر: "ينبغي على فرنسا أن تُقحم في البلد، عن طريق فتحه على الحضارة، نوعا من التقاليد المؤسسة على الاحتياط للمستقبل وعلى مزيد من المُثل الإنسانية".

حتى وإن صدقت الدراسات التشخيصية التي تناولت ظاهرة "الاستعمار" فإن في إمكاننا أن نشك في كون ذلك نتاج وعي آني حصل عند الأطفال الجزائريين فلا يجب تجاهل المقدرة الإنسانية على نكران الأمور البديهية.

24. تقرير أ بلوخ، في ملتقى : "معلمين ومدرسين ضد العنصرية"، ذكرته مانويلا سميدابي "من الإمبراطورية إلى تصفية الاستعمار من خلال الكتب المدرسية"، "النشرة الفرنسية للعلوم السياسية" مجلد 16 ص. 56.

25. الجزائر، تاريخ، احتلال، جغرافيا، إدارة، الموجه للأقسام العليا في التعليم الإبتدائي، الجزائر. طبعة جديدة، 1953.

اعترف هجرس، من جهته، بأنَّه معجبٌ "بمرونة" تفكير الأطفال فأولى الخطوات التي يقدم عليها تفكيرهم تقوم على القناعة التامة بما يتعلمونه: أما الشك فلا يحصل إلا في فترة لاحقة. لقد تقبّلت الأجيال الأولى من الطلبة الجزائريين تلك الصورة المحبطة التي كانت تُقدَّم لهم عن ماضي الجزائر. والواقع أنَّ الصادق هجرس ينتمي إلى جيل 1945 أي ذلك الجيل الذي زاول دراسته الثانوية أثناء الحرب العالمية الثانية وهو جيل محظوظ لأنَّه اكتسب الوعي الوطني بسرعة فائقة.

ومن جهة أخرى؛ فإنه يُنكر الأثر الإيجابي الذي أحدثه تعليم التاريخ الفرنسي في الأطفال الجزائريين وبناء على ما قاله أوغسطين إيبعزيزن فإن الشاب القبائلي كان "حجرا صلدا" غير آبه بماضيه بينما ترتجف أواصره حين يقرأ تاريخ فرنسا ويصح هذا أيضا بالنسبة للشبان العرب إذا استثنينا اعتزازهم بماضيهم الإسلامي. إنَّ جميع الأجيال الطلابية الجزائرية، من الاستيعابيين إلى الوطنيين، قد سبتها ملحمةُ الفكر التحرري العجيبة المتمثلة في تاريخ فرنسا وذلك بناء على الصورة التي درسوها.

كان Vercingétorix موضوع استقطاب لتعاطف ثري بالعبر نظرا لكون الفرنسيين أنفسهم يقدّسونه فهو رمز لمقاومة يائسة تجاوزها استيعاب المهزومين من طرف المنتصرين وهذا لم يمنعه أن يكون سلفا لأمة مقبلة؛ والمثل الذي جسّده يمكن أن يبرر جميع الخيارات الوطنية. كما أن صورة Jeanne d'Arc توحي أيضا بنفس المشاعر الغامضة ولقد أثّرت الثورة الفرنسية، على وجه الخصوص، في جميع أجيال الطلبة الجزائريين بفضل شعارات الحرية والمساواة والأخوة التي رفعتها والتي يحلوا للكثيرين أن يجدوا معانيها في القرآن؛ فكان من المفترض أن يدفع ذلك الإغراء الطلبة الجزائريين إلى البحث عن الاستيعاب ولكن Quandt لاحظ على ذلك بقوله: "كان التناقض صارخا بين ما كان يُلقّن في المدارس وما كان معروفا كحقيقة

واقعة في الجزائر الخاضعة لنظام يسيطر عليه المعمرون. كان بعض الجزائريين يستخلصون من ذلك أن لو كانت فرنسا تدرك حقيقة ما يرتكبه المعمرون من مظالم لقامت بإصلاحات سياسية"[26] وبالفعل؛ إن التاريخ الفرنسي ينطوي على تشابه كبير بين أوضاع الجزائر المستعمرة وأوضاع الشعب الفرنسي المقهور من طرف النبلاء سنة 1789. تعرّض فرحات عباس للحديث عن هذا الشأن في أولى مذكراته حيث يقول: "أنا شخصيا كنت أعتقد أنّ الجزائر كانت تستعد لحدث شبيه بالذي وقع سنة 1789؛ فوضعية فلاحينا كانت أشبه بوضعية الفلاحين الفرنسيين الذين تحدّث عنهم bruy reLa آنذاك. إنّ الرجل الأوروبي، المحاط بحاشيته من العرب (القائد والباش آغا والمرابط)، كان يمثل الإقطاعي وكانت فرنسا بمثابة "السلطان"... آه لو علم السلطان!".[27] لقد تمّ الاحتفال بانعقاد جلسات المؤتمر الإسلامي (جوان 1936) بصفتها تجمّعًا لمّ شمل "جميع القوى السياسية في الجزائر" واعتبر حزبُ الشعب أنّ أهم مطالبه، في ذلك المؤتمر، يتمثّل في انتخاب مجلس تأسيسي جزائري بواسطة الاقتراع الحرّ. وهكذا فإن التعليم الفرنسي كان يخلّف أيضا نتائج أخرى غير الشعور بالعبث فكان يزود المتعلمين بالأفكار المحفّزة على العمل و بأدوات التحرر.

يمكن تقديم براهين مماثلة فيما يتعلّق بتدريس الأخلاق والتربية المدنية حيث كان التعليم الفرنسي يهدف إلى تأسيس وعي وطني فرنسي لدى كل الأطفال، بما فيهم المسلمين، ولم يكن ليخفي عنهم معاني الوطنية بل كان يسعى إلى ترسيخها في أذهانهم. كانت تأثيرات ذلك المنهج متفاوتة بين

---

26. كاندت م.م. ص. 29.

27. "ليل الاستعمار" جوليار 1962، ص. 10 انظر ص. 114 "كانت كتبنا تتحدث عن فرنسا باعتبارها رمزا للحرية. لقد كنا في المدرسة، نتسلى عن الجروح التي أصابتنا في الأزقة، وعن بؤس الحياة في "الدوار" حين نمطي الجياد مع الثوار الفرنسيين ومع جنود العام II ونسير عبر شوارع التاريخ!".

المتعلمين وكانت متناقضة أحيانا: فهي تأثيرات سلبية حين يعي الطفل حالة التناقض بين ما يُلقَّنُ في المدرسة الأجنبية وبين ما يتلقاه في وسطه الاجتماعي الأصلي. وتصير تلك التأثيرات إيجابية في صورة ما إذا ترسَّخ لدى الطفل مفهومُ الوطن سواء تعلق الأمر بفرنسا أو بالجزائر. حاول محمد ديب استرجاع مجريات درسٍ في مادة التربية المدنية، وهو درسٌ يُحتمل أن يكون حقيقيا، حيث قال إنّه تلقّاه في حدود سنة 1939: كان موضوع الدرس هو "الوطن" وكانت أولي ردود أفعال التلاميذ إزاء هذا المعنى، الذي صيغ صياغة إيديولوجية، تتميّز بخلط كبير في الأذهان.

"أعلن السيد حسن قائلا: "الوطن"! فاستقبلنا هذه العبارة باللامبالاة لأننا لم نكن نفهم مدلولها وكانت كلمة عالقة في الجو وهي تتأرجح".

- "من منكم يعرف ما معنى كلمة "وطن"؟

كانت نظرات الأولاد تجول متنقلة بين الطاولات وعلى الجدران ومن خلال النوافذ ونحو السقف وتحملق في وجه المعلم لأنَّ ما يبحث عنه لم يكن موجودا هنا. الوطن لم يكن موجودا في القسم. نظر بعضهم إلى بعض، بغباوة، ولاذ بعضهم بالصبر تحاشيا للنقاش. رفع إبراهيم إصبعه نحو السماء. آه! إنه يعرف إذن! طبعا؛ لأنه يكرّر السنة فهو يعلم ذلك".[28]

على صفحة ذلك الجهل ارتسمت إجابةٌ سجَّلها الأطفال بطريقة آلية حين قال إبراهيم مترددا: "فرنسا هي وطننا الأم". كانت نبرةُ صوته مرفقة برنَّة صدرت من خياشيمه كما يفعل جميع الأطفال أثناء دروس القراءة. حين سمع الأطفال تلك الإجابة تعالت طقطقة أصابعهم فكل واحد منهم يرغب الآن في التحدث. ومن غير أن يؤذَن لأحدهم بالكلام كان كل واحد يردّد نفس الجملة محاولا تغليب صوته على الأصوات الأخرى". بعد التعريف جاءت مرحلة

28. الدار الكبيرة ص. 19-23.

الشرح الضروري لفهم العبارة المُبهَمة: "فتح السيد حسن الدرس قائلا: "الوطن هو أرض الآباء. هو البلد الذي نوجد فيه منذ عدّة أجيال". ثم توسّع في الموضوع موضحا وشارحا كلامه. كان الأطفال يسجلون.

- "الوطن ليس هو الأرض التي نحيا عليها فحسب ولكن الوطن، أيضا، هو جميع سكانه وكل ما يوجد فيه (...)"

- "عندما يأتي من الخارج أناسٌ فيدّعون أنهم أسياد فإنّ الوطن في خطر. إنّ أولئك الأجانب أعداءٌ وينبغي تجنيد جميع السكان للدفاع عن وطنهم المهدَّد وينبغي عليهم أن يحاربوا لأنّ واجبهم هو الدفاع عن الوطن حتى ولو كان في ذلك التضحية بحياتهم كثمن".

تلك هي الكلمة الطيبة التي كانت تُدرَّس للفرنسيين الصغار؛ فما هو الأثر الذي تحدثه في الأطفال الجزائريين يا ترى؟ إنّ أحوالهم السلبية لا تسمح بالتعبير عن أي احتجاجات ولكن التسجيل الآلي في الأذهان لا يكفي. إنّ ترسيخ القناعة مرهون بنوعية العواطف التي تشدُّ التلميذ إلى معلميه وإلى وسطه الاجتماعي الأصلي ولقد أثبت بعض الشباب الجزائريين، في أقسى الظروف، أنّ فرنسا هي حقا "وطنهم الأم" أي أنهم بمعنى آخر قاموا بتحويل أغلب المشاعر التي كانت تربطهم بالعائلة الطبيعية نحو الوسط الاجتماعي الذي تبناهم؛ ولكن إذا كان الوسط الطبيعي مستمرا في إحداث تأثير فعّال في الطفل فإن التعليم في المدرسة الفرنسية كان يبدو له مجرَّد مخاتلة منافية للصواب.

تلك كانت حالة تلمسان، مدينة التقاليد العربية الإسلامية العتيدة،[29] في فترة انبعاث الروح الوطنية بفعل جمعية العلماء وحزب الشعب الجزائري. كان عمر، بطل الرواية، يقوم بردود فعل بريئة ضدّ تعليمٍ يتناقض تماما مع حقيقة

29. عن تلمسان أنظر مذكرات مصالي الحاج وروايات محمد ديب. عن قسنطينة مذكرات مالك بن نبي، روايات كاتب ياسين ومالك حداد، عن المدية أنظر علي بومهدي، "قرية الأسفوديل" ربير لافون 1970.

الواقع الذي يعيشه: "إنَّه يعرف بأنَّ باريس عاصمة فرنسا؛ وأنَّ الفرنسيين، الذين يشاهدهم في شوارع المدينة، جاؤوا من ذلك البلد؛ ويعرف أنَّه ينبغي عبور البحر وركوب الباخرة للتوجّه إلى ذلك البلد أو العودة منه (...) فكيف يمكن لبلد، بعيد مثل ذلك، أن يكون أُمًّا له؟ إنَّ أمه موجودة في المنزل واسمها عايني وليس له أمّ ثانية وعايني ليست فرنسا ولا شيء يجمع بينهما. لقد اكتشف عمر أكذوبةً تحاول التسلل بين الكلمات. إن فرنسا، سواء أكانت وطنا له أو لم تكن، فهي ليست أمه". هذا كل ما يتعلق بالتعريف. أما محتوى الدرس فلا يقل إبهاما عن ذلك: "ما هو بلده؟ تمنّى عمر لو أن المعلم قال ذلك بوضوح لكي يعرف. وأين كان أولئك الأشرار الذين يدّعون أنهم أسياده؟ ومن هم أعداء بلده وأعداء وطنه؟ (...)

-"إنَّ الذين يحبون وطنهم حقا ويعملون لتحقيق مصلحته يسمون الوطنيين". لقد اكتسى صوت المعلم بنبرة جادة كان كلُّ من في القسم يرتجف لها. فهل يكون السيد حسن وطنيا؟ هل كان حميد سرّاج وطنيا هو أيضا؟ وكيف يمكن أن يكون الاثنان وطنيين؟ كان المعلم، بشكل ما، ينتمي إلى فئة الأعيان وكثيرا ما كان رجال الشرطة يبحثون عن حميد سرّاج. فأي الرجلين كان وطنيا إذن؟ سوف يظل هذا السؤال عالقا".

لم يكن المعلمون المسلمون في غفلة عن تطوُّر المجتمع المسلم على الصعيد الإيديولوجي. ولقد وجد بعض المعلمين أنفسهم مجبرين على التعامل، عن بُعد، مع محتوى الدروس المفروضة. "تفاجأ عمر حين سمع معلمه يتحدَّث بالعربية وهو الذي كان يمنع عنهم ذلك. عجبا! لأول مرة يحدث هذا! بالرغم من أن عمر يعرف جيدا أن معلمه مسلمٌ وأنَّ اسمه "موسيو حسن" ويعرف أين يسكن إلا أنَّه لم يكد يصدق ذلك. لم يكن بمقدوره أن يتأكد هل كان معلمه يعرف التحدث بالعربية. وبصوت منخفض، تُشتمُّ منه رائحة عنف محيِّر، أضاف المعلم يقول: "كذَّابٌ من يقول لكم إنَّ فرنسا هي

وطنكم". هكذا إذن! كان عمر يعرف أنَّ ذلك القول من جملة الأكاذيب. ثم تماسك السيد جسن عن استرساله في الكلام ولكنه بدا متوترا لعدة دقائق. كان يبدو وكأنه مقبلٌ على البوح بشيء آخر فما هو؟ هل توجد هناك قوة أقوى منه تمنعه من القيام بذلك؟ هكذا لم يخبر التلاميذ الصغار عن كنه وطنهم".

يرى Quandt أنه كان هناك معلمون يتميزون بجرأة أكبر: "يستعيد عمار بن تومي، وهو أول وزير للعدل، ذكرى أحد أساتذته وكان مسلما جزائريا ذا تأثير كبير على التلاميذ فيقول: كان الأستاذ أثناء دروس القواعد يستعمل في شرح "الموضوع والمحمول" أمثلة من نوع: "الاستعمار سيء". و كان في وسع الأساتذة الفرنسيين من ذوي الأفكار التقدمية المساهمة أيضا في نشر الوعي الوطني الجزائري لدى تلاميذهم: "تحدَّث بن يوسف بن خدة، رئيس الحكومة المؤقتة سنة 1961، عن أستاذ فرنسي كان يشرح لتلاميذه المسلمين كيف يقبل المعمرون على استغلال الأهالي الجزائريين".[30] لكن المساهمة الأكثر فعالية في تكوين الوعي الوطني الجزائري كانت كامنة، بكل بساطة، في محتوى التعليم الفرنسي من خلال تدريس مفهوم الوطن. حيث يمكن تعميم المثل الفرنسي لينطبق على الجزائر أيضا.[31]

إنَّ مفهوم الوطن المجرد، المتسامي عن مدارك الأطفال، لا يمكن استيعابه إلا بمرور الوقت أثناء التمدرس الابتدائي والثانوي؛ فالشاب الجزائري كان يستخلص من تجاربه المدرسية ومن التجارب التي تكتسي عِبَرًا أكثر بساطة من ذلك وأقلَّ وضوحا. يمكن تمييز ثلاث مراحل في عملية التعمُّق التي يمر الوعي عبرها: فالطفل الجزائري، قبل كل شيء، يعرف أنه ليس مثل الفرنسيين ويعرف، نتيجة لذلك، أنَّه ليس فرنسيًا. ثم يكتشف بعد

30. كاندت م.م. ص. 47.

31. أنظر مقال موسى المختار المعنون " أخي، أيها الشاب الجزائري" الصادر في " ضمير جزائري" 1951.

ذلك، أنَّ العالم الذي أُجبر على العيش فيه مشحونٌ بالكذب والعبث وبأنَّه ليس عالما مصنوعا من أجله. وبالرغم من ذلك فهو مُكرَه على الخضوع لنُظمه وكأنها مصنوعة من أجله. وأخيرا ينبثق من أعماقه إحساس غامض بمفعول قوة خفية تسعى جاهدة للحط من قيمته وإهانة شخصه" إنَّه عاجز عن تسمية النظام "الكولونيالي" و"الاستعمار" باسمهما لأنَّ تلك المفاهيم لن تلقّن له من طرف معلميه في المدرسة الفرنسية وإنما يستقيها من الأوساط الخارجية التي يتردد عليها ويساهم فيها: إنها العائلة والمجتمع المسلم بما فيه من تيارات فكرية ودينية وسياسية؛ ولو كان الوسط المدرسي يحتكر تكوين الأذهان الشابة فمن المؤكد أن الاستيعاب الثقافي سوف يكون النتيجة التي لا مناص منها لتلك التربية المغلقة. لكن تلك الثنائية التي ينتمي إليها الطفل الجزائري تنجرُّ عنها علاقة تصادم بين الطرفين ومن هنا يحدث الشعور بالتغيُّر. عندما تتعقَّد أوضاع الطفل الجزائري، العالقة بين عالمين، وتتحول إلى شعور بالعبث فإنَّها تدفعه إلى حتمية التموقع كوسيلة وحيدة للنجاة من تأزم أحواله. فإذا ظل الوسط العائلي جامدا وترك للوسط المدرسي مطلق التصرُّف في صنع الحداثة المحفزة فإن هذا الأخير سوف يحظى، لا محالة، بأفضلية الاختيار. أما إذا نهض المجتمع المسلم من سباته، متطلّعا بدوره إلى آفاق تقدمية، فإنَّه يسترجع كل حظوظه في المحافظة على أبنائه.

## ب) ثورة ضد الجور

إنَّ أحوال الشاب الجزائري المُتأزِّمة لا يمكن أن تجد برأها إلا في التماس أسبابها الحقيقية؛ كما أنَّ تحديد المسئوليات عن ذلك التأزُّم هو الاختيار الحاسم والنهائي ومنه تتفرّع بقية السُبل المؤدية إما إلى الاستيعاب الثقافي أو إلى الوطنية؛ فمن يسلك السبيل الأول يُقصِر اتهامَه على وسطه الاجتماعي الأصلي ويعتقد أنَّ ما يعانيه من أمراض إنما هو جزاءٌ مُستحقٌ:

ومن يسلك السبيل الثاني يكتشف أنَّ مجتمَعه ضحيةُ قمع من طرف قوة شريرة لا ترحم سوف يُسميها، في آخر المطاف، "الاستعمار". تكون تلك الحقيقة غامضة ومبهمة، في البداية، ثم تتجلي تدريجيا في فكر الطالب أثناء تراكم تجاربه المدرسية ثم تتضح له، أساسا، خلال تكرار التجارب العديدة المتميِّزة بشحنات عنصرية تصدم الكرامة وتهزُّ أركان الشَّغف بالعدالة لدى المراهق الجزائري.

يتبلور الوعي في أذهان الطلبة المسلمين بالعقبات الاجتماعية والثقافية القاسية التي اعترضت سبيلهم ثم يشعرون، عندما يبلغون مرحلة التعليم المتوسط والثانوي، أنَّهم يقفون على قدم المساواة مع زملائهم الأوروبيين: فاجتياز مرحلة "الغُربة الأولية" بسلام يكون بمثابة حافز قوي يشحذ الهمم الشخصية التي تصنع النجباء. عندئذ يتشكَّل اعتزازُهم بالنجاح فيغدو شعورا لا يفتأ يتضاعف ويقوى. إنه حصيلة مجهود شخصي لم يلعب فيه وسطُهم العائلي أيَّ دور ولذلك كان من قبيل الشَّرف أن يحرصوا على شغل المراتب الدراسية الأولى بصفة دائمة وبالأخص في مادة اللغة الفرنسية. روى فرحات عباس (...) كيف حصل الوعي لديه، وهو لا يزال في المدرسة، بأنَّ الأطفال العرب لا يقلّون نجابة عن الأطفال الفرنسيين لا فكريا ولا معنويا ولقد أكّد مثل كثير من الجزائريين من بعده، أنَّ التلاميذ المسلمين لم يكونوا يعانون أي شعور بالنقص إزاء المستوطنين بل كانوا يشعرون أنهم متساوون معهم فكريا. وقال في هذا الصدد: "كنت متعوِّداً على احتلال المرتبة الأولى في امتحانات مادة اللغة الفرنسية"[32] هكذا كانت المدرسة الفرنسية حقلا للتجارب مكَّنت التلاميذ المسلمين من تعزيز الثقة بأنفسهم فكانوا، بفضل وعيهم بقيمتهم الذاتية، يطمحون إلى تبوُّأ مراتب اجتماعية تتميَّز بنفس الحظوظ التي وجدوها داخل ذلك "الوسط المُحصَّن" الذي تمثله المدرسة.

32. كاندت م.م. ص. 29-30.

## 1- مواجهة العنصرية

اصطدم التلميذ الجزائري في العالم الخارجي، وأحيانا في حياته المدرسية، بالنوايا السيئة التي كانت تتعمد حرمانه من حقه في الازدهار والرقي. ليس المجالُ هنا للحطّ من قيمة فرنسيي الجزائر ولكن ينبغي التسليم، رغم بعض الاستثناءات، بالتصرفات الكثيرة التي كانت تصدر عن دوافع عنصرية وبصفة مبالغ فيها وتُحدث لدى الطلبة الجزائريين جروحا غائرة ودائمة أشاعت تلك السمعة المنكرة في أوساطهم. فمثلا صرّح أحد المسئولين في التعليم الثانوي: "ما الذي تفعلونه هنا أيها العرب؟ إن المجتمع لا يحتاج إلى أطباء فقط بل إنه بحاجة أيضا إلى باعة الخضر..." وأقدم أحد المراقبين العامين على استعمال القوة لحظر التحدُث باللغة العربية وكان بعضُ الرقباء يلجئون إلى فرض عقوبات قاسية على الطلبة المسلمين بغرض استنفاد جلّ وقتهم الدراسي وحرمانهم من المطالعة والمراجعة؛ وكثيرا ما صدرت شكاوى تتعلق بحرمان الطلبة من الجوائز المستحقة وإذا بادر أحد الأساتذة بتشجيع بعض الطلبة المسلمين فإنه يتعرض للشتم والتهريج والإضراب عن متابعة دروسه من طرف بقية تلاميذ القسم. لقد لوحظ، على العموم، انعدام الاتصال بين المجموعتين فكانت كل جماعة منغلقة على نفسها وما كان لمحاولات التهدئة الصادرة من بعض المدرسيين، من ذوي النوايا الحسنة، لتفيد في شيء حين يؤكدون قائلين: "أنتم كلُّكم فرنسيون صغار" بل كانت تلك الكلمات تُحدث عكس المراد منها لأنها تلفت النظر إلى ذلك التمييز، كواقع يومي صارخ، وتساعد على اكتمال الوعي بذلك الواقع المفارق. لا جدال في أنّ لهذا الواقع استثناءاتٌ عديدة ولولاها لما ارتسمت أبدا تلك الصورة المثلى للمدرسة الفرنسية التي ترعى مبادئ المساواة وتضمن حظوظ النجاح للجميع. ها هو فرحات عباس، الذي كان سنة 1927، يندّد "بالوضعية الفكرية الشائعة وبالذهنية التي تواجه العربي – البربري في

يوهمهم، في كثير من الأحيان، بأنني واحد منهم. لم أكن أتأثر قط لرؤية الآخرين ساخرين من جدّة أحد رفاقي المسلمين؛ كانت المسكينة تقطع يوميا أزيد من ثلاث كيلومترات، راجلة، لتقدم الأكل لحفيدها. كان الأطفال الأوروبيون ينعتونها بأصابعهم ضاحكين وهم يقولون: "جدّاتنا نحن لا يرتدين الخرق وإنما يلبسن فساتين حقيقية!" لكن العنصرية لا يمكن أن تخطئ حتى الذين غيّروا جلدتهم: "بدوري حدث لي أن عانيت، لاحقا، من تلك الشتائم. ففي الامتحان الشفوي لشهادة البكلوريا مثلا كان الأستاذ الممتحِن في مادة الإنجليزية يبادلني الودّ إلى أن حان اليوم الذي كشفتُ فيه عن هويتي؛ فتكشّر وجهه فجأة ولم يجد عليّ بابتسامة أخرى حتى نهاية الاختبار ولقد عانيت صدمات شبيهة، مرات عديدة بعد ذلك، حين كنت أبحث عن شغل".

من المعلوم أنّ المعاملة العنصرية كانت سارية في جامعة الجزائر أيضا؛ وكانت تقدم كمبرر لنزوح الطلبة المسلمين إلى فرنسا. كان الطلبة الجزائريون يُدينون مواقف زملائهم الطلبة الأوروبيين وأساتذتهم في مدنية الجزائر ولكنهم كانوا يضمرون أفكارا مسبقة حسنة تجاه الطلبة والمدرِّسين في فرنسا[38] كانت أفكارا مسبقة إيجابية ولكنها كانت تتعرض أحيانا لمحن قاسية من جراء اللامبالاة أو الريبة والحذر الذي يميز المجتمع الفرنسي وكانت تلك التجارب، المريرة، تدفع الطلبة المسلمين إلى مزيد من التقارب إلى بعضهم وكذا إلى الطلبة القادمين من وراء البحر.

كلما تقدم الشاب الجزائري في دراسته تمكّن، أكثر فأكثر، من استخلاص العبر الملموسة لأن مستواه الثقافي يسمح له بتنظير تجاربه السابقة ومقارنتها بتجارب رفاقه في إطار التنظيمات الشبانية والطلابية.

38. شيام دكتوراه، 192 وغوتيه والتير. "كليما" 7 أفريل 1955 الخ. أنظر فصل 2.

## 2- تطور الوعي المعادي للاستعمار

كان الشاب الجزائري، خلال مواجهته التجارب العنصرية المتكررة، يشعر بالحاجة إلى فهم وضعيته الخاصة في الإطار العام للأوضاع التي يعيشها شعبه. لقد رسمت معالم هذا الوعي تأثيرات مختلفة منها: الوسط العائلي والقراءات والمعلمون (فرنسيين كانوا أو مسلمين) والزملاء الأكبر سنًا وبقدر ما كان انتظام الحركة المطلبية المسلمة يزداد أهمية كان دور جمعيات التعاون والتربية الاجتماعية يزداد أهمية أيضا ونعني بذلك تلك الجمعيات التي أسّسها الشباب الجزائري مثل: جمعيات الطلبة والمعلمين وقدماء طلبة المدارس ثم جمعيات وأندية الشباب التي أنشأها العلماء الإصلاحيون مثل: الكشافة الإسلامية الجزائرية وشباب المؤتمر والأحزاب السياسية (أحباب البيان والحرية والاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية) وكذا جمعيات الطلبة، في مؤسسات التعليم الثانوي والمتوسط، التي تمثل الرباط الواصل بينها وكان لتسارع الأحداث الداخلية والخارجية، خلال المرحلة الممتدة من سنة 1931 إلى سنة 1943، الدور الحاسم في تحديد مصير الجزائر ولقد ساهم ذلك الدور في تخفيض متوسط عمر الصحوة السياسية. كان حزب الشعب يجنّد أنصاره في المدارس وفي الثانويات والمتوسطات منذ سن الرابعة عشر.[39]

يمثّل الشعور بمعاداة الاستعمار أولى أشكال الوعي السياسي لدى الشاب الجزائري. فكلُّ الاتجاهات متفقة في أمر واحد هو تحميل "الاستعمار" كامل المسؤولية في المصير المجحف الذي يعيشه الشعب. لقد استقت الاتجاهات السياسية هذا المفهوم، بشكل مباشر أو غير مباشر، من الكتّاب الفرنسيين والأوروبيين المناهضين للاستعمار لأنّ عداوة الاستعمار كانت،

---

39 .

طيلة خمسة قرون من المد الأوروبي في شتى أنحاء العالم، تمثل الضمير الأوروبي اللوّام ورغم التناقضات والغموض التي اكتنفتها[40] فإن هذه الحركة تمكنت من تشكيل مرجعية للمفاهيم والصور التي مكنت المثقفين في البلدان المستعمرة من التفكير في الوضعية المفروضة على بلدانهم؛ وذلك بتحديدها في نطاق تاريخي ونظري أشمل. هكذا زوّدت الثقافةُ الفرنسية المثقفين الجزائريين بالوسيلة التي تمكنهم من المعارضة الجذرية للنظام الذي أقامه الاستعمار الفرنسي.

لكن لمناهضة الاستعمار درجات ينبغي التمييز بينها: فمن جانب الاستيعابيين كانت هذه العداوة نسبية حيث كانوا يجدون في معنى لفظة الاستعمار، وهو مصطلح مستهجن دخل اللغة الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر، تحريفا للتعمير الذي يعتبر عملا خيريا. وفي نظر رجل مثل بن حبيلس فإنّ "المستعمرين" كانوا مجرد أفراد لم يدركوا الغايات الكبرى لذوي النوايا السيئة ولكن تخلفهم عن ركب "الرسالة الحضارية الفرنسية" لا يمكن أن يمس في شيء عمق طبيعتها. تحت عنوان "وابل من الشتائم" كان الشاب بلقاسم إبعزيزن يتذكر أقوال أبيه المعلم: "سوف تجمعكم الظروف بفرنسيين سيئين لكن ضعوا دائما نصب أعينكم أن فرنسا أفضل من أولئك الفرنسيين".[41] وقال الأستاذ علي معلم، سنة 1946، في أطروحته ما يلي: "الاستعمار معناه الاسراع في تطوير الأهالي ومعناه أيضا مساعدة مجريات حضارته الخاصة (...) ومعناه، كذلك، الاعتراف بمبدأ أولوية مصالح الأهالي ومعناه مساعدة (...) رفاهيتهم".[42]

40. أنظر مارسيل ميرل، "معاداة الاستعمار الأوروبية من لاس كالاس إلى ماركس" ارمون كولان 1969 وس. ر. أجيرون "معاداة الاستعمار الفرنسية" من 1871 إلى 1914 المنشورات الجامعية الفرنسية 1973.

41. "جسر برق موش"، ص. 75 وص. 147-172.

42. كولونياليزم تروستيشيب، اندبندانس"، تولوز 1946، ص. 306-307.

لكن مع حلول سنة 1914 كانت الفئة المندفعة من الشباب الجزائري تتصدى لعدو مشترك: إنه "المستوطن" وكان ذلك المصطلح يحمل مفهومين: مالك الأرض والرجل المنتمي إلى "الجالية الأوروبية المعمّرة" التي استقرت في البلد بصفتها صاحبة السيادة[43] ونفس الأمر بالنسبة لفرحات عباس حيث نجده، في مقدمة صحيفة "الشاب الجزائري"، يشرح بل يكاد يبرر السلوك العنصري للأوروبيين الجزائريين وينسبه إلى التدني الحقيقي لفئة الأهالي. لكن ذلك لم يمنعه من أن يكتب ما يلي: "هذا المجتمع المحظوظ يكرهنا ويردِّد في كل نادٍ أنّ الأهالي يكرهونه وأننا ناكرو الجميل وأن تعليمـ-نا هو علبة الآثام (علبة باندور) وأنّ أغلى أمانيه هو أن نظلّ في صنف الحمير والبغال. ويجرأ مع ذلك على الحديث عن الاعتراف بالجميل أو نكرانه وعن الهدايا التي يكون قد أسداها بكل سخاء وطيبة خاطر"[44] إنّ الاتهام الذي يصدره عباس موجّه، في الواقع، إلى الجالية كلها حين يقول: "إنّ رأي الجالية في هذا الموضوع مختلف. يبدو أنّ أنين الألم دليلٌ على أنّ المتألم لئيمٌ وناكرٌ للجميل أما بالنسبة إلينا، نحن الأهالي، فكل شيء على أحسن ما يرام. الجميع يسعى لإسعادنا وليس غبيا في شيء ذلك القادم الذي ينزل بأمتعته في شواطئ الجزائر مدّعيا، بتعال، أنّه جاء من أجل تحضيرنا وأنّ واجبنا هو أن نحمد طالعنا لأنه مهما كانت الأحوال قد أسدى لنا الخير العميم ولأنّه لم يصبنا بسوء".[45] غير أنّ ذلك الجدل الحادّ لم يكن موجها لفرنسيي الجزائر إلا في منظور تبرئة ذمة "فرنسا الحقيقية" وكذا "الفرنسيين الحقيقيين".

---

43. ماكسيم رودنسون "إسرائيل، حدث استعماري؟" في مجلة "الأزمنة المعاصرة" (253 مكرر)، 1957، وج. بيرفيللي، "تقلبات كلمة" في "التاريخ" (61) نوفمبر 1983 ص. 95-97.
44. الشاب الجزائري ص. 123.
45. ن.م. ص. 116.

الواقع أنَّ الطلبة المسلمين لا يُسلِّمون بأحقيَّة أوروبيي الجزائر في الحصول على الجنسية الفرنسية بدليل أنَّ نصفهم عددهم فقط من أصل فرنسي؛ ولقد اجتنبوا، بذلك، الوقوع في فخ التحدُّث عن فرنسا المزدوجة الهوية: فرنسا الجيِّدة وفرنسا السيِّئة وكلاهما فرنسا. لقد نسب عباس كل المظالم الصادرة عن الاستعمار إلى "جالية من المعمرين الأوروبيين" أي إلى "شذَّاذ الآفاق من المغامرين الأجانب" حين يقول: "هناك أناس يسعون للحيلولة بيننا وبين فرنسا. أولئك هم الذين تتشكَّل منهم جالية الفرنسيين الجدد. أولئك الذين لم يحضروا نزول القوات في سيدي فرج ولم يشاركوا في معركة المقطع ولم تحصدهم الحمى في سهل متيجة ولا سالت دماؤهم في أية بقعة. أولئك الذين يستغلون ثرواتهم وامتيازاتهم لينظروا إلينا من علياء الاحتقار والحقد".[46]

غير أنَّ الأفكار التي تضمر عداوة مسبقة للمعمرين وولاء مسبقا لفرنسا كان من نتائجها أنَّها حادت عن طريق الصواب في شأن الجهة المسئولة عن ذات الموضوع؛ فمَن الذي احتل الجزائر وأنشأ مراكز الاستيطان للحفاظ على الاحتلال ولبسط نفوذهم على البلد إن لم تكن فرنسا؟ لقد لاحظ فرحات عباس نفسه تلك الحقيقة المرة قائلا: "سعت فرنسا، طيلة سبعين سنة، إلى سلب ثروات العرب وتشريد صفوفهم من أجل توطين الإيطاليين والأسبان في الجزائر" (Anatole France: "فوق الحجرة البيضاء"). نحن نلتفت إذن إلى فرنسا ونقول لها: "ساعدينا على استرجاع كرامتنا أو أبعدي مدارسك عنا".[47]

كان معظم الشباب الجزائريين يعتقدون، لمدة طويلة، أنَّ فرنسا أساءت اختيار موقفها إزاء سياستين متعارضين هما: السياسة الاستعمارية القائمة

46. ن.م. ص. 116.

47. "الشاب الجزائري" ص.128 انظر أيضا عزيز كسوس "كل الحقيقة في المحنة الجزائرية" ص. 67.

على طرد الأهالي وإكراههم على التمركز في أماكن محددة؛ وسياسة استكمال الاحتلال المعنوي بأسلوب الاستيعاب أو التحضير. وهكذا كان الشاب عباس يناشد فرنسا أن تحسم الاختيار بين سياسة "الرّومنة" المعتمدة على الاستعمار وبين السياسة "الإسلامية" المبنية على الاحتلال المعنوي الخالي من أية خلفية استعبادية. يظهر التناقض بين هاتين السياستين بديهيا ففي منظور بسط الحضارة كانت الاستعانة بالمستوطن الأجنبي تعتبر سُبَّة "لجنس" الأهالي الذين يعتبرون في مرتبة أحطّ وغير مؤهلين للتربية. إنّ توطين مواطنين جدد جعل ترقية القدماء أمرًا غير ذي جدوى بل خلق بينهما صراعا حول المصالح الخاصة. في حديث جرى بين شابة مسلمة مثقفة وبين الجنرال Jouhaud، سنة 1958، آخذت الشابة "فرنسا على انتهاج سياسة لا تسمح للشعب الجزائري بالاستفادة من المنجزات التقنية وهي معجبة بها ولقد تأسفت، وهي محقّة في ذلك، على محدودية الجهود المبذولة في مجالات التربية والتكوين المهني في الأوساط الشعبية؛ ولم يكن بوسعها أن تقبل منطق التضامن العرقي والديني الذي أدّى بفرنسا إلى توطين الأسبان والإيطاليين عوض تكوين إطارات مسلمة ولا تتفهم لماذا عزف الفرنسيون عن سنّ التقارب مع العرب وكيف أنّهم يجهلون طبيعة النفس العربية".[48]

لكن حدث اقتناع، بصفة تدريجية، لدى العديد ممن كانوا مثل فرحات عباس يأملون ظهور سياسة حضارية تجاه الأهالي. اقتنع هؤلاء بأنّ فرنسا لم تكن تستهدف سوى تنفيذ سياسة "استعمارية بمعنى السيطرة والاستغلال المفروضين من طرف شعب على آخر". بذلك يكون هؤلاء قد توصلوا إلى نفس القناعات التي حصلت لدى الوطنيين وبالفعل فإنّ الاحتلال والاستيعاب لا يمثلان، في نظر الوطنيين، سوى مظهرين متكاملين لسياسة واحدة هي

48. "يا بلدي المفقود" فايار 1968 ص. 96-98.

الاستعمار باعتباره مجهودا دائما يهدف إلى السيطرة والاستغلال. لقد أكدوا على أنّ الاستيعاب لم يتم الأخذ به إلا باعتباره عاملا من العوامل الفاعلة في علمية تفكيك تراث المجتمع الجزائري وكانت الجوانب الترقوية، المحتمل توفرها فيه عن طريق التدريس مثلا، معرقلة بسبب معارضة المستوطنين: أما فيما يتعلق بالإداريين و"بضباط المستعمرات" فيمكن التشكيك في حماسهم الحضاري لأنّ تعاليهم السلطوي كان يبرمج لتحقيق رشد "رعاياهم الأيتام" من غير أن يجد ضرورة تدفعه إلى التسرُّع. ضرب مصطفى لشرف لذلك مثلا حين ذكر قول النقيب Charles Richard، رئيس أحد المكاتب العربية في Orléans ville (الشلف حاليا) سنة 1845، قائلا: "قبل كل شيء يجب أن نجعل هذا الشعب تحت أقدامنا لكي يحسن تقدير ثقلنا ثم ينبغي أن نرفع عنه الضغط شيئا فشيئا لنمكنه في نهاية الأمر، أي بعد عدة قرون، من الوقوف في مستوانا والسير إلى جانبنا في المضمار الكبير المؤدي إلى التقدم البشري"[49] وهكذا فليس ثمة شيء يمكن أن يخفى عن النظر الناقد واللاذع الذي يتمتع به الوطنيون. إنّ "الرسالة الحضارية" التي جاءت بها فرنسا لم تكن عملا خيريا مجردا فلقد كانت تأمل من خلالها ضم مساحة ترابية وسكانا إضافيين وتحقيق مزيد من القوة.

من خلال ما سماه " دراسة بعض الدوافع والتصرفات في الحركة الوطنية المسلمة في الجزائر"[50] يبدو أن الرائد Guvan قد حاول التشكيك في حقيقة الاستعمار وذلك عن طريق الإيحاء بأنّ الذين يندّدون به مصابون بقصور النظر العقلي وكانت خلاصته في ذلك حاسمة حين يقول: "إنّ الحركة الوطنية الجزائرية اليوم (1961)، في مظهرها المتطرف، حالةٌ مَرَضية في

49. ذكره في مؤلفه "الجزائر، أمة ومجتمع" ماسبيرو، 1965، ص. 258 أنظر كذلك: تحليلات برنامج طرابلس، عناوين شمال إفريقيا 1962، ص. 683-707.

50. شيام وثيقة. 3614.

هذا الصدد إنّ ما ورد في مقدمة هذا الكلام يوجه النظر نحو تلك الوجهة. كما يؤكد عليه أحد الأذكياء العارفين بالإسلام الجزائري: "لا يمكن أن نشك أبدا في أننا حين نحاول إلقاء نظرة على خفايا التبريرات المزعومة مثل "الاستعمار" أو العنصرية وبصفة عامة على الحقد المرضي الذي يضمره البعض ضد الغرب فإننا نجد في المجتمع أعراضا نفسية مرَضية، غير واعية في بعض جوانبها، مؤسَّسة على مشاعر الحسد والغيرة."

ومع ذلك؛ يُقرُّ الكاتب بوجود أرضية موضوعية تؤسس لردود الفعل النفسية المرَضية عند الأهالي الجزائريين حين اتخذ منطلق تحليله من وضعية انحطاطهم الشامل. في هذا الإطار العام تبرز نخبة من الأهالي التي "تشكلت في أغلب الأحيان بفضل الاتصال بنا (...) وكانت واعية بهذا الانحطاط وتتألم له في عمق نفوسها نظرا لكونها نخبة ومن هنا يتكون لديها شعور بالمقت أو عقدة الحرمان". وإذا سايرنا Albert Memmi فيما ذهب إليه فإنّ هذا الشاب الجزائري يضع "ظرفية القمع والنقص التي تحدد طبيعة كيانه" في مواجهة ظرفية الامتياز التي تُميِّز الرجل الأوروبي: "ميزة هذا الأخير هي كونه لا يتألم لوجود أي من تلك النقائص فإنّ لديه كامل الحقوق ويتمتع بكل المنافع ويستفيد من أحسن سمعة وله مطلق التصرُّف في الخيرات وفي الخلق وفي التقنية وفي السلطة". أولى نتائج هذه المقارنة المفحمة "ينتج عنها، قبل كل شيء، شعورٌ باستلاب حقيقي يولّد لديه مشاعر الحقد والمرارة وفقدان الثقة والانطواء على الذات ثم يعقبه الحذر وأخيرا التطلع إلى التغيير".

عند وصول القادة الوطنيين إلى هذا المستوى فإنّهم يحددون مجالات رفضهم (رفض السيطرة ورفض المقت ورفض الظلم) وفي نفس الوقت يقدمون حاجيات مضبوطة (توفير مجالات العمل ومناصب المسؤولية، بالنسبة للنخبة، وتحسين الظروف المادية بالنسبة للطبقات الشعبية). كان

هذا التحليل من خصوصيات الشباب الجزائريين في فترة ما بين الحربين ولا يخصُّ الوطنيين بأتم معنى الكلمة.

حيث أنَّ وضعية القمع ظلَّت على حالها ولم تتغير فإنَّ الاستلاب تحوَّل إلى شعور لا يُحتمل وأفضى إلى حدوث أزمة؛ "بفعل تحول عجيب، ولكنه منطقي في آن واحد، فإنَّ الإحساس بالحرمان الذي يحدث في الأصل عقدة نقص قد انقلب ليحلَّ محله شعورٌ حقيقي بالاستعلاء... حدث هذا الانقلاب في الوقت الذي حصل فيه الوعي لدى النخبة الجزائرية (أو لدى الذين ينصبون أنفسهم لذلك) إنَّه وعي بأنَّ اللامساواة، المفروض وجودها أصلا بين المستعمِر والرجل المستعمَر، غير صحيحة. تلك اللامساواة كانت معيشة باعتبارها أمرا واقعا أكثر منها حقا مؤسسا وباعتبارها حالة ظرفية وليست حتمية" ونلاحظ هنا أنَّ التواضع الذي اكتنف المسار المؤدي إلى نشوء الشعور الوطني قد زال بشكل فجائي فالرجل المستعمَر لم يعد يطيق الصبر طويلا على مواصلة الاعتقاد في "قابليته للاستعمار". يمكن أن نفهم أنَّ التغني بالماضي الإسلامي، من طرف مثقفين فرانكفونيين غير متمكنين في الثقافة العربية، ناتجٌ عن حاجتهم إلى الدعم المعنوي الذي يسمح به ذلك. بهذا يمكن للمثقف الجزائري أن يكون فخورا بقومه وبوسطه الاجتماعي الأصلي رغم نقائصه آنذاك: "إنَّ المقارنة بين الماضي (المثالي) وبين (حالة) البؤس الراهنة تبدو في نظرنا عاملا حاسما في بعث الوعي الوطني لدى النخبة الجزائرية فالوطنية هي قبل كل شيء تعبير عن الشعور بالتفوُّق". يدعم قوة ذلك الوعي وينميها ما تحدثه المجموعة من تأثير: فالتجارب الفردية تلتقي وتتعمم بفعل تبادلها ومقارنتها في الأطر الجمعوية الطلابية وفي الأحزاب الوطنية؛ وإنَّ الشُّحن التي تحرِّرها الضغائنُ المكبوتة والآمال المرسلة تحدث أثرا "تفاعليا" في تلك الأوساط المغلقة. عند هذا الحد تضحي حالة القمع شعورا لا يُطاق تحمُّله ولذلك؛ تقوم المجموعة، في نفس

الوقت، بتحديد العقبات التي يجب اجتيازها والآفاق التي ينبغي التطلع إليها: "منذ البدء؛ ندّد الوطنيون بقضية تهمُّ الجميع: إنَّها الاحتلال الفرنسي وصاغوا ذلك في عبارة أكثر تأثيرا لأنها حاسمة وسحرية: هي الاستعمار الفرنسي؛ فهذا الأخير يمثل في نظر الوطنيين "الفساد الشامل" إنَّه الإثم الأكبر والجريمة الأساسية واستحواذ الإنسان على إنسانية الآخر؛ وإنَّه العامل الأساسي في خراب العالم الإسلامي؛ وإنَّه أبشع أنواع الجبروت الإنساني وبعد التنديد بالاستعمار كان على الوطنيين أن يندّدوا بالمستعمِر، أي بالفرنسي، وقبل كل شيء بفرنسيي الجزائر الذين يشكلون في نظرهم، بفعل الاتصال المباشر، السبب الرئيسي في الحرمان الذي يشعرون بأن استمراره الآن مظلمةٌ لا تطاق". أما الدواء فيكمن في الاستقلال الذي يمكّن الشعب الجزائري، حسب عبارة Jean Amrouche، "من تخليص نفسه من الإثم الأساسي أي من حالة البؤس التي خلَّفها النظام الاستعماري الفرنسي بالحديد المحمي على النار كيَّة غائرة في جسده وفي روحه".

من المفارقات أنَّ الخطوط العريضة التي تؤسس لهذه الأطروحة لم تكن محلَّ اعتراض قطُّ. كتب أحد المناضلين في الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري في صحيفة "الجمهورية الجزائرية" (28 ماي 1954) ما يلي: "لستُ غرّاً إلى حد الاعتقاد بأنه إذا لم يزاول التعليم، مثلا، فإنَّ ذلك يعود إلى نقص الميزانية؛ بل الأموالُ موجودة و يكفي للاقتناع بذلك أن نلقي نظرة عابرة على نمط الحياة لدى بعض السكان في بلادنا و نلقي نظرة فاحصة حولنا ولتكن مثلا في مدينة كبيرة مثل الجزائر؛ فالقصور الفاخرة هناك من نصيبهم والسيارات الفخمة من نصيبهم وميادين التنس من نصيبهم والاسترخاء في العطل الأسبوعية من نصيبهم وفرص العيش الممتازة من نصيبهم إنها من نصيب الأب والابن والبنت جميعا؛ أما نصيب فاطمة فهو الشقاء بقسوة المهام اليومية في منازلهم ونصيب شعبنا المسكين هو البؤس

والبطالة وبيوت القصدير ونصيب شبيبتنا هو الجري عبر الشوارع من أجل تلميع أحذية هؤلاء". جاءت الحرب لتضاعف حدَّة التناقض: "المداهمات من نصيبنا وحظر التجول ومحاصرة الأحياء بالعساكر ونقل شعبنا جماعات إلى ملعب Saint Eugène بينما ينعم السكان في أحيائهم الهادئة بالعيش في سكينة متنقلين بين الشواطئ ودور السينما والملاهي استعدادا لقضاء العطل".[51] ذلك ما كتبته زهرة ظريف تبريرا لأعمالها الفدائية لكن تلك الغيرة ليست أمرا مستجدا فمنذ سنة 1925؛ كان الشاب مالك بن نبي ينتقل "عبر الشوارع الأوروبية في مدينة قسنطينة حيث القصور الفاخرة تذكي في نظره حدَّة البؤس الذي تعيشه عمَّته" وكان من جهته "يتسلى باختيار الدور التي يمكن أن تليق به".[52] "احتلال مكان المستعمر" ألا يشكل ذلك في نظر Frantz Fanon الحلم الذي يراود كل رجل مستعمر[53]؟

إنَّ التحليل الذي يجعل من الشعور الوطني الجزائري معطى نفسيا – مَرَضيا لم تتم معارضته من طرف المعنيين بل حدث عكس ذلك تماما. لكن المؤيدين يؤكدون، من أجل تقصي أصول الداء، على فكرة العودة إلى الوراء أي إلى الظرفية التي جعلت الأهالي يعيشون حالة إعاقة دائمة. يُقرُّ أحد قدماء الطلبة بأنَّ الاستعمار قد نجح، دون شك، في تخريب أذهانهم؛ ويشرح مالك حداد ذلك جيدا بقوله: "ما دام الاستعمار يشكل، تاريخيا، حالة مَرَضية فلا عجب إذا اعتبرنا ما نتج عنه من سلوك سلبي حالة مَرَضية" ويضيف في فقرة أخرى: "إنَّ الاستعمار، بصفته ذلك الانهيار العصبي التاريخي، كان بؤرة للحيرة والهمّ".[54] مارس Frantz Fanon مهنته كطبيب نفساني في مستشفى

51. "موت إخواني" ص. 9.

52. مذكرات ج.1. ص. 108.

53. "معذبو الأرض" ماسبير، طبعة معادة 1970، ص. 18-19.

54. الأصفار تدور في حلقة مفرغة" ص. 9-10.

الأمراض العقلية بالبليدة Joinville من سنة 1953 إلى سنة 1956 ولقد دافع عن نظرية مفادها أنّ العلاج النفسي يلتقي مع السياسة حيث يقول: "إنّ الجنون وسيلةٌ من الوسائل التي يفقد بها الإنسان حريته ويمكن لي القول بأنني، بحكم موقعي في هذا المفترق، قد أصابني الفزع حين قمت بتقدير مدى الاستلاب الذهني الذي يعيشه سكان هذا البلد. إذا كان العلاج النفسي يمثل التقنية التي تسمح للإنسان بأن يتصالح مع محيطه وأن لا يظل غريبا عنه فمن واجبي أن أؤكد أن العربي المستلب، بصفة دائمة في بلده، يعيش حالة مطلقة من فقدان الشخصية".[55] نلاحظ نفس المعنى المبهم والغامض الدلالة في استعمال مصطلح "المسلوبين" من طرف كاتب ياسين ومع ذلك فمن المهم أن نميِّز بين نوعين من الاستلاب: الاستلاب الذي يعيشه الطالب الفاقد للشخصية، المنفصل عن شعبه بفعل التحول الثقافي، والاستلاب الذي يعيشه الفلاح الأمي الغريب في بلده.

مهما يكن؛ فإنّ حالة المرض النفسي لدى الأهالي المستعمَرين لا تعني أنّ المستعمِرين لا يعيشون، هم ايضا، حالة من المرض النفسي. يمكن لنا في هذا الصدد أن نستعين بالتعريف الجيِّد الذي يعطيه Albert Memmi لمفهوم الاستعمار، باعتباره واقعا ملموسا، فهو يقول: "خلاصة القول إنّ الاستعماري ليس في واقع الأمر شخصا آخر غير المستعمِر الذي يعترف بكونه مستعمرا ثم يقوم بعد ذلك بالبحث عن تبرير الاستعمار"[56] في حالة كون المستوطن لا يمثل الشخص الأول الذي شغل المساحة الترابية التي امتلكها فهو غاصبٌ يودُّ تحويل اغتصابه إلى عمل مشروع: "هناك سبيلان يمكن انتهاجهما لتحقيق ذلك فإما البرهنة على أهمية المزايا التي يتمتع بها الغاصب، وهي مزايا بلغت حدا من الأهمية جعلته مؤهلا لذلك، وإما التأكيد على تفاهة

55. "رسالة إلى الوزير المقيم"، أعيد تحريرها في "من أجل الثورة الأفريقية" ماسبيرو 1964، ص. 59-62

56. "الملامح العامة للمستعمر" ص.63.

الشخص المغصوب الذي بلغ حدا من عدم الاستحقاق جعله مؤهلا للتهميش. هذان المسعيان متلازمان في الواقع. فالحيرة التي تسكن الغاصب وتعطّشه إلى التبرير يفرضان عليه في نفس الوقت أن يرفع قيمة نفسه إلى أعلى عليين وأن يحطّ من قيمة المغصوب إلى أسفل سافلين"[57] لكن هذا الموقف المزدوج، المؤدي إلى العنصرية، لا ينبغي أن يؤدي إلى عنصرية مضادة تلازم طبيعة المستوطن؛ ويؤكد Albret Memmi، بحقٍّ، على أنَّ الأمر لا يتعلق سوى بردود فعل سيكولوجية ضد واقع معيش "فالآلية تسير بقدر محتوم: إن الوضعية الاستعمارية تصنع المستعمِرين كما تصنع المستعمَرين".[58]

تمثِّل هذه الأوضاع مجموعة من المفارقات: فعلى نقيض ما تؤسس له القيم الوطنية فإنَّ الأهالي تعرَّضوا، بصفة دائمة، إلى عملية حطّ من قيمتهم إزاء المستوطن الغريب الذي حلَّ بالديار وعلى نقيض المبادئ الديمقراطية، السارية في فرنسا، فإنَّ الأقلية هي التي تمارس سلطة الأغلبية في جميع المجالات. هذا الانعدام في التوافق مع النمط الفرنسي لم يمنع من تأكيد القول المسلَّم به: "إن الجزائر هي فرنسا". يبدو أنَّ العيب كان يكمن في وجود ذلك العدد الكبير من العرب في التراب الفرنسي. لقد برع مولود فرعون في وصف تلك "الصفقة المجحفة" التي يتطاول بها إلى تعريف العلاقات الفرنكو – جزائرية. إنَّ الأهالي غرباء في البلد الذي ولدوا فيه وإنهم أكثر غربة في فرنسا. أما الفرنسي فهو في بلده حيثما حلَّ: "لقد جاء الفرنسيون غزاةً (...) وكانوا يتمتعون بالحماية والمساعدة فكان عليهم أن يتوجهوا إلى العمل فقط وهم يشعرون بأنهم في بلدهم (...) وكلَّما حلَّ في ديارنا رجل قادم من فرنسا فإنه لا يعتبر مهاجرا بل مقيما". وأما ما يتعلق بالفرنسيين المولودين في

57. ن.م. ص. 74.

58. ن.م. ص. 76.

الجزائر فهم "جزائريون" في نظر الفرنسيين؛ وفرنسيون في نظر الجزائريين. "إنّ مواطنينا (الأوروبيين) أناس محتالون ونحن لا نؤاخذهم على شيء؛ فهم يشدّون الحبل ولن يطلقوه؛ ولا فائدة إذن في مناقشة ذلك لأنّ الأمر، بالنسبة لي، واضحٌ؛ إنّ الناس الذين يأتون إلينا لا يُرثى لحالهم فهم يشغلون أفضل المساحات بل كل المساحات ثم إنهم، في نهاية المطاف، يتحولون دائما إلى أثرياء. أما نحن فلم يبق لنا في ديارنا شيء. إذن سننتقل بدورنا إلى ديارهم. لكن؛ ليس للاستيلاء على المساحات أو للتحول إلى أثرياء وإنما؛ فقط؛ لننتزع رغيف الخبز أو نكسبه أو نسرقه وذلك هو ما نقوم به. "تلك هي الصفقة المجحفة" فليس بلدنا أكثر فقرا من أي بلد آخر ولكن لمن تعود ملكية بلدنا؟ طبعا ليست لأولئك الذين يموتون فيه جوعا ".[59]

من اليسير أن يدرك المرء كيف أن نظاما اجتماعيا وسياسيا، مثل ذلك، ليس تافها فحسب ولكنه نظامٌ ظالم ومرفوضٌ؛ ولقد غدا إلغاؤه مطلبا ملحا لدى كل التيارات السياسية الناطقة باسم الأهالي؛ ولكن أنصار الاستيعاب والإدماج والشراكة كانوا يحاولون التمييز بين المستعمِر الظالم وفرنسا المحرِّرة. تتضمن نشرة "الشاب الجزائري"، لفرحات عباس، نقدا جذريا للاحتلال والاستعمار كان من الممكن أن يؤدي به إلى نكران السلطة الفرنسية؛ غير أنه كان من جملة من طمعوا في أن تصلح فرنسا أخطاءها السابقة لتكون بمثابة "الأم" لرعاياها الجزائريين.[60] وحتى العلماء الإصلاحيون الذين كانوا، رغم تكوينهم العربي المحض، يأملون في أن تنددٌ "فرنسا الديمقراطية" بالاستعمار وأن تعمل على تحرير وترقية الشعب المسلم الجزائري. كان نجم شمال إفريقيا، إلى غاية سنة 1936، الحزب الوحيد الذي أعلن صراحة عن رفضه السيادة الفرنسية.

59. "الدروب الصاعدة" لوسوي، 1957 ص. 207-209.

60. الشاب الجزائري ص. 114-116.

## ج) مفهوم الوطنية الجزائرية يتبلور

اصطدمت الحركة الأهلية، المطالبة بإلغاء الاستعمار سلميا، إما بالرفض أو بالوعود الكاذبة أو بالإجراءات القمعية؛ وبما أن فرنسا كانت تعتبر كل المطالب المناهضة للاستعمار مساسا بسيادتها فإنها فوّتت على نفسها فرصة سانحة للتمييز بوضوح بين أهدافها وبين الأهداف الاستعمارية. لقد وقفت إلى جانب الأقلية التي كانت تتوهم بأن ترقية وتحرير الشعب الجزائري تمرُّ حتما عن طريق التنكر لسيادته.

إنّ رفض الهيمنة الفرنسية ومن بعد ذلك التحوُّل إلى منطق استعمال القوة هما المرحلتان الأخيرتان قبل حدوث القطيعة بين الوطنيين وبين بقية التوجهات المطلبية المسلمة الأخرى. عند هذا الحد الحاسم أحجم عددٌ كبير من رجال الفكر الأهالي ولكن الشباب، الذين اكتشفوا بين سنوات 1936 - 1943؛ مرارة الواقع الجزائري والوضع الدولي، كانوا أكثر استعدادا للتعامل مع ذلك التحوُّل وحيث أنّهم لم ينعموا بتحقيق الآمال التي كانت تراود عدة أجيال من الشباب الجزائري قبلهم فإنهم لم يحظوا سوى بمرارة الفشل التام.

### 1- النضال والقمع والثورة

لعب القمع، باعتباره طرحا فكريا، دورا أساسيا في تغذية الأيديولوجية الوطنية لدى المثقفين الجزائريين وذلك من حيث كونه إثباتا لمشروعية اللجوء إلى القوة وفق النمط الكلاسيكي: المطالبة فالقمع فالثورة أي ذلك النمط الذي يفتح المجال لدوامة لا متناهية من العنف؛ ولقد ظهر هذا الطرح بين سنوات 1933 و 1935 إبّان الحملات الاحتجاجية ضد تدابير القمع التي طبّقتها الحكومة الفرنسية إزاء من تسميهم، بحق أو بغير حق، بالوطنيين فجبهة القوى الشعبية لم تتمكن من تهدئة الوضع بصفة دائمة. إنّ إلقاء

القبض على الشيخ العقبي ( أوت 1936) إثر اغتيال المفتي "كحول"، في ظروف غامضة، أثار ضجة كبيرة فلأول مرة يتم التنديد صراحة بالتعذيب[61].
في سنة 1937 حُلَّ حزب نجم شمال إفريقيا وتواصل القمع ضد الحركة التي انبثقت عنه أي "حزب الشعب الجزائري" إلى أن أُجبر على الدخول في كنف السرية سنة 1939 وتعرَّضت جمعية العلماء إلى المضايقات، منذ أن أعلنت موقفها السياسي سنة 1936، فلقد أُجبر الشيخان بن باديس والإبراهيمي على الإقامة الجبرية سنة 1940؛ وفي الفترة من سنة 1939 إلى 1943 تم تعطيل الحريات العمومية. غير أن القلاقل التي أعقبت نزول الحلفاء وكذا اغتيال الأميرال Darland قد سمحت لحركة البيان بالتطور إلى أن تم الاعتقال المؤقت لفرحات عباس سنة 1945. بلغ الصراع بين الحركة الوطنية والسلطات الفرنسية، في شهر ماي 1945، إلى حدٍّ حدوث انفجار مهول لأعمال العنف.

ذلك أن القمع الذي تعرضت له حركة أحباب البيان الجزائري، إثر الثامن ماي في نواحي قسنطينة وفي شتى أنحاء الجزائر، قد أحدث أثرا حاسما لدى الطلبة الجزائريين. كان كاتب ياسين آنذاك طالبا في مؤسسة للتعليم المتوسط بمدينة سطيف فسجَّل شهادة حيَّة تعبق برائحة لهيب الأحداث في روايته "نجمة". كانت شهادته عن تلك الدراما تعبيرا رائعا عن الصدمة الجماعية[62] لقد مست الجزائر كلها، تقريبا، بدرجات متفاوتة حيث يقول عنها الصادق هجرس: "كان شهر ماي يغلي بحمى الغضب. في الليلة الأولى وردت إلينا أصداء المظاهرات التي قوبلت بالأسلحة الرشاشة أمام دار البريد المركزي في مدينة الجزائر وبعد انتهاء عطلة الثامن ماي اجتمعنا

61. شارل أندري جوليان "مسيرة الشمال الأفريقي" (طبعة معادة 1972) ص. 105 و 378.

62. كاتب. م.م. ص. 52-59. انظر كذلك تصريحاته لشارل أنري فافرود في "الثورة الجزائرية" بلون 1959، ص. 76، ذكرها روبير ارون، م.م. ص. 147-148.

برفاقنا من ناحية قسنطينة (الشرق) وقدّموا لنا عروضا عن المجازر الكبيرة التي ارتُكبت، وفي نفس الوقت، وكان أحد أعوان الإدارة البلدية وهو رجل يثور لمجرّد سماعنا نتحدث بالعربية أو القبائلية يقوم بحملة من أجل إقصائنا الجماعي من الثانوية كما وقع في ناحية قسنطينة (حيث التحق طلاب الثانويات بالمحتشدات والسجون). منذ تلك الفترة اعتصم العديد من رفاقنا بالجبال أو دخلوا في العمل السري المحظور"[63] وبالفعل؛ فقد تم استرجاع زمام التحكم في طلبة التعليم الثانوي بعد أن دفع العديدُ منهم الثمن متمثلا في إقصائهم من التعليم في المناطق الأكثر اضطرابا ولم يتمكن البعض ممن أُقصوا من مواصلة دراستهم بعد ذلك ومنهم كاتب ياسين. صارت هجرة الطلبة إلى فرنسا، حينئذ، بمثابة نزوح حقيقي ولقد تم توقيف الكثير من الشباب لمدد متفاوتة وكانوا من ضحايا التعذيب الذي وقع أو كانوا شهودا عليه. إنّ مشاهد القتل الجماعي بالرشاشات ليست بالأمر الذي يمكن نسيانه وحتى الأطفال صدموا بسبب الغياب الإجباري لكل رجال العائلة حيث توجّه بعضُ الثائرين صوب المعاقل في الجبال وكان من بينهم "لعمش". أحد طلاب الثانوي في مدينة "تيزي وزو"، حيث لقي حتفه ومنهم أيضا معزوزي الذي أُلقي عليه القبض ومكث في السجن إلى غاية 1962 [64]

منذ ذلك الوقت صار التكتُّل والاتحاد في جبهة موحدة ضروريا بعد أن أبان القمعُ الشامل حقيقة النظام الاستعماري؛ ولقد كان ذلك طرحا مطردا في الحياة السياسية الطلابية وكانت "لجان مساندة ضحايا القمع" تضم كل الاتجاهات، وبالخصوص خلال سنة 1951، حين تم اكتشاف المنظمة الخاصة "التابعة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية" والتي كانت تحضُر سريا للكفاح المسلح منذ سنة 1947. في 9 ديسمبر 1951 صادق أعضاء

63. هجرس م.م. ص. 46.

64. حربي "أصول جبهة التحرير" ص. 112-114 وقداش م.م. ج.2 ص.712.

جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية على لائحة تتضمن "احتجاجا شديد اللهجة ضد نظام الحبس، غير المشروع وغير الإنساني، المفروض على المساجين السياسيين في كل من Orlansville (الشلف) والأغواط ووهران" وعبّروا "عن تضامنهم الأخوي مع ضحايا القمع". تمت ممارسة القمع أيضا بأشكال أخرى غير مباشرة مثل تزوير الانتخابات في الفئة الانتخابية الثانية منذ تعويض الحاكم العام Chataigneau بخلفه Naegelen في مستهل سنة 1948 وسُدّت جميع السبل المشروعة للوصول إلى السلطة أمام الحركة الوطنية.

وجدت الانتفاضة المسلحة، في نوفمبر 1954، تبريرها في التصدي لممارسة القمع بالذات. "لم تبادر فرنسا مطلقا بأدنى الإصلاحات وكانت تدفع بنا خلف سراب الوعود الكاذبة والانتخابات المزوّرة فلقد غدا جليا أننا لن نتمكن من صنع الجزائر إلا بحمل السلاح وكنا منذ نوفمبر 1954 في حالة حرب"[65]. هذه الحجج الكلاسيكية نجدها في كل الكتابات الصادرة عن الوطنيين الجزائريين مثل رسالة أحد الطلبة المسلمين بجامعة الجزائر التي يقول فيها: "منذ سنة 1945؛ لم يكفّ الشعب الجزائري عن "الكفاح سلميا" للحصول على بعض التدابير الاجتماعية والسياسية التي وجدت لدى الإدارة آذانا صمّاء. فكيف لا تكون صحيحة الفكرة القائلة بأن "فرنسا لن يُتحصل منها على شيء أبدا إلا بالقوة؟" إن الحديث عن تطبيق الإصلاحات، المطالب بها سلميا، لن يكون إلا بعد قيام الثورة[66]

استعرض أحمد طالب (الرئيس السابق ل إ.ع.ط.م.ج.) تلك الحجج، من جديد، في رسالة وجّهها إلى الفرنسيين بصفته ناطقا باسم فدرالية فرنسا لجبهة التحرير يقول فيها: إنّ الجزائر، سواء على المستوى الشعبي أو في

65. زهرة ظريف م.م. ص. 8.

66. " العمل 14-11-1956.

ضمائر نخبها، لم ترض قط بالسياسة المفروضة عليها من طرف الحكومات الفرنسية المتتالية منذ الاحتلال ولقد تم التعبير عن مطالبها الأساسية عن طريق التنظيمات السياسية التي حلّتها الإدارة واحدة تلو الأخرى ولم تنفك الأصوات تنادي وتعبِّر عن عمق طموح الشعب إلى استعادة كرامته وحريته وإنّ تاريخ الحوار الديمقراطي الذي حاول الشعب الجزائري إجراءه مع فرنسا في إطار المؤسسات المفروضة عليه لم يفض سوى إلى الرفض المهين والقمع الجنوني".[67]

قدّمت مريم بلميهوب في 25 أفريل 1957، أمام القضاة، سردا مفصلا عن المآخذ التي رفعها الشعب الجزائري قائلة: "عندما يتعلق الأمر بالحصول على حقوقنا فنحن لا نُعتبر مواطنين فرنسيين ولكن حين يتعلق الأمر بأداء الواجبات فإننا نُعتبر كذلك؛ لقد حارب الجزائريون معكم ضدّ النازيين أثناء الاحتلال ولقد وعدتموهم، مقابل ذلك، بمنحهم حكما ذاتيا واسعا وكالعادة وضعوا كل ثقتهم في الوعود الفرنسية. لقد مات عدد كبير من الجزائريين في ميدان القتال أثناء محاربة الألمان الذين سعوا لتحويل الفرنسيين إلى "جرمان" فكانت المكافأة على تلك المساعدة الثمينة والفعّالة استجابة فرنسا لاستفزازات المستوطنين بإطلاق النار على الجزائريين في 8 ماي 1945؛ ذلك اليوم الدامي في التاريخ الجزائري حيث تم إعدام 45.000 من الشباب في كل من سطيف وعنابة وقالمة وباتنة".[68]

لكن تزوير الانتخابات شكّل السبب المباشر في اندلاع الثورة: "بعد الأحداث المحزنة التي مست الشعب الجزائري في لحمه ودمه جاء عار الانتخابات المزورة، سنة 1948، حيث أُجبر الجزائريون عنوة على التصويت لصالح "بني وي وي" أولئك المرشحين الذين اختارتهم الإدارة الفرنسية. فلو أن الانتخابات كانت

67. ن.م. 11-6-1956.

68. كيسيل وبيريللي م.م. ص. 133.

نزيهة إذن لتمكن الممثلون الحقيقيون للجزائر من تحقيق ما كان الجزائريون يصبون إليه سلميا؛ وحيث أنّ الأساليب السلمية لم تنجح فإن الشعب الجزائري حمل السلاح وتلك هي وسيلة التعبير الوحيدة التي بقيت له".[69]

توصّل أحمد طالب إلى نفس النتيجة مؤكدا على المهانة المتمثلة في تزوير الانتخابات حيث يقول: "لا يمكن لكم أن تتصوروا طبيعة الشعور الذي تولّد في قلوب الجزائريين منذ سنة 1948 جرّاء التزوير المستمر للانتخابات؛ إنه شعور بالكرامة المهدورة؛ فتلك المشاهد الكاذبة التي تنسب إلى الحرية كانت، لاعتبارات عديدة، أشدّ وقعا على النفوس من الحرمان منها. إنّ باب الثورة يُفتح تدريجيا حين لا تُراعى أيةُ حرمة لإرادة الشعب ولذلك؛ فإن الشعب الجزائري لم يعزم على حمل السلاح إلا يوم استنفد جميع الوسائل الأخرى للتعبير عن طموحاته ولقد فهم بأنّ أدنى ثقة، مهما كان نوعها، لن تكون سوى انخداعا؛ فالتمرد المعلن عنه، في 1 نوفمبر 1954، من طرف جبهة التحرير الوطني يمثّل الوسيلة الوحيدة لفرض الحوار".[70]

كذلك كان الأمر بالنسبة لمسؤولية فرنسا في تطور الحرب إلى أشكال تتزايد شراستها: "لقد نسيتم أنّ الثورة قد وُفّقت، من 1 نوفمبر 1954 إلى 20 أوت 1955، في اجتناب العمليات المسلحة الموجهة ضد المدنيين الأوروبيين؛ ونسيتم أنّها أُجبرت على الشروع فيها بعد عمليات التمشيط الدموي الذي ذهب ضحيته آلاف وآلاف من المدنيين الجزائريين. صحيح أنّ منطق الحرب هو الذي يفرض نفسه ولكن يجب أن نعترف هنا بأنّ تطور العمليات المسلحة ضد المدنيين نتيجةٌ مباشرة لشراسة السياسة الرامية إلى "فرض السلم"؛ فلئن وقعت عملياتٌ فلأن نساء وأطفالا وشيوخا قد سقطوا تحت الرصاص والقنابل الفرنسية ولأنّ ديارا وقرى قد أحرقت

69. ن.م.

70. طالب م.م.

باكملها ولأنّ العديد من الأبرياء قد نُكِّل بهم. أنتم الذين تحتفظون، في خشوع، بذكرى ضحايا Oradour-sur-Glane يجب أن تعلموا أنّ الشعب الجزائري قد عاش Oradour آلاف المرات".[71]

يعود أحمد طالب، في كتابه "رسائل من السجن"، إلى البرهنة عن براءة شعبه في حرب تمت المبادرة بالإعلان عنها باسمه وعرض رأيه في قضية العنف لأحد مراسليه فقال: "صدِّقني؛ لستُ من مؤيدي اللجوء إلى العنف بشكل مستمر ولكنني لن أرضى أبدا أن يردَّ على الضربات بتقديم البركات فالاعتداء يستدعي الاعتداء بمثله. أنا لست من أتباع المسيح والقصاص عندي يمثل قانونا. إنني ممن يرى أن للأخلاق دورا في السياسية (...) في الحرب التي نخوضها تصرفنا دائما وفق بعض المبادئ. لكن الأمر هنا يتعلق بكفاح من نوع خاص؛ إنَّه كفاح من أجل الحياة أو الموت؛ أضف إلى ذلك أنه كفاح ضد عدو لا يتردد في استعمال التعذيب والتمشيط...".

ولنفي المسؤولية عن التسبب في العنف الجاري؛ لجأ المؤلف إلى إبراز ميزة أساسية هي:

"إن أعمال العنف التي نأتيها كانت ردًا على حالات عنف وسوف تتوصل إلى إدراك أفضل لما أقول عندما تقرأ المقطع الآتي عن Mounier حين يقول: "نتحدث كثيرا عن أعمال العنف وننسى في كثير من الأحيان وجود "حالات عنف" حيث يوجد البطالون وفي كنف النظام يموت ملايين الأشخاص أو يفقدون إنسانيتهم وننسى كذلك أنّ المتجبر هو المتمرد الحقيقي وأن العنف الحقيقي، في أبشع ما في الكلمة من معنى، هو استمرارية النظام.[72]

71. ن.م.

72. "رسائل من السجن" الجزائر 1966، ص.35.

كذلك كان لسان حال القناعة العميقة التي حفّزت جميع الطلبة الوطنيين الجزائريين فقضيتهم عادلة عدالة مطلقة وشعبهم بريء بشكل مطلق من الحرب التي فرضتها عليه ضرورة دحر الكابوس "الكولونيالي". لخّص أحمد طالب ذلك في حكمة جيدة قائلا: اتركوني لحظة واحدة أشرح لكم كيف أوكلنا إلى السلاح مهمة النطق بالحق فلا يكفي أن يكون الحق بجانبنا حين نتصدى لمحاربة الظلم والغباوة والحقد. لا بد للحق أن ينتصر".[73]

إنّ تلك النظرة المؤسسة على منطق تصارع الخير والشر؛ تنم عن نظرة مثالية سامية ولكن تفحُّص الواقع لا يثبتها بصفة كلية؛ فأحداث 8 ماي 1945 لم تكن تمثل، كما قيل، "استفزازا استعماريا" تم تدبيره وتنفيذه ببرودة تامة. ربما كان ذلك رأي البسطاء من المتظاهرين المسلمين غير أنّ رواية المسؤولين الوطنيين تخالف ذلك؛ فقد ظلوا لمدة زمنية طويلة ولأغراض دعائية ينكرون الحقائق الكامنة وراء تلك الانتفاضة التي أحدثت في الحركة الوطنية انقساما خطيرا.[74] وجّه فرحات عباس، الذي أدان صراحة وحشية القمع، إصبع الاتهام أيضا إلى مبادرة حزب الشعب الجزائري الذي انفصل عنه ليؤسس الإتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري. ففي صفوف حزب الشعب، الذي تحوّل إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1946، برز اتجاه معتدل حاول توجيه الحزب إلى النشاط السياسي المشروع ولكن تزوير الانتخابات حال دون ذلك. غير أن نتائج الانتخابات الجاهزة، التي أجريت في أفريل 1948، سبقها نشوء المنظمة الخاصة وإلقاء القبض على ثلاثة طلبة مناضلين وفي حوزتهم مخططات الانتفاضة. لا يمكن مطلقا اعتبار اكتشاف وتفكيك المنظمة الخاصة، سنة 1950، "مؤامرة مزعومة" مفبركة

---

73. ن.م.

74. انظر كاندت م.م. ص. 52 ( رواية عن عباس وبن خده)؛ حربي "أصول جبهة التحرير" ص. 20-24، 110-112 ثم "جبهة التحرير بين الحقيقة والخيال" ص. 29-30. قداش م.م. ج. 2 ص.702-718.

داخل مخابر الشرطة. إثر ذلك تردّد الاتجاهان ضمن حركة انتصار الحريات الديمقراطية في مساندة انتفاضة 1 نوفمبر 1954 خشية أن تفضي من جديد إلى كارثة شبيهة بكارثة ماي 1945.

لقد حدثت أعمال القمع قبل بروز حزب وطني منظم لقيادة عمليات العنف. كما أنّ الوطنية المعتدلة لابن باديس مثل الاعتدال النسبي لمصالي (فرانكفوني صادق متعلق بالجبهة الوطنية) قد اصطدمت كلها بأعمال القمع التي جرت؛ ثم إنّ الحجج المستندة إلى "حالات العنف" قد أبطلت كل جدوى في البحث عن المتسبب الأول في العنف وبالخصوص أنّه من السهل الانطلاق من "حالات العنف" هذه للتعرف على أعمال العنف التي أسّستها: فأسماء القرى والشوارع والتماثيل التي تم تدشينها بحفاوة كلّ ذلك مبادرات ترفع من شأن جلادي الاحتلال؛ كما أنّ الاستعراضات المخلدة للذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي تذكّر، دون انقطاع، بأنّ النظام الاستعماري تأسّس على منطق القوة؛ فليس عجيبا إذن أن يتحالف المعتدلون والمتطرفون من أجل وضع حد لنظام يرغب الجميع في تغييره. لم يفرّق بينهما سوى فاصلٌ زمني جعل الأولين يضطرون إلى مواجهة تجربة مخيبة قبل أن يفهموا ما فهمه الآخرون لأول وهلة: "لا يمكن ترويض الاستعمار بل يجب سحقُه"؛ أما "المتطرفون" فإنّهم يؤكدون بأنّهم لم يختاروا العنف فرحين ولكنهم اختاروه لكونه شرطا ضروريا للتحرر.

## 2- ثورة اجتماعية، أم وطنية؟

من المعلوم أنّ الوعي الاجتماعي سابق للوعي الوطني لدى الطلبة الجزائريين؛ فإلى غاية سنة 1936 كان فرحات عباس، مثلا، يطرح المشكل الجزائري في مصطلحات اجتماعية ويُنكر جانبه الوطني. ألا يحتمل أن يكون هذا البعد يحمل دلالة يشترك فيها الجميع؟ "نحن الجزائريين كنا جميعا

وطنيين أو كنا جميعا ثوارا" الفرق بين المعنيين هام جدا والسياسة الفرنسية أرادت استغلاله من أجل الفصل بين الثورة الاجتماعية والثورة الوطنية ولإنكار وجود هذه الأخيرة تماما. ذلك ما حدث بعد 13 ماي 1958؛ فلقد حاول مولود فرعون وصف الأجواء السائدة في أيام التآخي تحت الراية الثلاثية الألوان فقال: "تتحدثون عن الوطنية الجزائرية؟ لم يعد شيء من هذا موجودا. تتحدثون عن الاستيعاب؟ إنَّ الأمر قد حصل بعد! أنت فرنسي يا هذا! ولا شيء غير ذلك؛ فلا تحاول أن "تكسر رأسي" زيادة على اللزوم!"[75] ثم جاء عرض "سلم الشجعان" ليسمح بالأمل في أن تعود الغنم التائهة إلى إسطبلاتها. يبدو أنَّ بعض "الثوار" تأثروا لهذا النداء بشكل إيجابي: "أي نعم! كنت وقتها في التعليم المتوسط وكان عمري ستة عشر سنة حين التحقتُ بصفوف جبهة التحرير الوطني؛ وإنَّ الشيء الذي يفسر ذلك الانضمام هو الثورة ضد المجتمع ولم تكن أبدا ثورة موجهة ضد العَلَم الفرنسي؛ ولقد تيقنتُ بعد فترة قصيرة بأنني لا أتفق إلى هذا الحد مع مناضلي جبهة التحرير. في 13 ماي 1958 كنت أعتقد مع بعض الرفاق أنني وصلت إلى نهاية هذا القتال الذي لم يعد له معنى. غير أنني لم ألتحق فورا بالجيش الفرنسي. فضلّت في أول الأمر التزام مكاني ومحاولة استمالة جماعات وولايات إلى وجهة نظري لكن أُلقي القبض علي من طرف جبهة التحرير وعُذّبت مدة خمسة عشر يوما ثم لذت بالفرار والتحقت بالجيش".[76] لقد أدلى بذلك التصريح أمام المحكمة العسكرية الفرنسية حيث مثُل صاحبه بسبب انقلاب موقفه رأسا على عقب واستبدال معسكر بآخر إلى درجة أنه نشط مع منظمة الجيش السري. يورد الضباط المؤيدون لسياسة الإدماج كثيرا من

75. يوميات ص. 276.

76. ذكره الباشاغا بوعلام، في كتابه "الحركة" في خدمة فرنسا" منشورات "فرانس أمبير" 193. ص. 272 أنظر أيضا، "بلدي فرنسا" 1962 ص. 252.

الشهادات المماثلة التي أدلى بها بعض الفارين من الجبال والتحقوا بالجيش الفرنسي أو بعض المساجين كمحاولة لتبرير كفاحهم.[77] تثبت تلك الشهادات أنّ ثورة بعض الشباب الجزائري لم تكن، إلى غاية 1960، أي إلى وقت متأخر مقرونة بأي وعي وطني. لكن ينبغي الاحتراس من تعميم الأحكام.

اعتقد رجالات 13 ماي أنهم، وبأعجوبة، قد محوا مفعول اثنين وعشرين سنة من التاريخ الجزائري؛ فحين كان Jacques Soustelle يعِد بالإدماج فقد كان ينوي تنفيذ ما ورد في ميثاق المطالب التي صادق عليها المؤتمر الإسلامي في جوان 1936؛ وكان عساكر "المكتب الخامس المختصون في العمل السيكولوجي" يركزون في دعاياتهم على شعارات الجزائر الفرنسية والجزائر الجديدة نظرا لكون خلاص الجزائر الفرنسية يمرّ حتما عن طريق التجديد. كانوا يصنفون خصومهم إلى صنفين اثنين: "الفلاقة" وهم يشكلون الثلثين ثم "المثاليين" الذين يمثلون الثلث الباقي ومن المفروض أنّ هؤلاء كانوا يكافحون من أجل المساواة في الحقوق داخل الوطن الفرنسي حتى وإن توهموا بأنهم يناضلون من أجل وطن جزائري. فهذا الوطن لم يكن له وجود قط، حسبما كتب فرحات عباس نفسه، ولن يوجد إذن! ولشدة حرص هؤلاء العساكر على إقناع الآخرين بذلك فقد كانوا أول من اقتنع به؛ لكن العيب في مسعاهم يكمن في كونهم يعرفون الوطنية الجزائرية معرفة سطحية مع الإصرار على أن لا شيء يمكن أن يفضل على فرنسا.

صحيح أنّ كل جزائري يمكن له أن يتذكر الزمن الذي لم تكن فيه كلمة "الوطن" أو "الأمة" تحملان دلالة معينة. في سنة 1913؛ كان بن حبيلس قد لاحظ ذلك الجهل المعمم. وكان الشيخ بن باديس من بين الأوائل الذين تحدثوا عن الوطن الجزائري سنة 1925 حيث كانت مجلة المنتقد، التي كان

77. انظر تصريحات لياسف سعدي وزهرة ظريف، أوردها الكولونيل ترانكيي "الوقت الضائع" ألبان ميشال 1978، ص. 264.

يُصدرها، تُبرز على رأس صفحتها الأولى هذه العبارات: الحقيقة فوق كل شيء والوطن قبل كل شيء".[78] قام العلماء بجهد كبير في سبيل تعميم لفظة "الوطن" فاستفادوا من ذلك بتسمية "الوطني" التي كانت تطلق عليهم. واستعمل نجم شمال إفريقيا عبارة "الأمة" عنوانا لنشرته وكانت تعني جماعة المؤمنين وتعني بالمفهوم السياسي "الوطن". لم تعلن الوطنية الجزائرية جهرا عن وجودها إلا ابتداء من سنة 1936؛ فالتصريح الواضح لابن باديس وكذا الخطاب الأول الذي ألقاه مصالي في مدينة الجزائر قد وضعا النقاط على الحروف. ومنذ ذلك الوقت، وبالأخص ابتداء من "بيان" 1943، فإن الأحزاب والحركات الشبانية والتجمعات أمثال المؤتمر الإسلامي وأحباب البيان والحرية كثفوا جهودهم الرامية إلى إحياء الوطنية في النفوس. كانت أغاني الكشافة الإسلامية تصدح بقناعات جديدة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب.
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب.
فإذا هلكت فصيحتي تحيى الجزائر والعرب.[79]

شهد صادق هجرس على ذلك الحماس الوطني الذي أعقب ظهور البيان فقال: "بدأ التعرف على الأسماء الكبيرة التي عرفها تاريخنا يتحسن حتى وإن صاحب ذلك، في بعض الأحيان، خلط زمني لا يغتفر. كانت الأناشيد الوطنية تدوي في الأزقّة مع الاستعراضات الكشفية. لقد حلّوا محل الراقصات

78. نص الافتتاحية الأولى، عند مراد م.م. ص. 443-446؛ قداش م.م. ج. 2 ص. 910-913 أنظر كذلك مقال الشيخ بن باديس في الشهاب سبتمبر 1937، الذين أورده قداش، "الحياة السياسية في مدينة الجزائر"، ص. 335. ميني أطروحة، ص. 254-257 تبرز أولى إرهاصات الوعي الوطني منذ الفترة التي سبقت 1914.

79. قصيدة لابن باديس، الشهاب جوان 1937 وماي 1938 (أنظر مراد م.م. ص. 365).

وموسيقى اللهو في الأعراس (...) برزت المصطلحات العربية الجديدة من جديد للإشارة إلى ما لم يكن متداولا من قبل إلا نادرا مثل: الاستقلال والحرية والإمبريالية والوطن الخ. (...) ثم من أجل تنقية اللغة من الكلمات الغريبة عنها؛ وكان لذلك أثرا غريبا فالبعض منا كان يخلل الجملة العربية بكلمات فرنسية وكم لترا من الشاي شربنا مع اللوز كان يدفع ثمنها من لصق به ذلك العيب. وكم اهتزت نفوس الناس في القرية لرؤية نمط مصغَّر من مطاردة بحرية معروضة في واجهات بعض المتاجر وهي وحدةٌ أعيد تشكيلها طبق الأصل المتوفر في البحرية الفرنسية تحمل على غلافها بحروف عربية أنيقة وبارزة اسم بن باديس ويعلوها علم بالأخضر والأحمر. لا يشتري أحدهم مذياعا إلا عندما يضمن له التاجر إمكانية التقاط إذاعات الشرق الأوسط. والويل لمن تسول له نفسه أن يضع في واجهة مزدوجة اللغة الجملة العربية تحت الجمل الفرنسية". [80] إنَّ التركز الجيد للوطنية في نفوس الجزائريين هي سر نجاح انتفاضة 1 نوفمبر 1954 التي يبدوا أن دافعها هو اليأس.

إنَّ الخطأ الأساسي الذي ارتكبه أنصار الإدماج هو اعتقادهم أنَّ ذلك المدَّ الوطني ليس سوى ظاهرة طفيلية متأخرة الحدوث شكَّلتها، بصورة اصطناعية، دعاية أجنبية (عربية وحدوية وشيوعية) مستغلة في ذلك خيبة الأمل التي خلفتها نقائص وأخطاء السياسة الفرنسية. لكنها لا تترجم، بصدق، طموحات "الفرنسيين المسلمين" [81] ولم تكن الوطنية، في الواقع، تشكل أمرا مستجدا سوى بالنسبة لأوساط محدودة "متطورة" كيَّفها التعليم الفرنسي؛ أما في أوساط العامة من الأهالي فإنَّ روح المقاومة ضد الوجود الفرنسي كانت دائما موجودة. بعد أن توقفت الانتفاضات الفاشلة بسبب عدم تكافئ القوى لاذ الشعب، بعد سنة 1871، إلى الفضاءات الدينية حيث وجد صيغًا تعبِّر عن مشاعره وتمثلت في

80. هجرس م.م، ص. 45-46.

81. انظر كتاب فيليب تريبيي "فحص عام لحرب الجزائر".

"الهجرة" نحو البلدان الإسلامية المستقلة أو في انتظار المهدي الذي سوف يبعثه الله يوما ما ليعيد للإسلام مجدَه. إنَّ الأمر الجديد الذي أحدثته الروح الوطنية هو إضفاء البُعد الزمني والمكاني الواقعي على تلك الآمال الدينية ونقلُها من عالم الحلم الأسطوري إلى واقع العمل السياسي. هكذا تخطّى "المجاهدون"، من سنة 1954 إلى 1962، قرون الانهزام والإذعان الظاهري وربطوا الصلة مع تقاليد أجدادهم الذين قاوموا الاحتلال من 1830 إلى 1871.

يمكن أن يعجب المرء، انطلاقا من ذلك، كيف لم يظهر الشعب الجزائري طيلة حرب التحرير إجماعا وطنيا أكبر. ألا يكفي، لإثبات ذلك، أن نذكّر بالصعوبات التي أضعفت جبهة وجيش التحرير الوطني في فترة 1957-1960؟ غير أنَّ ذلك لا يدل على انعدام الروح الوطنية الجزائرية. إنَّ الحركة الوطنية، باعتبارها مدّاً عاطفيا، قد اصطدمت بمقتضيات الواقع الاقتصادية والعسكرية؛ ففي سبتمبر 1958 كانت أغلبية المسلمين الجزائريين قد كفت عن التصديق بإمكانية انتصار جبهة التحرير على فرنسا نظرا للإصرار الذي أبدته هذه الأخيرة للاحتفاظ بالجزائر؛ وما دام الفرنسيون هم الأقوى فإن عين العقل كانت تشير بالإذعان للقوة من أجل الاستفادة من السخاء. في هذا الصدد عبّر مراد بوربون، بكيفية جيدة، عن رأي الناس العقلاء قائلا:

كان "كل واحد منا يحلم، في العشرين من عمره، بانبعاث الزمالة وبرائحة البارود! لكن لننظر إلى الأمور بعين الواقع فهل يمكن محاربة العربات المجنزرة والرشاشات بالدبوس؟ عين العقل كان يملي علينا إيجاد فضاء للتفاهم مع أولئك الذين نسميهم أعداء. سوف نكون حتما متساوين معهم يوما ما ولكن قبل الوصول إلى ذلك يجب أن نحرص على أن تظل أحلام الطفولة سرمدية في أذهان أبنائنا".[82]

---

82. قمة الزيوج، جوليار 1962، ص. 14.

هل يمثل الشعور الوطني الجزائري مجرد حلم شبابي؟ إنّ تتابع الأحداث التاريخية أثبت عكس ذلك وكذّب تعقّل العقلاء. فالشباب الذين ليست لهم مكاسب ينبغي الدفاع عنها هم على العموم أقلُّ محافظة من أسلافهم الذين يخشون تضييع بعض الأمور؛ وكما أكدّ الملاحظون فإنّ الوطنية الجزائرية قد طبعت الشباب أكثر مما فعلته في الكبار؛ فهي لا تمثل مجرد إرث تداولت عليه الأجيال وإنما هي إبداع يعبر عن طموح يشدُّ الشباب الصاعد إلى المستقبل. في هذا المنظور يستحيل فصل الطموحات الفردية عن المطالب الجماعية؛ فالمعارضة بين الثورة الاجتماعية والثورة الوطنية كانت عملا اصطناعيا إذن.

تلك هي العبرة التي يمكن استخلاصها من النظرة التحليلية إلى المسيرة الذاتية التي أقامها الأستاذ محي الدين جندر؛[83] لقد حدّد هذا الأخير أربعة مراحل في مساره نحو تكوين الوعي الوطني: الطفولة لا تطرح القضية الوطنية "عند الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمري لم أكن أدرك لعبارة الأمة أو الوطن أي معنى ملموس"؛ يترعرع الطفل في أوساط محمية هي العائلة والمدرسة التي تقيه من الهموم المرتبطة بمصيره الشخصي مستقبلا؛ ولكن مرحلة المراهقة هي العُمر الذي يحصل فيه الوعي لدى الفرد. إنّه الوعي باستقلاليته وبطموحه ليحيا حياته الخاصة: "المراهقة كارثة" بالنسبة لكل جزائري. إنّها السّن التي تتفتح فيها الآفاق واسعة أمامنا ونكتشف خلالها بأن الحياة مليئة بالغيوم". يكتشف الشاب الجزائري في تلك السّن "وضعه كضحية" وتصطدم مشاريعه المستقبلية بعقبة الاستعمار القوي: "إنّ الواقع الاستعماري موجود هنا وإنه يعطب ويحطم الكائن منذ أن تشرق أنواره الفكرية وتتأهب قواه للانفتاح". وبالفعل؛ فإن الطموحات المشروعة للشاب الجزائري تصاب بصدمة عدم الجدوى نظرا لانسداد آفاق العمل في مجتمع

83. مدخل إلى تاريخ الجزائر، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص. 5-9.

تحت السيطرة وحيث مناصب المسؤولية كلها بين أيدي الأجانب. من هنا تحدث الأزمة: "بالنسبة للمنتمين إلى جيلي فإن الألم الداخلي الحقيقي ينبع من هنا، نقول الألم، لأنَّ الأوضاع تبدو لنا متجهة نحو آفاق مسدودة". إنَّ الحل الوحيد للقضاء على أعراض هذا المرض يكمن في الحلم ولكن إثر المعاناة من تلك التجربة القاسية: "كنا نشعر إلى أي مدى ترتبط مصائرنا الفردية بالواقع المجتمعي".

لذلك؛ فإن التطور السياسي، الذي أسرع به "البيان"، قد جاء بحل لهذا المشكل الداخلي: "كانت حقيقة الأمة الجزائرية تتأكد في نظرنا وتتحول إلى مكمِّلٍ للنقائص التي كنا محرومين منها حتى الآن". فعلا؛ إنَّ البحث عن الهوية ليس من قبيل الكماليات: "إنَّ الحصول على وطن والانتسابَ إلى أمة هو من مكونات الكينونة يساعد على التموضع وعلى تحقيق الذات. إنَّه يضفي ثوبا من الأمن والضمان على المستقبل وإمكانيات وآفاقا للعمل بالنسبة للوجود الشخصي". كانت الثقة بالنفس وضمان مستقبل زاهر تمثل الثمار الأولى لفكرة الوطنية الجزائرية؛ فالشاب الجزائري قد تخلى عن الحلم ليتفرغ إلى بناء المشاريع:

"ضمن فكرة الأمة والجزائر المستقلة كان يتبلور، في آن واحد، عطشُنا إلى تحقيق كياننا كاملا وإرادتنا في العمل؛ وفي نفوسنا كانت المشاكل السياسية، التي لم نُحسن التمييز بينها بعد، تساهم بشكل وثيق في إذكاء حياتنا الداخلية؛ وكلُّ ما كان ينفلق فينا من طموح ومشاريع وأعمال كان يجد نفسه مرتبطا بكيفية آلية بالإجابة على التساؤل الكبير المتعلق بمصير المجتمع. إنَّ فكرة انعزال المرء عن المجموعة الوطنية معناها الحكم المسبق بالفشل على كل إمكانية لنجاحه ولتحقيق ذاته كفرد".

هذا التحليل هام وأساسي لأنه يثبت أنَّ المعارضة، المسلَّم بها، بين التصورين الاجتماعيين، الفردانية البرجوازية والتضامنية الإسلامية، لا

يشكل شرحا كافيا لموقف الطلبة والمتخرجين الجزائريين؛ فالفردانية هي التي تبرز بواسطة التضامنية. كان الاتحاد مصدر القوة لمعاداة الاستعمار. ضمن الأفكار المسبقة للمجتمع المسيطر كان يُنظر إلى الأهالي باعتبارهم نسخا طبق أصل واحد ولم يكن أحد يعير لفرديتهم أي تقدير. كان سبيل الخلاص الفردي إذن غير مضمون العواقب؛ والتضامن وحده كان الكفيل بتمكين الأفراد من الأمن والفعالية في كفاحهم من أجل القضية المشتركة. تحولت الوطنية إلى حركة جماهيرية ومن المفارق أن تحدّد طبيعتها وفق الطموحات الفردية لأنها تكونت من "لحم ودم".

إنّ الصعوبات والانقسامات التي عرفتها الحركة الوطنية، بعد سنة 1945، قد أدت إلى النضج وإلى التمييز في الوعي الوطني.

"كانت فكرة الأمة متميزة عن فكرة الاستقلال: فالأولى قضية اكتشاف وتعرُّف على شعبنا والثانيةُ قضية كفاح وبحث عن وسائل وكيفيات للصراع (كفاح مسلح وكفاح سياسي ووحدة عمل)".

بعبارة أخرى: كيف يمكن تعريف الأمة الجزائرية وكيف يمكن أن نجعلها موجودة؟ إنّ القضية الثانية مسألة إستراتيجية والقضية الأولى، وحدها، هي التي تخص الغايات؛ وقد يبدو عجيبا أن يكون التعريف بالأمة الجزائرية قضية تأتي بعد أن تأكّد وجودها:

"في حدود سنتي 1949-1950؛ تيقنت بأنني كنت أحيا وكنا جميعا نحيا وفق تصور للأمة لا يتضمن مضمونا محدّدا". "ما هي بالضبط هذه المجموعة الوطنية التي ننتسب إليها؟ ما هو المزاج الذي ورثناه منها؟ ما هي القوة التي في مستطاعها أن تمكننا منها؟ عندما نتحدث عن الأمة الجزائرية فما هي الروابط التي نقيمها بين الأمة وبين كياننا الفردي؟ ما هو السند الذي نبحث عنه من خلالها وما هي الرافعة التي نطمح إلى تحريكها ؟"

هكذا إذن؛ كان سيان أن توجد الأمة الجزائرية أو لم تكن قد وجدت أبدا فهي شبيهة بإله Voltaire إن لم يكن موجودا فينبغي إبداعه. إنها مسلّمة بديهية وضرورة ودعوة إلى قلب موازين نظام اجتماعي وسياسي لم يعد محتملا؛ وهي ردّ فعل ضد وضعية القهر الذي تختلط فيه الجوانب الوطنية والاجتماعية بشكل يستحيل تفكيكه؛ فالوطنية الجزائرية لا يمكن أن تكون وطنية خالصة: إنها ثورية كذلك. قد يحوّل الاستقلال المجتمع الجزائري غير أنّه لن يضع حدّاً لمشاكله الاجتماعية: سوف يمكّنها من استرجاع ذاتيتها بالنسبة إلى القضية الوطنية التي وجدت حلها أخيرا.

لو كانت الأمة الجزائرية مفهوما عمليا تبرز قيمته من خلال اختباره فإنّ هذا الأخير يطرح قضية العلاقة بين المعرفة والعمل. ومن هنا تأتي المجازفة بخطر التفريق بين المهمتين وخطر تقسيم العمل بين المثقفين والمناضلين؛ فإذا لم يعمل رجال الفكر وإذا لم يفكر العاملون فإن القضية الجزائرية هي التي سوف تذهب ضحية لذلك. السؤال هو: كيف يمكن إيجاد الأمة الجزائرية من غير قدرة على "البرهنة للشعب بأنها موجودة"؟ وكيف يمكن له أن يجدها في غربته؟

الفصل التاسع

# طــرح المــوضــوع

كان ينبغي على المثقفين الجزائريين أن يصوغوا تعريفا للأمة التي ينتسبون إليها أو أن يخلقُوها في أذهانهم على الأقل؛ والواقع أنَّ هذه الفكرة لم تكن تشغل حيِّزًا في تكوينهم الثقافي لأنَّ منظومة كاملة من التقاليد الجامعية كانت تسعى جهدها لإثبات أنَّ الاحتلال الفرنسي لم يقم، تاريخيا، سوى بحمل مشعل الاحتلال الأجنبي، المتواصل عبر التاريخ، في هذه الربوع؛ ولئن كان الجنرالات قد ذكروا، في كثير من الأحيان، مقاومة "الجنس العربي" فإنَّ شهادتهم لم تكن تعادل، من حيث الأهمية، تلك الأفكار السائدة في أوساط المستوطنين؛ وإنَّ النفي القاطع لوجود أمة جزائرية، من طرف فرحات عباس الذي يُعتبر من أشهر قُرَّاء ما كتبه الجنرالات من سيَر، لخيرُ دليل على مبلغ هذا النسيان. كان فكرُ المثقفين الجزائريين، في بداية الأمر، فكرا فرنسيًا بالدرجة الأولى.

## أ) تصوُّرٌ خاص لماهية فرنسا

تقعُ على عاتق المثقفين الجزائريين مهمَّةُ تحديد طبيعة انتمائهم الوطني؛ آخذين علاقتهم بفرنسا بعين الاعتبار، قبل كل شيء، ولم تكن هذه المسألة مرتبطة بتكوينهم الثقافي فحسب ولكنها، بالخصوص، من فِعل

أساتذتهم الفرنسيين الذين دفعوهم صوب ذلك المنحى الفكري. كان عليهم أن يختاروا: إما أن يكونوا أنصارا للفرنسيين أو "أعداء لهم"؛ ولقد ساد في الأوساط الاستعمارية عُرفٌ يقضي بإطلاق نعت "مُناهض الفرنسيين" على كل أهليٍّ يتطاول إلى التشكيك في مشروعية السيادة الفرنسية على بلده: وفي نفس هذا السياق اقترح أحد دارسي التاريخ، سنة 1939، إطلاق صفة "قومي" على كل أهلي يعادي تلك السيادة وإطلاق صفة "وطني" على كل أهلي يتقبّلها. يحاول هذا التمييز إخفاء فكرة مفادُها أنّ "الوطنية" الجزائرية أمرٌ لا يمكن تصوُّره بينما صفة "القومي"، بالمعنى المستهجن للكلمة، يمكن أن تحمل دلالة عن الانتماء إلى حركة مستلهمة من الوحدة العربية والإسلامية: أما الوطنية الحق، أي تلك التي لا تقصي القيم العالمية، فهي من غير شك حكرا على فرنسا.

إنّ الغرض المنشود هو تكذيب تلك الأحكام المسبقة؛ حين أبرز "إ.ع.ط.م.ج." في مستهل نشرة "الطالب الجزائري" تصريح الشيخ بن باديس القائل: "إننا نطمح، من خلال عملنا لصالح الشعب الجزائري، إلى خدمة البشرية بأكملها وإنّ إنجازنا القائم، قبل أي شيء، على احترام فكر وأيديولوجية كل شعب وتأييد كل ما يساهم في إسعاد البشر"[1] ويمكن إضافة أن الروح الوطنية الفرنسية كانت موجودة بالفعل وكانت تعبِّر، إبّان عهد الثورة والإمبراطورية، عن عزّة "الأمة الكبيرة التي تعوّدت على الانتصارات" وكانت تلك الروح موجودة أيضا بعد الهزائم المخزية خلال سنوات 1814-1815 و1870-1871 كتعبير عن إرادة الأخذ بالثأر وكانت نفس الروح موجودة من 1914 إلى 1918 ومن 1940 إلى 1945 عندما تعلّق الأمر بمقاومة الإمبريالية الألمانية. لقد خاضت الوطنية الفرنسية الحروبَ الأخيرة وهي تحاول، دون جدوى، الاحتفاظ بالإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية وبالجزائر الفرنسية.

1. "الشهاب" جانفي 1937، ذكره أ مراد، م.م. ص. 382-383.

ويبدو أنّ ذات العبارة قد تحمل دلالات مختلفة، بحسب اختلاف الظروف، فهي تدلّ إما على طموح الدولة الوطنية إلى السيطرة على دول أخرى أو تدلّ على إصرار الأمة ذات السيادة على الاحتفاظ باستقلالها ووحدتها الترابية و تدلّ، أخيرا، على طموح "جنسية" مُسَيطَر عليها إلى أن تتأسس كأمة حرة؛ فالوطنية إذن لا تدل، بالضرورة، على توجُّهٍ إمبريالي بل يمكن أن تكون دفاعية فقط وبالخصوص في ظروف الاحتلال والسيطرة الأجنبية. كان عبد القادر بونعجة، وهو من أبطال حرب التحرير الشباب (توفي في الجبل سنة 1957) كان يتخذ مقولة Charles Maurras شعارا له ومفادها: "أنّ أغلى الحريات البشرية هي استقلال الوطن" وأنّ عبارة "المقاومة الجزائرية"، بدلالتها الحرفية، مستنبطة من المقاومة الفرنسية.

## 1- رفضُ السيادة الفرنسية

كانت الوطنية الجزائرية تتجلى في رفض السيادة الفرنسية إلى يوم قيام الانتفاضة المسلحة. فهل يعني ذلك أنها حركة معادية لفرنسا؟ هذا أمر محتمل ولكنه غير مؤكد على الأقل بالنسبة للطلبة وللمثقفين الفرنكوفونيين.

نورد فيما يلي نبذة عن مشاعر العداء لفرنسا والتي يمكن اعتبارها نموذجا لتعريفٍ محتمل وهي مقتبسة من دفتر المذكرات الشخصية لأحد المسئولين السياسيين في منطقة المدية، سنة 1959، يقول فيها: "غايتي هي أن أحطم عدوي نهائيا؛ وأن أحطم منجزاته وعتاده وأقضي على أولاده ورجاله وأنتزع منه جميع ما يملك وأريد أن أكون نحسًا عليه؛ أريد أن أحطم أشباحه وأحرقها وأدوس عليها برجلي وأقتل وأقتل وأشرب حتى الثمالة من دم أولئك الفرنسيين الذين أودُّ حرمانهم من متعة الحياة وطردهم من الجزائر أودُّ أن أحرقهم بنار تتلظى شعلتها الكهربائية الشديدة وكأنما تخرج من أودية الجحيم.

إنَّ قلبي يفيض حقدا؛ فأنا أكره الفرنسي وأكره أولاده وسوف أظلّ أكره أجياله المقبلة؛ وأريدُ أن أركض وأقفز وأضرب وأطلق النار لأرديه بدون شفقة أو رحمة وأريد أن أذبح وأن أصرخ وأصرخ حتى يبحَّ صوتي بسبب ما أضمره من أحقاد.

أريدُ أن تهطل على "ماريان" جميع المشاعر المحرقة وعلى أولادها الملعونين وعلى بلدها وعلى مدنها وقراها وعلى جبالها وسهولها... عليها اللعنة...فلتقع في براثن الفوضى وتتردى أحوالها الاجتماعية وقوتها المادية والأخلاقية؛ وتصل إلى حد الفناء التام".[2]

لا داعي للذهاب إلى أبعد من هذا الحد لإدراك كيف تسببت بعض التجارب القاسية، خلال الحرب، في إثارة ردود الفعل الحاقدة على فرنسا.

هذا أحد الجزائريين، من مواليد حي القصبة بمدينة الجزائر في سنة 1943، درس في ثانوية Guillemin (ثانوية عقبة حاليا)، في حي باب الوادي، وترعرع في بيئة اجتماعية تميّزها علاقة صراع وصدام بين "فئتين مصابتين بداء الكلب وهما دائمتي الاستعداد لانقضاض إحداهما على الأخرى" إنَّهما طائفتا الأوروبيين والمسلمين. لقد اضطُر ذلك الشخص إلى الهرب من بطش "منظمة الجيش السري"، سنة 1961، التي كانت "تهدّد بقتل كل مثقفينا وجميع من ناضل في صفوف جبهة التحرير"؛ وعند لجوئه إلى مدينة Thonon اكتشف وجه "فرنسا الحقيقية" فقال: "هذه أول مرة في حياتي أتواجد فيها مع الفرنسيين؛ فعندما وصلتُ إلى هنا قلت في نفسي: "هؤلاء القومُ ذوو أصول فرنسية أصيلة وليسوا من صنف الحثالة الموجودة في مدينة الجزائر فلا ينبغي عليَّ أن أمقتهم" وأخذتُ أبادلهم الحب وراحوا يبادلونني نفس المشاعر،على ما أعتقد، وكنت أشرح لهم حقيقة حرب

2. شيام وثيقة. 3614 ص. 27.

الجزائر ولأي سبب كان الناس يموتون بالآلاف وأصف لهم ما يُميّز المستوطنين والاستعمار من بشاعة وتوحُّش وانعدام القيم الإنسانية وأحدثهم عن شعبي المكبَّل والرَّازح تحت سطوة التعذيب والمهانة والمسخَّر كالحيوان. كنت أحاول أن أبيِّن لهم أن الثورة الجزائرية قضية نبيلة وإنسانية وكانوا يومئون برؤوسهم علامات الموافقة على ما أقول وكنت سعيدا. كنت أحبهم حقا.

لكنني تيقّنت، بعد مدة، من أنني لم أكن أرى منهم سوى وجها واحدا فحسب؛ فلقد كانوا يومئون لي برؤوسهم من قبيل التأدُّب فقط؛ فبينما كنت أتحدث معهم ذات يوم إذا بأحدهم يسألني قائلا: "لماذا ارتكاب كلّ هذه الجرائم؟ هذه نسوة مغتصبات وهذا أخي مات في الجزائر سُدًى فلماذا كل هذا؟ لماذا تقتلون؟" شرحت له أن لا مناص من الردّ على الجريمة بغير الجريمة وأنّ الزمن الذي يجب أن نقدم فيه الخد الأيسر عندما نُلطَم على الخدّ الأيمن قد ولّى وشرحت له أنّ جميع دول العالم (وبالخصوص فرنسا) قد وُلدت وانصهرت في أتون الدم والنار فأجابني قائلا: "أتريدون الاستقلال؟ خذوه إذن وأريحونا من همكم".

أربكني ذلك الجواب فتساءلتُ في نفسي هل أنا حقا بحضرة واحد من أولئك الفرنسيين الأذكياء؟ كم وددت،حينها أن أقتله ثم أُقطِّعه إربًا. إن هذه الوقائع وما شابهها هي التي حولت مشاعري إلى كره الفرنسيين فلقد ترعرعتُ بين أحضان الحرب وكبرتُ خلالها ولم أذق طعم السعادة يوما ولقد حدث نفسُ الأمر لآبائي وأجدادي ولكن لم يحدث مثلُ ذلك للفرنسيين.

كانت أحاديثنا، نحن المسلمين الجزائريين، تدور دوما حول الأحداث الجارية والمداهمات العسكرية ووقائع الحرب وأخبار التسليح وأنواع البنادق الرشاشة والقنابل اليدوية والمتفجرات والطائرات وقنابل النابالم... أما أحاديث الفرنسيين فكانت تخوض في قضايا الأدب والفلسفة... حين كان

الرجال، مثل الكلاب، يهمّون بقتلي في الأزقة كان الفرنسي يتصفح حكايات Soraya ومآثر Sacha الجميل وما يأتيه من خوارق؛ وعندما نحدّثه عن الجزائر يُجيب: نعم إنَّ الحق بجانب الجزائريين ويجب أن تتوقف هذه الحرب الخ... ثم يتكئ على أريكة لتناول فنجان قهوة. أنا أكره الفرنسيين لأنني أجد فيهم تلك اللامبالاة التي يتفاوتون في براعة إظهارها وأكرههم لأنني أغار من رغد عيشهم ولأنهم أغنياء ولأنهم يسحقونني. أكرههم لأنهم متواطئون مع حكومة متواطئة مع منظمة الجيش السري. إنني أمقت الفرنسيين لأنهم حين يخرجون أول مرة للتظاهر يصيحون بصوت عال: "رجال الجيش السري مجرمون!" وعندما تواجههم عصي الشرطة يعودون إلى ديارهم هادئين منضبطين (...) إنني أمقتهم لأنهم لا ينزلون إلى الشارع في الغد مسلّحين ليصدحوا بالقول الفصل: لا! أيها الفرنسيون يجب أن تتحركوا ويجب أن تفهموا أنَّ الاستهانة بالجزائر تعني تعاسة فرنسا؛ فلا ينبغي الاكتفاء بمعاينة الأحداث فحسب بل يجب أن تفعلوا شيئا(...) يجب أن تتحملوا المسؤولية. من أجلكم ومن أجلنا".[3]

يكشف هذا النص عن أن الكراهية المضمرة ضد فرنسا ناتجة عن خيبة الأمل بعد تجربة حب؛ ففي البداية كانت لدى المؤلف صورة راقية عن فرنسا والفرنسيين "الأذكياء والمتفهمين" وحيث أنَّ تجربته اليومية كذّبت تلك الصورة فقد حاول المحافظة عليها عن طريق التمييز بين "الفرنسيين الحقيقيين" وبين "حثالة مدينة الجزائر" ولم ينفجر الحقد في نفسه إلا عندما تبيَّن له أنَّ الفرنسي، المقيم في فرنسا، لم يكن جديرًا بالمكانة الرفيعة التي وضعه فيها وأنه كان "يتردى". كانت فكرة التمييز بين نوعين من فرنسا فكرة كاذبة غير أنَّ مشاعر الكراهية لم تكن متأصلة فيها بصورة نهائية لا رجعة فيها؛ فكيف يمكن لنا أن نتوجه إلى أناس قد يئسنا منهم؟

3. "ليكسبريس" جانفي 1962.

يمكن استخلاصُ نفس النتيجة من مرارة ما تضمَّنته رسالة وجّهتها زهرة ظريف إلى محاميها حيث تقول: "هل تُسحق ثورتنا؟ هذا أمر مستحيلٌ... أليس كذلك؟ إنَّ بلدنا يشهد تطورا عاديا وحتميا، بالمعنى الفلسفي للكلمة، غير أنَّ الجيل الصاعد الذي عاش الألم والكراهية سوف يكون أشدَّ قسوة وأقلَّ تسامحا منَّا؛ إلى درجة أنَّه سوف يصدر حكمه ضدنا ويؤاخذنا على تراخينا وتعاطفنا مع الفرنسيين الذين لم يترددوا في معاملتنا بتلك الطريقة المهينة. أنتم تدَّعون أنكم عانيتم الاحتلال الألماني... أليس كذلك؟ بلى! لقد عانيتم أشياء بشعة أما نحن فإننا نتألم، معنويًا وماديًا، منذ 127 سنة خلت! لماذا أستعمل عبارة "فرنسيين" عوض عبارة "مستعمرين" كما جرت العادة؟ ذلك أنني أصف الواقع بكل ببساطة؛ فلا شيء يثير عواطفي أكثر من راحة البال التي يعيشها المثقفون الفرنسيون والدليلُ على ما أقول واضح في الفرق الذي نلمسه في مواقفهم المختلفة وفي ردود أفعالهم المتباينة؛ حين يتعلق الأمر بالأزمة الجزائرية أو بالقضية المجرية؛ فلو صدقوا أنفسهم لما كانت أحكامهم ذاتية، بمجرد أنَّهم فرنسيون، وهم يدّعون أنهم يصدرون أحكامهم باسم المبادئ الإنسانية. إنهم هم المتسببون، إلى حدٍّ كبير، في اللامبالاة التي يعرفها الرأي العام في فرنسا. سوف ننتصر لأننا نملك الإيمان ولا نعرف الحقد".[4]

لم يصمد التفريق الكلاسيكي بين فرنسا والاستعمار أمام الأمر الواقع؛ فالوطنية الجزائرية لم تكن تواجه المستوطنين فقط وإنما كانت تواجه الدولة والأمة الفرنسية أيضا ومع ذلك؛ فإن فكرةً ما، عن ماهية فرنسا، بقيت محفوظة في ذهن المثقف الجزائري: إنَّها فكرةٌ تتعلق بالتراث الثقافي ذي البعد الإنساني الذي لا يمكن سلخه عن الأمة التي صاغته. إنَّ التفريق بين نوعين من فرنسا باقٍ ولكنه فقدَ طابعه المادي الجغرافي؛ ففي ذهن المثقفين كانت فرنسا، المعنوية، تتعارض مع فرنسا الزمنية.

4. كيسيل وبيريللي، م.م. ص. 175-176.

الحاصل أن من الصعب على الطالب الجزائري معاداة فرنسا مهما بلغت خطورة الاتهامات الموجهة ضدها ويعبّر مالك حدّاد عن تلك الصعوبة كما يلي:

- "حديثُك يشبه أحاديث الوطنيين

- لستُ أدري هل أنا وطنيٌّ أم لا؛ ولكن ما أعرفه جيدا هو أنني جزائري بل وأخشى حتى من كوني، زيادة على ذلك، قد تحولْت إلى شيء آخر..."

"لم يجرؤ سعيد على التصريح بأنه يخشى أن يكون قد تحوّل إلى إنسان معاد لفرنسا؛ فجميع الأسباب كانت تدفعه إلى ذلك ولكن المنطق كان يحول، في أغوار نفسه، دون البوح بذلك. تتولّد المشاعر العنصرية الأولى في النفس عندما يتحول الغضب إلى مقت هادئ ولكن سعيداً لم يكن قد وصل بعدُ إلى ذلك الحد" [5].

## 2- كيف يتم استيعاب الثقافة الفرنسية.

رغم ظروف الحرب يبدو أن الشهادات الصادرة من ذهنية العداء لفرنسا كانت نادرة عند المثقفين الجزائريين، الفرانكفونيين، وعلى عكس ذلك؛ فإن عبارات الودّ والتقدير تجاه فرنسا متوفرة بكثرة وهي صادرة؛ بالخصوص؛ من طرف أولئك الذين حملوا السلاح ضدّها على ما يبدو. فكيف يمكنهم تبرير تلك المفارقة التي يعيشونها؟ كانوا ينفون أنهم ثائرون ضد فرنسا. لقد صرحت فضيلة مسلي بحضرة القضاة:

"يجب أن أضيف القول، إحقاقا للحق، أنني تصرّفت مراعاة لمصلحة بلدي ولم أتصرّف ضدّ فرنسا؛ فعليكم أنتم أن تفصلوا في كون مصالح فرنسا متناقضة مع حرية الجزائر أم لا" [6].

بل أكثر من ذلك؛ لقد كانوا يفكرون مثل جان عمروش حين يقول :

5. "الانطباع الأخير" جوليار 1958، ص. 32.

6. كيسيل وبيريللي، م.م. ص. 132.

"إن مسألة حرية البشر والشعوب تمتزج بالضرورة مع القضية التي صاغتها فرنسا ذاتها بقطع النظر عن موضع أو شكل مناقشتها؛ ففرنسا هي الحرية؛ وحيثما وقع الاعتداء على الحرية أو تمّ اضطهادها فذلك بمثابة اعتداء على فرنسا واضطهاد لها. إن بعض القوى الفرنسية هي التي تعتدي على الحرية وتضطهدها؛ وإن فرنسا، من خلال تلك القوى، تعتدي على نفسها. إن الذين يحاربون من أجل الحرية، مهما اختلفت أسماؤهم، إنما يحاربون باسم فرنسا ومن أجل فرنسا؛ وإن انهزام الحرية في الجزائر هو انهزام لفرنسا وانتصار الحرية فيها إنما هو انتصار لفرنسا".[7]

ها نحن نطّلع، عبر هذه الجمل، على إنجيل الجمهورية الذي تمّ تلقينه في مدارس الجمهورية الثالثة وترك بصمات عميقة في أذهان التلاميذ الجزائريين. إنّ أهمّ تواريخ الجمهورية الفرنسية هي أحداث 14 جويلية وليلة 4 أوت 1789 ولقد تركت تلك التواريخ أثرا عميقا في الشعور الظاهر والباطن لنخبة الأهالي ممن مروا عن طريق المدرسة الفرنسية. ففرنسا المعروضة في الكتب، أي فرنسا الثورية والديمقراطية، كانت تقف بجانب الثورة الجزائرية. تلك هي قناعة محمد العربي ماضي حين قال: "إن تحقيق أمانينا المشتركة في أن يسود السلام العادل مرتبطٌ، إلى حدّ بعيد، بالجهود التي ينبغي على جميع الديمقراطيين الفرنسيين بذلُها في هذا الاتجاه؛ إن للدراما الجزائرية أوجه عديدة ومعقّدة؛ ولكنني أعتقد أن ما لا يتوفر في بلدنا، بالقدر اللازم، هو التفاهم الضروري بين الناس. إن الأفراد هنا متجاورون باستمرار ويتبادلون عبارات المجاملة والاحترام وينظر بعضهم إلى بعض ثم يصدر كل واحد منهم حُكمه على الآخر من غير أن يحصل تفاهم متبادل بينهما. ذلك، في رأيي، هو لبُّ العلاقات السائدة بين المسلمين والأوربيين في الجزائر وهذا وحده يشكل معطى كافيا للحكم على فساد نظام ما.

7. "لوموند" 30-03-1957.

سوف تحتفلون في باريس، عمّا قريب، بذكرى 14 جويلية 1789 وسوف نكون حاضرين معكم بأفكارنا لأننا ننتمي إلى فئة الناس الذين لا ينسون. إنّ مثل تلك الذكريات تعزّز إيماننا وتبرّر آمالنا".[8]

إن العبرة التي تمثلها فرنسا هي أيضا، حسب رأيه، المبدأ الذي يؤسس عمل الوطنيين ويبرّر الثورة ويبيّن السبيل التي ينبغي إتباعها للوصول إلى تحقيق التصالح:

"لا يمكن تصوّر السلام الحقيقي والدائم إلا في إطار المبدأ الكبير الذي يمنح الشعوب حقّ تقرير مصيرها بنفسها؛ ولا يمكن أن تسود علاقات الثقة والأخوة الفعّالة بين الشعوب على أسس غير هذه، مهما بلغ تنوّعها، ومن المؤسف أن يتسبب سوء التفاهم في تحويل ثراء التنوع إلى عداوة وكراهية وحرب بسبب تخوف البعض من أن يفرض عليهم البعض الآخر آراءه.

سوف يظلّ ذلك التخوف قائما ما دام العالم مُسيَّراً من طرف القوى الإمبريالية؛ غير أن الإمبريالية، لحسن الحظ، في طريق الزوال بفعل صحوة الشعوب ومبلغهم من النضج الذي تحييه مُثل الحرية والديمقراطية. إن سنة 1789، بالنسبة إلينا نحن المناضلين الوطنيين الجزائريين، محفوظة في نفوسنا إلى جانب العبر التاريخية الأخرى بكل ما لها من قيمة وأهمية؛ فنحن نطمح إلى أن ننعم بحياة القرن العشرين ونساهم مع الشعوب الحرة الأخرى في إثراء المنجزات الإنسانية.

إن الحرية التي نطلبها معناها فتح المجال للأجيال القادمة لكي تتفتح وتتطور في أجواء أقلّ تعاسة؛ وإن مطالبتنا بالحرية تعني أيضا أن على بلادنا أن تنفتح، مع الاحتفاظ بشخصيتها، على كل الاتجاهات الفكرية المعاصرة وتسير من غير مظالم في طريق التقدم الاجتماعي والتقني. أقول "من غير

8. رسالة 7/07 1956 كيسيل وبيريللي م.م. ص. 68.

مظالم" لأن الجزائر حققت في الواقع منجزات معتبرة ولكن في إطار النظام الكولونيالي حيث كان التقدمُ امتيازا للبعض دون الآخرين وتحوّل إلى أداة للسيطرة على الجماهير الشعبية وهذا لا يمكن أن نطلق عليه اسم التقدم بل إنه الرجعية.

إن شعبنا يثور ضد حالات مثل تلك؛ وإنّ أغلى أمنياتنا هي أن يفهم الآخرون طموحاتنا وأن يتحقق الحل العادل للدراما الجزائرية. إن فرنسا والجزائر مدعوّتان إلى التعاون على أسس جديدة لصالح الشعبين".[9]

وتبدو رصانةُ هذه الرسائل غير طبيعية: فالقطيعة بين الفكر والواقع كانت أمرا معروفا منذ نشوب الحرب ولا يمكن تصوُّرُها إذن من غير تمزّق؛ ويشهد أحمد طالب على ذلك في كتابه "رسائل من السجن" حيث يقول:

"إنني أنتمي إلى أولئك الشبان الجزائريين الذين توصّلوا، وهم على مقاعد الدراسة بالثانوية أو الجامعة، إلى تكوين تصوُّرها عن فرنسا: وهو تصوُّر يكذّبه الواقع اليومي؛ إنه تصوُّرٌ تسبّبت الأحداث الجارية في خلخلته نهائيا وبشكل فظيع؛[10] (...) إنني معترفٌ لكم بالجميل إذ تفضلتم بتعزيز الفكرة التي رسمتُها في نفسي عن فرنسا وربما حدث لي أن تفوّهتُ، في هذا الشأن، بكلام قاس ("فالبائسُ لا يُحسن التسديد"). ومع ذلك؛ أرجوكم أن تصدقوني فلقد تعرّفت على شيء في نفسي، عندما كنت في السجن، إنه عدم كفاءتي في إضمار الحقد".[11]

"لا يمكنك أن تتصور مبلغ التأثير الذي أحدثته رسالتك التي كانت تهدف، حسب ما يبدو لي، إلى إذكاء شعلة في داخلي كانت تخبو وتميل إلى الانطفاء: إنها ثقتي في شعب فرنسا.

9. رسالة 29-12-1956 ن.م. ص. 68-69.

10. "رسائل من السجن" الجزائر 1965 ص. 43.

11. ن.م. ص. 48.

لقد كنتُ أؤمنُ بوجود فرنسا "حقيقية" تعارض تصرفات فرنسا "الرسمية"؛ وكنتُ مؤمنًا بوجود شعب فرنسي وفيٍّ لتقاليده الثورية والديمقراطية... شعب سوف يقول لا للوسائل الوحشية التي يستعملها حكّامُه... شعب سوف يضع حدًّا لحرب الجزائر وما تنطوي عليه من فظاعة وخراب.

لقد انتظرت طويلا ردّ فعل نبيل من طرف شعب فرنسا الذي تتحدث عنه؛ وأصارحك القول بأنني لم أعد أنتظرها؛ وأعترف لك أيضا بأنني أجد صعوبة ما فتئت تتضاعف يوما بعد يوم في التمييز بين فرنسا الحقيقية وفرنسا الرسمية. إنني أبحث عن فرنسا التي قرأتُ عنها في المدرسة فلا أجدها إلا لدى بعض الفرنسيين الذين تحمرّ وجوههم خجلا من كونهم فرنسيين عندما يتعلق الأمر بحرب الجزائر.

هؤلاء الفرنسيون وهؤلاء الأحباب (...) كانوا عالقين بذاكرتي يوم 14 جويلية المنصرم[12]"... " أتخيّل أن هناك فرنسيين يصرّون على تحطيم "الفكرة المثالية عن فرنسا" بينما يسعى الآخرون جادين لاستدامتها. تلك هي الازدواجية الغامضة التي تميّز دائما هذا البلدص!ولقد صدق سنغور حين صاح: "يا إلهي؛ اغفر لفرنسا قولها المستقيم وسلوكها المنحرف!"[13]

مما زاد من صعوبة تحمل هذا الألم هو كونه يصدر عن دراما يمكن أن نقول عنها، مجازا، بأنها خصومة "عائلية"؛ وأجمل شهادة على تلك الروابط الحميمة بين الجنسيتين تتضمنها رسالة بعثها حكيمي إلى أخيه يقول فيها: "إن فرنسا تُقصي نفسها تدريجيا من قلوبنا. لقد فضّلت أن تتولى مخلّفة

12. ن.م. ص. 22. نلاحظ عند أحمد طالب كما هو الأمر عند فرحات عباس، خلطا غريبا بين ميراث المدرسة الجمهورية وميراث شارل موراس : وهو دليل على النخبوية الأيديولوجية لدى العديد من المثقفين الجزائريين.

13. ن.م. ص. 61.

وراءها مجرّات من الدماء والدموع والدمار؛ فهذا الشهر المحرّم، شهر الهدنة، قد حمل إلينا من جديد نصيبه من الضحايا والأرامل والأيتام واللاجئين. لا يمكن أن نحمل الناس على الحضارة بالتعذيب وبالمقابر الجماعية ولا يمكن أيضا أن نستمسك بالحياة ونحن مصرّون على معاكسة التاريخ. نحن أبناء فرنسا الروحيون نُبقي أعيننا جاحظة وهي تنظر إلى حالتنا وإلى واقع العصر؛ ولذلك فإننا نألم لأن قلوبنا تتقطع أسًى للمشهد الدامي الذي يبرز فرنسا وهي تقتل وتقتل في عصر القارات والتعاون الدولي. إن من باب الانتحار أن يدّعي مدّعٍ تأسيس سياسة موضوعية وفعالة على أسس ذهنية متعصبة وإمبريالية (أو أبوية)؛ ونظرا لمختلف العقد التي أصابت الإنسان الفرنسي، جراء تسلسل الهزائم في الربع الماضي من القرن، فالأمر يبدو وكأن طاقاته الإبداعية في التفكير وفي الشجاعة والمبادرة قد تراجعت. إنه يتغذى بالكلمات ولا شيء غير الكلمات مثل: الاتحاد الفرنسي أو توسيع الفضاءات الآمنة أو القانون الإطار. تلك عبارات جوفاء لا ينمّ ظاهرُها عن حقيقة باطنها الشيطاني؛ وإن الكذب والحقد، وهما الصفتان اللتان ترعيان الجريمة والشقاء، قد انتُخبتا لتولي السلطة! فحيث ينبغي أن نستعمل الحساب والعقلانية والأشياء التي أثبت التاريخ صلاحيتها فإننا لا نجد سوى ردود الفعل المبنية على الادّعاء والغضب والحماس والتجاوزات والتهور.

وعوض أن نعمل، بشجاعة، على إرساء أُسس الشراكة التي تجمع فرنسا بدول ما وراء البحر، غداة انهزام النازية وانتصار الديمقراطية الغربية وغيرها، فإن أدعياء السياسة، الفرنسيين، وحكام باريس وغيرها من الآفاق وبعد أن أصابهم القرح بسبب ما لاقوه من الاحتلال ومن حكومة Vichy وبسبب الضربات النكراء والقاسية في الحرب العالمية الثانية قد حاولوا تخفيف إحساسهم الوطني المفجع وذلك بسلّ السيف في وجه الشعوب التي ظلّت مخلصة ووفية. تلك الشعوب التي يدّعون إحلالها بجانب فرنسا في كنف

الصداقة والمساواة. لئن أرخى الحكام الفرنسيون العنان للعسكر فلأنهم اختاروا سلوك سياسة النعامة؛ ومن المعروف أنّ تجاهل المشاكل والصعوبات ليس بالأمر الذي يساعد على تبديدها بمفعول سحري. حين حلّت ساعة الاختيار الحاسم لم تعرف فرنسا أين تحلّ خيارها بين ماض انقضى ومستقل ينتظر أن يؤخذ بزمامه؛ ولا يمكن للحرب أن تكون خيارا؛ بل هي فرارٌ من تحمل المسؤولية؛ إنها الإذعان لقدرية الأحداث. وحين نفعل ذلك، في بلد ديكارت، أي حين نختار القدرية والانهزامية كأسلوب للحكم فمعناه أننا نرتقب مصيرا أدهي من مصير بيزنطة ومعناه أيضا أننا قد عرضنا روما للبيع بالمزاد ومعناه أن البلد الأم قد تعرّض للتلف لأن الحرب سوف تحرق أوراقه الرابحة المتمثلة في بلدان المغرب والصحراء وإفريقيا السوداء.

تكمن مصيبتنا في كون فرنسا صارت تشكّ في نفسها ولم تعد تثق في يُمن طالعها؛ و إلاّ؛ فليس ثمة ما يبرر ذلك الخلط وذلك التردّد والتصرف العشوائي وتلك الأخطاء التي تعتبر، منذ خمسة عشر سنة خلت، سلوكا محبطا يصدر عن أمة لا تزال تملك حظوظا للسيادة. نحن نبحث عن الاطمئنان حين نصلي من أجل السلام ومن أجل أن تُقبل فرنسا، في انتفاضة جديرة بعبقريتها الليبرالية، على وضع خيارها في مستقبل فرنسي - مغاربي فتُدرك كيف تتعرف على أصدقائها الحقيقيين وحلفائها. إنّ مصيرها وقدرها لا يتمثلان فقط في محور الراين ولكن عبر البحر أيضا. فلتبادر إلى ذلك بسرعة. إن التاريخ علّمنا أن المحتل يمرّ والصديق يبقى".[14]

كان من الممكن أن يقدم ذلك التعلق بعظمة فرنسا كعربون لأغلبية الفرنسيين. لكن شاءت سخرية الأقدار أن تكتب هذه الرسائل داخل زنزانات سجوننا من طرف كتّاب زجوا فيها بسبب نشاطاتهم "المعادية لفرنسا".

---

14. العمل 2-6-1958.

ولنذكّر بأن كلا من أحمد طالب وحكيمي كانا يمثلان نزعة "العلماء" المصنّفة في خانة "معاداة فرنسا" بسبب ارتباطها بالعروبة ومعارضتها الاستيعاب. فلا يمكن لنا، في الواقع، أن نقيم أية معادلة بين الوطنية ومعاداة الثقافة الفرنسية؛ و لم تُثبت الأدلّة أنّ "الراديكاليين"، في هذا الصدد، كانت لهم على العموم مواقف أقلّ تفتّحا من المعتدلين.

سجّل تقرير جويلية 1946 حول الطلبة الشمال إفريقيين في باريس، منذ ذلك الوقت، أن موقفهم إزاء فرنسا واحد تقريبا مهما كانت نزعاتهم (...) فهم لا يناقشون الفضائل الفكرية الفرنسية التي يتمسّكون بمزاياها بشدّة غير أنهم يعارضون السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا. كلهم يناهضون الاستعمار(...)".

إنهم لا يرضون أن تُقبل فرنسا على استعمال إغرائها الفكري الذي لا يُشك في روعته، كوسيلة مساومة سياسية، وأن تحوّل إمبراطوريتها المعنوية إلى إمبراطورية زمنية مربحة؛ ونظرا لادّعائها بأنها تعتبر نفسها "حامية المُثل" وخادمة القيم الإنسانية فليس لها الحق في أن تنحرف عن ذلك لخدمة الإمبريالية خاصة. ذلك ما عبرت عنه المقالة المعنونة هكذا: "رد فتاة انهارت أحلامها" وهي مقالة نُشرت في الدورية الناطقة باسم "و.ط.م.إ.ش." كجواب على مقال تصدّى لمعالجة تطور المرأة المسلمة بفضل المدرسة الفرنسية:

"لا ينبغي أن ننسى أن مقالة السيد Lebois لم تنشغل بتطور المرأة العربية ولا بالصعوبات التي تواجه الطالبة المسلمة إلا من أجل إثبات أن الطلبة يحتفظون "بولائهم". وبعد أن ساءل نفسه: "هل هن فرنسيات؟" متحدثا عن تلك النساء "الفرنكو - مسلمات" فإن كاتب مقال "البسمة" يصرّح بأنه مطمئن على ذلك حين قال: "لا يُعقل أن ننقلب ضد من يقوم بتغذية أفكارنا وضد شعب ننظر بإكبار إلى تاريخه وآدابه وفكره. بل إن الأمر عكس ذلك تماما لأننا ننسبه إلى أنفسنا"؛ ولكن هذا الأمر بديهي فأي ذنب اقترفه في حقنا

أولئك الفلاسفة والكتّاب أو كبار رجال السياسة الفرنسيين كي نصل إلى حدّ الانقلاب ضدهم؟ نحن معجبون بهم لا بسبب الجنسية التي ينتمون إليها لكن للقيم التي يمثلونها. نحن معجبون بالثقافة الفرنسية ولقد اتخذناها تراثا لنا. لكننا نعرف كيف نفرق بين الثقافة الفرنسية والنظام الاستعماري وهذا نابعٌ، بالخصوص، من حرصنا على أن تبقى بعض التقاليد الفرنسية الأصيلة محافظة على نقاوتها وهي : الروح الجاكوبينية (التمسك الحازم بالجمهورية) والديمقراطية الفرنسية الثابتة والشعور الجمهوري الفرنسي. نحن نظل أوفياء لهذه الروح التي انتصرت عند الإعلان عن حقوق الإنسان".15

كان الطلبة المسلمون يرفضون الخلط بين الثقافة الفرنسية والسيادة الفرنسية؛ التي كانوا، منذ سنة 1943، يعتبرونها جزءا من النظام الاستعماري ولقد ندّدوا بسياسة الاستيعاب القديمة واعتبروها خدعة لأنها تفرض على الأهالي أن يتشبهوا بالمواطنين الفرنسيين قبل أن يكونوا على قدم المساواة معهم. لقد تم التخلي عن هذا التصور رسميا سنة 1944؛ لكن الطلبة ظلوا يعتقدون أنه لا يزال يشكّل مصدر استلهام السياسة الفرنسة بخصوص الجزائر؛ وذلك في صيغ ظاهرها جديد؛ مثل شعار الإدماج سنة 1955.

"لا يجب أن ننخدع: فالاستيعاب أمر مستحيل ولم يعد ممكنا؛ ولقد فشل رغم مرور قرن من التواجد الفرنسي في الجزائر ومردّ هذا ليس فقط إلى الروح الوطنية الجزائرية ولكن بسبب سياسة الفئة الانتخابية الأولى والثانية وبسبب نظام البلديات المختلطة والمؤسسات الخاصة بالأهالي؛ فالمعضلة الجزائرية، في الواقع، لا يمكن طرحُها بهذه الصيغة: "حضارة عربية أم حضارة فرنسية".16

بالنسبة للوطنين لم يفلت حتى الجانب الثقافي للاستيعاب من نقدهم اللاذع. كانوا يؤاخذون التعليم الفرنسي على تجريده التلاميذ المسلمين من

---

15. "رباط الطلبة المسلمين" (4) فيفري 1955؛ أعيد نشره من طرف "ضمائر مغاربية" (4).
16. ن.م.

شخصيتهم وعلى محو ثقافتهم التقليدية التي نشئوا في أحضانها ويدفعهم ذات التعليم إلى مقتها؛ إنها تصنع منهم أناسا مستلبين بعد اقتلاعهم من جذورهم فهم يشعرون، بسبب ذلك، أنهم غرباء عن البيئة التي أنجبتهم فيميلون إلى الاندماج في المجتمع الفرنسي من غير أن يجدوا فيه مكانا لهم. هذه الوضعية الشاقة ندّد بحقيقتها المثقفون الجزائريون مرارا:

كتبت زهرة ظريف تقول: "لقد نزعتم عنّا الشيء الذي يصنع زينة كل شعب ألا وهو شخصيتنا؛ إنه الوعي بشخصيتنا! فمن نكون نحن؟ هل نحن نصف أوروبيين ونصف عرب؟ أم نحن رسم كاريكاتوري سيء عن شخص أوروبي شبه عربي؛ وماذا عن ماضينا؟ ألا وجود له؟ في مستطاعنا، من غير أن نحس بشيء من التفاهة، أن ننسب إلى أنفسنا تلك الصيغة التي تؤكد أنّ "أجدادنا هم الغاليين" ولكن الواقع أننا لا نريد ذلك (...): لا يوجد مجتمع يمكن أن ننسب إليه أنفسنا".[17]

وذهب شخصٌ آخر، اسمه صلاح الدين، إلى نفس الوجهة حين تعرض للحديث عن الدراما التي تعيشها النخبة المعلقة بين مجتمعين فقال: "كما فعل الرب؛ لقد صوّرتمونا على شاكلة صورتكم غير أن الصورة ظلت مجرد صورة (...) من غير مضمون إنساني؛ صورة عقيمة من غير سلف ولا خلف (...) بغل جميل مقطوع عن أصوله وماض إلى غير وجهة؛ مرفوض من طرف ذويه وهو ينأى عنهم لأنه لم يجد فيهم رجعا لأي صدى ولا تبادلا مفيدا ويخجل شيئا ما من أصوله (...) وهو مرفوض من طرف صانعيه لأنه ليس أصيلا، أي لا يحمل ما يثبت نسبته إلى العائلة، ولا يمثل سوى خطوطا عامة لمشروع تافه؛ فالوحش لا يدخل الحلقة".[18]

17. كيسيل وبيريللي م.م. ص. 176.
18. "الجزائر الحرة" 18-12-1953، (مذكور في نشرية الصحافة المسلمة).

كان الطلبة الوطنيون، خلافا لعمدائهم من الأجيال السابقة، يعرفون بعد سنة 1943 من هو المسئول عن تأزّم أوضاعهم: إنه الاستعمار باعتباره ظاهرة عامة. فالاستعمار الثقافي كان أداة للاستعمار السياسي ووسيلة لتفريق شمل الأمة الجزائرية ولتسليط النخبة المثقفة ضد طموحات الجماهير الجاهلة ولكنها بقيت وفية للشخصية الثقافية التي تنتسب إليها؛ وكانت "الجزائر الحرة" تُندّد بالتعليم الفرنسي لأنه "بتماديه في سياسة اقتلاع الأرضية الثقافية الوطنية" كان يفرض على التلاميذ قِيَمًا تُغاير وتُعارض ما يُميِّز عبقرية الأمة" ويرمي إلى إنشاء "نخبة عديمة الشخصية" معدّة لتكون أداة قمع لشعبها.[19]

يرى أحمد طالب، وهو أول رئيس ل"إ.ع.ط.م.ج."، أنّ نظام التعليم الفرنسي "نتيجة حتمية لسياسة الاستيعاب"؛ وبالفعل فإن موقف الإدارة إزاء الثقافة العربية الإسلامية كانت تمليه "خشية أن يرتبط الشباب المسلمون بدينهم وبلغتهم وبماضيهم".[20] بعد ذلك بقليل وجّهت نشرة "الطالب الجزائري" التهمة للاستعمار بسبب كونه "يستعمل كل الوسائل" من أجل محق شخصية الشعب الجزائري: تجهيل أو تعليم على أسس استيعابية وفرض الوصاية على الدين وإغراء النخب بالرشاوى وسلوك سياسة التفرقة في صفوف مجتمع الأهالي".[21]

إضافة إلى تلك الاتهامات المتكررة، بدون كلل، صاغ جان عمروش جُملا بليغة وهو الرجل المستوعب والمعادي للاستيعاب، في آن واحد، حيث يقول: "من الممكن أن يكون الاستعمار الفرنسي، وهو يحمل العار والنفاق ولا يجرأ على النطق باسمه، أكثر تحاملا وأكثر تطرفا من أي طرف آخر... فهو يعتبر نفسه مكلّفا من لدن التاريخ بخدمة الحضارة؛ وعملا بذلك؛ فإنه يمنح لنفسه

---

19. ن.م. 25-12-1953.

20. خطاب في المؤتمر الأول ل"إ.ع.ط.م.ج." أنظر كذلك: "الشاب المسلم" 26-2-1954.

21. "الطالب الجزائري" مارس أفريل 1956.

حق رفض حضارات الشعوب المحتلة ورميها في العدم أو تصنيفها في المتاحف؛ وهو يقرّر بأن أي شيء خارج عنه مصاب بداء الانحطاط والتوحّش فمصير الإنسان الزنجي أو العربي أو البربري أن تُستلب منهم هويتهم تدريجيا وفق عملية بطيئة من التحوّل واقتلاع الجذور ومحو الشخصية: إنه استلاب لن تعوّضه الوعود الكاذبة التي تمنيه بجعله في نفس المرتبة مع المحتل. كلنا يعرف أن هذه الوعود لا يمكن الوفاء بها؛ فالرجل المستعمَرُ مدعوٌّ لتقليد سيده، في كل صغيرة وكبيرة، وإنه مدعوٌّ أن يحيا بثقافة مستعارة وأن يتحدث بلغة مستعارة؛ ولن تفوّت عليه الفرص التي تعيد إلى ذاكرته أنه لم يكن يمثل في يوم ما شيئا آخر غير "العصفور المزدان بريش الطاووس" وأنّ اللغة التي يتحدث والثياب التي يرتدي ليست سوى تنكّرا. ومهما كان هذا التنكّر بارعًا فلن يخدع أحدا: "أنت مدين بكل شيء لفرنسا".

يجب أن يقضي حياته منحنيا، انحناءة عرفان بالجميل، ومجبرا على التزام التواضع وممنونا أبدا إزاء أسياده الذين قدّموا له مفاتيح الأبواب المؤدية إلى جنة ثقافتهم؛ وبالفعل فإن هذه لا تمثل، في المنظور الاستعماري، مكسبا تشترك فيه البشرية كلها لأنها ملكية خاصة بالأسياد. وبفعل رحمتهم وبفضل سخائهم وبسبب حماقتهم فإنهم يرضون بأن يتنازلوا عن فوائدها لصالح المستعمر.

فالمحتلون يتلون الصلاحيات التي هي من خصوصيات الربّ؛ والرازحون تحت الاستعمار طينةٌ في شكلها الخام وسوف تتشكل في هيئة بشرية على صورة الشعب المسيطِر الذي يصوّر نفسه بنفسه إنسانا سيّدا.

إنّ المسافة بين الرجل المستعمر والمستعمر لا تعبّر عنها مصطلحات تفيد الكمية. لأنها تحمل ذات الخصائص التي تميز المسافة اللامتناهية التي تفصل الخالق عن المخلوق".[22]

22. "رؤوس أقلام من أجل تصوير الحالة المعنوية للرجل المستعمر"؛ دراسات متوسطية، (11) جوان 1963. ص. 72-78.

ولكن المثقفين الجزائريين لم يستخلصوا، من أتون ذلك التنديد بالاستعمار الثقافي، أيّ حكم على الثقافة الفرنسية في حدّ ذاتها: فهي بالنسبة إليهم مصدر ثراء غير أنهم يرفضون أن يدفعوا مقابل الاكتساب الثقافي ثمنا غاليا يتمثل في التجرّد الثقافي الذي يضيّعهم.

ذلك ما شرحه أحمد طالب في جويلية 1955 قائلا: "مع الاعتراف بما لأوروبا علينا من فضل؛ ومع التأكيد بأن ثقافتها تفتح لنا سبلا عريضة نحو العالم المعاصر فمن حقنا (ومن واجبنا) أن نظل نحن نحن؛ محافظين على شخصيتنا".

ونتيجة لذلك فهو يطالب "بتوفير تعليم مناسب للشخصية الجزائرية تعليم يُزاوج بين الثقافتين" كأفضل وسيلة للتقارب بين الجماعتين المتعايشتين في هذا البلد.[23] أما تعريب التعليم، الذي شُرع فيه بعد الاستقلال، فلم يطالب به بعدُ صراحة لكن أحمد طالب كان، منذ ذلك الوقت، يعتبره أمرا ضروريا ويقول في هذا الصدد: "إلى أولئك الذين كانوا يسألون أنفسهم ويسألوننا، خلال سنوات 1955-1956، عن مستقبل الثورة الجزائرية فإننا نُجيبهم باختصار، بأن أهدافها الأساسية هي الإصلاح الزراعي وتعريب التعليم"[24]

وبنفس الكيفية برمجت النزعة الأكثر راديكالية في الوطنية الجزائرية، منذ سنة 1952، تجاوز هذا الهدف السامي المتمثل في الازدواجية الثقافية: وكانت صحيفة "الطالب المغاربي" تتهم "الوحش الفرنسي" بأنه يرمي، منذ مئة عام، إلى إفقاد الجزائر عروبتها وإسلامها من أجل إدماجها مع الغرب. لقد دعا الطلبة الجزائريين، المفرنسين بالضرورة، إلى وضع أسس بنيان

---

23. خطاب في المؤتمر الأول ل"إ.ع.ط.م.ج." ن.م. أنظر كذلك، اللائحة الثقافية ل"الندوة الوطنية الطلابية، من أجل حل سلمي للقضية الجزائرية"، باريس، جويلة 1956.

24. "أفكار حول نزع الاستعمار الثقافي عن الجزائر" "جون أفريك" ديسمبر 1962، قد أعاد الكاتب صياغتها في مؤلفه: "من نزع الاستعمار الثقافي إلى الثورة الثقافية" (1962-1972) الجزائر، 1973.

ثقافي يتجاوز الازدواجية ليكون عربيا إسلاميا خالصا؛ وينبغي أن تسترجع اللغة العربية الأولوية اللغوية. لكن الثقافة الفرنسية سوف يكون مسموحا بها "لتشابهها مع العربية" لكن بشرط أن تعطى كاملة غير منقوصة ".[25]

إنه لمن المفارقات أن نجد أشدّ الانتقادات لذعا، ضد التعليم الفرنسي، تخلُص إلى ضرورة عطائه الثقافي. ومهما رغب الطلبة الجزائريون في التخلي عنه فإنهم لم يكونوا قادرين على ذلك؛ وما كان في وسعهم أن يفعلوا شيئا أكثر من إكسابه وضعا نسبيا وذلك بإدماجه في شخصية جزائرية سبق وجودها وإدراجه في ثقافة وطنية لا تقصي المرجعيات الأخرى: فالمثقف الجزائري كان ينوي، كما قال Léopold Senghor، استيعاب الثقافة الفرنسية وامتلاكها من غير أن يكون مستوعبا من طرف الأمة الفرنسية.[26]

## ب) تعريف الأمة الجزائرية

كان الطلبة الجزائريون يطالبون بحقهم في تعريف أنفسهم بكيفية مغايرة للفرنسيين؛ وهذه نتيجة منطقية لفكرة سامية تكوّنت في أنفسهم عن فرنسا، البلد الذي يحمل قيما إنسانية، قائمة على احترام الشخصية المميزة للشعوب. كانوا يأخذون مأخذ الجد تلك المقولة الشهيرة: "لكل إنسان بلدان اثنان: بلده الخاص ثم فرنسا"؛ وكان بعضهم يقول: "إن عاصمتكم لم تعد ملكا لكم فهي عاصمة لكل شعوب العالم". عندما يحاول الطلبة الجزائريون تكوين فكرة عن جنسيتهم، بمعزل عن الانتساب لفرنسا، فإن ذلك لا يمكن أن يعتبر تنكرا لها من طرفهم.

غير أن الدافع الأساسي لديهم هو الحرص على أن يظلوا أوفيا للأصول التي أنجبتهم والتي يتمسكون بعدم الانقطاع عنها. لقد شرح Frantz Fanon؛

25. القواعد المؤسسة للمستقبل الروحي الجزائري" "الطالب المغاربي" (3) مارس 1952.

26. انظر مالك حداد، رواية عن مصطفى كاتب: " لا يمكن أن ندمج شعبا ما، لكن الشعب الجزائري أدمج موليير" ("أرقام الصفر تدور في حلقة مفرغة" ص. 20).

بكيفية موفقة تلك الحاجة التي كانت تدفعهم للعودة إلى ضرب الجذور من جديد: "إن مشروعية البحث المتحمّس عن ثقافة وطنية، من خلال العودة إلى الآفاق التي سبقت المرحلة الاستعمارية، ناتجة عن همّ يتقاسمه كل المثقفين الواقعين تحت الاستعمار: إنها الحاجة إلى الرجوع نحو الخلف والابتعاد عن الثقافة الغربية مخافة أن تتقبض عليهم أوصالها؛ إنهم واعون بأنهم يتيهون في الأرض وتبعا لذلك فإنهم يفقدون المسالك التي تربطهم بشعبهم. هؤلاء الرجال مصرّون على امتصاص الرحيق الذي يؤصلهم مع شعوبهم وهو موجود في أعماق العهود التي سبقت المرحلة الاستعمارية".[27]

إن تعريف الأمة الجزائرية يتم بطريقة مخالفة تماما للأمة الفرنسية فالشعور الوطني الفرنسي يكره الفصل بين المجموعة السياسية وبين الثقافة التي تشدّ وصالها: لذلك فإنه يصعب عليه أن يتصور كيف يكون الفرانكفونيون شيئا آخر غير كونهم فرنسيين؛ غير أن الأمة الجزائرية لا تدّعي تلك الخصوصية الثقافية.

إنّ إطار مساحتها الترابية التي رسمت حدودها بصفة عشوائية مؤخرا، لا يمثل سوى جزء من ذلك الكل الذي وحّدته ديانة سكانه ولغتهم وحضارتهم. فهي تعرّف نفسها بتعددية انتماءاتها وتطلعاتها التضامنية. إنها أمة لا تحتويها حدود حقيقية باستثناء الحدود التي تفصل، داخل الجزائر نفسها، بينها وبين فرنسا الاستعمارية.

## 1- الانتماءات التاريخية

إنّ العلماء الإصلاحيين هم الذين وضعوا، منذ سنة 1931، تعريفات الأمة الجزائرية بقولهم: "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني" فهذه

27. "الأسس المتبادلة بين الثقافة الوطنية والنضالات التحررية" كتاب "الثورة الإفريقية" ماسبيرو. 1964 "من أجل إفريقيا" نص جزائري قدمه مصطفى تومي، الجزائر 1969 (ص. 9-11 و 89-90).

العناصر الثلاثة مرتبطة بمفاهيم "الأمة" (المجموعة الدينية) "وبالقومية" (المجموعة اللغوية) و"بالوطن" (المساحة الترابية)؛ ولكن إذا كان مجموع هذه العناصر يشكّل الأمة الجزائرية فإنه ينبغي فحص الدلالة التي تحملها كل واحدة منها عن كثب.

أ) أمـــة: منذ أمد طويل

لقد لاحظ المتتبعون كلهم مدى الاهتمام الذي أولاه الطلبة المسلمون الجزائريون للشعوب التي لها نفس التقاليد الدينية مع شعبهم "غير أن استعدادنا تجاه فرنسا لا يتعارض أبدا مع اهتمامنا بالبلدان الإسلامية: فمصر تمثل، بالنسبة إلينا، شيئا أرقي من مجرّد الأفلام والموسيقى التافهة. إننا مرتبطون بالوجه الآخر لمصر الوجه الذي يجعل منها ذخرا لا يفنى من العقيدة الثورية والشباب المتجدد؛ مصر التي ستعرف كيف تفرض نفسها في العالم المعاصر رغم ما تعيشه من "محن استقلالية" عابرة. إن مصر، في نظرنا، لا تمثل أرادة السيطرة وكذلك الشأن بالنسبة لتركيا "المحيرة": فما الذي يمكن أن يحيّرنا في أول بلد مسلم عرف كيف يحقق عصرنته؟ البلد الذي قام بالإصلاحات الضرورية لذلك ومن بينها المساواة والحقوق السياسية للمرأة والذي وفر لمواطنيه أكبر الحظوظ لبلوغ الرشد حين فصل بين الكنيسة والدولة. وطهران ليست "القرون الوسطى"، بالنسبة لمن أراد أن يستقي المعلومات، وباكستان يزداد اقترابا منا كل يوم أكثر وذلك بفضل مؤتمرات الشبيبة العالمية والإسلامية التي تنعقد في كاراتشي".[28]

إن هذا الانجذاب نحو البلدان الإسلامية ناتج، قبل كل شيء، عن ماض مشترك ممتدّ في القدم؛ وبقطع النظر عن الفوارق اللغوية فإن جميع تلك الشعوب تحسّ أنه يجمعها انتماؤها المشترك إلى أمة المؤمنين؛ ويشكّل

28. "جواب امرأة رفع عنها السحر" م.م.

مجموعها ما يسمى "دار الإسلام": فالجزائر، مثل بقية دول المغرب، متعودة على استقبال المعلمين الروحيين من المشرق وعلى إيفاد البعثات العلمية إلى تلك الربوع وهي بعثات تضمّ أنجب طلابها. لم تتمكن السيطرة الاستعمارية من قطع تلك الصلة ولا وضع حد لتلك المبادلات إلى أن جاءت جمعية العلماء لتعمل على تكثيفها. إن الإسلام، بالنسبة للطلبة الأكثر نزوعا إلى اللائكية، دين يذكي في نفوسهم تذكار حضارة أشع ضياؤها على "ظلمات القرون الوسطى" حين كان الغرب المسيحي يغطّ في سبات عميق فساهمت في إيقاظه. كان التعليم الرسمي يستهين بذلك التاريخ وذلك ما يفسر الرواج الكبير الذي عرفته مؤلفات بعض الكتّاب الأوروبيين الذين اعترفوا بكل ما على الحضارة الغربية من دين تجاه الحضارة الإسلامية. في ذهن المثقف الجزائري كانت العظمة التي عرفها الماضي الإسلامي تنتقم له ولشعبه من المهانة التي عرفوها وتطمئنهم بأن انقلاب الموازين أمر ممكن جدا.

لقد ساهم الاهتمام بالدول الإسلامية الراهنة في تقريب المثقف الجزائري من بيئته الأصلية التي تسعى الثقافة الرسمية اللائكية إلى فصله عنه: ففي الجزائرن كما في جميع تلك البلدان، إن "الإسلام هو الغلاف الجوي الذي تسبح فيه الحياة بأكملها. ليس فقط الحياة الدينية والفكرية وإنما كذلك الحياة الخاصة أيضا وكذا الحياة الاجتماعية والمهنية"؛[29] فالإسلام ليس مجرّد ديانة (بالمعنى والحدود التي ترسم معالم هذه الكلمة في أوروبا) إنه يمثل أيديولوجية مجتمع "وحصيلة حوار يستحيل إيقاف سريانه بعمق بين هياكل الثقافة. إنّ المقاييس التي تقترحها الرسالة الدينية؛ تاريخ السيرة الدينية؛ شكلٌ من أشكال الوعي الذي يتم لدى المجموعة عن نفسها".[30] إذن؛ كان اهتمام الطالب بالدول الإسلامية يعبر عن ارتباطه بجماعته الأصلية.

29. بيار بورديو، "سوسولوجية الجزائر" المنشورات الجامعية الفرنسية. 1963. ص. 100.

30. بيار بورديو، "سوسولوجية الجزائر" المنشورات الجامعية الفرنسية. 1963. ص. 100.

كان الطالب بالخصوص يبحث في البلدان الإسلامية المعاصرة عن أمثلة يمكن أن تقتدي بها المجموعة الإسلامية في الجزائر مستقبلا: فباعتبارها بلدانا مستقلة، على الأقل اسميا، ففي وسعها أن تعيش تجارب هي محظورة في الجزائر. غير أنها كانت تأخذ توجّهات متناقضة مما طرح مسألة الخيارات الأساسية. فما الذي كان يجمع بين اللائكية الملتزمة، التي انتهجها مصطفى كمال، وبين التطبيق الحرفي لتدابير الشريعة الإسلامية من طرف المملكة العربية السعودية؟ وبين هذين الموقفين، المتطرفين، كانت مصر تمثل حقلا للتجارب بالنسبة لأنصار الإسلام المشبب ليناسب مقتضيات التقدّم. كان هذا الطريق الوسط يتماشى مع أيديولوجية العلماء الجزائريين التي من خلالها "يجب أن ننفخ في جماعة المؤمنين روح العصر فأن تكون محافظا معناه أن تكون "عصريا".[31]

من المؤكد أن العقيدة الدينية لدى المسلمين المؤمنين هي العنصر الأساسي في تركيبة الوعي الوطني خلافا للتأويل الذي ذهب إليه كل من شريف بن حبيلس وفرحات عباس الشاب: "لماذا لم تتمكن من أن تكون فرنسيا؟ – لأنني مسلم" هكذا أجاب؛ أحد قدماء الأطباء في الجبل من غير تردد.

لم يكن من الممكن فصل التربية الدينية عن التربية الوطنية في الأندية الشبابية التي كانت تنشطها جمعية العلماء أو حزب الشعب الجزائري بل وحتى جمعيات الطلبة الثانويين والجامعيين المسلمين.[32] لكن من غير المؤكد أن أغلبية أولئك الطلبة "المسلمين" كانوا مؤمنين. نحن نعلم أن جدلا حادّا درا، أثناء الندوة التحضيرية ل"إ.ع.ط.م.ج."، بين المشاركين بخصوص

31. حكيمي: الرسالة المذكورة، أنظر كذلك، قصيدة الشيخ الحاج اسنوسي: "المسلم هو من يعمل من أجل التقدم"، في "الشهاب" 1930، ص. 564؛ ذكرها مراد م.م. ص.308.

32. مثال "نادي الهلال" مقر جمعية الشباب والطلبة المسلمين لمستغانم في "دروب الاستقلال" لبلقاسم ولد موسى، سندباد، 1980، ص. 44-48.

الرمز "م" (الذي يشير إلى كلمة مسلمين في رموز الاتحاد العام للطلبة) فلقد كانت هناك نزعة لائيكية ماركسية (تنتمي إلى اتحاد الطلبة الجزائريين في باريس) ترفض كل مرجعية دينية؛ ولقد ردّ عليهم أحمد طالب بأن كلمة "المسلم" لم تكن تشكّل بالنسبة إليه سوى رمزا للانتماء الثقافي. ولقد ثبت، فيما مضى، أن مجموعة المسلمين يمكن أن تضمّ أناسا غير مؤمنين. اعترف أحمد طالب بذلك بشكل أكثر صراحة في إحدى "رسائل من السجن" حين قال: "إن الشباب المسلمين، سواء أكانوا ملحدين أو لا مبالين أو مؤمنين، يشتركون كلهم تقريبا في شيء وهو جهلهم الإسلام"؛[33] فإذا كنا "مسلمين" فلأننا وُلدنا كذلك (وسنظل كذلك) حتى وإن لم يتأكد انتماؤنا بمبادرة إيمانية شخصية. تلك هي المفارقة الموجودة في الإسلام بالجزائر، أو في غيرها من البلدان، فحين يحدّد الشكل العام للمجتمع فإنه يذوب ويندثر فيه.

ب) القـومـيـة :

في البلدان الإسلامية، وبشكل خاص في البلدان العربية، لا يمكن فصل الإسلام عن القاطرة التي تحمله وهي اللغة العربية لغة القرآن المنزّل. وفيما يتعلق بالجزائر وبالطلبة الجزائريين، ذوي الثقافة الفرنسية بالخصوص، كان من السهل على العلماء أن يشرحوا الجهل الديني العام بتردي أوضاع التدريس باللغة العربية التي لم تعد تتجاوز حفظ القرآن عن ظاهر قلب دون فهم للنص وبانعدامها تماما في المنظومة الدراسية الفرنسية. لقد شكلت مسألة استعادة الدراسة باللغة العربية في الجزائر أحد الأهداف التي حدّدها "إ.ع.ط.م.ج" تحت تأثير الأفكار التي كان يحملها رئيسه الأول أحمد طالب وهو ابن الشيخ البشير الإبراهيمي. غير أن تبني هذا الموقف من طرف الاتحاد لم يكن يكشف قط عن إرادة تعميم الإسلام العقائدي وإنما هو

33. "رسائل من السجن" ص. 180.

تعزيز للأصالة الوطنية فقط: "من بين الأهداف التي رسمها الاستعمار الفرنسي تجريدُ الشعب الجزائري من شخصيته بالقمع وبخنق ثقافته الخاصة ف"إ.ع.ط.م.ج." يحدّد من بين مهامه الأساسية استرجاع الثقافة الوطنية وازدهارها. وهو لذلك يؤكد على تمسكه بالثقافة العربية الإسلامية التي بدونها يشعر المثقّف الجزائري أنه قد اجتث من جذوره وفُصل عن شعبه".[34]

لم تسلم عروبة التعليم من الغموض الذي اكتنف التوجه الإسلامي. إنّ اللغة العربية قبل كل شيء، لأنها لغة مقدسة باعتبارها الوسيلة التي حملت التنزيل الرباني والعلوم الدينية ولذلك فإن معرفتها ضرورية للتعمق في العقيدة؛ ولكنها، أيضا، الوسيلة التي جاءت بثقافة جمعت تراث الأمم القديمة قبل الإسلام وساهم مؤلفون مسيحيون وإسرائيليون وغيرهم في إثرائها. إن العرب إلى تاريخ اليوم (على الأقل في الشرق) ليسوا مسلمين كلهم والعكس صحيح. لذلك؛ فإن مرجعية الإسلام والعروبة أو أي ثقافة عربية إسلامية لا يمكن أن تحمل دلالة عقائدية خالصة فهي بالأحرى تحدّد معالم الجنسية الثقافية.

ومع ذلك؛ فإن بعض الحركات السياسية حاولت أن تنشئ مدّا تضامنيا فعّالا بين الدول الإسلامية أو العربية ومضاد للإمبرياليين الغربيين. إنّ الوحدة الإسلامية التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني ظلت أسطورة خيالية تلاعبت بها الإمبراطورية العثمانية، إلى غاية سنة 1918، ثم مالت لتتحول إلى وحدة عربية بعد الثورة "الكمالية".

كانت الوحدة العربية، وهي صيغة مصغّرة من الوحدة الإسلامية، تُوجِّه العقول في نفس الاتجاه نحو الشرق: إنها قبل كل شيء دعوة إلى الكفاح من أجل تحقيق الاستقلال الشامل وذلك بمعونة من الدول التي سبقت في هذا المجال. لكن التأكيد على وجود أمة عربية واحدة لا تتجزأ وتمتد من الخليج إلى المحيط كان يتعارض مع صعوبات نظرية على الأقل.

34. "كفاح الطلبة الجزائريين" تونس 1960. ص. 13.

يتميّز المغرب عن المشرق بالظاهرة البربرية أي بالأصل العرقي غير العربي للأغلبية الساحقة من سكانه، بما فيهم المعرّبين، وبالعديد من القطاعات العريضة من اللهجات والعادات والفلكلور البربري. غير أن تعريب إفريقيا الشمالية كان أيضا أمرا له نفس الأهمية: فالتعريب الجزئي والتعريب الكلي، في ميدان الثقافة الفوقية وتعميم الإسلام، هو أكثر شمولا: مهما طبعته العادات البربرية التي ظلت محترمة في المناطق التي تنطق بالبربرية. من هنا يطرح السؤال الآتي: هل يمكن التفكير في خصوصية شمال إفريقية مستقلة عن الإسلام والعروبة؟

بتأثير من بعض التقاليد الجامعية في مدينة الجزائر فإن بعض الشباب "القبايل" قد أكدوا على وجود أصول أوروبية لدى الجزائر البربرية وعلى "استعداد لتبني الهوية" الغربية والفرنسية والابتعاد عن الإسلام والعروبة مما أثار ردود أفعال عنيفة من طرف العلماء. في سنة 1952؛ أثار النجاح الذي أحرزته رواية "الربوة المنسية"، لمولود أمعمري، "أثار الجدل من جديد حول "النزعة البربرية" وهي أيديولوجية استعمارية ترمي إلى التفرقة والاستيعاب.[35] هذه النزعة البربرية تؤكد أن الكتل البربرية لا تنسجم مع باقي سكان شمال إفريقيا المعربين وتنزع بذلك إلى إحداث فرقة تضعف المجموعة التي تتصدى لمقاومة الاستعمار؛ وبذلك فإن الطرح، الذي يبدو مفارقا، والذي مفاده أن إثارة الخصوصيات الثقافية الأكثر امتدادا في القدم في البلدان المغربية كان يعتبر موقفا معاديا للوطنية نظرا لكون النزعة الوطنية قد أوكلت النطق باسمها للعروبة وهي مجموع قيم ذات أصول أجنبية.

35. أنظر النقد الذي كتبه م.ش. "ساحلي" في نشرة "الشاب المسلم" (7) 17-10-1957؛ رد الكاتب. (ن.م) (14) 30-1-1953، تدخلات مصطفى لشرف، (ن.م)، (15)1953-2-13 محفوظ قداش صوت الشباب (8) فيفري 1953.

إن المدافعين عن "المغرب العربي" يعترفون بالواقع البربري ولكنهم يؤكدون على الانصهار العربي البربري وعلى خلق ثقافة بربرية ناطقة بالعربية وعلى اعتناق البربر لديانة جاء بها العرب. هذه التأكيدات لم تكن لتمنع الاستقلالية السياسية التي عرفها المغرب العربي البربري، من القرن 8 إلى القرن 16، والتي بلغت أوج وحدتها في زمن الموحدين وكان مؤسسها "ابن تومرت" الذي تلقى تكوينه في الحجاز ولكنه كان يلقي خطبه باللغة البربرية. هذا التلاحم العريق يمثل إرادة قدرية: "فمن وحدتهم يد الله لا يمكن ليد الشيطان أن تفرقهم" كما كتب بن باديس.[36] وهكذا اعترف الضمير العربي الإسلامي بوجود شخصية مغاربية صاغها التاريخ ما دامت هذه الشخصية لا تتنكر لذلك التاريخ المغاربي فتعرف نفسها بشكل مضاد للإسلام والعروبة.

ومع ذلك؛ كان على التاريخ الوطني المغاربي أن يتساءل في شأن الاستمرارية بين المغرب الذي سبق الإسلام والمغرب الذي تلاه. وكردّ فعل ضدّ دعاة "إفريقيا اللاتينية" بادر الطلبة المسلمون إلى التأكيد على انتسابهم إلى الأجداد النوميديين وحتى القرطاجيين وتحمّسوا لذكر مناقب شخصيات مثل حنبعل وبالخصوص يوغرطا باعتبارهم رموزا للمقاومة المغاربية ضد المستعمرين. جاءت مؤلفات محمد شريف ساحلي وجان عمروش التي تتبنى أطروحة "يوغرطا الأزلي"[37] لتطرح مشكلا: هل توجد فعلا استمرارية "لمزاج مغاربي" يتصف، كما يؤكد المؤرخون الاستعماريون، بروح الثورة التي تدفع "الجنس البربري" إلى مقاومة المحتلين الأجانب من الرومان إلى الفرنسيين؟ إذا كان الرد نعم فكيف يمكن تفهّم نجاح الاحتلال

36. الشهاب فيفري 1936، ص. 605، ذكره مراد م.م. ص. 360.

37. م.ش. ساحلي، "رسالة يوغرطا" الجزائر 1947؛ جان عمروش ، "يوغرطا الأزلي" مساهمات حول العبقرية الإفريقية في "لارش" 1946، ودراسات متوسطية، جوان 1963، ص. 61-71.

العربي الذي تُوِّج بنشر الإسلام وبالتعريب؟ هل كان صوابا أن يقابل فشل الاستعمار الروماني "الذي لم يترك من الآثار سوى رسوما بالية" بالنجاح المتسمر للحضارة العربية الإسلامية؟ في اعتقاد المؤمنين، مثل فرحات عباس، يجب إضافة أن البربري الثائر دوما ضد الظلم قد احتفظ بالعقيدة الإسلامية بعد أن هزم الجيوش العربية. مما يدل على أن تلك العقيدة التي تساوي بين الناس كانت مناسبة "لمزاجه". لكن من المستحيل التأكيد على وجود شخصية مغاربية أزلية مضادة لكل محاولة استيعاب مادام المغاربة قد غيروا لغتهم وديانتهم مرات عديدة. فليس في وسع العروبة أن تجندهم ضد الاستعمار الثقافي الفرنسي، إذا لم تتبن تراثهم بأكمله، سواء في ذلك التراث العربي وغير العربي.[38]

إن تعريف الماضي الوطني كان من شأنه أن يترك نتائج سياسية هامة. وهكذا فإن أزمة "النزعة البربرية" قد فرّقت صوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية في سنوات 1948- 1949.

كان أصحاب "النزعة البربرية" وهم شباب من القبائل، من ذوي [redacted] الفرنسي، كانوا من أشد الناس معاداة للاستعمار ومن الدعاة إلى [redacted] المسلح. غير أنهم كانوا يعززون وطنيتهم بذكر الخصال البطولية التي تميز أجدادهم البربر أثناء مقاومتهم للرومان. فلقد سئموا، في بحثهم عن جذورهم الجزائرية، من إثارة الحماس الداعي للعروبة والذي يجدون فيه حجابا يحول دون التعمق في تحليل الحقائق الجزائرية. وبعد أن كرهوا من الجامعة العربية ومن فشلها في فلسطين توجهوا إلى التحالف مع الشيوعيين الذين كانوان وقتهان يعارضون الجامعة العربية. هذا التوجه الجزائري الأصيل لم تكن له أية علاقة بما يُسمى "النزعة البربرية الاستيعابية" ومع ذلك فقد اتهم بكونه "صنيعا استعماريا يرمي إلى هدم العروبة التي تمثل قيمة

38. محمد أركون: "الثقافة الشمال إفريقية، الأرستقراطية والشعبية" العمل، 1958-1-6.

المقاومة والكفاح الدائم". كان من شأن ذلك التنديد أن أضعف الجناح النشيط في حركة انتصار الحريات الديمقراطية بشكل خطير.[39]

ج) الـوطـن :

لم يكن في وسع المثقف الجزائري، وهو يبحث عن بلورة مفهوم الأمة، أن يكتفي بتعريف ثقافي خالص. فالمرجعية العربية الإسلامية تضمّه إلى جماعة دينية وعرقية أوسع غير أنها لا تعيد له كل الحقيقة المتعلقة بماضيه الخاص. إنها تسمح له بالتميّز عن النمط الفرنسي غير أنها لا تساعده على وضع معالم لجنسية جزائرية محضة: فالديانة الموجهة لكل البشرية لا يمكن أن تعين على تأسيس جنسية خاصة. وهذا ما توصّلت إليه زهرة ظريف حين تقول: "تاريخ الإسلام؟ إنه في الواقع ملك للمسلمين في جميع أنحاء العالم وليس ثمة ما يجعله جزائريا؛ نحن نطفو فليس ثمة مجتمع يمكن أن نقول عنه إنه مجتمعنا"[40]؛ إن البلد الروحي العربي الإسلامي واسع إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون مرجعية خاصة بالوطنية الجزائرية.

كان المثقف الجزائري في حاجة إلى أن يتموضع في مسار بشري متصل وفي تسلسل السلالات التي تربطه بأجداده. وهم أجداد لم يكونوا؛ في الأصل؛ عربا كلهم ولا مسلمين. فالتقاليد العربية الإسلامية تحاول تأصيله في تراث ليس ملكه الخاص إضافة إلى كونه جاء من بلد آخر. تلك التقاليد لا تعير أية قيمة لاستمرارية وجود بعض السكان في بعض البلدان: فكلمة الوطن تشير، في اللغة العربية، إلى الحيز الترابي بدون إثارة أية نبرة عاطفية "أحفظوا أنسابكم" ولا تكونوا مثل الإفرنج الذين يقولون: "نحن من هذه القرية أو من تلك" هذا معنى حديث نسب إلى الرسول محمد. إن الثقافة

39. م. حربي. "أصول جبهة التحرير" ص. 37939 و114-117.

40. كيسيل وبيريللي م.م. ص. 176.

الأوروبية إذن هي التي منحت، بالإضافة إلى معطى "أرض الأجداد"، للوطنية الجزائرية فرصة تحديد الماضي الوطني في إطار ترابي محدد وذلك بشكل مباشر عن طريق المدرسة الفرنسية أو غير مباشر من خلال التأثيرات الشرقية.[41]

لقد تمّ تسجيل مجريات تاريخ البربر وتاريخ الأجانب الذين أتوا إليهم محتلين في الحيز الطبيعي لشمال إفريقيا. كان هذا الأخير مأهولا، منذ فجر الأزمنة التاريخية، من طرف هؤلاء البربر؛ أما الدول التي تعاقبت عليه أو تحاربت في أرضه فلم تدم إقامتها فيه مدّة طويلة ولم تكن حدودها مستقرة لدرجة تمكّن من قراءة مساحية معينة؛ ولم تشرع ملامح الدول الراهنة في الارتسام إلا في القرن السادس عشر بفعل الأتراك أو بردود فعل ضدهم وكان على الفرنسيين أن يضعوا رسما نهائيا لحدودها في القرن العشرين. حين بسطت فرنسا سيطرتها على بلدان شمال إفريقيا كلها وطبقت فيها نفس الأسلوب الاستعماري للإدارة المباشرة (بالرغم من مفهوم الحماية) عملت في نفس الوقت على تقوية الشعور بالوحدة المغاربية. هذا بالرغم من أن قوة الكثافة التي ميزت نشاط الإدارة الاستعمارية في الجزائر قد كان من آثارها أن أكسبت الجزائر، ولأول مرة، وحدة متينة وشخصية متميزة بشكل واضح عن جارتيها. لكن ضرورة تنسيق الجهود النضالية من أجل تحقيق الاستقلال في البلدان الثلاثة قد أجّل ميعاد اختفاء الوطنية المغاربية بفعل الوطنيات المحلية التي حجبتها.

هكذا ظلّ الضمير الوطني للمسلمين الجزائريين، ولمدة طويلة، مترددا بين تعريفين يتنافسان على خياره: ففي البداية؛ كانت الوطنية "الجزائرية" الخالصة أمرا يخص المعمرين؛ ولمعارضة ذلك كان الشباب الجزائريون

41. أنظر بن حبيلس (م.م. ص. 6) بخصوص معنى وطن، ذكر محي الدين باش تارزي في "مذكرات" (ص.42-46) بأهمية دور المسرحيات التركية والعربية الشرقية في إكسابه معنى معا.

يفضّلون تعريف أنفسهم بالفرنسيين. ثم جاءت الفكرة المغاربية لتحلّ في أذهانهم محلّ الفرنسية. كانت جمعيات الطلبة المسلمين تتشكل في إطار شمال إفريقي وكانت مؤتمراتهم المشتركة تسعى لنشر الروح الوطنية المغاربية. كان الطلبة الجزائريون، إلى غاية 1952، يؤكدون ما يلي: "إن الجزائر وتونس والمغرب لا تشكل مجرّد "ثلاث دول متجاورة" بل أمة واحدة موحّدة هي: الأمة المغاربية".[42] بعد تأسيس الاتحادات الوطنية الثلاثة تكونت كنفدرالية شمال إفريقية ذات ميثاق يؤكد على الوحدة التي لا تتجزأ للمغرب: "نظرا لكون الوحدة الشمال إفريقية حقيقة طبيعية وتاريخية وبالرغم من تقسيم بلدنا اصطناعيا إلى وحدات ترابية متميزة فإن مجموعاتنا البشرية لم تشكل ولن تشكل سوى شعبا واحدا متشبعا بنفس الحضارة وبنفس الثقافة يتقاسم نفس المصير ويطمح إلى تحقيق آمال مشتركة. باعتبارنا الطليعة الشبابية القوية وبما أن واجبنا هو العمل من أجل توحيد المغرب: نحن الطلبة نعلن عن ميلاد الكنفدرالية الشمال إفريقية للطلبة التي ترسم معالم الوحدة الشمال إفريقية الكبرى".[43]

هذه الروح الوطنية المغاربية الوحدوية كانت تنزع إلى طمس التوجه الفردي الوطني لكل واحد من تلك البلدان الثلاثة ومنها طمس وجود أمة جزائرية متميزة.

أمة مغاربية أم أمة جزائرية؟ إن المنظمات ذات النزعة الوطنية نفسها قد ترددت في النطق بخيار معين في هذا الصدد. وبالفعل؛ كان حزب نجم شمال إفريقيا، منذ سنة 1926، يُطالب باستقلال الجزائر؛ وهو جمعية مغاربية تأسست في فرنسا من طرف مهاجرين من البلدان الثلاث. ولم يتحوّل النجم إلى حزب الشعب الجزائري سوى في سنة 1937؛ أي بعد استقراره في

42. "الطالب المغاربي" مارس 1952.
43. "كفاح الطلبة الجزائريين" تونس 1960.

الجزائر. ولقد أعلن الشيخ بن باديس، منذ سنة 1925، عن وجود "كيان مسلم جزائري؛[44] وفي أفريل 1936 أكّد على وجود كيان أمة جزائرية لها تاريخ ووحدة دينية ولغوية ولها ثقافتها الخاصة وتقاليدها وطبائعها و"بلدا خاصا بها" هو الجزائر بحدودها الحالية المعروفة والتي يسيّرها حاكم عامّ معين من طرف الحكومة الفرنسية.[45] ولكنه اعترف، في السنة الموالية، بأن ذلك البلد ليس الوحيد: "بقطع النظر عن هذا الوطن، الخاص بنا، فإن لدينا أوطانا أخرى غالية علينا (...) أقرب تلك الأوطان هي بالنسبة إلينا المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان يشكلان مع المغرب الأوسط بلدا واحدا موحّدا باشتراكها في اللغة والعقيدة والتاريخ والمصالح. ثم تأتي بعد ذلك الدول العربية وأرض الإسلام وأخيرا وطن النوع الإنساني كله".[46]

نلاحظ هذا التصور الخاص بالأمة الجزائرية التي لا تدّعي أي افتخار بخصوصية معينة؛ بل هي تنتمي إلى عدّة مجموعات يندرج كل منها في إطار أوسع مع احتفاظه بفرديته الخاصة؛ إنها أمة مفتوحة لا حدود لها ما عدا الحدود التي تعارض بها السياسة الفرنسية الرامية إلى الاستيعاب.

## 2- ميادين التضامن الحديثة

لم تكن الأمة الجزائرية، خلال كفاحها من أجل انتزاع استقلالها، تعتمد على قواها الخاصة فقط وإنما اعتمدت أيضا على تضامن المجموعات التي تنتمي إليها: التضامن المغاربي وتضامن الأمة العربية وتضامن "دار الإسلام" التي أسستها قرون طويلة من التاريخ المشترك؛ وهذه الحلقات التضامنية

---

44. المنتقد (1) 2-7-1925، الذي ذكره مراد م.م. ص. 443-446. ماينيي (أطروحة ص. 254-257) قد أشار إلى وجود نموذج من علم جزائري (لكن مزدوج الوطنية)، قبل 1914.

45. "الشهاب، أفريل 1936؛ مراد م.م. ص. 398-399.

46. ن.م. جانفي 1937، مراد م.م. ص. 382-383.

المذكورة أمر مفروغ منه. أما بالنسبة لتضامن الرأي العالم العالمي فهو وارد أيضا ولكن بشكل أقل؛ كما يوجد، بين المجموعة الإسلامية والمجموعة البشرية، صنفٌ من الوسطاء الآخرين: ففي سياق تمتين علاقات التضامن الديني والثقافي التقليديين جاء التضامن ضد الاستعمار الذي طال "المعذبين في الأرض" و"الشعوب العمالية" التي يربو مجموعها على البلدان العربية الإسلامية بكثير.[47]

إن الوعي بوجود مصير مشترك لكل الشعوب المغمورة من طرف الاستعمار أمر حديث نسبيا.

قبل سنة 1939 كان النضال السلمي، بزعامة "المهاتما غاندي"، من أجل استقلال الهند محل إعجاب العلماء الإصلاحيين. لكن لم يعزز هذا الوعي بشكل ملحوظ إلا بعد 1945 مع تأسيس جمعية الأمم المتحدة وتكوين المجموعة "الآفرو-آسيوية" التي صارت تضم دولا حديثة الاستقلال. ضاعف الطلبة الجزائريون اتصالاتهم مع رفاقهم القادمين من تلك "الدول الشريكة" (الهند الصينية) ومن "عمالات" و"أراضي ما وراء البحر". ولقد تابعوا باهتمام كبير مجريات الحرب الهند الصينية وانتفاضة مدغشقر؛ وابتداء من الندوة "الآفرو-آسيوية"، المنعقدة في Bandung، والتي أعلنت في أفريل 1955 ضرورة الخلاص من الاستعمار، حيثما كان، أدرجت جبهة التحرير الوطني الجزائرية كفاحها ضمن إستراتيجية شمولية. وحيث أن القارة الإفريقية قد ظلت آخر معاقل الاستعمار (الذي يتبجح بالشعار الآفرو - أوروبي") فإن حرب الجزائر قد أخذت في كلا المجموعتين بعدا قاريا. ومن هنا شغل مصطلح Panafricain حيزا معتبرا في تشكيلة الوعي الوطني بالنسبة للعديد من المثقفين الجزائريين الذين استلهموا ذلك من كفاح Frantz Fanon.

---

47. أنظر سليمان الشيخ: "الجزائر تحمل السلاح، أو "زمن القناعات" باريس إكونوميكا، والجزائر د.م.ج. 1981، ص. 431-497.

المذكورة أمر مفروغ منه. أما بالنسبة لتضامن الرأي العالم العالمي فهو وارد أيضا ولكن بشكل أقل؛ كما يوجد، بين المجموعة الإسلامية والمجموعة البشرية، صنفٌ من الوسطاء الآخرين: ففي سياق تمتين علاقات التضامن الديني والثقافي التقليديين جاء التضامن ضد الاستعمار الذي طال "المعذبين في الأرض" و"الشعوب العمالية" التي يربو مجموعها على البلدان العربية الإسلامية بكثير.[47]

إن الوعي بوجود مصير مشترك لكل الشعوب المغمورة من طرف الاستعمار أمر حديث نسبيا.

قبل سنة 1939 كان النضال السلمي، بزعامة "المهاتما غاندي"، من أجل استقلال الهند محل إعجاب العلماء الإصلاحيين. لكن لم يعزز هذا الوعي بشكل ملحوظ إلا بعد 1945 مع تأسيس جمعية الأمم المتحدة وتكوين المجموعة "الآفرو-آسيوية" التي صارت تضم دولا حديثة الاستقلال. ضاعف الطلبة الجزائريون اتصالاتهم مع رفاقهم القادمين من تلك "الدول الشريكة" (الهند الصينية) ومن "عمالات" و"أراضي ما وراء البحر". ولقد تابعوا باهتمام كبير مجريات الحرب الهند الصينية وانتفاضة مدغشقر؛ وابتداء من الندوة الآفرو-آسيوية"، المنعقدة في Bandung، والتي أعلنت في أفريل 1955 ضرورة الخلاص من الاستعمار، حيثما كان، أدرجت جبهة التحرير الوطني الجزائرية كفاحها ضمن إستراتيجية شمولية. وحيث أن القارة الإفريقية قد ظلت آخر معاقل الاستعمار (الذي يتبجح بالشعار الآفرو - أوروبي") فإن حرب الجزائر قد أخذت في كلا المجموعتين بعدا قاريا. ومن هنا شغل مصطلح Panafricain حيزا معتبرا في تشكيلة الوعي الوطني بالنسبة للعديد من المثقفين الجزائريين الذين استلهموا ذلك من كفاح Frantz Fanon.

---

47. أنظر سليمان الشيخ: "الجزائر تحمل السلاح"، أو "زمن القناعات" باريس إكونوميكا، والجزائر د.م.ج، 1981. ص. 431-497.

لكن هذا الطرح الجديد كان يحمل بعض المفارقات: فالمثقف الجزائري المُعرّض لمواجهة النظرة الاستعمارية الخاصة بماضي الشمال الإفريقي، وجد ردّا فعالا في التبجح بازدهار الماضي الإسلامي. وفي نفس الوقت فإنه لا ينكر، بصفة جذرية، كل "الأحكام" التي أصدرها "المتحضرون". تلك الأحكام المتعلقة بالشعوب "الهمجية". فالاتجاه الراديكالي المعادي للاستعمار يصبو، عكس ذلك، إلى إعادة تثمين الشعوب "الهمجية" نفسها. إنّ إعادة الاعتبار للسلف الرّمز، يوغرطا، يصبّ في هذا التوجّه: ينبغي الاعتزاز وتقبّل وتبنّي كلّ النعوت التي ألصقها المؤرخون الاستعماريون "بالفئة التي تشغل المؤخرة في قافلة الجنس الأبيض" والتي تتميز "بالعجز التام عن الإبداع" و"بعدم الاستعداد وراثيا للاستقلال"؛[48] ويبدو أن تلك العيوب تمثل القاسم المشترك الأساسي بين "القوم الهمج البيض" وبين "المتوحشين الزنوج" الذين يشغلون نفس الحيّز القاري جنوب الصحراء. نقرأ في مقدمة كتاب "من أجل إفريقيا" (وهو مجموعة نصوص جزائرية) ما يلي: إن الجزائر بلد إفريقي وإفريقيته رصينة ومتحمّسة فبفضل أرضنا وشمسنا وبفضل شرايين قلوبنا وبفضل أرجلنا الحافية وشعرنا الأشعث وبفضل أغانينا وطبولنا التي تُبلّغ نداء الحرية إلى كل المخيمات. بفضل ذلك كله فإن اسم الجزائر كان دوما موزونا مع اسم إفريقيا (...) إن عبارة العائلة، عندنا، تتناغم مع القبلية وتتناغم القبيلة مع القارة.

نحن متحمّسون لصفتنا الإفريقية وفي نفس الوقت الذي نخوض الحرب في بلاد القبائل والأوراس أو الصحراء فإن رياح الرفض تحمل هدير التحامنا ويتردّد صداه في الغابات وفي عمق الأدغال. كانت الجزائر قد تعهدت بحمل

48. أنظر أصول المقتطفات التي أوردها محمد شريف ساحلي، في "تخليص التاريخ من الاستعمار" ماسبيرو 1965.

مصير إفريقيا بين ذراعيها. إن الفاتح نوفمبر 1954 قد طرق أبواب كل الأكواخ ولقد أذنت الجزائر للصحوة القارية الكبرى".[49]

إن هذه الحجج الأخيرة أكثر إقناعا من الأولى. لا مراء في أن تمرد الجزائر، التي تمثل مفتاح التوازن بين العالم الأوروبي- إفريقي، قد عجّل بتحرير بقية القارة؛ ولكن اكتشاف بعدها الإفريقي يشكل حدثا جديدا خاصا بالمثقفين. فحسب ما أوردته Simone de Beauvoir فإن Frantz Fanon، نفسه، كان يتحرج عندما يلتفت المارة إليه عند تجوله بشوارع تونس (بسبب سحنته الزنجية). كان يكتشف بحزن كبير وجود مشاعر عنصرية ضد السود في بلدان المغرب.[50] وفي الأسطورة القبائلية كانت الألوان تحمل نفس الدلالة الرمزية الموجودة في أوروبا فالأسود معناه سواد الخُلق.[51] ولا ننس أن العرب أيضا كانوا يمارسون تجارة العبيد السود بالرغم من أن حال الرقيق في المجتمعات الإسلامية كان أفضل من حالهم في المجتمعات الاستعمارية في العالم الجديد. لقد كانوا ممقوتين رغم التعاليم الدينية التي تحرم ذلك؛[52] وهكذا كان البعد الإفريقي لجبهة التحرير الوطني مبررا بمقتضيات إستراتيجية هي: عزل الاستعمار الفرنسي.

لماذا التوقف إذن عند حدود قارة معينة؟ فالتضامن ضد الاستعمار يكتسي، مثل المد الاستعماري للقوى الأوروبية، بُعدا عالميا. كان طلبة البلدان المستعمرة، المتواجدون في باريس، قد شكلوا سنة 1948 لجنة اتصال تجمع بينهم؛ وحين قرر "إ.ع.ط.م.ج." قطع علاقاته الرسمية مع "إ.و.ط.ف."، بعد أن رفض هذا الأخير الإدلاء بموقف صريح بشأن القضية

49. م. تومي م م. (مجموعة نصوص نشرت بمناسبة المهرجان الثقافي الإفريقي الجزائر 1969).
50. إيرين جاندزيي "فرانتز فانون" لوسوي، 1973 ص، 261-234.
51. مارغريت طاووس عمروش، "الحبة العجيبة" ماسبرو 1966.
52. برنار لويس، "جنس ولون في بلدان الإسلام" بايو 1986.

الجزائرية، حذت حذوه كل المنظمات التابعة لهذه اللجنة. وليس في وسعنا أن نبرز، بما فيه الكفاية، أهمية العلاقات التي أقيمت مع طلبة الهند الصينية والطلبة الفيتناميين، بالخصوص، أثناء حرب تحرير هذا البلد. جاءت ندوة Bandung، في أفريل 1955، لتفتح عهدا جديدا للتضامن الآفرو- آسيوي: مما سمح بتأكيد الأمل في قرب استقلال الجزائر وبلدان شمال إفريقيا وإفريقيا السوداء. بعد مرور سنة على انعقاد الندوة الطلابية الآفرو-آسيوية تم الاحتفال بذكرى ذلك الحدث التاريخي بمشاركة "إ.ع.ط.م.ج.". وهكذا: وبقطع النظر عن الحدود التقليدية التي تضم العالم الإسلامي فإن القارة الآسيوية لم تعد غريبة عن القضية الجزائرية.

غير أن التضامن ضد الاستعمار كان يؤدي إلى إذابة فردانية الأمة الجزائرية وإفراغها في شكل كيان أممي. كان تقرير آيت شعلال، رئيس "إ.ع.ط.م.ج."، في المؤتمر الرابع يتضمن شهادة مضحكة عن تلك الوضعية حين تعرّض "لتحليل العلاقات مع المنظمات الأجنبية " قائلا:

" أريد (...) أن أقدم أهم الخصائص التي تطبع علاقاتنا مع العالم الخارجي (...).

1 – الكنفدرالية الشمال إفريقية للطلبة: فلئن تحدثتُ عنها في الفصل الخاص بالعلاقات الخارجية فتلك مجرد اعتبارات تكتيكية لأننا لا نشكل سوى قطعة من الكونفدرالية التي تمثل مجموع المغرب وفي حضنه تتحدد سياستنا الخارجية(...) وكما أعلننا في الميثاق "فإن الوحدة الشمال إفريقية حقيقة طبيعية وتاريخية. وبالرغم من الانقسام الاصطناعي إلى فضاءات متمايزة فإن مجموعاتنا لم ولن تشكل سوى شعبا واحدا قد ارتوى من نفس الحضارة ومن نفس الثقافة ويتقاسم نفس المصير ويطمح إلى تحقيق نفس الآمال".

2 - إفريقيا: نقطة أخرى من المفروض أن لا تُدرج ضمن خانة العلاقات الدولية إذ يتعلق الأمر بعلاقاتنا مع المنظمات الطلابية الإفريقية؛ وليس ثمة حالة واحدة من شأنها أن تجعل بعضنا أجنبيا عن الآخر. نحن ننتمي إلى نفس العائلة التي تعاني نفس المظالم وتخوض نفس المعركة من أجل تحقيق نفس المثل.

إنه لمن قبيل التعسف المجحف فصل إفريقيا عن آسيا ولقد كرّست ندوة Bandung تلك الحقيقة التاريخية: فالشعوب الإفريقية والآسيوية عرفت نفس المصير وهي تمرّ حاليا بنفس المراحل وتعاني نفس المحن. كفاحنا وأهدافنا واحدة.

هناك قضية أخرى ينبغي أن تعالج في إطار خاص جدا: إنها قضية إخواننا الطلبة العرب في الشرق الأوسط وباعتبارنا جزءا لا يتجزأ من العالم العربي ففي اعتقادنا أن الطلبة يجب أن يشغلوا طليعة حركة النهضة(...).

أريدُ أخيرا؛ أن أتطرق للحديث عن علاقاتنا الخارجية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى..."[53]

وهكذا فإن اقتران شتى أشكال التضامن العربي الإسلامي المعادي للاستعمار قد حوّل الأمة الجزائرية إلى كيان لا حدود له ما عدا الحدود التي تقيمها الحرب كحواجز ضد فرنسا الدولة. بل يمكن أن نضيف إليها أيضا أمريكا اللاتينية التي لم تتخلص شعوبها من كابوس الدول المسيطرة إلا لتقع تحت الهيمنة الاقتصادية الإنجليزية أو الأمريكية الشمالية. ذلك المصير كان يمثل بالنسبة للوطنيين الجزائريين تخلصا كاذبا من الاستعمار لم يكونوا يرغبون فيه. كانوا يتخذون التجربة الكوبية مثالا يقتدون به ويمكن تعميمه على القارة الإفريقية. هكذا تمددت الثنائية الآفرو- آسيوية لتتخذ أبعادا ثلاثية القارات. صارت قضية الجزائر قضية كل شعوب العالم الثالث التي كانت تناضل ضد الاستعمار القديم والجديد والإمبريالية.

53. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر الرابع ص. 36-41.

إن الأمة الجزائرية، باعتبارها مدرجة في أممية الشعوب المستعمرة. قد جازفت بالضياع في خضم أممية كل شعوب العالم المناضلة ضد الاستغلال الرأسمالي والحرب الإمبريالية أو، بعبارة أخرى، ضمن الأممية الشيوعية. ولقد كانت عقيدة عدد كبير من العساكر الفرنسيين أن العدو الذي يحاربونه في الجزائر هو الشيوعية، إما بطريقة مباشرة أو لا، وصحيح أن فكرة استقلال الجزائر قد تمت الدعوة إليها سنة 1924 من طرف الفرع الفرنسي في الأممية الشيوعية وأن نجم شمال إفريقيا، بزعامة مصالي الحاج، كان في الأصل مرتبطا بها. لكن التنظيمين الذين انفصلا عنه منذ سنة 1928 قد تعقدت أمورهما سنة 1936 عندما تخلى الحزب الشيوعي عن المطالبة باستقلال الجزائر. وبعد 1945 تحول الحزب الشيوعي من جديد إلى حزب وطني في الجزائر وحاول بفضل يوميته "الجزائر الجمهورية" أن يبثّ تأثيره في صفوف المناضلين المنتمين إلى الأحزاب الوطنية. حاول الحزب الشيوعي أن يشكل نقطة استقطاب لوحدتهم ونجح في ذلك جزئيا في سنة 1951- 1952 بمعية الجبهة الجزائرية للدفاع واحترام الحريات. تلك الجبهة التي كانت تتكامل معها الجبهة الموحدة للحركات الشبابية الجزائرية. كانت جميع تلك الأحزاب والحركات أو الجمعيات تساهم في المؤتمرات المنظمة من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفيتي وإقناع الولايات المتحدة الأمريكية بعدم استغلال تفوقها النووي أثناء الحرب الباردة: مؤتمرات السلام والمهرجانات العالمية للشبيبة ومؤتمرات الاتحاد الدولي للطلبة. في وقت لاحق قام "إ.ع.ط.م.ج." بتمتين العلاقة مع "إ.د.ط." ومع الفدرالية العالمية للشبيبة الديمقراطية. في مقال صدر في نشرة Est-ouest، بتاريخ 15 جوان 1958، عبّر كاتبه عن مخاوف بعض الأوساط الغربية أمام ذلك التحالف الدائم بين الوطنية الجزائرية والشيوعية.[54]

54. "تمرد وشيوعية: مثال "إ.ع.ط.م.ج." الشرق-الغرب (26) جوان 1958، ذكرته مجلة الصحافة لـ[illegible] البيض، بشارع بن شنب (قصبة الجزائر).

كان ذلك التحالف يُفسر بأنه موقف مناهضٌ للاستعمار وللإمبريالية التي يشترك فيها هؤلاء وهؤلاء. كان الوطنيون الجزائريون يحددون أنفسهم بحسب المواقف التي تتخذها القوى المعادية للاستعمار تجاه المطالب الجزائرية. وكانت عداوة الولايات المتحدة للاستعمار، عكس الاتحاد السوفيتي، قد أُفرغت من محتواها بفعل التحالف مع فرنسا؛ ولذلك فإن التأكيدات الأمريكية على ضرورة الوقاية من الخطر الشيوعي كانت تُقابلُ بالرفض: فالجزائر لم تكن تريد خوض غمار الحرب في صفّ من لا يعترفون بحقها في الاستقلال وضدّ أولئك الذين يدافعون عن هذا الحق. على عكس ذلك فإن الاتحاد السوفيتي، ورئيسه Staline، كانوا يتمتعون بسمعة طيبة حتى في الأوساط الأقل ثورية كما تظهره الصحافة المعتدلة. قد أعلنت نشرتا "الشاب الجزائري" و"الشاب المسلم" حزنهما على وفاة العبقري الذي تمكّن من دحر النازية وبناء الاشتراكية واجتناب الحرب؛ غير أن ذلك الوُد كان سطحيا ومؤسسا على سوء تفاهم.

بالفعل؛ إن ردود الأفعال المعادية للشيوعية قد شكلت، طيلة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، أمرا قديما قدم المبادرة الشيوعية ذاتها: فحزب الشعب الجزائري هو الذي كان السبّاق إلى الحذر من الحزب الشيوعي، بعد أن تعلم منه الأساليب الثورية، وصار يتوجه إلى نفس الفئات الشعبية وكان يرى فيه منافسا خطيرا. كان من السهل عليه التنديد بالمواقف المتضاربة تجاه المطالب الجزائرية بعد أن كان الحزب الشيوعي مؤيدا للاستقلال إلى غاية 1936 ثم للوحدة مع الشعب الفرنسي (ما عدا الفترة الممتدة من سبتمبر 1939 إلى جوان 1941) ثم للاستقلال من جديد، ابتداء من 1946-1947، لكن في إطار الاتحاد الفرنسي. إنّ مشاركة الحزب الشيوعي في الحكومة الفرنسية سنة 1945 وانخراط بعض أعضائه في مليشيات قالمة قد ظلت عالقة بالذاكرة. لقد كان يؤاخذ عليه محاولاته صرف الوطنية الجزائرية عن

كان ذلك التحالف يُفسر بأنه موقف مناهضٌ للاستعمار وللإمبريالية التي يشترك فيها هؤلاء وهؤلاء. كان الوطنيون الجزائريون يحددون أنفسهم بحسب المواقف التي تتخذها القوى المعادية للاستعمار تجاه المطالب الجزائرية. وكانت عداوة الولايات المتحدة للاستعمار، عكس الاتحاد السوفيتي، قد أُفرغت من محتواها بفعل التحالف مع فرنسا؛ ولذلك فإن التأكيدات الأمريكية على ضرورة الوقاية من الخطر الشيوعي كانت تُقابلُ بالرفض: فالجزائر لم تكن تريد خوض غمار الحرب في صفّ من لا يعترفون بحقها في الاستقلال وضدّ أولئك الذين يدافعون عن هذا الحق. على عكس ذلك فإن الاتحاد السوفيتي، ورئيسه Staline، كانوا يتمتعون بسمعة طيبة حتى في الأوساط الأقل ثورية كما تظهره الصحافة المعتدلة. قد أعلنت نشرتا "الشاب الجزائري" و"الشاب المسلم" حزنهما على وفاة العبقري الذي تمكّن من دحر النازية وبناء الاشتراكية واجتناب الحرب؛ غير أن ذلك الوُد كان سطحيا ومؤسسا على سوء تفاهم.

بالفعل؛ إن ردود الأفعال المعادية للشيوعية قد شكلت، طيلة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، أمرا قديما قدم المبادرة الشيوعية ذاتها: فحزب الشعب الجزائري هو الذي كان السبّاق إلى الحذر من الحزب الشيوعي، بعد أن تعلم منه الأساليب الثورية، وصار يتوجه إلى نفس الفئات الشعبية وكان يرى فيه منافسا خطيرا. كان من السهل عليه التنديد بالمواقف المتضاربة تجاه المطالب الجزائرية بعد أن كان الحزب الشيوعي مؤيدا للاستقلال إلى غاية 1936 ثم للوحدة مع الشعب الفرنسي (ما عدا الفترة الممتدة من سبتمبر 1939 إلى جوان 1941) ثم للاستقلال من جديد، ابتداء من 1946-1947، لكن في إطار الاتحاد الفرنسي. إنّ مشاركة الحزب الشيوعي في الحكومة الفرنسية سنة 1945 وانخراط بعض أعضائه في مليشيات قالمة قد ظلت عالقة بالذاكرة. لقد كان يؤاخذ عليه محاولاته صرف الوطنية الجزائرية عن

أهدافها وإقحام النضال الجزائري في الإستراتيجية العالمية التي تخطط لها قوة عظمى. ذلك ما أكده الطرح مقالٌ عنوانه: "ينبغي أن نظل محايدين إزاء أنصار السلام" حيث ورد: "يبحث الشيوعيون، اليوم، عن المساندة من طرف الشعب الجزائري وهو يحسن التمييز بين الغث والسمين ولقد رفض وضع الثقة فيهم. إن التزام موقف محايد لا يمثل مجرد انعزال عقيم بل هو موقف شجاع وإيجابي".[55] في هذا الموضوع؛ كان الحزب الشيوعي متهما بعدم كونه جزائريا خالصا وبأنه يدين بالتبعية للحزب الشيوعي الفرنسي وبأنه مندمج، فوق اللزوم، في الحركة الشيوعية العالمية. إن تشكيلته العرقية هي التي أوصلته إلى صياغة تعريف للأمة الجزائرية مخالف للتعريف الذي تبناه الوطنيون.[56]

### 3- الحدود الداخلية

إن الفكر الوطني الجزائري يتصور الأمة الجزائرية كيانا منفتحا بلا حدود عدا تلك التي يقيمها في وجه السياسة الفرنسية الرامية إلى السيطرة والاستيعاب؛ وبفعل الاحتلال والاستعمار فإن هذه الحدود الأخيرة مرسومة داخل الجزائر نفسها فليس من حق جميع سكانها، حتى وإن ولدوا في البلد أن يعتبروا أنفسهم جزائريين. أما سلالة الوافدين من فرنسا أو من غيرها من البلدان الأوروبية فقد كانوا يؤكدون على ذلك الانتماء بكل اعتزاز. لكن وطنية المعمرين لا يمكن أن تكون مماثلة لوطنية «الأهالي»؛ ولا تنطبق تسمية "جزائري"، بحق، إلا على الذي يمتلك إحساسا صادقا بالتضامن العميق مع جموع السكان.

---

55. الطالب المغاربي فيفري 1952.

56. حول الحزب الشيوعي الجزائري، انظر "إمانويل سيفان"، "الشيوعية والوطنية في الجزائر 1920-1962" (1976).

لقد اعترف الشيوعيون، مبكرا، بوجود قضية وطنية وذلك بدليل سبقهم إلى المطالبة باستقلال الجزائر، منذ سنة 1924، ثم تحويل المنطقة الجزائرية من الفرع الفرنسي للأممية الشيوعية إلى حزب يتمتع بذاتية خاصة في سنة 1936. غير أنهم تخلوا، في ذات الوقت وبطريقة فجائية، عن ذلك البرنامج مفضلين مساندة المؤتمر الإسلامي ومشروع Viollette-Blum. ولقد برَّر Maurice Thorez ذلك النكوص بقوله: "الحق في الطلاق لا يعني ضرورة حدوث الطلاق" (كما يثبته مثال الجمهوريات السوفيتية في آسيا الوسطى) فكان موقفُه مستلهما من الاتحاد السوفيتي أي الدعوة إلى تحقيق "وحدة حرة بين الشعبين الفرنسي والجزائري" فهو لم يتنكر لفكرة الأمة الجزائرية غير أنه كان يرى أنها في طريق التكون (...) بفضل امتزاج عشرين جنسا".[57] تلك طريقة ذكية في التنكر للثنائية الجنسية التي سلط الواقع الاستعماري بعضها على بعض ولربط الحق في تقرير المصير بمدى إمكانية انصهار الطرفين؛ ولقد ظلّت هذه النظرية مصدر الهام لسياسة الحزب الشيوعي الفرنسي والجزائري، بخصوص القضية الجزائرية، إلى غاية 1954 بل بعدها حتى ولو كانت حرب التحرير الوطنية قد بينت نقائصها المأساوية.

كان التصور الاتجاه الوطني على نقيض ذلك تماما؛ "فالشعب الجزائري"، الذي يطالب بيان سنة 1943 باستقلاله، هو الشعب الأصلي الموجود قبل سنة 1830 والذي صمد وقاوم طيلة قرن من الاستعمار والذي ظل شديد الوفاء لشخصيته العربية الإسلامية التقليدية حيث أنه رفض الاستيعاب من طرف الأمة الفرنسية وظل حريصا على تقرير مصيره وفق المبادئ الديمقراطية التي تعلّمها عن فرنسا.

57. ن.م. ص. 110-111.

هل صحيح أنه لم يبق أمام الفرنسيين من خيار غيرُ إعداد "الحقائب للرحيل أو التوابيت"، باعتبارهم أقلية في الجزائر؟ إن انتفاضة 8 ماي 1945، بفعل انتشار الذعر الذي تسببت فيه، أحلّت المخاوف في قلوبهم من احتمال مواجهة مصير مثل ذلك؛ غير أن حزب أحباب البيان والحرية، وأكثر منه الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان والديمقراطية، قد بذلا ما في وسعهما لطمأنتهم؛ ومهما كانت الأصول التي ينتمون إليها فإن كل من يرغب في أن يكون جزائريا سوف يجد مكانه ضمن الأمة الجزائرية من غير تمييز ولا امتياز. كان فرحات عباس، إلى غاية ماي 1955، يؤكد علنًا بأن الجزائر لا ينبغي أن تكون فرنسية ولا عربية ولكن جزائرية. فهذه الصيغة التوفيقية الموروثة عن إيديولوجية الشبان الجزائريين كانت مخالفة للموقف الوطني الخالص.

ومع ذلك؛ فإن شخصيات وطنية، لا يماري أحدٌ في وطنيتها، مدّت أيديها إلى فرنسيي الجزائر؛ فمنذ سنة 1952 كان الاتجاه المدافع عن الشرعية في حركة انتصار الحريات الديمقراطية يرى من المفيد الاتصال "بالليبراليين" لكي يتم تمييزهم عن "الاستعماريين" أو كسبهم إلى جانب فكرة الاستقلال وذلك عن طريق إقناعهم بأن الاستقلال هو الوسيلة الوحيدة لضمان مستقبل ذويهم في الجزائر.[58] ولقد تبنّت جبهة التحرير الوطني ذلك الموقف حين اقترحت على الفرنسيين الراغبين في البقاء بالبلد أن يختاروا بين أن يُعتبروا أجانب أو أن يتمتعوا بالجنسية الجزائرية كاملة؛ كما وعدت كل من يرغب في النضال ضمن صفوفها أن يُعتبر جزائريا بالميلاد. غير أنها لم تتخل عن تصورها للأمة الجزائرية: " العنصر الأوروبي، الذي لا علاقة له بتراث الوطني، لا يشكل جزءا من أمتنا غير أن من الممكن إدماجه في "البوتقة" الوطنية لأنه جدير بأن يثريها بعطاء جديد حين يتخلي عن أفكاره

58. أنظر اللائحة الختامية لأشغال المؤتمر الثاني ل"ح.ا ح.د"، حربي م.م، ص. 192.

الاستعمارية" بذلك صرح عبد الحميد مهري في المؤتمر الرابع ل"إ.ع.ط.م.ج."[59]

لا ينبغي التكتم عن الصعوبات التي يتضمنها الخيار المعروض على الجزائريين ذوي الأصل الأوروبي (أو «الأهالي» الإسرائيليين) فالأمر يعني (بالنسبة إليهم) القطيعة مع الذهنية التي جعلتهم يعتقدون أنهم كانوا يعيشون في فرنسا؛ مُعرضين، بكل راحة ضمير، عن وجود "العربي"؛ كما يعني هذا اكتساب طبائع أخرى تهدف إلى اعتبار العربي مواطنا مثيلا وإلى الاندماج في وسطه. الذين سلكوا هذا الطريق كانوا، على وجه الخصوص، من الطلبة أو من المثقفين؛ وكان أغلبهم يملكون استعدادات إيجابية سابقة بفضل قناعاتهم الشيوعية أو المسيحية التقدمية أو انتمائهم إلى الاتجاه اليساري.[60] إن المعاشرة الودية مع رفقاء مسلمين كانت، بالنسبة للجميع، عاملا حاسما في هذا الصدد؛ غير أن الحرب التحريرية كانت، بالنسبة للكثيرين، حاجزا لا يمكن اجتيازه: فالإرهاب قد أذكى حدة الشعور بالحذر والخوف المتبادل. يشهد Charles Gerobimi، وهو أحد تلاميذ فرانتز فانون، على تلك الحقيقة بقوله:

"يبدو لي من المفيد توضيح كيف أن بعض الطلبة الأوروبيين، ممن لم يسبق لهم أن تميزوا بماض نضالي، قد اختاروا أثناء هذه الحرب أن يكونوا جزائريين لمجرد اقتناعهم بالأفكار اليسارية؛ وصحيحٌ أن القلة منهم كانوا أوفياء لأفكارهم إلى حد مواصلة المشوار النضالي وإلى حد الالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني فلا ينبغي أن نلومهم على ذلك. إنني مدركٌ، عن تجربة، مبلغ التمزق الذاتي الذين يمكن أن تحدثه مثل هذه التجربة الراديكالية..."[61]

59. "إ.ع.ط.م.ج." المؤتمر 4، ص. 18 أنظر كذلك: التصريحات الأخرى لجبهة التحرير، الذي ذكرها اندريه مندوزي، " الثورة الجزائرية من خلال النصوص" ماسبيرو، الطبعة 1، 1961.

60. حول العلاقات بين الشيوعيين في "ح.ش.ج."، أنظر سيلفان م.م. ص. 206-259. حول مسيحيي الجزائر، أنظر اندريه نوزيير "الجزائر، المسيحيون في الحرب" كانا، 1979.

61. ملحق بكتاب فرانتز فانون، "العام 5 للثورة الجزائرية"، ماسبيرو، 1962، ص. 163-176، أنظر: الفصل 5 في نفس الكتاب، ص. 143-161، وشهادة "جزائري من نوع خاص" في "آفريقيا العمل" (92) جويلية 1962.

إن الذين تمادوا في عزمهم كانوا يرجون، من خلال مشاركتهم في الثورة الجزائرية، أن يضمنوا مستقبل ذويهم في الجزائر المستقلة؛ غير أن آمالهم خابت مرتين: أولا لأن جميع الفرنسيين الموجودين في الجزائر كانوا يربطون مصيرهم بمصير الجزائر الفرنسية ويرفضون العيش في دولة تحكمها جبهة التحرير الوطني. ثانيا لأن هذه الدولة لم تف بالوعود التي التزمت بها وباسمها. لم يمنح قانون الجنسية، الصادر سنة 1963، الحق في الجنسية بالميلاد سوى لمن يدين بالإسلام (حتى لمن تحصل على الجنسية الفرنسية منهم) أما الجزائريون ذوو الأصل الأوروبي أو اليهودي فكان عليهم أن يلتمسوها مهما بلغت درجة التزامهم بالقضية الوطنية.[62] كان على المناضلين والمتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني أن يتخذوا موقفا شخصيا من هذا التصرف المخيب وأن يستخلصوا منه أنهم كانوا غرباء عن الأمة الجزائرية.[63]

إنّ الخلاف الذي حصل بين الطلبة الجزائريين، بصدد تسمية اتحادهم يحمل دلالة كبيرة، في تلك الظرفية السياسية، فمؤسسو اتحاد الطلاب الجزائريين في باريس (وأصحاب مشروع إنشاء الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين) أعطوا لجمعيتهم بُعدًا وطنيا جزائريا ورفضوا التعريف بها وفق مقاييس دينية أو عرقية. كان القصد من ذلك هو التأكيد على أن حركة الطلاب ذات صبغة وطنية مفتوحة للجميع ولا تعادي أحدا باستثناء النظام الاستعماري؛ ولم يكونوا كلهم من الشيوعيين حيث أن "إ.و.ط.ج.ب." يضم جميع الطلبة الجزائريين المنخرطين والمتعاطفين مع الأحزاب المطالبة باستقلال الجزائر؛ ولقد صدق أحد المتتبعين الفرنسيين حين لاحظ أن تلك

62. أنظر برونو إيتيين، "أوربيو الجزائر، والاستقلال الجزائري" ص. 277-300.

63. أنظر تحليل ألبير ميمي، (م.م. ص. 99) حول "القضية التاريخية المستحيلة" ل"المستعمر اليساري" (المذكور من طرف سيلفان، م.م. ص. ٢٦٢).

إن الذين تمادوا في عزمهم كانوا يرجون، من خلال مشاركتهم في الثورة الجزائرية، أن يضمنوا مستقبل ذويهم في الجزائر المستقلة؛ غير أن آمالهم خابت مرتين: أولا لأن جميع الفرنسيين الموجودين في الجزائر كانوا يربطون مصيرهم بمصير الجزائر الفرنسية ويرفضون العيش في دولة تحكمها جبهة التحرير الوطني. ثانيا لأن هذه الدولة لم تف بالوعود التي التزمت بها وباسمها. لم يمنح قانون الجنسية، الصادر سنة 1963، الحق في الجنسية بالميلاد سوى لمن يدين بالإسلام (حتى لمن تحصل على الجنسية الفرنسية منهم) أما الجزائريون ذوو الأصل الأوروبي أو اليهودي فكان عليهم أن يلتمسوها مهما بلغت درجة التزامهم بالقضية الوطنية.[62] كان على المناضلين والمتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني أن يتخذوا موقفا شخصيا من هذا التصرف المخيب وأن يستخلصوا منه أنهم كانوا غرباء عن الأمة الجزائرية.[63]

إنّ الخلاف الذي حصل بين الطلبة الجزائريين، بصدد تسمية اتحادهم يحمل دلالة كبيرة، في تلك الظرفية السياسية، فمؤسسو اتحاد الطلاب الجزائريين في باريس (وأصحاب مشروع إنشاء الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين) أعطوا لجمعيتهم بُعدًا وطنيا جزائريا ورفضوا التعريف بها وفق مقاييس دينية أو عرقية. كان القصد من ذلك هو التأكيد على أن حركة الطلاب ذات صبغة وطنية مفتوحة للجميع ولا تعادي أحدا باستثناء النظام الاستعماري؛ ولم يكونوا كلهم من الشيوعيين حيث أن "إ.و.ط.ج.ب." يضم جميع الطلبة الجزائريين المنخرطين والمتعاطفين مع الأحزاب المطالبة باستقلال الجزائر؛ ولقد صدق أحد المتتبعين الفرنسيين حين لاحظ أن تلك

---

62. أنظر برونو إيتيين، "أوربيو الجزائر، والاستقلال الجزائري" ص. 277-300.

63. أنظر تحليل ألبير ميمي، (م.م. ص. 99) حول "القضية التاريخية المستحيلة" ل"المستعمر اليساري" (المذكور من طرف سيلفان، م.م. ص. ٢٦٢).

الجمعية كانت، على عكس "و.ط.م.ش.إ."، "تقبل في صفوفها ليس الطلبة المسلمين فحسب وإنما جميع الطلبة المولودين في الجزائر أو الساكنين فيها من غير تمييز عرقي أو ديني: سواء أكانوا أوروبيين أو إسرائيليين أو فرنسيين مسلمين. ولقد اعتمد الحزب الشيوعي الجزائري نفس القاعدة التي تؤكد أطروحاته بأن ثمة أمة جزائرية واحدة. إنّ القاعدة التي كان يجنِّدها هي التي مكنته من فُرص واسعة لتأسيس خلاياه لأن أغلب مناضليه لم يكونوا مسلمين".[64]

لعل التخوف من ذلك الحزب، الذي كانت وطنيته في حاجة إلى إثبات، هو الذي تسبب إلى حدٍّ كبير في غلبة أنصار "إ.ع.ط.م.ج." حتى وإن لم يُظهروا ذلك؛ فلقد فضلوا التحدث عن أسباب ثقافية، ذات مضمون سياسي واضح، أي عن ضرورة معارضة الاستيعاب وتأكيد ارتباط الطلبة بأصولهم؛ فمرجعية الثقافة العربية الإسلامية لم يكن لها مدلول ديني ولا عرقي. لقد أكد "إ.ع.ط.م.ج."، سنة 1956، أن "ليس له طابع ديني وأن تسميته لم تكن كذلك إلا لأن الظروف السياسية فرضتها وأن الطلبة من ذوي الأصول اليهودية أو الأوروبية لهم كامل الحق في الانضمام إلى الاتحاد".[65] وكان عليهم أن ينضموا إلى الأمة الجزائرية حسب التعريف الذي تمت صياغته من وجهة نظر وكنية محضة.

اضطرت الأمة الجزائرية، حفاظا على فرديتها، إلى عدم الانفتاح بصورة مطلقة فكان عليها أن ترفع، على الأقل، حاجزا واحدا أمام المشروع الفرنسي الرامي إلى الاحتلال والاستعمار والاستيعاب؛ ولم يكن في وسعها الرضا بالمساهمة الفرنسية، ثقافية كانت أو بشرية، من غير فرز واختيار ما

64. شرق-غرب المقال المذكور، أنظر حربي م.م. ص. 175 (رؤوس أقلام رقم 37).

65. شرق-غرب، المقال المذكور، (يتحدث عن تقرير وفود "إ.و.ط.ف." و"الاتحاد الدولي للطلبة" في كولومبو "أخبار إ.و.ط.ف." (39) سبتمبر 1956.

ينسجم مع خصوصياتها الذاتية. كان الشعب الجزائري، بفضل امتيازه عن النخبة التي استبدلت ثقافة بأخرى أو تجردت من ثقافتها، الحارس الأمين للأصالة الوطنية.

### ج) مفهوم الشعبوية المعقّد

تبنت الأمة الجزائرية مبدأ تعريف نفسها، قبل كل شيء، على أساس مرجعية الانتماء إلى "الشعب الجزائري" فالشعبوية سبقت الوطنية ثم رافقت مراحل تطورها قبل أن تحل محلها بعد الاستقلال مرتدية ثوب الاشتراكية. يكتسب مفهوم "الشعب" قوّته من الغموض الذي يكتنفه؛ ولهذه اللفظة مدلولات ثلاث، في اللغة الفرنسية، تُميّز كل مدلول عن الآخر؛ وتنطبق هذه اللفظة، بالمعنى الأكثر عمومية، على كل نوع من أنواع المجموعات البشرية فيمكن أن يكون مرادفا لكلمة أمة أو جنسية أو مجتمع بل حتى لمجموعة دينية.[66] أما في معناها السياسي فهي تعني جميع الهيئة المدنية ومجموعة المواطنين الذين تنبثق السيادة من إرادتهم العامة؛ وأخيرا تدلّ اللفظة، بالمعنى الاجتماعي، على الطبقة الكادحة في مجتمع ما باستثناء النخب التي تتميز عنها بسلطتها وثرائها وثقافتها. وهكذا؛ فإن الشعب هو تارة جميع أفراد مجموعة ما وتارة أخرى هو الأغلبية التي تُسيِّرها الأقلية؛ وتميز اللغة اللاتينية بين هذين المفهومين باستعمال مصطلحين هما: populus (الشعب) وplèbes (العامة).

إنّ الخاصية التي تميز لفظة populisme (أو الشعبوية) تكمن في التلاعب الدائم على وتر ذلك الغموض السيميائي؛ ولقد ظهرت هذه الإيديولوجية إلى الوجود في القرن الثامن عشر باعتبارها رد فعل ضد انصهار النخب المنتمية إلى أصقاع أوربية مختلفة واتخاذها اللغة الفرنسية كقاطرة لتوصيل الأفكار العصرية ("عصر التنوير") تاركة للطبقات الشعبية استعمال لغاتها الوطنية. كان

66. مثلا الشعب المسيحي، ونفس الطيف الدلالي موجود في الكلمة العربية "الشعب".

رد الفعل ذاك عنيفا وبالخصوص في ألمانيا حيث اكتسى التحمس للثقافة الشعبية (للفلكلور) التقليدية آخر معاقل الشخصية الوطنية. بدأت هذه الحركة في الحقل الثقافي قبل أن تكتسب شكلا سياسيا واضحا وتنتشر في جميع البلدان الأوروبية تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية (السيادة الشعبية حق الشعوب في تولي شؤونها) ثم كردّ فعل ضد التوسعية التي انتهجتها "الأمة العظيمة" وأخيرا ضد تجديد العهد لمبدأ توارُث السلطة بواسطة معاهدات 1815. تأسّست الوطنية الألمانية على الإيمان "بالعبقرية الوطنية" (Volkstum) الناقمة بشكل لا رجعة فيه على الوحدة الثقافية والسياسية التي فرضها نابليون. يعبِّر مصطلح "Volk"، بشكل أقوى، عن ازدواجية مفهوم الوطنية والمجتمعية في كلمة "الشعب"؛ غير أن الغموض الذي تحمله الكلمة أهلّها لكي تتلاعب بها الطبقات الحاكمة كما فعلت دولة بروسيا.

ظهرت الشعبوية، في شكلها الكلاسيكي، أول مرة في روسيا. إن لفظة (Volkstum) وترجمها لفظة (Narodnost) قد احتُفل بظهورها كتيَّار فكري يحثُّ على الشعبوية السلافية (Slaves) المناهضة للدعوة إلى تقليد أوروبا التي يقوم بها أنصار الثقافة الغربية. غير أن الشعبوية الحقيقية أفرزت نتاجا أصيلا من تركيب هذين التيارين المتعارضين استلهم الإيديولوجية الاشتراكية من الغرب ولكنه رفض النمط الرأسمالي في التصنيع؛ وحيث أنّ الشعبويين وجدوا المُثل الاشتراكية مجسدة في المجموعة الفلاحية الروسية القديمة فإنهم رفضوا التخلي عنها لصالح النموذج الغربي وتعريض الفلاح إلى الانتشال من جذوره لتحويله إلى بروليتاريا تُستغل بغير شفقة ولا رحمة. لقد أيدوا إذن وضع حدٍّ لاستعباد الفلاحين من طرف القيصر، ألكسندر الثاني، ولكنهم عارضوا سياسته في التحرير من غير ملكية الأرض أو اشتراط دفع ثمن شرائها. كانت الشعبوية الروسية معركة خاسرة خاضها بعض المثقفين من أجل إنقاذ نمط الحياة والقيم التقليدية لمجتمع قروي في

رد الفعل ذاك عنيفا وبالخصوص في ألمانيا حيث اكتسى التحمس للثقافة الشعبية (للفلكلور) التقليدية آخر معاقل الشخصية الوطنية. بدأت هذه الحركة في الحقل الثقافي قبل أن تكتسب شكلا سياسيا واضحا وتنتشر في جميع البلدان الأوروبية تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية (السيادة الشعبية حق الشعوب في تولي شؤونها) ثم كردّ فعل ضد التوسعية التي انتهجتها "الأمة العظيمة" وأخيرا ضد تجديد العهد لمبدأ توارُث السلطة بواسطة معاهدات 1815. تأسّست الوطنية الألمانية على الإيمان "بالعبقرية الوطنية" (Volkstum) الناقمة بشكل لا رجعة فيه على الوحدة الثقافية والسياسية التي فرضها نابليون. يعبِّر مصطلح "Volk"، بشكل أقوى، عن ازدواجية مفهوم الوطنية والمجتمعية في كلمة "الشعب"؛ غير أن الغموض الذي تحمله الكلمة أهلّها لكي تتلاعب بها الطبقات الحاكمة كما فعلت دولة بروسيا.

ظهرت الشعبوية، في شكلها الكلاسيكي، أول مرة في روسيا. إن لفظة (Volkstum) وترجمها لفظة (Narodnost) قد احتُفل بظهورها كتيًار فكري يحثُّ على الشعبوية السلافية (Slaves) المناهضة للدعوة إلى تقليد أوروبا التي يقوم بها أنصار الثقافة الغربية. غير أن الشعبوية الحقيقية أفرزت نتاجا أصيلا من تركيب هذين التيارين المتعارضين استلهم الإيديولوجية الاشتراكية من الغرب ولكنه رفض النمط الرأسمالي في التصنيع؛ وحيث أنّ الشعبويين وجدوا المثُل الاشتراكية مجسدة في المجموعة الفلاحية الروسية القديمة فإنهم رفضوا التخلي عنها لصالح النموذج الغربي وتعريض الفلاح إلى الانتشال من جذوره لتحويله إلى بروليتاريا تُستغل بغير شفقة ولا رحمة. لقد أيدوا إذن وضع حدٍّ لاستعباد الفلاحين من طرف القيصر، ألكسندر الثاني، ولكنهم عارضوا سياسته في التحرير من غير ملكية الأرض أو اشتراط دفع ثمن شرائها. كانت الشعبوية الروسية معركة خاسرة خاضها بعض المثقفين من أجل إنقاذ نمط الحياة والقيم التقليدية لمجتمع قروي في

رد الفعل ذاك عنيفا وبالخصوص في ألمانيا حيث اكتسى التحمس للثقافة الشعبية (للفلكلور) التقليدية آخر معاقل الشخصية الوطنية. بدأت هذه الحركة في الحقل الثقافي قبل أن تكتسب شكلا سياسيا واضحا وتنتشر في جميع البلدان الأوروبية تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية (السيادة الشعبية حق الشعوب في تولي شؤونها) ثم كردّ فعل ضد التوسعية التي انتهجتها "الأمة العظيمة" وأخيرا ضد تجديد العهد لمبدأ تواُرث السلطة بواسطة معاهدات 1815. تأسّست الوطنية الألمانية على الإيمان "بالعبقرية الوطنية" (Volkstum) الناقمة بشكل لا رجعة فيه على الوحدة الثقافية والسياسية التي فرضها نابليون. يعبِّر مصطلح "Volk"، بشكل أقوى، عن ازدواجية مفهوم الوطنية والمجتمعية في كلمة "الشعب"؛ غير أن الغموض الذي تحمله الكلمة أهلّها لكي تتلاعب بها الطبقات الحاكمة كما فعلت دولة بروسيا.

ظهرت الشعبوية، في شكلها الكلاسيكي، أول مرة في روسيا. إن لفظة (Volkstum) وترجمها لفظة (Narodnost) قد احتُفل بظهورها كتيّار فكري يحثّ على الشعبوية السلافية (Slaves) المناهضة للدعوة إلى تقليد أوروبا التي يقوم بها أنصار الثقافة الغربية. غير أن الشعبوية الحقيقية أفرزت نتاجا أصيلا من تركيب هذين التيارين المتعارضين استلهم الإيديولوجية الاشتراكية من الغرب ولكنه رفض النمط الرأسمالي في التصنيع؛ وحيث أنّ الشعبويين وجدوا المثُل الاشتراكية مجسدة في المجموعة الفلاحية الروسية القديمة فإنهم رفضوا التخلي عنها لصالح النموذج الغربي وتعريض الفلاح إلى الانتشال من جذوره لتحويله إلى بروليتاريا تُستغل بغير شفقة ولا رحمة. لقد أيدوا إذن وضع حدٍّ لاستعباد الفلاحين من طرف القيصر، ألكسندر الثاني، ولكنهم عارضوا سياسته في التحرير من غير ملكية الأرض أو اشتراط دفع ثمن شرائها. كانت الشعبوية الروسية معركة خاسرة خاضها بعض المثقفين من أجل إنقاذ نمط الحياة والقيم التقليدية لمجتمع قروي في

رد الفعل ذاك عنيفا وبالخصوص في ألمانيا حيث اكتسى التحمس للثقافة الشعبية (للفلكلور) التقليدية آخر معاقل الشخصية الوطنية. بدأت هذه الحركة في الحقل الثقافي قبل أن تكتسب شكلا سياسيا واضحا وتنتشر في جميع البلدان الأوروبية تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية (السيادة الشعبية حق الشعوب في تولي شؤونها) ثم كردّ فعل ضد التوسعية التي انتهجتها "الأمة العظيمة" وأخيرا ضد تجديد العهد لمبدأ توارُث السلطة بواسطة معاهدات 1815. تأسّست الوطنية الألمانية على الإيمان "بالعبقرية الوطنية" (Volkstum) الناقمة بشكل لا رجعة فيه على الوحدة الثقافية والسياسية التي فرضها نابليون. يعبِّر مصطلح "Volk"، بشكل أقوى، عن ازدواجية مفهوم الوطنية والمجتمعية في كلمة "الشعب"؛ غير أن الغموض الذي تحمله الكلمة أهلّها لكي تتلاعب بها الطبقات الحاكمة كما فعلت دولة بروسيا.

ظهرت الشعبوية، في شكلها الكلاسيكي، أول مرة في روسيا. إن لفظة (Volkstum) وترجمها لفظة (Narodnost) قد احتُفل بظهورها كتيّار فكري يحثُ على الشعبوية السلافية (Slaves) المناهضة للدعوة إلى تقليد أوروبا التي يقوم بها أنصار الثقافة الغربية. غير أن الشعبوية الحقيقية أفرزت نتاجا أصيلا من تركيب هذين التيارين المتعارضين استلهم الإيديولوجية الاشتراكية من الغرب ولكنه رفض النمط الرأسمالي في التصنيع؛ وحيث أنّ الشعبويين وجدوا المُثل الاشتراكية مجسدة في المجموعة الفلاحية الروسية القديمة فإنهم رفضوا التخلي عنها لصالح النموذج الغربي وتعريض الفلاح إلى الانتشال من جذوره لتحويله إلى بروليتاريا تُستغل بغير شفقة ولا رحمة. لقد أيدوا إذن وضع حدٍّ لاستعباد الفلاحين من طرف القيصر، ألكسندر الثاني، ولكنهم عارضوا سياسته في التحرير من غير ملكية الأرض أو اشتراط دفع ثمن شرائها. كانت الشعبوية الروسية معركة خاسرة خاضها بعض المثقفين من أجل إنقاذ نمط الحياة والقيم التقليدية لمجتمع قروي في

طريق الاضمحلال؛ ولقد حاولوا، في بعض الأحيان، "التوجه نحو الشعب" وذلك بالانقطاع عن الجامعات كي يقدموا له المعارف التي هو في حاجة إليها. بعد أن فقدوا الأمل نتيجة لمحاولاتهم الفاشلة لم يجد بعضهم من ملاذ سوى في العمل الإرهابي ضد ركائز النظام القيصري. تُساعدنا هذه المغامرة على إيجاد أوجه تشابه مثيرة مع التجربة التي خاضها المثقفون الجزائريين مهما كانت طبيعة اختلافها؛ ولقد كانوا بأنفسهم واعين بذلك[67]

## 1- من الشعبوية إلى الوطنية

ومع ذلك فإن شعبويتهم كانت تعبيرا صادقا عن أحوالهم الخاصة، بصفتهم أقلية يجتذبها مجتمعان متعاديان، فلقد حاولوا الانضمام إلى مجتمع معلميهم من غير أن يقطعوا الصلة بمجتمع أسلافهم. غير أن المجتمعين، المتميزين أيضا بخاصية الإقصاء، كانا يفرضان عليهم وفاء لا مقاسمة فيه؛ ونفهم كيف أن أغلبية المثقفين المسلمين الجزائريين حاولوا اجتناب الخيار ولكنهم فضلوا في نهاية الأمر الوقوف إلى جانب أهليهم من وسطهم الطبيعي.

لقد كان مشكوكا في أمرهم مرتين في نظر ذويهم: باعتبارهم مجموعة مسخرة لعملية استبدال ثقافي مكثف، من طرف سلطة أجنبية، لأنهم متهمون بكونهم قد ولوا الأدبار للغتهم ولدينهم وللسلوك التقليدي السائد في أوساطهم الاجتماعية وأصبحوا بالنسبة إليه أجانب.[68] ثم باعتبارهم طبقة

---

67. أنظر فرانكو فينتوري "البوبيليزمو روسو" تورينو 1952، ترجمة فرنسية : "المثقفون، الشعب والثورة" غاليمار 1972، جزءان. تأثير مسرحية كاميو، "الرجل العدل" (1950) كان أكثر احتمالا. (انظر أحمد طالب : "ألبير كاميو من منظور مثقف جزائري" في "من التخلص من الاستعمار إلى الثورة الثقافية" ص. 174-175.

68. كان القرويون "يرددون بأسى بأن الفرنسيين قد أخذوا ابن فلان. "حسب عبد الحميد مهري. إ.ع.ط.م.ج. المؤتمر 4 ص، 15.

طريق الاضمحلال؛ ولقد حاولوا، في بعض الأحيان، "التوجه نحو الشعب" وذلك بالانقطاع عن الجامعات كي يقدموا له المعارف التي هو في حاجة إليها. بعد أن فقدوا الأمل نتيجة لمحاولاتهم الفاشلة لم يجد بعضهم من ملاذ سوى في العمل الإرهابي ضد ركائز النظام القيصري. تُساعدنا هذه المغامرة على إيجاد أوجه تشابه مثيرة مع التجربة التي خاضها المثقفون الجزائريين مهما كانت طبيعة اختلافها؛ ولقد كانوا بأنفسهم واعين بذلك[67]

## 1- من الشعبوية إلى الوطنية

ومع ذلك فإن شعبويتهم كانت تعبيرا صادقا عن أحوالهم الخاصة، بصفتهم أقلية يجتذبها مجتمعان متعاديان، فلقد حاولوا الانضمام إلى مجتمع معلميهم من غير أن يقطعوا الصلة بمجتمع أسلافهم. غير أن المجتمعين، المتميزين أيضا بخاصية الإقصاء، كانا يفرضان عليهم وفاء لا مقاسمة فيه؛ ونفهم كيف أن أغلبية المثقفين المسلمين الجزائريين حاولوا اجتناب الخيار ولكنهم فضلوا في نهاية الأمر الوقوف إلى جانب أهليهم من وسطهم الطبيعي.

لقد كان مشكوكا في أمرهم مرتين في نظر ذويهم: باعتبارهم مجموعة مسخرة لعملية استبدال ثقافي مكثف، من طرف سلطة أجنبية، لأنهم متهمون بكونهم قد ولوا الأدبار للغتهم ولدينهم وللسلوك التقليدي السائد في أوساطهم الاجتماعية وأصبحوا بالنسبة إليه أجانب.[68] ثم باعتبارهم طبقة

67. أنظر فرانكو فينتوري "إلبوبيليزمو روسو" تورينو 1952. ترجمة فرنسية : "المثقفون، الشعب والثورة" غاليمار 1972، جزءان. تأثير مسرحية كاميو. "الرجل العدل" (1950) كان أكثر احتمالا. (انظر أحمد طالب : "البير كاميو من منظور مثقف جزائري" في "من التخلص من الاستعمار إلى الثورة الثقافية" ص. 174-175.

68. كان القرويون "يرددون بأسى بأن الفرنسيين قد أخذوا ابن فلان. "حسب عبد الحميد مهري. إ.ع.ط.م.ج. المؤتمر 4 ص. 15.

محظوظة بالعلم الذي اكتسبته فهم يظهرون بمظهر برجوازية جديدة أفلتت من ظروف البؤس التي يعاني منها شعبها ولم تعد تهتم بحاجاته. إزاء هذين العيبين المتكاملين كان رد فعل المثقفين المسلمين يتجلى من خلال سلوك يطبعه توبيخ الضمير ويمكن أن نسميه "عقدة النُّكار"؛ وحيث أنهم كانوا مرغمين على تبرير سلوكهم قد اجتهدوا في إقناع وسطهم بأنهم، عكس ما توحي به المظاهر، لم يتنكروا له بل ظلوا أوفياء لقيمه ومدافعين عن مصالحه؛ والنتيجة أنهم قد أسرّوا في نفسهم تلك الأحكام الصادرة ضدهم ورفضوا تبوء مكانة النخبة لكي يحمسوا شعبهم باعتباره مدخرا للقيم ومصدر الشرعية. لم يكن المثقف الجزائري يطمح إلى تكريم أغلى وأنبل من أن يلقب بلقب "ابن الشعب".

مع ذلك؛ فإن أوائل الشباب المثقفين الجزائريين لم يظهر عليهم وعيٌ معين بوجود تناقض بين طموحاتهم وطموحات شعبهم. وعلى عكس ذلك؛ فإن شريف بن حبيلس كان يمتدح فيه ذلك الاستعداد للاستيعاب: شريطة أن تقوم المدرسة الفرنسية بتنويره. إن تطوير التعليم، حسب رأيهم، كان وحده الكفيل بإزالة كل سوء تفاهم محتمل بين النخبة المتفرنسة وشعبها وذلك بانتشالها من قيادة النخبة الكاذبة المتأخرة قيادة العمائم القديمة. وهكذا فقد كان في متناول الشبان الجزائريين أن يتقدموا إلى شعبهم، من غير استصغاره، باعتبارهم نخبة بل طليعة وأن يبينوا له من خلال تجاربهم الخاصة السبيل الأمثل سبيل التقدم عن طريق العلم.

هذا الدور الطلائعي، داخل مجتمع «الأهالي»، قد تم تبنيه من طرف المثقفين المنتمين إليه قبل اندلاع الحرب الكبرى وبعده. كان الطالب سعدان (طالب في الطب وأمين عام "و.ط.م.ش.إ." سنة 1920) قد عرّف، وقتها، مُثله الاجتماعية كما يلي: "بعيدا عن كل ممارسة سياسية (...) بتقديم المثل في العمل وبالاتصال المستمر بالناس الذين يشتركون معنا في الدين وبالوجهة

الصحيحة التي نحاول أن نرشد إليها طموحاتهم فإننا نريد أن نعين "على ترقيتهم المعنوية".[69]

من جديد صاغ الدكتور سعدان هذا "البرنامج الجميل" سنة 1929 كما يلي: "طموحين قلتم؟ لا شك في أننا كذلك. فبعض التطور في قدراتنا العقلية، بالإضافة إلى وضع اجتماعي معين، لا يمنحاننا مجرد الحق في الأخذ بزمام الأمور بل يلزماننا على ذلك. إن دورنا مسطر وواضح فيجب أن نشغل محل الصدارة داخل الطبقات الشعبية (...) وتوجيهها نحو النور ومعرفة مقتضيات الحياة العصرية ونحو عشق العمل المحرر والاقتصاد الذي يمثل مصدر كل ثروة والنظافة الذي تكفل سلامة الجسد (...)"[70]

كان فرحات عباس يُعبِّر عن نفس المُثل حين بادر إلى نشر جريدة "الشاب الجزائري" وإنشاء جريدة "التلميذ". كانت أغلبية الشباب الجزائري، إلى غاية سنة 1936، تعتبر نفسها الممثلة الأصيلة لمشاعر شعبها والمدافعة العارفة بمصالحه.

ومع ذلك؛ فإن ذلك الدور المثالي ما لبث طويلا حتى تم التصدي لمشروعيته. قبل سنة 1914؛ كان الرأي العام التقليدي يعتبر بعض القادة في حركة الشباب الجزائري أو البارزين منهم على الأقل خائنين لشريعتهم وسياسيين يطمحون فقط إلى امتهان السياسة عن طريق استغلال مواطنيهم وإيهامهم بأنهم يدافعون عن مصالحهم. بعد سنة 1919 كان سلوك الدكتور بن تامي مصداقا لتلك التهم. إن انزلاق الحركة في بؤرة الصراعات الشخصية وعجزها عن الذهاب بالقضية الجزائرية إلى أبعد من إصلاحات 1919 قد ألقت الشبهة حول سمعة النخبة التي بدت في نظر الناس فئة برجوازية راضية بحالها.

69. "الإقدام" (43-44)، 30-23 افريل 1920، ص. 2.

70. "صوت «الأهالي»" (22) 7-11-1929.

تضاعفت، قبيل الذكرى المئوية للاحتلال، صيحات الاستغاثة: فمجلة "صوت »الأهالي«"، التي أنشئت سنة 1929، لم تفتأ تحرض المثقفين على الصحوة من غفوتهم. ولقد اختار الدكتور سعدان صفحاتها ليوجه التهم إليهم قائلا: "يجب الخروج من حالة الذهول التي نعيش فيها وتقديم مساعدتنا للرجال المخلصين وبكلمة واحدة؛ تقديم أدلة تثبت وجودنا (...) إن الدور المنوط بنا واضح وهو تولى مقام الصدارة وسط الجموع التي ننتمي إليها وجعلها تتراجع عن مشاعر الحيطة التي تضمرها إزاءنا من غير مبرر (...)". ولتحقيق هذا "البرنامج الجميل" "ينبغي علينا التصدي أيضا لمحاربة السياسيين" الذين يُسيئون إلى سمعة المثقفين بأعمالهم المضرة.[71] في العام الموالي دعا محمد بن سعيد، وهو نائب الرئيس الجزائري ل"و.ط.م.ش.إ"، من خلال صحيفة "صوت البسطاء" النخبة إلى مراجعة الضمير: "إذا كانت عامة المسلمين توجه أصابع الاتهام إلى النخبة فلأن هذه الأخيرة تتنكر لتطلعاتها وتعمل في الاتجاه المعاكس لتوجهاتها الأساسية"؛ إن المسلمين الجزائريين لا يجدون أي فخار في انتساب المثقفين إليهم لأن هؤلاء يحتقرونهم وفي نفس الوقت يدعون العمل باسمهم: "إن همهم الكبير، في المجال السياسي، هو خدمة مصالحهم الخاصة عوض مصالحنا". تساءل الكاتب: هل في وسع النخبة "أن تتجاوز أنانيتها وتكون متواضعة القلب وتتوجه إلى شعبها كما يتوجه المرء نحو أخيه بإرادة خالصة ووجه صبوح ويد ممدودة"؟[72] كذلك فعل س. فاسي، مدير مجلة المعلمين، وهو يختصر واجب المثقفين »الأهالي« تجاه أمثالهم من المسلمين فيقول: "بساطة وطيبة تتجسدان في عمل اجتماعي لا ترجي منه أية فائدة خاصة.[73] ويُشاطره

71. ن.م.

72. "صوت البسطاء" (83) جانفي 1930 ص. 2 و6.

73. ن.م. ملحق ل (98) افريل 1931.

74. ذكرت حسب لوفان -الطالب الكاثوليكي الجزائري. (2) جانفي 1932، ص. 31.

فرحات عباس أيضا تلك المشاعر: ضرورة الإسراع بالعمل الاجتماعي وضرر السياسة السياسوية. أما جريدة "التلميذ" وهي مجلة تربية اجتماعية مستلهمة من "صوت البسطاء" فقد شرحت الأسباب التي أدت إلى ظهورها بهذه العبارات: "المساهمة في إبعاد رياح الجنون التي أصابت البرجوازية المسلمة في الجزائر بينما ينقرض جنسنا تحت تأثير الجهل والبؤس"[74] وقام إبان المؤتمر الثالث للطلبة الشمال إفريقيين، سنة 1933، بالتنديد "ببرجوازيتنا المتعفنة" التي تتصدى لمحاربة كل المبادرات الشبابية"[75] وهكذا ندد المثقفون الشباب المناضلون بالروح البرجوازية وعملوا على محاربة الخلط الذي يحدث لدى الرأي العام «الأهالي» بين النخبة والبرجوازية.

ومع ذلك؛ فإن الطلبة أنفسهم لم يسلموا من حملة التشكيك التي مست من سبقهم من القدماء الحاصلين على شهادات. حتى "صوت «الأهالي»" التي يصدرها زناتي كانت في بعض الأحيان تكشف عن بعض المخاوف تجاههم. تعرضت إدارة التحرير لعمار نارون بشدة بصدد مقالة رأت أنها قد امتدحت، زيادة عن اللزوم، الطالب الأهلي في سنة 1930 وهو "المثال الصادق للطالب العصري". كان يوصف بأنه: "محرر من عقدة الاستصغار وراغب في لعب دور اجتماعي مفيد وحريص على كرامته. "جميع طلبتنا"، حسب زعمه، "يعرفون مدى حساسية العلاقات التي تربطهم بجماهيرنا العريضة؛ وإن الشبيبة الطلابية ظلت مرتبطة بقوة بالعادات السليمة والقيم الموروثة عن جنسنا العريق". لقد أنكرت تعقيبات إدارة التحرير، بشدّة، تلك الرؤى المغرقة في الإطراء بقولها:

"سنكون سعداء جدا لو أن الحيوية الكثيفة التي وجدها صديقنا الشاب لدى رفاقه تستمر في حقل الحياة: إن قيمة جيل من الأجيال لا تتأتى

75. تقرير الشرطة حول المؤتمر الثالث (APP série BA carton ASS857-5).

بالأحاديث المثيرة والأفكار المجردة ولكن باستمرارية الجهد وبالمثل العليا وبالوعي الناصع بالواجبات تجاه أهله وذويه. فإذا هللنا لاضمحلال نوعية طلاب «الأهالي» السابقة فإننا نخشى بالمقابل الطالب الموغل في الحداثة والذي يحمل كثيرا من عيوب العصر وقليل من سخاء القلب".[76]

كذلك الشأن بالنسبة للمغامرة التي عاشها أعضاء من "و.ط.م.ج." والتي تحمل دلالة خاصة؛ فلقد اتهمهم زناتي بالخيانة حين التمسوا مقابلة الحاكم العام Carde القادم من باريس للتصدي لوفد المنتخبين «الأهالي» سنة 1933.

كان ردهم على ذلك يعبر عن انزعاج صادق ناتج عن تهورهم الذي أدى إلى توجيه اتهامات شائنة لهم: "حيث أنّ ثقافة الشبيبة المسلمة قد أذكت فيهم الإحساس وجعلتهم يفقهون تعقيدات العالم الراهن فلم يعودوا يرضون بأن يكونوا في وضع أدنى من شباب بقية البلدان ولكن سبق التلفظ بتهمة الخيانة في حقهم؛ ومهما يكن فإن الشباب بفضل فهمم الذكي للأحداث والأشخاص فإنهم عقدوا العزم على عدم تخييب آمال الشعب الذي ينتمون إليه".

غير أنهم لا ينوون التنازل عن حريتهم في إصدار الأحكام لمجرد السير الأعمى وراء الرأي العام السائد في أوساط شعبهم:

"إن الشبيبة؛ نظرا لتخليها عمداً عن الإيديولوجيات الباطلة التي تشكل مرجعية عادية لنظرائهم في الدين فهي تعتقد أنه لا يوجد ثمة من يرفض لها الحق في أن تكون أكثر واقعية عندما يتعلق الأمر بطموحاتها؛ وبما أن الطلبة واعين بالواجب المنوط بهم فإنهم قرروا أن يرشدوا السكان المسلمين بشأن كل الجهود التي يحاولون بذلها وأن يتعاونوا معهم".[77]

هكذا تحمّل الطلبة ما أنيط بهم من مسؤوليات تجاه شعبهم ولكن من غير ادعاء قيادته.

76. "صوت «الأهالي»" (80) 11-12-1933 ص.3.

77. "الإقدام" (42) 10-8-1933 ص. 3.

بالأحاديث المثيرة والأفكار المجردة ولكن باستمرارية الجهد وبالمثل العليا وبالوعي الناصع بالواجبات تجاه أهله وذويه. فإذا هللنا لاضمحلال نوعية طلاب «الأهالي» السابقة فإننا نخشى بالمقابل الطالب الموغل في الحداثة والذي يحمل كثيرا من عيوب العصر وقليل من سخاء القلب".[76]

كذلك الشأن بالنسبة للمغامرة التي عاشها أعضاء من "و.ط.م.ج." والتي تحمل دلالة خاصة؛ فلقد اتهمهم زناتي بالخيانة حين التمسوا مقابلة الحاكم العام Carde القادم من باريس للتصدي لوفد المنتخبين «الأهالي» سنة 1933. كان ردهم على ذلك يعبر عن انزعاج صادق ناتج عن تهورهم الذي أدى إلى توجيه اتهامات شائنة لهم: "حيث أنّ ثقافة الشبيبة المسلمة قد أذكت فيهم الاحساس وجعلتهم يفقهون تعقيدات العالم الراهن فلم يعودوا يرضون بأن يكونوا في وضع أدنى من شباب بقية البلدان ولكن سبق التلفظ بتهمة الخيانة في حقهم؛ ومهما يكن فإن الشباب بفضل فهمم الذكي للأحداث والأشخاص فإنهم عقدوا العزم على عدم تخييب آمال الشعب الذي ينتمون إليه".

غير أنهم لا ينوون التنازل عن حريتهم في إصدار الأحكام لمجرد السير الأعمى وراء الرأي العام السائد في أوساط شعبهم:

"إن الشبيبة؛ نظرا لتخليها عمداً عن الإيديولوجيات الباطلة التي تشكل مرجعية عادية لنظرائهم في الدين فهي تعتقد أنه لا يوجد ثمة من يرفض لها الحق في أن تكون أكثر واقعية عندما يتعلق الأمر بطموحاتها؛ وبما أن الطلبة واعين بالواجب المنوط بهم فإنهم قرروا أن يرشدوا السكان المسلمين بشأن كل الجهود التي يحاولون بذلها وأن يتعاونوا معهم".[77]

هكذا تحمّل الطلبة ما أنيط بهم من مسؤوليات تجاه شعبهم ولكن من غير ادعاء قيادته.

---

76. "صوت «الأهالي»" (80) 11-12-1933 ص.3.

77. "الإقدام" (42) 10-8-1933 ص. 3.

إن النقد الوارد في "صوت «الأهالي»" كان يستهدف جمود المتخرجين. والطلبة أيضا، في المجالات الاجتماعية وطموحهم السياسي من غير تعرّض لاستيعابهم الثقافي. غير أن الرأي العام السائد في أوساط المسلمين ينظر إلى المثقفين المتفرنسين على أنهم برجوازيين أنانيين ويعتبر أن تفرنسهم ذاك هو السبب الأساسي في لامبالاتهم وتعاليهم عن شعبهم. في مدينة الجزائر خلُص أحد الملاحظين الفرنسيين، سنة 1931، إلى نتيجة مفادها أن العديد من المسلمين كانوا يعارضون توجيه أبنائهم نحو الدارسات العليا بقوله:

"إن القضية بالنسبة إلى هؤلاء أمرٌ يؤسف له وبالخصوص إذا لم يطمح الشاب المسلم سوى إلى التشبُّه بزميله الفرنسي وإلى أن يصير مثله. لننظر إلى الأشياء ببساطة، كما ينظر إليها العوام، فبالنسبة إليهم إن ذلك الطالب إنسان متنكر لذويه "امطورني" و"المطورني" ليس محبوبا عند الناس..."

ولقد حدث نفس الأمر في مدينة تلمسان، قبل سنة من ذلك، حين شرح رجل مسلم تقي لأحد الصحفيين من فرنسا لماذا يرفض إرسال ابنه للدراسة في فرنسا قائلا:

"إن الأمور بالنسبة لحضارتنا يشد بعضها بعضا(...) فالمسلم الذي يعيش في اتصال مع الحضارة الأوروبية يُضيع أيمانه ويتخلى عن سيرة أهله وذويه ويختل توازنه النفسي ويترك التردد إلى المسجد ويفسق مع الأوروبيات ويتناول الخمر (...) إن مجريات حضارتكم تُحدث أثرها في شبابنا حتمًا (...) إنكم تُردونهم متعلمين "معجبين بالحداثة".[78]

ولم تكن مجلة الشهاب، للشيخ بن باديس، من جهتها ليِّنة الجانب إزاء الشبيبة الأهلية المتعصرنة التي "لا علاقة لها بالشعب والتي تعيش كأنها غريبة عنه" فكانت تؤاخذهم على تقليدهم الأعمى للأوروبيين وعدم تورعهم

78. ب فيلات " في مدينة تلمسان، حول مائدة تاي بالنعناع"، جورنال دو روان، 1930-8-7 (ذكرت من طرف ج ب. أنجليتتي ،الأطروحة المذكورة ص. 339).

إن النقد الوارد في "صوت «الأهالي»" كان يستهدف جمود المتخرجين، والطلبة أيضا، في المجالات الاجتماعية وطموحهم السياسي من غير تعرّض لاستيعابهم الثقافي. غير أن الرأي العام السائد في أوساط المسلمين ينظر إلى المثقفين المتفرنسين على أنهم برجوازيين أنانيين ويعتبر أن تفرنسهم ذاك هو السبب الأساسي في لامبالاتهم وتعاليهم عن شعبهم. في مدينة الجزائر خلُص أحد الملاحظين الفرنسيين، سنة 1931، إلى نتيجة مفادها أن العديد من المسلمين كانوا يعارضون توجيه أبنائهم نحو الدارسات العليا بقوله:

"إن القضية بالنسبة إلى هؤلاء أمرٌ يؤسف له وبالخصوص إذا لم يطمح الشاب المسلم سوى إلى التشبُّه بزميله الفرنسي وإلى أن يصير مثله. لننظر إلى الأشياء ببساطة، كما ينظر إليها العوام، فبالنسبة إليهم إن ذلك الطالب إنسان متنكر لذويه "امطورني" و"المطورني" ليس محبوبا عند الناس..."

ولقد حدث نفس الأمر في مدينة تلمسان، قبل سنة من ذلك، حين شرح رجل مسلم تقي لأحد الصحفيين من فرنسا لماذا يرفض إرسال ابنه للدراسة في فرنسا قائلا:

"إن الأمور بالنسبة لحضارتنا يشد بعضها بعضا(...) فالمسلم الذي يعيش في اتصال مع الحضارة الأوروبية يُضيع أيمانه ويتخلى عن سيرة أهله وذويه ويختل توازنه النفسي ويترك التردد إلى المسجد ويفسق مع الأوروبيات ويتناول الخمر (...) إن مجريات حضارتكم تُحدث أثرها في شبابنا حتماً (...) إنكم تُردونهم متعلمين "معجبين بالحداثة".[78]

ولم تكن مجلة الشهاب، للشيخ بن باديس، من جهتها ليِّنة الجانب إزاء الشبيبة الأهلية المتعصرنة التي "لا علاقة لها بالشعب والتي تعيش كأنها غريبة عنه" فكانت تؤاخذهم على تقليدهم الأعمى للأوروبيين وعدم تورعهم

78. ب فيلات "في مدينة تلمسان، حول مائدة تاي بالنعناع"، جورنال دو روان، 1930-8-7 (ذكرت من طرف ج.ب. أنجليتتي ،الأطروحة المذكورة ص. 339).

في إبراز زينتهم وسط البؤس العام السائد. ثم توجهت المجلة إلى "المتفرنسين" قائلة: " إنكم لم تحصلوا من الحضارة إلا على جانبها التافه".[79]

بذلت "و.ط.م.إ.ش." جهدها لتحطيم تلك الصورة السلبية التي تشكلت عن الطالب "المتطور- المُستَلب الشخصية"، منذ تأسيسها سنة 1919، وذلك عن طريق تنظيم التظاهرات الثقافية ذات الطابع العربي الإسلامي الخالص والتي كانت تقيمها قبل إنشاء مجلة "التلميذ"؛ ومع ذلك فإن الطلبة لم يوفقوا إلى تبديد الشكوك التقليدية التي تحوم حولهم؛ وابتداء من سنة 1933 تدعَّم نشاطهم بحملات دعائية وطنية كانت تستهدف المستوعَبين المقطوعين عن شعبهم وكذا الاستيعابيين الذين كانوا يعتقدون مخلصين أنهم يسعون في خدمته.

إن أسبوعية "صوت الشعب" أول نشرة ذات الاتجاه الوطني الصريح وكان شعارُها "من الشعب وإلى الشعب"؛ ولقد صدرت في مدينة الجزائر ابتداء من سبتمبر 1933. كانت تلك "الجريدة الجزائرية الوطنية والسياسية" تدعو إلى الوطنية وحب الوطن وتندد بحالتي الأهلية والاستيعاب باعتبارهما شكلين من أشكال الاستعباد الاستعماري. كانت تصبُّ نيران غضبها ضد المنتخبين: "أيها المسلمون! إن منتخبيكم خانوكم! فاقتصُّوا منهم! وقاطعوهم! إنهم ليسو أهلاً لكم ولا لجميع المسلمين"؛ كما كانت تندد "بالنخبة الضالة" و"بعزلة النخبة وتبعيتها للنظريات المستوردة".[80]

كان محرّرا تلك الجريدة كليهما من أنصار العلماء؛[81] ويبدو أنها وقعت تحت تأثير صحيفة "الأمة" الصادرة في باريس منذ سنة 1930. كانت النشرة الناطقة باسم نجم شمال إفريقيا تروّج، بالفعل، أفكارا معادية للاتجاه

79. مراد م.م. ص. 403.

80. "صوت الشعب" (12) 6-4-1934 و (21) 10-2-1935.

81. بيير جوفلاريت المدعو محمد الشريف، الذي اعتنق الإسلام، وعلي بن أحمد. حول هذا الأخير، أنظر مالك بن نبي، مذكرات شاهد على العصر، ج. 2 (بالعربية).

في إبراز زينتهم وسط البؤس العام السائد. ثم توجهت المجلة إلى "المتفرنسين" قائلة: " إنكم لم تحصلوا من الحضارة إلا على جانبها التافه".[79]

بذلت "و.ط.م.إ.ش." جهدها لتحطيم تلك الصورة السلبية التي تشكلت عن الطالب "المتطور- المُستَلب الشخصية"، منذ تأسيسها سنة 1919، وذلك عن طريق تنظيم التظاهرات الثقافية ذات الطابع العربي الإسلامي الخالص والتي كانت تقيمها قبل إنشاء مجلة "التلميذ"؛ ومع ذلك فإن الطلبة لم يوفقوا إلى تبديد الشكوك التقليدية التي تحوم حولهم؛ وابتداء من سنة 1933 تدعَّم نشاطهم بحملات دعائية وطنية كانت تستهدف المستوعَبين المقطوعين عن شعبهم وكذا الاستيعابيين الذين كانوا يعتقدون مخلصين أنهم يسعون في خدمته.

إن أسبوعية "صوت الشعب" أول نشرة ذات الاتجاه الوطني الصريح وكان شعارُها "من الشعب وإلى الشعب"؛ ولقد صدرت في مدينة الجزائر ابتداء من سبتمبر 1933. كانت تلك "الجريدة الجزائرية الوطنية والسياسية" تدعو إلى الوطنية وحب الوطن وتندد بحالتي الأهلية والاستيعاب باعتبارهما شكلين من أشكال الاستبداد الاستعماري. كانت تصبُّ نيران غضبها ضد المنتخبين: "أيها المسلمون! إن منتخبيكم خانوكم! فاقتصُّوا منهم! وقاطعوهم! إنهم ليسو أهلاً لكم ولا لجميع المسلمين"؛ كما كانت تندد "بالنخبة الضالة" و"بعزلة النخبة وتبعيتها للنظريات المستوردة".[80]

كان محرِّرا تلك الجريدة كليهما من أنصار العلماء؛[81] ويبدو أنها وقعت تحت تأثير صحيفة "الأمة" الصادرة في باريس منذ سنة 1930. كانت النشرة الناطقة باسم نجم شمال إفريقيا تروِّج، بالفعل، أفكارا معادية للاتجاه

79. مراد م.م. ص. 403.

80. "صوت الشعب" (12) 6-4-1934 و (21) 10-2-1935.

81. بيير جوفلاريت المدعو محمد الشريف، الذي اعتنق الإسلام، وعلي بن أحمد. حول هذا الأخير، انظر مالك بن نبي، مذكرات شاهد على العصر، ج. 2 (بالعربية).

النخبوي؛ ولكن هذا التنظيم، الفخور بانتماءاته العمالية، توجَّه لاستقطاب رأي الطلبة والمثقفين الذين كونتهم المدرسة الفرنسية ابتداء من ديسمبر 1933. ظلت تلك المحاولة فاشلة لمدة طويلة ولم تتطور نتائجها الضعيفة إلا تدريجيا. في مارس 1939؛ لم يزل أحد المناضلين المتنكرين يتوجه "بالنداء إلى كل المثقفين المسلمين" ويبدو من المفيد أن نورد ذلك النداء فيما يلي:

"إخواني؛ لقد كنتُ أرجو أن يعالج أحدُكم هذا الموضوع ولكن نظرا لعدم وجود أي شخص جدير بإنجاز هذه المهمة فإنني أسمح لنفسي بأن أقدم لكم هذه الملاحظة. أولاً: اعذروني إن ارتكبت أخطاء (لغوية) لأنني لا أتوفر على أي مستوى دراسي؛ ذلك أن الأحداث المفجعة التي عرفتها بلادنا هي التي جعلت مني رجلا سياسيا.

هناك تعبير باللغة القبائلية مفاده: "أيتها النساء عليكن بحمل السلاح فإن الرجال لا يرغبون في ذلك" وإننا، الآن، في مثل هذه الحالة. لقد انتظرناكم طويلا لنخرج إلى المعركة ونعمل تحت إمرتكم؛ وبما أنكم لا تهتمون سوى برغباتكم الأنانية فلقد بادرنا إلى تحمُّل هذا العبء الثقيل على أمل إيقاظ نخوتكم الوطنية ودفعكم إلى النضال إلى جانبنا من أجل صالح وطننا وشعبنا الذي يحتضر تحت سيطرة استعمارية دامت أزيد من قرن.

نحن أقلُّ اطلاعا منكم على تاريخ شعوب العالم؛ ولقد وجدنا في كل شعب من الشعوب أبطالا مناضلين خلدوا أسماءهم وكنا نعتقد أنه سوف يوجد من بينكم أناس مثلهم. كم كانت خيبتنا كبيرة حين وجدناكم أناسا فارغين لا يحركون ساكنا أمام الفضائح التي تحدث على مرأى منهم بل وجدناكم، في بعض الأحيان، موافقين عليها إن لم تكونوا من المحرضين.

هيا استيقظوا من غفوتكم! لتشعروا بآلام شعبكم فإنَّ عليكم واجبات إزاءه وكفى تفاهةً فالشرف يناديكم قبل كل شيء.

هذا الشرف لا يتأتى بالأجرة الشهرية التي تتقاضونها ولا بالوظائف التي تشغلونها. إن كبار الرجال لا يُصنعون إلا بالنضال من أجل الحق في الحياة.

هيا! انظروا إلى أنفسكم، لحظة، فمهما كانت درجة الوظيفة التي تشغلونها فإنكم تخضعون دائما لقانون «الأهالي» وإنني أتحدى أيًّا منكم لا يجد في أعماق نفسه آلامًا نفسية بسبب الإدارة الاستعمارية. قولوا الحقيقة وكونوا منطقيين مع أنفسكم وإنني لمتيقن بأن كل واحد منكم قد عانى المذلة والهوان يوما ما ولقد عانيتم الجور والضيم حتى وإن لم تجهروا بذلك؛ فما الذي يمنعكم من رد الفعل؟

إخواني: لقد كنتم، حتى تاريخ اليوم، في طريق الضلال فأرجوكم أن تتحركوا في المستقبل! إنه لمن العار على المثقف أن يفرّ أمام القمع ومن الجبن أن يرضى أحدكم باستخدامه ضد مصالح شعبه من أجل رغيف خبز.

أنتم تعرفون ذلك أحسن مما أعرفه غير أنكم، مع كل ذلك، ترضون به؛ وسوف يأتي اليوم الذي تندمون فيه على ذلك وخصوصا عندما تجمعكم الظروف في نفس الحالة مع أناس كثيرين مثلكم. إنَّ ذلك اليوم آت لا ريب فيه وإنه اليوم الذي ستخسر فيه القضية التي تخدمونها وستجدون أنفسكم وقتها معزولين عن شعبكم وتقفون وجها لوجه مع توبيخ ضمائركم.

اعذروا القلب الذي انفتح ليفض عن مكنونه إليكم فإن لديه مهام تتجاوز طاقاته وإن الغلطة سوف تتحملونها أنتم الذين فررتم من الزحف".[82]

أية قلوب من حجر يمكن لها أن تتقبل هذه الملامة الصادرة من الأعماق ولا تحرك فيها ساكنا؟ لا شك في أنها القلوب المستهدفة بالتنديد الذي صاغه، في نفس الوقت، شريف ساحلي حين قال: "إن من بؤس الأزمنة

82. "الأمة" (70) مارس 1939، ص. 4 (أوردها محفوظ قداش، ملحق رقم 25، لأطروحته، ج. 2 ص. 938-939).

الراهنة أن تتواجد في صفوف شبيبتنا تلك العناصر التي لا يتوجه شغفها سوى إلى اللهو والملذات والكلام الفارغ والارتياب والرُّخص. فالحركية المظهرية دليل على إحباط نفسي عميق؛ وأيةُ مثل يدَّعيها رجلٌ انفصل عن شعبه؟ هكذا يذبل الغصن إذا انفصل عن الجذع الذي يغذيه".83

لم يطق عددٌ كبير من المثقفين «الأهالي» الراغبين في الاستيعاب أو الاندماج في المجتمع الفرنسي تحمُّل ذلك الضغط المعنوي الذي كان يزداد قوة مع مرور الأيام. كانت صحيفة "صوت «الأهالي»" تناشدهم، منذ سنة 1929، بالخروج من حالة السبات التي هم عليها والنهوض إلى قيادة العوام فلقد لاحظت بمرارة منذ شهر جوان 1932 قائلة:

"إنَّ فئة العوام الخرساء، عندنا، والمسلحة بحسام الجهل هي التي تمتص المثقفين وتحوِّلهم إلى أدوات للسيطرة".84

وفي سنة 1935 حصل الوعي لدى السيد زناتي بضرورة الحسم نهائيا في مسألة قبول الاستيعاب أو رفضه فحين اكتشف وجود العديد ممن "يقاوم ذلك" وصل إلى حد الشك في صدق تمثيله الشخصي قائلا:

"أترانا نتحدث باسم أحد أم باسم الأغلبية المسلمة عندما نشير إلى رغبة المثقفين «الأهالي» في الدخول إلى العائلة الفرنسية ورغبة العوام في التعلم وفي التقدم والتطور؟ إننا، بكل صراحة، حائرون..."85

كان واجب النخبة إذن؛ يتمثل في تبديد اللبس واتخاذ موقف واضح من تلك القضية الحاسمة وإعلان الخيار الذي أقدمت عليه من غير تخوف من فقدان شعبيتها. وحيث أن مسيري فدرالية المنتخَبين «الأهالي» عن عمالة

---

83. "إفريقيا"، (1) مارس 1939. أنظر كذلك "الأمة": (71) أفريل 1939.

84. "صوت «الأهالي»" (153)، 2-6-1932.

85. ن.م. (334) 27-6-1935.

قسنطينة لم يسايروه في خياره فقد قطع الصلة بهم وبالخصوص بالدكتور بن جلول وملازميه والدكاترة لخضري وسعدان وفرحات عباس.[86]

غير أن عباس، الرئيس السابق ل"و.ط.م.إ.ش."، كان يسير وفق مبادئ مغايرة فكان يعتقد، صادقا، أن المثقف المسلم إذا تعارض مع الإحساس الشعبي العام ينبغي عليه أن يرضخ أو أن يتنحى. وكان يرضى دائما بالرضوخ سواء في سنة 1936 حين تعرَّض لعتاب الشيخ بن باديس؛ أو في سنة 1942-1943 بسبب تعبيره في "البيان" عن الإحساس الوطني للشعب الجزائري؛ أو في سنة 1955- 1956 حين قرّر اتخاذ موقفه الهام المتمثل في الالتحاق بجبهة التحرير الوطني؛ وبالفعل فلقد كانت الأمور بالنسبة إليه كما عبر عن ذلك منذ 1927 : "إن الفرد مهما بلغت درجة عبقرية ليس مهمًا ولا تكون أهميته حقيقية إلا عندما يرضى بالقانون المشترك استعدادا للقيام بإصلاحه وتطويره (...) نحن نعتقد أن ذلك هو أدنى الحقوق التي للجماعة على الفرد وللجسم على الخلية".[87]

لقد اختار عباس، بصفة نهائية، أن يظل متضامنا مع شعبه في أي طريق يختار سلوكه.

على عكس ذلك؛ كان زناتي قد اختار بعزم، لا يقل إصرارا، الوقوف إلى جانب حزب فرنسا حتى ولو تعرض إلى التسفيه من طرف شعبه والتنديد به كخائن. على إثر المؤتمر الإسلامي، المنعقد في جوان 1936، أصدرت صحيفة "صوت «الأهالي" حكما نهائيا حول الموقف التوفيقي من طرف نخبة «الأهالي» قائلة: "لا أحد يجهل أن المثقفين الجزائريين (...) يخيبون آمال الفرنسيين الذين يتقربون منهم ويتكفلون بأمورهم فبالرغم من كونهم

86. ن.م. (317) 15-3-1935؛ (369) 1936-4-30 (370)، (371)، (372)
87. "الشاب الجزائري" ص. 93.

مؤهلين للإقدام نحو آفاق التقدم والتحرر من القيود القديمة والذهاب قدما إلى المستقبل فإنهم لا يفتئون يدورون في حلقة مفرغة يتجاذبهم تياران متناقضان يتمتعان بنفس القوة تقريبا. ففي دواخل أنفسهم؛ يتصارع البريق الجذّاب للحضارة العصرية مع روح المحافظة العاطفية الوطنية والدينية في آن واحد".[88] إنهم يعرضون للنظر "فرجةً مؤسفة عن نخبة انطلقت لتتولى مقاليد القيادة فصارت هي نفسها مسيّرة من طرف الذين كانت تدّعي أنها تقودهم";[89] "إن مثقفينا المساكين" قد تراجعوا عن مهمتهم.

"إن النخب، في جميع بلدان العالم، تتكون عموما من المثقفين وهي التي تتولى شؤون الشعب وقيادته؛ أما مثقفونا، المسلمون الجزائريون، فيبدو أنهم تخلوا عن هذا الدور القيادي الجميل. إنهم يعتقدون أنّ الثغاء مع العامة الجاهلة أكثر راحة فسلكوا مسلكها في البحث عن التوافه. إنَّ قلَّةً قليلة من القادة المزعومين سجينة العامة وتقوم بشطحات حمقاء من أجل إنقاذ ماء الوجه (...) إنهم يتركون في النفوس انطباعا بأنهم فقدوا صوابهم ولا يعرفون بالضبط ماذا يريدون".[90]

وبهذا الحكم، ضد "خيانة المؤمنين"، فإن وجهة نظر الفريق الاستيعابي قد تلاقت، من خلال صحيفة صوت «الأهالي»، مع رأي الملاحظين المستوطنين الذي عبرت عنه صحيفة "إفريقيا الفرنسية". التقت بالأخص مع رأي الكاتب Augustin Berque، الكاتب الذي يحمل اسما مستعارًا هو Jacques Menaut؛ فكان هذا الأخير يؤاخذ أصدقاءه المثقفين الجزائريين على امتداحهم الأحكام المسبقة التي يصدرها شعبهم نظرا لعدم توفر الشجاعة الكافية لديهم للبروز أمامه بالصفة الحقيقية التي هم عليها أي

88. "صوت «الأهالي»" (375) 11-6-1936.

89. ن.م. (380)، 11-8-1936.

90. ن.م. (381) 1-9-1936.

مؤهلين للإقدام نحو آفاق التقدم والتحرر من القيود القديمة والذهاب قدما إلى المستقبل فإنهم لا يفتئون يدورون في حلقة مفرغة يتجاذبهم تياران متناقضان يتمتعان بنفس القوة تقريبا. ففي دواخل أنفسهم؛ يتصارع البريق الجذّاب للحضارة العصرية مع روح المحافظة العاطفية الوطنية والدينية في آن واحد".[88] إنهم يعرضون للنظر "فرجةً مؤسفة عن نخبة انطلقت لتتولى مقاليد القيادة فصارت هي نفسها مسيّرة من طرف الذين كانت تدّعي أنها تقودهم";[89] "إن مثقفينا المساكين" قد تراجعوا عن مهمتهم.

"إن النخب، في جميع بلدان العالم، تتكون عموما من المثقفين وهي التي تتولى شؤون الشعب وقيادته؛ أما مثقفونا، المسلمون الجزائريون، فيبدو أنهم تخلوا عن هذا الدور القيادي الجميل. إنهم يعتقدون أنّ الثغاء مع العامة الجاهلة أكثر راحة فسلكوا مسلكها في البحث عن التوافه. إنَّ قلَّةً قليلة من القادة المزعومين سجينة العامة وتقوم بشطحات حمقاء من أجل إنقاذ ماء الوجه (...) إنهم يتركون في النفوس انطباعا بأنهم فقدوا صوابهم ولا يعرفون بالضبط ماذا يريدون".[90]

وبهذا الحكم، ضد "خيانة المؤمنين"، فإن وجهة نظر الفريق الاستيعابي قد تلاقت، من خلال صحيفة صوت «الأهالي»، مع رأي الملاحظين المستوطنين الذي عبرت عنه صحيفة "إفريقيا الفرنسية". التقت بالأخص مع رأي الكاتب Augustin Berque، الكاتب الذي يحمل اسما مستعارا هو Jacques Menaut؛ فكان هذا الأخير يؤاخذ أصدقاءه المثقفين الجزائريين على امتداحهم الأحكام المسبقة التي يصدرها شعبهم نظرا لعدم توفر الشجاعة الكافية لديهم للبروز أمامه بالصفة الحقيقية التي هم عليها أي

88. "صوت «الأهالي»" (375) 11-6-1936.
89. ن.م. (380)، 11-8-1936.
90. ن.م. (381) 1-9-1936.

كونهم ذوي فكر متفرنس وبالنسبة للأغلبية منهم ذوي قلوب متفرنسة أيضا. "إن العامة تقدسكم ولكن هل تراها تعرفكم؟ يجب عليكم أن تعترفوا بأن هناك مسافة شاسعة بينكم وبين هؤلاء الناس"؛[91] وكان يتهمهم بأنهم يلعبون دورا خطيرا بالنسبة لمستقبل الجزائر الفرنسية بقوله:

"الشيء الذي نؤاخذ عليه المثقفين هو ادعاؤهم بأنهم فرنسيين والتقاؤهم مع الوهابيين الجدد وخلطُهم بين الأفكار الفرنسية الناصعة وبين ما يقدمه الشرق من أضغاث أحلام وتوجهُهم إلى العوام بخطب ملهبة للحماس وأخيرا؛ عدم إقدامهم على تسفيه النداءات الداعية إلى العصيان".

إنهم، بسعيهم هذا في امتهان الشعوذة، يرسلون العنان للحركات الشعبية التي سوف تعصف بهم حين يحاولون التحكم في زمامها. هذا التحليل، المستلهم من الأحداث الدموية التي وقعت سنة 1934، أكّده التمرُّد الذي حصل في سنة 1945. هذا بالرغم من "التناقض المبدئي بين المثقفين وبين جموع الناس" غير أن من الممكن حدوث "تلاحم فجائي (ديماغوجي) بين المثقفين وبين نظرائهم؛ وهذا بالخصوص عندما تحدث أزمة ولا تجد حلا اقتصاديا فإنها تتحول إلى الميدان السياسي".[92]

مهما بلغ تحيُّز محرري تلك التحاليل فإنها تساعدنا على إدراك المنحى السيكولوجي الذي أدى بعدد كبير من المثقفين الجزائريين، من ذوي الثقافة الفرنسية، إلى الالتحاق بصفوف الحركة الوطنية. هذا الالتحاق يعتبر دليلا على ولائهم لشعبهم الحارس الأمين على الشخصية الوطنية المهددة بالاستيعاب وصاحب الشرعية الاجتماعية والسياسية. بعد إقدامهم على تبني ذلك الموقف، الشعبوي، فإنهم يعتقدون أنهم يستحقون أن تغفر لهم

91 . "إفريقيا الفرنسية" مارس 1933، ص. 133.

92. "المثقفون الجزائريون"، المجلة الإفريقية، 1947، مجلد 91، ص. 260-276 (خلاصة هذا المقال، قد كررت خلاصة المقال السابق، حرفا بحرف).

خطيئتان كبيرتان هما: الحصول على امتياز التعلم وعلى الثقافة الأجنبية التي يقدمها المستعمر. كانوا يطمحون إلى أن يبعد عنهم شبح التهمة التقليدية الملتصقة بهم وهي الاغتراب و"التبرجز".

إن المثقفين الوطنيين، حرصا منهم على التمايز مع البرجوازية المتفرنسة، كانوا أشد الناس تنديدا بخيانتهم؛ وكانوا يكررون الاتهامات التقليدية التي يوجهها "السياسيون" ضد جميع من يقبل التعامل مع الإدارة الاستعمارية ويساندها في مواجهة مرشحي الأحزاب الوطنية. ابتداء من سنة 1944 زالت جميع الفوارق بين "بني نعم نعم"، الجهلة المنتمين إلى العائلات التي تحقق تدجينُها، وبين من كانوا يسمون، سابقا، الشبان الجزائريين أمثال: بن جلول ولخضري وتامزالي وسيد قارة وبوخلوة وإيبعزيزن وسيسبان ومعلم وبن باحمد وشكّال وفارس ومصباح ونارون وغيرهم من عديد المنتخَبين أو المرشحين الذين يزعمون أنهم "أحرار". لقد كانوا موضع هجمة عنيفة من طرف صحيفة "العدالة" ثم من طرف صحيفة "الجمهورية الجزائرية"؛ لأنهم كانوا يمثلون فئة من المثقفين الجزائريين الذين "تحولوا، بفعل جبنهم وخيانتهم، إلى سند للاستعمار الذي كان يحتضر. كان أولئك فئة نشيطة بالمعنى المضر والإجرامي للكلمة وإنهم، بمواقفهم الدنيئة، ليسوا مجرد عائق أمام تقدم شعبنا فحسب وإنما يتحمّلون نصيبا من المسئولية عن جميع الجرائم التي تُرتكب بصفة دورية".[93] إنَّ هؤلاء الذين صاروا بمثابة "الجرح المتعفن" في جسد المثقفين المسلمين "صاروا تحت أقدام الإدارة بدل أبناء عائلات "الخيام الكبيرة".

غير أن الطموح السياسي لدى أقلية من الناس ليس شكلا وحيدا من أشكال "»التبرجز«" فاللامبالاة كانت داءا غير ظاهر للعيان ولكنه أخطر بكثير بسبب انتشاره الواسع. إنَّ الجمود الاجتماعي والسياسي "لدى النخبة

93. "الجمهورية الجزائرية" (254) 29-5-1953.

المزيفة" من «الأهالي» والمقطوعة عن شعبها، بسبب التكوين الذي تلقته، لا يشكل ملامة جديدة ولكن انضمام الشبيبة الذي يبدو أنه يتم بطريقة جماعية إلى الحركة الوطنية، بين سنتي 1939 و 1945، من شأنه أن يوهم بانتفاء ذلك الجمود، على الأقل بالنسبة للأجيال الصاعدة، ولكن شيئا من هذا لم يحصل.

في سنة 1946 نُشر مقالٌ مثير للغرابة في مجلة "صوت «الأهالي»". المقال المذكور يقسم الشباب المثقف إلى صنفين متميزين: "الشباب الثوريين ذوي النزعة الوطنية"، من جهة، ثم "جميع الذين يجتذبهم بريق الغرب في دوامة الزينة والمتعة"، من جهة أخرى؛ وهؤلاء لا عذر لهم! إنّ لديهم القدرة على التغيير ولكن لا يريدون ذلك! (...) إنهم يعيشون ولكنهم لم يعودوا موجودين". مقابل أولئك "المختلين" فإن الكاتب يفضل "الأمل المتمثل في الشاب المثقف السليم في حي الشمال إفريقيين؛ فإن تغذى هؤلاء بالأوهام فإنهم، على الأقل، يتغذون بأشياء نظيفة".[94] هذه الشهادة التي تبدو فريدة من نوعها لا تسمح بالوصول إلى خلاصة واضحة لأن عيبها يكمن في كونها لم تقترح تقييما لأهمية كل فئة من الفئتين المذكورتين.

مهما يكن؛ فمن سنة 1948 إلى سنة 1954 (فترة انحسار الحركة الوطنية) كانت الصحافة الناطقة باسم جميع الأحزاب الجزائرية قد طرحت الموضوع للنقاش في فترات متقاربة إلى حد الإصرار، بشكل مرضي، قبيل الانتفاضة. وهذا هو الشيء الذي مكننا من معرفة أن الذين "يختلفون" إنما يشكلون أغلبية المثقفين الجزائريين من ذوي الثقافة الفرنسية سواء أكانوا من حاملي الشهادات أو من الطلبة بل من تلاميذ الثانويات والمتوسطات. كانت الأقلية المناضلة تستحثهم، بلهجة ما فتئت تزداد حماسًا، إلى الالتحاق بالشعب واقتداء المثل الروسي الشعبوي الرائع.

94. "صوت «الأهالي»" (660)، 1946-7-18.

هكذا كانت صحيفة "الطالب المغاربي" (الناطقة باسم "و.ط.م.إ.ش. برئاسة بلعيد عبد السلام) تندد بالعزلة الثقافية والاجتماعية التي يعانيها المثقف المسلم: "كنا نعتقد أن بإمكاننا جعلُ الحياة تدبُّ في أوصال الشعب انطلاقا من القمة غير أن المنطق البسيط كان يقتضي أن نبدأ كل شيء من القاعدة (...) فالاتصال الحقيقي والمباشر بين فئات المجتمع ضرورة ملحة (...) وبين أيدي مثقفينا تتوفر الوسيلة التي تمكنهم من فرض أنفسهم وذلك بفضل فضائل الاتصال المنعش التي تتمتع بها الثقافة المعادية (...) لقد كان لدينا ثقافة كبيرة، أما الآن، فلم يعد لدينا شيء من ذلك إلا قليلا. إننا عاقدون العزم على بناء ثقافة جديدة بالعودة إلى شعبنا (...) كما فعل الألمان والروس (...)".[95] أما صحيفة "الجزائر الحرة" فنددت بسياسة الاستيعاب التي كانت ترمي إلى إنشاء نخبة مجردة من شخصيتها ومعلقة بين مجتمعين لتشكل وسيلة قمع موجهة ضد شعبها.

من جهتها؛ ردّت صحيفة "الجمهورية الجزائرية" سلبا على السؤال التالي "هل يشكل مثقفونا نخبة؟" فقالت: "أمام إرادة الكفاح التي يبديها فلاحونا وعمالنا فإن موقف المثقفين الجزائريين يقدم لنا مشهدا بائسا يكتنفه الغموض" لم يبق لهم من رباط يشدهم إلى شعبهم غير رباط الانتساب: "إن مثقفينا، بصفة عامة، ينتمون إلى عائلات بسيطة فالجوائز التي انتزعوها بشكل رائع (...) تمثل نتاج عمل تم القيام به في ظروف مادية شاقة وإلى هذا الحد فإن استحقاقهم يشكل مكسباً عظيما(...) ولكن عند انتهاء دراستهم وفور الاتصال بالواقع الشعبي "فما الذي يجعلهم يستسلمون لعمليات تعطيل قواهم؟" حينذاك يظهر السلوك البرجوازي: "إن الطائفة الأهم من بين مثقفينا تعيش، طواعية، بمعزل عن طبقة العوام التي انبثقت منها. إن المسبة التي لا تعدلها سبة، هي كونهم أمام البؤس الذي يعيشه مواطنونا يحتالون في

95. "الطالب المغاربي" (2) فيفري 1952.

تقمص الجدية ويفتعلون تراخي البرجوازية الكاذبة". فإذا أخذنا بعين الاعتبار وجود فئة أخرى بيعت للاستعمار "فلا يمكن أن نجزم، بالرغم من قسوة هذه الحقائق البديهية، بأن ذلك يشكل الدور الفعلي لكل أفراد النخبة. هناك مجموعة من الرجال قد نفضوا عنهم عُقدة الضعف، التي تكبل معظم رجال "الثقافة" عندنا، واستطاعت أن تتفرد وتضم إليها طاقات شعبية واسعة. غير أن مجموعة الدعاة هذه لا يمكن، بأية حال من الأحوال، أن تغطي وتعذر تراخي وتربص نخبتنا الكاذبة عندما يتعلق الأمر بالأمور العمومية". "عُقدٌ نفسية وحسابات كاذبة ذلكما عيبان إذا اجتمعا وجدنا فيهما ما يفسر أسباب ذلك "الاسترخاء المحبط" الذي يبرر الموقف الحذر من طرف الشعب إزاء المثقفين.[96]

عادت النشرة الناطقة باسم الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري مرات عديدة للحديث عن هذا الموضوع. توجّه أحد الطلبة، من Toulouse، إلى المثقفين يدعوهم إلى مزيد من تعميق التفكير فوجد فيهم فئات ثلاثًا هي: "أقلية قليلة" من المناضلين؛ وفئة "كالجرح المتعفن"؛ وأغلبية لاذت ببرجها العاجي بدعوى "اللاسياسة"؛ ثم لاحظ، بكل مرارة وأسى، أنه بات "من المؤكد أن فيلقا من المثقفين: أطباء ومحامين وطلبة مغمورين يسبحون وسط ذهول ناعم (...) هذه النخبة تتملص وتتنصل من مسؤولياتها وترفض العمل لمصلحة شعبها" ثم قدم لها المثقفين الروس كمثال للاقتداء.[97] ردّد طالب آخر، في فرنسا، أصداء تشبه ذلك ولكنه اقترح التمييز بين المتخرجين وبين الطلبة الذين لم يسر الفساد إلى نفوسهم بعد واقترح على هؤلاء تحقيق أهداف آنية: توحيد الطلبة الوطنيين في جمعية أكثر جدية من

96. الجمهورية الجزائرية، (354) 1953-5-29.
97. ن م. (28) 7-5-1954.

تقمص الجدية ويفتعلون تراخي البرجوازية الكاذبة". فإذا أخذنا بعين الاعتبار وجود فئة أخرى بيعت للاستعمار "فلا يمكن أن نجزم، بالرغم من قسوة هذه الحقائق البديهية، بأن ذلك يشكل الدور الفعلي لكل أفراد النخبة. هناك مجموعة من الرجال قد نفضوا عنهم عُقدة الضعف، التي تكبل معظم رجال "الثقافة" عندنا، واستطاعت أن تتفرد وتضم إليها طاقات شعبية واسعة. غير أن مجموعة الدعاة هذه لا يمكن، بأية حال من الأحوال، أن تغطي وتعذر تراخي وتربص نخبتنا الكاذبة عندما يتعلق الأمر بالأمور العمومية". "عُقدٌ نفسية وحسابات كاذبة ذلكما عيبان إذا اجتمعا وجدنا فيهما ما يفسر أسباب ذلك "الاسترخاء المحبط" الذي يبرر الموقف الحذر من طرف الشعب إزاء المثقفين.[96]

عادت النشرة الناطقة باسم الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري مرات عديدة للحديث عن هذا الموضوع. توجّه أحد الطلبة، من Toulouse، إلى المثقفين يدعوهم إلى مزيد من تعميق التفكير فوجد فيهم فئات ثلاثًا هي: "أقلية قليلة" من المناضلين؛ وفئة "كالجرح المتعفن"؛ وأغلبية لاذت ببرجها العاجي بدعوى "اللاسياسة"؛ ثم لاحظ، بكل مرارة وأسى، أنه بات "من المؤكد أن فيلقا من المثقفين: أطباء ومحامين وطلبة مغمورين يسبحون وسط ذهول ناعم (...) هذه النخبة تتملص وتتنصل من مسؤولياتها وترفض العمل لمصلحة شعبها" ثم قدم لها المثقفين الروس كمثال للاقتداء.[97] ردّد طالب آخر، في فرنسا، أصداء تشبه ذلك ولكنه اقترح التمييز بين المتخرجين وبين الطلبة الذين لم يسر الفساد إلى نفوسهم بعد واقترح على هؤلاء تحقيق أهداف آنية: توحيد الطلبة الوطنيين في جمعية أكثر جدية من

96. الجمهورية الجزائرية، (354) 1953-5-29.

97. ن.م. (28) 7-5-1954.

الجمعيات الموجودة (التي لا تمثل في بعض المدن سوى محلات تنظم فيها الحفلات الراقصة) وكذا استقطاب الطلبة اللامبالين:

يجب إقناعهم بإثارة اهتمامهم بالقضية الوطنية وإذا اقتضت الضرورة فضح لامبالاتهم التي يمكن تبريرها؛ وهذا جرم ينبغي أن يحاسبهم الشعب على اقترافه".[98]

وأخيرا هناك مقالٌ ثالث قارن، بكل حماس، بين موقف الطلبة الجزائريين في فرنسا وموقف مواطنيهم العمال:

"إذا كانت أغلبية الطلبة متخوفة من تحمل المسؤوليات فإن جموع العمال معوقة، بسبب الجهل الذي يُقعدها، عن المبادرة؛ والمثقف الجزائري يتمتع في الحقيقة بوسائل تسمح له بالمساهمة في بناء وطنه؛ غير أنه يفضلّ أن يكل ذلك إلى أناس آخرين! وحيث أن الطالب يحظى بمعاملة أفضل من التي تُخصَّص للعامل فإنه يُفضِّل التخلي عن التضامن معه: ففي فرنسا؛ إن واحدة، على الأقل، من بين تلكما الفئتين تُعامل باحترام؛ إنها فئة الطلبة. ذلك هو ما جعل شعورها الوطني يذوب أمام مرآها. ينبغي على الطالب الجزائري أن يعلم بأن واجبه هو الالتفات إلى إخوانه الأميين وإلاّ فسوف يخسر القليل المتبقي من الاحترام الذي يتمتع به لمدة زمنية محدودة دون شك".[99]

أما صحيفة "الشاب المسلم"، الناطقة باسم شبيبة جمعية العلماء، فهي موجهة بالخصوص لمحاربة الاغتراب الثقافي والاجتماعي والوطني لدى الطلبة. فلا فائدة من إحصاء كل العبارات المتعلقة بهذا الانشغال الدائم الوارد في صفحاتها. لنكتف إذن بتقديم أجمل مقال خُصص "لمثقفينا

98. ن.م. (30) 21-5-1954 ص. 7.

99. ن.م. (43) 24-9-1954، ص. 7. نفس الأمر في "الشاب الجزائري" لديسمبر 1952، حيث تنبأ إيبير أمازيت ب: "نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر، تحت الضربات المتتالية لرجال الثورة المناهضة للاستعمار، ممن رفضت الانضمام إليهم".

"إنه لحدث بارز في الجزائر أن نجد طبقة معينة من المثقفين تنفصل أكثر فأكثر وتتفرَّد في مؤخرة الجدول؛ وإننا نتساءل، بشيء من الحسرة، عما إذا لم تكن القطيعة حادة جدا بين الشعب، من جهة، وبين شبيبته الطلابية من جهة أخرى. إن قيمة الشعوب تقاس في كثير من الأحيان بقيمة أجيالها الصاعدة. وبودنا لو تمكنا من الإطلاع على العواطف التي يغذيها هؤلاء الرجال تجاه شعبنا؛ أولئك الذين يعلِّق عليهم الشعب آماله العريضة. وإنه لمن المستحيل أن لا نلاحظ، منذ الوهلة الأولى، أن الثقافة "الأُحادية الاتجاه" مُضرَّة بالعديد من المفكرين: أريد القول أن لاشك في أن المسلمين الذين يتكونون في المدرسة الفرنسية، وحدها، يعانون من عقدة الغُربة وسط عائلاتهم بالذات. فالقطيعة المبكرة مع ثقافة الأمومة والتلقيح المبكر بنوع آخر من التفكير والإحساس تُحدث، بدون جدال، في ضمير الشخص المعني إحباطا معنويا؛ إذ يحدث، في كثير من الأحيان، أن لا يجد الطالب المعزول عن تقاليد شعبه راحته سوى في اللجوء إلى الانعزال؛ وشيئا فشيئا تذوب الروابط التي كانت تشدُّه إلى عاداته وتقاليده الاجتماعية التي ترعرع بين أحضانها؛ إلى درجة العجز عن الوصول، يوما ما، إلى إدراك كنه إخوانه وأصالة منبته. ثم لا يطول الوضعُ حتى يختل وجوده بأكمله. إنه وجود يميِّزه السلوك الآلي واللامبالاة والاندهاش المتشنج.

كان هذا التحليل عملا ضروريا لتشخيص أصل الداء الذي ينخر لباب بعض الشباب المثقف؛ ولكن لا ينبغي أن ننظر إلى هذا الداء كأنه قدر محتوم فإن لإرادة الإنسان، طبعا، دورا كبير في قبول الانهزام أمام الداء أو رد الفعل ضده. أكيدٌ أن معظم شبابنا لم ينتفض بل فضَّل، بدلا من ذلك، أن يلوذ بالكبرياء الذي توحي به "نظراتُه وكأنها منقطعة إلى ملكوت الأفلاك" كما يقول Emmanuel Mounier. لقد فضَّل الانفصال عن الأرض التي تغذيه وعن الشعب الذي ربَّاه؛ وفضَّل الركون إلى "اللاَّحركة" وهذا موقفٌ عقيم وممقوت. إنهم الضالون الذين ترثي حالهم

الآيات القرآنية! أتراهم قد اقتنعوا بأن الذكاء نورٌ؛ وأن شعبهم دهماء؛ وأنّ على النور أن يمقت الدهماء؟ لعلهم يعتقدون أن الأيادي الرقيقة والبضّة سوف تتّسخ إن صافحت الأيادي الخشنة؟ ينبغي على مثقفينا أن يتقبلوا الفكرة التي مفادها أن الذكاء، في حد ذاته، لا يكتسي قيمة أغلى من قيمة العمل اليدوي؛ وأن الاستحقاق لا يتأتى سوى بالكفاءة. أعرف البعض من أولئك المعلمين الذين حرّفتهم مزاولة المهنة إلى درجة أنهم لا يتصورون العالم شيئا آخر سوى قسم كبير يحتوي على أُناس منحطّين؛ وأعرف بعض الطلبة ممن لم يكادوا يتلقون أوليات التعليم المتوسط حتى انتابتهم الرغبة في الانقطاع عن بقية الناس. هذا الخطأ الفادح تسبب في خسائر لا حصر لها في صفوف شعبنا إلى درجة أنه ينبغي ظهور إمام واعظ، مثل الشيخ بن باديس، لمحاربة ذلك الخطأ؛ ولكن ينبغي على كل واحد منا أن يقوم بواجب إصلاح نفسه ثم تنوير الآخرين. فليتخلَّ البعضُ عن شيء من سذاجتهم وليُنقص البعض الآخر من شعورهم بالتعالي المحرَّم؛ ولتتغذَّ الأنفس بالتواضع لأنه رأس كل الفضائل. أليس من البداهة أن يكون حرفيٌّ ماهر أفضل من طالب "فسد عجينه"؟! صحيح أن المثقف الواعي بمسؤولياته يمثل ذُخرا إضافيا لشعبه ويمكن أن يشكل اللبنة الأساسية في بناء الصرح الوطني. لكن، مع كل هذا، فإن أغلى القيم ستظل من نصيب العمل المتقن والواجب الذي يقام به أحسن قيام. وإذا توفرت هاتان الخصلتان في شخص ما فهو جدير بالتقدير ولا يمكن أبدا أن تكونا مبررًا للكبرياء.

إن أفضل تجربة عرفتها الإنسانية هي "الشعبوية" التي عرفتها روسيا في بداية القرن. فالتاريخ يعيد إلى أذهاننا مقدار العداوة والحذر اللذين كانا يطبعان بسطاء الناس تجاه المثقفين الروس الذين جاؤوا إليهم، باعتبارهم وعاظًا سياسيين، ولكن لم يسبق لهؤلاء أن بادلوا البسطاء مشاعر الود: فاستخلصوا عبرة أساسية من فشلهم ومن المحن التي عانوها في حملاتهم. لقد كانت رغبتهم ملحة في أن يسرعوا في رفع مستوى وعي قومهم؛ فتحوّلوا

إلى "شعب" وقاسموا الريفيين عناء عملهم وفقرهم؛ فاكتسبوا، في نهاية المطاف، الثقة الضرورية التي جعلتهم يجنون ثمار وعظهم؛ وبذلك نجحوا في أداء مهمتهم ألا وهي تخصيب الأذهان الجاهلة التي طالما استعصت عن ذلك. هذه النتيجة، التي تملأ نفوسنا إعجابا وإكبارا، لم يتمكن "الشعبويون" من تحقيقها إلا بعد أن ضحوا، بكل شجاعة، بعقدة الاستعلاء: فمتى يلتفت شبابنا المثقف صوب شعبه بقدرٍ أكبر من الشجاعة والتواضع؟"[100]

في ختام معرض الصحافة، هذا، يكون في وسعنا أن نذكر ما ورد في خانة "أفكار حرّة" التي عبّر عنها إنسان يسمى "الشعبي"، في نشرة "و.ش.ط.م" لمنطقة متيجة،[101] حيث أورده الكاتب نفس الأفكار السابقة ولكن بأسلوب أقل فصاحة. من كلّ هذه الشهادات، الغزيرة والمتكاملة، يمكن استخلاص نتائج واضحة: فمن الممكن التسليم بانقسام المثقفين إلى فئات ثلاث تتناسب على العموم مع التي عرفها الضباط الفرنسيون أثناء حرب 1954- 1962 وهي: أنصار الجزائر الفرنسية؛ والمتربصون بأن تسنح الفرصة؛ والوطنيون. ونظرا للطابع الجدلي الذي يشوب التحليلات السالفة فلا يمكننا الموافقة على الأحكام التي تتضمنها من غير تعمّق في التحليل. هل أنصار التعاون مع السلطات الفرنسية تحدوهم جميعا حساباتٌ سياسية؟ ليس هذا الأمر بديهيا لأننا نجد من بينهم مناضلين يساريين؛[102] ولأن بعضهم دأب على سلوك نفس المنهج بعد نوفمبر 1954 مُعرِّضا حياته للخطر؛ وهل الذين اجتُثوا من جذورهم وانفصلوا عن شعبهم كانوا، كلهم، برجوازيين وأنانيين لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم أو كانوا يعتبرون أنفسهم فرنسيين؟ لا يمكن الخروج بنتيجة معينة

---

100. "الشاب المسلم" 12-9-1952، (مقال وقع عليه أبو جميل، المسمى أحمد طالب).

101. "الصحوة الطلابية" (1) مارس 1956.

102. أنظر: تأبين الدكتور بومالي، أول رئيس بلدية مسلم في الجزائر، في "صوت «الأهالي»" (661) جويلية 1946 وفي "أخوة" (32) 27-7-1946.

من غير القيام بدراسة شاملة لسلوك هؤلاء وأولئك أثناء حرب التحرير الوطنية. من المحتمل أن يكون حزب المتربصين، بعد أن تدبدب بين شتى الاتجاهات، قد انقسم على نفسه؛ فاختار بعضُهم الجنسية الجزائرية لكي يبقى في الجزائر ولكي يستغل فرص الارتقاء المهني والرقي الاجتماعي المتاحة للحاصلين على شهادات؛ ومن أجل المساهمة في بناء الدولة الجديدة؛ وفضّل البعض الآخر أن يبقوا فرنسيين حتى وإن كلفهم ذلك نفيا أبديا.

مهما يكن؛ فإنّ المثقفين الوطنيين، قُبيل الانتفاضة، كانوا على وعي تام بأنهم يشكلون أقلية في وسطهم الاجتماعي. لا يتعلق الأمر بالحاصلين على الشهادات فحسب بل بالطلبة أيضا وبتلاميذ الثانويات والمتوسطات؛ فهل كان الأمر صحيحا قبل ذلك بعشر سنوات؟ أي في زمن "البيان"؟ لا يبدو الأمر كذلك غير أن هذه نقطة تحتاج إلى مراجعة. إنه لأمر مثير أن نلاحظ أن اعتناق مبادئ الحركة الوطنية، من طرف طائفة من المثقفين المتفرنسين، لم يكن كافيا لرفع كل الأحكام المسبقة التي يضمرها الشعب المسلم الجزائري تجاههم.

## 2- الوطنية والشعبوية

لم تكن الشعبوية مجرد عامل معنوي دفع المثقفين المسلمين إلى اعتناق القضية الوطنية. إنها أيضا المحكُّ الذي يثبت أصالة وطنيتهم. فالحركة الوطنية الجزائرية قد أصرّت على أن تكون شعبوية؛ وإن أصدق تعبير على ذلك هو المثال الموجود في الصيغة المنسوبة إلى عبان رمضان: "سوف تكون الجمهورية الجزائرية دولة ديمقراطية اجتماعية أو لن تكون"؛[103] ولا ينبغي أن

103. الأستاذ ولد عودية. كان يميز في النخبة : "أ) المستعجلون ب) الانتهازيون ج) المتحفظون، وهم أكثر عددا مما نتصور، ويعانون من تطرف الفئة الأولى ومن تفاهة الثانية (...) الذي لم يكونوا متحمسين ولا رخصا، لكنهم فرنسيون فقط" ("حوار بين جزائريين"، "ليكو دالجي" 13-1-1951).

يكتفي نيل الاستقلال بتعويض الطائفة المستغلة من طرف المعمرين (وحلفائهم من "الأهالي" و"الإقطاعيين" أو "البرجوازيين") بطبقة حاكمة جديدة تحتكر الدولة لخدمة مصلحتها الخاصة، فقط، وبدون أن تعمل على تحسين ظروف الشعب البائس. يجب أن تكون ثورة شعبية تُحرِّر الشعب الجزائري نهائيا من شتى أشكال القهر الوطني والاجتماعي.

وبالفعل: فإن الوطنيين الجزائريين لم يكونوا مثل بقية الوطنيين بل على عكس أغلب الحركات الوطنية فإن حركتهم لم تتكون في كنف الطبقات الاجتماعية الراقية: لقد نشأت الحركة الوطنية، سنة 1926، وسط العمال المهاجرين إلى فرنسا بتأثير من الحزب الشيوعي. وفي حُمَيَّا الثورة الريفية كان حزب نجم شمال إفريقيا يطالب بالاستقلال التام لإفريقيا الشمالية. هذا التوجه كان معاكسا لتوجه حركة "الشبان الجزائريين" التي كانت تطمح إلى تحقيق نوع من الاستيعاب أو الاندماج في المجتمع الفرنسي. صحيحٌ أن العلماء، الملتفين حول بن باديس، قد بدؤوا دعوتهم الوطنية في الجزائر منذ سنة 1925 ولكن حرصهم على تجنُّب الاصطدام بالسلطات الفرنسية مباشرة والاحتفاظ على تحالف الشباب الجزائري قد صرفهم، إلى غاية سنة 1936، عن الجهر بوطنيتهم. لقد تمكَّن حزب نجم شمال إفريقيا (ن.ش.إ)، الذي تحول إلى حزب الشعب الجزائري (ح.ش.ج) ثم إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية (ح.إ.ح.د.)، تمكَّن من ادعاء الأولوية في الالتزام الوطني وقدَّم نفسه بصفته "الحزب الوطني الجزائري" الوحيد.

شكَّلت الوطنية مقياسا كافيا ميَّز (ح.ش.ج. - ح.إ.ح.د.) عن منافسه العمالي وهو الحزب الشيوعي الجزائري؛ ولكن العامل الاجتماعي هو العنصر الواضح الذي يفسر المواجهة بين الوطنية الشعبية، أي الاتجاه الحقيقي والأصلي، وبين المنتحلين البرجوازيين.[104] كان "حزب الشعب الجزائري"

104. حربي "أصول جبهة التحرير" ص. 63-84 و84-89.

يفتخر بأنه يضمُّ بين صفوفه أغلبيةً عمالية وشبه عمالية؛ وكان العلماء من بين منافسيه الخطيرين لأن ثقافتهم العربية الإسلامية كانت تمكنهم من التحلّي بشرعية متينة في نظر الشعب. وكان الحزب الوطني يسعى للحطّ من قيمتهم بفضح الأصول البرجوازية لقادتهم وتحالفهم مع الحركة من أجل الدفاع عن البيان الجزائري. هذه الأخيرة كانت الهدف الأساسي لحملات (ح.إ.ح.د.) والتي عرَّفها للناس باعتبارها حزب حاملي الشهادات البرجوازيين الذين تدفعهم ثقافتهم الأجنبية ومصالحهم الطبقية إلى توخي التوافق مع السلطات الفرنسية.

كان حزب فرحات عباس يرفض تلك الاتهامات؛ ولكي يميز حركته عن الأوساط البرجوازية فكان عنيفا في تنديده "بالبرجوازية المتعفنة" و"بالنخبة المزيفة"؛[105] ومع ذلك فلقد كان راضيا بكون تنظيمه هو الأغنى من حيث عدد المتخرجين من الجامعات الفرنسية (نظرا لكون عباس قد عزَّز صفوفه بقدماء "و.ط.م.إ.ش." و "و.ط.م.ج.ف." بل كان يأسف لكون حركته لا تمثل أغلبية المثقفين. غير أنه كان يرفض كل شكل من أشكال النخبوية أو السياسة الطبقية؛ وعلى عكس ذلك كان يعبِّر، من خلال الخط السياسي لصحيفتي "الشاب الجزائري" و"التلميذ"، عن اهتمامات اجتماعية مستعملا في ذلك مصطلحات ذات نزعة اشتراكية. كان يطالب، مثل "ح.أ.ح.د."، "بجمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية"؛ غير أنه كان يعارضه في أساليب عمله: فدعوة الشعب إلى الانتفاضة معناها تعريضه للمذابح كالتي حدثت في ماي 1945. لقد فضَّل، بدل إستراتيجية المغامرين، سبيلَ التعقل المتمثل في اختيار العمل السياسي الشرعي مبرهنًا عن اهتمام حقيقي بما فيه مصلحة الشعب. وكهجوم مضاد فإن "ح.د.ب.ج." مع جمعية العلماء شكَّكوا في صحة التمثيل الشعبي للحزب الذي كان يدعو إلى الثورة العنيفة؛ وكانوا يتهمونه بتعزيز

105. أنظر "المساواة" (1) افتتاحية عباس ("باسم الشعب").

صفوفه بأصحاب السوابق العدلية وباستعمال أساليبهم الإجرامية. وكان يلاحظ أيضا أن هذا الحزب "الشعبي" كان يَعدُّ من بين قادته عددا متزايدا من حاملي الشهادات... "أصبح الانخراط في ح.ش.ج.، في نظر بعض المثقفين، موضةً تمييزية" ذلك ما لاحظته صحيفة "المساواة".[106]

بالفعل؛ صار "ح.ش.ج."، منذ الحرب العالمية، قطبا يجتذب العديد من المثقفين الميّالين إلى النشاط والحركة؛ وكان الصيدلي بوتفتيفة يمدح ذلك في سنة 1950 بقوله:

"حقا؛ إن المثقفين، في وقت معين، قد أخطئوا الطريق. أما الآن: فإن العديد منهم أدركوا أهمية واجباتهم فتحملوا مسئولياتهم".[107]

كان لابد لهذا الدور أن يزداد أهمية في صفوف الحزب وأن يتجاوز، بصورة واضحة، مهام المثقفين المناضلين العاديين: ففي أفريل 1953 أسند إليهم المؤتمر الثاني ل"ح.إ.ح.د." قيادة الحزب. ونحن نعلم أن السياسة الجديدة المخطط لها من طرف فريق بن خدّة قد تسببت في حدوث انقسام وفي قيام جدل عنيف ضد النزعة الثقافية والنزعة البرجوازية؛ هذا الجدل الذي سبق وأن احتد بين الحركة وبين "إ.د.ب.ج".

بتأييد من القاعدة الشعبية للحزب؛ اتّهم مصالي أغلبيةَ أعضاء اللجنة المركزية بكونهم يمثلون عصابة من المثقفين استحوذت على المناصب القيادية وأبعدت المناضلين المخلصين، بدعوى عدم الكفاءة، وذلك من أجل فرض سياسية إصلاحية أكثر ميلا إلى البرجوازية الوطنية وإلى المصالحة مع الاستعمار الفرنسي. كان مصالي يسيء إلى سمعة خصومه باعتبارهم يمثلون المثقفين المتبرجزين المقطوعين عن واقع شعبهم:

106. "المساواة" (67) 6-3-1947، و"الجمهورية الجزائرية" (141) 3-9-1948.

107. "الجزائر الحرة" (11) 141-3-1950 ص. 4.

"لا الكفاءة ولا القيمة الثقافية ولا المرتبة الاجتماعية (...) ولا الفصاحة يمكن أن تُعوِّض عمل الجماهير الشعبية ولا شيء يمكن أن يتحقق خارج إرادتها".[108]

لم يكن المركزيون في الواقع ضد مبدأ الشعبوية الجزائرية:

"إن استحقاق أي فرد من الأفراد لا يقاس بحجم مخططاته ولكن بالخدمات التي يسديها لشعبه".

وعلى العكس؛ كان يسمح لنفسه بالتنديد بالعداوة التي يكنها المصاليون للمثقفين:

"هؤلاء السادة المنتسبون إلى "الثورة" (...) يكرهون المثقف؛ ولقد فهمنا الآن لماذا: لأنهم ليسوا مثقفين ولا يحملون الشهادات التي هي برهان استحقاق ولأن غباوتهم وحدها قد حالت دون حصولهم عليها".[109]

بقطع النظر عن الشكل الذي اتخذته تلك المجادلات فلا ينبغي أن تلهينا عن أهمية الموضوع المطروح. وحتى ولو لم يقف المثقفون كلهم في صف واحد فإن الأزمة قد أبرزت للعيان طلاقا اجتماعيا وثقافيا بين القاعدة الشعبية وبين قيادتها التي لم تعد تعبِّر عن إرادتها؛ هذا في الوقت الذي كان البرنامج الموضوع من طرف اللجنة المركزية يعتبر وجهة جديدة ومغايرة تتضمن مراجعة خطيرة للأيديولوجية الشعبوية التي توخاها الحزب. فالدعوة إلى عقد المؤتمر الوطني الجزائري قد تمت بدعوى تصحيح وضع غير عادي:

108. تقرير مصالي في مؤتمر هورنو، حربي م.م. ص. 181، رؤوس أقلام رقم 105، أنظر، رسالة مناضل يكشف لمصالي مبلغ العداوة المبالغ فيها التي يكنها أحد أعوانه المدعو فيلالي، ضد المثقفين في "حربي" "أرشف الثورة الجزائرية"

109. "الأمة الجزائرية" (6) 8-10-1954 ص. 2.

"إن عبء الكفاح يقع، إلى حد الآن، على كاهل الطبقات الأكثر حرمانا في الأمة. هذا الوضع، غير العادي، ينبغي أن يوضع له حدٌّ. لن نرضى بأن يدفع جزءٌ من المجتمع وحده كلَّ التكاليف التي على عاتق الجميع؛ فعلى كل الجزائريين أن يساهموا في بناء مستقبلهم(...)".[110]

هكذا؛ لم يعد مصطلح "الشعب" يعني أساسا تلك الطبقات المحرومة في المجتمع بل صار يعني المجتمع الجزائري بنخبه وعامته. هذا التحول السيميائي اللطيف كان يُلقي ظلاله على ما يحدث من استبدال الوطنية السطحية (الشبيهة بوطنية الحزب الدستوري الجديد) وإحلالها محل الوطنية الشعبوية التي شكلت، إلى حد ذلك الوقت، خاصية الحركة الوطنية الجزائرية؛ فعبارة "الشعب"، بالمعنى الاجتماعي، قد فقدت مشروعيتها لأن النخبة سوف ترتقي لتحظى بدورها بنفس التشريف. والشيء الذي يرمز لذلك هو كون النداء قد وُجه، بالدرجة الأولى، إلى الحائزين على الشهادات في عبارات تُذكِّر بالحملات التحفيزية التي كانت تقوم بها "ح.د.ب.ج.":

"أنتم: أيها الأساتذة والأطباء والمحامون والصيادلة وباقي المثقفين؛ ما الذي قدمتموه لبلدكم؟ هل ستستمرون، لمدة طويلة، لا تفكرون سوى في كسب متاع حياة مريحة وتلوذون بالصمت إزاء مظالم الاستعمار التي تعرفون؟ ألا تشعرون بوخز الضمير؟ لقد آن الأوان لكي تلتحقوا بصفوف الشعب. اندمجوا معه في الكفاح! وكونوا خيرة المدافعين عنه!" (...)

هذا النداء مُوجَّه بعد ذلك إلى "البرجوازيين الكبار والصغار وإلى الفلاحين والتجار والصناعيين"؛ وبعد عدة فقرات يتوجه النداء إلى الشباب ليدعوهم "إلى السخرية ممن يتحينون الفرص السانحة ومن اللامبالين". هكذا كانت الوحدة الوطنية التي دعا إليها المركزيون تتضمن التخلي عن الشعبوية المعادية

110. نداء اللجنة المركزية لـ"ح.إ.ح.د." 10-12-1953، ذكره حربي. "أصول جبهة التحرير الوطني" ص. 209-211 أنظر: لائحة المؤتمر الثاني م.م. ص. 193.

"إن عبء الكفاح يقع، إلى حد الآن، على كاهل الطبقات الأكثر حرمانا في الأمة. هذا الوضع، غير العادي، ينبغي أن يوضع له حدٌّ. لن نرضى بأن يدفع جزءٌ من المجتمع وحده كلَّ التكاليف التي على عاتق الجميع؛ فعلى كل الجزائريين أن يساهموا في بناء مستقبلهم(...)".[110]

هكذا؛ لم يعد مصطلح "الشعب" يعني أساسا تلك الطبقات المحرومة في المجتمع بل صار يعني المجتمع الجزائري بنخبه وعامته. هذا التحول السيميائي اللطيف كان يُلقي ظلاله على ما يحدث من استبدال الوطنية السطحية (الشبيهة بوطنية الحزب الدستوري الجديد) وإحلالها محل الوطنية الشعبوية التي شكلت، إلى حد ذلك الوقت، خاصية الحركة الوطنية الجزائرية؛ فعبارة "الشعب"، بالمعنى الاجتماعي، قد فقدت مشروعيتها لأن النخبة سوف ترتقي لتحظى بدورها بنفس التشريف. والشيء الذي يرمز لذلك هو كون النداء قد وُجه، بالدرجة الأولى، إلى الحائزين على الشهادات في عبارات تُذكِّر بالحملات التحفيزية التي كانت تقوم بها "ح.د.ب.ج.":

"أنتم؛ أيها الأساتذة والأطباء والمحامون والصيادلة وباقي المثقفين: ما الذي قدمتموه لبلدكم؟ هل ستستمرون، لمدة طويلة، لا تفكرون سوى في كسب متاع حياة مريحة وتلوذون بالصمت إزاء مظالم الاستعمار التي تعرفون؟ ألا تشعرون بوخز الضمير؟ لقد آن الأوان لكي تلتحقوا بصفوف الشعب. اندمجوا معه في الكفاح! وكونوا خيرة المدافعين عنه!" (...)

هذا النداء مُوجَّه بعد ذلك إلى "البرجوازيين الكبار والصغار وإلى الفلاحين والتجار والصناعيين"؛ وبعد عدة فقرات يتوجه النداء إلى الشباب ليدعوهم "إلى السخرية ممن يتحينون الفرص السانحة ومن اللامبالين". هكذا كانت الوحدة الوطنية التي دعا إليها المركزيون تتضمن التخلي عن الشعبوية المعادية

110. نداء اللجنة المركزية لـ"ح.إ.ح.د." 10-12-1953، ذكره حربي، "أصول جبهة التحرير الوطني" ص. 209-211 أنظر: لائحة المؤتمر الثاني م.م. ص. 193.

للنخبة وعن كل أشكال الصراع الطبقي في صفوف المجتمع. هل هذا تكتيكٌ انتهازي أم خيارٌ نهائي؟ إنه سؤال ينبغي أن يطرح على الأقل.

ومهما وقع بالضبط فإن الاتهامات التي وجَّهها مصالي لم تكن خالية تماما من أي معنى؛ ولقد أخطأ مؤسسو جبهة التحرير الوطني حين قلَّصوا المشكل إلى مجرد صراع بين طموحات شخصية متنافسة؛ فالمشاكل التي تم اجتنابها ظلت قائمة، كما كانت، ولم تجد لها حلا. لقد تبنَّت جبهة التحرير الوطني المنهج المركزي الداعي إلى وحدة واسعة حول برنامج واضح (استقلال الجزائر) ولكن باللجوء إلى الكفاح بكل الوسائل وهو خيار ثوري انفرد به حزب الشعب الجزائري- حركة انتصار الحريات الديمقراطية لمدة طويلة. بعد أن انحسرت الجبهة لتتشكل في البداية من فئة مكونة لهذا الحزب فقط؛ اتسعت بعد ذلك، بسرعة، لتشكل تجمُّعًا أوسعُ من أن يضمه حزبٌ واحد وأضيقُ من أن يشكل جبهة وطنية حقيقية. إنه تجمُّعٌ علقت به كل التناقضات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري وتطورت بشكل خطير؛[111] وإنَّ المصادقة التي تبدو إجماعًا على برنامج اشتراكي لم تتمكن من منع نشوب صراع على السلطة بين تحالفين كلاهما يدَّعي الشرعية الشعبية على مرأى الشعب الجزائري الذي مسته الفضيحة في الصميم. جاءت قوةٌ ثالثة تدَّعي أنها محايدة لتواجه الطائفتين بشعار يقول: "بطلٌ واحد هو الشعب" فهل يمكن اعتبار هذا الشعار وهمًا أم حقيقة بعد سبع سنوات من حرب مرهقة وممزقة؟ هذا موضوع آخر.

## 3- من الوطنية الشعبوية إلى الاشتراكية

تسببت الحرب في نقلة أيديولوجية لدى جبهة التحرير الوطني من الاتجاه الوطني الشعبوي إلى الخيار الاشتراكي. لقد عرفت أيديولوجية الحركة الطلابية تطورا موازيا بل أكثر سرعة وشمولا.

111. حول تاريخ جبهة التحرير الوطني، أنظر كاندت، م.م. وحربي جبهة التحرير الوطني بين السراب والحقيقة

كانت أيديولوجية الجبهة، خلال النصف الأول من فترة الحرب، تتميز بالتحالف بين الناشطين الشعبويين وبين المشروع المركزي الرامي إلى تحقيق الوحدة الوطنية؛ وذلك بإبعاد، أو إرجاء، مشروع الثورة الاجتماعية. ولقد عبَّرت أرضية مؤتمر الصومام، بوضوح، عن إعطاء الأولوية لتحقيق الاستقلال: "الإيديولوجية بسيطة والهدف هو الاستقلال والوسيلة هي الثورة عن طريق تحطيم النظام الاستعماري."[112]

لكن ابتداء من ماي – جوان 1958 فقدت جبهة التحرير المبادرة وانغمست وسط صعوبات متزايدة فلم يعد الاستقلال الوطني، الذي يمثله رمزيا تشكيل الحكومة المؤقتة، يشكِّل الهدف الأساسي للثورة. ولمواجهة الجنرال ديغول، الذي كان يسعى لحرمانها من سمعتها ومنعها شيئا فشيئا من تحقيق هدفها، شعرت الجبهة بضرورة التزوُّد ببرنامج يبرر استمرار كفاحها. ولإخراج الحكومة المؤقتة من حالة الشلل الذي كانت عليها، في جويلية سنة 1959، اقترح بن خدة الموافقة على برنامج أدنى وعلى قوانين أساسية مؤقتة. تشكلت لهذا الغرض لجنتان من "الخبراء": تتكون الأولى من عمر أوصديق وفرانتز فانون وشنتوف ومحمد بن يحي؛ وتتكون الثانية من بن خدة ومحمد بلحسين ولمين خان. تم تقديم المشروعين للمجلس الوطني الثورة الجزائرية المجتمع في طرابلس في 16 ديسمبر 1959 بعد شهرين من خطاب الجنرال ديغول حول تقرير المصير.[113]

تأسس هذا البرنامج على مبدأ "أن تحرير التراب الوطني (...) والثورة الاجتماعية والاقتصادية كلٌّ لا يتجزأ وليست مراحل متميزة" وقرَّر أن الجماهير الفلاحية والعمالية هي القوى المسيِّرة للثورة وأن المثقفين والطلبة يجب أن يخضعوا لقيادتها؛ وذكر أسباب اللجوء إلى التماس العون من

112. أنظر، حربي، جبهة التحرير...ص. 177.

113. ن.م. ص. 246-248.

المعسكر الاشتراكي دون التخلي عن سياسة الحياد. انتهت أشغال اللجنة الثانية إلى إصدار نصين رسميين: المؤسسات المؤقتة للدولة الجزائرية والقوانين الأساسية لجبهة التحرير الوطني وأكَّد النصان في مقدمتهما على أن: "جبهة التحرير تقود الثورة في نفس الوقت الذي تواصل فيه قيادة الحرب التحريرية وأن هدفها الأساسي هو القضاء على النظام الاستعماري واسترجاع سيادة الدولة الجزائرية وبناء جمهورية ديمقراطية اجتماعية"؛ ولتحقيق هذا الهدف تنتظم الجبهة في شكل حزب أحادي ضمنيًا مع إدماج جيش التحرير الوطني وستكون مهمة الجبهة بعد الاستقلال هي مواصلة مهامها التاريخية كقائد ومنظم للأمة الجزائرية؛ والمجلس الوطني للثورة هو في نفس الوقت حافظ للسيادة الوطنية وهو الجهاز المسيِّر لجبهة التحرير الوطني. غير أن بن خدة لم يوفق في تمرير المشروع القاضي بتعيين مكتب سياسي أعلى من الحكومة المؤقتة.[114]

لقد ضاعف الشروع في المفاوضات مع فرنسا وتيرة التنافس والمساومات داخل المجلس الوطني للثورة وداخل الحكومة المؤقتة وبين هذه الأخيرة وقيادة الأركان العامة. ولم يُجْدِ تعويضُ الرجل المعتدل، فرحات عباس، ببن خدة في رئاسة الحكومة في وضع حدٍّ للأزمة؛ وصار الانتقاد الموجه ضد اتفاقيات إفيان، باعتبارها "أرضية للاستعمار الجديد"، صار وسيلةً لزعزعة سلطة الحكومة المؤقتة إلى زمن انعقاد المجلس الوطني للثورة في طرابلس في ماي – جوان 1962. إنَّ الشعار الذي رفعه الكولونيل بومدين: "الاستقلال مجردٌ وسيلة والهدفُ هو الثورة" خير دليل على أن الوطنية في شكلها الأول قد تم تجاوزها.

ونظرا لوعي مناضلي الحركة الطلابية بهذا التطور الحاصل فإنهم كانوا يطمحون إلى المساهمة مباشرة في صنع مستقبلهم فاستغلَّ بعضهم فرصة

114. ن.م. ص. 251-253.

النداء الداعي إلى تطوع الطلبة للالتحاق بجيش التحرير الوطني. كانت الأعمال التي قاموا بها في سنة 1960 تدعو إلى الكفاح ضد التخلف وإلى بناء مجتمع جديد.[115] لقد حدّدوا هدفين أساسيين هما: "القيام بإصلاح زراعي حقيقي وثوري" و"إعدادُ مخطط عام للاقتصاد". كلا المشروعين استلزما تطوير التعليم وبالخصوص تعليم المرأة التي ينبغي "أن تحتل مكانتها في المجتمع لتساهم في الحياة الوطنية". شكّلت فكرة الثورة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مصدر استلهام لكل تلك التحاليل من غير أن تتصدى لتفصيل مفهوم "الاشتراكية".

لكن في شهر ديسمبر 1961 قررت الإدارة الجديدة لـ"إ.ع.ط.م.ج." تحويله إلى فرع جامعي لجبهة التحرير الوطني لكي يتم إدماجه في الحزب الثوري الطلائعي المقبل. انعقدت "ندوة وطنية" في مدينة كولون (Cologne)، من 16 إلى 20 أفريل 1962، كلّفت أحدى لجانها، وهي لجنة السياسة العامة، بصياغة أيديولوجية جديدة.

أكّد تقريرهاُ[116] على ما يلي: "من أجل تحقيق نمو الجزائر ليس ثمة من حل سوى تبنّي النظام الاقتصادي الاشتراكي؛ ذلك أن النظام الرأسمالي، المؤسَّس على الربح لفائدة الأقلية والذي يؤدي إلى استغلال الإنسان من طرف الإنسان، لا يمكن أن يستجيب لطموحات العشب الجزائري المشروعة في التطور وفي تحقيق العدالة الاجتماعية. "في المجال الفلاحي" إن الإصلاح الزراعي ينبغي أن يؤسس على الاستغلال المشترك للأرض ولوسائل الإنتاج" وهذا يفترض "استعادة الأراضي"؛ إنّ الاستغلال المشترك سوف يجنّب قيام الملكية الصغيرة التي لا تتناسب سوى مع قدرات العمل العائلية؛ ولكن "لكي نجتنب تجزئة الأراضي، التي ليست لها مردودية

115. منشور الفرع الجامعي، ذكره زهير فارس م.م. ص. 84-85.

116. ن.م. ص. 91-92.

اقتصادية، فإن العمل المشترك أمرٌ ضروري"؛ كما ينبغي أن تخلق سياسةُ التصنيع نوعا من التوازن بين الصناعة الثقيلة، التي تكفل الاستقلال الاقتصادي، وبين الصناعة الخفيفة ووفقا لمبدأ التكامل بين التسيير الذاتي والتخطيط. وبالفعل؛ فإن "تسيير الصناعات يجب أن يتكفل به العمال" لكن "على الدولة أن تتكفل بتنسيق وتطوير وانسجام مختلف القطاعات داخل الاقتصاد الوطن" في إطار التخطيط الذي يمثل "ضرورة وطنية لا مناص منها".

في المجال السياسي؛ أجمعت اللجنة على أنَّ "حزبا ثوريا وحيدا" هو الكفيل "بتحقيق انتصار الثورة في الجزائر" لكن "بعض الممثلين أثاروا تخوفا من هيمنة النظام الشمولي". وهكذا؛ طغت على المناقشات قضيةُ تبنِّي الأنظمة السياسية والاقتصادية السائدة في الدول الاشتراكية كمرجعية تكاد تكون كلية. بقطع النظر عن استعمال اللغة فإن عطاء الثقافة الفرنسية قد انحصر في شكل اللائيكية التي تُعارض الإلحاد الرسمي والذي يميز تلك الدول والديانة السائدة في الدول العربية: "إن الدين لا ينبغي أن يشكل سوى قضية شخصية ومن هنا جاءت ضرورة التفريق بين الدين والدولة واحترام المعتقدات". رغم التأخر تمكنت أطروحات "إ.و.ط.ج.ب." من الثأر لهزيمتها السابقة وهذا قبل أن يتبنى المؤتمر اسم "إ.و.ط.ج." سنة 1963.

في نفس الوقت ساهم مناضلو الفرع الجامعي الجديد في إعداد مشروع برنامج تقدمت به فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني في آخر جلسة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس. لقد كان برنامجا مفصلا جدا استمد معظم رؤاه من النمط السوفيتي والكوبي.[117] غير أن "المجلس الوطني للثورة الجزائرية" لم يدرج في أشغاله سوى البرنامج التي قدمته لجنة

---

117. حربي م.م. ص. 336.

الوزارات المشكلة من: عضوين في "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" وهما بن بلة ويزيد؛ وعضوين في "المجلس الوطني للثورة الجزائرية" هما بن يحي ولشرف ثم رضا مالك ومحمد حربي وعبد المالك تمام. رغم إجماعهم في التنديد باتفاقيات إيفيان فلقد اختلفوا في تصورهم لسير أمور الثورة: فضّل كلٌّ من لشرف ومالك "ثورة ديمقراطية شعبية" معادية للإقطاع وغير برجوازية لكن ليست اشتراكية. وآثر بن بلة ثورة اشتراكية فلاحية إسلامية تنتمي إلى العالم الثالث؛ أما حربي فوقف إلى جانب فكرة الثورة الماركسية في الداخل (الصراع الطبقي) وفي الخارج (التحالف ضد الإمبريالية مع المعسكر الاشتراكي). لم يكن لنص المشروع إذن أن يتخذ سوى شكلا توفيقيا؛[118] إذ تمكن بن بلة من فرض مرجعية الإسلام (غير أنه لم يتمكن من الحصول على النطق بأحادية الحزب). بعد أن وافقت عليه الحكومة المؤقتة لم يدخل عليه المجلس الوطني للثورة الجزائرية سوى تعديلا واحد: ألا وهو المرجعية الاشتراكية التي اقترحها ممثل فدرالية فرنسا علي هارون. "تمت الموافقة بالإجماع على "برنامج طرابلس" هذا رغم أن فرحات عباس لم يجد فيه سوى "شيوعية لم تُهضم كما ينبغي".[119]

هكذا؛ ساهم الطلبة المناضلون في التطور الأيديولوجي لجبهة التحرير الوطني بل كان يبدو عليهم أنهم يمثلون الطليعة وذلك بفضل تبنيهم المبكر للنهج الاشتراكي. غير أنهم لم يسايروا الآخرين في تقليدهم بلدان الشرق باستمرار وبالخصوص في انفصالهم عن القيم الإسلامية التقليدية. لا شك في أن أيديولوجية الحركة الطلابية لم يسبق لها أن كانت متطابقة تماما مع أيديولوجية مجموع الحركة الوطنية. غير أن البون بين الثقافة السياسية للطلبة وثقافة السلطات لم يزد سوى اتساعا من سنة 1962 إلى سنة 1971

118. ن.م. ص. 330-336.

119. ن.م. ص. 341.

الوزارات المشكلة من: عضوين في "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" وهما بن بلة ويزيد؛ وعضوين في "المجلس الوطني للثورة الجزائرية" هما بن يحي ولشرف ثم رضا مالك ومحمد حربي وعبد المالك تمام. رغم إجماعهم في التنديد باتفاقيات إيفيان فلقد اختلفوا في تصورهم لسير أمور الثورة: فضّل كلٌّ من لشرف ومالك "ثورة ديمقراطية شعبية" معادية للإقطاع وغير برجوازية لكن ليست اشتراكية. وآثر بن بلة ثورة اشتراكية فلاحية إسلامية تنتمي إلى العالم الثالث؛ أما حربي فوقف إلى جانب فكرة الثورة الماركسية في الداخل (الصراع الطبقي) وفي الخارج (التحالف ضد الإمبريالية مع المعسكر الاشتراكي). لم يكن لنص المشروع إذن أن يتخذ سوى شكلا توفيقيا؛[118] إذ تمكن بن بلة من فرض مرجعية الإسلام (غير أنه لم يتمكن من الحصول على النطق بأحادية الحزب). بعد أن وافقت عليه الحكومة المؤقتة لم يدخل عليه المجلس الوطني للثورة الجزائرية سوى تعديلا واحد: ألا وهو المرجعية الاشتراكية التي اقترحها ممثل فدرالية فرنسا علي هارون. "تمت الموافقة بالإجماع على "برنامج طرابلس" هذا رغم أن فرحات عباس لم يجد فيه سوى "شيوعية لم تُهضم كما ينبغي".[119]

هكذا؛ ساهم الطلبة المناضلون في التطور الأيديولوجي لجبهة التحرير الوطني بل كان يبدو عليهم أنهم يمثلون الطليعة وذلك بفضل تبنيهم المبكر للنهج الاشتراكي. غير أنهم لم يسايروا الآخرين في تقليدهم بلدان الشرق باستمرار وبالخصوص في انفصالهم عن القيم الإسلامية التقليدية. لا شك في أن أيديولوجية الحركة الطلابية لم يسبق لها أن كانت متطابقة تماما مع أيديولوجية مجموع الحركة الوطنية. غير أن البون بين الثقافة السياسية للطلبة وثقافة السلطات لم يزد سوى اتساعا من سنة 1962 إلى سنة 1971

118. ن.م. ص. 330-336.

119. ن.م. ص. 341.

ولقد أدّى، بعد قيام أزمات عديدة، إلى حلّ "إ.و.ط.ج.". في هذا الصدد إن مشروع إدماج الطلبة المناضلين في الحزب الثوري الطلائعي باء بالفشل بقطع النظر عن انفجار الجبهة في صيف 1962 الذي أفقده حظوظ النجاح.

يمكن تفسير هذا الفشل بكون القطيعة مع المُثل السياسية الفرنسية ومع المبادئ الديمقراطية الليبرالية الغربية لم تنجر عنه عودة إلى الأصول العربية الإسلامية؛ بالرغم من إقحام المعربين في الحركة الطلابية؛ وإنما وقع استبدال هيمنة أجنبية بهيمنة أخرى. إن القطيعة مع فرنسا واللجوء إلى المساعدات التي يقدمها المعسكر الاشتراكي والمنح الدراسية التي كان أعضاء ذات المعسكر والاتحاد الدولي للطلاب (U.I.E) يمنحونها فكلٌّ تلك المعطيات يسَّرت انتقال مركز التأثير من معسكر إلى آخر. ولكن لا ينبغي التسليم بقيمة هذا التفسير، تسليما مطلقا، لأنَّ العناصر الأكثر نشاطا في الفرع الجامعي الجديد كانوا متواجدين في الفروع الجامعية بفرنسا وسويسرا. إن المناضلين الطلاب في البلدان الغربية، وخاصة في الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا، (U.N.E.F)[120] انحرفوا وقتئذ نحو الفكر الماركسي ذي الصبغة الخاصة بالعالم الثالث وذلك ما خلق توترا بينهم وبين وسطهم الاجتماعي والسياسي. فالتطور الذي عرفته الحركة الطلابية الجزائرية يمكن وضعه إذن في سياق عالمي شامل: ولعل هذا ما يفسر رأي العقيد بومدين بخصوص تلك الحركة الطلابية التي يعتبرها "فريسة سهلة ومستعدة لتقبُّل العقائد الأجنبية الجاهزة للتصدير".

قبل إصدار أية أحكام؛ ينبغي الانتباه إلى نقطتين اثنتين: لا يمكن التأكيد على حصول إجماع إيديولوجي لدى الحركة الطلابية بدون دراسة معمَّقة للوثائق الخاصة بالفرع الجامعي وبمؤتمره الفاشل في سبتمبر 1962؛ إذ يبدو أن الحركة الطلابية قد انشطرت حينئذ، حسب شتى الاعتبارات

120 . Cf. Alain Monchablon, Histoire de l'UNEF de 1965 - 1968. PUF, 1982.

الإيديولوجية والجغرافية، بين النواة الفرنسية-السويسرية التي كانت نشيطة وبين كتلة المعسكر الشرقي (التي كانت محتشمة) وبين كتلة المُعرَّبين (التي كانت أقلية) وبين الطلبة المنخرطين في جيش التحرير الوطني؛ أضف إلى هذا أن تمثيلية تلك الفئة من المناضلين لم تكن محل إجماع. لقد نددت اللجنة الوطنية للفرع الجامعي في برنامج نشاطاتها بما أسمته "زوال التسييس تدريجيا والتقهقر نحو الفوضوية والأنانية ومن ثمة عدم مساهمة الطلاب في الكفاح من أجل الاستقلال وانعدام النظرة الواثقة نحو المستقبل"؛[121] وكأن شيئا لم يحدث منذ نوفمبر 1954.

121. Cité par Z. FARES, op. cit. P.88.

# الخلاصة

تسبب الاستقلال في حدوث "ثورة في الجامعة" وفي جميع أنحاء البلد؛ ولقد حلت الجامعة الوطنية الجزائرية، "بصفتها إكليل النصر الذي أحرزه الشعب الجزائري على الاستعمار"، محل الجامعة الفرنسية في الجزائر. وأصبح تعريبُ التعليم وتعميمُه من أولويات الحكومة. ها هو التعليم الجامعي الذي استقبل سنة 1962-1963 حوالي 2.000 طالب يستقبل الآن قرابة 100.000 طالب؛ وبالرغم من تقلص نصيب اللغة الفرنسية، التي أصبحت لغة أجنبية، وبالرغم من التعريب التدريجي لمختلف الشُّعب التعليمية فإن عدد الطلبة "الدارسين بالفرنسية" لا يزال هاما ولا يزال زملاؤهم "المعرَّبون" يغبطونهم على مستواهم المعرفي وعلى فُرص العمل التي يجدونها. هكذا لم يعد الطلبة الجزائريون، الدارسون باللغة الفرنسية، يعانون عقدة الانعزال والغربة الاجتماعية وسط شعبهم. تلك العقد التي كانت نصيب من سبقوهم إلى غاية سنة 1954. يبدو إذن، أن التاريخ الذي عاشه هؤلاء قد تجاوزته الأحداث بالرغم من أن عواقبه الحساسة لا تزال ماثلة في الجزائر الحالية.

حتى وإن لم يصل الطلبة إلى قمة السلطة في الجزائر فإن قدماء الجامعة الفرنسية، الذين تكونوا أثناء حرب التحرير الوطني أو قبلها مباشرة، كانوا من أهم المستفيدين من مزايا الاستقلال كما تنبأ به الكولونيل اعميروش.

لقد استفادوا، بشكل واسع، من فُرص الارتقاء الاستثنائية التي أتاحها النزوح الجماعي للإطارات الفرنسية سنة 1962؛ وكذا ضرورات بناء الدولة الجزائرية، ابتداء من ذلك التاريخ، حيث نجدهم يشغلون أعلى المناصب: كوزراء وسفراء ومسيري شركات وطنية وهي مراتب أعلى من تلك التي آلت إلى الذين استفادوا من سياسة "ترقية المسلمين". لكن؛ بقطع النظر عن الشهادات التي تحصلوا عليها وعن كفاءاتهم الشخصية فهل كانوا أهلاً للحظوظ التي أتيحت لهم بفضل مساهمة فعلية في حرب التحرير؟

لقد أجاب المعنيون على هذا السؤال إجابتين متعاقبتين. ففي إبان الحرب كان الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين يمجّد "الطلبة المكافحين" (وثيقة المؤتمر الرابع) أما بعد الاستقلال فاعتقدت الحركة الطلابية أن من واجبها القيام بنقد ذاتي؛ وهكذا كتب محرر افتتاحية "الثورة في الجامعة" (عدد 01) ما يلي: "نعم؛ يجب الاعتراف بذلك فبالرغم من إضراب ماي 1956 لم تكن حركتنا، في واقع الأمر، بمثابة طليعة ثورية قط". ثم أضاف: "لقد تخلى عموم الطلبة الجزائريين عن أداء دورهم في حرب التحرير؛ فلنعترف، دون خوف، ولنجهر بالحقيقة: إننا لم نشارك كما ينبغي في الكفاح. لقد عشنا، في الحفظ والصون، على هامش المأساة التي عانتها بلادنا..." (العدد رقم 02). وبالرغم من اعترافهم بالدور الذي لعبه "إ.ع.ط.م.ج." إلى غاية الإضراب؛ فإن بعض قدماء المقاومين لا يزال، إلى اليوم، يؤاخذ الاتحاد على كونه ملاذا للفارين من الزحف. ومن جهة أخرى فإن بعض قدماء الطلبة المناضلين قد جرّم قرار الإضراب وذهب آخرون إلى حدّ اعتباره "تصرفًا جنونيا". يمكن التوفيق بين هذين الحُكمين المتطرفين إذا اعتبرنا أن جبهة التحرير قد اتخذت موقفين متناقضين ولكن لكل منهما مبرراته، من وجهة نظرها، بسبب التعبئة العامة للطلاب والاحتفاظ بهم كجنود احتياط.

يبدو أنّ نصيب حاملي الشهادات من الاستفادة باستقلال الجزائر كان ذا أهمية أقل: فعامل السن قد فعل فعلته بالإضافة إلى العزل الذي ضُرب على "زعماء" الأحزاب القديمة من طرف النظام السياسي الجديد. غير أن موقف حملة الشهادات تجاه الحركة الوطنية يشكل واحدا من العوامل التي ينبغي لفت النظر إليها؛ فنحن نعلم أن قسما كبيرا منهم قد ظل، لمدة طويلة، يؤيد فكرة الجزائر الفرنسية أو "الفرنكو- إسلامية" وأن قسما آخر قد التحق بالحركة الوطنية الجزائرية متأخرا. لقد تضاعف دور هؤلاء داخل الأحزاب الوطنية ابتداء من سنة 1936 غير أننا لا نعرف بالتحديد التاريخ الذي تحولوا فيه إلى أغلبية في أوساطهم: هل هي سنة 1943 أم 1955 أم 1960؟ ولا نعرف كذلك إلى أي مدى اختاروا، بعد الاستقلال، الحصول على الجنسية الجزائرية أو المحافظة على الجنسية الفرنسية.

هذه التساؤلات المطروحة في بداية وفي أثناء تحقيقنا لم تجد أجوبة شافية. غير أنه من المفيد التذكير هنا ببقية النتائج المتحصل عليها وفي ضبط الأحداث ثم في تأويلها انطلاقا من وجهة نظر المعنيين بالأمر بالذات.

يمكن دراسة تطور الطلبة المسلمين الجزائريين، إلى غاية سنة 1954، من جوانب ثلاثة: إحصائية واجتماعية وسياسية. لا يمكن تحديد معالم الجانب المتعلق بالتطور العددي، بصورة دقيقة، لأن الإحصاء الخاص بهم لم يكن موجودا سوى في جامعة الجزائر وذلك ابتداء من سنة 1915. ومع ذلك: فبوسعنا تقديره ببضعة عشرات قبل سنة 1914؛ وبحوالي 150 في حدود سنة 1935؛ وأزيد من 1.000 في سنة 1954. بالرغم من هذه الزيادة السريعة نلاحظ أن عددهم الإجمالي ظل ضعيفا. كان الطلبة المسلمون واعين بكونهم أقلية في الجامعات الفرنسية وأقلية أقلّ من ذلك داخل الجماعة التي ينتمون إليها (فالحذر الذي التزمت به هذه الأخيرة تجاه التعليم الفرنسي المستوعِب يعتبر من العوامل المؤدية إلى تلك الوضعية).

إلى أية أصول اجتماعية كانت تنتمي هذه الفئة المنتقاة؟ ولأي مصير اجتماعي - مهني كان يتم تحضيرها؟ كيف كانت تعيش أثناء دراستها؟ تلك أسئلة ثلاث لم نتمكن من تقديم إجابات عليها بواسطة التحقيق السوسيولوجي الذي تتطلبه مقتضيات العمل؛ غير أن المعنيين كانوا يقدمون لنا أجوبة بعدية يمكن القبول بها في خانة "أرباح التقويم" فحسب هؤلاء لم تكن أغلبية الطلبة من أبناء الطبقات المحظوظة (عائلات "الخيام الكبيرة" أو البرجوازية أو التجار والمقاولين) لكن من "أبناء الشعب" الأصيلين. هذا لا يعني أنهم من أبناء العمال الزراعيين أو البطالين القاطنين في البيوت القصديرية وإنما من أبناء البرجوازيين الصغار وبالخصوص من أبناء الموظفين ذوي الأصول المتواضعة على العموم (عساكر وقدماء تلاميذ المدارس ومعلمين وأعوان الصحة) الذين كانت توهب لهم المنح تكريما (لآبائهم) على سيرتهم الحسنة تجاه الإدارة. غير أن التكوين الذي كانوا يتلقونه كان يؤهلهم لاحتلال مقام الأعيان ويجعلهم يفلتون من حالة البؤس التي يعيشها شعبهم من غير أن يمكنهم ذلك من الوصول إلى مقاليد تسيير البلاد التي هي حكر للفرنسيين. كانوا إذن يبادرون إلى اختيار المهن الحرة قبل كل شيء (أطباء وصيادلة ومحامون وموثقون) ثم الوظيفة العامة (التعليم أكثر من الإدارة) ولكن قلة منهم كانت تختار مهنة الهندسة (لندرة أرباب العمل المسلمين). كانت عامة المسلمين ميالة إلى اعتبار هؤلاء الحائزين على الشهادات طبقة محظوظة "متبرجزة" أنانية ومنطوية على نفسها. غير أن الطلبة على العموم يتحدثون عن أنفسهم باعتبارهم طلبة فقراء؛ ولتحسين ظروفهم المادية والمعنوية، في الحياة والعمل، قرروا ابتداء من سنة 1919 الانضواء تحت لواء جمعيات "التعاون المتبادل" (أولى الجمعيات كانت "و. ط. م. إ. ش." في مدينة الجزائر) لقد دعوا قدماء الطلبة إلى التضامن معهم وكذا إلى تضامن الجماعة المسلمة كلها واعدين إياهم برد الجميل وذلك

بتسخير حياتهم للدفاع عن شعبهم. وذلك ما دفعهم إلى الممارسة السياسية.

كان الهدف الدائم الذي تبنته جميع الحركات المطلبية المسلمة هو انتشال الشعب الجزائري من الوضعية الدونية التي آل إليها تحت النظام الاستعماري. لقد تتابعت تلك الحركات من سنة 1908 إلى سنة 1962 سواء أكانت وطنية أم لا؛ وكان المتخرجون من الجامعات الفرنسية يشكلون أطرها القيادية ونخص منهم بالذكر حركة الشبان الجزائريين الذين تكونوا في الجامعات الفرنسية. وحتى وإن ادعت الحركة الطلابية أنها حركة لا سياسية، كما تفعل نظيرتها الفرنسية، (التي كانت تنتسب إليها من 1925 إلى 1935) فإنها سمحت لجيل جديد من سياسيي الشباب الجزائريين أن يتكونوا ويتعرفوا على مجريات الحياة العمومية؛ كما نزعت إلى توسيع مجال نشاطها باقتحام الحقل السياسي، ابتداء من سنة 1930، ثم انخرطت فيه كلية ابتداء من سنة 1943. هذا التطور الذي جرّ الطلبة المسلمين الجزائريين إلى مغادرة التنظيمات الطلابية الفرنسية واكب أو أعقب الحركة المطلبية المسلمة. هذه الأخيرة أفلتت، منذ سنة 1936، من إشراف خريجي الجامعات الفرنسية وكفّت، بعد مدة قصيرة، عن إبقاء مطالبها في إطار السيادة الفرنسية. في سنة 1943 حذت الحركة الطلابية حذو قائدها السابق، فرحات عباس، وذلك بالانخراط في حزب "بيان الشعب الجزائري" قبل أن تخضع لقوة تأثير الحركة الوطنية التي جسّدها "ح.ش.ج." - "ح.إ.ح.د.". غير أنه لا يمكننا الجزم بأن جميع الطلبة الجزائريين، ولا حتى أغلبهم، قد عزموا على الوقوف إلى جانب الحركة الوطنية في سنة 1954. بل عكس ذلك هو الذي حصل مادام المناضلون منهم يؤكدون أنهم كانوا أقلية في الأوساط التي تواجدوا فيها وكانوا يندّدون بلا مبالاة المثقفين إزاء القضايا العامة ويحرضونهم على الالتحاق بصفوف شعبهم إقتداء بالمثل الرائع الذي قدمته الشعبوية الروسية.

كانت حرب التحرير الوطنية فرصة سانحة حيث شرع الطلبة المناضلون في جمع الأغلبية الساحقة من زملائهم في تنظيم موحَّد وهو "إ.ع.ط.م.ج." الذي تأسس في جويلية سنة 1955؛ وضاعف هذا التنظيم فرص الإعلان عن مناهضته للقمع، أولاً، ثم بتضامنه مع جبهة التحرير الوطني فانضم إليها أغلب مسيِّريه. ابتداء من 25 ماي 1956 بادر فرع مدينة الجزائر، وبأمر من الجبهة، بالإعلان عن إضراب غير محدود عن الدروس وعن الامتحانات فوضع الطلبة تحت تصرف الثورة الجزائرية. غادر قسم منهم مقاعد الدراسة في الجامعة الفرنسية ليلتحق بجبهة وجيش التحرير الوطني في الجبال أو في صفوف التنظيمات السرية حيث مات أو أسر عدد كبير منهم بينما عاد القسم الآخر ليواصل دارسته في أكتوبر 1957 بموافقة الجبهة في فرنسا ومن غير موافقتها في مدينة الجزائر. بعد صدور قرار حلّ "إ.ع.ط.م.ج." في فرنسا قرّر التنظيم، بتأييد من الحركة الطلابية العالمية، تحويل قواعد عمله إلى الجامعات الأجنبية. قامت أطره بتقديم دعم فعّال للعمل الدبلوماسي الذي مارسته الحكومة المؤقتة ثم اندرجوا في الجهاز الخارجي لجبهة وجيش التحرير الوطني. هكذا: ساهم الطلبة الجزائريون في حرب التحرير من غير أن يعرف الجميع أهوالها أو يجني الكل ثمارها. لقد كان لهم فضل إعطاء الجزائر المستقلة قسما كبيرا من إطاراتها المسيرة وهذا لم يمنع الكراهية أن تحل في القلوب فتضع وجها لوجه قدماء المحاربين وقدماء المهاجرين.

إن تحليل أيديولوجية المثقفين المسلمين الجزائريين، من سنة 1908 إلى 1962، يساعد على إدراك هذا التطور بشكل أفضل، وهو تحليل تعاقبي للأحداث أولا؛ إذ تعاقبت أيديولوجيات ثلاث وتداولت على الانتشار في هذا الوسط:

- الإيديولوجية الاستيعابية: التي عبَّر عنها بن حبيلس، قبل سنة 1914، وكانت ترى أنه يجب على المسلمين أن يكونوا مماثلين للفرنسيين ليكونوا أهلا للمساواة معهم.

- ثم جاءت الأيديولوجية الفرنكو ؟ إسلامية التي كانت موجودة قبل سنة 1914؛ غير أنها عرفت انطلاقها الحقيقي ابتداء من سنة 1919: وكان فرحات عباس أحد رموزها حين نادى بضرورة المساواة بين الأفراد والحضارات وبحق التمتع بالجنسية الفرنسية وبالكيان المسلم معا تمتعا تاما.

- ابتداء من سنة 1936، وبالأخص منذ سنة 1943، جاءت الحركة الوطنية الجزائرية لتدّعي أنها تسعى إلى إحلال العطاء الثقافي الذي جاءت به فرنسا في الشخصية العربية الإسلامية الموجودة في هذه الربوع. كانت تلك الأيديولوجيات الثلاث تعبر عن علاقة القوى المتواجدة وكانت، بنسب متفاوتة، تحرك عملية التنافس بين التأثيرات الناجمة عن فرنسا والتأثيرات التي تنجم عن الوسط المسلم (الجزائري أو الشمال - إفريقي) وكانت أهمية أولاهما تتناقص كلما ازدادت أهمية ثانيتهما فكل واحدة من تلك الأيديولوجيات تكونت، عبر المسار الزمني، كرد فعل لفشل سابقتها؛ ولم تتمكن أي منها من الحلول نهائيا محل التي سبقتها قبل نهاية حرب التحرير.

تبرز نقاط تشابههما واختلافهما عبر تحليل "تنشئة الحس الاجتماعي والسياسي" لدى الأفراد من خلال تجارب الطفولة والشباب: فاكتشاف التحوُّل الذاتي، حيث تتواجه الثقافة الفرنسية مع ثقافة الوسط العائلي، يشكل أمرا مشتركا بين الأيديولوجيات الثلاث. يؤدي التمرُّد ضد الظلم إلى توجيه التهمة للاستعمار؛ وهذا لا يعني، في نظر جميع الأطراف، رفض السيادة الفرنسية. لكن تجسيد الاستعمار في تلك السيادة من طرف الأحزاب الوطنية هو الذي أدى إلى تبلور الوعي الوطني بصفته الأداة الضرورية لتحقيق التحرير.

كان المثقف في حاجة ماسة إلى تعريف أمته ليتمكن من تكريس وجودها: ولقد منحته فرنسا زادًا ثقافيا شاملا وزوَّدته بالمبدأ المثالي القائم على

المساواة بين البشر وبين الشعوب غير أنه كان يرفض هيمنتها السياسية. إن الأمة الجزائرية حصيلة عدة انتماءات تقليدية هي: الجماعة الدينية الإسلامية والثقافة العربية (والثقافة البربرية بالنسبة للبعض) والإطار الجغرافي (شمال إفريقي أو جزائري) ثم جاءت الحداثة لتضيف أشكالا أخرى من الانتماء هي: التضامن ضد الاستعمار والبعد الأفرو – أسيوي والوحدوية الإفريقية والتوجهات نحو العالم الثالث ومعاداة الإمبريالية. عند تمام تعريف هذه الأمة فإنها تبدو كيانا لا تحصره حدود واضحة المعالم ما عدا الحدود التي تواجه بها كلا من الدولة الفرنسية و فرنسيي الجزائر الذين لم يكن لديهم أي استعداد ليكونوا جزائريين مثل بقية الناس.

كان من الممكن أن يظل هذا التصور للأمة عبارة عن مفاهيم مجرّدة لو لم تتقمص شخصية شعب اسمه "الشعب الجزائري". شعب فقير وجاهل ولكنه فاضلٌ ووفيٌ لشخصيته الأزلية وليس في طبعه قبول المحاولة الفرنسية الرامية إلى امتصاصه عن طريق الاستيعاب. كل تلك الخصائص جعلته على طرفي نقيض مع النخبة المثقفة الفرانكفونية لتي يعتبرها مغتربة بثقافتها الأجنبية و"متبرجزة" بامتيازاتها المادية. من أجل الابتعاد عن الشنار، الذي لصق بهذه "النخبة الكاذبة"، فإن عدد كبيرا من أولئك المثقفين سفّهوا النزعة النخبوية وفضّلوا تبجيل شعبهم والرضوخ لإرادته وذلك باعتناق النزعة الوطنية. غير أن ذلك لم يكن ليزيل الحذر المركّب في نفوس المناضلين الغوغائيين الذين لم يروا في ذلك الانضمام، المتأخر، سوى انسياقا مع النزوع إلى التبرجز والغرق في أوحال الإصلاحية. إنّ الوطنية الجزائرية التي نشأت بعيدا عن الفئات الاجتماعية ذات الامتياز هي أصلا شعبوية وثورية.

كانت النخبة المثقفة المسلمة الفرانكفونية فئة اجتماعية ذات امتياز؛ ولقد أنشأتها السلطات الفرنسية لتقوم بدور الوساطة بينها وبين السكان "الأهالي" ولكي يُتخذ نجاحها مثالا يقتدي به الغير قصد استدراجهم إلى الاستيعاب.

المساواة بين البشر وبين الشعوب غير أنه كان يرفض هيمنتها السياسية. إن الأمة الجزائرية حصيلة عدة انتماءات تقليدية هي: الجماعة الدينية الإسلامية والثقافة العربية (والثقافة البربرية بالنسبة للبعض) والإطار الجغرافي (شمال إفريقي أو جزائري) ثم جاءت الحداثة لتضيف أشكالا أخرى من الانتماء هي: التضامن ضد الاستعمار والبعد الأفرو - آسيوي والوحدوية الإفريقية والتوجهات نحو العالم الثالث ومعاداة الإمبريالية. عند تمام تعريف هذه الأمة فإنها تبدو كيانا لا تحصره حدود واضحة المعالم ما عدا الحدود التي تواجه بها كلا من الدولة الفرنسية و فرنسيي الجزائر الذين لم يكن لديهم أي استعداد ليكونوا جزائريين مثل بقية الناس.

كان من الممكن أن يظل هذا التصور للأمة عبارة عن مفاهيم مجردة لو لم تتقمص شخصية شعب اسمه "الشعب الجزائري". شعب فقير وجاهل ولكنه فاضلٌ ووفيٌ لشخصيته الأزلية وليس في طبعه قبول المحاولة الفرنسية الرامية إلى امتصاصه عن طريق الاستيعاب. كل تلك الخصائص جعلته على طرفي نقيض مع النخبة المثقفة الفرانكفونية لتي يعتبرها مغتربة بثقافتها الأجنبية و"متبرجزة" بامتيازاتها المادية. من أجل الابتعاد عن الشنار، الذي لصق بهذه "النخبة الكاذبة"، فإن عدد كبيرا من أولئك المثقفين سفّهوا النزعة النخبوية وفضّلوا تبجيل شعبهم والرضوخ لإرادته وذلك باعتناق النزعة الوطنية. غير أن ذلك لم يكن ليزيل الحذر المركّب في نفوس المناضلين الغوغائيين الذين لم يروا في ذلك الانضمام، المتأخر، سوى انسياقا مع النزوع إلى التبرجز والغرق في أوحال الإصلاحية. إنّ الوطنية الجزائرية التي نشأت بعيدا عن الفئات الاجتماعية ذات الامتياز هي أصلا شعبوية وثورية.

كانت النخبة المثقفة المسلمة الفرانكفونية فئة اجتماعية ذات امتياز؛ ولقد أنشأتها السلطات الفرنسية لتقوم بدور الوساطة بينها وبين السكان "الأهالي" ولكي يتخذ نجاحها مثالا يقتدي به الغير قصد استدراجهم إلى الاستيعاب.

غير أن نوعية أخرى من الفرنسيين، وخاصة منهم أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم "جزائريين"، قد بادروا إلى التنديد بتلك الفئة المثقفة واعتبروها "ألدّ أعداء" فرنسا وأنها تسعى إلى إحلال "الخراب، مستقبلا، والمتمثل في النزعة الوطنية المسلمة". لقد وقعت تلك النخبة في مأزق الأحكام المتناقضة فحاولت، على ما يبدو، تبرير تلك الأحكام بعضها ببعض فهي ترتكز على أفكار مسبقة خاطئة مفادها: أن النخبة، بحكم مقدرتها العلمية، لا يمكن سوى أن تقود تطوُّر العامة في الاتجاه "الصحيح" أو في الاتجاه "الفاسد". وحتى وإن اعتقدت تلك النخبة فعلا أن في وسعها القيام بذلك الدور فلقد تخلّت عنه وعزلت نفسها في برجها العاجي أو انضمّت إلى الحركة الوطنية خوفًا من أن تُوجَّه إليها تهمة خيانة الطموحات الشعبية. إن خلاصة النداء الذي وجهه فرع مدينة الجزائر ل"إ.ع.ط.م.ج."، في 19 ماي 1956، إلى الطلبة مُحرضًا إياهم على الالتحاق بالجبل بمثابة تعبير عن "عقدة الذنب" التي تُعتبر سر المفارقة الكامنة في النزعة الشعبوية لدى النخبة المناهضة للتوجه النخبوي: "أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون هل ترانا سوف نظهر خونة في نظر العالم الذي يتطلع إلينا وفي نظر الأمة التي تدعونا والمصير البطولي الذي ينتظر بلدنا؟"

في هذا الصدد؛ يبدو أن النخبة المتكونة باللغة الفرنسية كانت تتميز بشكل واضح عن بقية النخب الموجودة في كل الدول غير الأوروبية ممن تحتم عليها الوقوف وجها لوجه أمام واقع مماثل فرضته مقتضيات التحول الوطني والاجتماعي: روسيا واليابان والصين والهند وإيران وتركيا ومصر وبلدان أمريكا اللاتينية... هذا التمايز الظاهر يمكن إرجاعه، بسهولة، إلى خصوصيات السياسة الاستعمارية الفرنسية وهي: تكثيف الاستبدال الثقافي لدى النخب والخلط، عمداً، بين الثقافة والجنسية وهو خيار تبناه التوجه الرامي إلى استكمال عملية "الاحتلال المعنوي" وإنهائها. إن تناقض هذا الموضوع بالذات مع السياسة البريطانية في الهند (التي لم تكن تستبعد خيار

"الحكم الذاتي") يجلي الأمور كما تجليها المقارنة مع نظامي الحماية والوصاية المجاورين للجزائر حيث لم تتمكن فرنسا من تطبيق نفس سياسة "الديمقراطية القسرية". كان المثقفون الجزائريون يرون أن أقرب الفئات المثقفة إليهم هم نظراؤهم في مستعمرات إفريقيا السوداء؛ ولكن يمكن القول بأن وضع الجزائر يتميز عن تلك البلدان بعدة مواصفات خاصة وهي: صعوبة عملية الاحتلال وقسوتها والتفكك البنيوي الذي عرفه مجتمع "الأهالي" وتدمير جميع النخب التقليدية وكثافة الاستعمار الاستيطاني والإصرار على تحويل الجزائر إلى مجرد امتداد للبلد الأم... وبهذا يمكننا شرح السبب الذي جعل النخبة الجزائرية الجديدة التي أفرزتها فرنسا، انطلاقا من العدم، تستغرق كل تلك المدة قبل أن تجد سبيلها إلى الاندماج مع تطور شعبها.

لقد ارتكبت السياسة الفرنسية، لمدة طويلة، خطأ فادحا يتمثل في تسليط النخبة على العامة وإرغام من اختار الاستيعاب من المثقفين على فك الارتباط بمجتمعه والإعلان، بصورة فردية، عن اختياره المواطنة الفرنسية. لكن هل كان من الممكن أن يُكتب النجاح لسياسة أخرى كانت ترمي إلى "إدماج" المجتمع المسلم، بصورة جماعية، في الأمة الفرنسية كما كان يظن Jacques Soustelle وقتها؟ أم أن مشروعا مثل ذلك كان مآله الفشل، لا محالة، نظرا للمقاومة الشرسة التي أبداها الشعب الجزائري إزاء كل محاولات الاستيعاب؟ إن الأسباب التي تفسّر فشل السياسة الجزائرية ثم التخلي عنها من طرف فرنسا أسباب متعددة ومكلفة للباحث وهذا لا يضفي على تساؤلنا الأول سوى أهمية نظرية صرفة. أما التساؤل الثاني فمن شأنه أن يجرّ إلى حديث طويل: وليس بديهيا، من جهة أخرى، أن المثقفين الجزائريين من ذوي التكوين الفرنسي كانوا أقل تحملا أو أقل تقبلا من بقية أبناء شعبهم للمحن القاسية نتيجة حرب التحرير الوطنية. وهذا من شأنه أن يدعونا إلى إعادة النظر في مصداقية التأويل الذي تغري به النظرية الشعبوية.

# جدول التسلسل الزمني للأحداث

| | |
|---|---|
| 1830-1850 | المحاولات الأولى لتعليم المسلمين في الجزائر وفي فرنسا |
| 1850 | تنظيم المدارس العربية – الفرنسية. إنشاء ثلاث "مدارس" رسمية. (بالعربية) |
| 1857 | إنشاء أولى متوسطة عربية – فرنسية لمدينة الجزائر |
| 1859 | إنشاء المدرسة التحضيرية للطب في مدينة الجزائر |
| 1865 | إنشاء مدرسة المعلمين لمدينة الجزائر |
| ديسمبر 1879 | صدور قانون إنشاء المدارس العليا الأربعة في مدينة الجزائر |
| 1883 | تأسيس شركة الطلاب لمدينة الجزائر (ش.ط.ج) |
| (؟) 1885 | ش.ط.ج. تتحول إلى الجمعية العامة للطلبة الجزائريين (ج.ع.ط.ج.) |
| 1898 | تحت قيادة Max Regis أثار الطلبة الأحداث الدامية ضد اليهود في مدنية الجزائر |
| 1908 | المؤتمر الثاني ل"إ.و.ج.ط.ف." في الجزائر يناقش تعليم الأهالي |
| ديسمبر 1909 | صدور قانون إنشاء جامعة الجزائر |
| 1919 | أزمة بين "ج.ع.ط.ج." و "إ.ع.ط.ج." 16 مارس: تأسيس "و.ط.م.إ.ش." |
| 1922 | حدوث تقارب بين "ج.ع.ط.ج." و " و.ط.م.إ.ش." |
| 1925 | اتفاق انضمام "و.ط.م.إ.ش." إلى "ج.ع.ط.ج." وإلى "إ.ع.ج.ط.ف." |
| 1927-1928 | تأسيس "و.ط.م.ش.إ.ف." لمدينة باريس |
| 1930 | مؤتمر "إ.و.ج.ط.ف." في الجزائر: انتخاب فرحات عباس رئيسا لودادية |

الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية ونائب رئيس ل"إ.و.ج.ط.ف." انشاء و.ط.م.ش.إ.ف." : تأسيس "و.ط.م.ج.ف.".

1931 تحول تسمية "و.ط.م.إ.ش." من ودادية إلى جمعية. توتر العلاقات بينها وبين "ج.ع.ط.ج." تقارب بين "ج.ط.م.إ.ش." و "ج.ط.م.ش.إ.ف." : انعقاد أول مؤتمر للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بتونس.

1932 انعقاد المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بالجزائر

1933 انعقد المؤتمر الثالث للطلبة المسلمين الشمال إفريقيين (ديسمبر) حصول تقارب بين "ج.ط.م.ش.إ.ف." و"ج.ط.م.ج.ف.".

1934 انعقاد المؤتمر الرابع ل"ط.م.ش.إ." في تونس.

1935 فشل محاولات التقارب بين "ج.ع.ط.ج." و"ج.ط.م.إ.ش.". توحيد العمل بين "ج.ط.م.ش.إ.ف." و" ج.ط.م.ج.ف.". انعقاد المؤتمر السادس ل"ط.م.ش.إ." بتلمسان.

1936 حصول القطيعة بين "ج.ع.ط.ج." و"ج.ط.م.إ.ش.". منع انعقاد المؤتمر السادس ل"ط.م.ش.إ" في المغرب.

1937 اندماج بين "ج.ط.م.ش.إ.ف." و " ج.ط.م.ج.ف." (فيفري)

1938-1939 حدوث أزمة في صفوف "ج.ط.م.ش.إ.ف.". مصالحة بين "ج.ع.ط.ج." و "ج.ط.م.إ.ش.".

1940 انضمام "ج.ع.ط.ج." و" إ.و.ط.ف." إلى نظامVichy.

1941 حدوث المقاطعة والحصار ضد الطلبة اليهود في جامعة الجزائر. إنشاء لجنة التنسيق التعاوني بين طلبة الجزائر ("ج.ع.ط.ج.-ج.ط.م.إ.ش." و جمعية الطلبة الكاثوليك والبروتستانت).

1942-1943 مساهمة السيد جمان، رئيس "ج.ط.م.إ.ش." في تحرير "البيان".

1944-1945 إنشاء فرع جامعي للطلبة المسلمين الأحرار في الجزائر. انتخاب شوقي مصطفاي (حزب الشعب الجزائري) رئيسا ل"ج.ط.م.إ.ش.".

1945-1946 إعادة تنظيم "ج.ع.ط.ج." : إنشاء تمثيلية للطلبة المسلمين داخل الجمعية.

1946-1947 انتخاب السيد شنتوف (ح.إ.ح.د.) رئيسا ل"ج.ط.م.إ.ش.". انعقاد مؤتمر الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بباريس، (منع في المغرب سنة 1946). انضمام "ج.ط.م.ش.إ.ف." و "ج.ط.م.إ.ش." إلى الاتحاد الدولي للطلبة.

| | |
|---|---|
| 1947-1948 | حدوث القطيعة بين "ج.ع.ط.ج." و "ج.ط.م.إ.ش.". إلقاء القبض على محمد يزيد، رئيس "ج.ط.م.ش.إ.ف.". |
| 1949-1950 | إنشاء مكتب للوحدة في "ج.ط.م.إ.ش.". انعقاد مؤتمر جمعيات "ط.م.ش.إ. بتونس. |
| 1950-1951 | إنشاء مكتب لوحدة الجزائريين في ج.ط.م.ش.إ.ف.". |
| 1951-1952 | ميلاد "إ.م.ط.م في مدينة الجزائر (جويلية 1952) |
| 1952-1953 | انعقاد أول مؤتمر "إ.ع.ط.ت." بباريس (جويلية 1953) |
| 1953-1954 | تأسيس "إ.ط.ج.ب." بباريس. شروع بلعيد عبد السلام في مشروع إنشاء "إ.ع.ط.م.ج. |
| 1954-1955 | إنشاء مكتب تحالف في "ج.ط.م.إ.ش.". تقارب بين "ج.ط.م.إ.ش." و"ج.ع.ط.ج". نداء "ج.ط.م.إ.ش." من أجل تأسيس "إ.ع.ط.م.ج.". ندوة تحضيرية (أفريل). انعقاد المؤتمر التأسيسي ل"إ.ع.ط.م.ج. و"إ.ع.ط.ج." في باريس (جويلية) إبطال "إ.ع.ط.ج. |
| 1955-1956 | حدوث أول أزمة في صفوف "إ.و.ط.ف." حول الجزائر (أكتوبر 1955). قضية زدور عمارة، وحدوث أزمة في مكتب "ج.ع.ط.ج." (ديسمبر). يوم إضراب عن الدروس والأكل وحوادث في Montpellier (20 جانفي 1956). تأسيس لجنة العمل الجامعية بالجزائر (1 فيفري). استقالة مكتب "ج.ع.ط.ج." (16 مارس). لجنة العمل الجامعية تتولى قيادة "ج.ع.ط.ج." (21 مارس). انعقاد المؤتمر الثاني ل"إ.ع.ط.م.ج." في باريس (مارس)، مؤتمر "إ.و.ط.ف." في Strasbourg (أفريل). إضراب "ج.ع.ط.ج. (ماي) نداء "إ.ع.ط.م.ج." فرع الجزائر للالتحاق بالجبال. نداء "إ.ع.ط.م.ج." لإضراب غير محدود عن الدروس والامتحانات (25 ماي) قطيعة "إ.و.ط.ف" مع "إ.ع.ط.م.ج." (جويلية). قطعية "ج.ع.ط.ج."-"إ.و.ط.ف." . قبول "إ.ع.ط.م.ج." ضمن "إ.د.ط." و"ل.د.ط." (أوت سبتمبر). |
| 1956-1957 | استمرار العمل بالأمر بالإضراب. قطيعة بين "إ.ع.ط.م.ج."-"إ.و.ط.ف." (31 ديسمبر 1956). انقسام "إ.و.ط.ف." في مؤتمر باريس (أفريل). إنشاء "ج.ط.ف." Limoges |
| 1957-1958 | العودة إلى الدراسة (أكتوبر). انعقاد المؤتمر الثالث ل"إ.ع.ط.م.ج." في باريس (ديسمبر). تأسيس "ل.و.ج.ط." بتونس (2 جانفي 1958). حل "إ.ع.ط.م.ج." بفرنسا (28 جانفي). ندوة لندن (ل.د.ط.) وتنظيم أسبوع |

تضامن (إ.د.ط) (أفريل–ماي). الاستيلاء على مقر الحكومة العام، من طرف La gaillarde (ج.ع.ط.ج.ت.ع.ط.أ.ل.ج.) 13 ماي 1958.

1958-1959 إعادة توحيد "إ.و.ط.ف." (15 نوفمبر 1958). حملة اعتقالات في الفرع الجامعي لفدرالية فرنسا لجبهة التحرير. محاكمة الفرع الجامعي (جويلية 1959).

1959-1960 أسبوع إقامة المتاريس في الجزائر (جانفي–فيفري 1960) إيقاف La gaillarde وSusini. انعقاد مؤتمر "إ.و.ط.ف" في Lyon (أفريل). عودة العلاقات بين "إ.و.ط.ف" و" إ.ع.ط.م.ج." (ماي–جوان). تشكيل "ل.ر.ط.ف". انعقاد المؤتمر الرابع ل"إ.ع.ط.م.ج." بتونس (جويلية–أوت): وضع الطلبة الجزائريين رهن إشارة الحكومة المؤقتة.

1960-1961 تنظيم يوم عمل من أجل السلام، من طرف "إ.و.ط.ف." (27 أكتوبر 1960). "ل.ط.ج.أ.د" تكسر الإضراب الذي نادت به "ج.ع.ط.ج." (4 نوفمبر). حل "ج.ع.ط..أ.ل.ج." بعد الحوادث الدامية في ديسمبر 1960. تشكيل فرعين جامعيين لجبهة التحرير في الجزائر. اجتماع نقابي "إ.و.ط.ف"–"إ.ع.ط.م.ج." (فيفري). مؤتمر "إ.و.ط.ف" في Caen (أفريل). انضمام "ج.ع.ط.ج" إلى انقلاب الجزائر. (22–25 أفريل). إنشاء منظمة الجيش السري، (مع Susini). صدور الإعذار الذي توجه به وزير التربية الوطنية إلى "إ.و.ط.ف."(27 ماي ). انقسام "ف.و.ط.ف" (29 جوان).

1961-1962 تحول "إ.ع.ط.م.ج." إلى فرع جامعي لجبهة التحرير (ديسمبر 1961). إضراب غير محدود للفرع الجامعي لمدينة الجزائر (25 فيفري 1962). انعقاد الندوة الوطنية للفرع الجامعي بمدينة Cologne (أفريل). إضراب غير محدد من طرف "ج.ع.ط.ج." (9 أفريل). حل "ج.ع.ط.ج" (11 ماي). منظمة الجيش السري تقوم بحرق المكتبة الجامعية (7 جوان). فشل المؤتمر الخامس ل"إ.ع.ط.م.ج." في الجزائر (5–14 سبتمبر) الدخول الجامعي الجزائري (ديسمبر 1962).

# البيبليوغرافيا

**I. — Livres, brochures et articles**


ABBAS (Ferhat) :

— *De la colonie vers la province :* 1) *Le Jeune Algérien.* —Paris, La Jeune Parque, 1931 ; réédition Garnier, 1981.

— *Du Manifeste à la République algérienne.* —Alger, 1946. -48 p.

— *Guerre et révolution d'Algérie :* 1) *la nuit coloniale.* —Paris, Julliard , 1962. -249 p.

— *Autopsie d'une guerre :* 1) *L'Aurore.* —Paris, Garnier, 1980. -346 p.

AGERON (Charles Robert) :

— *Histoire de l'Algérie contemporaine.* 1re édition. —Paris, PUF, 1964. -126 p. Que sais-je ? no 400.

— *Les Algériens musulmans et la France (1871-1919).* —Paris, PUF, 1968. -1298 p. en 2 vol. —Publications de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Paris-Sorbonne.

— *Politiques coloniales au maghreb.* —Paris, PUF, 1972. -288 p. (voir notamment p. 179-215 : « Les communistes français devant la question algérienne », et p. 249-288 : « L'Emir Khaled fut-il le premier nationaliste algérien ? »

— *France coloniale ou parti colonial ?* —Paris, PUF, 1978. -302 p.

— *Histoire de l'Algérie contemporaine, tome II : De l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération (1954).* —Paris, PUF, 1979. -618 p.

— *« L'Algérie algérienne » de Napoléon III à de Gaulle.* —Paris, Sindbad, 1980. -254 p.

— « Le mouvement Jeune Algérien de 1900 à 1923 », dans *Etudes Maghrébines, Mélanges Charles André Julien.* —Paris, PUF, 1964. -286 p.

— « Une émeute anti-juive à Constantine (août 1934) », *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,* (13-14), 1973 : 23-40.

— « Ferhat Abbas et l'évolution politique de l'Algérie musulmane pendant la seconde guerre mondiale », *Revue d'Histoire maghrébine,* (Tunis). (4), juil. 1975 : 125-144.

— « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale », *Revue d'Histoire maghrébine,* (7-8), janvier 1977 : 16-32.

— « Sur l'année politique algérienne 1936 », *Revue d'Histoire maghrébine,* (15-16), juil. 1979.

— « La pétition de l'Emir Khaled au président Wilson (mai 1919), *Revue d'Histoire maghrébine,* (19-20), juil. 1980 : 199-209.

— « Les classes moyennes dans l'Algérie coloniale », dans *Les classes moyennes au Maghreb.* —Aix, Paris : CRESM/CNRS, 1980. -396 p, « Coll. Cahiers du CRESM no 11 » (p. 52-75).

AIT AHMED (Hocine) :
— *La guerre et l'après-guerre,* — Paris, Editions de Minuit, 1964, -204 p.

AJAM (Maurice) :
— *Problèmes algériens.* — Paris, 1913. -211 p.

*L'Algérie et sa jeunesse.* -Secrétariat social d'Alger, 1957. -425 p. (voir notamment « Espoir d'instruction », par Robert Malan).

*Algérie 1960.* — Paris, Secrétariat Général pour les Affaires Algériennes, 1960.

ALLEG (Henri) :
— *La question.* — Paris, Editions de Minuit, 1958. -112 p.
— *Prisonniers de guerre.* — Paris, Editions de Minuit, 1961. -250 p.
— Dir. Henri Alleg, J. de Bonis, H. J. Douzon, J. Freire, P. Haudiquet. *La guerre d'Algérie.* — Paris, Temps actuels, 1981. -3 vol., 609 p., 607 p. et 613 p.

AMRANI (Djamal) :
— *Le témoin.* — Paris, Editions de Minuit, 1960. -84 p.

AMROUCHE (Jean) :
— Textes publiés dans *Etudes Méditerranéennes,* (11), juin 1963.

ANGELELLI (Jean-Paul) :
— *L'opinion française et l'Algérie de 1930.* -Thèse de 3e cycle. — Paris X, 1972.

ANSKY (Michel) :
— *Les Juifs d'Algérie, du décret Crémieux à la libération.* — Paris, CDJC, 1950. -374 p.

ARGOUD (Antoine) :
— *La décadence, l'imposture et la tragédie.* — Paris, Fayard, 1974. -335 p.

ARKOUN (Mohammed) :
— « La culture nord-africaine, aristocratique et populaire ». -*L'Action* (Tunis), 6 janvier 1958.

ARON (Robert) et col. (F. Lavagne, J. Feller et Y. Garnier-Rizet) :
— *Les origines de la guerre d'Algérie.* — Paris, Fayard, 1962. -332 p.

AZZEDINE (Commandant) :
— *On nous appelait fellaghas.* — Paris, Stock, 1976. -345 p.
— *Et Alger ne brûla pas.* — Paris, Stock, 1980, -349 p.

*BACHETARZI (Mahieddine) :*
— *Mémoires, 1919-1939.* — Alger, *SNED, 1968. -495 p.*

BENCHEIKH (Djamaleddine) et LEVI-VALENSI (J.)
— *Diwan algérien. — Paris, Centre Pédagogique maghrébin, 1967. -250 p.*

BENHABYLES (Chérif).
— *L'Algérie française vue par un indigène.* — Alger, 1914. -195 p.

BENNABI (Malek) :
— *Discours sur les conditions de la renaissance algérienne.* — Alger, 1948. -101 p.
— *Vocation de l'Islam.* — Paris, Le Seuil, 1954. -173 p.
— *Mémoires d'un témoin du siècle.* -t. I. — Alger, Editions Nationales Algériennes, 1965. -239 p. -t. II (en arabe). — Beyrouth, 1970.

BENZINE (Abdelhamid) :
— *Le camp.* -Paris, Editions sociales, 1962. -94 p.
— *Journal de marche.* — Alger, Editions Nationales Algériennes, 1965. -138 p.

BERNARD (Paul) et REDON (Frantz) :
— *L'Algérie, histoire, colonisation, géographie, administration.* -Nouvelle édition, — Alger, 1949. -243 p.

BERQUE (Augustin) :
— « Les intellectuels algériens », *Revue africaine,* -vol. 91, 1947 : 123-151 et 260-276.

— Sous le pseudonyme de Jean Menaut, articles dans *L'Afrique française*, notamment mars 1935 : 147 sq. (« A propos du voyage de M. Reynier en Algérie »).

BEYSSADE (Pierre) :

— *La guerre d'Algérie*. —Paris, Denoël 1968. -269 p.

— *L'agonie d'un monde*. —Marseille, en souscription chez l'auteur, s.d. (1973). -224 p.

BOISSON (Jean) :

— *Ben Bella est arrêté*, le 22 octobre 1956... Cholet, 1978. -Etudes et recherches historiques.

BORELLA (François) et DE LA FOURNIERE (Michel) :

— *Le syndicalisme étudiant*. —Paris, Edition du Seuil, 195↓ : 190 p.

BOUALAM (Saïd) :

— *Mon pays, la France*. —Paris, Editions France-Empire, 1962. -265 p.

— *Les harkis au service de la France*. —Paris, même éditeur, 1963. 271 p.

BOUDJEDRA (Rachid) :

— *La répudiation*. —Paris, Denoël, 1969. -293 p.

BOUMAHDI (Ali) :

— *Le village des asphodèles*. —Paris, Robert Laffont, 1970. -439 p.

BOUMAZA (Bachir), FRANCIS (Mustapha), SOUAMI (Benaïssa), BELHADJ (Abdelkader), KHEBAÏLI (Moussa), HADJ ALI et KHIDER SEGHIR.

— *La gangrène*. —Paris, Editions de Minuit, 1959. -101 p.

BOURBOUNE (Mourad) :

— *Le mont des genêts*. —Paris, Julliard, 1962. -235 p.

BOURDIEU (Pierre) :

— *Sociologie de l'Algérie*. 1re éd. —Paris, PUF, 1958. -126 p., coll. Que sais-je ? nº 802

— et SAYAD (Malek). — *Le déracinement*. —Paris, Editions de Minuit, 1964 -227 p.

— et PASSERON (Jean-Claude) : — *Les héritiers. Les étudiants et la culture* —Paris, Editions de Minuit, 1964. -183 p.

BOUZAHER (Hocine) :

— *Les cinq doigts du jour*. —Alger, Editions Nationales Algériennes, s.d. -224 p.

BROCHIER (Jeanne et André) :

— *Le livre d'or de l'Algérie*. —Alger, 1937. -305 p.

BREMOND (général) :

— « L'effervescence des étudiants musulmans nord-africains, *Vendémiaire*, (3), janvier 1934.

BUIS (Georges) :

— *La Grotte*. —Paris, Julliard, 1961. -319 p.

BUY (François) :

— *Les étudiants selon Saint-Marx en Europe et en Afrique*. —Paris, 1967. -113 p.

CAMUS (Albert) :

— *Les justes*. —Paris, 1950. -189 p.

— *Actuelles III — Chroniques algériennes 1939-1958*. —Paris, Gallimard, 195? -212 p.

*Causeries sur l'Islam*, par les étudiants musulmans de Montpellier. Préface de Malel Bennabi. —Alger, 1948. -51 p.

CHALLE (Maurice) :

— *Notre révolte*. —Paris, Presses de la Cité, 1968. -448 p.



AIT AHMED (Hocine)

— *La guerre et l'apr*

AJAM (Maurice) :

— *Problèmes algérie*

*L'Algérie et sa jeuness*

« Espoir d'instruction »

*Algérie 1960*. —Paris, S

ALLEG (Henri) :

— *La question*. —Pa

— *Prisonniers de gue*

— Dir. Henri Alleg,

*d'Algérie*. —Paris,

AMRANI (Djamal) :

— *Le témoin*. —Pari

AMROUCHE (Jean) :

— Textes publiés da

ANGELELLI (Jean-Pa

— *L'opinion français*

ANSKY (Michel) :

— *Les Juifs d'Algérie*

ARGOUD (Antoine) :

— *La décadence, l'in*

ARKOUN (Mohamme

— « La culture nor

6 janvier 1958.

ARON (Robert) et col.

— *Les origines de la*

AZZEDINE (Comman

— *On nous appelait*

— *Et Alger ne brûla*

BACHETARZI (Mahie

*Mémoires, 1919-1*

BENCHEIKH (Djama

— *Diwan algérien*. —

BENHABYLES (Chéri

— *L'Algérie français*

BENNABI (Malek) :

— *Discours sur les c*

— *Vocation de l'Isla*

— *Mémoires d'un té*

1965. -239 p. -t. I

BENZINE (Abdelhami

— *Le camp*. -Paris, I

— *Journal de march*

BERNARD (Paul) et R

— *L'Algérie, histoire*

—Alger, 1949. -2

BERQUE (Augustin) :

— « Les intellectuels

CHARBY (Jacques) :
— *L'Algérie en prison.* — Paris, Editions de Minuit, 1961. -108 p.

CHIKH (Slimane) :
— *L'Algérie en armes, ou le temps des certitudes.* — Paris : Economica, Alger, OPU, 1981. -511 p.

*La cohabitation en Algérie.* — Secrétariat social d'Alger, 1956. -207 p. (voir notamment « cohabitation linguistique », par Philippe Marçais).

COLLOT (Claude) et HENRY (Jean-Robert).
— *Le mouvement national algérien. Textes 1912-1954.* — Paris, Editions l'Harmattan et Alger, Office des Presses Universitaires, 1978. -343 p.

COLONNA (Fanny) :
— *Instituteurs algériens, 1883-1939.* — Paris, Presse de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1975. -240 p.

« Le communisme et la rébellion algérienne : le cas de l'UGEMA », *Est-Ouest,* 15 juin 1958.

*Conférence nationale étudiante pour une solution du problème algérien.* — Paris, juillet 1956. -37 p.

COURRIÈRE (Yves) :
— *La guerre d'Algérie.* — Paris, Fayard, 1968-1971 :
tome I : *Les fils de la Toussaint.* -1968. -446 p.
tome II : *Le temps des léopards.* -1969. -614 p.
tome III : *L'heure des colonels.* -1970. -633 p.
tome IV : *Les feux du désespoir.* -1971. -679 p.

CROS (Vitalis) :
— *Le temps de la violence.* — Paris, Presses de la Cité, 1971. -343 p.

D'ANDOQUE (Nicolas) :
— 1955-1962 *Guerre et paix en Algérie. L'épopée silencieuse des SAS.* — Paris, Société de Production Littéraire, 1977. -221 p.

DE GAULLE (Charles) :
— *Mémoires de guerre.* tome II. *L'unité* (1954). — Paris, Plon, 1954.
— *Mémoires d'espoir.* tome I. *Le renouveau.* — Paris, Plon, 1970. -314 p.
— *Discours et messages.* tome III. *Avec le renouveau.* — Paris, Plon, 1970. -443 p.

DE LA GORCE (Paul-Marie) :
— *De Gaulle entre deux mondes.* — Paris, Fayard, 1964.

DE SERIGNY (Alain) :
— *Echos d'Alger.* — Paris, Presses de la Cité.
tome I. *Le commencement de la fin (1940-45).* -1972. -347 p.
tome II. *L'abandon (1945-1962).* -1974. -507 p.

DÉJEUX (Jean) :
— *La littérature algérienne contemporaine.* — Paris, PUF, 1975. -126 p. Que sais-je ? nº 1604.

DESPARMET (J.) :
— Nombreux articles dans *l'Afrique française,* notamment oct. 1932 (« Le deuxième congrès des étudiants musulmans nord-africains ») et déc. 1935 (« Le cinquième congrès des étudiants nord-africains »).

« Dialogue entre Algériens », *L'Echo d'Alger,* 19 déc. 1950 — 15 janvier 1951.

DIB (Mohammed) :
— *Algérie.* — Paris, Seuil.
tome I : *La grande maison.* -1952. -190 p.

tome II : *L'incendie*. -1954. -191 p.
tome III : *Le métier à tisser*. -1957. -208 p.
— *Un été africain*. -1958. -192 p.
— *Qui se souvient de la mer*. -1962. -192 p.

DJEBAR (Assia) :
— *Les alouettes naïves*. —Paris, Julliard, 1967. -429 p.

DJENDER (Mahieddine) :
— *Introduction à l'Histoire de l'Algérie*. —Alger, SNED, s.d.

DRIF (Zohra) :
— *La mort de mes frères*. —Paris, Maspero, 1960. -19 p.

DUCHEMIN (Jacques) :
— *Histoire du FLN*. —Paris, La Table Ronde, 1962. -328 p.

EMERIT (Marcel) :
— « L'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830 », *Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine*, juil.-sept. 1954.

*Des enseignants d'Algérie se souviennent*. Préface du recteur Capdecomme, Toulouse, Privat, 1981. -406 p.

*Espoir et parole*. Poèmes algériens recueillis par Denise Barrat. —Paris, Editions Pierre Seghers, 1963. -253 p.

ETIENNE (Bruno) :
— *Les Européens d'Algérie et l'indépendance algérienne*. —Paris, Editions du CNRS, 1969. -415 p.

*Les étudiants algériens en lutte*. —Tunis, UGEMA, 1960. -96 p.

*L'étudiant musulman algérien, études et carrières*. —Paris, Bureau Universitaire de Statistiques, 1959. -184 p.

FACI (Saïd) :
— *L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne*. —Toulouse, 1936. -292 p.

FANON (Frantz) :
— *L'an V de la Révolution algérienne*. —Paris, Maspero, 1959. -183 p.
— *Les damnés de la terre*. Maspero, 1961. -244 p.
— *Pour la révolution africaine*. Maspero, 1964. -231 p.

FARÈS (Abderrahmane).
— *La cruelle vérité*. —Paris, Plon, 1982. -251 p.

FARÈS (Nabile) :
— *Yahia, pas de chance*. —Paris, Seuil, 1970. -251 p.

FARÈS (Zahir) :
— *Les thèmes, les idées et l'action du syndicalisme étudiant algérien (de 1955 à 1962)*. DES de Sciences Politiques. Faculté de Droit de Paris, 1966. -162 p.

FAVRELIÈRE (Noël) :
— *Le désert à l'aube*. —Paris, Editions de Minuit, 1961. -227 p.
— *Le déserteur*. —Paris, Edition spéciale, 1973. -278 p.

FÉKAR (Ben Ali) :
— « La représentation des Musulmans algériens », *Revue du Monde Musulman*, t. 7, 1909.

FÉRAOUN (Mouloud) :
— *Journal 1955-1962*. —Paris, Le Seuil, 1962. -348 p.
— *Les chemins qui montent*. Le Seuil, 1957. -222 p.

FIKRI (Abdelkader), pseudonyme de Abdelkader Hadj-Hamou.
Voir RANDAU et FIKRI.

FITTE (Albert) :
— *Spectroscopie d'une propagande révolutionnaire. El Moudjahid des temps de guerre 1956-1962.* — Montpellier. Université Paul Valéry, 1973. -150 p.
*La formation des élites politiques maghrébines.* — Paris, LGDJ, 1973. -246 p.

FRANCOS (Ania) et SERENI (Jean-Pierre) :
— *Un Algérien nommé Boumedienne.* — Paris, Stock, 1976. -414 p.

GAUDEZ (Pierre) :
— *Les étudiants.* — Paris, Julliard, 1961. -199 p.

GAUTIER (Emile-Félix) :
— « Menaces sur l'Afrique du Nord », *Revue de Paris*, sept. 1934.

GENDZIER (Irène) :
— *Frantz Fanon.* Le Seuil, 1973. -283 p.

GODARD (Yves) :
— *Les trois batailles d'Alger.* t. 1. *Les paras dans la ville.* — Paris, Fayard, 1972. -445 p.

GODIN (André) :
— *Er Rachid, propagande allemande et traitres divers.* — Paris, Quillet, 1953. -25 p.

GOURDON (Hubert), HENRY (Jean-Robert) et HENRY-LORCERIE (Françoise) :
— « Roman colonial et idéologie coloniale en Algérie ».
*Revue Algérienne des Sciences Juridiques, Economiques et Politiques.* — Alger, vol. XI, (1), mars 1974.

GOUVION (Marthe et Edmond) :
— *Le livre des notables maghrébins. Algérie.* — Alger, 1920. -219 p.

HADDAD (Malek) :
— *La dernière impression.* -Paris, Julliard, 1958. -205 p.
— *Ecoute et je t'appelle.* Poèmes précédés de : *Les zéros tournent en rond.* — Paris, Maspero, 1961. -129 p.

HADJÉRÈS (Saddek) :
— « Quatre générations, deux cultures ». — *La nouvelle Critique*, (112), janv. 1960.

HAMDANI (Amar) :
— *Le lion des djebels.* — Paris, Balland, 1973. -350 p.

HAMET (Ismaël) :
— *Les Musulmans français dans le Nord de l'Afrique.* — Paris, 1906, -316 p.

HAMON (Hervé) et ROTMAN (Patrick) :
— *Les porteurs de valises. La résistance française à la guerre d'Algérie.* — Paris, Albin Michel, 1979. -434 p.

HARBI (Mohammed)
— *Aux origines du FLN : la scission du PPA-MTLD. Contribution à l'histoire du populisme révolutionnaire en Algérie.* — Paris, Christian Bourgois, 1975. -314 p.
— *Le FLN, mirage et réalité.* — Paris, Editions Jeune Afrique, 1980. -446 p.
— *Les archives de la révolution algérienne.* — Jeune Afrique, 1981. -583 p.

HARDY (Georges) :
— *Histoire sociale de la colonisation française.* — Paris, 1953. -269 p.

IBAZIZEN (Augustin Belkacem) :
— *Le pont de Bereq'Mouch.* — Paris, La Table Ronde, 1979. -323 p.

JACQUIN (Henri) :
— *La guerre secrète en Algérie.* — Paris, Olivier Orban, 1977. -320 p.

JOUHAUD (Edmond) :
— *O mon pays perdu. De Bou Sfer à Tulle.* —Paris, Fayard, 1969. -569 p.
— *Ce que je n'ai pas dit.* —Paris, Fayard, 1977. -432 p.

JULIEN (Charles André) :
— *L'Afrique du Nord en marche.* —Paris, Julliard, 1953. 3ᵉ édition, 1972. -439 p.
— *Histoire de l'Algérie contemporaine. T. 1 (1827-1871).* —Paris, PUF, 1964. -632 p.

KADDACHE (Mahfoud) :
— *La vie politique à Alger de 1919 à 1939.* —Alger, SNED, 1970. -390 p.
— *Histoire du nationalisme algérien. 1919-1951.* —Alger, SNED, 1981. 2 vol. -1113 p.

KATEB (Yacine) :
— *Abdelkader et l'indépendance algérienne.* —Alger, 1948. -47 p.
— *Nedjma.* —Paris, Le Seuil, 1956. -256 p.
— *Le polygône étoilé.* —Le Seuil, 1966. -182 p.

KERAMANE (Hafid) :
— *La pacification.* —Lausanne, La Cité, 1960. -273 p.

KESSEL (Patrick) et PIRELLI (Giovanni) :
— *Le peuple algérien et la guerre. Lettres et témoignages.* —Paris, Maspero, 1963. -759 p.

KESSOUS (M. el-Aziz) :
— *La vérité sur le malaise algérien.* —Bône, chez l'auteur, 1935. -115 p.

KHALDI (Abdelaziz) :
— *Le problème algérien devant la conscience démocratique.* —Alger, 1948. -65 p.

KHELIFA (Laroussi) :
— *Manuel du militant algérien.* Tome I, —Lausanne, La Cité, 1962. -300 p.

LACHERAF (Mostefa) :
— *L'Algérie, nation et société.* —Maspero, 1969. -346 p.

LACOUTURE (Jean) :
— *Cinq hommes et la France.* —Paris, Le Seuil, 1961. -374 p.

LAHMEK (Hanafi, dit Hesnay-Lahmeck) :
— *Lettres algériennes.* —Paris, Jouve, 1931. -180 p. (préface de Maurice Viollette).

LAUNAY (Michel) :
— *Paysans algériens.* —Le Seuil, 1963. -431 p.

LEBJAOUI (Mohammed) :
— *Vérités sur la révolution algérienne.* —Paris, Gallimard, 1970. -253 p.
— *Bataille d'Alger ou bataille d'Algérie ?* —Paris, Gallimard, 1972. -303 p.

LIAUZU (Claude) :
— *Aux origines des tiers-mondismes.* —Paris, L'Harmattan, 1982.

LOESCH (Anne) :
— *La valise et le cercueil.* —Paris, Plon, 1963. -271 p.

LUCAS (Philippe) et VATIN (Jean-Claude) :
— *L'Algérie des anthropologues.* —Maspero, 1975. -294 p.

MAALEM (Ali) :
— *Colonialisme, trusteeship, indépendance.* —Paris, 1947. -422 p.

MALAN (Robert) :
— Voir à *l'Algérie et sa jeunesse.*

MAMMERI (Mouloud) :
— *La colline oubliée.* —Plon, 1952. -255 p.
— *Le sommeil du juste.* —Plon, 1955. -255 p.

MANDOUZE (André) :
— *La révolution algérienne par les textes*. —3e éd., Maspero, 1961. -287 p. ; Réédition 1975, Plan de la Tour (Var), Ed. d'aujourd'hui.

MARÇAIS (Philippe) :
— Voir à *La cohabitation en Algérie*.

MASSU (Jacques) :
— *La vraie bataille d'Alger*. —Paris, Plon, 1971. -393 p.
— *Le torrent et la digue*. —Plon, 1972. -403 p.

MAZOUNI (Abdallah) :
— *Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb*. —Paris, Maspero, 1969, -247 p.

MELIA (Jean) :
— *Le triste sort des indigènes musulmans algériens*. —Alger, 1935. -255 p.
— *Histoire de l'Université d'Alger*. —Alger, 1950. -275 p.

MEMMI (Albert) :
— *Portrait du colonisé*, précédé du *portrait du colonisateur*. —Paris, Buchet-Chastel Corréa, 1957. -199 p.
— *La poésie algérienne de 1830 à nos jours*. Sous la direction d'Albert Memmi. —Paris et La Haye, Mouton, 1963. -91 p.
— *Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française*. —Paris, Présence africaine, 1964. -303 p.

MERAD (Ali) :
— « Regard sur l'enseignement des indigènes en Algérie 1880-1960. » *Confluent*, juin-juil. 1963.
— *Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940*. —Paris et La Haye, Mouton, 1967. -472 p.

MESSALI HADJ :
— *Les Mémoires de Messali Hadj*. —Paris, Jean-Claude Lattès, 1982. -319 p.

MEYNIER (Gilbert) :
— *L'Algérie révélée*. —Genève et Paris, Droz, 1981. -793 p.

MILLET (Philippe) :
— « Les Jeunes Algériens », *Revue de Paris*, déc. 1913.

MONCHABLON (Alain) :
— *Histoire de l'UNEF, de 1956 à 1968*. —Paris, PUF, 1982. -208 p.

NAEGELEN (Marcel-Edmond) :
— *Mission en Algérie*. —Paris, Flammarion, 1962. -314 p.

NAROUN (Amar) :
— *Ferhat Abbas, ou Les chemins de la souveraineté*. —Paris, Denoël, 1961. -185 p.
— *Histoire parallèle* (avec Alphonse Juin) *La France en Algérie, 1830-1962*. —Paris, Librairie académique Perrin, 1963. -317 p.

NOZIÈRE (André) :
— *Algérie, les chrétiens dans la guerre*. —Paris, Editions Cana, 1979. -327 p.

OULD MOUSSA (Belkacem) :
— *Le chemins de l'indépendance*. —Paris, Sindbad, 1980. -316 p.

PAILLAT (Claude) :
— *Dossier secret de l'Algérie, 1958-1961*. —Paris, Presses de la Cité, 1961. -539 p.
— *Deuxième dossier secret de l'Algérie, 1954-1958*. —Presses de la Cité, 1962. -547 p.
— *Vingt ans qui déchirèrent la France*. T. II : *La liquidation (1953-1962)*. —Paris, Robert Laffont, 1972. -793 p.

PERROUX (François) dir. :
— *L'Algérie de demain.* par un groupe d'études de l'IEDES.

*Pour l'Afrique.* —Textes algériens réunis et présentés par Mustapha Toumi. —Alger, SNED, 1969. -242 p.

QUANDT (William B.) :
— *Revolution and political leadership. Algeria 1954-1968.* —Cambridge (Massachussetts) and London, the MIT Press, 1969. -313 p.

RAHMANI (Abdelkader) :
— *L'affaire des officiers algériens.* —Paris Le Seuil, 1959. -173 p.

RANDAU (Robert) et FIKRI (Abdelkader) (préface de René Maunier) :
— *Les compagnons du jardin.* —Paris, 1933. -191 p.

*Rapport de la commission de recherche et d'information, 1959-60.* —Rotterdam : (CIE-COSEC).

*Réalités algériennes.* —(brochure du MTLD). —Paris, 1953. -160 p.

*Récits de feu,* présentés par Mahfoud Kaddache. —Alger, SNED, 1977. -351 p.

*Les relations entre le Maghreb et le Machrek.* —Aix, Paris, CRESM, Editions du CNRS, 1983. 196 p.

*Résultats statistiques du dénombrement de la population effectué le 31 octobre 1954.* Tome II (sexe, âge, état matrimonial, lieu de naissance, instruction). —Alger, 1960. -146 p.

REY (Benoist) :
— *Les égorgeurs.* —Paris, Editions de Minuit, 1961. -99 p.

SADOUILLET (Alberte) :
— *En Algérie, au fil du drame.* —Alger, Baconnier, 1956. -180 p.

SAHLI (Mohammed Chérif) :
— *Le message de Yougourtha.* —Alger, 1947. -127 p.
— *L'Algérie accuse, le calvaire du peuple algérien.* —Alger, 1949. -61 p.
— *Le complot contre les peuples africains.* —Alger, 1950. -48 p.
— *Abdelkader, chevalier de la Foi.* —Paris, 1953. -126 p.
— *Décoloniser l'histoire.* Maspero, 1965. -145 p.

SALAN (Raoul) :
— *Mémoires — Fin d'un Empire.* —Paris, Presses de la Cité :
tome III : *Algérie française (1er nov. 1954-6 juin 1958).* —1972. -445 p.
tome IV : *de Gaulle, l'Algérie et moi (7 juin 1958-16 juin 1960).* —1974. -380 p.

SAS (Pierre) et ROMANETTI (Yves) :
— *Vie d'un peuple mort. Clés pour la Kabylie.* —Paris, Editions du Scorpion, 1961. -261 p.

SERVIER (André) :
— *Le péril de l'avenir. Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie.* —Constantine, 1913. -239 p.
— *L'Islam et la psychologie du Musulman.* —*Paris, 1924. -478 p.*

*SERVIER (Jean) :*
— *Dans l'Aurès, sur les pas des rebelles.* —Alger, 1955. -303 p.
— *Adieu djebels.* Editions France-Empire, 1958. -285 p.
— *Demain en Algérie.* —Paris, Robert Laffont, 1959. -175 p.

SIVAN (Emmanuel) :
— *Communisme et nationalisme en Algérie.* —Paris, Presses de la FNSP, 1976. -262 p.

*Les sources du syndicalisme étudiant depuis 1945.* —Etude anonyme, s.l.n.d., ronéotypée. -463 p. (cote BN 4° L1$^5$ 134).

SOUSTELLE (Jacques) :
— *Aimée et souffrante Algérie.* — Paris, Plon, 1956. -303 p.
— *L'espérance trahie,* Ed. de l'Alma, 1962, 326 p.
— *Vingt-huit ans de gaullisme.* — Paris, la Table Ronde, 1968. -475 p.

STORA (Benjamin) :
— *Messali Hadj, pionnier du nationalisme algérien.* — Paris, le Sycomore, 1982. -299 p.

*Le syndicalisme étudiant et le problème algérien.* — Lille, FGEL, 1960. -91 p.

*Tableaux de l'économie algérienne.* — Alger, Baconnier, 1958. -191 p. ; 1961, -248 p.

TALEB (Ahmed) :
— *Lettres de prison.* — Alger, SNED, 1966. -189 p.
— *Discours du ministre de l'Education Nationale.* — Alger, 2 tomes (1965-66 et 1967-68).
— *De la décolonisation à la révolution culturelle.* — Alger, SNED, 1973. -228 p.

TEGUIA (Mohammed) :
— *L'Algérie en guerre.* — Alger, OPU, 1981. -786 p.

TILLION (Germaine) :
— *L'Algérie en 1957.* — Paris, Editions de Minuit, 1957. -121 p.
— *Les ennemis complémentaires.* — Editions de Minuit, 1957. -121 p.
— *L'Afrique bascule vers l'avenir.* — Editions de Minuit, 1961. -179 p.

TOURNOUX (Raymond) :
— *L'histoire secrète.* — Plon, 1961. -505 p.
— *La tragédie du général.* — Plon, 1962. -697 p.
— *Jamais dit.* — Plon, 1971. -490 p.

TRICOT (Bernard) :
— *Les sentiers de la paix. Algérie 1958-1962.* — Plon, 1972. -443 p.

TRINQUIER (Roger) :
— *La guerre moderne.* — Paris, La Table Ronde, 1961. -191 p.
— *Guerre, subversion, révolution.* — Paris, Robert Laffont, 1960. -285 p.
— *Le temps perdu.* — Paris, Albin Michel, 1978. -442 p.
— *La guerre.* — Albin Michel, 1980. -288 p.

TRIPIER (Philippe) :
— *Autopsie de la guerre d'Algérie.* — Paris, Editions France-Empire, 1972. — 675 p.

TURIN (Yvonne) :
— *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale.* — Paris, Maspero, 1971. -434 p.

*UGEMA IVe Congrès National.* — Tunis, 1960. -116 p.

*UGET 1er Congrès.* — Paris, juillet 1953. -96 p.

*L'unité maghrébine, dimensions et perspectives.* — Aix, Paris, CRESM, CNRS, 1972. -167 p.

*Université d'Alger, cinquantenaire.* — Alger, 1959. -260 p.

VATIN (Jean-Claude) :
— *L'Algérie politique : histoire et société.* — Paris, Presses de la FNSP, 1974. -312 p.

VENTURI (Franco) :
— *Les intellectuels, le peuple et la révolution (Il populismo russo).* — Turin, Einaudi, 1952. — Paris, Gallimard, 1972. -1166 p.

VIDAL-NAQUET (Pierre) :
— *L'affaire Audin.* — Paris, Editions de Minuit, 1958. -103 p.
— *La raison d'Etat.* — Editions de Minuit, 1962. -331 p.
— *La torture dans la république.* — Editions de Minuit, 1972. -202 p.

VINCENT (Robert) :
— *L'Algérie de papa.* — Paris, Baconnier, 1959. -23 p.

VIOLLETTE (Maurice) :
— *L'Algérie vivra-t-elle ?* — Paris, Alcan, 1931. -503 p.

YACEF (Saadi) :
— *Souvenirs de la bataille d'Alger.* — Paris, Julliard, 1962. -127 p.
— *La bataille d'Alger. T. 1 : L'embrasement.* — Paris, 1982.

YACONO (Xavier) :
— *Un siècle de franc-maçonnerie algérienne.* — Paris, GP Maisonneuve et Larose. -1969.
— « L'Université d'Alger, des origines à 1962 ». *Itinéraires* (264), juin 1982 : 180-213.

ZENATI (R) :
— *Le problème algérien vu par un indigène.* — Alger, 1938.

ZENATI (R. et A.) :
— *Bou el Nouar, le jeune Algérien.* — 1945. -226 p.

ZERDOUMI (Nfissa) :
— *Enfants d'hier.* — Maspero, 1970. -303 p.

**II. — Périodiques (dépouillement systématique).**

*L'Action* (Tunis 1955-1958). Voir *Afrique-Action* et *Jeune Afrique*.
*L'Action estudiantine* (AGEMA), 1955.
*Afrique-Action* (Tunis), 1960-1961.
*L'Afrique française* (Comité de l'Afrique Française), 1930 à 1940.
*L'Akhbar* (Alger), 1921 à 1931.
*Alger estudiantin* (AGEA), 1947-1950.
*Alger étudiant* (AGEA), 1919.
*Alger étudiants* (AGEA), 1922 à 1939.
*Alger étudiants* (AGEA), 1950-1951.
*Alger républicain*, 1938-1940 ; 1943-1955.
*Alger-Université* (UGEA), 1945.
*Alger-Université* (AGEA), 1954-1960.
*L'Algérie libre* (MTLD), 1949-1954.
*L'Algérien en France*, (PCF), 1950 à 1954.
*Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1962, Editions du CNRS.
*Annuaire de l'AGEA*, 1923-1924.
*Annuaire de l'AGEA et du RUA*, 1932.
*Annuaire de l'AEMAN*, 1928-1929.
*Annuaire statistique de l'Algérie*, 1925 à 1961. Voir *Statistique générale...*
*Bulletin annuel de l'AEMNAF*, 1928-1929.
*Bulletin de la presse musulmane d'Algérie*, Service des Liaisons Nord-Africaines, 1947-1956.
*Cahiers algériens* (MTLD), 1950.
*Communauté algérienne* (Alger), 1955-1956.
*Consciences algériennes* (Alger), 1950.

*Consciences maghribines* (Alger), 1954-1955.
*La Défense* des droits et intérêts des Musulmans algériens (Alger), 1934-1939.
*La Dépêche algérienne*, 1919-1926 et 1939-1941.
*La Dépêche quotidienne d'Algérie*, avril 1961 à janvier 1962.
*L'Echo d'Alger*, 1954 à 1961.
*Egalité* (AML - UDMA), 1944-1945 et 1946-1948. Voir la *République algérienne*.
*L'Entente franco-musulmane* (Constantine), 1935-1939.
*Espoir-Algérie*, 1956-1957 et 1959-1961.
*L'Etudiant* (Leyde, Cosec).
*L'Etudiant* (AEMNAF), 1953.
*L'Etudiant algérien* (AGEA), 1903.
*L'Etudiant algérien* (PCA), 1952-1954.
*L'Etudiant algérien* (UGEMA), nº 1, 15 nov. 1955.
*L'Etudiant algérien* (AGEA), 1946.
*L'Etudiant de France* (UNEF), nº 1sept. 1952.
*L'Etudiant de France* — nouvelle série, nº 1, oct. 1957.
*L'Etudiant de la France d'Outre-Mer*, chronique des foyers, 1943-1944.
*L'Etudiant du monde*, (Prague, UIE).
*L'Etudiant maghrébin* (AEMAN), 1952.
*L'Etudiant musulman* (Montpellier), nº 1, fév. 1955.
*L'Etudiant tunisien* (Paris), nº 1, nov. 1953.
*Etudiants anticolonialistes* (Paris), 1949 à 1953.
*Exposé de la situation générale de l'Algérie en...* (1911 à 1938 et 1945 à 1960).
*Fraternité* (SFIO, Alger), 1943-1947.
*Historia-magazine - La guerre d'Algérie*, Paris, Tallandier, 1971-1972.
*L'Ifrikia* (Paris), 1939.
*L'Ikdam* (Alger), 1919-1923.
*L'Ikdam* (Alger), 1931-1935.
*L'Islam* (Alger), 1912-1914.
*Jeune Afrique* (Paris), 1962.
*La Jeune Algérie* (PCA), 1944-1946.
*Le Jeune Algérien* (JUDMA), 1952-1953.
*Le Jeune Musulman* (Alger), 1952 à 1954.
*Le Journal d'Alger*, 1961-1962.
*La Justice* (Alger), 1934-1938.
*Levain - L'étudiant catholique algérien*, 1931-1932.
*Liberté* (PCA), 1943-1955.
*Lien des étudiants musulmans* (AEMAN), 1953-1955.
*Maghreb-étudiant* (AEMNAF), 1955.
*Le Midi libre* (Montpellier), 1956.
*Le Monde*, 1956-1957.
*El Moudjahid*, 1956-1962 (réédition de Belgrade en 3 volumes).
*La Nation algérienne* (comité central du MTLD), 1954.
*Oran-Université* (AGEO), 1961.

*El Ouma* (Etoile Nord-Africaine, PPA), 1933-1939 (numéros épars).

*Le Peuple algérien* (Paris), 1945-1948.

*Le Populaire du Centre* (Limoges), 1957-1958.

*La Presse libre* (Alger), 1930-31-33-35-36.

*La Quatrième République* (MRP Alger), 1944-1945.

*Er-Rachid* (Paris), 1943-1944.

*Le Rachidi* (Djidjelli), 1911.

*Renseignements coloniaux : Voir* l'*Afrique française.*

*Rentrée solennelle. Rapport sur la situation de l'Université d'Alger et des Facultés pendant l'année scolaire...* (1940-41 à 1960-61) (de 1909 à 1939 : *Rapports...) ;* (de 1880 à 1908-09 : *Rentrée solennelle des quatre Ecoles Supérieures).*

*La République algérienne* (UDMA), 1948-1955.

*Résistance algérienne* (Fédération de France du FLN), nº 9 (fév. 1957).

*Le Réveil estudiantin* (AJEMM Blida), 1956.

*Révolution à l'Université* (UGEMA), Alger 1962-1963.

*Revue d'Histoire Maghrébine* (Tunis), 1974-1977.

*Revue de presse Maghreb - Proche Orient-Moyen Orient.* (Pères Blancs d'Alger).

*Statistique générale de l'Algérie* (1894-1924). Voir *Annuaire statistique...*

*At-Takaddoum* (Alger), 1923-1931.

*Et-Telmidh* (AEMAN), 1931-1933.

*La Tribune indigène algérienne* (Alger), 1927 -1931 ;

*L'Union (Et-Tihad)* puis *l'Etendard (Es-Sandjak),* Oran, 1927-1929.

*UNEF-Informations* (ronéotypé), 1957 à 1961.

*La Voix des humbles*, 1929-1939.

*La Voix des jeunes* (SMA), 1952-1953.

*La Voix du peuple* (Alger), 1933-1935.

*La Voix indigène* (Constantine), 1929-1946.

*La Voix libre* (Constantine), 1946-1951.

*N. B.* D'autres titres sont cités d'après la *Revue de presse* des Pères Blancs ou le *Bulletin de la presse musulmane* du Service des Liaisons Nord-Africaines.

### III. — Archives

A) *Privées :*

● Archives de l'AEMNAF (Paris, 115, boulevard Saint-Michel) : quelques rares documents.

● Archives de l'UNEF, entassées en grand désordre, au 8, rue de Hanovre, siège de l'UNEF-ID. Nous n'avons pas eu connaissance des 349 cartons conservés au service des Archives de l'Université de Paris (signalés par A. Monchablon, *op. cit.* p. 11). Voir aussi à la Bibliothèque Nationale les comptes rendus des congrès depuis 1951, des conseils d'administration depuis 1952, et des collections d'*UNEF-Informations* depuis 1957 environ.

● Papiers conservés par des particuliers :

*Civils :*

— M. Robert Chapuis, ancien vice-président de l'UNEF (discours d'Ahmed Taleb au 1er congrès de l'UGEMA, juillet 1955).

— M. Alain de Sérigny (*Rapport Tubert* sur l'insurrection de mai 1945, et *Mémoires* inédits de M. le gouverneur général Roger Léonard).

— M. Amar Naroun (Lettre d'Ahmed Boumendjel aux conseillers municipaux de Paris, 1935).

*Militaires :*

— Général Pierre Mondain, colonel Paul Schoen et colonel Roger Trinquier.

● Documents fournis par d'autres chercheurs :

— M. Mohammed Harbi (Rapport d'Ahmed Inal sur la situation du mouvement étudiant algérien en novembre 1954 ; Rapport de M. Harbi au CNRA (1957) reproduit en annexe au mémoire de maitrise de Thomas Jallaud sur la Fédération de France du FLN, Paris VIII 1975).

— M. Mohammed Teguia (Mise au point de Belaïd Abdesselam sur l'assemblée générale annuelle de l'AEMAN de décembre 1953, lettre de Si Mohammed aux étudiants d'Alger (juin 1961) et ordre de mission signé par Si Hassan (mai 1962), reproduits en annexe de sa thèse de troisième cycle : *l'Algérie en guerre*, Paris VIII 1976, communiquée par M. René Gallissot).

B) *Publiques :*

● Documents du Centre des Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie moderne (CHEAM), consultés sur place (8, rue du Four, Paris) notamment :

- J. Pierson : « La vie intellectuelle des Musulmans nord-africains de 1918 à 1940 », 23.12.1941.

- « Les étudiants nord-africains de Paris », 26 janvier 1946 (doc. 192).

- Commandant Guvan : « Etude de quelques motivations et comportements du nationalisme musulman d'Algérie », 20 sept. 1961 (doc. 3614).

● Documents de Melle Popovitch, assistante sociale au CROUS de Paris : Exposés à l'Ecole Nationale de la Santé Publique, 7 nov. 1956, et à l'Ecole de Guerre, 27.04.1961.

● Archives de la Préfecture de Police de Paris :

Inventoriées mais non classées - consultables jusqu'en 1939, Série B$^A$ carton 332 : A S S 857 — 3, 5 et 6 (sur l'AEMNAF).

● Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence : en cours de classement : seule une petite partie de l'ensemble est prête à la consultation, notamment :

— Bulletin de la presse musulmane du SLNA.

— Série H : Affaires musulmanes (3 H 71 : Service militaire des étudiants musulmans algériens. 14 H 41 : Etudiants musulmans algériens à l'extérieur, 1928-1940).

Voir aussi Oran 5 I 5 3 (Affaires indigènes).

D'autres fonds restent certainement à étudier (Affaires Etrangères, Intérieur, Education Nationale, etc.).

## IV. — Sources orales

Ce travail n'aurait pas été possible sans le bienveillant accueil de nombreux acteurs et témoins, algériens et français, auxquels nous tenons à exprimer encore une fois notre reconnaissance pour leurs informations et leurs encouragements.



● Papiers conser

*Civils :*

— M. Robert Cha
1er congrès de l'U

— M. Alain de S
inédits de M. le g

— M. Amar Nar
Paris, 1935).

*Militaires :*

— Général Pierre

● Documents fo

— M. Mohamme
étudiant algérien
en annexe au mé
FLN, Paris VIII

— M. Mohamm
générale annuell
étudiants d'Alger
reproduits en ann
communiquée pa

B) *Publiques :*

● Documents d
moderne (CHEA
J. Pierson : «
23.12.1941.

« Les étudian

. Commandan
nationalisme mu

● Documents
à l'Ecole Nation

● Archives de
Inventoriées ma
A S S 857 — 3,

● Archives d'C
partie de l'ense

— Bulletin de
Série H : Af
algériens. 14 H
Voir aussi Oran
D'autres fonds
Nationale, etc.)

# الفهرس

## القسم الثالث

## إيديولوجية الطلبة المسلمين

## من 1908 إلى 1962

طبع هذا الكتاب في اكتوبر 2007
**بمطابع دار القصبة للنشر**
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

## غي برفيليي

# النخبة الجزائرية الفرانكوفونية

«تتدرج هذه الدراسة المنجزةُ من طرف السيد Pervillé Guy في منظور مراجعة فترة تاريخية تغلب عليها الاعتبارات الإيديولوجية: وهذا ما يدعو إلى تقدير أهميةِ البحث الوافي الذي أنجزه الباحث بواسطة التقصي الميداني لاستحضار الظاهرة الاجتماعية وإبراز أوجهها العديدة بعد أن أطلعنا على مصادر معلوماته ونبّهنا، بكل تواضع، إلى أنّه لم يُحط بالموضوع من شتى جوانبه.

إنّ الظرفية الاجتماعية والسياسة التي برزت فيها النُّخبة المثقفة الجديدة، في غياب مجتمع مدني متطور، تُنير أمامنا سُبلَ إدراك الحقائق لاعتبارات عديدة: فانفصالُ تلك النُّخبة عن الجماعة التي أنجبتها لم يسمح لها بتشكيل قوة خاصة بها بل فرض عليها الانضواء ضمن مجموعة من الحركات الثقافية والسياسية التي لم تكن تعكس الواقع الاجتماعي الحقيقي لتلك النخبة بالرغم من أنّها أتاحت فرصةً فذّةً لخوض تجربة ثورية شعبية.

بوسعنا أيضا إكمال المونوغرافيا التي صاغها المؤلف وذلك بالعمل على تقييم سُلّم العلاقات التي ربطت بين المعّربين والمفرنسين وما تضمنته من امتدادات سياسية: ويتجلى ذلك التباين اللغوي، أيضا، على الصعيد العقائدي والأخلاقي والفكري: ففيه يتبلورُ التأثيرُ الحاسم على الثقافة السياسية وعلى اتجاهات الرأي المتشبّع إما بالتقاليد الإسلامية أو بالتصورات المثالية للدولة - الأمة. وفي ميدان الواقع تفعل الانتماءاتُ الإيديولوجية والمصالحُ الاجتماعية فعلها في تغيير الفواصل بين الطرفين: والحال أنّ الحدود اللغوية تظلُّ، على الدوام، حاضرة وفعّالة لأنها بمثابة حاجز يحول دون تصدُّع الكتلتين الثقافيين ويمنع انصهارهما في مجموعة أشمل لا يمكن أن تكون لغتها غيرُ اللغة العربية».

محمد حربي



دار القصبة للنشر

ردمك: 7- 697- 64- 9961- 978

